

# مقالات الشيخ رشيد رضا السياسية

إعداد وتحقيق

الدكتور يوسف حسين إيش    الدكتور يوسف قزماخوري

الجزء الثاني



# مقالات الشيخ رشيد رضا السياسية

إعداد وتحقيق

الدكتور يوسف حسين إيش    الدكتور يوسف قزماخوري

الجزء الثاني



الطبعة الاولى ١٩٩٤  
جميع الحقوق محفوظة للناسر

دار ابن عزمي

ص.ب : ٩٤٩٤ / ١١  
بيروت - لبنان

## المحتويات

- ٦٨ - الأمة العثمانية والدستور ..... ٤٩٠
- ٦٩ - احتفال الأرمن بذكرى شهداء الحرية العثمانيين ..... ٤٩٦
- ٧٠ - الخطبة الأولى من خطبنا الإسلامية في الديار السورية ..... ٥٠١
- ٧١ - الخطبة الثانية من خطبنا في الديار السورية ..... ٥١٣
- ٧٢ - افتتاح مجلس المبعوثان:
- ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به ..... ٥٢٠
- ٧٣ - خطب ودروس صاحب المنار في الديار الشامية ..... ٥٣٥
- ٧٤ - فاتحة السنة الثانية عشرة
- [المنار والدولة العثمانية] ..... ٥٤٢
- ٧٥ - تنبيه الجرائد السورية إلى الاعتبار
- بتاريخ الجرائد المصرية ..... ٥٥٥
- ٧٦ - خطبة على أعضاء المجلس العمومي ببيروت ..... ٥٦٥
- ٧٧ - الحرية واستقلال الفكر ..... ٥٧١
- ٧٨ - نصيحة لمسلمي بيروت عامة
- وفتيانهم الشجعان خاصة ..... ٥٧٧
- ٧٩ - الدستور وجمعية الاتحاد والترقي وسائر الجمعيات ..... ٥٨٣
- ٨٠ - إحدى كبر وكبرى العبر
- [خلع السلطان عبد الحميد الثاني] ..... ٥٩٣
- ٨١ - رد المنار على جرائد الهند
- حول خلع السلطان عبد الحميد ..... ٦٠٨



- ٨٢ - الجنسيات العثمانية واللغتان العربية والتركية ..... ٦٢٠
- ٨٣ - اعتبار المصلحين بهذا البلاغ الميين  
[حول الحكومة الدستورية] ..... ٦٢٩
- ٨٤ - العرب والترك [التأليف بين العنصرين] ..... ٦٣٣
- ٨٥ - العرب والترك [حسن التفاهم بين  
عنصري قوام الدولة العثمانية] ..... ٦٧٥
- ٨٦ - اليمن ودماء العثمانيين المهذورة فيه ..... ٦٨٠
- ٨٧ - قوة الاجتماع والتعاون ..... ٦٨٦
- ٨٨ - كيف تنال الأمة حقوقها ..... ٦٨٩
- ٨٩ - النهضة المصرية والدستور ..... ٦٩٦
- ٩٠ - ايقاظ الفتن في البلاد العثمانية ..... ٧٠٠
- ٩١ - ذكرى [الوفاق الايجابي] للسوريين عامة وأهل بيروت خاصة ..... ٧٠٦
- ٩٢ - التعاون والتخاذل ..... ٧١١
- ٩٣ - البهتان العظيم [الدعوة إلى الوفاق  
والاتحاد وجريدة «حضارة»] ..... ٧١٥
- ٩٤ - التربية القومية والسياسة الحكيمة ..... ٧٢٠
- ٩٥ - الحق للقوة والقوة بالحق ..... ٧٢٧
- ٩٦ - الفسق العلني والدستور ..... ٧٣٢
- ٩٧ - أمير مكة المكرمة الشريف حسين -  
سعيه المشكور في نجد ..... ٧٣٥
- ٩٨ - العرب والترك [العرب مخلصون للدولة العثمانية] ..... ٧٣٩
- ٩٩ - الماسون في الدولة العثمانية ..... ٧٤٢
- ١٠٠ - اليهود في المملكة العثمانية ..... ٧٤٣
- ١٠١ - الرابطتان الإسلامية والوطنية  
وجماعة الدعوة والإرشاد ..... ٧٤٤

- ١٠٢ - أمير لا لأي صادق بك وجمعية الاتحاد والترقي ..... ٧٤٩
- ١٠٣ - مقدمة مقالات «المسلمون والقبط» ..... ٧٦٠
- ١٠٤ - العالم الإسلامي والاستعمار الأوروبي ..... ٧٦٦
- ١٠٥ - احتلال فرنسا لمملكة المغرب الأقصى ..... ٧٨٦
- ١٠٦ - أرباب الأقلام في بلاد الشام
- و«مشروع الأصفر» ..... ٧٨٨
- ١٠٧ - مسألة اليمن واتفاق الحكومة مع الإمام ..... ٧٩٣
- ١٠٨ - المسألة الشرقية واعتداء إيطاليا على طرابلس الغرب ..... ٧٩٦
- ١٠٩ - الخطر الأكبر على بلاد العرب والرأي في تلافيه ..... ٨٧٩
- ١١٠ - الجامعتان الإسلامية والعثمانية ..... ٨٨١
- ١١١ - الدولة العثمانية ..... ٩٠٤
- ١١٢ - المسألة العربية عند الاتحاديين ..... ٩١٢
- ١١٣ - محاورة بين عالم سياسي وتاجر ذكي
- [في المركزية واللامركزية] ..... ٩١٨
- ١١٤ - المؤتمر العربي ببافيا
- وحزب اللامركزية بمصر ..... ٩٣٠
- ١١٥ - تفريط الاتحاديين بحقوق الدولة ..... ٩٣٦
- ١١٦ - نظرة في الحرمين الشريفين
- ومشروع جماعة خدام الكعبة ..... ٩٤٠
- ١١٧ - قتل محمود شوكت باشا ..... ٩٤٦
- ١١٨ - الإصلاح والاتفاق بين الاتحاديين والعرب ..... ٩٥٠
- ١١٩ - الشيخ علي يوسف ..... ٩٥٩
- ١٢٠ - الإصلاح اللامركزي وطلابه في البلاد العربية ..... ٩٦٨
- ١٢١ - أفضل الوسائل لإنهاض السلطنة ..... ٩٧٦
- ١٢٢ - المسألتان الشرقية والصهيونية ..... ٩٧٧

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٥٣٩ - ٥٤٤]

إذا كان المنار لا يسع عُشر معشار ما نعلم من أسباب هذا الانقلاب الذي حدث في بلادنا ومقدماته ونتائجه وما نراه في أمر استفادة الشعوب العثمانية من الحرية والدستور، فذلك لا يصدف بنا عن نشر بعض الآراء والأخبار التي تذكر الكاتيين في الصحف اليومية والأسبوعية ببعض ما ربما يذهلون عنه، وتنبه القارئ إلى ما ينفع التنبيه له، وإنني أشير الآن إلى ثلاث مسائل هي أركان العبرة في هذا الباب:

١ - أول شيء يجب على المنار التنبيه إليه والتنويه به هو ما يؤيد خطته في إقناع المسلمين بوجوب حسن المعاملة بينهم وبين من يعيش معهم من غير أهل دينهم وتعاون الجميع على ما يرقى البلاد ويرفع شأن الدولة، وفي رد طعن الطاعنين في الإسلام، بأنه دين تعصب وعدوان، وفي المسلمين بأنهم لا يلتئمون مع أحد ممن لا يدين بدينهم، لا سيما الذين يزعمون أن العلماء المعممين، هم الذين يثبون الشقاق بين العالمين.

أؤيد هذه الخطة من الجهة الإيجابية والجهة السلبية بما ظهر للعالم أجمع من أن عقلاء المسلمين هم الذين قاموا بهذا العمل الجليل للاتحاد والمساواة بينهم وبين غيرهم، وأن شيخ الإسلام قد كان وما زال ركنهم الذي يلجؤون إليه، وقطبهم الذي يدورون حواليه.

إن أحرار المسلمين هم الذين بدءوا بدعوة الأحرار العثمانيين من النصارى واليهود في مصر وأوروبا وفي الولايات العثمانية إلى مشاركتهم في جهادهم، وهم الذين أعلنوا هذا الجهاد ووطنوا أنفسهم على قتال إخوانهم

من الجند إذا هم حاولوا تأييد السلطة المستبدة، ثم إنهم بعد الظفر بالدستور قد كانوا هم السابقين إلى مصافحة الأرمن والروم وغيرهم من الشعوب الموافقين لهم في العثمانية المخالفين في الاعتقاد، وهم الذين رفعوا أصواتهم في كل مكان بأننا لا نجعل الدين مفرقاً بيننا وبين إخواننا العثمانيين بل نكون معهم كما أمرنا الإسلام بالقول المشهور فيه «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، بل منهم من بالغ في قوله وغلا في رأيه فاستحسنوا التنازل عن بعض حقوقنا، إرضاءً لعاطفة بعض شعوبنا، كالذين يرون أن يجعل جامع أيا صوفياً مجلساً للمبعوثين، ويخرج عن كونه مسجداً للمسلمين، وهم من الترك الذين يذكرهم هذا الجامع بذلك الفتح المبين.

هذا ما فعله مسلمو العثمانيين من البدء في الدعوة إلى الاتفاق والعمل بها في كثير من البلاد، وهذا ما ينبغي أن يفعله الباقون. فإن المسلمين هم العنصر الأكبر والأقوى فإذا هو علم أن الخير في الوفاق وعمل بذلك تبعه غيره بالضرورة ولو قام أحد الشعوب القليلة الضعيفة يدعو الشعب الكثير القوي إلى المساواة وهو غير مقتنع بها لما كانت دعوته مجابة ولا مقبولة.

فأدعو المسلمين في جميع البلاد العثمانية إلى أن يكونوا هم البادئين ببر غيرهم والاتفاق معهم واشتراك الجميع في الأعمال التي توثق الرابطة العثمانية وتعمر بها البلاد التي يتمتع بعمرانها الجميع، بهذا تتكون الأمة العثمانية، وتعتز الدولة العلية، وبهذا يقطع المسلمون ألسنة القادحين فيهم من الأوروبيين، ويكونون مهتدين في ذلك بهدي الدين المبين.

أدعو إلى هذا مذكراً بالاعتدال فيه، لئلا يفضي الغلو فيه إلى ضد ما يراد به، بأن يعتقد الجمهور أن كرتهم بالدستور خاسرة، أو أنهم يعمرّون الدنيا بخراب الآخرة، فيحملهم ذلك على الشنآن، أو يدفعهم إلى العدوان، فعلى المرشد أن يكون حكيماً في نصحه، مراعيّاً لاستعداد الأكثرين في هديه.

وأذكر الجميع بأن الطفرة محال، وأن ما يحصل بالتدريج يكون أولى بالبقاء والثبات، فإذا ترك أحد الفريقين للآخر ما كان يراه حقاً له، فلا يستعجل عليه بطلب سائر ما يراه من الحقوق لنفسه، حتى التقاليد القديمة، والعادات الراسخة، فإن المصلح في القوم ليدعو أبناء جنسه ودينه ووطنه إلى ترك بدعة من البدع أو ضلالة من الضلالات، ويقيم على دعوته الحجج القيمة والآيات البينات، ثم لا يستجيب له قومه إلا بالتدريج، وأرى أن من الحكمة في تلافي الشذوذ والتقصير، أن يبادر العقلاء والصحافيون من كل أهل دين إلى انتقاد أهل دينهم ولو بالعنف، والسكوت عن غيرهم أو الاعتذار عنهم ولو بالتأويل، هذا إذا كان الشذوذ صريحاً في مناوأة أحد الفريقين الآخر، وإلا اتفق الجميع على انتقاد المسيء من حيث أنه مسيء، من غير ذكر لدينه ومذهبه، ولا اتهام قومه بمشايعتهم له.

٢ - انتقل بالقارئ من المسألة الدينية، إلى المسألة الجنسية، فقد كان التعصب للجنس أشد خطراً على الدولة من التعصب للدين، فإن الشقاق الديني إذا كان يقصد جسم الأمة فيجعله نصفين، فإن الشقاق الجنسي يمزقه فيجعله أجزاء كثيرة ويصيب شره الجميع، فالمسلم التركي، يعادي المسلم العربي، والنصراني اليوناني، يعادي النصراني البلغاري، وعلى ذلك فقس.

لو بدأ بالدعوة إلى ترك العصبية الجنسية العربي أو الكردي أو الألباني أو الأرمني أو الرومي أو البلغاري لما سمعت للباديء من هؤلاء دعوة ولما كان لها من الوقع والتأثير عشر معشار ما كان لمجاهرة التركي بها، لأن الترك هم أصحاب السلطة في الدولة، فهم من هذه الجهة كالمسلمين من سائر الملل فلما قال أحرارهم هلموا أيها العثمانيون نترك التعصب للجنس ونشترك بلقب واحد لا يقصد به امتياز جنس على آخر لبّاهم الجميع حامدين شاكرين. فوجب أن نخص الجنس التركي بالثناء الحسن قبل أن نتناسى أو ننسى أننا أجناس مختلفة. ولا بدع في جهر الترك بذلك فإنهم كما

صرحنا منذ بضع سنين أرقى العثمانيين تربية وتعليماً، وأعلاهم أدباً وتهذيباً.

٣ - بعد ذكر مسألتي الدين والجنس أذكر شيئاً من عمل الجمعية التي تلافت ضررها وسعت مع غيرها لخير العثمانيين كافة. ينضم العثمانيون الأحرار إلى هذه الجمعية، جمعية الاتحاد والترقي، ويعمل الجميع لحفظ الدستور الذي نالوه بعد السعي الحثيث إليه حتى اندمجت الجمعيات فيها أو كادت، وتداجت معها كما أرادت، وأن هؤلاء الأحرار المتحدّين في هذه الجمعية هم الذين يديرون نظام المملكة الآن، وقد ظهر من كفاءتهم واعتدالهم ما جعلهم موضع إعجاب الأمم والدول الأوروبية كما تنطق جرائدها بلغاتها المختلفة. وقد مرّ على إعلان الدستور شهر أو أكثر ولم يبلغنا أن أحداً انتقد على الجمعية عملاً من الأعمال أو أدباً من الآداب على أن أوروبا تراقبها مراقبة الناقد البصير الذي لا يحابي ولا يدهن حتى قلنا إن «مجلس المبعوثين» لا يرجى أن يكون خيراً منها في الإدارة والإصلاح، ولا أقرب إلى العدل والإنصاف.

ينحصر عمل الجمعية الآن في ثلاثة مقاصد: ١ - تطهير الدولة ملكيتها وعسكريتها من المفسدين الذين ناط بهم الاستبداد السابق أمورها. ٢ - تقوية استعداد الأمة للحكم الدستوري. ٣ - تحسين الصلات بين الدولة العلية، وبين جميع الدول الأوروبية، لا سيما ذوات السبق إلى الحرية كإنكلترا وفرنسا.

أما تطهير الحكومة من رجس أعمال الاستبداد السابق، فالمبادرة إليه من أهم الضروريات قبل أن يجتمع مجلس المبعوثين وتلقي إليه الجمعية مقاليد السيطرة والمراقبة، فإنه ليعجز أن يعمل في عدة سنين ما تعمله هي في هذه الأشهر التي تتقدم اجتماعه كما يظهر لنا من الطريق السوي الذي سارت عليه في ذلك. فقد بدأت بتطهير المابين والباب العالي ونظارة الحرية وأكثر الولايات في وقت واحد. فأخرجت من المابين رؤساء الفتنة والفساد



وعزلت السر عسكر رضا باشا وناظر الداخلية ممدوح باشا وسجنتهما مع تحسين باشا رئيس كتاب السلطان والشيخ أبي الهدى [الصيادي] أحد مستشاريه وفر من رؤساء المابين عزت باشا [العابد] ونجيب باشا ملحمه وسليم باشا ملحمه إلى أوروبا. وأخرجت من المابين أكثر الحجاب والكتاب والخدم وممثلي الروايات وأجواق الموسيقىات من النساء وحددت نفقات السلطان وراتبه الشهري ونفقات قصره وجعلت جميع بطانته من الأحرار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي قال الأمر إلى أن وضع هو على صدره شارة الجمعية وقال إنه رئيسها.

وكثر العزل والنقل في المعسكرات وهذا ضروري جداً لتكون الجمعية واثقة من القوة التي هي سياج الدستور وعماد الأمن. وكذا في الدوائر الملكية. ولما رأى كثير من الخائنين أن إخوانهم في الفساد والتخريب يعزلون، بادروا إلى الاستقالة فكثرت بذلك الأعمال التي ليس لها الآن عمال، واختيار الأبدال عسر جداً مع تحري الأكفاء أصحاب النزاهة، فلذلك نرى أنه يجب على الجمعية أن تقبل من عمال الاستبداد من لم يعرف بالتجسس ولا بالرشوة، وإن كان ممن جروا على مصانعة القوة، وأن تجري في ذلك على سنة التدريب فإن في العجلة مفسد كثيرة.

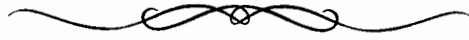
وأما تقوية استعداد الأمة للحكم الدستوري ومقت الاستبداد، فقد سارت الجمعية فيها على الطريقة المثلى بتأسيس شعب لها في كل مدينة يرتبطون باللجان العليا في الآستانة وسلافيك وأوروبا، وبحمل الشعب على المظاهرات وتجريته على الخطب الحماسية في تقييح الحكومة السابقة حتى أفرط بعض الناس في ذلك إفراطاً لا تحمد عاقبته.

ثم إننا نرى بعين البصيرة ونسمع من أخبار البلاد أن كثيراً من المنافقين أعوان الاستبداد السابق ومحبيه يتهافتون على الدخول في شعب الجمعية تعزراً بالقوة واكتساباً من السلطة، لا حباً في الدستور وحرصاً على الحرية، ولكن قلما يرتقي هؤلاء بأنفسهم إلى أن يكونوا أعضاء عاملين في الجمعية،

كما صار يدعي كل من كان يطعن في الدولة أنه من الأحرار طلاب الدستور. ونرجو أن يوفق الأعضاء الصادقون إلى تحييص شوائب هؤلاء الأوشاب أو إلى محققهم وتزكية الجمعية من نفاقهم.

هذا، وإن في البلاد نوعاً من جرائم الفساد لم يبلغنا أن الجمعية قررت إزالته على شدة خطره على الحرية. ألا وهو عصابات الفساد من أشقياء الأهالي الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ويأوون إلى بعض الوجهاء فينقذونهم من الحكم بالرشوة حتى بلغ من استهانتهم بالحكومة في بعض البلاد أن زالت هيبتها من قلوبهم وصاروا يأتون المنكرات على مرأى من شرطتها وهم آمنون مطمئنون، فيجب على الجمعية أن ترشد الحكم الأحرار الذين تقيمهم الآن إلى تعقب هؤلاء الأَشقياء وتربيتهم بالشدة التي لا يطمعون معها في عودتهم إلى مثل ما كانوا عليه في أيام الحكومة السابقة، وإلا كانت فائدة الحرية للأشرار وغائلتها على الأبرار.

وأما المقصد الثالث من مقاصد الجمعية وهو مادة الدول الأوروبية، فقد كانت فيه أحزم وأحكم منها في سائر أعمالها الحسنة، ولا نرى فيه شائبة نذكر بها إلا الاحتراس من جفوة ألمانيا والنمسا، والله فنسأله حسن الختام.





## احتفال الأرمن بذكرى شهداء الحرية العثمانيين

[خطبة صاحب المنار بكنيسة الأرمن]

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٦٣٠ - ٦٣٣]

في اليوم الثالث من هذا الشهر احتفلت طائفة الأرمن في كنيستها بالقاهرة بإحياء ذكرى شهداء الحرية من جميع العثمانيين. فحضر الاحتفال خلق كثير من العثمانيين المقيمين بمصر ومن المصريين حتى اكتظت بهم الكنيسة على سعتها وبقي جمهور عظيم في رحبتها. وقد أقيم أمام محراب الكنيسة، المذبح، دكة كبيرة على جانبيها راياتان سوداوان بينهما راية بيضاء كتب عليها «إكرام شهداء الحرية العثمانيين» ووضع عليها مقاعد للقسيسين والخطباء، ووقف من دونها جوقة من بنات المدرسة الأرمنية كنّ يلقين بين كل خطبة وأخرى نشيداً مؤثراً وضع لهذا الغرض.

افتتح الحفلة عظيم القوم وأسقفهم وتلته فتاة أرمنية بخطبة أحسنت إلقاءها فحسن وقعها وخطب بعض فضلاء الأرمن بالأرمنية وبعضهم بالتركية فأحسنوا وأجادوا وصفق لهم القوم تصفيقاً. وخطب الدكتور شرف الدين بك أحد مسلمي الترك الأحرار وهو من أفضل من عرفنا أخلاقاً وآداباً فذكر ما كان بين المسلمين والأرمن من المودة قبل حوادث الأرمن المشؤمة المعروفة حتى كان مما قاله إن المسلم كان يدعى إلى الخدمة العسكرية فيذهب إليها تاركاً إمرأته وأولاده وأملاكه إلى جاره الأرمني يتعهدا في غيبته بما يجب كما كان الأرمني يفعل مثل ذلك إذا احتاج إلى مغادرة مكانه لأمر ما. ثم ألمّ بذكر ما جرّ إليه الاستبداد من تلك الحوادث

المشؤمة واستطرد منها إلى ذكر الإصلاح الذي نشده الأحرار فأصابوه .  
وقال إن المسلمين من الترك وسائر العثمانيين ليسوا متعصبين كما يصورهم  
بعض الناس فإن أول حركة أتوا بها بعد أن نالوا الحرية في عاصمتهم هي  
زيارتهم لأضرحة الذين قضوا ضحية للظالمين .

وبعد أن أتمَّ خطابه التفت إلى أسقف الأرمن ومن بجانبه من  
القسيسين فعانقهم واحداً بعد واحد فصفقت الجماهير لهذا المنظر أضعاف  
تصفيقهم الكثير للخطيب .

ثم خطب الدكتور برتوكاليس بك الرومي العثماني باللغة الفرنسية  
فالدكتور فارس أفندي نمر بالعربية فأحسننا وأجادا وكان كل أولئك الخطباء  
قد عهد إليهم بالخطابة وكتبت أسماؤهم في البرنامج المطبوع في بيان ترتيب  
الاحتفال

كادوا ينجثمون الاحتفال بعد خطاب فارس أفندي نمر لولا أن اقترح  
بعض المصريين الحاضرين على صاحب هذه المجلة الصعود إلى الدكة  
والقاء شيء مما يفتح عليه به . وقد تمنعت معتذراً بأن الاحتفالات المنتظمة  
التي يعين فيها عدد الخطباء وموعد الإلتقاء لا يحسن أن يتطفل عليها ،  
ففطن لذلك بعض العثمانيين من الأرمن وغيرهم فاختطفوني من مجلسي  
وأصعدوني إلى دكة الخطابة فتلقاني الأسقف والقسوس بالحفاوة وبعد  
العناق التفت إلى الجمهور إجابة لما اقترحه المقترحون وقلت والتصفيق  
والهتاف يكاد يبلغ عنان السماء ما خلاصته :

«قد رأيتم أيها السادة أنني اختطفتم من مكاني إلى هذا الموقف الذي أثار  
في وجداني تأثيراً لم يدع لتصور الكلام وتديره مجالاً فمهما سمعتم مني فأنا  
معذور بالتقصير فيه .

قد رأيتم انني عانقت هؤلاء الأحرار والقسيسين وأنا رجل من رجال  
الدين الإسلامي ولا بدع في ذلك فإن شيخنا الأكبر شيخ الإسلام قد

سبقني إلى ذلك فعانق البطريرك في دار السلطنة . وإن القانون الأساسي الذي نلنا به هذه المساواة التي نحتفل بها لم ننله إلا بمساعدة شيخ الإسلام الحالي . فقد روى لنا أن السلطان كان يريد قمع الحركة العسكرية الطلابية للدستور بالقوة فاستفتى شيخ الإسلام في ذلك فلم يفته بل قال إن قتالهم غير جائز شرعاً لأنهم يطلبون طلباً شرعياً . وقد كان أحد مشايخ الإسلام من واضعي هذا القانون مع مدحت باشا وإخوانه فهذا القانون قد وضع بفتوى من أحد شيوخ الإسلام وأعيد الآن بمساعدة شيخ الإسلام فهو موافق للإسلام .

لا أقول هذا تقليداً للشيخين فإنني أقول ما أقول في الإسلام عن علم وبصيرة ويعلم كثير من الأرمن الحاضرين أنني من مؤسسي إحدى جمعيات الأحرار التي سبقت غيرها إلى التأليف بين جميع العثمانيين بالفعل قبل أن تفكر في ذلك جمعياتنا في أوروبا ، بل إن هذا الفقير هو رئيس اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية التي من بعض أعضاء إدارتها أحد خطباء الأرمن النجباء في هذا الاحتفال .

وإنما احتججت بشيخ الإسلام السابق وشيخ الإسلام الحالي تنوياً بفضلهما وإقامة للحجة على من يزعمون أن المسلمين متعصبون أو أن دينهم ينافي الحرية والمساواة ، وعلى بعض الجاهلين من المسلمين الذين يظنون أنهم بالتعصب الذميمة يخدمون الدين وإنما يجنون عليه بذلك .

ثم انتقلت إلى الكلام عن المساواة التي ابتهج بها العثمانيون كافة وبينت أنها مما جاء به الإسلام ثم قلت :

«يقولون إن فرنسا هي أم الحرية والمساواة . نعم ، ولا ينكر فضل فرنسا أحد ولكن العثمانيين أجدر من الفرنسيين بالفخر بالمساواة . إن فرنسا أمة واحدة ، جنسها واحد ، مذهبها واحد ، لغتها واحدة ، تربيتها واحدة ، فأى غرابة في طلب عقلائها وفضلائها المساواة بين أفرادها بعد أن عرفوا ما لهم

على حكومتهم وما عليهم لها بل ما ينبغي أن تكون عليه وهم متفقون في هذه الوحدات كلها؟ لا غرابة ولا عجب.

أما نحن العثمانيين، فإننا قد جمعنا من أشتات الأجناس المتفرقين في كل شيء ما لم يجتمع في مملكة أخرى. نحن متفرون في الأجناس والأنساب، متفرون في اللغات، متفرون في الدين، متفرون في المذاهب، متفرون في طرق التربية والتعليم، أو نقول في الجملة إننا متفرون في كل شيء يتفرق فيه الناس. فإن كنا على هذا كله نطلب المساواة ونحتفل بنيلها في المعاهد العامة والمعابد الدينية، فلا شك أن في هذا مجالاً للفخر وموضعاً للعجب.

وقد يتساءل عن سبب ذلك ويظن أنه مخالف لقوانين الاجتماع الإنساني لا سيما بعد أن برّح الاستبداد بنا تبريحاً زاد في مسافات الخلف بين الطوائف والملل اتساعاً وملأ القلوب إحنة وبغضاء.

ولكن المتأمل في ذلك يرى له سبباً طبيعياً ظاهراً وهو ذلك الاستبداد الذي زاد في التفريق والتمزيق، ذلك الاستبداد نفسه هو الذي مزقنا أولاً ثم جمعنا ثانياً.

كيف كان هذا؟ إنما كان بالمساواة في الظلم وتعميم الاستبداد فلولا أن الاستبداد كان عاماً واقعاً على جميع العثمانيين بالمساواة في الجملة لما كان الاندفاع إلى طلب المساواة بالدستور عاماً.

كان ظلم الاستبداد واقعاً على رأس المسلم والنصراني وغيرهما، كان عاماً شاملاً للتركي والعربي، والأرمني والكردي، والألباني والرومي، فهذه المساواة هي التي جمعت كلمة الأحرار العقلاء من جميع هذه الطوائف على تمني المساواة في العدل الذي قرره الدستور، وهو الذي نهض بهمة العاملين من هؤلاء الأحرار إلى طلب ذلك بكل وسيلة ممكنة، وهو الذي هز أريجاً جميع العثمانيين للاحتفال بالدستور بعد الظفر به بسعي جماعاتهم وقوة



ضباطهم وجيشهم . فإذا كانت المساواة في الشر قد أدت إلى هذا الخير فما أعظم فائدة المساواة وما أعم بركتها، فحيا الله المساواة .

فنحن العثمانيين جديرون بالفخر بالدستور إذ غلبنا الأهواء والموانع الناشئة من اختلافنا حتى نلناه، جديرون بالاتفاق على الاحتفال به وإقامة الأعياد العامة له، جديرون بالمحافظة عليه، جديرون بالتنويه بالأحرار الذين نجحوا في نيله، وبالدعاء والذكر الحسن لمن مات منهم شهيداً في سبيله» .

ثم اعتذرت عن الإطالة بذهاب الوقت المعين وبما ألم بالحاضرين من الجوع والسآمة . وقد كان لكلام هذا العاجز من حسن الوقع والتأثير فوق ما يستحقه . دل على ذلك ما ظهر على وجوه الحاضرين ولما كان من شدة التصفيق وتكرره، ثم التهاني التي سمعتها في الكنيسة وبعد الخروج منها، في ذلك اليوم وبعده بأيام، وكان أكثر المهنيين تلطفاً في التهئة وإطراء في الثناء أولئك الخطباء البلغاء الذين سبقوني بخطبهم المفيدة كالدكاترة شرف الدين بك وبرتوكاليس بك وفارس أفندي غمر حتى قال هذا الأخير إن تأثير هذه الوقفة أعظم من تأثير المنار في عشر سنين أي فيما يتعلق بمشرب المنار في التساهل والدعوة الى الوفاق والوداد بين المسلمين وغيرهم . ومن كرر لنا بذلك الدكتور نجم الدين بك عارف من فضلاء الترك المقيمين بمصر والعارفين بالعربية وجمهور أحرار الأرمن بل كان ابتهاج هؤلاء عامماً، فنسأل الله تعالى أن يديم علينا معشر العثمانيين نعمة الوفاق والتوفيق لحفظ الدستور والاستفادة التامة منه .



## الخطبة الأولى

«من خطبنا الإسلامية في الديار السورية»

[المنارج ١١ (١٩٠٨) ص ٦٤١ - ٦٤٦ : وص ٧٣٧ - ٧٤٢]

ألقيناها على منبر جامع المجيدة في بيروت<sup>(١)</sup> بعد صلاة العصر وصلاة جنازة الغائب على المصلحين الكرام السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده المصري وعبد الرحمن افندي الكواكبي السوري وذلك في يوم الخميس ٢٨ من شهر شعبان هـ [٢٥ / ٩ / ١٩٠٨ م]. وقد لخص هذه الخطبة بعض من حضرها من الأدباء بما يأتي مع تصحيح وتوضيح :

«السلام عليكم ورحمة الله

الحمد لله، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد فإن الإسلام دين سهل. سائغ موافق للفطرة البشرية، قام به أهله عند ظهوره خير قيام، وليس لهم كتاب غير القرآن، ولم يكن القرآن في أول الأمر مصحفاً مجموعاً كما هو الآن، وإنما كتبت آياته على الجلود والعظام وسعف النخل، ثم جمعت في مصحف واحد بإجماع الصحابة، فالإسلام هو هذا الكتاب الحكيم، وما بينه من سنة النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» [سورة النحل رقم ١٦، الآية ٤٤].

(١) «سياحة صاحب المنار في سوريا». المنارج ١١ (١٩٠٩) ص ٧٠٦. ورحلات الامام محمد رشيد رضا. تحقيق يوسف إيبش. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧١. ص ٩.

إني سائلكم: أهذا هو الإسلام الذي غير وجه الأرض، ونقل البشر من طور إلى طور، نعم إنه هو، ولو أخذته اليوم طائفة من المسلمين بقوة كما أخذه الأولون لغيرت وجه البسيطة مرة ثانية كما غيره سلفها من قبل، ولست أعلم لماذا رغب المسلمون عن القرآن وذهبوا يؤلفون الكتب الكثيرة في الدين وقد رأينا أن الاشتغال بهذه الكتب مع الإعراض عن القرآن ما زاد الإسلام إلا ضعفاً، والمسلمين إلا خسفاً.

أنزل الله دينه على نبيه (ص) فعمل به أولئك الأميون من عرب الجاهلية وهم على ما تعلمون من التفرق والتعادي والفساد، فعلمهم الإسلام وهذبهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» [سورة الجمعة رقم ٦٢، الآية ٢].

من المعلوم في طبائع البشر أنه لا يتربى ويتزكى بعد الكبر إلا أفراد قلائل من أصحاب الاستعداد العالي، لأن الأخلاق متى رسخت في النفس قلما تتغير ولكن أولئك الصحابة الذين غيروا وجه الأرض قد تربوا بعد الكبر تلك التربية التي كانوا بها أئمة وكانوا هم الوارثين.

نشأوا يعبدون الأصنام، ويثدنون البنات، ويستحلون السلب والنهب، إلا أنه كان فيهم استعداد لهذا الإصلاح الذي ساقه الله إليهم، كان فيهم ذكاء عقل واستقلال فكر وقوة إرادة، فلما فهموا الإسلام قبلوه وأيدوه ونصروه، وحملوه إلى غيرهم ونشروه.

إن الإسلام دين عام لجميع البشر، ليس خاصاً بمن ظهر فيهم أولاً من العرب، ولكن لماذا ظهر هذا الدين الحكيم في تلك الأمة الجاهلية، ولم يكن بدء ظهوره في أمة من أمم المدنية كالمصريين والروم، واليونانيين والفرس؟ السبب في ذلك عظيم جداً يتعلق بالاستعداد وهو ما كانت عليه العرب من سذاجة الفطرة واستقلال الفكر والإرادة.

كانت الأديان والحكومات بما طرأ عليها من الفساد قبل الإسلام قد أضعفت استعداد تلك الأمم بما طبعتهم على التقليد والخضوع والخنوع لرؤسائهم، والجمود على تقاليدهم وعاداتهم، فإذا دعي أحدهم إلى إصلاح جديد قال من فوره: إن هذا يخالف ما وجدنا عليه آباءنا فإن لم يمنع من الإستجابة التقليد لسلفه في الدين، منعه ما طبع عليه من العبودية لحكامه الظالمين، وأما العرب فلم يكن لهم من العلوم والمعارف الدينية وغير الدينية ما يحقر في أنفسهم ما يلقي إليهم من دين أو علم جديد، ولم يكن لهم من الحكام المستبدين من يفسد عليهم بأسهم، ويذهب بعزيمتهم، بل أعدهم لذلك بطبيعة البداوة وسذاجة الفطرة، فجعلهم من أهل الشجاعة التي هي مظهر استقلال الإرادة، والحرية التي هي مظهر استقلال الفكر، فكان فيهم كثيرون إذا دعوا إلى الحق والخير فقهوا الدعوة، وإذا اعتقدوا الشيء قاموا ودافعوا عنه بالقوة، لذلك أنزل الله عليهم كتابه، وبعث فيهم رسوله، فاستجاب له من سمع ووعى وقالوا إنا نمنعك (أي نحميك) مما نمنع منه أنفسنا وأهلنا، وقام الإسلام بهم خير قيام، حتى كان من أمره وأمرهم ما كان.

هذه مقدمة يمكنني أن أبين بعدها ما هي حقيقة الإسلام ليعلم غير العالم من الحاضرين ويتذكر أولو العلم منهم أن المسلمين يسهل عليهم اليوم أن يعرفوا دينهم ويهتدوا به من غير حاجة إلى مدارس تدرس فيها الكتب الكثيرة.

الإسلام أمر سهل جداً وهو عبارة عن الرجوع إلى الفطرة البشرية، وما هي الفطرة البشرية؟ هو ما انطوت عليه نفسك من الإذعان للسلطة الغيبية واختيار ما تعتقد أنه الخير والمصلحة قال تعالى: «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» [سورة الروم رقم ٣٠، الآية ٣٠] إلا أن الفطرة يعرض لها الفساد بالجهل وسوء القدوة فإذا ذكر صاحبها

بآيات الله فاهتدى بها رجعت إلى أصلها «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» [سورة التين رقم ٩٥، الآية ٤] فحصل مقصد الإسلام وحينئذ يجد المسلمون سعة في الوقت لتحصيل ما يحتاجون إليه من العلوم والفنون وما يترتب عليها من الأعمال والصناعات التي تقوى بها أمتهم وتعزّز دولتهم.

قلنا إن الاهتداء بالإسلام لا يتوقف على درس الكتب الكثيرة، والأعمال التي تستغرق الأوقات، وذلك أن الإسلام مبني على ثلاثة أسس: الأول، إصلاح العقل بالعقيدة المطهرة للجنان، المبنية على البرهان. الثاني - إصلاح النفس بتزكيتها وتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل. الثالث - إصلاح الأعمال من العبادات والحقوق التي يستقيم بها أمر الأفراد وترتقي الهيئة الاجتماعية.

الأساس الأول يبني عليه الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته ومعناها أنه سبحانه وتعالى هو المنفرد بالسلطة الغيبية العليا التي تلجأ إليها النفوس عند العجز عن الأسباب والسنن، فلا ينفع غيره ولا يضر سواه إلا ما يتعامل به الناس بالأسباب التي سخرها الله لهم بحكمته، وأقدرهم عليها بمشيئته، وأنه منزّه عما لا يليق به من صفات الحوادث وما يلُمّ بالبشر وغيرهم من النقص، وأنه هو المتفرد بشرع الدين والتحليل والتحريم. ويتلو ذلك تصديق الأنبياء فيما جاءوا به من الوحي والإيمان بعالم الغيب من الملائكة والجزاء على الأعمال التي تزكّي النفس فترفعها إلى عليين، أو تدسّيها فتلقيها في أسفل سافلين، فهذه العقيدة تصلح العقل بإطلاقه من العبودية لبعض البشر أو المظاهر الطبيعية وهي الوثنية التي أفسدت عقول الأولين، والخضوع الأعمى للرؤساء المسيطرين، وكل ذلك مبين في القرآن أكمل تبين، مؤيد بالدلائل والبراهين.

الأساس الثاني يبني عليه تزكية النفس من الأخلاق الذميمة، وتحليتها بالأخلاق الحسنة، وإذا تهذبت أخلاق الناس صلح أمرهم، واستقام نظامهم، وقد فصل لنا القرآن ما نحتاج إليه من ذلك تفصيلاً.

الأساس الثالث تبنى عليه العبادات والآداب العملية، وقد بين القرآن ذلك بالإجمال ووكّل بيانه بالتفصيل إلى النبي (ص) فكان يعلمه الناس بالعمل وعبر عن ذلك بقوله «صلوا كما رأيتموني أصلي» وكذلك كان الصحابة يعلمون من دخلوا في الإسلام على أيديهم فلم يقل أحد إنه كان لهم في الشام ومصر وفارس كتب يعلمون بها الناس دينهم عندما كانوا يدخلون في الإسلام. ولكن المسلمين دوّنوا عبادتهم في الكتب وأكثروا فيها من الأقسام والفروع والاصطلاحات حتى وصلنا إلى أزمنة صارت فيه هذه الكتب صعبة لا يتيسر للأكثرين درسها وتعلمها، فتركها السواد الأعظم وصارت دراستها محصورة في فئة تستفيد منها في دنياها كمريدي القضاء والفتيا والتدريس. على أنهم على طول مزاولتها لا يستغنون عن أخذها بالعمل فقد حدثني أحد كبار العلماء أنه قرأ كتاب الحج مراراً كثيرة ولما أراد أن يحج لم يستغن عن المطوفين الذين يعلمون العوام مناسكهم بالعمل. وتعلم العبادات بالعمل سهل جداً وما لا بد فيه من القول يمكن أن يقال في مجلس واحد، وقد كان النبي (ص) يعلم الأعرابي دينه في مجلس واحد، فإذا عاهده على العمل به رضي منه وقال «أفلح الأعرابي إن صدق».

التاريخ يخبرنا بأن الإسلام انتشر في مدة قليلة في ممالك كثيرة لسهولة، وأية سهولة على المرء أسهل عليه من مجارة فطرته وتقويم ما يعرض لها من العوج. فالإسلام يدعوكم إلى ما في فطرتكم من الميل إلى اختيار ما فيه الخير والمصلحة، ولذلك يرشدنا إلى التذكر في مواطن كثيرة من مواطن هدايته فيقول «لعلكم تذكرون» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ١٥٢: سورة الأعراف رقم ١٧، الآية ٥٧: سورة النحل رقم ١٦ الآية ٩: سورة النور ثم ٢٤، الآية ٢٧] «لقوم يتذكرون وما يتذكر إلّا من ينيب» [سورة غافر رقم ٤٠ الآية ١٣] وإنما يتذكر الإنسان ما كان يعلمه ثم نسيه أو غفل عنه، فكأنه يرشدنا بذلك إلى أن ما يدعونا إليه من الخير هو مما أودع في فطرتنا ثم غفلنا عنه بسوء القدوة



وفساد التربية، فدين الإسلام أسهل الأديان لا حرج فيه ولا مشقة «ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون» \* يريد الله لكم اليسر ولا يريد بكم العسر» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٨٥] فإذا كان على سهولته ويسره كافلاً لسعادة الدنيا والآخرة فأبي عذر لنا إذا أهملناه وتركنا هدايته؟ «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٣٠] يرضى بأن يكون كالدواب لا يهتمها إلا علفها أو كالكلاب العاقرة ينهش بعضها بعضاً.

ربما يعترض بعض الناس على ما أقول من أن تلقين الدين لا يشغلنا عن تعلم العلوم والفنون الدنيوية التي هي مبادئ الصناعات التي تعزبها الأمة وتقوى الدولة حتى تكون في مصاف الدولة الكبرى، لأنهم يزعمون أن الدين ينهانا عن ذلك ولو لم يوجد فينا أمثال هؤلاء لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من الضعف والانحطاط في الثروة والقوة.

نحن اليوم في حالة لا تخفى على أمثالكم. صرنا وراء جميع الأمم والذنب في ذلك علينا لا على الإسلام. فالإسلام لم يجن علينا وإنما نحن جنينا عليه وعلى أنفسنا إذ جعلنا بيننا وبين القرآن حجباً كثيفة فأعرضنا عنه وعن العلوم التي نحفظ بها بيضتنا.

كانت العلوم الرياضية والطبيعية عند ظهور الإسلام مندرسة ليس لها سوق نافقة عند أمة من الأمم فأحياها المسلمون عندما ظهر الإسلام ونفذت شوكته. ومن العجب أن الجامدين الذين يحرمونها اليوم يعترفون بأن أولئك الأساطين الذين درسوها من علمائنا هم خيرة علمائنا!

## تقمة الخطبة الأولى من خطبنا الاسلامية في الديار السورية

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٧٣٧ - ٧٤٢]

تابع لما نشر في (ص ٦٤١ ج ٩ م ١١)

- ٢ -

«الإسلام هو الذي هدى المسلمين إلى العلم، وكانت عنايتهم بالعلوم تنمو بنمو سلطانهم وقوة شوكتهم، ثم دالت دولة العلم، ودولة السيادة والحكم، وضعف الدين مع ضعف العلوم العقلية، وقام الاستبداد يحارب العلم ويضطهده، فإن الحاكم المستبد يرى من مصلحته أن تكون الأمة جاهلة ذليلة، إذ الاستبداد في الأمة العالمة بحقوقها أمر عسير غير يسير. فقال حكيمنا السيد جمال الدين [الافغاني]: العاقل لا يظلم ولا سيبا إذا كان أمة. فهذا سبب ما كنتم تقاسون من محاربة الحكومة التي سقطت منذ عهد قريب للعلم، واضطهادها للمهتمين به وهو عندها أشد الجرائم!

أتى على المسلمين حين من الدهر وهم لا يجارون أحداً من الأمم في العلوم والفنون، وقد ذاقوا مرارة ذلك ورأوا سوء عاقبته في أنفسهم ودولتهم، فصاروا يفتنون من كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون، كما قال الله تعالى في المنافقين. تنقص بلادهم من أطرافها وتسقط في أيدي الأجانب ولاية بعد ولاية بل مملكة بعد مملكة وهم لا يهتدون إلى سبب ذلك ولا إلى طريق تلافيه، بل يعتمدون ويتكلون على ما لا يتكل عليه من كرامات الأولياء ومدد الأموات! ولم يجعل الله ذلك سبباً للنصر بل أمر بإعداد ما يستطاع من القوة، حتى في زمن النبي المؤيد بالآيات الإلهية.

أذكر لكم من الشواهد على ذلك ما يؤثر عن أهل بخارى: فإنهم أنذروا هجمة روسيا عليهم فلم يعدوا لها ما يستطيعون من قوة، بل هزئوا

بذلك وسخروا، وقالوا إن بلادنا في حماية شاه نقشبند!، هو الولي الذي تعزى اليه الطريقة النقشبندية، فلما زحف عليهم جيش الروس لم يملكوا من نجدة هذا الولي لهم شيئاً، بل انقلبوا على أعقابهم خاسرين، وخسروا استقلالهم وما كانوا معتبرين.

فيا أيها الناس تأملوا وتدبروا، إذا تركت الأمة أن تعدّ لأعدائها ما تستطيع من قوة كما أمر الله تعالى وكما تقتضي طبيعة الاجتماع، واتكلت في حياتها السياسية والاجتماعية على الأموات ألا تكون جديرة بالموت دون الحياة؟ بلى، وهذه هي حالنا في هذه القرون الأخيرة، ولكن الله تعالى وعد بأن يظهر هذا الدين، وأن لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، ولذلك سخر لنا من المجددين من يعلمنا كيف نحفظ شرف الإسلام، ونكون أعزاء بين الأنام.

ظهر بين المسلمين أقوام تعلموا العلوم الأوروبية وعرفوا أحوال العالم فرأوا أن جميع الأمم والمسلمين يضعفون، ودول النصرانية والوثنية تترقى وتعز، ودول الإسلام تتدلى وتذل، وبحثوا في سبب ذلك فرأوا أن المسلمين مؤلفون من كل جنس، ومتبثون لكل أرض، فلا يمكن أن يكون سبب ضعفهم في كل قطر عدم استعداد جنسهم، ولا شيء يرجع إلى طبيعة أرضهم، ولم يروا سبباً مشتركاً بينهم لا يشاركهم فيه غيرهم، إلا تقاليد دينهم، فقالوا، كما قال أساتذتهم من الإفرنج، إن دين المسلمين هو سبب انحطاطهم ولا مطمع لهم في الارتقاء إلا بتركه والأخذ بما عليه أوربا! وعلى هذا الرأي الفاسد كثير من نابذة الترك والهنود والمصريين والتونسيين.

فهذا صنف واقف على طرف مقابل للطرف الذي عليه السواد الأعظم الذي يمقت العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية التي عليها مدار العمران، والصنفان يتجاذبان سائر المسلمين، ذاك يدعوهم إلى دنيا بغير دين، وذاك يمسخهم ليقوا على ما هم عليه وما هم بباقين.

بين هذين قامت طائفة معتدلة وقفت موقف الوسط بين الفريقين فالتفتت إلى هؤلاء الذين يريدون ان يبقى المسلمون على ما هم عليه حرصاً على دينهم وقالت لهم إن نيتكم صالحة ولكنكم تنكبتم الطريق لتعليم الدين وحفظه حتى صار بين أمتكم وبين الكتب الكلامية والفقهية مراحل كثيرة، فلا هم يطلبونها ولا أنتم قادرون على حملهم على تعلمها والأخذ بما فيها، فيجب أن تبحثوا معنا عن طريق آخر لتعليم الدين بسهولة تليق بفطرة الناس في أفرادهم وجمعياتهم، كما أخطأتم في ظنكم ان العلوم التي تبنى عليها الأعمال تنافي الدين فنفرتم المسلمين عما به قوام أمتهم ودولتهم .

والتفتت إلى أولئك الذين يريدون الدنيا بترك الدين فقالت لهم إن قصدكم إلى تقوية الأمة والدولة حسن ولكنكم تبنون من جهة وتهدمون من جهة فيقلّ نفعكم فيما تبنون لعدم الثقة بكم، ويعظم ضرركم بما تهدمون من أساس التقوى والفضيلة، مع التقاليد والبدع القبيحة.

هذه الطائفة هي التي تدعو إلى حقيقة الإسلام الذي يجمع لأهله بين مصالح الدنيا والآخرة ومطالب الروح والجسد . وأول من دعا إلى ذلك في بلادنا العربية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى . طرق سمع كثير منكم رسم هذا الرجل الذي هز الآفاق هزاً، ولكن يوجد فيكم من لا يعرف شيئاً من أنبائه الصحيحة لكثرة خوض أهل الأهواء فيها، وقد كان مخاطبكم ممن استقرأ أخباره، وتتبع آثاره، وجمع كثيراً مما كتبه، وقد علمت من ذلك أن دعا إلى حقيقة الإسلام وإحياء القرآن في قلوب الناس، ودعوتهم به إلى ما يحبيهم، ويجعلهم أمة عزيزة، ذات دولة أو دول قوية، ولكنه قد أنفق أكثر أيام عمره في السياسة، لما رأى ان الملوك يقاومون هذه الدعوة، لأن البلاد التي تحكم بالاستبداد، لا مقام فيها للإصلاح والاستقلال .

بالله عليكم كيف يرضى الحاكم المستبد بالدعوة إلى هداية القرآن الذي

يجعل أمر المسلمين شورى بينهم، وإنما استبداده عبارة عن جعل أمرهم بيده وحده، وجعلهم عبيداً خاضعين له؟ كيف يرضى بأن يكون شأنه في سياستهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان لا يبرم أمراً من الأمور العامة إلا بعد الشورى حتى أنه كان يعمل برأي الجمهور وإن خالف رأيه ورأي بعض كبراء أصحابه كما فعل يوم أحد؟ (وذكرنا ملخص الخبر فيها في الخطبة) إلا أن أولئك المستبدين يحاولون أن تكون رتبهم فوق رتبة النبي عليه الصلاة والسلام، وهم لا يصلحون أن يكونوا خدمة له، بل يحاولون أن يكونوا آلهة تعبد، يستخفون الأمة ويستعبدونها بالفعل، وإن وجدوا مجال القول ذا سعة بما يودعه الاستبداد في نفوسهم كما فعل الذي قال «أنا ربكم الأعلى»

لذلك أقول لكم عن خبرة وبصيرة إن الذي دعا السيد جمال الدين [الافغاني] إلى الاشتغال بالسياسة هو اعتقاده أن الدعوة لا تكون إلا حيث تكون الحرية وحكومة الشورى، ولهذا قام في مصر بتأسيس حزب له نفخ فيه روح الحكم الذاتي أو النيابي، وكان من أعضاء حزبه توفيق باشا ولي العهد للإمارة المصرية يومئذ، وقد عاهده على أن يجعل لمصر، إذ يصير الأمر إليه، مجلساً نيابياً ويحول الحكومة بذلك من النوع الاستبدادي المطلق إلى النوع الشوري المقيد، ولكنه لم يكد يستقر على كرسي الأمر حتى نفى السيد جمال الدين من مصر حباً في الاستبداد، وتلذذاً بالاستعباد. ولكن السيد لم يمل ولم يئأس، بل صبر ينتهز الفرص، فجذبته الأيام إلى بلاد الفرس فاستأنف فيها العمل لإنشاء حكومة الشورى فنفاه الشاه من البلاد، ولقي من البلاء في ذلك ما لم يلقه إلا قليل من العباد، ثم قذفت به المقادير إلى الآستانة فأحسن السلطان إليه، حتى طمع فيه، ولكنه ما عثم أن يئس منه، حتى مات هناك غير راضٍ ولا مرضي عنه، هكذا قضى حياته في التطويف في البلاد ولم يتخذ له زوجة ولا جنح إلى شيء من حظوظ الدنيا.

كان للسيد يريدون كثيرون يردون ينبوع معارفه، ولكن لم يصدر أحد منهم ريان من مشربه، ويثبت على مذهبه، إلا الشيخ محمد عبده، فقد كان هذا الإمام الجليل تربيّة دينية صحيحة إلا ما كان من غلوه في العبادة، فقد مكث زمناً طويلاً لا يكلم أحداً، وزمناً أطول من ذلك لا ينظر إلا إلى الأرض ولا يهتم بغير إصلاح نفسه، إلا ما كان من درس يقرؤه لإخوانه المجاورين في الأزهر، ثم رجع إلى الاعتدال ولكن لم يفارقه الخشوع ورقة القلب. ولقد دخلت عليه مرة بيته فرأيت يطلع في السيرة النبوية ودموعه تجري على لحيته، خشوعاً واعتباراً بما لقيه (ص) من الأذى في سبيل ربه، وكان في كل سنة أو أكثر يعتريه تنبه عصبي من إطالة الفكر في سوء حال المسلمين حتى همّ في ليلة من ليالي رمضان أن يطيع هذا الوجدان فينزل إلى جوار الأزيكية حيث مجامع اللهو وينادي: أيها المسلمون ماذا رأيتم في دينكم من العيب حتى تركتموه؟ أخبروني لعلّي أبين لكم خطأكم وأرسل إليّ مرة يخبرني بأن مرضاً ألمّ به فمنعه النزول من عين شمس إلى القاهرة، فجئته فإذا هو في حجرة النوم وإذا بين يديه ثلاثة كتب مفتوحة ينظر فيها، فقلت له ما هذه الكتب وما هذا المرض؟ فقال هذه كتب من أصول الفقه أشغل نفسي بمباحثها وعباراتها المعقدة عن القرآن فقد أطلت الفكر فيه وفي أحوال المسلمين فحصل لي التنبه العصبي الذي تعرف حتى أثر في ظاهر جلدي فإذا أنا وضعت أصبعي على جبهتي أتألم.

اشتغل الأستاذ الإمام [محمد عبده] بالسياسة زمناً مع السيد [جمال الدين الافغاني] ثم وجد في أواخر عمره حرية في مصر فترك السياسة واشتغل بالإصلاح الديني والاجتماعي، واشتهر أمره بذلك حتى عرفه الأقارب والأجانب. أليس من العجب أن يوجد في كتاب فرنسا من يشهد بأن طريقة الأستاذ الإمام هي الطريقة المثلى لإصلاح حال المسلمين، ويوجد في المسلمين أنفسهم من يقول بضرر تعاليمه عن جهل وغباوة، أو تقليد للمرجفين عن بغي وحسد؟



نشرت جريدة الاهرام منذ شهرين مقالة مترجمة عن جريدة الطان الفرنسية الشهيرة جاء فيها: إن المسلمين في تونس ثلاث طبقات: الأولى، الجامدة وهي التي تحرص على بقاء المسلمين على ما هم عليه وتنفر من العلوم العصرية والمدنية الغربية وأهلها هم الأكثرون. الثانية المارقة، وهي التي تنكر الدين ولا ترى أن تقف عند حدوده في شيء وأهلها هم الأقلون وهم يخفون مذهبهم هذا لضعفهم ولا يرجى منهم خير لأمتهم. الثالثة المعتدلة، وهي التي تعمل لترقية المسلمين في العلوم والمدنية مع المحافظة على دين الإسلام وهي التي يرجى منها الخير للبلاد التونسية وأهلها يتبعون التعاليم التي كان يلقيها في مصر الشيخ محمد عبده والتي تنشرها بينهم مجلة المنار. وقد كتب أكثر من واحد من الإفرنج مثل هذا عن مسلمي مصر وهو ما كتبه لورد كرومر في تقاريره وتاريخه لمصر.

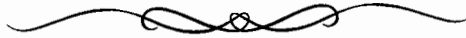
فهذه طريقتنا أيها الإخوان في الإصلاح. نريد أن نجمع لأمتنا بين مصالح الدنيا والآخرة، وقد عرف هذا كتاب الإفرنج واعترفوا بفائدته فلا ينبغي للمسلمين أنفسهم أن يجهلوه!

نحن في حاجة عظيمة إلى العلوم والفنون والصناعات العصرية التي تقوى بها أمتنا وتعتز بها دولتنا. ولا يكون الخير في ذلك تاماً لنا إلا إذا أقمنا معه أصول ديننا وهي القرآن الحكيم والسنة السنية التي جرى عليها سلفنا الصالح، ولا تنافي بين الأمرين، فنحن إذا لم نجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين لا تقوم لنا قائمة. فهذه الطريقة الإصلاحية التي دعانا إليها حكيم الإسلام السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده هي التي يدعو إليها المنار ويناضل عنها، وهو مستعد بمعونة الله تعالى للتوفيق بين العلوم الحقيقية وأصول المدنية الصحيحة وبين الكتاب والسنة، ومن اشتبه عليه شيء في ذلك فليكتب إليه به يفصله له تفصيلاً.

قد انتشرت دعوتنا هذه في جميع الأقطار حتى أن جماعة من علماء الترك أنشأوا مجلة إسلامية في الآستانة سموها صراط مستقيم فكتبوا إلي يطلبون

مجلدات المنار كلها ليستعينوا بها على خدمتهم هذه. فهم على علم بطريقتنا في الإصلاح على كون المنار كان ممنوعاً عنهم وقلما يصل إلى الأستاذة جزء منه، فندعو جميع علماء المسلمين هنا وفي كل مكان إلى هذه الطريقة بل ندعو إليها كل مسلم «وتعاونوا على البر والتقوى» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٢] وينبغي لكل مسلم أن يكون له حظ من إصلاح حال أمته في دينها ودنياها، فمنهم من يدعو ومنهم من يستجيب للداعي ومنهم من يساعده بحاله، ومنهم من يساعد بماله، والسلام على من اتبع الهدى، ورجع العقل على الهوى»، اهـ ما كتبه ذلك الأديب من الخطبة مع تصحيح وتوضيح وزيادة فاتته.

استدراك: - بعد النزول عن المنبر تذكرت ما كنت عازماً عليه من التنويه بصديقنا عبد الرحمن أفندي الكواكبي فذكرت فضله بمساعدة الإصلاح الديني والاجتماعي بكتابه سجل جمعية أم القرى والإصلاح السياسي بكتابه طبائع الاستبداد رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه.



## الخطبة الثانية<sup>(١)</sup>

من خطبنا في الديار السورية

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٨٣٦ - ٨٤١]

أيها الإخوان الكرام

اقترحتم عليّ أن أقول شيئاً في الدستور والاجتماع وماذا عسى أن أقول في موضوع قد تبارى فيه الخطباء الكثيرون من قبل فلم يدعوا لمن بعدهم

(٢) انظر رحلات الامام محمد رشيد رضا. ص ١١.

نصب فرد من الأفراد وصياً عليها؟ أي شرع يبيح للوصي أن يتصرف في حال السفية أو القاصر تصرف المالك في ملكه، ولمن كان في وصايته كثيرون أن يتبع في معاملتهم هواه، فيمنع بعضهم من حقه، ويعطي الآخر ما لا يستحقه، كما هو شأن الملوك والأمراء المستبدين!

إلا أن هؤلاء الأدعياء في وصايتهم، المعتدين في ولايتهم، ليسيثون التصرف في ملك الأمة وفي سياستها، فهم قد جعلوا انفسهم أوصياء عليها بالقوة القاهرة، وبالقوة القاهرة يمنعونها من التصرف معهم ومشاركتهم بالرأي، بل يحولون بينها وبين معرفة ما تملك، وما لها من حق الرأي والتصرف، لتبقى عالة عليهم، راضية ببقاء الأمر فيهم، ولهذا يمقت المستبدون العلم ويقاومونه أشد المقاومة، وقد رأيت ذلك في أنفسكم فقد كنتم منذ أشهر تحرقون كتب العلم، أو تدفونها في حنادس الليل تحت الأرض، خوفاً من زبانية الاستبداد أن تدمر على بيوتكم فتراها، فتنزل العقاب الشديد بمن اقتناها، على إنهم كانوا يعاونون الذين يهربون السلاح، ويساعدون الأشقياء على إفساد الأمن وهضم الحقوق، فقد كان كل ذنب مباحاً أو متساهلاً فيه عند حكومتنا الماضية إلا ذنب العلم واقتناء الكتب والصحف الحرة، التي كانوا يعبرون فيها بالأوراق المضرة.

لماذا؟ لأنهم يعلمون أن الأمة اذا عرفت حقوقها، يوشك ان تجتمع فتطلبها من طريقها، وإذاً يحرمون من التمتع بذلك السلطان المطلق، والتصرف بتلك القناطير المقنطرة، فقد قال حكيمنا السيد جمال الدين الأفغاني: العاقل لا يظلم ولا سيبا اذا كان أمة.

ما هو الطريق الذي تسلكه الأمم لاسترجاع حقوقها المغصوبة من الملوك المستبدين؟ ألا إنه هو الاجتماع والتعاون: الاجتماع الذي تسوق إليه المعرفة، والتعاون الذي يدعو اليه الشعور بالحاجة، ومن هنا تنتقل إلى الكلام على الاجتماع والجمعيات.

الاجتماع على الحق قوة لا تعلوها قوة، بهذا قد جرت سنة الله في خلقه وقد ورد في الحديث الشريف «يد الله على الجماعة» وهذا أبلغ تمثيل لعظمة هذه القوة، وأي شيء أعظم ممن كانت كلاءة الله ظلاً ممدوداً فوقهم، وسنته في النجاح صراطاً مستقيماً أمامهم، ألا ترون أن الحكام المستبدين يطاردون الجمعيات، ويخافون منها ما لا يخافون من الجيوش المنظمة، والأساطيل المدرعة، لعلمهم أن الحق لا يغالب إذا وجد نصيراً. قال الأستاذ الإمام [محمد عبده] «إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه»

ماذا أقول في بيان قوة الجمعيات؟ هي التي قوضت حصون الظلم، ودمرت هياكل الاستبداد، وحررت الأمم والشعوب من العبودية، وشيدت فيها صروح العلم والمدنية، وليس الشاهد والدليل على هذا ببعيد عنكم وأنتم الآن في نادي شعبة للجمعية التي أسقطت سلطة الاستبداد في المملكة العثمانية، وأدالت منها سلطة دستورية شورية.

أرايتم لو أن أحداً همس في آذانكم قبل ثلاثة أشهر وأنتم تننون من ذلك الظلم الفاحش قائلاً: إن نفرأ من إخوانكم العثمانيين لا يتجاوزون عدد الأنامل يجتمعون في حجرة لهم نوافذها مغلقة، وستورها مسبلة، يتخافتون بينهم في تدبير الحيل، واتخاذ الوسائل، لتقويض هيكل تلك السلطة الاستبدادية، التي أوشكت أن تقضي على الدولة العلية، وإعادة الدستور العثماني، وإحياء القانون الأساسي، فما هو رأيكم في هؤلاء المجتمعين؟ ألا يقول أكثرهم إنهم مجانين «مجانين، مجانين» بلى، ولكن قد علمتم الآن علم اليقين أن هؤلاء نفرهم الذين قوضوا تلك السلطة الظالمة، وقضوا عليها قبل أن تقضي هي القضاء الأخير على الدولة العلية، فما الذي أقدر ذلك العدد القليل، على إسقاط حكومة مؤيدة بجيش عظيم، ومال كثير، وألوف كثيرة من الأعوان والأنصار، القابضين على زمام الأحكام، كانت ترتعد من ظلمهم الفرائص، وتضطرب لتصور استبدادهم القلوب؟ أليس هو الاجتماع للمطالبة، والتعاون على استبدال

العدل بالظلم؟ بلى، ولو كان أولئك الأنصار الأخيار من اليائسين، كما كان أكثر العثمانيين، لما نالت الأمة العثمانية هذا النصر المبين، الذي كان موضع إعجاب الناس أجمعين، حتى قال كثير من ساسة أوروبا وكتّابها إنه لم يسبق له نظير في تاريخ البشر، لأن المعهود في التاريخ أن هذه الغاية لا تنال إلا بعد ثورات داخلية، وحروب أهلية، بين أنصار الاستبداد والظلم، وطلاب الدستور والعدل.

الآن قد خطر في بال كثير منكم أننا قد نلنا هذا النصر بسيوف جيوشنا، لا بتدبير أفراد من جمعياتنا، نعم إننا لولا جيشنا الباسل لما عملنا الآن شيئاً، ولكن لا ننسى أن جيشنا قد كان منذ كان حامى السلطة الاستبدادية ونصيرها، وعونها على قهر الأمة وظهيرها، فما عدا مما بدا؟ أليس قد اتحد بعض ضباطه أهل العرفان والحمية، بأولئك المجاهدين في سبيل العدل والحرية، فكان العلم والرأي، هما القائدين للجيش؟ بلى:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

نلنا الحرية والدستور وأصدر قاضي محكمة الاجتماع العليا بطلان تلك الوصاية الاستبدادية، والولاية القهرية، وإثبات رشد الأمة وأهليتها للقيام بشؤونها، والتصرف في ملكها، ولكن هل رشدت الأمة حقيقة وصارت أهلاً للتصرف النافع، الذي تحفظ به المصالح؟ إن الحكم الصحيح في شأن الأمة العثمانية عسير جداً. فلإنها على اختلاف شعوبها في الأجناس واللغات والأديان والمذاهب متفاوتة تفاوتاً عظيماً في التربية والتعليم اللذين يؤهلان الأمم للحرية والحكم الدستوري فتكون دستورية بطبيعتها لا مقودة إلى الدستور بالسلاسل.

إن مجموع الترك أرقى في هذه التربية من مجموع العرب، والأرمن أرقى من الأكراد، وآستانة والولايات الأوروبية أرقى من الولايات الآسيوية، وولايات سورية وسط بين ولايات أوروبا وبين العراق والحجاز واليمن،

وإننا نرى الاستعداد في سورية ضعيفاً فماذا نقول فيما دونها، فكرنا كثيراً ونحن في مصر لنختار من كل مدينة في سورية أفراداً من الأحرار الشجعان ليؤلفوا لنا شعباً لجمعية الشورى العثمانية فلم نعثر في أكثر المدن على من نثق بقبوله لدعوتنا، ودخوله في جمعيتنا، دخل في الجمعية رجالان من أهل بيروت كل منهما صديق للآخر ولم يكشف أحدهما الآخر بذلك إلا بعد إعلان الدستور، وناهيككم بجرأة أهل بيروت.

إن العاقل الراشد إذا منع التصرف في ماله بالقوة القاهرة وطال عليه الزمن وهو لا يعمل ثم أبيع له العمل وهو غير متمرن عليه يحار في كيفية التصرف ولا يسهل عليه أن يجري فيه على طريق السداد. وقد اهتدى إلى هذا المعنى أحد أغنياء بلادنا العقلاء، المرحوم محمد باشا المحمد، فقسم ثروته الواسعة في حال حياته بينه وبين أولاده ليتمرنوا تحت مراقبته على إدارة تلك المزارع والضياع لئلا تفاجئهم الثروة فيعوزهم حسن إدارتها وحفظها، وغفل عن ذلك كثير من الأغنياء فلم يأذنوا لأولادهم أولئك بالتصرف في إدارة ثروتهم ولا بالتمتع بما تستشرف له نفوسهم منها، فلم يلبث الأولاد بعد موت والديهم إلا قليلاً، حتى أضاعوا جميع ما تركوه لهم إسرافاً وتبذيراً، كما رأينا وشاهدنا في مصر كثيراً، وإذا كانت إدارة الثروة الشخصية لا تصلح إلا بالعلم والتمرن معاً فكيف تكون إدارة الممالك وسياسة الأمم؟

لا يعجلن أحد بالاعتراض على هذا الكلام فيقول إنه مؤيد للحكومة المطلقة التي أراحنا الله من شرها، ومعارض للحكومة الدستورية التي امتلأت القلوب رجاء في خيرها، معاذ الله أن أحتج لتلك الحكومة الظالمة بكلمة وأنا أعلم أنها لو بقيت سنة أو سنتين ولم ينجح الأحرار بالوسيلة التي أخذوا بها في هذا العام لوقعت الأمة والدولة في خطر لا تؤمن عاقبته، وإنما ما قلت آنفاً لأنبه الأفكار إلى حقيقة حالنا وما يجب علينا في هذا الطور الجديد.

الأمة العثمانية في مجموعها مستعدة للحكم الدستوري ، فإن فيها من الأحرار المرتقين في المعارف والأخلاق من جميع الشعوب من يرجى أن يقوم بهم هذا الحكم خير قيام ، ويؤمن عليه من عدوان الاستبداد ، ولكن ضعف استعداد الأمة في كثير من البلاد يحملهم مشاق كثيرة في إقامة العدل ، وإصلاح حال الملك ، ومقاومة كيد المتقهقرين ، أعوان المستبدن الظالمين .

لا تظنوا أن الأحرار الكرام الذين نلنا الدستور بسعيهم كانوا غافلين عن هذا ، كلا ، إنهم قد أعدوا له عدته فأخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها أن تكفل الدستور الذي كانت قابلة ولادته وإمه ومرضعه إلى أن يبلغ أشده ويستوي ، فانشأت لها شعباً ولجاناً في كل من مراكز الولايات والألوية والأقضية في المملكة ، وجعلت لها أندية سياسية اجتماعية ولها في ذلك مقصدان :

المقصد الأول ، مراقبة الحكومة في سيرها لأجل أن تنفذ الشريعة والقوانين في دائرة الدستور ، ويحفظ الأمن ويقام العدل بقدر الاستطاعة والإمكان . والمقصد الثاني ، نفخ روح الحياة الدستورية في الأمة وتحبيب الحرية إليها ببث الآراء والأفكار النافعة فيها بالخطب والمحاورات ، وحثها على التربية المالية والتعليم العصري الذي يجعلها أمة دستورية بالطبع ، تأبى الاستبداد وتنفر منه كما تنفر من الأسقام والأدواء . فحيا الله جمعية الاتحاد والترقي ، وإنه يجب على الأمة كلها أن تساعدوا في سعيها فإنه لا حياة لنا إلا بالتربية المالية وتعلم الفنون العصرية .

## افتتاح مجلس المبعوثان ثلاث خطب ارتجالية في الاحتفال به

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٨٦٠ - ٨٧٢]

احتفل بطرابلس كسائر البلاد العثمانية بافتتاح مجلس المبعوثان يوم الخميس ٢٤ ذي القعدة فخطب صاحب هذه المجلة في الاحتفال العام بميدان التل أمام هيئتي الحكومة الملكية والعسكرية وجمهور الأهالي ثم خطب في نادي الجامعة العثمانية أمام الهيئتين ثم في نادي جمعية الاتحاد والترقي وهذه خلاصة ما قال :

### خلاصة الخطبة الأولى في ميدان التل

أيها الأمة العثمانية الكريمة

أهنئك بهذا اليوم السعيد الذي تحتفلين فيه بافتتاح مجلس المبعوثين وإنني لأهنئك بأمر عظيم، أهنئك بأنك صرت بهذا اليوم أمة، وما أحلى هذا القول في فمي، وأحبه إلى قلبي، نعم، في هذا اليوم صار يصح إطلاق لفظ الأمة عليك ولم تكوني من قبله إلا عبارة عن أفراد متفرقين لا يصدق عليهم هذا اللفظ على وجه الحقيقة.

يطلق لفظ الأمة في عرف علماء الاجتماع والسياسة على الجمع العظيم الذي يتألف من شعوب متعددة ويرتبط بعض أفرادها ببعض بقوانين ومصالح مشتركة. فالاجتماع هو الأصل الذي يتحقق به معنى الأمة المؤلفة



من جمعيات بعضها أكبر من بعض، أدناها الأسرة وهي أول اجتماع بشري وأقدمه، وأعلاها الأمة التي هي منتهى ما يصل إليه الاجتماع.

هل يسوغ لنا أن ندعي أننا كنا أمة في طور الاستبداد الماضي الذي قضينا عليه القضاء المبرم في هذا اليوم؟ كيف وقد كنا ممنوعين من كل معنى من معاني الاجتماع حتى في الأسرة فقد صار الأب يهرب من ابنه والابن ينفر من أبيه والأخ يفرّ من أخيه خوفاً من تجسس بعضهم على بعض، وحتى صار الاجتماع في الأعراس والمآتم مخوفاً ومهدداً في دار السلطنة! منع الاستبداد الماضي أن يجتمع الناس للشكوى من الظلم بأنفسهم أو بكتابة «المحاضر» وفرض عليهم أن يشكوا منفردين وإن كان ما يشكون منه مشتركاً بل منع شهادة التواتر الشرعية لأنها لا تحصل إلا من جمع كثير. فالأفراد الذين يمنعون من أصغر أنواع الاجتماع ويهددون بالعقاب عليه كيف يسوغ لهم أن يدعوا أرقى أنواعه وأعلاها؟

اليوم قد تحقق زوال ذلك الاستبداد المفرق فاجتمع المبعوثان الذين اختارهم الشعوب العثمانية لينوبوا عنها في القيام بمصالحها العامة كوضع القوانين والمراقبة على الحكام العاملين فبهذا الاجتماع تحقق تكوّن الأمة.

فهذا اليوم هو العيد الوطني الأكبر العام لجميع العثمانيين فإن ما عداه من الأعياد الدينية وغير الدينية خاص ببعض الشعوب والجناس أو بعض الأديان والمذاهب، وفي هذا اليوم يحتفل بهذا العيد المسلم والنصراني واليهودي وغيرهم، يحتفل به التركي والعربي والألباني والرومي والكردي والأرمني، يحتفل به العثمانيون في البلاد العثمانية، وحيثما كانوا من البلاد الأجنبية، يحتفلون به مجتمعين ممتزجاً بعضهم ببعض لأنه عيد الجميع.

هذا الجمع الذي نحن فيه يمثل لنا احتفالا من تلك الاحتفالات الكثيرة. أما ترون فيه الحاكم السياسي والإداري والقاضي الشرعي وأمراء العسكرية وغيرهم من رجال الحكومة ممتزجين بعلماء الدين الإسلامي وقسوس النصرانية وسائر أصناف الأمة من الزّراع والصّناع والتجار

والعمال وتلاميذ المدارس<sup>(١)</sup> والبشر يتدفق من وجوه الجميع لأن العيد هو عيد الجميع.

ثم إنني أهنيء الأمة في هذا العيد السعيد بمعنى آخر وهو أنها قد صارت في هذا اليوم حاكمة لنفسها، فإن المبعوثين الذين اجتمعوا في هذا الوقت المبارك في دار السلطنة لينظروا في قوانين البلاد وكيفية تنفيذها فيقروا ما يشاءون ويغيروا ما يشاءون لم يكن السلطان هو الذي اختارهم وولاهم هذا العمل ولا غيره من رجال الحكومة، وليس له ولا للحكومة أن يختاروا غيرهم عند انتهاء مدتهم أو يعيدوا انتخابهم، وإنما كان هذا من الأمة فهي التي أنابتهم عنها للنظر في شؤونها لأن هذا الحق هو لها دون غيرها، فهي إذن الحاكم الأعلى وجميع الحكام من أعلاهم إلى أدناهم مستأجرون لها بما لها لأجل أن يقوموا بما لا بد لها منه ولا غناء عنه من المصالح العمومية ملتزمين في ذلك شريعتها وقوانينها التي ارتضتها لنفسها.

في هذا اليوم نالت الأمة هذا الشرف العظيم بالفعل، وكانت من قبل مستعبدة للحاكم المستبد يتصرف في أموالها وأرواحها وحقوقها كما يشاء، ولا يسمح لها أن تقول ولا تفعل إلا ما يدل على السمع والطاعة والخضوع للعبودية.

بقي أن تعلموا أيها الإخوان أن حكم الأمة لنفسها محصور فيما ذكرنا من اختيارها وانتخابها لمن ترى فيهم الكفاءة والاستعداد لوضع القوانين العادلة لها والمراقبة لتنفيذها والنظر في مصالحها العامة كعلاقة الدولة مع الدول الأجنبية وليس منه ما رأيناه من تجمهر بعض الأفراد واجتماعهم في دار الحكومة لإلزام بعض الحكام بما يرونه ويرغبون فيه، فإن هذا هو عين الفوضى والخلل لا تصلح معه حال، ولا يستقر نظام، ونسأل الله أن يتم علينا هذه النعمة ويوفق نوابنا إلى ما فيه خير الملة والأمة.

(١) ذكرت هذه الأصناف مع الإشارة إلى كل صنف من المتصرف إلخ.

[المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٨٦٢ - ٨٦٦]

أحب أن أقول كلمة وجيزة في معنى الثقة بنجاح مجلس الأمة ودوام الدستور: سمعت كثيراً من الناس يدعون الله تعالى بمثل قولهم «الله يتمم بالخير» فكان يسرني هذا الدعاء من جهة ويسؤني من جهة أخرى. يسرني لأنه صادر عن غيرة وحرص على نعمة الدستور وخوف على مجلس المبعوثين الذي يكفله أن يفشل أو يصيبه كيد الكائدين، ويظفر بمراده حزب المستبدين المتقهقرين، ويسؤني بما يظهر من فحوى القول ولحن الدعاء، من ضعف الثقة وتغليب الخوف على الرجاء، فإن هذا الخوف يكاد يقرأ على الوجوه، ويسيل من الألسنة متدفقاً عن القلوب.

إنني أدعو مع الداعين بأن يتم الله عملنا بالخير ويجعل النهاية خيراً من البداية، فإننا لا نستغني عن الدعاء، في السراء ولا في الضراء، ولكنني أدعو وأنا ممتلىء القلب بالأمل والرجاء، ولست أرى للخوف محلاً بفضل الله وكرمه فإن حالنا اليوم لا تقاس على حالنا من مدة ثلث قرن كامل أيام عقد مجلس الأمة الأول ثم حله الاستبداد فلم يلق في حله مقاومة ولا كلاماً، بل كان برداً وسلاماً.

الفرق بين مجلسنا اليوم ومجلسنا في ذلك الوقت بعيد جداً، إن ذلك المجلس لم يكن بسعي الأمة ولا برأيها ولم تكن عالمة به ولا مستعدة له، وإنما هو من صنع مدحت باشا أبي الحرية وبعض إخوانه الوزراء والكبراء فهم الذين وضعوا القانون الأساسي، وبسعيهم ألزموا السلطان بقبوله فأظهر القبول وأمرت الوزارة بانتخاب المبعوثين فانتخبوا واجتمعوا ولما تفرق شمل هذه الوزارة حل السلطان ما كان منعقداً، وفرق ما كان مجتمعاً، فكان إبطال «مجلس المبعوثان» أسهل عليه من إبطال نابليون لمجلس النواب، إذ لم يكن له من الأمة عضد يؤيده، ولا من الجيش نصير

يحفظه ويعضده، أطلقوا على ذلك المجلس لقب «أوت أفندم»<sup>(١)</sup> إذ قالوا إن الأعضاء كانوا يصادقون على كل شيء تلقى إليهم الحكومة بكلمة «أوت أفندم» فلما أراد السلطان فض المجلس قال لهم مندوبه: اخرجوا واذهبوا إلى بلادكم، فوضعوا على جباههم «إشارة الطاعة» قائلين «أوت أفندم» وولوا منصرفين، فما كان لهم من فئة ينصرونهم وما كانوا منتصرين.

ماذا كان من أمر القوة العسكرية كالشرطة وغيرها؟ إنها هددت المبعوثين ذوي الجرأة وأنذرتهم البطش بهم إذا لم يسرعوا بالسفر من الأستانة، فذهبوا مسرعين ذلك بأن الاستبداد خاف من بقائهم أن يحدثوا هنالك تأليباً للناس ويحملوهم على المطالبة ببقاء مجلس الأمة والمحافظة على القانون الأساسي، على أن الأمة نفسها لم تكن تحفل بذلك ولا تعرف قيمته ولذلك لم يظهر منها أدنى اهتمام في مكان ما.

أما الآن فقد تغيرت الحال، واستبدل الله أقواما بأقوام، فقد نلنا الدستور وأعدنا القانون الأساسي بسعي أحرار الأمة النابغين، ومساعدة الجند وضباطه المستنيرين، لا بسعي أفراد من الوزراء يمكن أن يصيبهم ما أصاب مدحت باشا وإخوانه من نفي واغتيال فيذهب الدستور ومجلس الأمة ويموتان بموتهم. كلا، إن من ورائهما ذلك الجند الباسل الذي ساعد أحرار الأمة على نيل هذه الرغبة ولولاه لم نصل إلى هذه النعمة، من غير خطر على الدولة والأمة، ومن ورائهما أحرارنا المنشئون في جميع الولايات العثمانية ينفخون روح الدستور فيها.

تشهد أمم أوروبا كلها بأن الجيش العثماني أشجع جيوش العالم وأشدّها بأساً وثباتاً في ميادين الجلال حتى قال الجنرال مولتك القائد الألماني الشهير الذي نكل ذلك التنكيل بالفرنسيين: أعطوني مئة ألف جندي عثماني أفتح

---

(١) كلمة تركية معناها: نعم يا سيدي.

بهم أوربا كلها. ولكنهم كانوا يقولون إن هذا الجيش الباسل ينقصه الضباط والقواد العارفون الصادقون. والآن يوجد عندنا عدد عظيم من هؤلاء الضباط الذين تعلموا أحسن التعليم وتربوا أعلى التربية وهم الذين كانت تطاردهم السلطة المستبدة الماضية خوف أن يقضوا على استبدادها حتى شئت شمل الكثير منهم فكان منهم المسجونون ومنهم المنفيون ومنهم الهاربون وقد بقي في الجيش العامل منهم من قلب تلك السلطة وأراح الله البلاد العثمانية من شرها فهل نخاف اليوم على مجلس الأمة وقد عاد أولئك الضباط الكثيرون من سجونهم ومنفاهم وانضموا إلى إخوانهم العاملين في الجيش وكل منهم يفدي الدستور ومجلس الأمة بروحه ويذل دونها آخر نقطة من دمه؟

كلا، إن العارف بحال الدولة والجيش وبما أتته جمعية الاتحاد والترقي من الاحتياط والتدبير للمحافظة على الدستور وحماية مجلس الأمة لا يخالج صدره أدنى خوف على المجلس في هذا اليوم، وإنما كنا نخاف على الدولة في دور الانقلاب من الخارج، كنا نخاف أن تقوم في وجهنا أوربا فتفسد علينا عملنا وتضطرننا إلى الدخول في حرب لا تؤمن عاقبتها، أما وقد لقينا من الدول الأجنبية ميلاً وانعطافاً عظيمين إلا ما كان من ضم النمسا ولايتي البوسنة والهرسك إلى أملاكها ومن إعلان البلغار الاستقلال ولم يكن في ذلك أدنى خطر على حكومتنا الجديدة ولله الحمد والمنة، بل رأت النمسا الحرب الاقتصادية التي ناجزتها بها الأمة العثمانية ما جعلها تندم على ما فعلت وتود إرضاء الدولة العلية.

أما المشاغب الداخلية التي يحركها في بعض الولايات أنصار الاستبداد من حزب التقهقر كالعراق والشام والحجاز فلا خوف منها ولا خطر فإذا قام مثل طالب الرفاعي، يثير حزبه من أكلة الأفاعي، ليفسدوا في الأرض ويؤلبوا الأشقياء في ولاية البصرة على الدولة، فإن قيامه هذا لا تأثير له، ولا يعجز الحكومة الحرة استئصاله، فإن لديها من الرجال من يأكلون أكلة

الأفاعي، فلا يعجزهم التنكيل بهذا الرفاعي، كما نكلوا قبله بذلك الشقي الكردي، فسيحبط عمل المفسدين ويستقر الأمن في جميع الولايات العثمانية عن قريب، إن شاء الله تعالى.

ومن الناس من يخاف أن يفشل مجلس الأمة ويعجز المبعوثون عن القيام بما نيظ بهم وعهد إليهم من مصالح الدولة والأمة، وإنني أصبح بأعلى صوتي أن هذا الخوف في غير محله أيضاً. إن المجلس السابق على ما كان عليه من الضعف وما قيل من أن جميع أعضائه أرادوا أن يكونوا من حزب الحكومة حتى لقبوا بكلمة «أوت أفندم» لخضوعهم لما يراود منهم، على هذا كله قد ظهر من بعضهم أفكار وآراء حسنة واستقلال يرجى خيره لو دام، فكيف يكون مجلسنا اليوم وقد ارتقت الأمة بالنسبة إلى زمن المجلس الأول في الاستعداد والمعارف والأفكار بالرغم من اضطهاد الحكومة الاستبدادية للعلم والحرية حتى أنها بنبوغ الكثيرين من رجالها قد انتصرت على الاستبداد وهو، كما قال الأستاذ الإمام [محمد عبده] في عفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس عبيد له أي عبيد.

نعم، إن مجلسنا نحتفل بافتتاحه اليوم مؤلف من طائفة من الأحرار المتطرفين وطائفة من المحافظين الجامدين، وفيه عدد قليل من المعتدلين، وكثير من رجال العلم والدين، وإنني أرجو، كما يرجو كثير من محبي الاعتدال، أن يكون تأليفه من هذه الطبقات المختلفة التي تمثل الأمة كلها أقرب إلى النفع وأبعد عن الخطر فإنني أعرف كثيراً من أحرارنا المتطرفين يميلون إلى العجلة في الإصلاح، وقد يكون من المستعجل الزلل، ومن تأني نال ما تمنى، والعجلة في طور الانتقال من حال إلى حال لا تخلو من خطر أو ضرر فإن خاب الأمل، لا سمح الله، وضعف المجلس عن الإصلاح المطلوب الآن، فإن جمعية الاتحاد والترقي المباركة التي أخذت على نفسها كفالة الدستور تسعى عند الانتخاب الثاني أو تجتهد في جعل جميع الأعضاء أو أكثرهم من نابغي الأمة ونحمد الله أن في أمتنا من النابغين، من يشهد

لهم بالفضل والعرفان ساسة الأوربيين، ناهيكم بأولئك الكرام الذين أحدثوا هذا الانقلاب العظيم الذي أدهش عالم المدنية بما دل عليه من الحكمة والاعتدال.

من الخطأ العظيم أن نطالب المجلس بأن يصلح حال الدولة ويرقي الأمة في زمن قريب، فإن التدرج سنة إلهية في الارتقاء، والطفرة محال لا يطلبها العقلاء، وإننا واثقون، مع الاتكال على معونة الله وتوفيقه، بأن يكون لمجلسنا من الخدمة النافعة، ما تقتضيه مصلحة الأمة في حالها الحاضرة، آمين.

### خلاصة الخطبة الثالثة

### في نادي جمعية الاتحاد

[المخارج ١١ (١٩٠٨) ص ٨٦٦ - ٨٧٢]

إننا منذ أعلن الدستور، في فرح وسرور، إلى أن أتم الله سرورنا في هذا اليوم السعيد، الذي هو للامة العثمانية أكبر عيد.

كانت أسباب سرورنا في الأشهر الماضية سلبية وسبب سرورنا اليوم ايجابي وجودي، سررنا منذ أعلن الدستور بأننا صرنا آمنين على أنفسنا أي لا نخاف أن نؤخذ بتهمة جاسوس ولا وشاية واش، آمنين على بيوتنا أي لا تستطيع الحكومة أن تدمر علينا فيها ليلاً أو نهاراً للبحث عن كتب العلم وصحف السياسة التي كانت تسمى في عرفها بالأوراق الضارة أو «المظرة»، سررنا بأننا صرنا أحراراً لا يمنعنا أحد مما نريد من التعليم والتربية ولا من إظهار استعدادنا في أي عمل من الأعمال، سررنا بأننا صرنا آمنين على أموالنا لا يستطيع أحد أن يضرب علينا ضرائب ولا أن يأخذ منا أموالاً لا يفرضها علينا الشرع الذي نعتقده أو القوانين التي يضعها لنا نوابنا الذين انتخبناهم للنظر في مصالحنا. كل هذه الفوائد التي استفدناها من الدستور مذ أعلن اليوم سلمي تفسر بلا، لا، لا.

في هذا اليوم تبتدىء المنافع الإيجابية، فقد اجتمع وكلاء الأمة الذين أنابتهم عنها للقيام بما يعزز دولتها ويرقي شؤونها، وإنا ننتظر من وراء ذلك من الفوائد ما ينمي ويزيد مع الأيام والسنين إلى آخر الدهر، إننا نهى أنفسنا بأن الأمة قد صارت مذ اليوم حاكمة لنفسها وأمرها في يدها، فما الذي يجب عليها لتكون محسنة في هذه السلطة وقادرة على استدامتها وحفظها؟ يجب أن تُعنى بأن تكون أمة دستورية بالطبع مستقلة بالذات متحلية بالمعارف والأخلاق التي تعزز بها الأمم بأن تحاول أن يصير كل فرد من أفرادها أهلاً لأن يختار نواب الأمة عن بصيرة أو يُختار بالاستحقاق.

أول ما يجب علينا أن نفكر فيه ونتوجه إليه هو أن نتولى نحن بأنفسنا إصلاح أمورنا ولا نتكل على الحكومة في عمل من الأعمال التي يفرضها القانون على رجال الحكومة. فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد إليهم بالصدق والاستقامة، ويجب أن يكون لهم منا عون ومساعد على ذلك، وأن نتولى نحن سائر الأمور التي تحتاج إليها الأمة كتربية الأولاد، وما يتعلق بالثروة والاقتصاد.

قد تعودنا أن ننتظر كل إصلاح من الحكومة ولذلك أصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها، ولا يزال كثير منا ينتظرون أن تصلح لهم الحكومة ماء البلد، وتمهد لهم الطرق، وتمد لهم خطوط الحديد، وإن اتكال الأمة على الحكومة في كل الأمور العامة صار مذ اليوم من التناقض أو مما يستلزم التناقض، فبينما هي تفتخر بأنها صارت حاكمة لنفسها متولية لأمرها إذا هي تتبرأ من كل عمل لها وتلزم بالحكومة لزاً، وتلصقه بها إلصاقاً، وإن لم يكن مما يعمل مثله الحكام. فالحكومة على المعنى الأول أفراد من الأمة، في الغالب، تستأجرهم بمالها للقيام بأعمال مخصوصة لا تستغني الحياة الاجتماعية عنها على الوجه الذي تحدده شريعتها، أي الأمة، وقوانينها التي يضعها نوابها الذين اختارهم لذلك، وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة والأمة رعية لهم ليس لها من أمرها شيء فهم يسوسونها كما يسوس الراعي



غنمه، أو سادة يتصرفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم بين  
الأميرين!

إنما فشل مجلس المبعوثين السابق لأنه لم يكن من جانب الأمة ولا كانت  
الأمة كافلة له ولا عارفة قيمته، ولم يكن المرحوم مدحت باشا وإخوانه  
الذين وضعوا القانون الأساسي وأسسوا مجلس المبعوثين يجهلون أن  
الإصلاح الحقيقي الذي يثبت ويدوم إنما يكون بتربية الأمة وتعليمها حتى  
تصير أمة دستورية بالطبع لا تقبل الحكم الشخصي بحال من الأحوال،  
ولكنهم رأوا هذا الطريق طويلاً يحتاج إلى عشرات من السنين، ورأوا  
الأخطار مهطعة إلى الدولة، وأعناق الدول الطامعة ممتدة إليها، وبرائنها  
ناشبة بأطراف جسمها، فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل  
الإصلاح من جانب الحكومة، فعملوا ما عملوا وألزموا السلطان بإعلان  
القانون الأساسي. ولا يشك عاقل في كون الإصلاح إذا جاء من جانب  
الحكومة، يكون أسرع من مجيئه من جانب الأمة، إذا هوثبت ودام،  
ولكن ثباته ودوامه عزيز المنال، بل هو مع جهل الأمة من قبيل المحال.

إن الإصلاح في الأمم لا يأتي إلا بالتدرج وهو إنما يكون أولاً بنبوغ  
بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتى تكون بهم الأمة من  
الأمم الحية العزيزة القوية، فيكون مثلهم كمثل الشجرة المثمرة التي يبدو  
صلاح ثمراتها طائفة بعد طائفة، وإن من الشجر ما تكون بواكر ثمره غير  
جيدة ويحيى الجيد بعد ذلك كشجرة التين فإن أول ثمرها الذي نسميه  
«الدفور» لا يجدي ولا يفيد، ولكنه يكون مبشراً بما وراءه. ولقد كان  
شهيد الحرية والدستور مدحت باشا وإخوانه من قبيل «الدفور» من شجرة  
التين من حيث إنهم كانوا مقدمة لصيرورة الأمة العثمانية دستورية إذ تحقق  
ذلك من بعدهم، ولم يتم في عهدهم.

إن أول شيء يجب أن نوجه هممتنا وعنايتنا إليه، ونعول في حفظ شجرة  
الأمة عليه، هو التربية والتعليم، اللذان يكثران فينا عدد النابغين، فإن

الأحرار الذين قلبوا لنا الحال، ولننا بسعيهم هذه النعمة، كلهم من ذوي التربية العالية، الواقفين على العلوم العصرية التي عليها مدار العمران وارتقاء الممالك. وإن جمعية الاتحاد والترقي التي نشيد بذكر فضلها قد تأسست أولاً في المدرسة الطبية العسكرية في الأستانة ثم كان لها تأسيس منذ عهد قريب.

أخبرني بعض من تخرج في هذه المدرسة أن الشعور بسوء حال الدولة وبما يندرهما من الخطر قد بلغ من نفوس التلاميذ فيها مبلغاً عظيماً حتى أن الصائح بكلمة الدعاء للسلطان في الوقت المعتاد صاح مرة «بادشاهم جوق يشا» ففتح التلاميذ أفواههم ولكن لم يخرج منها ذلك الصوت المعتاد الذي كان يملأ جوّها، وما ذلك إلا أن العلم بسوء الإدارة وما كان يجب أن تكون عليه قد حرك في نفوسهم ذلك الشعور المحزن فعقد ألسنتهم أن تنطق بذلك الدعاء التقليدي المعتاد. فإذا لم نجتهد في تعميم التعليم الذي يمنح صاحبه هذا الشعور بحيث ينمي ويكثر فينا أمثال هؤلاء الرجال فإننا نخاف أن لا يكون لهم خلف وما الموجودون منهم بخالدين، فإذا لم ينتجوا ويحيى بعدهم من هم مثلهم وخير منهم فلا حياة في الأمة فإن النتائج والنهاء هما ثمرة الحياة والمقصد منها.

يوجد في أكثر الولايات بل البلاد العثمانية أفراد من الأحرار الذين استنارت عقولهم بالأفكار العصرية، ومعرفة طرق ترقى الأمم والغيرة على المصلحة العامة، فيجب على الأمة أن تقدرهم قدرهم وأن تستعين بهم على ما ينبغي لها في هذا الطور الجديد.

لست أعني باعتبار الأمة على نفسها دون الحكومة في التربية والتعليم أن لا تبالي بمدارس الحكومة. كلا، إن الغرض الأول للحكومات من مدارسها هو تعليم طائفة من الأمة ما يقدرون به على القيام بأعمالها على وجه السداد، وليس في وسع الحكومة أن تعلم جميع أفراد الأمة ما يحتاجون إليه وإنما تقدم بذلك الأمة نفسها.

كيف تقوم الأمة بذلك؟ هل يعلم كل واحد نفسه؟ هل يقول كل متعلم لمن يراه غير متعلم هلم أعلمك؟ لا، لا، وإنما تقوم بذلك الجمعيات الخيرية فهذا الزمن زمن الجمعيات، ولم ترتق أمة فيه بغير الجمعيات، وحسبكم أن بعض الجمعيات عندنا قد أسقطت الحكومة الاستبدادية، وأدالت منها حكومة دستورية، فأني برهان أقيمه لكم على قوة الجمعيات أوضح من هذا الذي أنتم فيه ترون أثره بأعينكم، وتلهجون بذكره بألسنتكم.

لا ينتشر العلم في هذا العصر إلا بالجمعيات، ولا يرتقي نوع من أنواع العلوم إلا بالجمعيات، ولا يقوم أمر من الأمور العامة إلا بالجمعيات، فعلينا أن نبدأ قبل كل شيء بتأسيس الجمعيات الخيرية التي تشيء لنا المدارس والكتاتيب، وأن نعصدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون أهلاً لترقية أنفسنا وترقية زراعتنا وترقية تجارتنا وسائر موارد الثروة التي تعزز بها الأمة.

إن في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل والاستبداد الذي كان يضطهد العلم ويؤيد الجهل، فبالعلم صارت جزيرة زيلنده أكثر فائدة وأغنى زراعة من مصر المشهورة بالخصب والذكاء. وإن في بلادنا ما هو أخصب من أرض مصر تربة كأراضي الجزيرة بين النهرين، دجلة والفرات، التي قال هيرودس أبو التاريخ إنها كانت تؤتي غلتها من مئة ضعف إلى مئتي ضعف أي أن الشنبل، كالإردب، من القمح كان يغل لصاحبه مئتي شنبل. أيجوز أن تبقى هذه الأرض التي لا نظير لها خراباً لا ينتفع منها بشيء<sup>(١)</sup>

حسبنا من نعمة الدستور أننا صرنا أحراراً لا يمنعنا مانع من

---

(١) راجع ملحة «الملك والوزير والبومة». المناهل. بيروت، دار الحمراء، ١٩٩٠. رقم ١٦٠ ص ١٣٢.

الاستعداد، ولا من العمل الذي نستغل به أرضنا ونستفيد من مواهبها الطبيعية، وقد سمعتم من بعض الخطباء كلاماً في الحرية فعنّ لي في هذا المقام أن أزيد شيئاً وجيزاً على ما قالوا، فإن المجال ذو سعة.

الحرية تقابل الرق والعبودية، فمعنى كوننا صرنا أحراراً أننا كنا من قبل مستعبدين للحاكم المستبد أو أننا الآن قد خرجنا من هذا الرق والعبودية، كان الحكم قادراً على أن يمنعنا من التصرف في أنفسنا وأموالنا كما نشاء فأصبح عاجزاً عن ذلك. كان يمنعنا بالفعل أن نظهر استعدادنا الفطري للارتقاء من العلوم والأعمال فزال هذا المنع وصار يمكننا أن نخرج من المضيق الحيوي الذي حبسنا فيه ليسهل عليه أن يجعلنا رعية ويكون لنا كالراعي للبهائم، صار يمكننا أن نكون اناسي وبشراً يتمتعون بمزايا البشر.

يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشري إن استعداد الإنسان لا يعرف له حد يقف عنده فإذا عاش البشر ملايين من السنين فإنه يمكن أن يكون ارتقاؤهم فيها متصلاً ومستمراً، ويعرف هذا من قارن وقابل بين أولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحاري أفريقية وجبالها وفي بعض جزائر المحيط، وبين هؤلاء الذين يخاطب بعضهم بعضاً بالقول والكتابة بواسطة الأسلاك الكهربائية وبغير واسطتها مع بعد المسافات بينهم، ويتمتعون بغير ذلك من ثمرات العلوم ونتائج المدنية الغربية.

ما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ما وصلوا إليه من العزة والكرامة إلا بإطلاق العنان لحياد العقول، في ميادين العلوم والفنون، ومساعدة الاستعداد البشري على الرقي في معارج الكمال الاجتماعي اللائق به في ظل الحرية الظليل وحماية الدستور العادل.

ولسنا نحن الشرقيين دون الغربيين استعداداً للعلوم والأعمال ولكن عبودية الاستبداد هي التي كانت تطفئ نور فطرتنا وتحجر على استعدادنا فلا تسمح لنا أن نظهر أسرار صنع الله وحكمه في خلقه، ولا أن نتمتع بما

سمح لنا الخالق الرحيم بأن نتمتع به، كما قال في كتابه الحكيم: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ٢٩] وقال تعالى «وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً» [سورة الجاثية رقم ٤٥، الآية ١٣].

كان العالم منا إذا أراد أن يؤلف كتاباً نافعاً قال نذير الاستبداد إياك أن تفعل فإن مولانا لا يريد ذلك، وإذا حدثت محب الفلسفة بأن يحل إشكالا ناجاه منه الاستبداد في سره إياك أن تفعل فإن مولانا لا يحب ذلك، وإذا خطر في بال أحد أن يبحث في أسرار الخليفة ليخترع شيئاً ينفع الأمة أسراً له رسول الاستبداد: إياك أن تفعل فإن مولانا لا يروق له ذلك، كان لا يتجرأ أحد على إظهار أثر علمي يرقى الأمة في عقولها ونفوسها، في دينها أو دنياها، إلا وجد الاستبداد له بالمرصاد، وناله منه ما تعلمون من الاضطهاد.

فالحرية! هي تحرير البشر من هذه العبودية، الحرية هي التي يكون بها البشر بشراً، لا غناً ولا بقرأ، فالانتفاع من الحرية يجب أن يكون بتوجيه الاستعداد الإنساني إلى العلوم والأعمال التي ترتقي بها الأمة والأخذ بها بلا شرط ولا قيد، لا باتباع الشهوات، وإتيان الفواحش والمنكرات، ولهذا كان الحكماء ومحبو الإنسانية ينشدون الحرية، ويبدلون في الجهاد في سبيلها أموالهم وأنفسهم، ولا غرو فهم العاملون بالأسرار الإلهية، المودعة في الغرائز البشرية، ويكونها لا تظهر إلا في دائرة الحرية.

ومن فوائد الدستور المساواة وقد خاض في بيانها الخطباء فأحب أن أزيد عليهم كلمة في إزالة شبهة للناس فيها: يظن بعض الناس أن الدستور جعل الناس كلهم في مرتبة واحدة من كل وجه. وهذا من المحال الذي لا ينال بالدستور ولا بغيره وإنما جعل الدستور الناس سواء في الحقوق، كما قال الخطيب السابق، فالغني والفقير، والصعلوك والأمير، والعالم

والجاهل، والنبیه والخامل، کلهم سواء في الحقوق ليس لأحد أن يعتدي على أحد في نفسه، ولا ماله ولا يراعي الحاكم أحداً منهم ويهضم الآخر.

أما المساواة في المواهب والغرائز وآثارها فليس للدستور فيها شأن فقد فضل الله بعض الناس على بعض في الرزق والعلم والعقل كما نطق به كتابه، ودلت عليه سنته في خلقه، وله في ذلك الحكمة البالغة، ولو جعل أفراد البشر سواء من كل وجه لما كان الإنسان هو هذا النوع من الخلق الذي يظهر أسرار الطبيعة، ويتمتع بما فيها من الحكم البديعة، ولما تيسر للبشر أن يوجدوا الخبز الذي يأكلونه والثياب التي يلبسونها.

إن تفاوت الناس في العقول والأخلاق، هو الذي مكّنهم من القيام بما ترون من الآثار والأعمال، فإن اختراع السفن البرية والبحرية واستعمالها مثلاً لا بد فيه من العلماء الطبيعيين الذين اكتشفوا فوائد البخار والكهرباء والمهندسين والميكانيكيين، كما أنه لا بد له من الفعلة لاستخراج الفحم من المناجم ومن الوقادين لوضعه في النار وهذان العمالان من أشق الأعمال وأصعبها. أفرأيتم من كان مستعداً لاكتشاف والاختراع في العلوم والسياسة والإمارة هل تتوجه نفسه وهل يرضى بأن يستخرج الفحم من مناجمه في الأرض أو بأن يقذفه في النار؟ أو تتوجه نفسه لنحو ذلك من الأعمال الحقيرة التي لا بد منها في الاجتماع البشري كالكناسة وما في معناها؟ كلا، إن هذا النوع من المساواة ما كان ولن يكون وإنما يتقارب الناس ويتعاطفون بتعميم التربية والتعليم، فنسأل الله أن يهدي الأمة العثمانية في ذلك إلى الصراط المستقيم.



## صاحب المنار في هذه الديار [الشامية]

[المنار ج ١١ (١٩٠٩) ص ٩٠٤ - ٩١٠]

إن لي في هذه الدنيا وطنين: وطن المنشأ والتربية وهو سورية فإنني نشأت في قرية القلمون المجاورة لطرابلس الشام في ساحل الكورة من لبنان وتعلمت في طرابلس. ووطن العمل وهو مصر التي أقمت فيها إحدى عشرة سنة أدعو إلى الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي وأقرأ الدروس وأعمل في بعض الجمعيات.

ولما أقر الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت إلى زيارة وطني الأول لرؤية الأهل والأصدقاء ولاختبار حال البلاد بعد أن اشتدت عليها وطأة الاستبداد ومساعدة محبي الإصلاح والترقي في التنبيه لما يجب أن تتوجه إليه الهمم.

زرت بيروت وطرابلس والقلمون ثم عدت إلى بيروت ومنها إلى دمشق الشام فحمص فطرابلس. وقد ألقى في أكثر هذه البلاد خطباً ودروساً وجرى لي مع أهل الفهم والظهور فيها محاورات كثيرة فوقفت على ما أحبيت الوقوف عليه. أما المقاصد التي كان يدور عليها كلامي، فهي محصورة فيما يأتي:

١ - وجوب الجمع بين هداية الدين والعلوم العصرية التي عليها مدار ثروة الأمة وعزة الدولة، مع بيان عدم التنافي والتعارض بين دين الإسلام وهذه العلوم من رياضية وطبيعية واقتصادية.

٢ - الاعتماد في هداية الدين على اتباع سيرة السلف الصالح من

الصحابة الكرام والتابعين لهم ومن سار على طريقهم وما طريقهم إلا الاهتداء بالكتاب العزيز والسنة السنية . وقد فصلت ذلك في الخطب والدروس بمطالبة العلماء بأن يعلموا الناس دينهم كما كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يعلم المؤمنين به فهديه أفضل الهدى وطريقه أقصد الطرق . وبيّنت ذلك في أسس الدين الثلاثة العقائد والآداب والأعمال .

٣ - أما العقائد ، فبيّنت أن الاعتماد على كتب الكلام في تلقينها للعوام لا يأتي بالفائدة المطلوبة وربما يضرهم ويوقعهم في شكوك وشبهات لا يجدون منها مخرجاً . ذلك بأنها لم تؤلف إلا لحماية العقيدة من شبهات الفلاسفة والمبتدعة كما بينه حجة الإسلام الغزالي في كتاب إلجام العوام عن علم الكلام وفي غيره من كتبه . وإنما يجب اتباع طريقة القرآن في تلقين المسلمين عقائدهم بالاستدلال عليها ببديع صنع الله في خلق السموات والأرض وما فيها من البحار والأنهار والجبال والحيوان والنبات .

٤ - وأما الآداب والأخلاق فيعتمد في تعليمها على الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الناهية عن الفواحش والمنكرات ، الأمر بالمعروف والباقيات الصالحات ، المنبهة على ما فيها من فوائد الخير ومنافعه في الدنيا والآخرة ، وغوائل الشر ومضاره في الدنيا والآخرة ، وعلى سيرة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ومن اهتدى بهديهم من الصالحين رضوان الله عليهم أجمعين .

٥ - وأما الأعمال كالوضوء والتميم والصلاة والحج ، فقد بينت أنه ينبغي أن تعلم بالعمل كما ورد في الأحاديث الصحيحة ومنها حديث «صلوا كما رأيتموني أصلي» . وإذا قرأ الإنسان جميع الكتب ولم يتلق الأمور العملية بالقدوة فإنه لا يحسنها على أن الأقوال لا يستغنى عنها في كثير من المسائل .

ذكرت في عدة دروس وخطب أن هذه الطريقة هي التي يمكن تعميمها



في مدة قليلة ترجى فائدتها ويظهر أثرها، وأنه من استطاع أن يعلم الناس كلهم أو بعضهم ما زاد على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرها فليفعل، فالطريقة التي نقترحها لا تكون مانعة له بل تكون مسهلة عليه، ولكني أرى أن من المتعذر تعميم تعليم هذه الكتب فلنبداً بالممكن الأسهل طريقاً الذي لا بد منه لكل مسلم.

٦ - الحث على تأسيس الجمعيات الخيرية لإنشاء المدارس ونشر التعليم الذي يتحقق به المقصد الأول من هذه المقاصد وهو الجمع بين الدين والعلوم ولإعانة المنكوبين والمعوزين عند الحاجة لتكون طبقات الأمة متعاطفة متراحمة يحترم فقيرها غنيها ويرحم كبيرها صغيرها.

٧ - الحث على شكر نعمة الدستور بمساعدة جمعية الاتحاد والترقي على إتمام عملها العظيم في داخل البلاد من مراقبة الحكومة لأجل الثقة بالعدل وحسن الإدارة، ومن بث الآراء والأفكار التي تنفخ روح محبة الدستور والمحافظة عليه في قلوب طبقات الأمة العثمانية. وقد خطبت وتكلمت في الاستبداد والدستور والمساواة أكثر من مرة.

٨ - تنبيه الأمة إلى ما يجب عليها من محبة الدولة العلية وبذل المستطاع في تأييدها وتعزيز جانبها. وموالات الدول التي تواليها ومعاداة الدول التي تعاديا ومجازاة هذه الدول بالإقبال على بضائعها أو بالإعراض عنها حتى تصير الدول تخشى عداوتنا وترجو مودتنا. فإنه لا شيء يهم أوروبا من بلادنا مثل رواج تجارتها فيها. ولما جاءنا نبأ ضم النمسا ولاية البوسنة والهرسك ألى أملاكها وإعلان البلغار الاستقلال التام دون الدولة العلية وتحدث الناس باحتمال محاربة الدولة للبلغار وأظهر كثير من الشبان التطوع في الحرب بينت في خطاب ألقيته في نادي جمعية الاتحاد والترقي بطرابلس وفي خطبة ألقيتها أمام الثكنة العسكرية في بيروت ان الدولة انما تحتاج إلى مساعدة الأمة بالمال دون تطوع الرجال لان ما عندها من العسكر كافٍ لمحاربة أية دولة عظيمة إذا وجد المال الكافي لتجهيزه. ثم رأيت بعد

أسابيع من آخر خطبة ألقيتها في ذلك بعض الجرائد المصرية تقول مثل هذا القول الواضح لكل عارف بالحقيقة .

(٩) بيان التفاوت بين الشعوب والملل في البلاد العثمانية في العلوم والمعارف والاستعداد للقيام بأعمال الحكومة والكسب، والاستطراد من ذلك الى أن العرب أشد تقصيراً في ذلك من الترك والأرمن والارناؤط، كما ان المسلمين من العرب أشد تقصيراً من النصارى، ولفت الأذهان إلى مضرة هذا التفاوت إذا طال أمره لأن الوحدة العثمانية لا تتحقق إلا باتفاق جميع الشعوب والفرق التي تتكوّن منها الأمة العثمانية واشتراكها في الأعمال التي تصلح بها الدولة وتعمّر بلادها، وهذا الاتفاق والالتزام من نتائج التقارب في التربية والتعليم، فلا بد من عناية العرب عامة والمسلمين منهم خاصة بالتربية والتعليم بقصد مجازاة غيرهم من إخوانهم العثمانيين وتمكين رابطة الاتحاد بهم ومساواتهم في أعمال الحكومة ومجاراتهم في الاعمال الحرة وإلا ساءت العاقبة وخيف ان تساعد أوروبا في المستقبل كل جنس على الاستقلال وتجعل العرب تحت سيطرتها لعدم استعدادهم لتكوين حكومة مدنية .

(١٠) تكريم الشعب وتنبيهه إلى انه أهل لكل مكرمة وكل خير، وان العامي اذا اتقى الله فاجتنب الشرور والمعاصي ولزم الطاعة ورغب في الخير والبر فانه يكون خيراً وأفضل من كثير من المتعلمين الذين لا يستعملون علمهم الا لجرّ المنافع إلى أنفسهم ولو بالباطل، وان الفقير القانع الصالح أفضل من الغني الذي لا ينفع الأمة بغناه، ولا يقف في الكسب عند حدود الله، وأن كثيراً من الفقراء يمكنهم أن يبذلوا شيئاً قليلاً من الصدقة على قدر حالهم للجمعيات الخيرية وبذلك يعدون من خدمة الأمة، ونحو ذلك .

هذه هي المقاصد التي كان يدور عليها كلامي وكان يفهمها المتعلم والعامي : هذا يفهم فهماً إجمالياً، وذلك يفهم فهماً تفصيلياً، وقد رضيها

وأثنى عليها جميع من لقيت من العلماء والأدباء وظهر لها أثر حسن في الدهماء، لما عليه أهل بلادنا من الذكاء، وقد سألت أكثر من واحد من أهل العلم الذين سمعوا الخطب والدروس الدينية التي كنت ألقاها في المساجد: هل انتقدتم عليّ شيئاً فأتقي العود إلى مثله؟ فيقولون ما يقول أهل الفضل في هذا المقام إذا كان ما سمعوا مستحسناً عندهم غير منتقد. ذكرت هذه الكلمة تمهيداً لما يأتي.

### حادثة الشام<sup>(١)</sup>

ذكرت جريدة الاتحاد العثماني خبر تلك الحادثة ولم تخطيء إلا في قولها إنني سافرت من الشام ليلاً والصواب أنني صليت الفجر وسافرت في القطار الذي يخرج منها بعد مطلع الشمس. وقد علم القراء أن ذلك الرجل الذي قطع عليّ الدرس قبل إتمامه لم يدع في مجلس الدرس أنني قلت شيئاً وأخطأت فيه وإنما تكلم كلاماً مستقلاً في مسألتين لم أتعرض لهما في ذلك الدرس ولا في غيره من دروسي في بر الشام بإثبات ولا نفي وهما مسألة تقليد الأئمة الأربعة واعتقاد فضلهم وهدايتهم ومسألة زيارة القبور واحترام الصالحين والتوسل بهم. وقد كان صاحب الفضيلة مفتي الشام حاضراً ذلك المجلس فأياه أسأل دون أولئك الألوفا التي كانت حاضرة الدرس: هل سمع مني كلمة مخالفة للشرع؟ إن كان سمع شيئاً مخالفاً فأذكره بالميثاق الذي أخذه الله على الذين أوتوا الكتاب «ليبينته للناس ولا يكتُمونه» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٨٧] أن يبين لي ذلك في كتاب خاص يبعث به إليّ وأنا أنشره في المنار وغيره مع بيان ما عندي فيه، أو في رسالة بنشرها في بعض الصحف ليظهر الحق لطالبه ولا يخوض الناس في الباطل بغير علم. وسأكتب إليه كتاباً خاصاً أسأله فيه هذا البيان وهو أعلم بما ورد في الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة في وعيد كاتمي العلم.

(١) انظر رحلات الامام محمد رشيد رضا ص ٢٥ وما بعدها.

## كشف شبهتين أو ثلاث

إذا كنت لم أتعرض لذكر زيارة القبور والتوسل بالأموات الصالحين في شيء من كلامي في بلاد الشام فقد اشتهر عني أنني كتبت كثيراً في إنكار البدع المتعلقة بذلك. وإذا لم أكن قد تعرضت هنا لذكر الاجتهاد والتقليد فقد علم الكثيرون أنني كتبت بذلك كثيراً. وكنت أعرض كل ما أكتبه ولا أزال أعرضه لنقد العلماء وأنشر كل ما يرد عليّ منهم في ذلك ولا تتسع هذه الجريدة لذكر شيء من ذلك وإنما أريد هنا كشف شبهتين خاض فيهما بعض الناس بسوء نية وبعضهم بإخلاص وحسن قصد ولكن مع سوء فهم أو تصديق للكاذبين الذين يشيعون عنا الأباطيل حتى زعموا أننا ننكر وجود الملائكة وجوداً مستقلاً.

الأولى: أشيع عني أنني أطالب كل مسلم بأن يكون مجتهداً مثل الأئمة رضوان الله عليهم! وربما تطرف من يستبيح الكذب لإرضاء هواه فزعم أنني أطعن في الأئمة المجتهدين! وأقول في الجواب عن هذه الشبهة إنه لا يطالب الناس بمثل ما ذكر إلا من كان لا يعقل أن هذا من طلب المحال لقصور استعداد أكثر الناس عن ذلك أو عدم تفرغهم له. ومن فهم أنني أعني هذا بالترغيب في الاهتداء بالكتاب والسنة فهو مخطيء فإنما أعني به أن وعظ الناس وتذكيره بالكتاب والسنة هو الذي يؤثر في قلوبهم ويبعث روح الدين في نفوسهم، وأطالب المشتغلين بالعلم أن يعنوا بفهمهما ويذكروا العامة بهما، سواء منهم من تفرغ لدرس كتب المذاهب كبعض طلاب العلم ومن لم يتفرغ له كأكثر العامة. ومسألة النهي عن التقليد مسألة أخرى يراد بها فهم كل قول بدليله لا أن يكون كل مشتغل بالعلم قادراً على تدوين مذهب! وهذا ما أعنيه بالإصلاح الديني وملخصه أن يعنى المشتغلون بعلم الدين بفهم الكتاب والسنة بقدر الاستطاعة وفهم كلام الأئمة بدليله وأن يبذلوا جهدهم بإرشاد العامة بهما كما تقدم. وهذا

هو عين إتباع الأئمة وقد ورد عنهم نصوص كثيرة مصرحة به وهو غير التقليد الذي نهوا عنه .

الثانية : إنني لم أنكر زيارة القبور وإنما أنكر دائماً ما يكون عند زيارتها من البدع التي لم تكن على عهد السلف الصالحين ، ولم يقل بمشروعيتها أحد من الأئمة المجتهدين ، وأقول إن حب الصالحين والأولياء المقربين من الأحياء والميتين إنما ينفع ويكون وسيلة إلى الله عز وجل إذا أفاد صاحبه التشبه بهم في خشية الله وتقواه بترك المعاصي والعمل الصالح مع الإيمان الصحيح وإلا كان غروراً . ومن الغرور الذي يمنعه الإسلام دعاء أصحاب القبور بما لا يطلب إلا من الله واعتقاد أنهم يستجيبون لمن دعاهم ! وإن لهم سلطة غيبية وراء الأسباب والسنن الإلهية ينفعون بها ويضرون ، ويعطون ويمنعون ، فهذا الاعتقاد عبادة باطلة وإن سميت توسلاً فإن الأسماء لا تغير الحقائق .

وما يتعلق بهذه المسألة بحث الكرامات ، وإنني لم أنكر جواز الكرامات ولا وقوعها ولكن بينت أنها لا تكون مخالفة لسنن الله تعالى في خلقه بتغيير أو تبديل أو تحويل لأن الله تعالى أخبر بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول . وإنما لا تكون معتادة كأنها صنعة بيد الولي ! بل قال في الفتوحات إنها لا تتكرر فإن المكرر يكون معتاداً لا خارقاً للعادة ، وغير ذلك من الأغلاط التي لا دليل عليها في الشرع ولا العقل . وحذرت عوام الأمة من الدجالين المحتالين الذين يدخلون عليها التلبيس من هذه الباب . فمن أراد أن يقف على التفصيل في ذلك فليراجع المجلد الثاني والمجلد السادس من المنار ففيهما بضع عشرة مقالة مطولة في الكرامات . ومن يدعي أن شيئاً من كلامنا المجمع هنا المفصل هناك مخالف للشرع فعليه أن يكتب إلينا دعواه مؤيدة بالدليل لنشرها له ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

محمد رشيد رضا



[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١ - ١٥.]

«الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً» [سورة الكهف رقم ١٨، الآية ١]، ولا جعل علينا فيما شرعه لنا من الدين حرجاً، بل جعل مع العسر يسراً ومع الشدة فرجاً، ومن يتق الله بإقامة سننه يجعل له مخرجاً، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً.

والصلاة والسلام على من بعث إلى الأبيض والأحمر، وقام بأمر ربه ٩٤:١٥ «فاصدع بما تؤمر» [سورة الحجر رقم ١٥، الآية ٩٤]، فمكر به قومه ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، فهاجر من وطنه ووطنهم فتبعوه وحاربوه، حتى شجوا رأسه، وكسروا سنه، وعذبوا من اتبعه ضعفاء المؤمنين، فصبر وصبروا حتى كانت العاقبة للمتقين، ١١٦:٣٧ «وَنَصَرْنَاهُمْ فكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ» [سورة الصافات رقم ٣٧، الآية ١١٦].

وبعد، فإننا نقص في فاتحة منار هذه السنة وهي الثانية عشرة له، نبأ من تاريخه الصريح، الذي كنا نشير اليه بالتلويح، تذكيراً وتفصيلاً للقراء السابقين، وعبرة للقراء اللاحقين، وأخص العثمانيين الذين طالما ارتعدت فرائصهم عند ذكر المنار، حتى ربما كنى عنه محبوه بلفظ النار.

أنشئ المنار في أواخر شوال سنة ١٣١٥ [أوائل آذار سنة ١٨٩٨ م] وكان صحيفة ذات ثمان صفحات، وقد بينت في العدد الأول منه الغرض من إنشائه، ومذهبه في الإصلاح الديني والاجتماعي والأدبي، وسكت عن

بيان منهاجه في الإصلاح السياسي، مع التصريح بنزعه العثمانية، وخدمته للدولة العلية، وإنما أسكتني عن ذلك الأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى، فقد كنت استشرته في إنشائه، وقرأت له تلك الفاتحة قبل طبعها، وكان فيها أن من مقاصده بيان حقوق الأمة على الإمام، وحقوق الإمام على الأمة، فاستحسن كل ما أودعته تلك الفاتحة إلا هذه الكلمة، فاقترح عليّ أن أحذفها، ولم يراجعني في شيء غيرها، وكان مما قال في ذلك: «إن المسلمين ليس لهم إمام في هذا العصر غير القرآن»، فإن الخوض في السياسة العثمانية فتنة يخشى ضررها ولا يرجى منها، وإن الناس ههنا لا يحبون أن يسمعوا في السلطان إلا ما يشتهون، ومصر ليس فيها سياسة، والمسلمون لا ينهضون إلا بالتربية والتعليم، فلا تخطط السياسة بمقاصدك الإصلاحية لئلا تفسدها عليك، فإنها ما دخلت في عمل إلا وأفسدته.

هذا معنى ما قاله، وقد حذفت تلك الكلمة استجابة له، وليت السياسة تركتني كما تركتها، أو سالتني كما سالتها، ولكن أبي عليها الخرق والعتوّ، إلا أن تجاهد مني غير عدو، فأذنتني بالحرب، وأذنتني في الأهل والصحب، حتى ألجأني اعتداؤها على حقيقتي، إلى التقصي في استعراف ظلمها لأمتي، ثم إلى الدخول في زمر المجاهدين، لرؤسائها وأعوانها الظالمين، ٤٥:٥١ «فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَتَّبِعِينَ».

جئت مصر وأنا أحسنُ الظنِّ بالسلطان، دون من يحيط به من الوزراء والقرناء الخصيان، وأسيء الظن بطلاب الإصلاح من الأحرار، وأعتقد أنهم إنما يطلبون الرتب والأوسمة والدينار، وقد كنت أصرح بهذا وذاك في السنة الأولى مع المطالبة بالإصلاح، والشكوى من عاقبة الظلم والإفساد، وما كنت لأقول إلا ما اعتقد، وأبثُّ إلا ما أعلم وأجد.

منع رشيد بك والي بيروت، أحد أركان الإفساد في حكومة الاستبداد، توزيع العدد الثاني من السنة الأولى وأرسل البرقيات إلى جميع أنحاء الولاية

بوجوب جمع ما وزع منه وإحراقه، ولم يكن فيه شيء مما كانت تنكره الحكومة في ذلك الوقت، وإنما فعل ذلك مرضاة للشيخ أبي الهدى أفندي الصيادي، الذي كان يعلم أني من حزب السيد جمال الدين الأفغاني، فهو الذي أوعز إلى الوالي بأن يصادر المنار، كما أوعز بذلك إلى بدري باشا متصرف طرابلس الشام، فصار كل منهما يمنع بعض الأعداد، التي يؤذن بتوزيعها في الآستانة وغيرها من البلاد، حتى هبطت الإرادة السنية، وصدرت الأوامر العلية، بمنعه من جميع الولايات العثمانية، وذلك قبل أن يتم له نصف سنة!

لم يشف هذا غيظ أبي الهدى أفندي فأوعز إلى بدري باشا وأعوانه بأن يؤذوا والدي وإخوتي، وينذروا عشيرتي وذوي مودتي، ولما رأى بدري باشا أن مجلس إدارة اللواء، لا يوافق على ما يقصد من الإيذاء، وأن الإيذاء بغير يد الحكومة، لا يشبع تلك النفس الضارية المنهومة، أبدى هو وشيعته للسيد الوالد، رحمه الله تعالى، نواجز الشر، ثم أشخصوه إلى مصر، ليحملني على مشايعة أبي الهدى، وعدم المبالاة بمن دونه من الوري، وبعد طول المذاكرة رضي مني بأن أكتب إليه كتاباً أبين له فيها أنه ليس من قصدي الطعن فيه وأنني لا أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وكتب هو إليه كتاباً آخر، فما عثم أن جاءنا منه الجواب، وهذا نص ما كتبه إليّ بخطه:

الحمد لله وحده

من الفقير اليه تعالى محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي عفي عنه الى جناب الاديب الكاتب الشيخ رشيد رضا أفندي كان الله لنا وله وللمسلمين. وصلني قبل كتابكم وفي هذه المرة أخذت كتاباً من والدكم وكتبت له الجواب في بريد اليوم فكن ريض الخاطر طيب البال. نعم، إني أرى جريدتك طافحة بشقائق المتأفغن جمال الدين الملفقة وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زوراً وقد ثبت في دوائر الدولة رسماً أنه مازندراني من أجلاف الشيعة بعد المخابرة مع سفارة إيران بدار السعادة



والسفارة السنينة في إيران وهو حيّ وما قدر على الدفاع ، وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية، وأراك تملأ جريدتك كل يوم بانتقاد الصوفية بأبحاث جلها ما هي من طريقهم وكذا أولتها وفي بعضها أنت محق بلا شبهة إلا أنك تعلم أن العلماء الآن ما هم كالشافعي وأبي حنيفة وعظماء السلف تمسكاً بالشرع ولا عامة الأمة كالعامة الأول فلو أنصفت وخدمت دينك بغير هذه المواضيع . وإذا ألزمتك طورك وقلمك بالتطرق فهناك تنتقد أعمال الأمم السائرة من غير الإسلام انتقاداً عقلياً يستميل لك القلوب ويرضي عنك ربك لكان أولى، ولما طاب قلبنا لك نصحنك والموعود لله في كل غاية والسلام، من رجب سنة ١٦ .

\*\*\*

ومن هذا الكتاب يعلم أن ما كان يؤلمه من المنار محصور في أمرين أحدهما التنويه بالسيد جمال الدين الأفغاني وذكره بلقب «السيد» - ولم أكن أمنح أبا الهدى هذا اللقب لأنني لا أعتقد شرفه . وثانيهما انتقاد خرافات أهل الطريق التي جعلها أساس مجده، ولكنه كان يوهم السلطان أن المنار لم ينشأ إلا لأجل الطعن فيه كما يعلم مما يأتي . فكتبت إليه كتاباً بينت فيه أنني لم أكتب ولا أكتب إلا ما اعتقد أنه نافع وذكرت له رأيي في السيد جمال الدين فلم يلبث أن أجابني بهذا الكتاب بخطه :

ولدنا الروحاني الأديب الأريب الفاضل الشيخ محمد رشيد أفندي آل رضا المحترم

أدعو لكم ولوالدكم بالخير والعافية ودوام التوفيق، وجداً صرت ممنوناً من تحريراتكم المرسلة والمأمول من عناية الله وفضله أن يديم لكم التوفيقات فيما يرضيه وقد حصل الآن قيد رؤوس أدرنه من مراتب العلمية الشريفة لك فهي ان شاء الله أول الفيوضات ولا يجنح لبالك ان ذلك لغواش هذه الدنيا بل إني أعجبي قولك واطمأن قلبي لصديقك ولبراءتك وأرجو الله إصلاح شأنك في الله كما هو مطوي في كل من له للجناب

الرفيع نسبة . وأوصي رفيقك بالثبات والاستقامة على ما يبيض الوجه حالة القدوم على الله ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> وبحوله تعالى عند مجيئكم إلينا وانفكاكم عن هذه العوارض الحاضرة الزائدة التي لا تنطبق على مجد النسبة نوعاً ما . وإن كان قصدكم حسناً فهنالك تنبلج فيكم أنوار نسبتكم بالتحقق في الطريق الأقوم تحت نظر سرّ الوجود، صلى الله عليه وسلم، وتكون إذن خدمتكم للدين وللمسلمين على النهج الشرعي الصحيح الأمين ومني لكم الدعاء وهو المطلوب منك والسلام .

١٦ شعبان سنة ١٦ [١٣ هـ / ٣٠ / ١٢ / ١٨٩٨ م]

كتبه محمد أبو الهدى

عفي عنه

قرأت هذا فبادرت إلى إرسال كتاب إليه جزمت فيه بأنني لا أقبل الرتبة العلمية التي طلبها لي وأنني من الذين يرغبون عن الرتب والأوسمة فيجب الرجوع عن طلبها وأنني لا استبدل بخدمة المنار لليلة خدمة أخرى مهما كان مظهرها وفائدتها وأنني لا أطلب من الآستانة إلاّ الإذن بدخول المنار لسوريا وغيرها من ولايات الدولة . واعدته في هذا الكتاب أو فيما قبله بترك التنويه بالسيد جمال الدين ما دام المنار مأذوناً له بدخول بلاد الدولة . وسكت على ذلك وسكتنا .

وبعد ثلاثة أشهر وأيام من هذه المكاتبة كتب ناظر خارجية إنكلترا إلى لورد كرومر عميد دولته في مصر يقول إن سفيرهم في الآستانة كتب إليه يخبره أن رئيس كتاب السلطان جاءه وقال له إن في مصر جريدتين معاديتان لشخص السلطان وهما المنار والقانون الاساسي وإن الخديوي ومختار باشا

(١) يريد برفيقي عبد الحليم حلمي أفندي مراد وكان يومئذ مديراً لأشغال المنار وكان سافر إلى الآستانة قبل ذلك وبلغني انه اجتمع بأبي الهدى ولم أدر ماذا كان بينهما ولم يكن لذلك السفر علاقة بالمنار.

الغازي يساعدانها وإن السلطان يرغب إليه بأن يسعى لدى حكومته بإبطال هاتين الجريدتين ويتخذ ذلك يداً يكافئه السلطان عليها! فأخبر اللورد الأمير بذلك فعجب أشد العجب لأنه لم يكن هو ولا مختار باشا بمساعد للمنار ولا للقانون الأساسي بل لم يكن يعرف من مشرب المنار إلا ما أخبره الأستاذ الإمام [محمد عبده] من أنه جريدة دينية أدبية.

سألني الأمير عن ذلك سرّاً في يوم عيد الاضحى سنة ١٣١٦ [١٨٩٩/٥/٢١ م] عندما أردت الخروج مع العلماء من مقابلة التهئة له بالعيد وأمرني بأن أذهب إلى مقابلة أحمد شفيق بك وكان رئيس القلم التركي، وهو اليوم أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي، فذهبت من حضرة الأمير إلى غرفته وكان يقرأ المنار ويعلم أنه ليس فيه تحامل على السلطان بل لا يخلو من مدح له، ورأيته جازماً بأن أبا الهدى هو الذي سعى عند السلطان هذه السعاية وضرب سهامه فيها إلى عدوين من أعدائه: الأمير ومختار باشا الغازي. فأخبرته بأن بيني وبين أبي الهدى سلماً وذكرت له هذين الكتابين فطلبهما مني لأجل أن يحتج بهما فقلت له إن المراسلة بالأمانة وأني لا أجزئ لنفسي أن أظهرهما ما دمت أعلم أن إظهارهما يؤذيه بتغيير السلطان عليه، واستدلّاه بهما على خيانتة له، إذ يجعله ترساً يدافع به عن نفسه. وأما اللورد فقد جرى في المسألة على ما تعود من المحافظة على حرية الصحافة ولكن بعد البحث ومعرفة الحقيقة.

كرّ أعوان أبي الهدى على أهلي كرة ثانية وكانت الدولة دولتهم فضربوا أحد إخوتي وهو خارج من طرابلس إلى القلمون ليلاً وسرقوا فرساً لنا وحاولوا أخذ مسجدنا منا وأغروا جريدة طرابلس الشام بالطعن في المنار والتمسوا لها المساعدة من كل من يكتب في طرابلس حتى أصدقائي فاضطرت إلى كتابة مقال عنوانه «مؤاخذه العلماء» (٣٩ ص و ٥١ م ٢) أسكتها به عن التهادي في الطعن، ولكن ألسنتهم لم تسكت عن السب واللعن، إلا بعد أن أديل منهم، وخضدت شوكتهم وذهبت ريحهم،

وخرج بدري باشا من طرابلس مذؤوماً مذموماً، وبدلنا به عبد الغني باشا العبد وكان لنا ولياً حميماً، بل غلب نفوذ عزت باشا العابد على نفوذ الشيخ أبي الهدى في جميع البلاد السورية، فازداد انتشار المنار فيها وإن لم يرسل إلا في البرد الأجنبية، وأمن الأهل والقراء على أنفسهم طائفة من الزمان، حتى كان منذ أربع سنين ما كان.

ذلك ما كان في السنة الأولى والثانية من سني المنار. وفي أواخر الثانية وأول الثالثة صار يتردد علينا بعض جواسيس ممدوح باشا ناظر الداخلية في الأستانة ويعرض علينا الرتب والوظائف اللائقة إذا نحن تركنا المنار، وغادرنا هذه الديار، فلو شئت أن أكون يومئذ قاضياً أو مفتياً في الشام أو بيروت أو أخذ مرتباً شهرياً عظيماً من الدولة لفعلت، وقد قبل عبد الحليم أفندي أن يترك مصر ويكون معاوناً لناظر النفوس في بيروت بمرتب كمرتب الناظر فنال ذلك على أنه لم يكن كاتباً ولا سياسياً ولا ذا شأن في المنار وقد بلغني وقتئذ أن ذلك الجاسوس أخذ من ممدوح باشا ٨٠٠ ليرة عثمانية سهاها ثمناً لمطبعة المنار ولم يكن للمنار يومئذ مطبعة تساوي ٨٠٠ قرش!

وفي أثناء السنة الرابعة غضب عليّ أمير هذه البلاد وآذني صديقي حسن باشا عاصم، وكان رحمه الله يومئذ رئيس التشريفات، بأنه لا يرضى أن أقابله بعد وكان يقول لي قبل ذلك إن لك ان تحييء إليّ في قصر عابدين أو قصر القبة متى شئت. وكان غضب أيضاً على الأستاذ الإمام [محمد عبده] وكلما اشتد غضبه على أحدنا يشتد على الآخر ولا أحب أن اذكر الآن شيئاً مما سمعته أو علمته من آثار هذا الغضب إلا ما قيل من عزمه على إخراجي من مصر فقد قال مصطفى كامل باشا للأستاذ الإمام [محمد عبده] مرة إن افندينا يريد أن ينفي صاحب المنار من مصر ويطلب منك أن تسكت على ذلك ولا تحمل لورد كرومر على المعارضة فيه. وسمعت مثل هذا الخبر بعد وفاة الأستاذ الإمام. وقال لي أحد معارفي في ٢٢ من المحرم سنة ١٣٢٦ [هـ/٢٥/٢/١٩٠٩ م] ان السرغورست على

وفاق مع الخديو وهو لا يعارضه في الانتقام ممن يغضب عليه ولا سيما إذا كان عثمانياً لأنه ليس كلورد كرومر في المحافظة على الحرية الشخصية. وقد علمت أن الخديو غضبان عليك فيجب أن تسعى في استرضائه لئلا ينفيك من هذه الديار وإنه ربما يفعل ذلك. فقلت له إنني لا أكتب في هذه السنين شيئاً عنه ولا أعلم أن في المنار شيئاً يسوءه فماذا ينقم مني؟ قال دوام الثناء على الشيخ محمد عبده. قلت ليس في المنار ثناء، وإنما هي أقوال عنه وآراء، ولا يمكن أن يخلو المنار من ذكره، وأن مصر لا مزية لها عندي إلا حرية العلم والصحافة والحرية الشخصية فإذا كان الخديو ينفي من كره وجوده فيها، فلماذا أحرص أنا على الإقامة بها، أو آسي على البعد عنها! إنني إذاً أظعن إلى الهند، وأني لأعلم أنه يكون لي فيها مقام كريم لا أجد مثله في مصر، هذا وإن مثل هذا الخبر ليس برهاناً يقينياً على صحة ما قيل عن الأمير برأه الله وحماه مما لا يليق به، وإن كان عند بعض الكبراء ونظار الحكومة نبأ منه.

وفي السنة الخامسة نشرت «سجل جمعية أم القرى» في المنار ومقالات «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» فتضاعف قراء المنار في القطر المصري واشتدت الحكومة العثمانية في المراقبة عليه والبحث عن قرائه ولا سيما في القطر السوري.

وفي السنة السادسة شرعت في نشر رسالة في مالية الدولة العثمانية فرغب إليّ الأستاذ الإمام [محمد عبده] أن لا أتمها فوافيت رغبته ولكنني ضقت ذرعاً بسوء حالنا السياسية فصرت أكثر في تفسير القرآن الحكيم من السياسة وهو يجيز ذلك لأنه إنما ينهي عن التصريح بسياسة حكوماتنا وحكامنا لئلا يصدونا عن خدمة الدين والعلم.

وفي السنة السابعة كثر دبيب عقارب السعاية من جواسيس المابين بمصر وتواترت التقارير في الأستاذ الإمام وفي صاحب المنار، وكان الذي يُبلغها السلطان هو عزت باشا العابد الذي كان بينه وبين الأستاذ مودة سابقة مذ

كانا في سورية ولم يحدث بينهما ما يوجب هذا الانقلاب إلا صنعة عزت الجديدة في المابين وعلاقته بمصر وكان حزب الشيطان الذي يدبر هذه السعايات والمفاسد قد زوّر رسائل بتوقيع محمد عبده وأرسلها إلى الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد العربية تشتمل على الدعوة إلى الخلافة العربية وهو يعلم أنها تقع في الأيدي التي توصلها إلى المابين فاشتد خوف السلطان من الشيخ محمد عبده، والشيخ محمد عبده لا علم له بما يكتب في شأنه ولا ما يكتب عن لسانه مما هو مخالف لرأيه واعتقاده حتى أنه هو الذي أرجع بعض المستشرقين عن السعي لإنشاء دولة عربية لاعتقاده أن التفريق بين الترك والعرب يضعف الفريقين ويسهل على الدول الطامعة محو الدولة الإسلامية من الأرض وإنني ما وقفت على أكثر ما أشرت إليه هنا إلا بعد موته.

وما دخلت السنة الثامنة إلا وقد صار النفور والخلاف بين الأمير والأستاذ [محمد عبده] على أشدهما كما أن السعاية إلى السلطان فيه قد بلغت غايتها، وقد اشتد المرض على الأستاذ حتى كان يجود بنفسه في الاسكندرية والحكومة العثمانية تبحث عنه في سواحل بيروت لأن الجواسيس قد بلغوا المابين أنه سافر إلى بيروت متنكراً ليؤسس الخلافة العربية في سورية! ألا قاتل الله أولئك التحوت الأشرار ما كان أشد عبثهم بالسلطان وخيانتهم له وللدولة والأمة. وفي هاتين السنتين كان الاستبداد قد شد الخناق على محبي العلم والاضطهاد لمقتني الكتب ومنيت بيروت بخليل باشا والياً، وطرابلس بحسنى بك متصرفاً! وكانا من شر أعوان الاستبداد والمخلصين له فيما يحاول من الظلم والإفساد، فأسرفا في تفتيش البيوت! وأخذ الكتب والأوراق منها! والمؤاخذه على اقتنائها! حتى صار الناس يحرقون كتبهم وأوراقهم بالنار! ومنهم من كان يدفنها بل يئدها كما تئد الجاهلية البنات! حتى أحرق في سنة واحدة عشرات الألوف من المجلدات!

كيف لا وقد كانت الكتب والجرائد تعد من الجرائر، منها الصغائر ومنها الكبائر، وكان اقتناء المنار أو ما طبع بمطبعة المنار، هو أعظم الذنوب وأثقل الأوزار، وكان الحكم على مجرمي الكتب بالهوى لا بالشرع ولا القانون، لا تأخذ الحاكم فيهم رأفة، ولا تقبل منهم شفاعاة ولا عدل ولا هم ينصرون، على أن أولئك الولاة ومن دونهم من المستبدين، لم يستعملوا بأس الحكومة إلا في منع كتب العلم واضطهاد المتعلمين، دون سفك الدم وإفساد الأمن، وإهلاك الحرث والنسل، فماذا كان حظنا من حكمهم؟

دمروا الدار، واجتاحوا الكتب والأسفار، وحبسوا من وجدوا من الإخوة، وحصروا الوالد المريض مع النساء، ووضعوا على داره الحراس والخفراء، فكان ذلك الشيخ الجليل، والسيد الشريف، يجود بنفسه، وينتظر أمر ربه، وبناته مع أمهن أمام سريره يطلقن العبرات، ويصعدن الزفرات، فقد عز عليهن، وعظم المصاب في قلوبهن، أن حيل بينه وبين أولاده الأبرار، في وقت توديعة هذه الدار، فمنهم القريب الذي هو في حكم المبعد، والسجين الذي هو في حكم المستبعد. هذا والجنود السلطانية تحيط بهن، وتطوف حول منزلهن، شاكية السلاح، مستعدة للكفاح، تدل ببأسها وشدتها، وتمثل قوة «الخلافة الحميدية» وعظمتها، ليعرف الشيخ المحتضر عجزه عن تأسيس خلافة عربية في قرية القلمون، وهكذا قضى الوالد نجه، فإننا لله وإننا إليه راجعون.

ثم كان من ظلم الحكومة المستبدة لنا أن ولت على مسجدنا رجلاً آخر بغير حق وأطمعته في الاستيلاء على عقاراتنا بدعوى أنها وقف كما أطمعت غيره من أشقياء طرابلس فنهبوا ما وجدوا في الدار من الثياب والحلي والماعون وغير ذلك، وقد أسقط الله حكومة الاستبداد، ولما تُكوّن حكومة الدستور، فحقوقنا لا تزال مهضومة لفساد الحكام، واختلال الأمن العام، فهذا مجمل من خبر ظلم الحكومة لنا، وهو قليل من كثير ظلمها لغيرنا،

من أجزموا كإجرامنا، فشكوا من الظلم والجهل، ودعوا إلى العلم والعدل.

كان يصل إلينا قليل من أخبار الاستبداد، ووقائع العتو والإفساد، وبعد وفاة الأستاذ الإمام [محمد عبده] صرفنا وقت الفراغ والراحة الذي كنا نجالسه فيه إلى مجالسة إخواننا العثمانيين المقيمين في القاهرة فازدنا علماً بسوء الحال، وخطر المال، فأسسنا جمعية الشورى العثمانية لأجل جمع كلمة العثمانيين، على استبدال حكومة الشورى بحكومة المستبدين، لعلمنا بأن جمعية الاتحاد والترقي خاصة بالمسلمين، وأن العثمانيين ما داموا متفرقين شيعاً، ومتقطعين مللاً وأمماً، فكلمتهم هي السفلى، وكلمة الاستبداد هي العليا، فتألفت الجمعية من المسلمين عربهم وتركهم وألبانهم وأكرادهم، ومن النصارى عربهم ورومهم وأرمنهم، ودعي إليها بعض اليهود ولكن لم يكن في مجلس ادارتها أحد منهم، وقد انتخب هذا العاجز، صاحب هذه المجلة، [المنار] رئيساً لمجلس ادارة اللجنة المؤسسة لهذه الجمعية وكانت ترسل جريدتها ومنشوراتها السرية، إلى الروملي والأناضول بل والأستانة العلية.

اهتم السلطان بهذه الجمعية حتى هجر النوم مضجعه ثلاث ليال، كما علمنا من رواية العارفين الثقات، فقد كان، وأقر الله بالدستور عينه، ولا شهد في عهد الحرية جفنه، كثيراً ما يشارك أحرار أمته في أرقهم، ويساهمهم في قلقهم، وإن كانا في هذا الأمر، كضيف عمرو وعمروا، وصار للجمعية لسان صدق عند جميع أحرار العثمانيين، فكانت مبدأ ما كان من وحدتهم بعد حين، وقدم أحمد رضا بك من باريس إلى مصر فرغب إلينا أن نضم جمعيتنا إلى الاتحاد والترقي فأبى مجلس الإدارة ذلك عليه، وكان مما قلته له إن تعدد الجمعيات مع وحدة الغاية والمقصد لا يعد تفرقاً ولا يحدث ضعفاً، وإننا نرى أنه لا نجاح للعثمانيين إلا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور، قال إن قانون جمعيتنا لا يمنع قبول غير



المسلمين فيها، قلت نعم، وإننا لا نشكو من القانون ولكن من عدم تنفيذه فما قانونكم، وليس في جمعيتكم رومي ولا أرمني ولا سوري نصراني، إلا كقوانين السلطنة «حبر على ورق» ولو نفذ السلطان قوانين الدولة على علاقتها لما طالبنا بمجلس المبعوثان لإشراك الأمة معه في الأحكام.

هذا ملخص تاريخنا السياسي في السنين الخالية: سألنا السياسة فساورت وواثبت، وأسلسنا لها فجمحت وتقحمت، وكنا نهمُّ بها في بعض الأحيان، فيصدف بنا عنها الأستاذ الإمام، ولم نل منها ما نهواه، إلا بعد أن اصطفاه الله، وليس للمنار حظ في السياسة العملية، وإنما هم أنه أن يكون حراً فيما فرض عليه من الخدمة المالية، وإذا كان، كسائر الصحف، قد أمن على حريته واستقلاله من استبداد الدولة، فقد بقي عليه أن يجاهد مع غيره استبداد الأمة. فإن في الأمة أعداء للحرية والاستقلال، في العلوم والأفكار والأعمال، يحبون أن تكون الصحف كما يرون لا كما يرى أصحابها، وأن ينشر فيها ما يعتقدون لا ما يعتقد، كتابها، وما كتاب الصحف إلا معلمون ومرشدون، وهل يعلم الأستاذ تلاميذه ما يعلمون ويربي المرشد مريديه كما يريدون؟ وقد جرى على هذا كثير من أصحاب الصحف المصرية وما كانوا مصلحين، ويجري عليه الآن بعض أصحاب الصحف العثمانية وما هم بمهتدين، وسيبقى المنار على صراطه لا ييالي بالمخالفين.

نعم، إن المنار يستقبل جهاداً جديداً في البلاد العثمانية، وقد فرغ من مثله فيما عداها من مصر وسائر البلاد الإسلامية، فأكثر المسلمين العثمانيين، لم يألفوا حرية البحث في السياسة والعلم والدين، ينظر أغلب الباحثين إلى القائلين دون الأقوال، وينصرون التقليد على الاستقلال، ولكن يوجد في كل بلد أفراد سلمت فطرتهم، واستنارت بالحق بصيرتهم، يشعرون بشدة الحاجة إلى إصلاح حالنا الاجتماعية والدينية، ويعلمون أنه

يتوقف على استقلال الفكر والحرية، وأن هؤلاء على قلتهم، ليغلبون أولئك على كثرتهم، وسيبرزون لهم بعد استقرار الدستور مجادلين لا مجالدين، يتلون (٢: ٢٤٩) «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين» [سورة يوسف رقم ٢، الآية ٢٤٩] فهذه الفئة هي التي يشد المنار أزرها ويشد بها أزره، وينصرها في جهادها ويتقاضاها نصره، ٢٢: ٤٠ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٤٠]

سيقول السفهاء من الناس، وأهل الأرجاف والوسواس، إن هذا المنار يدعو إلى الفوضى في الدين، بترك مذاهب الأئمة المجتهدين، وينصر مذهب الوهابية، على مذهب السنة أي الحشوية، ويطل القول بالكرامات، بإنحائه على الدجل والخرافات، وحجة أنصار المنار على هؤلاء، ومن يقلدهم من الدهماء، الذي يثبت أنه يتحرى الحق والصواب، ولا يريد إلا الإصلاح ما استطاع، دون التعصب لمذهب على مذهب، هي قبوله انتقاد المنتقدين، في مسائل الدنيا والدين، إذا أيدت الأولى بالعلم والعقل، والثانية بما صح من النقل، مع التزام النزاهة والآداب، واجتناب الحشو والإطناب، فمن زعم أن في المنار باطلاً فليكتب إليه، دون أن يعصي الله بغيبته والطعن عليه، ولحق السلطان على الباطل (٢١: ١٨) «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» [سورة الأنبياء رقم ٢١، الآية ١٨]، ١٣: ١٩ «فأما الزبد فيدهب جُفَاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ١٩]

منشئ المنار ومحوره

محمد رشيد رضا الحسيني

## تنبيهُ الجرائد السورية

الى الاعتبار بتاريخ الجرائد المصرية<sup>(١)</sup>

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٣٢ - ٤٠]

إذا كانت تربية الأطفال فناً من أدق الفنون وهو لما يبلغ درجة الكمال على عناية العلماء والفلاسفة به فماذا نقول في تربية الأمم؟

يوجد ألوف كثيرة من المربيّات والمربين في كل أمة من الأمم المتمدنة ولكن الذين يربون الأمم قليلون في كل أمة وكل زمان.

إن للأمم أطواراً كما أن للأفراد أطواراً، ولا يحتاج المربي للأفراد في طور من أطوارهم إلى العلم الواسع والخبرة الدقيقة والعناية العظيمة كطور الانتقال من المراهقة إلى البلوغ أو من التقليد والإلزام إلى الرشيد والاستقلال. وإن المربي للأمم يكون عند انتقالها من حكم الاستبداد والعبودية إلى حكم الشورى والحرية أحوج من مربّي الأفراد إلى العلم والخبرة والبصيرة والحكمة.

إن خطباء الأمم والقائمين على تربيتها بالإرشاد والتعليم وانتقاد الحاكمين والعاملين هم أصحاب الجرائد، وقد كانت الجرائد العثمانية في مآزق لا تستطيع فيه حراكاً، فخرجت إلى مجال فسيح وميدان واسع، ولكن الجولان في هذا المجال والجري في هذا الميدان لا ينبغي إلا للفرسان المهرة، فإن الأرض على رحبها غير ممهدة، والطرق على سعتها غير معبّدة،

(\*) نشرناها أولاً في جريدة «ابابيل» البيروتية ونقلتها عنها جريدة الاتحاد العثماني.

فأمام من يريد الجولان عواثر يخشى عليه من التردى فيها، وعقبات يصعب اقتحامها، وأعلام مشتبهة لا يؤمن الضلال بينها.

فنون الكلام في الجرائد كثيرة، والانتقاد أدقها مسلكاً وأصعبها مركباً وأشدها على النفوس وقعاً وأكثرها ضرراً ونفعاً، فمن وظائف الجرائد نقد الحكام والأحكام، ونقد العمال والأعمال، ونقد العلماء وكتب العلوم، فلا شيء إلا وهو معرض لنقدهم، فإن أحسن كتابها النقد كانوا خير العون على الإصلاح، وإن أساؤا كانوا من عوامل الفساد والإفساد، لا سيما في مثل الطور الذي دخلت فيه الأمة العثمانية الآن.

لا يعرف أحد كنه تأثير الجرائد في مثل هذا الطور كما يعرفه أهل البصيرة الذين خبروا بأنفسهم أمة كان الاستبداد يسومها سوء العذاب، فانتقلت إلى الحرية فجأة ووجد فيها جرائد كثيرة مرخية العنان مطلقة من القيود ورأوا بأعينهم ما كان لها من التأثير في تلك الأمة. وإن هذا الوصف ليصدق على بعض العثمانيين الذين أقاموا في القطر المصري زمناً طويلاً موجهين عنايتهم إلى اكتناه أحواله الاجتماعية فإذا اشتغل هؤلاء بالصحافة العثمانية رجونا أن يفيدوا الأمة جميعاً.

لقد نفعت الجرائد في مصر كثيراً وأضررت كثيراً، وأذكر على سبيل العبرة للجرائد السورية مثلاً من نفعها ومثلاً من ضررها:

إن للجرائد المصرية أحسن الأثر في النهضة العلمية في القطر المصري حيث صار الموسرون يتبارون في دفع ألوف من الجنيهات لإنشاء المدارس، ويقفون عليها وعلى الجمعيات التي تقوم بإدارتها الأراضي الواسعة ذات الربيع العظيم، وقد كان اشتراك الجمعية الخيرية الإسلامية لا يخرج من كيس الغني الكبير منهم إلا نكداً بعد مطالبات كثيرة، وما ذلك الاشتراك إلا جنيهان أو أربعة جنيهاً في العام!

لم يكن الحث على إنشاء المدارس والدعوة إلى التربية والتعليم غرضاً

خاصاً لجريدة من تلك الجرائد، ومذهباً ملتزماً تدعو إليه وتجعله مداراً  
لنهضة الأمة وسعادتها إلا مجلة المنار التي صرح في فاتحة العدد الأول منها  
بهذه الكلمة «وغرضها الاول الحث على تربية البنات والبنين» ثم كنا  
نستطرد من كل موضوع يكتب فيها إلى الحث على التربية والتعليم. ولا  
أريد بهذا الاستثناء أن أنيط بالمنار ما ذكرت من النهضة العلمية فأدعي أنه  
هو روحها الذي به حياتها ونماؤها، بل لا أنكر أن الجرائد اليومية أعم  
تأثيراً منه في ذلك، ناهيك لأسماء المتبرعين بما قل أو كثر مع الحمد والثناء.  
ولو أنها جعلت الدعوة إلى ذلك مذهباً متبعاً ومشرباً موروداً لكان النفع  
أعظم، ولكن شغلتها السياسة عن ذلك وهو أنفع لهم في سياستهم.

فهل للجرائد العثمانية أن تعتبر بهذا فتجعل الدعوة إلى التربية والتعليم  
ديدنها، والحث على التبرع لذلك وتأسيس الجمعيات لأجله مذهبها الذي  
توجه إلى نشره جل عنايتها؟ فإذا كان للجرائد المصرية بعض العذر في  
جعل جل همها في السياسة فإن جرائد سورية لا نصيب لها من هذا  
العذر، لأنه ليس في بلادها سلطتان متعارضتان إحداهما أجنبية بيدها الحل  
والعقد بالفعل، والأخرى رسمية لها الاسم وما لا يعارض سياسة الأولى  
من الفعل. على أننا قد نبهنا أصحاب الجرائد السورية إلى تقصير الجرائد  
المصرية في الدعوة إلى التربية والتعليم على الوجه الذي هو أرجى لتكوين  
الأمة وجعلها أمة عزيزة مستقلة في نفسها استقلالاً يفضي إلى استقلالها في  
أحكامها وسياستها.

هذا، وأما المشال لضرر الجرائد المصرية فهو طريق انتقادها ولا سيما  
للحكومة، فقد سلك أكثرها فيه مسلكاً أسقط هبة الحكومة من النفوس  
بعد ما كان لها من هياكل العظمة في كل خيال، وشعور الخشية والبأس في  
كل قلب، فوثبت الجرائد بالشعب المصري من طرف إلى طرف، من غير  
أن تمر به على الوسط أو ما يقرب من الوسط.

ذلك المسلك هو اتهام الحكومة بمشايعة الإنكليز على ما يريدون من

السوء بالبلاد، فكان أولئك الكتاب ينحون بقدرهم وطعنهم على الوزارة «مجلس النظر» في الجملة وعلى رئيسها وأفرادها وعلى المديرين وغيرهم من رؤساء الأعمال في التفصيل، فذلك الانتقاد أو الطعن كان الغرض منه تأييد سياستهم في مقاومة الاحتلال والتشفي من الإنكليز وبيان أن الأمر كله في أيديهم وتبعته عليهم، وأن النظر وسائر الموظفين المصريين آلات صماء، تحركها هذه الأيدي كما تشاء، ولكن فيما يضر البلاد ولا ينفعها وفيما يسلب السلطة الشرعية من أميرها، وهو الذي يريد لها الخير لولا أنه عاجز عنه. وكان يقوم في وجه هذه الجرائد الكثيرة جريدة أو جريدتان أو ثلاث تندد بالأمير وبطانته، وتلمز ذلك المقام بما يخفض من قدره، فبذلك كله زالت هيبة الأمير وحكومته الرسمية من النفوس، فتجرأ الأشقياء على السلب والنهب، وإهلاك الحرث والنسل، وكثرت الجنايات في الأرياف حتى أن الحكومة لا تزال في حيرة من حفظ الأمن إلى هذا اليوم.

نعم، إنه قد استقر في أذهان جميع المصريين أن الأمر كله للإنكليز، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما أرادوا من حيث لا تستطيع الحكومة المصرية من دونهم شيئاً، ولكنهم علموا مع هذا أن الإنكليز لا يحفلون بالمسائل الجزئية التي تتعلق بأفراد الأهالي وإنما يكلون الأمر فيها إلى الحكومة المصرية تنظر فيها بحسب القوانين، فلا يستطيع المأمور ولا المدير ولا رئيس النيابة، المدعي العمومي، ولا القاضي أن يعاقب جانياً إلا إذا ثبتت جنايته في المحكمة، وقلما يقدم الجناة على عملهم إلا وهم آمنون من ثبوته عليهم!

فاختلال الأمن في القطر المصري نشأ من سقوط هيبة الحكومة من نفوس العامة، والتطرف في الحرية والانتقال من حكومة استبدادية عرفية، إلى حكومة قانونية حرفية، أي يجري فيها الحكم على ظواهر ألفاظ القانون من غير تطبيق على المصلحة العامة التي وضع لأجلها القانون. وما كان لأكثر الجرائد من عمل في ذلك إلا ما ذكرنا، فما كان من خطأ يقع كانوا

يحملونه على سوء النية من الحكومة، وما كان من صواب يسكتون عنه أو يحملونه على غير محمله، حتى كانوا ربما يطعنون في أنفع الأعمال كإنشاء الخزان في أسوان. فلهذا ولغيره من الخطأ الذي لا يتسع هذا المقال لشرحه كان الأستاذ الإمام [محمد عبده] يقول «جرائدنا إحدى بلايانا».

فيجب أن تعتبر الجرائد السورية بخطأ الجرائد المصرية التي سبقتها في الاستقلال والحرية كما تعتبر بصوابها، فكما يجب عليها أن تتخذ لها مذاهب في الإصلاح الاجتماعي لا تشغلها عنه السياسة يجب عليها أن تتخذ لها أسلوباً حكيماً في انتقاد الحكومة يرفع نفعه ولا يخشى ضرره، ويجمع بين حفظ هيبتها في نفوس العامة من حيث هي أمينة على مصالحها ومنفذة لشريعتها وقوانينها التي أقرها نوابها ووكلاؤها، وبين تكريم الأمة وإعلاء شأنها وغرس مبادئ الحكم الذاتي في نفوسها.

كيف تنتقد الحكومة

تنتقد أعمال الحكومة لغرضين شريفيين: أحدهما وهو، الأصل، صيانة الحقوق وحمل الحكام على العدل وأداء الأمانة بالتزام الشريعة وتطبيق القانون على المصلحة العامة. وثانيهما، عرضي تمس إليه حاجة الأمة أو ضرورتها في مثل الطور الذي نحن فيه الآن في بلاد الدولة عامة والقطر المصري خاصة، وهو بث مبادئ الحكم الذاتي في نفوس الأمة، أي حكم نفسها بنفسها.

أما الأول، فطريقه أن يبحث الكتاب عن الأعمال والأحكام، ويبينون ما يجب بيانه في انطباقها على الشرع والقوانين وعدمه من غير بذاء ولا استعلاء ولا طعن يسقط المهابة ويذهب باحترام الحكومة من نفوس العامة. وإنما نعي بالأعمال أعمال الحكومة دون الأعمال الشخصية التي لا دخل لها ولا تأثير في المصالح العامة.

ومن كان مخلصاً في انتقاده يتحرى الحق فيه، فإذا ظهر له أنه أخطأ فيما

كتبه رجع عنه رجوعاً صريحاً وبيّن سبب خطئه الأول ومشرق انبلاج الصواب له وبذلك يكون كلامه مؤثراً في القلوب ذا سلطان على النفوس فيقدره قدره الحاكمون، فإذا لم يرجع به المسيء عن غيه آخذه رؤساؤه على سوء فعله .

ومن آيات الإخلاص أن يسعى مريد الانتقاد إن تسر له كأن يراجع الحاكم فيما يرى أنه يسيء أو يجور فيه، فإن تم ذلك وإلا لجأ إلى الانتقاد . وينبغي أن يبدأ بالرمز والتلويح، ثم يترقى في سلاليم التصريح، فإذا استقام الجائر، وعدل الظالم، وجب أن يقف الناقد عند الدرجة التي ارتقى إليها في نقده ثم يثني على العمل الذي يستحق الثناء .

ومما يتحتم مراعاته أن تكون الفقرة التي ينتقد بها القضاة ورؤساء الإدارة بحيث يفهمها الخاصة دون العامة، كأن تورد بضروب من المجاز والاستعارة وتستعمل فيها الألفاظ الغريبة لئلا تزول مهابة الحكومة من نفوس العوام وتقل ثقتهم بالقضاء ويعتقدوا أنه لا سبيل إلى قضاء مصالحهم إلا بالرشوة، ويطمع المبطلون منهم بهضم الحقوق ويضري الأشفياء، بالتعدي على الضعفاء، اعتماداً على ضعف الحكام أو ظلمهم .

وإنما تجب مراعاة ما ذكر في انتقاد من يسيء مستخفياً، وأما من يجهر بالسوء ويعرف عنه الظلم فأولئك هم الذين لا تحفظ لهم حرمة، ولا ترقب فيهم ذمة، فيجهر الكتاب بانتقادهم، ويحرضون الأمة على الشكوى منهم، إذا لم يبادر رؤساؤهم والمفتشون عليهم إلى النظر في أمرهم، ولتكن الشكوى إلى المجالس العمومية في الولايات ثم إلى مجلس المبعوثان في الأستانة بعد مراعاة ما اشترطه القانون الأساسي في ذلك .

أما الطعن في الحكومة على الإطلاق، فضرره عظيم جداً في مثل بلادنا ولا سيما في أول العهد بالانقلاب كهذا الزمن . مثال ذلك طعن المتهقرين أو الرجعيين، على الخلاف بين كتاب العرب وكتاب الترك في لقبهم، في



حكومة الشورى الحاضرة من حيث شكلها والاستدلال على ذلك بالخلل والفساد الذي أظهرته الحرية في الأمة والحكومة جميعاً بزعمهم، وما هو إلا من رزايا الحكومة السابقة التي يتعذر تطهير الأرض من نتنها في بضعة شهور أو بضع سنين.

ومن أمثله استبطاء كثير من المحبين للحكومة الحاضرة لأعمال مجلس الأمة واظهارهم قلة الثقة به وشكهم في أنفسهم وتشكيكهم للناس في قدرته على القيام بما عهد إليه من إصلاح حال الدولة، وترقية شؤون الأمة، وما ذلك إلا لجهلهم بحاله وبحال الحكومة التي ينظر في أمر إصلاحها.

إن مثل مبعوثينا ونوابنا في مجلسهم كممثل مهندس كلف وضع رسم أو رسوم لبناء بلد كمسيني «لا مسينا كما تضبطه الجرائد» قد دمرته الزلازل وان يستحضر البنائين لإعادة بنائه على أحسن مما كان عليه، ويراقب عملهم إلى أن يتم ثم يكون أميناً عليه حافظاً له فأراد أن يشرع في العمل فوجد معظم أنقاض البلد مفقودة قد تلف بعضها وسرق بعض ولم يجد من البنائين المهرة والصناع والنجارين عدداً كافياً للإسراع في العمارة!! فهل يلام المهندس ويرمى بالتقصير وحده وينسى ذلك الزلزال الذي دمر البلد وأولئك اللصوص الأذنياء الذين كانوا ينهبون أنقاضه وما يهياً لبنائه؟

إلا أن عذر مبعوثينا أظهر من عذر ذلك المهندس، فإن زلزال الاستبداد قد توالى على المملكة العثمانية من زهاء ثلاثة أجيال، وقد اشتد في عهدنا هذا من أول هذا القرن الهجري حتى كاد يجعل المملكة أثراً بعد عين. وقد كان أكثر رجال حكومتنا في ذلك الدور كأولئك التحوت الذين افترضوا زلزال «مسيني» فسارعوا إلى نهب كل ما وصلت إليه أيديهم الأثيمة من أموال الهالكين والمشرفين على الهلاك، فماذا عسى أن يفعل نوابنا في أيام أو شهور؟

قال أمامي بعض هؤلاء المنتقدين الطيبة قلوبهم النائمة عقولهم أو

القليل إختبارهم: إن بعض المبعوثين يسأل في المجلس أسئلة سخيفة تدل على أن مجلسنا في سن الطفولية! قلت هل كان فيها أسخف من سؤال بعض نواب الإنكليز في مجلسهم الذي هو أعلى وأرقى مجلس نيابي في الأرض عن الكنف (المراحيض) في القاهرة وكونها قليلة أو غير موجودة في الأحياء الوطنية!

ومن أمثلة الانتقاد المطلق في الحكومة الحاضرة ما يلهج به الناس من جميع الطبقات في جميع البلاد من تقصيرها في حفظ الأمن وإرسالها حبال الأسياء على غواربهم، وهذا الانتقاد واقع ما له من دافع لظهور موجب له لكل أحد، وهو هو علة الانتقاد الذي ذكر قبله، ولأمر ما كان كلام الجرائد فيه دون كلام الناس في أنديتهم وسماهم وبيوتهم وسائر مجامعهم وفي الطرق وفي الأسواق!

وإذا طال العهد على هذا الإهمال، فإنني أخشى أن يتفاقم أمره، ويستشري شره، وقد كلمت فيه والى بيروت قبلاً «والي سورية الآن» ووالي بيروت الآن والمدعي العمومي لولاية بيروت ومتصرف طرابلس فرأيتهم ينتظرون أول السنة المالية التي قربت خطواتها لإصلاح حال الشحنة والشرطة والدخول على حفظ الأمن من بابه.

إن عذر الولاة والمتصرفين في التقصير في حفظ الأمن محصور في ظنهم أنه لا يمكن بطريقة قانونية لا استبداد فيها ولا ظلم إلا بعد تنظيم الشرطة وإيجاد قوة عسكرية كافية لتلافي ما ربما يحدث من الثورات الداخلية! وهو عذر مبني على عدم اختبار حال البلاد في مثل ولاية بيروت فقاسوها على مثل ولاية الموصل وعلى حوران من ولاية سورية، ويعسر علينا إقناعهم بأن هذه البلاد لم تصل إلى هذه الدرجة من الشر والفساد، وأنه لا يوجد فيها أحد من الأسياء يفكر في مقاومة الحكومة قط، وإن أي والٍ أو متصرف أخذ بالحزم يسهل عليه أن يحفظ الأمن. على أن من يقنع منهم بذلك لا يتجرأ على الإقدام عليه وتحمل تبعته في عهدة هذه الحكومة ولا

سيما مع بقاء الأستانة مستأثرة بالسلطة العليا ومقيدة لسلطة الولاية به المتصرفين فمن دونهم!

إذا طال العهد على الحال التي نحن عليها، وما هو بالذي يطول ان شاء الله، يتقوض بناء مهابة الحكومة من نفوس العامة فلا يبقى منه شيء وتصير البلاد فوضى، ولولا إن سلامة القلوب ومحاسن الأخلاق لا تزال ذات السلطان الغالب في بلادنا لكانت بضعة شهور كافية لانتشار الفوضى وطمع الأشقياء في الخروج على الحكومة ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون إن شاء الله تعالى.

إن الحكومة قادرة الآن على التنكيل بالأشقياء فكيف بها بعد التنظيم الذي أظننا زمانه وأدركنا أبابه. وإن ما حصل طبيعي في طور الانقلاب فما هو بالأمر الغريب الذي [لا] يبيح للناس ولا للجرائد الطعن في الحكومة على الإطلاق.

إذا رأينا بعد استقرار الحكومة الجديدة وإقامة النظام المنتظر عجزاً عن حفظ الأمن في ناحية لسوء إدارة مديرها أو في قضاء لجهل القائمقام أو في لواء لضعف المتصرف أو في ولاية لعله في الوالي، فإننا نسعى لدى مرجع كل واحد من هؤلاء لاستبداله، إذا أعوزنا إصلاح حاله، ولا نطعن الحكومة طعناً مطلقاً يذهب بثقة العامة بها، ولا نتهمها بالخيانة والفساد، ولا نرميها بالعجز والضعف، فإن ذلك كله تسوء عاقبته على كونه لا يمكن أن يكون صحيحاً على إطلاقه.

حسبنا هذه الكلمات في بيان الغرض الأول من غرضي الانتقاد الصحيحين فإن المخاطب بها هم الكتاب الألباء واللييب تكفيه الإشارة.

وأما الغرض الثاني من ذينك الغرضين وهو تقوية روح الحكم الذاتي في الأمة، فقد يحتاج إليه في البلاد المصرية أكثر مما يحتاج إليه في البلاد السورية، لمكان الظنة في استئثار الإنكليز بالسلطة وجعل المصريين الآن في

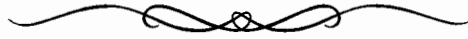
أيديهم . ومع ذلك نرى الجرائد المصرية قد قصرت فيما يجب عليها من الرمي إلى غرض نفوذ الأمة فكان معظم نضالها أو جميعه دون نفوذ الأمير نفسه ، أي تقرير الحكومة الشخصية والانتقال من استبداد أجنبي إلى استبداد شخصي وطني لا حد له ! إلا انه قد كثر خوض هذه الجرائد في هذه السنين الأخيرة في طلب المجلس النيابي لمصر وكون ذلك موافقاً لرغبة الأمير في رأي بعضها . ولكن الصحيفة المصرية التي اتخذت تقوية سلطة الأمة نفسها مذهباً لها تراعيه في انتقادها على الحكومة هي «الجريدة» التي أسسها جماعة من الوجهاء وأهل الرأي تنفيذاً لما كان دعاهم إليه الاستاذ الإمام [محمد عبده] في آخر حياته . ويعلم الله أن هذا ما كنت أقترحه عليه من بضع سنين حتى أنني كنت قد اخترت له المحررين ووضعت له الميزانية بعد المذاكرة الطويلة معه في المذهب السياسي ، وهو سلطة الأمة وفي المنهاج الاجتماعي الأدبي وجله في انتقاد الأخلاق والعادات . فهل للجرائد السورية أن تفكر في هذا وتقدره حق قدره؟

إن الجرائد العثمانية كلها تحتاج إلى انتقاد الحكومة فيما يختص بسلطة الأمة عند وضع بعض القوانين التي تقوي سيطرة الحاكم وتضع العثرات في سبيل الأمة كقانون المطبوعات وقانون الجزاء «العقوبات» وقانون المعارف ولوائحها ونظام مدارسها ، بل يجب أن تنتقد مجلس الأمة إذا لم يجعل تنقيح القانون الأساسي مقيداً للحكم الشخصي ، مطلقاً لحكم الشورى من تلك القيود المعروفة ، وإذا نازعته الحكومة فيما يقوي به سلطة الأمة وجب على الجرائد أن تحمل عليها حملة شعواء ، وأن لا ترضى أقلامها بما دون الطعنة النجلاء .

كذلك يجب على الجرائد في كل ولاية أن تنتقد الولاية إذا هم حاولوا الاستبداد في أمر المجالس العمومية ومجالس الإدارة أو أظهروا التعصب لجنسهم كتعصب التركي للترك والعربي للعرب فإن العصبية الجنسية من الحكام تضعف الجامعة العثمانية وتحدث فيها الأحداث والمفاسد .

ولا يجوز بحال من الأحوال أن تتهم الحكومة في جملتها بهضم حقوق الأمة وكراهة حكمها الذي هو حكم الشورى، وإن كان الكثيرون من الوجهاء والرؤساء السابقين قد قل انتفاعهم ونقص ما لهم وجاههم في عهد الحكومة الحاضرة، فهم يحنّون إلى الاستبداد ويتمنون الرجوع إليه حتى صارت جرائم الأستانة تسميهم الرجعيين. فمن بقي في الحكومة من هؤلاء ومن يدخل فيها على عهد الدستور للجهل بحالهم أو للحاجة إليهم على عوجهم لا يألون جهداً في الاستبداد إذا وجدوا منفذاً من المنافذ، وأمنوا المراقب والمؤاخذ.

فمن أقدس وظائف الجرائد وواجباتها أن تتبع عوارهم، وتقلّم أظفارهم، وتكتب أنصارهم، مع مراعاة ما أشرنا إليه من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي [هي] أحسن كما أرشدنا الذكر الحكيم. وليكن الإخلاص رائدنا، وإيثار المصلحة العامة غايتنا، فلا شيء أنفع وأرفع من العمل لخير الناس، ولا مرشد إلى ذلك أهدى من الإخلاص.



خطبة

٧٦

على أعضاء المجلس العمومي ببيروت

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٠٨ - ١١٢].

دعا كامل بك الأسعد كبير عشائر جبل عامل رفاقه أعضاء المجلس العمومي بولاية بيروت إلى داره فيها وأعتدّ لهم مأدبة حضرها صاحب هذه المجلة وبعض وجهاء بيروت. وبعد الفراغ من الطعام وقف دعاس افندي جريس أحد الاعضاء وأثنى على ربّ الدار، وأطرى صاحب المنار، وأشار

إلى رغبة الحاضرين في استماع شيء منه في موضوع المجلس العمومي ورأيت الأنظار موجهة أليّ تنتظر الإجابة فشكرت وقلت بعد مقدمة فكاهية ما ملخصه :

إن للمجلس العمومي فائدتين إجتماعية وعملية . أما الفائدة الاجتماعية فهي تنشئة الأمة وتربيتها على الحكم النيابي - أعني حكمها لنفسها بنفسها . إن أمر هذه المجالس العمومية من أفضل ما في القانون الأساسي من الإصلاح فلولا لم يكن للأمة أحد من قبلها ينظر في مصالحها إلاّ المبعوثون في عاصمة السلطنة لأمكن أن يبقى أهل الولايات ولا سيما البعيدة عن العاصمة جاهلين لمعنى مشاركة الأمة للحكومة في إدارة مصالحها ولكن وجود أفراد من كل قضاء بكل ولاية في مجلس قريب منهم يشرف على أعمال حكومتهم وينظر في مصالحهم ومنافعهم هو الذي يعلمهم بالعمل معنى الحكومة الديمقراطية ويجعلهم واثقين بأن حكاهم عمال مخلصون لا سادة قاهرون وأنهم لا يستطيعون أن يستبدّوا فيهم أو يظلموهم إلا إذا ظلموا هم أنفسهم

إن المبعوثين يشتغلون بأمور الدولة الكلية فمصالح الأهالي لا تتعلق بهم مباشرة وإنما تتعلق بحكومتهم المحلية فذلك المجلس ينظر في القوانين العامة ولكنه لا ينظر في كيفية العمل بها في كل قضاء بحسب حاجته ولكن هذه المجالس العمومية هي التي تنظر في ذلك فتقرر إصلاح كذا من الطرق وإنشاء كذا من المكاتب والمدارس في الأماكن التي تعينها والأهالي يرون ذلك بأعينهم ويعلمون أنهم نالوه برأي نوابهم ونفوذهم في حكومتهم فبذلك يتربون على الحكم النيابي ويعرفون قيمته فلا يرجعون عنه ولا يرضون بالحكم الشخصي بعده .

إن مجلسكم هذا صورة مصغرة لمجلس المبعوثان فإذا قمتم بما عهد إليكم كما يرجى من غيرتكم وخبرتكم فإنكم تكونون أولى من غيركم

بالترجيح في الانتخابات القابلة لأن الأهالي يكونون قد وثقوا بكم عن تجربة وخبرة كما يكونون أكثر عناية بالانتخاب وأكبر أملاً في المنتخبين.

إن ما ذكرت في معنى تربية الأمة على الحكم النيابي أمر عظيم يجب أن يكون نصب أعينكم فإن له علاقة عظيمة بمستقبل البلاد وعظمة الدولة. إن الدولة لا تكون دولة دستورية إلا إذا استقر الحكم الدستوري في كل ولاية من ولاياتها وعمرت به البلاد وارتقى أهلها.

إن كل ولاية من الولايات تعد عضواً من أعضاء جسم الدولة ولا يمكن أن يكون الجسم حياً قوياً سويّاً إذا كان بعض أعضائه صحيحاً وبعضها مصاباً بالفالج.

ثم إنني أذكركم بما لا تنسونه من أن في الأمة حزباً يرى وجوب استقلال كل ولاية من ولايات الدولة في إدارتها الداخلية كالولايات الألمانية أو الولايات المتحدة فإذا كانت البلاد العثمانية غير مستعدة لذلك الآن وإذا كان هذا الحزب الآن ضعيفاً لا يستطيع تنفيذ رأيه فما يدرينا ماذا يكون في المستقبل البعيد أو القريب من أمره وأمر البلاد؟ ألا يجوز أن يقوى بعد وأن تكون الوزارة في يوم ما من أعضائه والرأي الغالب في مجلس الأمة هو رأيه؟ يجوز يجوز، إذاً كيف يكون حال ولايتنا هذه وسائر الولايات العربية التي هي دونها ودون سائر ولايات الدولة في الاستعداد للاستقلال الإداري؟ إننا نعترف بأننا عاجزون الآن عن إدارة شؤون ولايتنا بدون الاستعانة بإخواننا من الترك مع أن ولايتنا أرقى الولايات العربية وقد قلت من قبل وكتبت في المنار إن الولايات السورية تعد وسطاً في الاستعداد والارتقاء بين ولايات الروملي وبعض ولايات الاناضول وبين سائر الولايات العربية كالعراق والحجاز واليمن. فيجب أن نرقى أنفسنا وأن نكون مصدراً أو عوناً لسائر الولايات العربية على الارتقاء بل أقول إن إخواننا الترك الذين نعترف لهم بأنهم أرقى منا لا يستغنون الآن عن الاستعانة بالأجانب لترقية ولاياتهم كما نحتاج نحن إليهم وإلى الأجانب.

وهذا الرأي عندي قديم وقد كاشفت به متصرف طرابلس والوالي أيضاً  
فمن المحتم أن نوجه جلّ عنايتنا للحكم الذاتي والاستغناء بانفسنا عن  
الأجانب.

أيها الاعضاء الكرام: إن هذا الغرض الذي تطالبون به عظيم ولكن  
قوة الإرادة في الإنسان تصغر كل عظيم وتسهل كل عسير فإذا وجهتم  
عزائمكم إلى ذلك بالإخلاص فإنكم تصلون إلى الغاية بإذن الله.

وقل من جدّ في أمر يحاوله واستعمل الصبر إلّا فاز بالظفر

يرى بعض الفلاسفة أن الإنسان لا يجزم إرادته بأمر ممكن إلّا وينفذ  
وكان الأستاذ الإمام [محمد عبده] على هذا الرأي وقد قال أكثر من مرة أنه  
لم يجزم إرادته بطلب شيء جزماً تاماً لا تردد فيه إلّا وحصل وقد كان  
حكماء الصوفية على هذا الرأي وعبر عنه بعضهم بقوله «إن لله عبادة إذا  
أرادوا أراد» أي إذا صح توجه ارادتهم إلى شيء تعلقت به ارادة الله وما  
تعلقت به إرادة الله نفذ حتماً. فعلى الإنسان أن يعرف قيمة نعمة الإرادة  
فيوجهها إلى خدمة وطنه جازماً بأنه أهل لأن يرقيه وهو بهذا يكون أهلاً له  
مهما كانت معارفه. فإن تفاضل الناس بالإرادة فوق تفاضلهم بالمعرفة فما  
كل عالم ينفع وكل من أراد أن ينفع فإنه ينفع على قدر استعداداته.

هذا ما أحببت أن أذكر به من أمر الفائدة الاجتماعية في المجالس  
العمومية. وأما الفائدة العملية فهي قسمان مادية وأهمها إصلاح الزراعة  
وتسهيل المواصلات وتعديل الأموال الاميرية. ومعنوية وهي التربية  
والتعليم والبحث في هذه المسائل يطول وأنتم أعلم بحاجة البلاد وطرق  
عمرانها من رجل مثلي ليس له مثل اختباركم ولكنني أذكركم بثلاثة أمور  
تتعلق بالتعليم هي أهم المسائل في رأيي: مراقبة التعليم والتربية في  
المدارس، وإنشاء مدرسة للمعلمين، وإحياء لغة البلاد.

إن مدارس الحكومة ليس فيها تربية ولا تعليم نافع بل ربما كان ضررها



أكبر من نفعها وإنما كان حظ الحكومة المستبدة السابقة منها هو التمتع بصورة الملك دون التربية التي تكوّن النفوس الفاضلة والتعليم الذي يربي العقول الكبيرة.

إن الدول تؤلف في هذا العصر من عدة وزارات منها وزارة المعارف وهذه الوزارة لا تكون بغير مدارس فكان بقاء المكاتب والمدارس في عهد الاستبداد الماضي لدولتنا لأجل استكمال صورة الملك والتمتع بها، فإن التمتع بالمظاهر الصورية له لذة كما ترون في تمثيل القصص، وإلا فإن الاستبداد كان يحارب العلم حرباً عواناً. فإن أردتم أن يكون التعليم نافعاً في مدارس الحكومة فيجب أن تبدأوا بالأمر الأول وهو مراقبة التعليم بأن تطلبوا تعيين مفتشين ممن يرضى الأهالي معرفتهم وغيرتهم وصدقهم يتعاهدون هذه المدارس ويراقبون سيرة مديريها ومعلميها في التربية والتعليم. ثم إن فساد التعليم في الزمن الماضي قضى بأن يكون المعلمون الأكفاء فينا أندر من الكبريت الأحمر، فالإصلاح الحقيقي للتعليم يتوقف على إنشاء مدارس لتخريج المعلمين القادرين على التربية والتعليم بالطرق العصرية القرية. يجب أن يكون الأستاذ المعلم على علمه بالفن الذي يعلمه، مهذباً ليكون قدوة للمتعلمين في الفضيلة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه. ويجب أن يكون مع ذلك عارفاً بطرق التربية والتعليم، فما كل مهذب يعرف كيف تتكون ملكات الفضائل في النفوس، ولا كل عالم يعلم كيف ترسم مسائل العلوم في الأذهان، فلا بد من إنشاء مدرسة للمعلمين في مركز الولاية.

وأما إحياء لغة البلاد - وأعني بها اللغة العربية - فالذي نطالب به الحكومة من وسائله هو جعل تعليمها في مدارسها كلها إلزامياً كأختها التركية، وجعل دراسة العلوم في الولايات العربية بلغة أهلها وفي سائر الولايات بالتركية كما كان بحسب القانون والذي يقرر هذا هو مجلس الأمة في الآستانة، وإنما على المجالس العمومية المطالبة به.

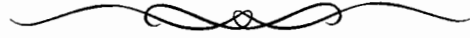
لا يقال إن هذا يفتح علينا باب تعصب الجنسيات في الدولة، وإننا في أشد الحاجة إلى الاتفاق والتسامح الأجناس، فإن الفرق بين العرب وبين ما عدا الترك من الأجناس واضح جداً.

إن الشعب العربي يعدّ نحواً من ثلثي نفوس الدولة ويقلّ فيه من يعرف التركية وأما سائر الأجناس: الألبانيين والأكراد والأرمن والروم فكلهم يعرفون اللغة التركية فلا يحتاج الحكام والموظفون فيهم إلى معرفة لغاتهم ليحسنوا القيام بأعمال الحكومة فيهم بل إن أكثرهم ليس لهم لغات علمية ذات فنون ومعاجم تصلح للتعليم، فالأرمن قريبو عهد بتدوين لغتهم وجعلها تعليمية والألبان والأكراد لما يتم لهم ذلك بل قرأنا في بعض جرائد هذا الشهر أن الألبان قد عزموا على اختيار الحروف العربية للغتهم التي يشتغلون بتدوينها. ومن المقرر أن غرض الحكومة الأول من مدارسها هو تخريج الموظفين الأكفاء فإذا كان المتخرجون فيها جاهلين باللغة العربية التي هي لغة أكثر العثمانيين يتعذر عليهم أن يقوموا بوظائفهم كما يجب في أكثر بلاد الدولة. فإن من يجهل لغة قوم يتعذر عليه أن يعرف حقيقة حاله وما ينبغي لهم وما يتظلمون منه. ولا يقول عاقل إنهم يستغنون بالترجمين لما في ذلك من العسر والنفقات وأين يتعلم المترجمون؟ على أن العربية ركن للتركية فتعلمها يزيد المتعلم كمالاً فيها. أما جعل اللغة العربية هي لغة العلوم والإكتفاء من التركية في بلادنا بالقراءة والكتابة فذلك أن الأمة التي لا تتلقى العلوم بلغتها لا تكون أمة علم وإنما يكون مبلغها من العلم أن يوجد فيها بعض المترجمين لبعض ما يقرره العلماء المستقلون ولا يوجد فيها المحققون والمخترعون والمكتشفون.

إن لغة الأمة صفة مقومة لها واللغات التي يتعلمها بعض أفرادها أعراض تعرض لها وتفارقها فإذا تلقت العلم بلغتها يصير صفة لها حية بحياتها نامية بنائها وإذا تلقت بلغة أجنبية فقصاراه أن يكون زينة عارضة لبعض أفرادها ولا ارتقاء للامم في هذا العصر إلا بالعلم فيجب علينا أن

نبذل جلّ عنايتنا في تحصيل العلوم العصرية ونقلها إلى لغتنا ولا حياة لنا  
بغير ذلك وأننا في عملنا هذا لا نبعد عن إخواننا الترك بل نكون إخوة  
متساوين في المزايا والحقوق كما يجب أن يكون الأخوة. والمساواة الحقيقية لا  
تكون مع التفاوت في العلم والعرفان، «فليس سواء عالم وجهول».

أرجو عفواً فقد أطلت عليكم عقب الأكل ووقت طلب الراحة فإن  
خلطت في الكلام ربما كان سبب ذلك الخلط في الطعام، وتوجه أكثر الدم  
إلى المعدة وأقله إلى الدماغ والسلام.



## الحرية واستقلال الفكر



[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١١٣ - ١١٧]

### آخر خطبة في بيروت

دعيت إلى حضور الاجتماع الشهري لجمعية الجامعة العثمانية بيروت في  
أوائل هذا الشهر (آذار) فاقترح عليّ رئيسها أن أخطب فيهم بما يفتح الله  
به حاكياً عن رغبة الجمهور فقمّت وقلت ما ملخصه بحسب ما أتذكر:

أيها الإخوان الكرام

إن المسائل التي نحتاج إلى البحث فيها واستجلاء غوامضها كثيرة جداً  
فمن الناس من إذا اقترح عليه أن يخطب يبادر إلى الكلام في الموضوع  
الذي يتبادر إلى ذهنه سواء كان مطابقاً لمقتضى الحال يرجى أن يستفيد منه  
السامعون ما يصحح أفكارهم أو يقوم أعمالهم أم لا. ومنهم من يرى هذه  
الطريقة متقدمة وأنه لا بد أن يخاطب الناس بما يتعلق بحالهم وما ينبغي أن

يكونوا عليه في أفكارهم وأعمالهم فلا يحثهم على ما لا سبيل إليه ولا يقرر لهم ما لا يفهمون حقيقته

مثال من ذلك: إن بعض الخطباء يقف فيقول أيها العثمانيون، عليكم بالاتحاد، عليكم بالائتلاف، إن الاتحاد هو مفيض العمران ومرفي الأوطان ورافع شأن الإنسان. ويكتفي بمثل هذه الخطابات المجملة التي لا يعلم السامعون كيف يمكن العمل بها فإن اتحاد المختلفين في التربية والتعليم والعقائد والأفكار والأخلاق والتقاليد والعادات من الأمور التي لا يمكن أن تحصل بمجرد الحث عليها ومدحها وإنما يجب بيان ما يشترك فيه من يراد حثهم على الاتحاد واقناعهم بأن منافعهم ومصالحهم مرتبطة به وأنها إنما تحفظ وتنمو باتحادهم واتفاقهم وتذهب أو تضعف بتخاذلهم وتفرقهم.

أما أنا فأقول إن كل كلام صحيح المعنى لا يخلو من فائدة والفكرة الاجمالية لا تخرج إلى حيز التفصيل إلا بإبرازها بالقول أو بالكتابة ومن لم يستفد اليوم من الكلام الصحيح فائدة تامة يرجى أن يستفيد غداً فليقل كل أحد ما يرى أنه حق نافع وليقدم الأهم على غيره وهو ما كانت حاجة الناس إليه أكثر. وإذا قيل لنا ما هو أهم ما نحتاج إليه الآن؟ قلنا إننا محتاجون إلى أشياء كثيرة من العلوم والأعمال لأجل أن نهض لما نكون به أمة عزيزة ولكن نهوضنا يتوقف على أمر عظيم لا يحصل بدونه. فما هو هذا الأمر الذي هو شرط للارتقاء في كل علم وكل عمل بحيث يلزم من عدمه العدم؟ ألا إنه الحرية الشخصية واستقلال الفكر.

قد قلت في بعض الخطب التي تكلمت فيها عن الحرية إن استعداد البشر للارتقاء ليس له حد يعرف ولا غاية تحدد فإذا عاشوا ملايين من السنين يمكن أن يكونوا في ارتقاء مستمر لا ينقطع إذا كانت حريتهم في العلم والعمل مصونة من عبث المستبدين فهكذا ترتقي الأمم على قدر صيانتها واحترامها للحرية وتتخلف عن الارتقاء بل ترجع إلى الوراء على قدر عبثها بالحرية وتحكمها في الباحثين والعاملين.

مضت سنة الله في البشر بأن الفكر يسبق العمل فإذا كانت أفكار العقلاء والأذكياء مضغوطة ممنوعة من الحركة والنمو فإنها لا تكون مستقلة والأمة لا تخطو خطوة واحدة إلى الأمام إلا إذا أطلقنا العنان لجياد الأفكار تجول في ميادين الكتابة والخطابة بلا حجر ولا ضغط، ولا فرق في ذلك بين المسائل الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا لأن الفلاح متوقف على ظهور الحقائق وظهورها يتوقف على استقلال الأفكار وحرية البحث والكتابة والخطابة ولا يخاف على دينه من حرية البحث إلا مَنْ لا ثقة له بدينه ومن كان واثقاً بأنه على الحق فإنه يعلم أن مخالفته فيه لا تزيده إلا قوة وظهوراً. فقد نطق الكتاب العزيز بما هو ثابت عقلاً واختباراً من أن الحق يعلو ولا يُعلى [عليه] وأنه ما تصارع الحق والباطل إلا وصرع الأول الثاني «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق \* وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» [سورة الإسراء رقم ١٧، الآية ٨١].

علينا أن نبحث بعد هذا عن أنفسنا لنعلم هل نحن نحترم استقلال الفكر وحرية القول والعمل؟ هل قمنا بحق هذا الشرط الذي يتوقف عليه كل مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية وأسبابها؟ إن حكومتنا تركت الضغط على عقولنا وأفكارنا والحجر على ألسنتنا وأقلامنا لنكون أحراراً في أقوالنا وأعمالنا؛ فهل صرنا أحراراً بالفعل؟

نعم، إن الحكومة تركت الاستبداد والاستعباد وأباحت لنا الحرية طوعاً أو كرهاً ولكننا ما قبلناها، فإن الأفكار لا تزال مضغوطة مجبوراً عليها أن تبرز من مضيق الدماغ إلى فضاء الوجود الخارجي، والحرية الشخصية مهددة لا من الحكومة بل من أنفسنا.

في البلد حوادث حيوية كثيرة لا يكتب أحد من أصحاب الجرائد رأيه فيها بالحرية. ولماذا؟ أخاف من «المراقب» أن يرجعها له؟ لا، إن الجرائد لا

تعرض الآن على المراقبين كما كانت تعرض في زمن استبداد الحكومة ولكن ما سقط مراقب الحكومة إلا وتقاسم مثل عمله من لا يحصى من دهاء الأمة يفتاتون على أصحاب الجرائد وكتابها وعلى الحكومة نفسها وربما كان هذا الاستبداد أشد وطأة وأثقل ضغطاً من استبداد الحكومة.

إن جرائد بيروت كان لها مدير واحد لسياستها هو المراقب وكانت نسبة أصحابها ومحرريها إليه كنسبة محرري الجرائد الكبيرة في البلاد الحرة إلى رئيس التحرير أو مدير السياسة. فكانوا إذا أرادوا كتابة شيء يتحرون أن يكون بحيث يرضيه وقد عرفوا ما يرضيه ويجيزه فلم تكن مراعاته متعذرة عليهم ولكن يتعذر عليهم الآن أن يعرفوا ما يرضي هؤلاء المراقبين الذين حلوا محله لأن عقولهم وآراءهم ليس لها قاعدة ترجع إليها ولا ميزان توزن به. فهل يمكن أن ترتقي الصحافة أو الأفكار في بلاد يفتات على حمة الأقلام وأرباب الأفكار فيها كل أحد حتى البحار والجمال وبيائع الحمص والبول!

إننا قد تغنينا باسم الحرية في أيام إعلان الدستور وألقينا الخطب الكثيرة في وصفها، وأنشدنا القصائد العديدة في مدحها والتغزل بها، وكان هتاف الجماهير للخطباء والشعراء، يعلو في الجو حتى يبلغ عنان السماء، وكتبنا ذلك الاسم الجميل «الحرية» بالخطوط الجميلة وزينا به البيوت والمعاهد العامة والخاصة والحدائق فظهرنا بمظهر العاشق والولهان لهذه الحرية الجميلة ولكنني أخشى أن نكون في عشقنا لها كعاشق أم عمرو؟ ولعل بعض الحاضرين لا يعرف خبر هذا العشق فأذكره إعلاماً له وتذكيراً لغيره.

مر بعض الناس بصديق له مرة فرآه على غير ما يعهد: رآه قلقاً مضطرباً فسأله عن حاله فقال إنني عاشق ولهان لا يقر لي قرار، ولا يطيب لي اضطبار، ولا يهنأ لي طعام، ولا يزور جفني منام، قال له صاحبه من عشقت؟ قال عشقت أم عمرو، أجمل نساء العصر، قال من هي أم عمرو

ومتى رأيت وجهها المليح ، فبرح بك هذا التبريح؟ قال لا أدري من هي  
ولا لمحتها عيني وإنما سمعت رجلاً ينشد في الطريق:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي علي فؤادي أينما كانا  
فقلت في نفسي لولا أن أم عمرو هذه أبرع النساء جمالاً وحسناً،  
وأوفرهن من القسامة قسماً، لما قال الشاعر فيها هذا القول فعشقتها.

وقد طال على هذا العاشق الأحق عشق تلك المعشوقة المجهولة حتى مرَّ  
به صاحبه يوماً فإذا هو يبكي ويندب وقد ساورته الأحزان، وواثبته  
الأشجان، فسأله ما دهاك؟ فصاح أواه وا ويلاه! لقد بليت بأشد المصائب  
وأعظم النوائب فقد ماتت أم عمرو. وغلبه النشيج وأخذ في النحيب، ولما  
سكت عنه الروع قال له ومن أخبرك بموتها فهل رأيتها وعرفتها؟ قال: لا  
ولكنني سمعت الشاعر ينشد في الطريق:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار  
فقلت لولا أنها ماتت لرجعت ولما قال الشاعر هذا القول.

نعم، إنني أخشى أن تكون حريتنا المعشوقة، هي أم عمرو المجهولة،  
فإن الحرية الحقيقية قد تعرفت إلينا فنكرناها، ورغبت فينا فرغبنا عنها،  
وأحبت القرب منا فاخترنا البعد عنها، وإلاً فما بال الكثيرين منا، يسلطون  
العامّة على من يبدي رأياً يخالف رأيهم أو هوأ أنفسهم، يهددونه ويهينونه،  
وإذا لم يوجد له عصبة تمنعه منهم يضربونه، ومتى كانت الحكومة المستبدّة  
تضطهد حرية الفكر والعلم أشد من هذا الاضطهاد، وتحاول استعباداً  
أقبح من هذا الاستعباد، أي العبوديتين أذل، العبودية للحكومة أم  
العبودية للعامّة؟

كان الخطباء والشعراء يقولون في أيام عيد الحرية في مدح الأمة نحواً مما  
يقولونه في مدح الحرية نفسها لإظهار التناسب بينهما ولا يزال كثيرون منهم

يُسمعونا مدح أنفسنا، ويشيدون بفضلنا وفضل سلفنا، ويتمثلون بقول شاعرنا: نبي كما كانت أوائلنا، الخ. أما أخوكم هذا فيقول إنَّ ما كان يقال في أيام عيد الحرية لا ينبغي أن يقال اليوم ولا في كل يوم. إن الأعياد في عرف الناس هي أيام السرور والابتهاج فيحسن أن يتناسى فيها ما يسوء ويتحرى فيها ما يسر، وهذه أيام الجد والعمل فيجب أن نعرف فيها ما نحتاج إليه في هذا العصر لنجاري الأمم العزيزة القوية، الرائعة في بحبوحة المدنية، لا أن نمشي النفس بالأقوال التي يلذ سماعها، ونترك السنن التي نرقى باتباعها.

يا قوم إننا مرضى ومن كتم داءه قتله، إننا مرضى ويجب علينا أن نداوي أنفسنا، إنَّ الأدوية لا يقصد بها اللذة، بل يقصد بها المنفعة، هل سمعتم أن الأطباء يداوون المريض المدنف باطعامه اللحم المعالجة بالبقول والأفاوية والكنافة والبقلاوة والأشربة المثلوجة؟ لا، لا، إنهم يداوونه بالمسهلات البشعة الطعم والكيما المرة وربما داووه بالسكين ينال شيئاً من بدنه. وكذلك تكون أدوية الأمراض النفسية. وإنه ليسوءني أن أصرح لكم بما يؤلمكم ولكنها الحقيقة لا بد منها وإن كانت مرة كالدواء «أخوك من صدقك لا من صدقك».

إن من فضل الحرية علينا أن صرنا قادرين على البحث عن مرضنا وعلى الاجتهاد في معالجته فيجب أن نعرف قيمة هذه النعمة وأن نشكر الله تعالى عليها بالعمل الذي نستفيد به منها.

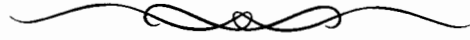
أعود فأقول إننا لا يجوز لنا أن ندَّعي أننا عرفنا الحرية وأننا نقدرها قدرها إلا إذا كنا نحترم استقلال الفكر فلا نعارض أحداً في إبداء رأيه وإظهار علمه باللسان أو القلم ولا يمكن أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام بدون هذا.

فعليكم أيها الفضلاء المحبون لخير أمتكم وتقدم بلادكم أن تنصروا



الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية وأن تبذلوا جهد المستطاع في بث هذا الفكر في طبقات الأمة وتقنعوا أولئك الذين نسمع أخبار افتئاتهم على الكتاب وأصحاب الجرائد بأن عملهم هذا ضار ببلادهم وأن الذين يغرونهم بذلك هم أهل الأهواء الذين يتبعون حظوظ أنفسهم ولو فيما يضر ببلادهم.

انصروا حرية البحث والطباعة لكي تتجلى للأمة الحقائق فتعرف ما يضرها وما ينفعها، ولكي تنبسط فيها العقول الكبيرة بعد رفع الضغط عنها. إن تعملوا هذا تخدموا بلادكم أجل خدمة. وأراي أطلت عليكم في هذا الكلام الحار مع حرارة الجو بكثرة الأضواء وازدحام الناس، فحسبي هذا والسلام.



## نصيحة



لمسلمي بيروت عامة، وفتيانهم الشجعان خاصة

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ١٤٤ - ١٤٩.]

إنني في كلامي عن البلاد السورية قد فضّلتكم على غيركم، ورجوت منكم لخير البلاد ما لم أرجه من سواكم، وإنما كتبت ما اعتقدت، بحسب ما رأيته واختبرت، تنشيطاً للعاملين، وتنبيهاً للخاملين، ذلك بأنني رأيته من احترام الحرية عندكم ما لم أر مثله في طرابلس ولا دمشق ولا غيرها من البلاد ورأيته فيكم حركة إلى العلم والتربية لم أر نظيرها، على ضعفها، في غير بلدكم فحمدت الله تعالى على ذلك وحمدتكم.

ثم إنني أقمت في بلدكم سبعة أسابيع متصلة بعد تينكم الزيارتين

المتعاقبتين فرأيت فيه أمراً استنكرته وحزنت حزناً شديداً، فأحببت أن أنصح لكم فيه كتابة كما نصحت فيه لكثير منكم مشافهة وخطابة، عسى أن تكون الكتابة أعم وأنفع، ولا أقول أن هذا الأمر المنتقد خاص بكم وإنما أرجو أن ترجعوا عنه بمجرد النصيحة وربما بقي عند غيركم إلى أن تتكوّن الحكومة الجديدة وتستقر فترجعهم عنه بالقوة القاهرة إن لم يرجعوا خوفاً منها.

ذلك الأمر المنكر هو ما ذكرته في آخر خطاب ألقيته في نادي الجامعة العثمانية عندكم، ونشرت محصله في هذا الجزء، وأعني به إزعاج الحرية الشخصية في بعض الأوقات لا سيما حرية أصحاب الصحف. وقد حمدكم العقلاء لاستنكاركم حادثة الشام وحملكم على المفسدين الذين أثاروا الفتنة فيها كراهية لحرية العلم والاستقلال في فهمه ونشره ولكن جرائم الشام الآن أوسع حرية من جرائمكم كما يعلم ذلك جميع القراء منكم فهل ترضون بهذا الانقلاب؟

كاد يقع الخصام بل الالتحام في الصدام بين طائفتين منكم لأن شيطاناً من شياطين الأنس وسوس إلى بعضهم: إن جريدة كذا نشرت آية من القرآن الكريم ونشر القرآن في الصحف إهانة له فيجب أن يهان صاحبها حتى لا يعود إلى ذلك. ذكر ذلك في مجتمع فيه كثير من العامة والخاصة فاشتد في الإنكار بعض الشبان فانبرى للدفاع عن صاحب الجريدة آخرون من أبناء حيّه فتساهل الأولون وانتهى الكلام بانتداب رجلين لسؤال صاحب الجريدة عن حقيقة الأمر ولما جاءه للسؤال كنت عنده وكان هو قد خرج لحاجة فراجعنا جريدته أولاً فلم نجد فيها شيئاً من القرآن وأقنعتهم بأن الإهانة لا تكون إلا بالقصد وإن من يقصد إهانة القرآن بعمل عمله يصير به مرتدّاً لا عاصياً فقط ولا يقع هذا من مسلم وإنما يكتب الآيات من يكتبها لأجل أن يكون في كلامه روح ربانية مؤثرة ينفع بها القارئ. وقلت لهما إن جميع جرائم المسلمين في مصر وفي بيروت وغيرها من البلاد

تزيّن بعض كلامها بالآيات الكريمة وتناولت من جرائد كانت بجانبها نسخة من المؤيد فأطلعتها على عدة آيات فيها بعضها في خطبة لأحد الأساتذة بنظارة المعارف المصرية . وما زلت بها حتى خرجا مقتنعين بأن من حرك هذه الفتنة لم يكن مخلصاً في قوله وقبل يدي بعد أن كان حديثهما معي حديث الخصم فدل ذلك على حسن نيتها

ثم إن صاحب جريدة أخرى كتب في جريدته أن المسلمين مقصرون فيما يجب عليهم من العناية بالتربية والتعليم وما تقتضيه حال العصر من سعة الثروة وأن جيرانهم وخطأهم من النصارى قد سبقوهم في هذا المضمار . فوسوس شيطان التفريق إلى بعض الفتیان المتحمسين قال إن صاحب جريدة كذا قد أهان المسلمين وفضل النصارى عليهم!! فاضطربوا وغضبوا وأخذ بعضهم نسخاً من بائع تلك الجريدة فمزقوها وحاول طائفة منهم إهانة الكاتب بل إهانة بعضهم بالفعل ، وطاف آخرون على بعض المشتركين بالجريدة فرغبوا إليهم أن يقطعوا اشتراكهم فيها .

وقد رأيت شاباً يتأثر صاحب هذه الجريدة في بعض الشوارع فلما رأي استوقفته وتحدثت معه ثم تركته تبني وسألني عما كتبه عن المسلمين فقلت له كتب كيت وكيت ليحث المسلمين على إنشاء المدارس والعناية بتربية أولادهم حتى يكونوا أرقى الأمم وأعلمها وعلى تحصيل الثروة ليكونوا من أغنى الناس وأعزهم . وأفنته بأنه لا يعقل أن يكون قصد إهانة أهل دينه الذين يهان بهوانهم ويعتز بعزتهم ويشرف بشرفهم من غير أن يكون له فائدة في ذلك ولا مجال للقول بأن له فائدة أو ربحاً من الإهانة ثم ذكرت له شيئاً من مفسد هذا الشقاق الذي يلقيه بعض أهل الأهواء بين المسلمين وهو أضر عليهم لا سيما في هذا الوقت من كل ما يتصور أن يضرهم . فاثني مقتنعاً شاكرًا .

هذا ما تركت عليه بيروت يوم سافرت منها وقد دخلت القاهرة ليلة الخميس . وفي اليوم الثاني من وصولي إليها صليت الجمعة في أحد المساجد

فإذا بالخطيب فيه يصدع الناس بوعظ يقول فيه ما معناه: إنكم قد تركتم الإسلام وإين الدليل على إسلامكم وانتم تعملون كذا وكذا حتى قال وتشبهت نساؤكم بالعاهرات. فقلت في نفسي لو كان هذا الخطيب في بيروت لأنزلوه عن المنبر بالقوة ومنعوه من إتمام خطبته.

مع هذا كله أقول الآن كما قلت من قبل إن مسلمي بيروت أقرب إلى الخير والاستعداد للترقي من غيرهم وأبعد عن الفتن التي تحول دون الأعمال النافعة وأكثر ما ينتقد عليهم مما ذكر يقع منهم بحسن النية غالباً، لا أعرف فيهم غير رجل واحد يجب إثارة الفتن بسوء نية ولعله يندر أن يوجد له أمثال ونظراء في ذلك.

فالذي ننصح به لهم ولغيرهم هو أن يعلموا أنه لا شيء أضر على الأمم من التفرق والشقاق لأجل الخلاف في الفهم والرأي سواء كان في أمر الدين أو أمر الدنيا فضرر أكبر الكبائر، كالقتل والزنا وشهادة الزور، هو دون ضرر التفرق والشقاق في الأمة لأن هذا الجرم هو المانع من وحدة الأمة وعزتها وقوتها وهي متى قويت تقدر على منع سائر الجرائم ومتى كانت ضعيفة بالتخاذل لا تقدر على منع شيء من المفسد ولا على إقامة شيء من المصالح. ولذلك توعد الله تعالى على التفرق والخلاف بما لم يتوعده على غيره بجعل المتفرقين في الدين برآء من النبي، صلى الله عليه وسلم، ومن دينه فقال (٦: ١٥٩) «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء» [سورة الأنعام رقم ٦، الآية ١٥٩] وأنزل يوم تلاحى نفر من الأوس والخزرج وذكروا ما كان من مشاقة بعضهم لبعض يوم بعث (٣: ١٠٣) «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١٠٤) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما

جاءهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٣ - ١٠٥]

فالمتدبر للقرآن يرى أنه تعالى ينهانا ويحظر علينا التفرق والخلاف ويحتم علينا أن نكون أخوة متحابين ويفرض علينا مع ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن أهان أخاه واحتقره أو آذاه لأنه قال أو كتب ما يخالف رأيه لا يكون آمراً بالمعروف وهل يوجد أحد من الناس من يقول إن الإهانة والإيذاء من المعروف؟ وإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه بأن يجادل المشركين بالتي هي أحسن، فهل يرضى من أن نجادل إخواننا المؤمنين بالتي هي أسوأ وأقبح؟ أما ما قاله الله عز وجل (١٦: ١٢٥) «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» [سورة النحل رقم ١٦ الآية ١٢٥] أما قال مع ذلك (٣٣: ٢١) لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً؟ [سورة الأحزاب رقم ٣٣، الآية ٢١]

إن الله تعالى ما ذكر فريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع النهي عن التفرق والاختلاف إلا لأن هذه الفريضة هي سياج وحدة الأمة وحفاظها بإقامتها تمنع التفرق كما قال الأستاذ الإمام [محمد عبد] فإذا جعلنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً للتفرق والخلاف والعداوة بين المسلمين نكون قد قلّنا مقصد الدين ونقضنا ميثاقه وقطعنا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدنا في الأرض (١٣: ٢٥) «والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة ولهم سوء الدار» [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ٢٥]

لأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروط وآداب فصلّناها في التفسير المنشور في الجزئين الثامن والتاسع من مجلد المنار العاشر ولا يصلح لها على

الاطلاق إلا أهل العلم والعرفان. فأى إفساد في الدين والدنيا شر من إغراء العامة بالافتئات على أهل العلم وَحَلَّةِ الأفلام والتصدي لأمرهم ونهيهم. بل وجد من شياطين الإفساد والتفريق من أغرى العامة بمنع بعض خطباء المساجد من خطبة الجمعة! حدثني بذلك بعض شبان بيروت فقلت له: إن الخطبة فريضة دينية كالصلاة فهل يجوز لنا أن نمنع مسلماً من أداء الصلاة لأننا غضبنا منه بحق أو بباطل؟ إذا جاز لنا أن نمنع كل من أذنب ذنباً من أداء الصلاة والصيام والزكاة والحج وأن نشترط العصمة في كل طاعة من الطاعات. ولا يبيح لنا ديننا أن نقول بعصمة أحد بعد الأنبياء وقد ختمهم الله تعالى ببعثه نبينا، صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم، ولم يقل أحد من المسلمين الذين يعتد أحد من بعده إلا ما قاله الإمامية من الشيعة في الأئمة الإثني عشر من آل بيت النبي بإسلامهم بعصمة، عليه وعليهم السلام.

فعلم مما بيّناه أن التصدي لإهانة الناس الذين يظن أو يعلم أنهم أخطأوا هو من المفساد المحرمة شرعاً والقبيحة عقلاً وكل من يغري بها فهو شيطان رجيم يجب عصيانُه والبعد عنه والاستعاذة بالله من شره. والاجتماع لأجل هذه الجريمة والتعاون عليها يزيد في قبحها وإثمها قال الله تعالى (٢: ٥) «وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٢]

بعد هذا كله أقول لفتيان بيروت الذين يعرفون بلقب «الأبضايات» إنكم أيها الشجعان البواسل قد عطرتم الأرجاء بمحمدة عظيمة ظهرت منكم في أيام إعلان الدستور ولا تزالون تحافظون عليها حتى أثني عليكم العقلاء في غير بلادكم بما لم يثنوا به على سواكم ألا وهي محاسنة خلطائكم وعشرائكم في وطنكم من المشاركين لكم فيما عدا الدين من شؤون الحياة. فهل يليق بكم بعد فضيلة مسالمة هؤلاء أن تتلوثوا برذيلة معادة من يشارككم في كل شيء حتى في الدين فتكونوا كمن نزل فيهم قوله تعالى

(١٤:٥٩) «بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» [سورة الحشر رقم ٥٩، الآية ١٤]؟ حاشاكم أن ترضوا بذلك عالين به وإنما يغشكم الغاشون فلا تكونوا آله في أهوائهم.

لا أقول إنه ينبغي أن تخدموا بلدكم باتقان كل واحد منهم لعمله فقط فإنكم تستطيعون أكثر من ذلك. إنكم تستطيعون أن تتعاونوا دائماً على منع العدوان حتى يصير نادراً وتتعاونوا على إصلاح ذات البين عندما يقع شقاق أو خصام بين اثنين أو جماعتين ولكنكم لا تقدرون على الهيمنة على العلماء والسياسيين والمراقبة على الخطباء والمحربين ونفع الأمة بايقاف هؤلاء عند حدود لا يتعدونها. وإنكم إذا تصديتم لذلك تضرون الأمة ضرراً عظيماً. ولا تستقلوا ما قلت إنكم لا تستطيعونه فإنه أمر عظيم مقدم على كل أمر لأنه يتعلق بالأمن والراحة العمومية وهو أول شيء تطالب به الحكومة. فإذا قمتم في بيروت بعمل لا تزال الحكومة مقصرة فيه في كثير من البلاد فإنكم تستحقون من الناس الشاء الجميل ومن الله الثواب الجزيل.

## الدستور وجمعية الاتحاد والترقي

### وسائر الجمعيات

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٢٣٣ - ٢٤٠]

أعلن الدستور العثماني منذ بضعة أشهر فهتفنا له مع الهاتفين، ورحبنا به مع المرحبين، وهنأنا به سروراً وشغفاً، وملأنا ديار مصر وسورية مقالات فيه وخطباً، ولكن سرورنا به لم يكن سالماً من كل شائبة، ورجاءنا فيه لم

يكن خلواً من كل مخافة، فقد أودعنا المقالة الأولى التي أنشأناها في الأسبوع الأول من اعلان الدستور ترحيباً به (راجع ص ٤١٧ م ١١) [المنار ج ١١ (١٩٠٨) ص ٤١٧ أنظر أعلاه ص ٧٥ - ٨٠]

١ - «فالواجب على هذه الجمعيات المدبرة، والقوى المنفذة، ان تكفل الدستور الذي نالته الأمة حتى تأمن عليه من دسائس أعوان الاستبداد، الذين قاموا بتنظيم حكومة الجواسيس أعظم قيام، وأول عمل يجب عليها هو السعي لإبعاد أعوان الاستبداد عن دار السلطنة، لا عن دار السلطان فقط، ومحكمة من يمكن أن يسترد منهم العدل، ما وهبهم الجور والظلم، وتشكيل وزارة حرة تقوم بأعباء السلطنة، وتنتقي الولاة والمتصرفين والقضاة ورؤساء العدلية من أختيار الأحرار، الذين يرجى أن تصلح بهم الإدارة ويستقيم القضاء، ويحفظ الأمن، ويستقر العدل، لتندفع الأمة إلى الأعمال النافعة في ظل الدستور الظليل، ثم العناية بأمر انتخاب النواب، الخ».

٢ - «إذا نحن كفينا شر المستبدين الأولين، ونلنا وزارة من الأحرار المستقلين، فالواجب علينا أن نقف عند هذا الحد من المطالب في العاصمة وأن تعود السيوف إلى أغمادها، وتنصرف الضباط إلى سابق شأنها، مع إحكام الروابط الخفية، بينها وبين الجمعيات السياسية، ويتوجه الأحرار إلى إصلاح حال المملكة، بجميع الوسائل الممكنة، والحذر الحذر، من عواقب نشوة الظفر، الحذر الحذر من إهانة شخص السلطان، والتسلى إلى عرشه بالبغي والعدوان، فما دام السلطان مستوياً على عرشه فهو رئيس الأمة ومرجع سلطتها، ومنفذ قوانينها وشريعتها، والوزارة هي الواسطة بينها وبينه، فاعتداء المرؤوس على الرئيس بإدلال القوة، دون القانون والشرعية، مجلبة للفوضى ومدعاة للخلل، ويخشى في مثل الحال التي نحن فيها ان يفضي إلى الخطر» الخ.

٣ - «إن أفضل ما نفاخر به الآن هو أننا نلنا الدستور من غير إراقة



للدماء ولا أيقاع للبلاد في فوضى الثورة، ولا غير ذلك مما يذم ويكره، فيجب أن نحافظ على هذه الفضيلة، وأن لا نرتكب في طلب الفرع، ما عصمنا الله في طلب الأصل، فعسى أن يكون تاريخنا في هذا الطور أنظف من تاريخ جيراننا فيه».

٤ - «إن أمامنا عقبات كثيرة منها ما يتوقع من مقاومة بعض الحكام الظالمين للحرية الجميلة التي يرقص لها طلاب الدستور طرباً، ويهيمون بها شغفاً، ومنها ما هو أقرب إلى الوقوع كالنزاع بين الأحرار المستقلين، وبين المتعصبين والمقلدين، ومنها مسألة تكوّن الجنسية العثمانية، وما يقع في طريقها من جنسيات الشعوب التي يتألف منها جسم الدولة العلية».

٥ - «الحق أقول: إنه لا يخشى علينا من سلب الحرية، وإنما يخشى علينا من سوء استعمال الحرية، ومن الجهل بطرق المحافظة على الحرية، : يخشى أن تدفع الحمية بعض الأحرار الظافرين، إلى مثل عمل المستبدين، وأن تهبط العبودية الموروثة بكثير من الجاهلين، إلى أن يكونوا عوناً على انفسهم للحكام الظالمين».

هذا بعض ما كتبناه في حال السرور بإعلان الدستور في الأسبوع الأول من إعلانه وقد وقع جميع ما توقعناه وخفناه.

أخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها كفالة الدستور وحفظه فألفت لها لجاناً وأحدثت لها شعباً في جميع بلاد السلطنة، وأبعدت أعوان السلطان عنه وسعت في محاكمة بعض المعروفين بالظلم منهم، وتدخلت في انتقاء الحكام والعمال وانتخاب المبعوثين. إندبت للقيام بكل ما قلنا إنه لازم واجب، لا لأننا قلنا بل لأنها تعلم ما علمناه، ولكنها لم تحسن العمل في كل ما تشبثت فيتم سرورنا بعملها.

سافرنا إلى الديار السورية وزرنا أهم مدن الولاياتين ورأينا تصرف جمعية الاتحاد والترقي فيها وما كان من عمل «اللجنة المرخصة» التي أرسلتها من

سلانيك. فأينا خللاً وخطلاً وسوء تصرف كنا نعتذر عنه للناقمين عليها، حتى أنه لم يوجد لها من دافع عنها كما دافعنا، وليس تفصيل تصرفها في سورية من موضوع هذا المقال الذي وضع لبيان الحال العامة.

ثم عدنا إلى هذه البلاد التي يعرف من فيها ما لا يتيسر عرفانه لمن في سورية فسمعنا ممن كانوا في الآستانة من العثمانيين الأحرار ومن غيرهم أموراً منتقدة فوق ما كنا نعلم بل رأينا أكثر العثمانيين لا سيما الترك متغيرين عليها. وإننا نذكر مجموع ما ينتقده عليها الناس في مصر وسورية في موضوع مطالبنا التي أشرنا إليها آنفاً وهو:

١ - إن سلوك الجمعية مع أعوان الاستبداد لم يكن سلوك من يريد القضاء على الاستبداد بإزالة نفوذ أهله وإخضاعهم للدستور بل سلوك من اغتتم الفرصة للاستفادة منهم فقد كانت تأخذ المبالغ الكبيرة منهم وتدعهم وشأنهم أو تضمهم إليها وقد حدثني الثقات من أهل الشام أن اللجنة المرخصة التي ذهبت لأجل التحقيق في الحادثة التي جرت لي في آخر شهر رمضان قد أخذت مبلغاً عظيماً من النقود باسم الإعانة للجمعية من رؤساء الفتنة وزعماء الاستبداد الذين بلغ من جنونهم في محاربة الدستور أنهم تحدثوا بنصب خليفة في الشام يبايعونه ويقاومون به الحكومة الدستورية.

٢ - إنها لم تحسن في انتقاء العمال والحكام فقد ساعدت كثيرين من أعوان الاستبداد حتى على الترقى في الوظائف وأهملت شأن كثير من الأحرار والمجربين. وقد كان أكبر رجاء لي في حكومتنا الجديدة الإنصاف في اختيار الموظفين من الأكفاء لا سيما المجربين في مثل مصر. ويتهمون الجمعية بأنها كانت تبيع الوظائف العالية بالمال، والله أعلم بحقيقة الحال.

٣ - إنها جعلت هم لجائها في جميع البلاد النفوذ في الحكومة لا مجرد المراقبة عليها لئلا تخرج عن القوانين ولا مساعدتها على حفظ الأمن الذي

اختل بعد إعلان الدستور في جميع الولايات . كل ولاية بحسب درجتها في الأخلاق وحال الاجتماع .

٤ - إنها لم تحسن الانتقاء والاختيار في تأليف شعبها ولجانها فأدخلت فيها كثيراً من المتقهقرين أو الرجعيين وعادت آخرين . وظهر في بعض لجانها التعصب للجنس التركي حتى كاد يكون الأعضاء من الترك هم أصحاب الشأن ومن معهم من غيرهم كالآلات . وقد سمعت كثيراً من الشكوى في ذلك فكنت أدافع بالتي هي أحسن .

٥ - حمل الضباط في جميع البلاد على الاشتغال بالسياسة وجعل نفوذهم هو الأعلى في لجان الجمعية وهذا خطر على الدولة كان يجب التشديد في منعه ، والاكتفاء بأن يكون بين الجمعية وبين الضباط صلة خفية كما قلنا وانصراف كل إلى عمله : الضباط إلى العمل العسكري المحض الذي لا شائبة فيه للسياسة والجمعية لمراقبة سير الدستور من غير مشاركة للضباط في ذلك . فإن ظهرت قوة تسعى لإلغاء الدستور وإبطال مجلس الأمة أو الاستبداد والظلم جاز حينئذ استنجد الجمعية بالضباط لمقاومة ذلك . وإنه لا يختلف عاقلان من علماء الاجتماع في وجوب منع الضباط من الاشتغال بالسياسة والإدارة حتى إذا أبوا أخرجوا من الجيش وفي كون الجند الذي يدخل في الثورة يكون خطراً على الأمة ، فإذا لم يتيسر استصلاحه حالاً وجب إخراجه من الجندية أو قتله .

٦ - تصرفها مع السلطان . انتقد عليها شيء منه لا نحب الخوض فيه ولكننا نقول إن الذين يرون أن السلطان هو روح الحركة التي وجهت في هذه الأيام إلى إسقاط الجمعية يقولون لولا أنها أخرجته لما كان شيء من ذلك .

٧ - سيرتها في حمل الناس على انتخاب المبعوثين : رأيت بعيني بعض ذلك في طرابلس الشام وقد كنت أدافع عن الجمعية بقدر الإمكان لئلا تشتد الفتنة ويستشري الفساد .

٨ - طريقة تأييد نفوذ الجمعية في «مجلس المبعوثان» بما كاد يكون مهدداً لسائر الأعضاء سالباً لاستقلالهم.

٩ - اتهمت الجمعية أيضاً بالتعصب للجنسية التركية وينقلون عنها أموراً كثيرة في ذلك وهو أخوف ما نخافه على مستقبل الدولة وربما شرحنا ذلك في مقال خاص.

١٠ - العبث باستقلال الوزارة بحيث كانت الجمعية مانعة من وجود وزارة مستقلة مسؤولة أمام مجلس الأمة وحده عن عملها.

١١ - الجهل بمدارة الشعور الديني في الأمة. فقد أظهر بعض أعضائها المشهورين أموراً منكراً في نظر الدين جعلت لإعدادها مجالاً واسعاً للتفسير منها. وقد اعترفت هي اليوم بهذا التقصير.

١٢ - ظهورها بمظهر السلطة المستبدة غير المسؤولة حتى صرت تسمع من العثماني الحر والمتفهم ومن الأجنبي المتطرف والمعتدل هذه الكلمة التي أذاعتها الجرائد: إن جمعية الاتحاد والترقي قد أزال استبداد المايين وأدالت منه استبدادها هي. وتفرع عن هذه الكلمة كلام كثير منه قول الكثيرين ان استبداد السلطان ابن السلطان ابن السلطان أهون علينا من استبداد أوشاب من الناس لا يُعرفون فان السلطان أشرف منهم والذل له أقل عاراً من الذل لهم وإرضاءه أسهل من إرضائهم لأنه شخص واحد يمكن أن يعرف ما يرضيه ولا يعرف ما يرضي هؤلاء الكثيرين.

هذا مجمل ما خطر في بالنا الآن من أقوال الناس في جمعية الاتحاد والترقي بعد ذلك الإجماع على الثناء عليها في أول العهد بإعلان الدستور فهل يعقل أن يكون كله كذباً واختراعاً من الجماهير المتفرقين في ولايات وممالك كثيرة؟ وإلا فما سبب شيوعه واللهج به في البلاد والممالك؟

لم يحصل بعد الدستور شيء من السلطة يحمي إلا هدوء الآستانة وحسن السير في حل مشكلتي البوسنة والبلغار وكان الفضل الأكبر في ذلك لكامل

باشا ولكن الجمعية لم تلبث أن أسقطت كاملاً من كرسي الصدارة وغيرت وزارته لأنه كان معارضاً لنفوذها الفعلي في الحكومة فانتقد سياسة أوروبا هذا العمل وعدوه استبداداً من الجمعية في الحكومة وقال بمثل قولهم كثيرون في الدولة لأنهم لم يصدقوا أنه كان مضاداً للدستور كما ادعت .

ثم قتل حسن بك فهمي رئيس تحرير جريدة سربستي غيلة ، ففهم السواد الأعظم في الأستانة وغيرها أن الجمعية هي التي اغتالته لأنه كان ينتقد أعمالها فاشتد السخط عليها وانفجر بركانه . وكان بعض أعضاء الجمعية اقترح في مجلس الأمة تقييد حرية المطبوعات ونشر في أثناء ذلك مقال كامل باشا الذي بين فيه سبب إسقاط الجمعية لوزارته وما كان من شأنه وشأنها قبل ذلك ولم تحسن الجمعية التصرف في شأن حادثة قتل حسن فهمي الذي عدّ قتلاً للحرية الشخصية واستقلال الفكر فثارت الأستانة على الجمعية وكان ابتداء الثورة يوم دفن حسن بك فهمي . فسقطت وزارة حسين حلمي باشا التي هي وزارة الجمعية بعد أن أهين بمركبته من حيث تشيع الجنازة وعدم حضورها تبعاً لزعماء الجمعية الذين لم يحضروها . وفر أعضاء الجمعية هارين من الأستانة وقتل كثيرون من البراء وجرح آخرون ودمرت أندية الجمعية وإدارات بعض جرائدها واستحوذ الرعب على أهل العاصمة وخافوا من سوء العاقبة .

سواء صح ما قيل في الجمعية كله أم صح بعضه فإن حسنتها التي لا ينازعها فيها أحد هي أنها هي التي أخذت الدستور باليمين فلا تنهه بالشمال فهي أحرص على حفظه وبقائه من جميع العثمانيين . وهو الآن كالطفل يحتاج إلى تربية وكفالة ، وله أعداء فيحتاج إلى دفاع وحماية ، فإذا قيل إن الحكومة المسؤولة ومجلس الأمة يقومان بتربيته ، فهل يستطيع أحد أن ينكر اختصاص الجمعية بالقدرة على كفالته ، وهل جاءتها هذه القدرة إلا من الجيش ؟

إذاً لا بد من بقاء الجمعية ولا بدّ من بقاء صلتها بالجيش ولكن لا يجوز

بحال أن تتداخل في أعمال الحكومة، ولا أن تعبت بحرية المجلس، ولا أن تدع ضباط الجيش يشتغلون بالسياسة، ولا أن تقاوم من يخالفها في الرأي بالقوة، ولا حاجة بها إلى ذلك في حماية الدستور ولكن قد يشتهي رجال الجمعية لأنه من تمتع القادر المنصور.

لا يوجد في البلاد قوة يمكن أن تقف في طريق الجمعية إلا قوة السلطان في العاصمة وقوة عصابات الأشقياء في بعض الولايات. فأما العصابات فيمكن تذليلها بالقوة ولو بعد حين وأما السلطان فإنه بنفوذه المعنوي المصبوغ بلون الدين وبأعوانه الكثيرين وبماله الكثير وبدهائه العظيم يمكنه في كل وقت أن يعمل عملاً كبيراً فهو أخوف ما يخاف على الدستور إذا لم يخلص له وللناس فيه رأيان أحدهما إن إزالته من أمام الدستور ضرورية فإن خطره دائم بداوامه، وثانيهما أنه يمكن أن يؤمن خطره بأمور ترضيه كلها ترجع إلى أن يرى ما صار إليه خيراً مما كان فيه ولا يتم ذلك إلا بتأمينه على نفسه ومنصبه وتحامي جرح وجدانه ولو مع إبعاد رجاله المدبرين للحكم السابق عنه ولكن الجمعية جرحته جروحاً نغارة وأخرجت من قصره الحرس الذي يركن إليه ويظن أن حياته متوقفة عليه فهل تطيب لها بعد ذلك نفسه، ويطمئن إليها قلبه؟ أم لا بد له من الكيد لها، والسعي للانتقام منها.

#### الجمعية المحمدية

وافتنا أنباء الأستانة في سورية بأنه قد ظهر فيها جمعية جديدة سميت بالجمعية المحمدية غرضها المطالبة بالحكم بالشرعية وتطبيق القوانين عليها فما وجدتني مرتاحاً لهذا النبأ على أني وقفت نفسي على الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والتوفيق بين أحكامه ومصالح البشر في كل طور من أطوارهم مهما ارتقت. وما ذاك إلا لأنني خفت أن يكون الغرض الباطن منها محاربة الدستور باسم الدين، كما أن نفسي لم تكن مرتاحة لجمعية الإخاء العربي، وأنا من صميم العرب، لأنني خشيت أن تكون مفرقة بين العرب والترك

ومحركة للعصبية الجنسية التي أخاف على الدولة شرها وكنت أصرح برأيي بذلك في كل محفل ومقام.

سألني الأمير شكيب أرسلان عن رأيي في الجمعية المحمدية ونحن في ملأ بنادي الاتحاد العثماني ببيروت فقلت إن خوفي منها غالب على رجائي فيها فإن كانت تطالب مجلس الأمة بأن يأخذوا قوانين الدولة كلها من كتب الحنفية بالشروط المعتمدة عندهم في الفتوى فهذا حرج وما أظن أن مؤسسيها في درجة من الارتقاء يطلبون فيها المحافظة على أصول الإسلام الثابتة من الكتاب والسنة والاكتفاء بعدم الخروج بالقوانين عنها بل لا أرى أنهم يرضون بذلك وإنني أقول إنه ليس في ديننا شيء ينافي المدنية الحاضرة المتفق على نفعها عند الأمم المرتقية إلا بعض مسائل الربا وإنني مستعد للتوفيق بين الإسلام الحقيقي وكل ما يحتاج إليه العثمانيون لترقية دولتهم مما جربه الإفرنج قبلهم وغير ذلك ولكن بشرط أن لا ألزم مذهباً من المذاهب بل القرآن والسنة الصحيحة. وأرجو أن يكون ذلك مقبولاً عند جميع العناصر العثمانية إلا المقلدين المتعصبين لمذاهبهم من المسلمين. فأورد عليّ بعض الحاضرين مسألة الشهادة فأجبت بما أقنعه وأقنع غيره من الحاضرين.

وقع ما كنا نخاف وأكثر وظهر أن هذه الجمعية هي التي قامت بالفتنة الحاضرة في الآستانة حتى أنها استمالت إليها العسكر الذي جاءت به جمعية الاتحاد والترقي من سلانيك لتحافظ به على الدستور، وعسكر الأسطول أيضاً، ولا غرو فباسم الدين تقدر أن تستميل جميع عسكر الدولة إن هي أدلت بخراطينها إليه. وتفيد أخبار الآستانة أن قائدها في هذه الفتنة هو مراد بك الداغستاني الشهير الذي كان من زعماء جمعية الاتحاد والترقي من بضع عشرة سنة فخاها مع الخائنين وسلم أوراقها للسلطان ورضي بأن يتقاضى منه مالاً على ذلك بعد أن كان من أشد المبالغين في الطعن فيه والتحريض عليه. وبعد الانقلاب طلب أن يدخل في الجمعية لما رأى من

نفوذها، وهو كالدنيا مع القائم، فأبت عليه فحاول الانتقام منها وإحباط عملها. فهكذا يكون الرجال المصلحون!

### جمعية الأحرار

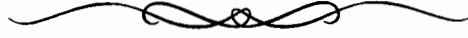
كان جميع طلاب الإصلاح من العثمانيين يلقبون بالأحرار ثم تألف حزب في الآستانة سمي بحزب الأحرار وصار له جمعية خاصة به. والمشهور أن هذا الحزب على رأي صباح الدين أفندي (سبط، آل عثمان) الشهير فيما يعبر عنه بعدم المركزية كما نوهنا بذلك من قبل. فهو حزب سياسي لا خطر منه إن كان ظاهره وباطنه سواء. وإن كانت ولايات الدولة غير مستعدة الآن لأن تكون على رأيه برمته، وكم في أوروبا من حزب يدعو إلى رأيه سنين طويلة ولا يضر الأمة مخالفته لرأي السواد الأعظم ولسائر الأحزاب فيها ولكن جمعية الاتحاد والترقي تشدد في مقاومة هذا الحزب حتى أنها اتهمت بقتل محرر جريدة سربستي كما علمت وذلك غلو كان من أسباب الفتنة الحاضرة. وهو قد اتهم أيضاً بالسعي في إسقاطها ومن الناس من يتهم بعض رجاله بمقاوة الدستور وما لنا وللتهم فقد اتهم أحمد رضا بك بمشايعة السلطان على هدم الدستور أيضاً.

### الثورة العسكرية والفتن الداخلية

بعد كتابة ما تقدم علمنا إن شيطان الاستبداد تمكّن من إحداث ثورة عسكرية في الآستانة غرضها الظاهر إبادة جمعية الاتحاد والترقي ويخشى أن يكون الباطن محو الدستور وإعادة الاستبداد الماضي على أن إسقاطها يعيده بالطبع. وقد فرّ رجال الجمعية من الآستانة ولجأوا إلى مركز قوتهم في سلانيك ثم زحفوا بجيشهم على الآستانة ليحكموا السيف والمدفع في الأمر، فنسأل الله لهم التوفيق والنصر، وأن يحفظ الدولة من الخطر وقد ولدت الثورة بالعاصمة فتنة في ولاية اطنه فهبّ الترك لذبح الأرمن وهو



عمل يتبرأ الإسلام منه ومن فاعليه، ولكنه لا يسلم معه من طعن الأمم فيه، فبهمجية هؤلاء الأقوام، صار المسلمون حجة على الإسلام.



٨٠

## إحدى الكبر \* وكبرى العبر

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٢٧٦ - ٢٨٨]

خلع عبد الحميد خان. نفيه من دار السعادة. وضعه تحت المراقبة العسكرية. ضبط أمواله وذخائره وعقاره. إباحة يلدز للأمة. تولية مولانا السلطان محمد الخامس «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ٢٦].

جلّت قدرة الله ونفذت مشيئته، وغلب قدره وعُلِمَت كلمته، جعل الأيام دولاً، وجعل للدول نواميس وسنناً، فلا مبدل لسننه، ولا تحوّل لنواميس خلقه، فلا يغرنك إملاؤه للظالمين، واستدراجه للمفسدين، «١٤: ٤٢» «إنما يؤخّروهم ليوم تشخص فيه الأبصار (٤٣) مهطعين مقنعي رؤوسه لا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء، وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب» [سورة إبراهيم رقم ١٤، الآية ٤٢]

لا ينفع من قدره حذر، ولا ينفذ من محيط سننه سلطان البشر، فلا يهولنك ما ترى من رسوخ الاستبداد، ولا يؤنسك ما تشاهده من غلبة الاستعباد، ولا يفزعنك ما ترى من الحصون والأجناد، فقد مضت سنة الله بأن الشيء إذا جاوز حده، جاور ضده، وأن شدة الضغط توجب شدة الانفجار، وأن الأعمال بالخواتيم، «٧: ١٢٨» «والعاقبة للمتقين» [سورة

الأعراف رقم ٧، الآية ١٢٨]، «١٣: ٢٥» والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ٢٥]. ألا وإن مشيئة الله في إيتاء الملك ونزعه، وخفض الملك ورفع، واعتزاز السلطان وإذلاله، ليست مشيئة استبدادية، مغيرة لسننه الاجتماعية، وإنما جعل لكل شيء سبباً، ولكل أمر مقادير وسنناً، فما من أمة تفرقت كلمتها، وغلب عليها الجهل بحقوقها، واعتقاد وجوب التقديس لأمرائها وملوكها، وكثر فيها المنافقون، وقلّ فيها الصادقون، إلا وابتليت بالمستبدين، ومنيت بالظالمين، يسومونها سوء العذاب، ويقطعون بها الأسباب، فيأكلون الأموال، ويستذلون الرجال، ويجعلون الحرائر إماء، ليتمتعوا بالمئات من النساء، ويعبثون بالشرعية والقانون، ويجنون على الأخلاق والآداب، فيذلون أمتهم، ويضعفون دولتهم، فإذا استيقظت الأمة من سباتها، واجتمعت بعد شتاتها، وعرفت حقوقها، وغيرت ما بأنفسها من تقديس السلاطين، وأرادت أن تجعل الحكم فيها للشرعية والقوانين، فإن الله يغير ما بها من الذل والعبودية، فتستبدل بها العز والحرية، من حيث يذل ظالمها، ويهلك مذلها، «١٣: ١١» «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال». [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ١١].

لقد صدقنا الله وعده ووعيده، وأرانا بأعيننا مصداق كتابه، فهذا عبد الحميد خان وأعوانه، وقرناؤه وخصيانه، وجواريه وغلماؤه، قد بغوا في الأرض، وتركوا السنة والفرص، وعطّلوا الشرعية والقوانين، واستبدّوا بجميع العثمانيين، وجمعوا القناطير المقلّنة من الأموال، وحشدوا لحمايتهم الألوف المؤلفة من الرجال، وأقاموا حولهم المعازل والحصون، ليمنعوا أنفسهم أن يصلوا عليها المظلومون، «٥٩: ٢» «وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب

يَجْرَبُونَ بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار» [سورة الحشر رقم ٥٩، الآية ٢].

نعم، إن في ذلك لكبرى العبر، لمن يعقل ويتدبر، «٣٢: ٧٤» كلا والقمر (٣٣) والليل إذا أدبر (٣٤) والصبح إذا أسفر (٣٥) إنها لإحدى الكبر (٣٦) نذيراً للبشر (٣٧) لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، [سورة المائدة رقم ٧٤، الآية ٣٢-٣٧] فقد أدبر ليل الظلم والاستبداد، وأسفر صبح الدستور فميز بين الإصلاح والإفساد، وذهب الغي وجاء «الرشاد»، وكانت هذه الحركة العثمانية إحدى الكبر، نذيراً للمستبدين من البشر، تعلمهم أنه لا ينفع حذر من قدر، كما تعلم من شاء أن يتقدم أو يتأخر من الأمم، كيف يكون السير في الطريق الأمم، وإغا مدار التقدم والتأخر على العدل والاستبداد، ورسوخ جذور إحدى الكلمتين في البلاد، «٢٤: ١٤» «ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦) يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء» [سورة إبراهيم رقم ١٤، الآية ٢٤-٢٦].

لقد ذهبت هذه العبرة بأعذار اليائسين من روح الله، وتعلات القانطين من رحمة الله، الذين يتركون العمل، ويتفيثون ضلال الكسل، إذا غلقت في وجوههم الأبواب، وتقطعت بهم الأسباب، جهلاً بعناية الله بالإنسان، وسنته في نظام الأكوان، فها نحن أولاء قد رأينا عبد الحميد خان قد غلق جميع الأبواب التي يتصور التوصل منها إلى خلعه، وقطع جميع الأسباب التي يتخيل أنها تفضي إلى أخذه، حتى أنه منع الاجتماع والجمعيات، وحجر حتى على كثير من الألفاظ والاصطلاحات، فأبطل من المحاكم الشرعية لفظ الحجر والجنون، وأن يحكم بالحجر على مجنون، ومنع لفظ

المخالعة والخلع<sup>(١)</sup>، منها وما يطبع من كتب الشرع، لأنه يذكر بلفظ الخلع، (بالفتح) كما أبطل من جميع المطبوعات، أمثال هذه الكلمات، عبد الحميد. سلطان (إلا عند ذكره) مراد، رشاد، ثورة، حرية، جمعية، مبعوثان، إلخ إلخ. وكان لمراقبي الجرائد في ذلك من الأمر والنهي، والإثبات والمحو، ما يضحك الثكلى، ويبيكي اليائس الذي جاءته البشرية، وأمر بحذف دعاء القنوت من كتب التعليم، وكلمة خلع النعيلين مما يطبع من كتب الفقه والحديث، لئلا يخطر خلعه في البال، عند ذكر خلع النعال، أو يسبق إلى فهم المتعلمين أو المصلين، ان كلمة «ونخلع من يفجر» في القنوت توجب خلع الفجار من السلاطين، هكذا رأيناه قد اتقى كل شيء إلا الله، «٢٨: ٨١» «فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله» [سورة القصص رقم ٢٨، الآية ٨١]، ٢: ٢٧٠ و ٣: ١٩٢ «وما للظالمين من انصار». [سورة البقرة رقم ٢، الآية ٢٧٠، وسورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٩٢]

عز عليه أن يسلب بالدستور والحرية، ما كان ينتحله من صفات الربوبية، ككونه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا حدود لأمره ونهيه، يحمد على السراء والضراء، «٢١: ٢٣» لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون» [سورة الانبياء رقم ٢١، الآية ٢٣] يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويصل ويقطع، ويفرق ويجمع، ويقرب من يحب، فرأى بعد الدستور أن أمر الشريعة والدستور فوق أمره، وأن نفوذ جمعية الاتحاد والترقي فوق نفوذه، وأن الألسنة والأقلام التي كانت مكرهة على ترتيل آيات إطراره ترتيلاً، والتسييح بحمده بكرة وأصيلاً، صارت تسمي أعماله ووقائع عصره باسمائها، بعد أن كانت تطلق عليها أسماء أضدادها، إذ

(١) الخلع بالضم الطلاق بعوض. وقد رفع إلى محكمة التمييز إعلام بحكم شرعي في مخالعة فردته إلى المحكمة الابتدائية لأجل تصحيحه بحذف كلمة خلع منه. وقد نهبت على ذلك بالأرقام كقولها (مثلاً) يجب تغيير الكلمة الرابعة من السطر الثاني والعاشرة من السطر الثالث وهلم جرا.

كانت تسمى الظلم عدلاً، والنقص فضلاً والجهل علماً، والسفاهة حليماً، والباطل حقاً، والكذب صدقاً، والإفساد إصلاحاً، والخسر فلاحاً، والتخريب عمراناً، والإساءة إحساناً، إلى غير ذلك . راعه أن يكون بشراً يوصف بصفات البشر، وأن تكون رعيته من جنسه لا من الغنم والبقر، فضايق بهذا الدستور صدرأً، وعجز عن مبارزته جهراً، فلجأ إلى الكيد والاحتيال، وفتح ما ادخره لمثل هذا اليوم من كنوز الأموال، فألف بها الجمعية المحمّدية، وبث دعائها في العاصمة وجميع الولايات العثمانية، فطفقوا يوسوسون لعامة المسلمين، إن الدستور مناف للدين، وأن جمعية الاتحاد، تريد بث التعطيل والإلحاد، وتحويل الحكومة الإسلامية، إلى حكومة أوروبية، بل بثوا فتنتهم في الجيش فشقه نصفين، ودبروا مكيده لإيقاع المذابح بين العنصرين، المسلمين والنصارى، «١٤: ٤٦» وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال» [سورة ابراهيم رقم ١٤، الآية ٤٦].

إما لو وقعت الواقعة، وقرعت الدولة هذه القارعة، لرُجّت الأرض رجاً، وبست البلاد بساً،<sup>(١)</sup> فكانت هباء منبثاً،<sup>(٢)</sup> ولكن لطف الله بهذه الأمة، وأراد إنقاذ هذه الدولة، فانهتك الستر، وانكشف السر، وظهرت بوادر الثورة على الدستور في القسطنطينية، قبل أن تصل دعائها إلى جميع الولايات العثمانية، فقتل الثائرون بعض أعضاء مجلس النواب، ودمروا على نادي جمعية الاتحاد، فتبروا ما عملوا تتيبراً، وكادوا يدمرون المعاهد تدميراً، فأررز<sup>(٣)</sup> أهل التدبير إلى سلانيك وهي مصدر الدستور، ومطلع هذا النور، واستصرخوا ذلك الجيش المنصور، فلّبأهم سليل الفاروق،

(١) أي خربت فكانت أجزاء متفتتة، أو سيق أهلها كما تساق الغنم .

(٢) الهباء الغبار والمنتبث المنتشر المتفرق .

(٣) أي اجتمعوا وانضم بعضهم إلى بعض كذا فسر الاصمعي الكلمة في الحديث . وفي اللسان أرز (كجلس) تقبض وتجمع وثبت، ويقال أرز إلى المكان إذا كان مأمناً ومنعته .

مبادراً إلى فتح فروق، والقضاء الأخير على الاستبداد، واصطلام آخر  
جرثومة له في البلاد، والتنكيل بما له من الأحزاب والأنصار، (١٣: ١٠  
«سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب  
بالنهار»<sup>(١)</sup>. [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ١٠].

عباً «محمود» الأمة، و«شوكة» الملة، تلك الكتابب الشعواء، وهي  
كالقضاء المنزل من السماء، فكان هو منها كما قال شوقي من قبل في مدح  
جيش عبد الحميد تبعاً لمدحه:

يقود سراياها ويحمي لواءها	سد يد المرائي في الحروب مجرب
يحيى بها حيناً ويرجع مرة	كما تدفع اللج البحار وتجذب
ويرمي بها كالبحر من كل جانب	فكل خميس لجة تتضرب
وينفذها من كل شعب فتلتقي	كما يتلاقى العارض المتشعب
ويجعل ميقاتاً لها تنبري له	كما دار يلقي عقرب السير عقرب
فظلّت عيون الحرب حيرى لما ترى	نواظر ما تأتي الليوث وتغرب
تبالغ بالرامي وتزهو بما رمى	وتعجب بالقواد والجند أعجب

أو كما قال اليوم يخاطب هذا الجيش مفتخراً بعمله في أخذ عبد الحميد  
وخلعه

يا أيها الجيش الذي	لا بالدعي ولا بالفخور
يخفى فإن ريع الحمى	لفت البرية بالظهور
كاليث يسرف في الفعا	ل وليس يسرف في الزئير
الخاطب العليا بال	أزواج غالية المهور
عند المهيمن ما جرى	في الحق من دمك الطهور
يتلو الزمان صحيفة	غراء مذهب السطور

(١) اي ويقال لهم سواء منك أيما الخارجون على الدستور من اسر القول للجنود وغيرهم بالحث  
على الفتنة ومن جهر به الخ، والسارب الظاهر البارز كأولئك الجنود العصاة.

في مدح «أنورك» الجري	وفي «نيازيك» الجسور
«يا شوكت» الإسلام بل	يا فاتح البلد العسير
وابن الأكارم من بني	«عمر» الكريم على «البشير»
القابضين على الصلي	ل كجدهم وعلى الصرير
هل كان جدك في ردا	ئك يوم زحفك والكرور
فغنصت صياد الاسو	د وصدت قناص النسرور
وأخذت «يلدن» عنوة	وملكت عنقاء الثغور

نعم كرّ الفاروقي بجيشه وعيون الأمم الاجنبية شاخصة إليه، وقلوب الشعوب العثمانية محومة عليه، وزحف على الآستانة، مصوباً مدفعه ممتشقاً حسامه، فلقيته جنود عبد الحميد، وكانت الحرب كالسيل يقذف جلموداً بجلمودٍ، فطلّ الأخ دم أخيه، وخرق القريب صدر قريبه، فكانت جنودنا كما قال البحري :

إذا اشتجرت يوما ففاضت دماؤها      تذكرت القربى ففاضت دموعها

ولكن شتان ما بين الباعثين، وما أبعد ما بين الداعيتين، ففريق ينصر الملة بنصر الشورى والدستور، ويحمي الأمة بحماية مجلس المبعوثان، وفريق ينصر الاستبداد بنصر ذلك الشبح البال، والمسرف العال، والخون الغال، (١٣:٣) والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٣]

أيّد الله الحق على الباطل، ومكّن جند الدستور من تلك الحصون والمعازل، حتى كأن قائده يحمل سيف جده عمر، الذي كتب الله له النصر والظفر، فكان هو الفاروق الفاصل، بين العدل والظلم والحق والباطل، وقد أعجب أهل الحرب في أوروبا بسرعة حركته، وحسن تعبئته، كما أعجب أهل السياسة بإحكامه للنظام، وحفظه للأمن، وفرح العثمانيون بنصر الله الدستور على الاستبداد، وحكم الشورى على حكم

الأفراد، «٥١:٤٠» إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم  
الاشهاد (٥٢) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار»  
[سورة غافر رقم ٤٠، الآية ٥١]

سقطت «يلدز» ذات الحصون المشيدة، والملاجئ المتعددة، بعد أن  
حاصرها جيش الدستور، وقطع عنها الزاد والماء والنور، وفيها أربعة آلاف  
من النساء والعلمان، والخصيان والأعوان، والحرس الداخلي والحجّاب،  
والخدم والكتّاب، والسوّاس والحوذية، والأرسيين والبستانيّة، كانوا  
يأكلون كل يوم ما تشتهيه الأنفس من أصناف الألوان، ويتمتعون بما أحبّوا  
من بنات الحان ومعتّقات الدنان، من لا يشغله شأن عن شأن، أراد أن  
يجعلها كجنة الخلد، فإذا هي في يوم الحصار دون جنة آدم في الأرض،  
فقد قال الله لأدم ١١٨:٢٠ «أنّ لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى (١١٩)  
وأنتك لا تظمأ فيها ولا تضحى» [سورة طه رقم ٢٠، الآية ١١٨ - ١١٩] وقد جاع  
وظمئ في جنة عبد الحميد حتى الغادات، وصار من فيها كالسوائم  
يقتاتون بورق النبات، نعم ذاق يلدز طعم الجوع، بعد أن كانت مئاث  
الموائد توزع من فضلاتها على الجموع، وتجميع الألوف من الجنود وغير  
الجنود، وذات لباس الخوف والرعب، بعد أن كانت تخيف جميع  
الشعب، فصارت عبرة للمعتبرين. ومثلاً للآخرين. ١١٢:١٦ «ضرب الله  
مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت  
بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» [سورة النحل  
رقم ١٦، الآية ١١٢]

أين الأوانس في ذراها	من ملائكة وحوور
المترعات من النعيم	الراويات من السرور
العائرات من الدلال	الناهضات من الغرور
الأمرات على الولاة	الناهيات على «الصدور»
الناعمات الطيبات	العرف أمثال الزهور



الذاهلات عن الزمان	بنشوة العيش النضير
المشرفات وما انتقلن	على الممالك والبحور
من كل «بلقيس» على	كرسي عزتها الوثير
أمضى نفوذاً من «زبيدة»	في الإمارة والأمير
بين الرفارف والمشاة	رف والزخارف والحريير
في مسكن فوق السماك	وفوق غارات المغير
بين المعازل والقنا	والخيل والجمل الغفير
سموه «يلدز» والافو	ل نهاية «النجم» المنير
دارت عليهن الدوائر	في المخادع والحدور
أمسين في رق القبيل	وبتن في أسر العشير
ما ينتهين من الصلا	ة ضراعة ومن النذور
يطلبن نصرة ربهن	وربهن بلا نصير

ولماذا صار ربهن عبد الحميد بلا نصير، ولا ولي ولا ظهير، الجواب من سورة الشورى التي كان يمقتها ٤٢: ٨ «والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير» ومنها (٣٠) «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير (٣١) وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير» [سورة الشورى رقم ٤٢، الآية ٨ و ٣٠ - ٣١]

بعد أن ضيق جيش الدستور على يلدز الحصار، خيرها بين التسليم وبين السيف والنار، فعلم ذلك العاهل، أنه جاء الحق وزهق الباطل، فأمر بالتسليم مدعياً إثارة السلام، على الحرب والصدام، وأن العسكر المهاجم كالحرس من أولاده، لا فرق بين الداعم والهادم لاستبداده، فسلم من كان فيها من الجيش سلاحه وذخائره مأسوراً، ثم خرج منها مذموماً مدحوراً، وخرج وراءه رؤساء الموظفين والكتّاب والقرناء، فالخصيان والخدم فالنساء، فكان عسكر الدستور يخرج كل فريق فيعرف غير النساء منهم فرداً فرداً، ويحصبهم بالمقابلة على الجداول التي بيده عدداً، ثم

يرسلهم محفوظين إلى المواضع التي أعدها لهم، إلى أن يصدر الحكم العمري الفاروقي فيهم، بل ذلك حكم الله وسننه في نظام الاجتماع، «١٨:٤٠ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» [سورة غافر رقم ٤٠، الآية ١٨] وصدق عليهم بعد إباحة يلدز للأمة، ما نزل في فرعون وقومه، «٢٥:٤٤ كم تركوا من جنات وعيون (٢٦) وزروع ومقام كريم (٢٧) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٨) فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» [سورة الدخان رقم ٤٤، الآية ٢٥ - ٢٨]

وقد وضع الفاروقي فروق تحت الأحكام العرفية، وشكل فيها المحاكم العسكرية، لمحاكمة منفذي الفتنة الحميدية، لإبطال حكومة الشورى الشرعية، وإعادة الاحكام الشخصية الوثنية، وهذا أمر لا بد منه، ولا تقوم المصلحة العامة إلا به، والقتل بهذه الأحكام العسكرية، هو من قبيل ما يطلق عليه الفقهاء اسم الأحكام السياسية. وقد صرحوا بأنه يجوز قتل الثلث لإصلاح الثلثين، فإن قيل إنها أحكام ربما تصيب بعض البراءة، قلنا وقد يقع مثل ذلك في أحكام القضاء، «٢٥:٨ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب» [سورة الانفال رقم ٨، الآية ٢٥]

وقد كان من أمر الولايات العثمانية، عندما علمت بكيد عبد الحميد خان للحكومة الدستورية، أن كتبت إلى مجلس الأمة بوجوب خلعه، ونفض اليد من بيعته، وإعلامه بأن الجنود مستعدة لمحاربته، والأهالي يتطوعون مع الجيش لمساعدته، فلما أمن المجلس بأس ذلك السلطان، اجتمع المبعوثون الأعيان، واستفتوا شيخ الإسلام، في خلع عبد الحميد وتولية رشاد، وهذه ترجمة الاستفتاء والفتوى بالعربية:

«إذا حذف زيد، أمير المؤمنين، بعض المسائل الشرعية المهمة من كتب الشرع المقدسة، ومنع ومزق وأحرق الكتب المذكورة، وبذر وأسرف في

بيت المال بدون مسوّغ شرعي، وقتل وسجن ونفى رعاياه بدون سبب شرعي، وتعود إرتكاب غير ذلك من المظالم الأخرى، ثم بعد أن أقسم بأن يرجع إلى الصلاح حنث بيمينه وأصر على إحداث فتن عظيمة تخلّ تمام الإخلال بانتظام أمور المسلمين وأحوالهم، وحرص على المذابح، وإذا كانت الأخبار تتوالى من جميع أنحاء البلاد الإسلامية طالبة خلعه تخلصاً من ذلك الجور، وكان في بقائه ضرر محقق، وفي زواله صلاح ملحوظ، فهل يجب تنفيذ ما يرجحه أرباب الحل والعقد وأولو الأمر من إلزامه التنازل عن السلطنة والخلافة أو خلعه؟

(الجواب) نعم.

كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفي عنه.

بعد تناول هذه الفتوى من شيخ الإسلام التي هي أصح فتوى صدرت في هذه الأزمان، لرد الشأن فيها إلى أولي الأمر كما أمر القرآن، إختار أولو الأمر من المبعوثين والأعيان، أن يخلعوا السلطان عبد الحميد الثاني، لأنه ثبت لديهم أنه يصدق عليه ما ذكر في الإستفتاء من المظالم والمخازي، وأن يبايعوا بالخلافة والسلطنة، محمد رشاد أفندي ولي عهد المملكة، وهذه ترجمة قرار المجلس بالعربية:

«في الساعة السادسة والنصف من يوم الثلاثاء، وهو السابع من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢٧، الموافق ١٤ نيسان سنة ١٣٢٥ (مالية) تقرر في جلسة المجلس الوطني العثماني المؤلف من مجلسي الأعيان والمبعوثان خلع السلطان عبد الحميد الثاني وإسناد السلطنة والخلافة إلى ولي العهد محمد رشاد أفندي باسم «محمد الخامس» وذلك بناءً على اختيار الخلع على التنازل الاختياري بالاقتراع وهما الحلان المبينان في الفتوى المذيّلة بتوقيع شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي المتلوة في الجلسة».

ثم إن المجلس أرسل وفدين، لتبليغ قراره للسلطانيين، وليعلم أن

الأمر لأولي الأمر، لا لرجل واحد يسمى وليّ الأمر، لأن الله تعالى أسنده في كتابه إلى الجمع، ولم يسنده قط إلى الفرد، وليكون الأول عبرة للمستبدين الظالمين، والآخر سلفاً ومثلاً للدستوريين الآخرين، فبلغ الوفدان القرارين ولسان الحال، يرتل قول الملك المتعال، «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ٢٦].

دخلوا على عبد الحميد الجبار، الحقود المنتقم القهار، وهو في مأمنه الذي ملأه بالمسدسات، وجعل فيه الملاجىء والمغارات والمداخلات، وله في كل حجرة منه تمثال، يمثله في حال من الأحوال، فمنها النائم على السرر المرفوعة، ومنها المتكىء على الأرائك الموضوعة، ومنها المكبّ على كتابته، ومنها الممثل لقراءته، يحتاط بذلك لخيانة الجنود والحراس، وغفلة الرقباء والأرصاد، حتى إذا ما دمر عليه محتال، يحاول الفتك والاعتقال، واتفق أن اهتدى إلى بعض حجراته، التي يأرز إليها في خلواته، يغرّه التمثال فيهجم عليه، فينفذ رصاص المسدسات الحميدية من بين كتفيه، وإن عبد الحميد لا يخطيء المرمى، فقد تمرن على الرمي حتى صار كبني ثعل أو أرمى. دخلوا عليه فما وارتة مخبأته، ولا حتمه مسدساته، ولا دافعت عنه رجاله، ولا أغنت عنه أمواله، بل غلب على هذا المخلوع الجبن الخالع، فإذا هو خاضع خانع، قد خرّس لسان مقاله، وقرأ لسان حاله، «٢٧: ٦٩» «يا ليتها كانت القاضية، (٢٧) ما أغنى عني ماليه (٢٨) هلك عني سلطانيه (٢٩)» [سورة الحاقة رقم ٦٩، الآية ٢٧ - ٢٩]. يتمنى لو كانت مكيدته قضت على الدستور، وجعلت زعماءه وأنصاره من سكان القبور، ثم طلب أن يبقوا عليه كما أبقي على أخيه مراد، ويحسنوا إليه لأنه بريء مما وقع من الفساد! وطفق يلوك أباطيل الأعذار، ولو كان صادقاً لما انتهى إلى هذا «القرار»، «٢٨: ٣٨» أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار؟ [سورة ص رقم ٣٨، الآية ٢٨].

لماذا خضع وذل عبد الحميد، وهو الجبار العنيد، لذلك الوفد، الذي لم يكن معه غير ثلاثة من ضباط الجند، أتواضعاً كتواضع الخلفاء، أم هي شنشنة الجبناء، إن قدروا بغوا وعتوا، وإن عجزوا ذلوا وعنوا؟ أهذا هو السلطان المستبد، القاسي المتكبر، الحريص على حياته، المحافظ بقوة الدولة ومالها على شخصه، هو بعينه عبد الحميد، الذي دخل عليه وفد مجلس الأمة من غير معارضة ولا تفتيش، فوقف أمامهم خاضعاً صارعاً، متوسلاً خاشعاً، يسألهم الإبقاء عليه وترك روحه العزيزة بين جنبيه؟ سبحانك اللهم ما أجل حكمتك، وما أعدل سنتك، ما أصدق وعدك ووعيدك، فقد بينت لنا أن العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وقلت: «٤٠: ٢١» «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» [سورة غافر رقم ٤٠، الآية ٢١]

أين تلك القوة القاهرة، أين تلك الإرادة النافذة، أين تلك العظمة والكبرياء، أين ذلك الشمم والإباء، أين ذلك المسرف العال، أين ذلك المعجب المختال، أين السلطان عبد الحميد، الذي ظن أنه يبقى فعلاً لما يريد، فلم يكن يقبل أن يوجد في المملكة من يقول هذا نافع في السياسة وهذا ضار، وهذا حلال في تصرف الإدارة وهذا حرام، أين السلطان عبد الحميد الذي جعل نفسه هو الملك وهو الأمة، هو القانون وهو الشريعة، الذي كان يرى أن الملك ملكه، والزمان غلامه، والناس عبيده أو عباده، وأن له الحق أن يحرف كتب دينهم، وأن يغير عليهم أن يقابلوا إساءته بالشكر، وظلمه بالرضاء والحمد، أين السلطان عبد الحميد الذي كان لا ينزل إلى موكب صلاة الجمعة في الأسبوع، إلا بين صفوف من الجيوش كالبنيان المرصوص، فيحرم الصلاة على الألف من المسلمين لأجل صلاته، التي يجعلها عنواناً على خلافته، فيتزلف إليه فيها بآيات معينة من القرآن، لا يتجرأ أن يتلو غيرها قارئ ولا خطيب ولا إمام، ولو قرأ

قارىء على مسمعه آية من الآيات التي تنذر الظالمين بالهلاك والدمار ،  
وتؤذّنهم بالزوال والوبار، لأخذ منه باليمين، ولقطع من الوتين، أو زجه في  
ظلمات السجن، أو نفاه من الأرض. أين عبد الحميد الذي كان يزور  
الخرقة النبوية الشريفة، تذكيراً للمسلمين بأنه هو الخليفة، فتحرس له  
الجنود طريقه إليها طول السنة، فإذا قرب الموعد أُخليت من جانبيها  
الفنادق والدكاكين والأمكنة، وغلقت الأبواب والنوافذ والكوى، وحشرت  
الجنود تملأ ما بين الرجا إلى الرجا، لئلا يطمع أحد بالدنو إليه، أو يكون  
في مكان أعلى منه؟ «٢: ١١» ما أغنى عنه ماله وما كسب» [سورة المسد رقم  
١١١، الآية ٢]، ولا وقاه ما أكدى وما وهب، ولا نفعه رأي ثقاته، ولا  
سلاح حماته، بل سلمت فئة الباغية المغرورة، لفئة الدستور المنصورة، وذم  
هو عمل منفذي فتنته وتبرأ منهم، وزعم أنه كره عملهم ولكن عجز  
عنهم، «٤٨: ٨» «وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من  
الناس وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء  
منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» [سورة الأنفال  
رقم ٨، الآية ٤٨].

بعد أسبوعين من خلع عبد الحميد، أنفذ الفاروقي حكم أولي الأمر  
بنفيه إلى سلانيك، وأخرج معه من دار السعادة إثنان من صغار أولاده،  
وإحدى عشرة امرأة من جواريه ونسائه، وجيء به إلى محطة سكة الحديد  
تخفر مركبته مركبات الجنود. وأرسل كذلك مخفوراً في قطار مخصوص، ولما  
وصل إلى محطة سلانيك اختار ركوب إحدى مركبات الأجرة، إلى أن  
وصل إلى الدار التي أعدت له، وهي دار ألاتيني باشا قائد الشرطة، وقد  
أ. ضر له ولمن معه طعام ذلك المساء من أحد مطاعم السوق، وطلب  
قميصاً فاشترت له أيضاً من السوق، وكان في عامة أوقاته كاسف البال،  
كثير الهواجس والأفكار، وقد تضرع إلى القائد الذي استقبله، بأن يضمن  
له حياته، فهدأ القائد اضطرابه، وسكن روعه، ولو كان عبد الحميد

صاحب عزة وإباء، لما حرص في مثل هذه الحال على البقاء، ولا أقول لفعل ما فعلت الزباء، على أن البخع والانتحار إذا كان محرماً في الإسلام، فشدة الحرص على الحياة ليست من شأن أهل الإيمان، فقد قال تعالى في الذين لا يؤمنون (٢: ٩٦) «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعَمَّرَ ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ٩٦].

أما مولانا السلطان محمد الخامس فقد بوع في ذلك اليوم بنظارة الحربية، باختيار أولي الأمر ونواب جميع الأمة العثمانية، فإن كان قد قال في حفلة المبايعات إنني أول ملك في عهد الدستور والحرية، فإننا نقول إن مبايعته أول مبايعات جرت على الصورة الشرعية، فقد كان أسلافه يأخذون الملك بمجرد الإرث، وقد ناب هو باختيار أهل الحل والعقد، وقد بوع بالمصافحة كما بوع الخلفاء الراشدون، لا بلثم الراحة وتقبيل الأذيات كما جرى عليه أسلافه المستبدون. وأول من بايعه الشريف حيدر بك من أعضاء مجلس الأعيان، ثم الصدر الأعظم وشيخ الإسلام، ثم نقيب الأشراف ورئيساً مجلسي الأعيان والنواب، فأعضاء المجلسين فالأمراء والضباط، ثم من حضر من خيار الناس، وقد صرح مولانا عقب مبايعته، بأن كل رغبته ورجائه في سعادة أمته، وبعد عدة أيام حلف في نظارة الحربية، يمين التزام الشريعة والدستور والمحافظة على حقوق جميع الأمة العثمانية، ثم حلف أيضاً في مجلس نواب الأمة، كما استحلفهم على الإخلاص لها وله، فأقسموا طائعين، وأطاعوا مختارين، ودعوا له مخلصين، والأمة من ورائهم تقول آمين، والعاقبة للمتقين، «١٣: ٢٩» الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب» [سورة الرعد رقم ١٣، الآية ٢٩].

ونسأله تعالى ان يجعل لسان حال سلطاننا الأواب، هذه الآية الكريمة من الكتاب «٤٠: ٣٨» وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد» [سورة غافر رقم ٤٠، الآية ٣٨].

رد المنار على جرائد الهند حول  
 خلع السلطان عبد الحميد

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٣٠٤ - ٣١٤.]

كنا نعلم أن الجرائد الهندية تطري السلطان عبد الحميد وتنوّه به ولكن لم يكن يخطر لنا ببال أنها تجهل أحوال الدولة العثمانية في عهده جهلاً مطلقاً بحيث لا تدري حقيقة شيء منها البتة كما ظهر لنا من هاتين المقاتلتين.

كنا نظن أن أصحاب هذه الجرائد يعلمون بعض الحقائق عن الدولة وسلطانها من الجرائد الأوروبية التي لم يتمكن عبد الحميد من إستئجارها لمدحه، وأنهم يكتمون هذه السيئات ويذيعون بعض أماديح الجرائد العثمانية التي كانت مكرهة على المدح بالباطل وبعض الجرائد الأوروبية والمصرية المستأجرة أو المخطئة في إجتهادها أو المتزلفة الطامعة بنوال ذلك السلطان الذي يعطي العطاء الجم لمن يواتيه ويسعى إلى هلاك من يناويه.

وكنا نلتمس العذر لمن نحسن الظن فيهم ونعتقد حسن نيتهم كصديقنا صاحب جريدة «وطن» بأنهم لا يحبون أن يبينوا الحقيقة كما هي لثلا يضعف تعلق مسلمي الهند بالدولة العليّة التي يودّون كأهلها وجميع المسلمين الذين سلط عليهم الأجانب لو تكون أقوى الدول وأعزها وأن تبقى صلتهم بها قوية شديدة كما هي سياسة جرائد مسلمي مصر سواء منهم من كان يستفيد من عبد الحميد ويطمع في المزيد ومن ليس كذلك.

كنا نعتقد مع التماس هذا العذر أن مدح الجرائد الإسلامية في مصر والهند لعبد الحميد والدفاع عنه ضار بالدولة سواء منه ما كان بحسن نية



وما كان عن طمع في ماله أو رتبه وأوسمته لأن ذلك يجعل قلوب الملايين من المسلمين متعلقة بشخصه وهذا شيء يضر، لو كان سلطاناً مصلحاً فما بالك وهو سلطان مفسد مخرب، لأنه يجب أن يكون التعلق بالدولة لا بالشخص ولأن في كل قوة لعبد الحميد إضعافاً للأمة العثمانية وللدولة العلية إذ اتخذ الأمة عدوة له وجعل الدولة صوراً متحركة في يده إذا حاول أحد الوزراء أو المشيرين أو الولاة أو القضاة فمن دونهم أن يعمل عملاً ما مستقلاً فيها بحسب الشرع والقانون بتره من جسم الحكومة بتراً، وكان عاقبة أمره خسراً، فأني سلب للإستقلال وإضعاف للحكومة يكون شراً من هذا.

ومن الشواهد على ذلك ما حدثني به أحمد مختار باشا الغازي غير مرة من أنه حاول جهده أن يقنع عبد الحميد بجعل القضاء مستقلاً دون السياسة والإرادة ليأمن الناس على حقوقهم وأنفسهم واستعان على ذلك ببعض كبراء الدولة فكان السلطان يغضب لهذا الاقتراح ويرفضه أشد الرفض، وهل تقوم للدول قائمة أو ترقى الأمم بغير قضاء مستقل؟

وكنا نعتقد أن ذلك المدح الذي غر المسلمين بالسلطان ضار بأولئك المسلمين أنفسهم أيضاً لانصرافهم به عن استعدادهم واتكأهم على من لا ينفعهم وقد كتبت في مقالة نشرت في جزء المنار الذي صدر في ١٧ المحرم سنة ١٣١٧ هـ - ١٨/٥/١٨٩٩ م) ما نصه:

«إن أمام المصريين وسائر المسلمين سداً منيعاً من الوهم يحول بينهم وبين السير في طريق الترقى فاذا استطاعوا أن يظهروه أو ينقبوه، ولا أقول أن يدكوه، يتسنى لهم الإيجاف والإيضاح في ذلك المنهاج الواضح، والمهييع الواسع. وإن ذلك السد هو الاعتماد على دولهم وحكوماتهم التي أمست أغلالاً في أعناقهم وسلاسل في أيديهم وقيوداً في أرجلهم وغشاوة على أبصارهم ووقراً في أسماعهم وريئاً على قلوبهم، وكل ما نزل بالمسلمين من بلاء فإنما نزل من سماء عظمتهم واستبدادهم، وإن تعجب فعجب قول

من ليس للدولة العثمانية في بلادهم أمر ولا نهي ولا نفوذ ولا سلطان <sup>(١)</sup> «إن حياتنا بين يدي المابين وان السعادة ستهبط علينا من أفق الباب العالي» وهم يعلمون أن البلاد التي تحت جناح المابين ونفوذ الباب العالي تنقص من أطرافها ويتمزق أهلها كل ممزق ولا ينال تلك البلاد وأهلها من المابين والباب العالي إلا الاعتراض على من مزق الأشلاء وشرب الدماء.

«ماذا جنى ويحني أهل جاوه والهند ومصر من الظهور القولي في حب الدولة العثمانية؟ لعمرك إنهم لا يجنون إلا الحنظل والزقوم فإن هولاندا وإنكلترا كلما أنستا منهم إليها ميلاً، أو سمعنا منهم فيها قولاً، تزيدان عليهم الضغط والأضطهاد، والقهر والاستبداد، أولاً يرون أن الدولة لا ترجع إليهم قولاً، ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً؟

«ولا أقول لهؤلاء المسلمين أبغضوا الدولة ولكني أقول إذا أحببتموها فاكتموا حبها ولا ترجوا منها ما لا ينال واعتمدوا في رقيكم على المعونة الإلهية ثم على جدكم وكدكم وعملكم فإن رأيتم من الدولة نهضة عملية فانهمضوا معها إن كنتم صادقين، كل عاشق يحذر العذال والرقباء فكيف لا تحذرون، ألم تعلموا أن الدولة لا ينالها من كثرة لغطكم بذكرها إلا مثلما ينالكم من الضغط الأوروبي والاضطهاد.

«نعم إن السلطان يفرح ويسرّ من خضوعكم له ولهجكم بتمداحه ولكن تشترون فرح شخص وسروره بمصالحكم ومصالح الدولة؟ أقول هذا وأنا أعتقد أنه لباب النصيح الذي يوجهه علينا ديننا وإخلاصنا لأمتنا ودولتنا ومن بين لنا بالبرهان أننا مخططون فإننا نرجع إلى رأيه، وإذا كان القول صواباً فعلى إخواننا المسلمين أن يتدبروه وعلى جرائدهم أن ترجع صداه، والمنتظر من الجرائد الهندية التي تتفضل دائماً بترجمة مقالات المنار أن تنقله إلى لغتها ليحيط به قراؤها علماء» [المنار] اهـ - ما كتبناه منذ عشر سنين ولم

---

(١) كلمة قالتها في تلك الأيام جريدة يومية من جرائد المسلمين بمصر.

تكن سيئات عبد الحميد قد ظهرت لنا جليّة بل كنا نحسن الظن فيه  
وندافع عنه .

ظهر في هذه الأيام من صدق رأينا أن التغني بمدح عبد الحميد كان  
مضراً بالدولة فإننا نرى أصحاب بعض جرائد المسلمين ومن تلقح برأيها  
منهم يسيئون الظن اليوم بالأمة العثمانية وبحكومة الدولة كلها ويزعمون أن  
العثمانيين أحرارهم وجماهيرهم وعسكرهم ونوابهم كلهم مخطئون كافرون  
للنعمة جانون على الدولة وأن عبد الحميد وحده هو المصيب وأن استواءه  
على عرش السلطنة هو الذي يحفظ الدولة والإسلام وأن سقوطه عنه خطر  
على الدولة والإسلام! فيالله وللعقول كيف كان هذا السلطان مصلحاً  
مرفقاً للأمة والدولة وهي بعد ثلث قرن من إصلاحه لا تصلح أن تسوس  
البلاد وتحفظ كيان الدولة ولا تعرف قيمة من يقدر على ذلك؟ وكيف تبقى  
دولة يتوقف بقاؤها على وجود شيخ هرم بلغ من الكبر عتياً، لم يزد فيه إلا  
كبراً وعتواً.

كان من سوء تأثير إطراء الجرائد المصرية لعبد الحميد قريب مما كان في  
الهند ولما أعلن الدستور إجتماع جمهور عظيم من المصريين للاحتفال بهذا  
الطور الجديد للدولة العلية ومما كان في الاحتفال من العجائب أنه كان  
يصيح جمهور عظيم ليحيي السلطان عبد الحميد ولتسقط تركيا الفتاة! وما  
تركيا الفتاة إلا الأمة العثمانية الناهضة بالإصلاح والقائمة بأمر حكم  
الشورى الذي يعبر عنه بحكم الأمة نفسها بنفسها. ما أضعف البشر  
الذين يوجد فيهم من يتخيل عبد الحميد في هذا العصر كما كان يتخيل  
قدماء المصريين فرعون الذي قال لهم «أنا ربكم الأعلى» ثم قال لهم «ما  
علمت لكم من إله غيري» فأطاعوه وعبدوه كما عبد كثيرون غيره من  
الملوك.

بعد هذا التمهيد العام أبين للرصيفين الفاضلين غلطهما فيما كتبا  
بالتفصيل إلا ما كان من المدائح الشعرية لعبد الحميد وادعاء أن العالم

الاسلامي بأسره يبكيه ويحزن لخلعه . وحسبنا أن عالمنا الإسلامي العثماني بذلك سروراً لم يسر بمثله في حياته . وأبدأ بدعاوى صديقي صاحب جريدة [سر] وطن ثم أذكر ما انفرد به الآخر فأقول :

يقول صديقنا الغيور أن عبد الحميد أثبت للعالم حبه للدستور وإخلاصه له وأستدل على ذلك بأمور : ١ - إعلانه الدستور عند طلبه من غير سفك دم . ٢ - تصريحه بذلك عدة مرات . ٣ - عدم تعرضه لمجلس الأمة بسوء . ٤ - وضع حرسه تحت أمر نظارة الحربية وإخراج حرسه وعساكر الأستانة منها وضعها تحت حماية عسكر الدستور الذي جيء به من سلانيك وغيرها . ٥ - أمره أخيراً لحرسه بالتسليم لعسكر الدستور الذي دخل الأستانة عندما أراد الاستيلاء على «يلدز» . قال وكان قادراً على أن لا يسمح بإبعاد حرسه وعلى جمع جيش عظيم لحفظ مركزه وعلى حض العسكر الذي طغى وبغى على الجمعية على الحرب . ٦ - تركه طلب حماية أقوى دول أوربا وإنما ترك ذلك حباً في الدستور وإخلاصاً للملكة الوطن !

ونقول إنه لا يصح من هذه الأدلة شيء . ١ - إعلانه الدستور لم يكن عن رضى المقرون بإنذاره الزحف على الأستانة بالجيوش والكتائب إذا لم يجب إليه فجمع مستشاريه وأعوانه الذين أفقر الدولة لإغنائهم وأذها لإعزازهم ومن يرجع إليه عند المشكلات من غيرهم وهو سعيد باشا وطفقوا يأترون الليل بطوله فاجمعوا أمرهم في الصباح على أن المقاومة بالقوة غير مستطاعة فإن عساكر حصون الأستانة متفقة مع عسكر سلانيك فهي تساعد ولا تقاوم بل قيل له إن دسائسهم متصلة بحرسه فصدق ذلك وناهيك باحتياطه وحذره وجبنه واستفتى شيخ الإسلام في عصيان عسكر سلانيك ليحاربهم باسم الدين ويوقع الفشل فيهم فقال له شيخ الإسلام لا يمكن الإفتاء بعصيانهم وخروجهم على الخليفة لأنهم يطلبون منه أمراً مشروعاً وهو جعل الحكم بالشورى كما أمر الله عز وجل . فلما لم يجد في

قوس المقاومة منزعاً أمر بالإجابة على كره وعزم على استعمال سلاح المكر والحيلة والكيد الذي فتك به بالدستور ورجاله أول مرة كما ظهر في الفتنة الأخيرة واضحاً جلياً كالشمس ليس دونها سحاب ولعل هذا قد علم الآن عند اخواننا الرصفاء في الهند فإنهم قد كتبوا ما كتبوا عندما علموا ببناء الانقلاب وقبل العلم بالأسباب.

٢ - وأما أقواله وتصريحاته بحب الدستور فهي دعوى لا دليل عليها. ومثله إظهار الرضا عن جمعية الاتحاد والترقي وكونه منها أو رئيسها وقد كان يستعمل هذه المصانعة والمراوغة والدهان في أيام جبروته وعنفوان استبداده وإننا نعرف عنه من ذلك ما لا نودّ ذكره الآن.

٣ - وأما عدم تعرضه لمجلس الأمة فلم نفهم ماذا يعني به الكاتب. أيعني أنه لم يرسل حرسه لقتل نواب الأمة أم ماذا يعني؟ هل كان يمكن التعرض لهؤلاء النواب مباشرة وأقوى جند الدولة يحرسهم والأسطول معه ظهير؟ كلا إن هذا لم يكن ليأتيه من له مسكة من عقل أو إدراك لأنه على فحش قبحه في أعين الأمم والدول غير معيد للاستبداد ما لم تسقط القوة التي أوجدته فلذلك وجه عبد الحميد كيده وفكره لإسقاط جمعية الاتحاد والترقي بتنفيذ الأمة منها باسم الدين وإلى التفريق والشقاق بين الجيش ليضرب بما يستميله إليه منه ما يبقى في جانبها وجانب الدستور وإن هلكت هذه المكيدة الأمة وسقطت الدولة.

وأما مسألة تغيير حرسه واستبدال بعض عسكر الدستور بعسكر الأستانة فقد راوغ فيه مراراً ثم أنفذ بالقوة ولم يكن من سبيل إلى المقاومة فيه بعد أن شرعت الحربية في إعدام الذين يخالفون الأوامر العسكرية بحسب القانون مع علم الحرس وعبد الحميد أن الأسطول تابع للحكومة ولعسكر الدستور لا للباين وأنه يمكنه أن يدمر يلدز عليه وعلى حرسه تدميراً.

٥ - وأما أمره لحرس يلدز بالتسليم عندما وصل إليهم جيش الدستور

بعد استيلائه على حصون الأستانة ومواقعها العسكرية بالقوة القاهرة فسيبه يقينه بأن المقاومة في هذا الوقت تفضي إلى تدمير يلدز بالمدافع بعدما كان من حصرها وقطع الماء والزاد والنور عنها، وفي ذلك ذهاب حياته العزيزة الذي جعل الدولة والأمة حفاظاً لها مدة ثلث قرن.

٦ - وأما دعواه أنه كان يمكن أن ينال عبد الحميد حماية أقوى الدول الأجنبية ولكنه لم يفعل حباً في الدستور، فنقول فيها أن هذا لم يكن في استطاعته لاسيما بعد أن يثس من الفوز والظفر بمكيدته الأخيرة.

ويا ليت شعري كيف يتصور رصفاؤنا في الهند أن يحارب الألف من عسكر الأستانة إخوانهم الذين جاءوا من سلانك لتأييد الدستور أذا لم يكن السلطان هو المحرك لهم؟ خرجوا عن طاعة قائدهم وصاحوا في مواقع كثيرة: ليسقط الدستور وليعيش السلطان وحاولوا قتل جميع أعضاء لجنة الاتحاد والترقي، فعلى أي دعامة كانوا يستندون؟ أية قوة كانوا يعززون؟ أما أنه لو لم تظهر الدلائل الحسية القاطعة بعد ذلك على أن عبد الحميد كان هو المدبر لهذه الفتنة والمنفق عليها لكان العقل وحده حاكماً بذلك.

وإذا كان عبد الحميد قدر على إفساد الجيش الذي جاءت به الجمعية عليها ودفعه للتكيد بها وبالدستور فكيف كان يكون اندفاعه في مكيدته لو كان الحرس الذي ربّاه في حجر الرفاهة والدلال بقي عنده؟ أفلا يدل هذا على أن الصواب هو ما فعلته الجمعية من إخراج ذلك الحرس الفاسد، الذي لم يطع نظارة الحربية إلا بالقوة، من قصر هذا السلطان الذي مرد على الاستبداد حتى امتزج بلحمه ودمه وعصبه؟ أليس هذا الدليل أصح من دليل صديقنا على كون الرضا بإخراج ذلك الحرس كان خطأ.

هذا هو القسم الأول من الكلام وهو ما يتعلق بالدفاع عن سيرة عبد الحميد في عصر الدستور وأما القسم الآخر منه وهو في سيرته قبل الدستور فيشتمل على عدة دعاوى لم يقترن شيء منها بدليل.

١ - قال «إنه أصلح الخزانة وعمّرها حتى جعل لها اعتباراً مالياً في أسواق أوروبا موازياً لاعتبار أقوى الدول في العالم» ونقول إن هذه الدعوى أغرب ما كتبه الرصيف الصديق وأني لا أذكر أن أحداً من الذين كانوا يطرون عبد الحميد بالإكراه أو بالأجرة قال ذلك أو ما يقرب منه، بل كانوا يطرونه بأمور أخرى لا تظهر مخالفتها للحس كهذه، فقد أفسد عبد الحميد مالية الدولة حتى لم يعد لأحد من أوروبا ولا غيرها ذرة من الثقة بها ولم يعد أحد يقرض الدولة قرضاً ما إلا بضمان يستولي به على مورد من مواردها بالفعل حتى صارت موارد الدولة الأساسية في يد إدارة الديون العمومية وغيرها وبهذا صار لبعض الأمور المالية شيء من النظام. وحسبك أنه لم يكن للدولة في هذه السنين ميزانية تجري عليها الحكومة بل كان عبد الحميد يغال الملايين من الدخل ويسلط عمال الحكومة على الاستعاضة عن مرتباتهم التي لا يصل إليهم منها إلا القليل بسلب الأمة ونهبها بشرط أن يجعل له كبارهم كالولاء والمتصرفين نصيباً مما ينهبون. وحسبك أن الحكومة قد عجزت إلى الآن عن تقديم الميزانية إلى مجلس الأمة وفّر موسيولوران المالي العظيم الذي جاءت به الحكومة من فرنسا لينظم ماليتها متعجباً من الخلل الذي وجده معترفاً بأن إصلاحه من أشق الأمور حتى أنه يكاد يكون متعذراً. نعم إنه عمر بخراب مالية الدولة ماليته الشخصية فكنز الملايين في صناديق يلدز وفي مصارف أوروبا وأمريكا وأنفق الملايين على الشهوات والجواسيس وهو يعلم أن عسكر الدولة كان يموت جوعاً وعرياً حتى أنهم كانوا يقتاتون في نجد ببذر الحنظل فقطع أمعاءهم والعياذ بالله.

٢ - قال إنه درّب الجيش على قواعد الحرب الحديثة. ونقول إن الدولة العثمانية هي دولة حربية بالطبع وكان السلطان محمود رحمه الله تعالى هو الذي بدأ بجعل نظام عسكريتها على الطراز الأوروبي وقد سارت الجندية فيها على ناموس الارتقاء ولكن اعترضها من سوء سياسة عبد الحميد ما جعل سيرها بطيئاً وعرضة لضروب من الخلل والفساد منه ما حل بدور

الصناعة البحرية والعسكرية، الترسانة، والطوبخانة والبارودخانة، حتى رجعت القهقري ولو سارت على سنة الترقى لاستغنيا عن شراء السلاح من أوروبا بأثمان غالية كانت من وسائل سلب المايين للأموال المخصصة للعسكرية وكم ظهر في ذلك من الخيانات وهذا الضرب من الفساد يجعلنا عالة على أوروبا في قوتنا الحربية. ومنها - مقاومته للتعليم العسكري في الأستانة حتى أنه حاول غير مرة إبطال المدرسة الحربية التي زعها بالجواسيس. ومنها: ترقية الضباط بالإدارة السنية من غير استحقاق. ومنها: نفيه وإذلاله للضباط المتعلمين البارعين، الخ مالا محل لتفصيله هنا. ولو كان المقربون منه جاروه على كل وساوسه في العسكرية لجعلها أثراً بعد عين ولكن نحمد الله تعالى أن مكَّننا من القضاء عليه قبل أن يقضي هو عليها.

٣ - قال إنه سعى في انتشار التعليم وبث العلوم الحديثة، ونقول أيضاً إن التعليم من ضروريات كل دولة وكل أمة في هذا العصر وكان من مقتضى سنة الارتقاء أن نكون فيه مثل اليابان، إن لم نكن مثل الفرنسيين أو الألمان، ولكن عبد الحميد حارب العلم في أمته ودولته أشد المحاربة حتى جعل أكثر مدارسها ملاعب أطفال» [المسارح ١٢ (١٩٠٩) ص ١١٠-١١١]. وأبطل امتحان طلاب العلوم الدينية فتركوا الطلب والاشتغال واعترفوا في جميع البلاد بعد إعلان الدستور وصدور الأمر بامتحانهم أنهم عاجزون عن الامتحان فأعفاهم مجلس الأمة منه في هذا العام ليستعدوا له. وقد علم العامة كالخاصة في جميع بلاد الدولة أن العلم الديني والديني هو أكبر الجرائم في نظر السلطان عبد الحميد فصاروا يتحامونه وحدثت في السنين الأخيرة من حكمه المشؤوم بدعة تفتيش الحكومة لبيوت الناس وأخذ الكتب منها ومعاقبة أصحابها فصار الناس يحرقون كتبهم بأيديهم ومنهم من دفنها في الأرض حتى أحرق في سورية عشرات الألوف من الأسفار القديمة والحديثة في سنة واحدة. فانظر ما أشد حرص عبد



الحميد على العلم وعنايته بنشره وما أكثر المجتهدين والمخترعين المكتشفين  
في أيامه!

وقد ألقى خطبة في رحبة القشلة العسكرية ببيروت في أواخر رمضان  
الماضي بيّنت فيها كيف كان ظلام الجهل ممدوداً على البلاد العثمانية وكيف  
كان الهدم واقعاً في ذلك الظلام ببناء الدولة: معارفها وقضائها وإدارتها  
وماليتها وعسكريتها، وبناء الأمة: ثروتها وآدابها وأخلاقها. ولعلنا نراجع  
الذاكرة فنكتب ما تمليه علينا منه.

٤ - قال «إنه قضى ثلاثاً وثلاثين سنة يمجّد ويجهّد وراء سعادة المملكة  
والملة» والصواب أنه أشقى المملكة شقاءً لا نظير له وإخواننا مسلمو الهند  
الذين يقولون هذا القول لم يروا ولم يختبروا ونحن نسمع بأذاننا ونرى  
بأعيننا بل الشقاء وقع على رؤوسنا وأحاط من كل جانب بسوء سياسته.

٥ - قال «إنه عمر الطرق وبنى السكك الحديدية وحفر الترع والجداول»  
والصواب أنه لم يفعل من ذلك شيئاً للأمة إلا سكة حديد الحجاز التي  
حمله على الرضاء بها وسواسه الذي يخيفه من إقامة خلافة عربية بالحجاز.  
وما سمح به من امتيازات السكك الحديدية للأجانب فسببه أنه كان من  
موارد ثروته لأنه كان لا يسمح بامتياز إلا إذا أخذ لنفسه مبلغاً عظيماً من  
المال وكثيراً من سهام الشركة. فقد كان يبيع مصالح المملكة بذلك بيعاً  
ولذلك كان يعطي هذه الشركات من الضمانة الكيلومترية ما لا يعهد له  
نظير في مملكة أخرى. ونسأل صديقنا الكاتب أن يدلنا على مكان الترع  
والجداول التي أحيا بها الزراعة أين هي، وما هي الثروة التي تجددت  
للفلاحين منها؟

٦ - قال إنه حفظ المملكة من الضياع. ونقول إنه أضاع بسوء سياسته  
ثلثها ولو بقي على عرش استبداده سنة أخرى لأضاع الولايات المكشونية  
الثلاثة فإن جمعية الاتحاد والترقي ما عجلت بهذا الانقلاب قبل أن تتم

عدته إلا لعلمها علم اليقين أن الدول اتفقت على ذلك وأنه لا عاصم منه إلا الدستور. وكان كثير من السياسين يقدرون أن الدولة لا تكاد تعيش مع ذلك الحكم أكثر من خمس سنين وأن سبب تأخر سقوطها هو تنازع الدول فيما بينهم. وقد سمعت كلمة من أحمد مختار باشا الغازي أكبر مشيري الدولة وقواد جندها وأعلمهم بحالها سمعتها منه مرات كثيرة في السنين الأخيرة من حكم عبد الحميد وهي أكبر شهادة نطق بها لسان وأيدتها وقائع الأحوال وقد صار نقلها عنه الآن جائزاً فلعل إخواننا مسلمي الهند يعتبرون بها قال «لو اجتمعت أوروبا واتفقت على أن تضر بالدولة والإسلام كما أضرت بهما عبد الحميد لعجزت».

هذا ما نبين به خطأ الجريدتين بالإيجاز ونزيد كلمة في الرد على ما انفرد به صاحب جريدة الابرزور إذ قال إن الدولة فقدت البلغار والبوسنة والهرسك على عهد الحكومة الدستورية. ونقول إن هذا غلط عظيم فإن الولايات قد ضاعت منا بحربنا الأخيرة لروسية وإنما كانت تلك الحرب برأي عبد الحميد ودسائسه ليشغل الأمة عن الدستور ويتمكن من إبطاله وقد بذل مدحت باشا، رحمه الله تعالى، جهده في سبيل تلافيها فعجز ولا يقال إنها كانت برأي مجلس الأمة الأول لما هو معلوم.

وقال إن أعداءه شهدوا له بالدهاء والسياسة. ونقول إننا لا ننكر أن له دهاء ومراوغة في السياسة الخارجية كان يستعين عليها برشوة نساء السفراء أو إهدائهن الجواهر الثمينة ولكن نطلب من الكاتب أن يأتينا بشهادة لها قيمة من الأعداء أو غير الأعداء بأن عبد الحميد رقى ثروة أمته ومالية دولته أو أجرى فيها العدل أو نشر العلم أو جرى على طريقة ميكادو اليابان.

وقال لا ينكر حبه للإسلام ونقول أما دين الإسلام نفسه فلم ير من ملوكه من عبث مثله بكتب الحديث والعقائد والفقه من منع بعضها وتحريف البعض الآخر ولو كان في غير عصر المطبوعات وكان جميع

المسلمين تحت سلطته لما بعد عليه أن يطمع في تحريف القرآن وتغيير آيات الشورى ونحوها فيه . وأما أهله فقد كان الاضطهاد عليهم في دينهم شديداً من حيث لا يضطهد غيرهم كما كان الظلم أشد وطأة عليهم من غيرهم . نعم إنه كان ولوعاً بإحياء لقب الخلافة والحرص على تعظيم المسلمين الذين تحت سلطة الأجانب له لأجل أن تحترمه دولهم فلا تنغص عليه التمتع باستبداده .

وأما ما ذكروا من كثرة عمله فهو على المبالغة فيه عمل ضارّ في الغالب لأنه نظر في رسائل الجواسيس الذين يشون ويمحلون برجال الأمة وقد قيل إن هذه الرسائل محفوظة كلها في «يلدن» وربما عجز واحد عن قراءتها في مثل المدة التي جلسها عبد الحميد على كرسي السلطنة . وأما زعمهم أنه كان لا يحفل باللذات فهو باطل فإنه كان يشرب أجود الخمر وجمع مئآت من الغواني الحسان للتمتع والغناء والعزف والرقص والتمثيل وغير ذلك .

وليعلم إخواننا مسلمو الهند أننا لم نقل ما قلنا إلا عن علم وخبرة وتأيد للمصلحة العامة بالحق والصدق إذ لسنا من الذين يتوسلون بالشر إلى الخير وبالباطل إلى الحق وأننا لسنا من المتشيعين لجمعية الاتحاد والترقي التي كان لها الأثر العظيم في هذا الانقلاب الميمون فقد رأوا أننا جمعنا في الجزء الماضي من انتقاد المتقدين عليها ما لم يجمعه كاتب .

ونختم الرد بكلمة في الخطر على الدولة فإن الكاتبين يخافان أن ينزل بالدولة الهلاك بعد عبد الحميد ونحن نقول لا شك أن عبد الحميد كان يسير بالدولة إلى الدمار والهلاك كما مرت الإشارة إلى ذلك فإن سقطت، لا قدر الله لها إلا العلاء والارتقاء، فإنما يكون هو الذي أسقطها وإن نجت فإنما تنجو بالدستور الذي هو آخر سهم في الكنانة .





[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٥٠١ - ٥٠٨]

إن من شؤون مدنية هذا العصر المحافظة على أجناس الموجودات حسية كانت أو معنوية فترى الغربيين أئمة هذه المدنية إذا رأوا نوعاً من الحيوانات الأرضية أو الجوية أو المائية أخذ في النقص حتى خيف من انقراضه حرموا صيده إن كان مما يؤكل وقتله إن كان مما لا يؤكل وإن كان ضاراً، كما يحافظون على العاديات والآثار القديمة جميعها، ونراهم أيضاً يرغبون في بقاء نموذج من الأديان والمذاهب الدينية وغير الدينية واللغات المستعملة وغير المستعملة حتى أنهم أحيوا بعض اللغات التي ماتت وبقي أثرها وجعلوا يتدارسونها ويتنافسون في معرفتها.

ما كان لهذه المدنية أن تحافظ على أجناس الحيوان والجماد وتسمح بانقراض بعض أجناس الناس<sup>(١)</sup> بل هي أشد محافظة على أجناس الناس ومقومات جنسيتهم من اللغة وغيرها ذلك بالأجناس المكونة لمملكة النمسا «الامبراطورية» تلقه واضحاً جلياً.

كان الجنس في العصور الماضية ينقرض أفرادهم كلهم أو جلهم بالموتان والأوبئة أو بالحرب وما يعقب الغلب فيها من العبودية والذل الذي يقلل

(١) نستعمل لفظ الجنس والأجناس هنا بمعناه اللغوي والعرفي لا المنطقي فالمنطقي يسمى جنس الترك أو الروم مثلاً صنفاً من نوع الإنسان الذي هو من جنس الحيوان على أن للأجناس مراتب عند المناطق منها العالي والمتوسط والسافل فتدخل فيها الأنواع والأصناف.

النسل رويداً رويداً حتى لا يبقى منهم أحد أو يبقى منهم حشالة ممزقة في الأرض لا تسمى شعباً ولا تعد قبيلة.

وهناك ضرب من ضروب انقراض الجنس يتحقق بانحلال رابطة الجنسية وزوالها لا بانقراض الأشخاص وانقطاع الأنسال وهو أن يدخل الجنس في دين جنس آخر أو لغته فيمتزج به ويلابسه في تقاليده وعاداته حتى يذوب فيه ويصير من عناصره المكوّنة لذاته كما امتزجت الأجناس السورية في الجنس العربي باللغة في جميع الأفراد وبالدين في أكثرهم ونسيت جنسيتهم النسبية وزالت جنسيتهم اللغوية وصاروا كلهم عرباً.

هذا النوع من زوال الجنس أو الجنسية هو من الترقّي والكمال في الإنسانية لا من النقص أو المرض الذي يعرض لها لأن الإنسان عالم اجتماعي فكلما اتسع نطاق الاجتماع وقل التفرق والانقسام فيه زادت الإنسانية كمالاً. ولهذا يرى حكماء الاجتماع أن منتهى الكمال البشري في هذه الحياة أن يكون الناس كلهم أمة واحدة لا يفرق بينهم نسب ولا لغة ولا وطن ولا دين، ويستحيل أن يتحولوا إلى هذا دفعة واحدة وإنما يكون مثل هذا باندغام بعض الأجناس في بعض بالتدريج البطيء. وإن الأمم الكبرى التي تجتهد بنشر لغاتها وآدابها في أرجاء العالم تطمع كل واحدة منها في أن تكون لغتها هي لغة البشر كلهم في المستقبل على ما يكون لها من السبق إلى الاستفادة من توسيع دائرة جنسيتها في الحال. ولا ينافي هذا ما نشهد عليه الإنكليز، وهم أطمع الأمم في هذه الغاية، من شدة محافظتهم على جنسيتهم وغلوهم في أثرهم لما عليه الإنسان من الحرص والبخل بتمييزاته وخصائصه سواء كانت شخصية أو قومية. وإن هذا البحث ليتسع لتفصيل ليس هذا المقال بموضعه وإنما ذكرناه فيه تمهيداً أو مقدمة لا مقصداً. وعندي أن الإسلام يرمي إلى هذه الجامعة العامة.

ومن فروع هذا المبحث التي لا مندوحة عن ذكرها في باب التمهيد أن هذا النوع الكمالي من زوال الجنسيات أو تحول بعضها إلى بعض لا يكاد

يرضى شعب من الشعوب بأن يكون هو المدغم في غيره لأجل تحقيقه فضلاً عن أن يرضى بذلك إثارة لمقومات جنس آخر على مقومات جنسيته، وسبب ذلك ما ذكرنا آنفاً من حرص الإنسان على خصائصه ومميزاته وإن كانت ضارة كبعض التقاليد والعادات وإنما له طريقان أحدهما الغلب والقهر وطبيعة المدنية الحاضرة تأباه لما ذكرناه في فاتحة الكلام، وثانيهما التحالف والاتحاد في المصالح والمنافع بحيث يأخذ كل جنس من الآخر أمثل ما عنده بمقتضى سنة الانتخاب الطبيعي إلى أن تغلب مقومات جنسية أحدهما في مجموعها على مقومات جنسية الآخر ويصيران جنساً واحداً، وهو ما يطمع فيه بعض الغربيين في مستعمراتهم كفرنسا في الجزائر، والشعوب العثمانية أحوج إليه ولن يكونوا أمة واحدة بدونه.

ينتج مما تقدم من المقدمات أن الدولة العثمانية لا تستطيع في هذا العصر أن تحل رابطة جنس من الأجناس التي تتكون منها أمتها بالقهر والإكراه، ولا بالخلابة والإقناع، بل سبيلها اللائح أن تؤلف بينها في المنافع والمرافق، والمصالح والوظائف، وتوحيدها بجنسية الشريعة والقانون، دون جنسية اللغة والدين، حتى يتمازج منها ما هو مستعد للمزج، وينبذ مزاج وحدتها الجديدة من لا يقبل ذلك من الأجناس كما ينبذ مزاج الجسم المعتدل ما عساه يدخل فيه من الأجسام الغريبة.

أعني بهذا النبذ، واللبيب يفهم، ما تقتضيه طبيعة الاجتماع من ذلك لا أن الدولة نفسها تنفي من بلادها الآن بعض الأجناس. ذلك أن الجنس الذي لا تقبل طبيعته الوحدة العثمانية التي ذكرناها، كجنس الروم فيما يظهر، لجذب جنسية أخرى هي أقوى منها في حقه يتسلل أكثر أفراده في بلادها بالهجرة أو سبب آخر ويتصلون بجنسهم الذي تربطهم به عدة روابط لكونه أقوى على جذبهم من الجنس الذي يرتبطون فيه برابطة واحدة.

أما تنازع البقاء بين الجنسيات اللغوية في الشعوب العثمانية الذي ينتهي

باستيفاء طوره الإجتماعي إلى تغلب الأمثل فسيكون على أشده بين العربية والتركية لأنها اللغتان الحيتان للشعنين الكبيرين في الأمة والأولى منها لغة الدين الذي يكفله منصب الخلافة والثانية لغة السلطنة الرسمية وليس للغات سائر الشعوب شركة في هذه المزايا.

إن الأرمن شعب صغير وعهده قريب بتدوين لغته وجعلها لغة علمية ولا يطمع أحد من عقلائه بنشر هذه اللغة في شعب آخر فهي لغة قاصرة محصورة غير قابلة لحياة النشر والإمتداد لعدم الحاجة إليها عند غير أهلها، واللغة التركية مزاحمة لها فيهم أنفسهم فهي أملك لألستهم من لغتهم.

وأما الألبان والأكراد فهم حتى اليوم لم يدوّنوا لغتهم ويجعلوها لغة علم ولا يطمعون في نشرها وتحويل أحد من الشعوب الأخرى إليهما، والتركية مزاحمة لهما في الشعبين، وكذا العربية لا سيما في بعض بلاد الأكراد كالسليمانية وغيرها. ثم إن الدين يجذبهم إلى هذه والإدارة تجذبهم إلى تلك فزيادة عناية كل شعب من هذين الشعبين بلغته ومحاولته إحياءها تقليداً لما ذكرناه من طبيعة المدنية الغربية لهذا العهد لا يفيد إلا أثقالاً تعوقه عن تحصيل العلوم ومجارة غيره بالترقي فيها لأنه إن ترك العربية قصر في دينه الذي هو أعز شيء عليه وإن ترك التركية قصر في عثمانيته وما يترتب عليها من الفوائد فلم يبق إلا إنه يضيع بعض زمن التحصيل في دراسة لغته القومية ولا أرى العقلاء منهم يطمعون في تأسيس دولة لأنهم يعلمون أنه لا فرق في ذلك بين شعبيهما وبين الشعب الأرمني من حيث أنه طمع في غير مطمع يضر الطامع ويضر الدولة فيقوى عليهما الطامعون فيهما، ولضرر الشعب الصغير من ذلك أكبر من ضرر الأمة الكبيرة. على أن محاولة تمزيق السلطة محرّم في الإسلام فالشعب الإسلامي الذي يفارق الجماعة يجني على دينه وعلى دنياه. فالتنازع الحقيقي في لغات الشعوب العثمانية إنما هو بين العربية والتركية.

يرى بعض الترك الغالين في عصبية الجنس أنه ينبغي للدولة أن تجعل

اللغة التركية وحدها لغة التعليم وتلزم جميع العثمانيين بتعلمها وتجعلها اللغة الرسمية في جميع معاملات الحكومة حتى التقاضي والمرافعة في المحاكم إلى أن تحول العرب فمن دونهم من العثمانيين إلى الجنسية التركية. ويظنون أن هذا أمر ممكن حتى في عصر الدستور، وما ظنهم هذا إلا إثم وغرور.

ويرى بعض العرب بنزعة دينية وبعضهم بنزعة جنسية أنه ينبغي للدولة أن تجعل اللغة العربية هي لغة العلم ثم تجعلها بعد انتشارها اللغة الرسمية لأنها لغة الشعب الأكبر من الشعوب العثمانية ولغة الدين لجميع مسلميها ومسلمي سائر الآفاق الذين يرتبطون معها برابطة الخلافة، ويغفلون عما بيناه في القسم التمهيدي من هذا المقال من شأن المحافظة على الجنسية لا سيما في شعب يرى لنفسه حق السيادة فإن تنازل عنها بالدستور فإنه يصعب عليه أن يترك من مميزاته ما حفظ لنفسه الحق في استبقائه بنص القانون الأساسي وهي جعل لغته هي اللغة الرسمية للدولة.

إن غوائل اختلاف اللغة في الدولة لا تنكر، وإن فوائد توحيدها ووحدة الأمة بها لا تجهل، وإن رجحان العربية في الدين والعلم والسياسة هو أوضح وأظهر، فإنها هي التي تتوفر الدواعي على تعميمها لأن الناطقين بها أكثر من الناطقين بغيرها، وإرجاع القليل إلى الكثير أسهل من عكسه، ولأن للترك والكرد والألبان باعثاً نفسياً يبعثهم على تعلمها وهو الحاجة إلى فهم كلام ربهم، عز وجل وحديث نبيهم، صلى الله عليه وسلم، وحكم سلفهم الصالح، رضي الله عنهم، وكتب أئمتهم في التفسير والحديث والفقه وغيرها من علوم الدين، رحمهم الله، والوقوف على تاريخ دينهم. ومن الجهل أن يقال إنهم يستغنون عن ذلك كله بالترجمة لما سنبينه في فرصة أخرى، ولأن جعلها اللغة الرسمية هو الذي يزيل خطر تفرق الأجناس فإذا اتفق عليها المسلمون الذين يشاركونهم فيها غيرهم من الملل



في البلاد العربية لا يبقى للروم والأرمن سبيل لطلب تعليم لغتهم في مدارس الدولة ولا يكون لتعليمهم لها في مدارسهم خاصة تأثير في إضعاف الوحدة ولأنها لغة حضارة سابقة وعلوم وفنون، ولأنها اللغة المشتركة بين جميع المسلمين ولأنه يمكن أن توسع دائرة نفوذ الدولة بنشرها في الممالك الشرقية التي يكثر فيها المسلمون، كالصين وجاوه والهند، من غير نفقة توازي عشر معشار ما تنفقه الأمم الغربية لنشر لغاتها وتوسيع دائرة نفوذها وتجارتها في الشرق، ولأن الدولة تأمن بذلك من قيام دولة عربية تدعي الخلافة وتنازعها النفوذ في العالم الإسلامي بنفسها أو بمساعدة بعض دول أوروبا، لأن في ذلك تحقيقاً لمقصد من مقاصد الإسلام العالية وهو العصبيات الجنسية وتوسيع دائرة الأخوة الإنسانية.

هذه المرجحات لا تعزب عن علم أذكىاء المفكرين من الترك ولو كان أمر الأقوام والشعوب مما يتبع فيه البرهان إذا ظهر لكان حل هذه المسألة من أهون الأمور، ولكن الأقوام والجماعات تتبع الشعور والوجدان دون العقل والبرهان بل يقول الفيلسوف الإجتماعي جوستاف لبون إنها لا تعقل ولا تطبق سماع الدليل فلا مطمع إذا في رضا الشعب التركي بجعل العربية لغة العلم والحكومة في الدولة كلها مهما كان في ذلك من الفوائد وأمن الغوائل لاسيما في هذا العصر الذي اشتدت فيه العصبيات الجنسية في أوروبا من عهد نابليون إلى اليوم وسرت عدواها إلى البلاد المجاورة لها.

إذا كنا لا نجد سبيلاً إلى توحيد اللغة لاجتناء فوائده فكيف السبيل إلى اتقاء غوائل التنازع بين اللغتين السائدتين، وما يتبعه من تحريك عصبية الجنسيين، الذي هو أشد الأخطار على الدولة في العهد الذي يجب الإتفاق فيه على تعزيزها وإعلاء شأنها والتأليف بين أجناسها وعناصرها جهد المستطاع؟

يقول أكثر الباحثين المستقلين من الأجانب والعثمانيين أن حل هذا

المشكل طريقاً معبداً ومثالاً متبعاً لا يحتاج معه إلى النظر والاستدلال وهو ما عليه سلطنة النمسا فينبغي أن يكون العرب والترك في الدولة العثمانية كشعبي النمسا والمجر وأن يكون سائر العناصر العثمانية كسائر العناصر في تلك الامبراطورية.

أراني بهذا قد وصلت إلى بحث لم أكن أرمي إليه، وطرقت باباً لا غرض لي الآن بالدخول فيه، باب البحث في المسألة التي يعبرون عنها بالمركزية واللامركزية التي هي موضوع الخلاف بين الحزبين السياسيين الطبيعيين فينا وهما حزب الاتحاديين وحزب الأحرار فلندع تنازعهما للزمان يبرم فيه حكمه ولنعد إلى موضوع اللغتين فنختم الكلام فيه برأين أحدهما ما نراه يرضي المفكرين ودعاة العلم والسياسة من العرب والآخر لأحد المفكرين والخبراء من الترك، ولا ندري أيرضيهم أم لا؟

- الرأي الأول: هو أن يكون تعليم كل من الشعبين في المدارس الابتدائية الرسمية بلغته وأن يكون تعلم اللغتين إلزامياً في جميع مدارس الحكومة الثانوية والعالية وأن يكون تعليم العلوم في بلاد العرب بالعربية وفي بلاد الترك بالتركية وأن تكون جميع معاملات الحكومة في كل ولاية من ولاياتها بلغتها ويكون في الولايات العربية قلم ترجمة لأجل مخاطبة العاصمة وتلقي الخطابات منها بالتركية. وأما سائر الأجناس فيعلمون العلوم بالتركية لأن أكثرهم يعرفها إلا من كان منهم في الولايات العربية فإنه يكون تابعاً لأهل ولايته. فإن لم يتيسر تنفيذ هذا الرأي في مدة هذا الدور الأول لمجلس الأمة فالرجاء فيما بعده قوي إذا كان الترك كما نظن يحبون الوفاق. وقد بينا من قبل حاجة الترك إلى تعلم العربية في الجزء الثاني (راجع ص ١١١ م ١٢)

- الرأي الثاني: وهو لعبيد الله أفندي مبعوث أزمير أودعه في مقالات له في التعليم نشرها في جريدة «تصوير أفكار» وترجمته بعض صحف

بيروت ومصر وهذه خلاصته نقلها عن جريدة الاتحاد العثماني البيروتية قال:

أرى خير حل لمشكلة لغة العلم هو أن يتخذ الأتراك التركية لساناً علمياً لهم وأن تؤسس بحماية الحكومة وتحت مراقبتها مراكز علمية عربية في قواعد الأقطار العربية مثل دمشق وأم القرى ودار السلام تسعى في إنهاض علوم الحضارة العربية التي أخذت تنحط وتضمحل منذ انقرضت السلطنة العربية.

وبذلك تنتشر العلوم والفنون بين الأتراك بلسانهم وتحفظ الحضارة العربية وترقى بلسانها الخاص من جهة وبما ينقل منها إلى التركية من جهة أخرى وينجو الأتراك من الجهل بالدين وينهضون من هوة التعصب الأعمى التي لا يزالون ساقطين فيها إلى اليوم. وإن الحكومة لتقدر الخلافة حينئذ حق قدرها وتقوم بأعباء واجباتها. ولو أن الدولة أدركت هذا الحل من قبل وعملت به لكثر سواد الترك الذين يعرفون العربية والعرب الذين يتكلمون بالتركية ولتحول لسان جميع العناصر العثمانية كالروم والأرمنووط والأرمن وغيرهم بقوة العلم منذ ثلاثة قرون أو أربعة إلى لسان الترك لسان المعارف والحضارة<sup>(١)</sup>.

أضطرني إلى استطراد هذه المسألة مع أنها خارجة عن مبحث المدارس ما أراه من لزوم تنبيه الأذهان إلى أن من الممكن بل من الواجب اتخاذ التدابير التي سردها وأني لست أرى واسطة أحسن من هذه تقطع ألسنة الذين أصبح دينهم في هذه الأيام الضرب على نغمات الخلافة.

وإن منع دخول المؤيد وغيره من الأوراق المضرة إلى الولايات العربية لا فائدة له بل ربما زاد انتباه الناس إلى مطالعته.

---

(١) ان لسان الترك لم يكن لسان علوم وحضارة وإنما كان يمكن تنفيذ ذلك وقتئذ بالعربية كما حاول السلطان سليم.

ليس نشر العلم في الولايات العربية باللغة التركية من الممكن كما أنه ليس بالمعقول بل بالعربية فقط تمكن إشاعة العلم ثمة وأن من الواجب حماية اللغة التي تريد تعميم العلم بها بين أمة «العرب» وحماية الأفاضل أيضاً من أهلها. وإن إصلاح مدارس القسطنطينية لا يعد حماية للغة العربية لأن إصلاح هذه وتعليم العلم بها، من أقرب طريق لا يكون إلا بتأسيس مدارس علمية في القطر العراقي والقطر السوري والقطر الحجازي وإنشاء مجامع علمية عربية هنالك أعضاؤها من العرب وموظفون بصورة رسمية.

ومتى تم ذلك نبغ بتلك الأقطار في القريب العاجل فحول العلم وأرهاط الفضل وزحف إليهم أصحاب المزايا في الشرق والغرب وفي مصر والسودان. فلا يمضي الزمن اليسير حتى تنتقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية بكل فروعها وسوف تندم الخلافة العثمانية إذا لم تكن هي المتوسطة لهذا النقل والقائدة لهذه الحركة.

وفضلاً عن ذلك فإن دولة كالخلافة الإسلامية وسلطنة كالسلطنة العثمانية تحكم بلاد العرب الذين لا نزال نستنير بأنوار علمهم وفضلهم لا يمكنها الإكتفاء بالقسطنطينية وحدها مركزاً علمياً لهذا الملك الطويل العريض، فإن مكة عاصمة المسلمين أجمعين وبغداد دار الخلفاء ومنشأ العلوم الإسلامية ودمشق عاصمة الخلافة الأموية وأكبر مدن السوريين الذين نهضوا بمعارف مصر ومطبوعاتها وصحافتها في هذا العصر الأخير هذه المدن الثلاث يجب أن تكون مراكز عالية مهمة في هذه السلطنة وعندئذ يخلف الأئمة البصريين والكوفيين القدماء ببضع سنين أئمة وأساتذة عراقيون وسوريون وحجازيون يجعلون دولتنا مدنية نصيرة للعلم واللغات حتى إذا ما امتد لسان الخلاف يسلقها العلم. اهـ بعبارة الاتحاد.



[المنارج ١٢ (١٩٠٩) ص ٦٠٣ - ٦٠٥]

إن في هذا البلاغ من آيات العلم الصحيح، وهداية الدين القيم، والاعتصام بالكتاب والسنة دون التقليد الأعمى ما تنشرح له صدور المؤمنين، وتشتد به عزائم المصلحين، لصدوره من أرفع مقام في علماء الإسلام الرسميين.

ما أضع الإسلام إلّا ترك الكتاب العزيز والسنة السنية إلى كتب جماعة من مقلدة المذاهب المختلفة تقيّد بها علماء الرسوم من القضاة والمفتين وغيرهم من أعوان الحكام الجاهلين الظالمين وقيّدوا بها الأمة حتى حلّ بها ما نعلم وقد شرحناه مراراً وفصلنا القول فيه تفصيلاً.

لقد بعث الله في القرون الخالية علماء أصفياء يجددون هذه الأمة أمر دينها فكانوا فيها كأنبياء بني إسرائيل منهم من اهتدى بدعوته النفر والرهط والجماعة ومنهم من حال الاضطهاد وضعف الاستعداد دون الاهتداء به، وكانت العامة المسكينة تغتر بمقاومة علماء الرسوم وساداتهم الحكّام لأولئك المصلحين المجتهدين وتتبعهم في تضليلهم لأن الناس على دين ملوكهم، حتى أن صوت شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قد خفيت في هذه الأمة المسكينة وهو أندى أصوات المصلحين، وكتبه خفيت فيهم عدة قرون وهي أقوى وأظهر حجة من سائر كتب المسلمين.

(١) «البلاغ المبين حول الحكومة الدستورية». المنارج ١٢ (١٩٠٩)، ص ٥٩٤ - ٦٠٢.

هذا ما كان من الجهاد بين الحق والقوة، وهكذا كان يُعادي الكتاب والسنة كل من له بالحكام علاقة رسمية، فللعلماء الرسميين نفوذ عظيم إذا أيدوا به الإصلاح ينتشر بسرعة ولكن الحكام المستبدين لا يمكّنونهم من ذلك فالعالم الرسمي في الحكومة المستبدة لا يوثق بما يقول ولا بما يكتب إفتاءً ولا تصنيفاً، بل إذا اشتد الاستبداد في بلاد كان للعاقل أن لا يعتد بكلام أحد من علمائها وزعمائها في الأمور العامة إلا من كان مضطهداً من حكومتها. نقول هذا بصرف النظر عن تحكيم الدليل في الكلام لمن كان من أهله.

طال الزمان على قوة الباطل وضعف الحق لأن أهل الحق منعهم الاستبداد من إظهار حقهم وإنما يغلب الحق الباطل إذا وُجد معاً بلا معارض، ولهذا غلب الجمود ودخل جماهير المشتغلين بالعلوم الدينية جحر الضب وطاب لهم المقام فيه حتى صاروا ينفرون من فضاء الحنيفية السمحة المضئية بنور الكتاب والسنة، فوصلوا إلى ذلك الدرك الأسفل من الضلال الذي عبر عنه بعض شيوخ الأزهر في ملأ منهم فقال: من قال إنني أعمل بالكتاب والسنة فهو زنديق.

نحمد الله تعالى أنه لم يسلب جميع المشتغلين بعلوم الإسلام نور كتابه وسنة رسوله بل صدق رسوله بأنه لا يزال طائفة منهم قائمين على الحق حتى تقوم الساعة<sup>(١)</sup> ولكن حرية الأمم بخروجها من رق الاستبداد هي التي تظهر علم هؤلاء وهدايتهم. فلما لاح شعاع الحرية في مصر ظهر فيها المصلح العظيم الشيخ محمد عبده، رحمه الله تعالى، وكان صوته ضعيفاً إلى أن صار له صفة رسمية بتقلده إفتاء الديار المصرية فحينئذ علا صوته حتى صار شرق البلاد الإسلامية وغربها يلهجان بلقبه الذي اشتهر به

---

(١) إشارة إلى حديث صحيح رواه الحاكم من حديث عمر وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

«الأستاذ الإمام» وتعلقت به آمال طلاب الإصلاح الإسلامي في كل مكان .

ثم أشرقت شمس الحرية في المملكة العثمانية فظهر من أعلى مقام علمي فيها - وهو مقام مشيخة الإسلام - كلمتان كبيرتان في الإصلاح : إحداهما - الفتوى بخلع السلطان عبد الحميد، فإنها فتوى بُنيت على أساس من كتاب الله عز وجل، لا على شفا جرف من آراء زيد أو عمرو، فهي أقوى وأصح فتوى صدرت في هذا العصر، كما بينا ذلك من قبل، وقد زادنا سروراً بها ما جاء في هذا البلاغ من جمع شيخ الإسلام الذي أصدرها للعلماء الأعلام واستشارتهم في المسألة وإصداره الفتوى باتفاقهم .

الكلمة الثانية - هذا البلاغ المين، المتألق نوره بالاقتراس من القرآن الحكيم، والاستنباط منه ومن الحديث الشريف، فقد قرأت عيوننا بما رأينا فيه من الفهم الثاقب، وتطبيق الآيات والأحاديث على الوقائع والحوادث، ناهيك باستنباط وجوب سيطرة الأمة على الحكومة من آية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أيد به الحكومة الدستورية، وباستنباطه من آيات وأحاديث أخرى مشروعية الجمع بين الدين والعقل، والانتفاع بما خلق الله في السموات والأرض، ووجوب التضامن والتكافل العام في الأمة، وبيان سنة الاجتماع في تغيير أحوال الأمم، والتصريح بكون الحكام إنما تجب طاعتهم في المعروف لا في المنكر والمحرم وغير ذلك من الأحكام والحكم .

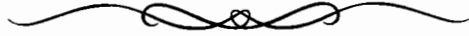
إن شيخ الإسلام لم ينقل هذه المعاني من كتب التفسير نقلاً، وإنما فهمها من كتاب الله تعالى فهماً، وإن فهمه، حفظه الله، للآيات من قبيل فهم الأستاذ الإمام، رحمه الله، لها، فهذا الإجمال موافق لما سبق تفصيله في المنار في التفسير وغير التفسير مراراً، وهو لم يكن قبل هذا العام ممن

يرون المنار، وإنما هو الاستقلال وعدم التقليد يتفق أصحابه في كل ما تتوفر الدواعي على العلم به.

فنحمد الله أن وجد فينا مثل هذا الإمام الجليل وإن كان شيخاً للإسلام في هذا العصر المنير، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا وسائر المسلمين بعلمه وهديه، ويوفق جميع العثمانيين بإرشاده إلى التعاون والاتفاق على ما به عمران البلاد وتعزيز الدولة، آمين.

\* \* \*

﴿فصل - أو - وصل﴾ إننا نذكر في هذا المقام للشيخ سليم البشري شيخ الأزهر ورئيس لجنة الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي إجازته لقانون المؤتمر الذي فيه أن المباحث الدينية في المؤتمر تكون اجتهادية تُبنى على الكتاب والسنة والإجماع والقياس لا على نصوص المذاهب. نذكر له هذا ونثني عليه عوداً على بدء. ونتنصر بتقريره هذا وبالبلاغ الذي نشرناه في هذا الجزء - وهما من أكبر شيوخ الإسلام الرسميين في أكبر عواصم المسلمين. على الجامدين البلاد الذين كانوا ينكرون علينا من بضع سنين دعوتنا إلى الاهتداء بالكتاب والسنة وجمع كلمة المسلمين عليهما والله خير الناصرين.







[ما به يكون التأليف بين العنصرين]<sup>(١)</sup>

[المنار ج ١٢ (١٩٠٩) ص ٨١٨ - ٨٣٢؛ وص ٩١٣ - ٩٣٢]

(١)

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية

[١٠٣]

التغاير بين الأخوة الأشقاء، والتنافس بين الجيران والخلطاء، هما من الأخلاق المعهودة بين الناس، في جميع الشعوب والأجناس، وكثيراً ما يفضي التغاير إلى التنافر، والتنافس إلى التحاسد، فإذا اقترن ذلك بالتقاطع والتدابير، ولم يفض كل من المتنافسين، بم في نفسه إلى الآخر، اشتعلت بينهما نار العداوة والبغضاء، وإن كان الخير لكل منهما في المودة والوفاء، وإن ما وقع من الشقاق بين البشر بسوء الفهم، أكثر مما يقع بسوء النية والقصد.

تلك قوانين الأخلاق وسنن الاجتماع التي تسير عليها الأفراد والأقوام، فالعرب والترك هما الصنوان في شجرة الملة الحنيفية، والأخوان الشقيقان في الجامعة العثمانية، والركنان الركبان لبناء الخلافة الإسلامية، فالرابطة بينهما جديرة بأن تبقى دائماً كما وصفها كمال بك نامق زعيم النهضة الأدبية في الترك بقوله: «إن كان يطمع أحد في حلها فهو الشيطان، وإن كان يقدر عليه أحد فهو الله».

(١) مقال طويل كتبته في الأستانة ونشر نبدأ متفرقة مترجماً بالتركية في جريدة «أقدام» الشهيرة وبالعربية في جريدة «كلمة الحق».

هذا ما كان، وهذا ما يجب أن يكون إلى ما شاء الله، ولكن وُجد شيطانان لا شيطان واحد يطمعان في حلّ الرابطة المتينة بين العنصرين اللذين امتزجا كامتزاج الأكسجين والإدروجين في تكوّن الماء، أو الأكسجين والنيتروجين في تكوّن الهواء، ذاك الشيطانان هما شيطان السياسة الأوروبية، وشيطان الجهل في كثير من أفراد العنصرين، ولكل واحد من هذين الشيطانين شر من شيطان الجن الذي ذكره كمال بك رحمه الله، وسأبين ذلك تبيناً.

إن هذا العاجز كاتب هذا المقال ربما كان من أعلم الناس بقوادم هذه المسألة وخوافيها وهزها وجدها لأنني جئت مصر منذ إثنتي عشرة سنة فكنت أشتغل فيها بالدعوة إلى الإصلاح الإسلامي جهراً، من حيث أشتغل بالسياسة العثمانية سراً، وإن مصر في هذا العصر، لهي مرآة الشرق والغرب، بما فيها من الحرية المطلقة، والشعوب المختلفة، والجرائد الحرة، والاجتماعات المباحة، فالمقيم فيها يسهل عليه أن يعرف من أحوال البلاد العثمانية وسياسة الدول فيها ما لا يعرفه أهل الآستانة ولا غيرهم من المقيمين في الولايات حتى في هذا العصر عصر الدستور، فماذا نقول في عصر الاستبداد القريب: عصر الحجر على المطبوعات والختم على الأفواه، والمنع من الاجتماع، والرعب من ذكر بعض الأسماء والألقاب، والعقاب الشديد على فلتات اللسان، وزلات الأقلام؟

إنني ما تركتُ مصر وجئتُ الآستانة في هذا الوقت لأمتّع النفس باستنشاق هوائها وعذوبة مائها ومناظر بوسفورها، وإنما جئتُ باحثاً ومختبراً أو ساعياً في الإصلاح، فأنا أعرض ما عندي من المعرفة والاختبار والرأي، على أولي الأمر وأهل الحلّ والعقد، بعضه بالمشافهة والمسارّة، وبعضه بالكتابة في الجرائد، فإن صادف آذاناً واعية، وأعينا بصيرة متأملة، فذلك ما أرجوه، وإن صدق ما قيل لي بمصر من أن أولي الأمر وكذا أصحاب الصحف في الآستانة لا يبالون بقول أحد ولا برأيه، وما أظن أن

الأمر كما قيل ، فحسبي أنني أدت الواجب عليّ وعملت بالنصيحة الواجبة  
لأئمة المسلمين وعامتهم كما ثبت في الحديث الشريف الذي رواه البخاري  
ومسلم في صحيحهما.

قضيت أكثر من أسبوع في هذه العاصمة لا أقابل أحداً من أولي الأمر  
ولا من أصحاب الجرائد وإنما كان همي فيها محصوراً في اكتشاف الآراء،  
واستخراج مخبآت النفوس، ومكنونات الصدور، في الأمور العامة، ومسألة  
سوء التفاهم بين الترك والعرب خاصة، فرأيتني بعد أن وقفت على كثير  
من المسائل والآراء، وما فيها من الأغراض والأهواء، لم أزد علماً بأصل  
المسألة وإنما أضفت إلى ما عندي جزئيات جديدة من الحوادث والوقائع  
تؤيد الأمر الكلي ولا تنقض منه شيئاً.

فالأمر الذي يجب التصريح به بالإجمال، قبل بيان الأسباب والنتائج  
بالتفصيل والذي يجب أن يُعلم به، هو أنه يوجد شيء من سوء التفاهم  
بين العنصرين تحشى عاقبته إن لم يتدارك في الحال، وأن كبراء الدولة وقادة  
الأفكار في العاصمة ليسوا على بينة منه وأستشهد على ذلك شهيدين  
قريين: أحدهما فتنة الشام في هذا العام، وثانيهما ما نُشر في جريدة اقدام  
من خبر اتحاد أمراء جزيرة العرب لأجل تكوين دولة عربية!

أما الأول الذي أستدل به على أن حكومة العاصمة ليست على بينة من  
أحوال الولايات العربية فهو أن بعض الوشاة في دمشق الشام بلغوا هذه  
الحكومة بتقرير من تقاريرهم التي اعتادوها في زمن الحكومة الحميدية بأن  
أفراداً معينين يكونون دولة عربية وخلافة جديدة! فبادرت الحكومة  
الدستورية إلى التحقيق واستنطاق المتهمين بهذه الجناية جهراً، وكانت  
الحكومة الحميدية تفعل ذلك في شأنهم وشأن أمثالهم سراً، وهم أفضل  
علماء الشام وأخلص المخلصين من أحرارها للحكومة الدستورية، هم  
الذين كانوا مضطهدين في الدور الوطني الماضي فلما جاء الدستور ظنوا أن  
زمن اضطهادهم قد مضى وجاء الزمن الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم،

ويعرف فيه للمخلصين إخلاصهم، وكانوا هم السابقين، إلى مقاومة الرجعيين، إما ببذل نصائحهم وعلومهم كالشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال الدين القاسمي، وإما ببذل أموالهم ونفوذهم كعبد الرحمن بك اليوسف، والسبب في وقوع هذا الغلط عدم الوقوف على حقيقة الأحوال ودليل ذلك أن ناظر الداخلية لم يلبث أن أصدر أمراً حين علم بالحقيقة من مدة قريبة بترك التحقيق عن المتهمين بالباطل وجعل المسألة كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، ولكن تلك الإهانة التي أصابت أولئك المخلصين بسبب ما ذكرنا من عذر الحكومة قد تُنسب إلى سوء القصد، أو تُضعف الثقة بالحكومة الدستورية، لو لم تتداركها، وسنبحث في طريق معرفة الحكومة والجرائد في العاصمة لأحوال الولايات في نبذة أخرى من هذا المقال.

وأما الأمر الثاني وهو ما أستدلُّ به على عدم معرفة الجرائد وقراءتها هنا بأحوال البلاد العربية فهو تصديق ما نشرته جريدة اقدم مترجماً عن جريدة الاتحاد العثماني من اتحاد أمراء العرب وشيوخهم في الجزيرة واهتمام الناس هنا بذلك. وهذا ما حملني على زيارة هذه الجريدة ومكاشفة مديرها الفاضل بحقيقة الأمر في ذلك الخبر والاتفاق معه على كتابة مقال في بيان ما عندي من الصواب في هذه المسألة وفي المسألة الكبرى التي تُعدُّ هذه فرعاً من فروعها وهي مسألة سوء التفاهم بين العرب والترك وما يجب من طرق تلافيه بعد معرفة أسبابه، وقد شكرتُ للرصيف الكريم قبوله مني ما أكتب وترجمته ونشره في جريدته.

لمسألة اتفاق أمراء الجزيرة أصل عرفته من أوثق المصادر وأصحّها وهو أن شيخ لحج، ويلقب هناك بسلطان لحج، قد كتب كتاباً إلى بعض أمراء العرب وشيوخهم كإمام الزيدية في اليمن والشريف أمير مكة في الحجاز وغيرهما وأرسله مع رسل من قبله يحملون بعض الهدايا وهي تتضمن الدعوة إلى المذاكرة في الاتفاق على حفظ جزيرة العرب من العبث

باستقلالها ولو من قِبَل الدولة العلية! ولكن لم يُجبه أحد إلى دعوته ولا حصل اتفاق بين أولئك الأمراء ولا اتفاق على الاتحاد، ولا ذلك من المتيسر ولا شيخ لحج ممن يسمع له أولئك الأمراء قولاً، أو يحترمون له رأياً، أو يعتقدون فيه إخلاصاً، بل هم يسيئون الظن فيه لما بينه وبين إنكلترا من الولاء، وما يأخذ منها من العطاء.

علمت بهذه المسألة من عدة أشهر ولم أنشرها في المنار ولا في غيره من الصحف لاعتقادي أنها لا ضرر فيها وإنما الضرر في نشرها، وخوض العامة بذكرها، لما سأبئته بعد. ولكن لما كان علم الدولة بها واجباً ولا سيما إن كانت بدسياسة أجنبية بادرت إلى إخبار بعض من يثق بي من كبراء الدولة بها في كتاب أرسلته إليه من مصر على أنه بلغني أن أمير مكة المكرمة أخبر حكومة العاصمة بها أيضاً.

بعد ذلك سمع بعض التجار في عدن وغيرها بالخبر ولكن على غير وجهه فتناقلوه حتى وصل إلى طرابلس الشام فتلقفه مكاتب جريدة المؤيد المصرية هناك وكبره وأضاف إليه ما جرت عادة مكاتبي الجرائد بالتوسع في مثله وأرسله إلى المؤيد، وبعد أن نشره المؤيد بزمان غير طويل نشرته جريدة الاتحاد العثماني فوصل إلى الأستانة العلية في هذه الأيام وكان له من سوء التأثير ما كان. ونحمد الله أن كانت الحكومة هنا أعرف بحقيقة هذا الأمر من الجرائد إذ لولا ذلك لخشي أن تحشر الزخوف، وتنفق الألوف، وتسير الأسطول، لدرء هذا الخطر الموهوم، فإن اتفاق أولئك الأمراء لا يتلافى بمثل ما يتلافى به اتفاق الشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ جمال القاسمي وهما شيخان ضعيفان يقيمان في مركز فيلق من فيالق الدولة العلية!

أكتفي بهذه النبذة اليوم وسأكشف الغطاء في النبذة الثانية عن أسباب سوء التفاهم وأجعل هذا وذاك مقدمة ما أدعو إليه من الوحدة والاتفاق.

قلت إن العرب والترك يجب أن يكونا متحدّين كالعنصرين المكوّنين  
للهماء أو الهواء بحيث يكون الناظرون إليهما كالناظرين إلى الماء يرون شيئاً  
واحداً لا شيئين، والشاعرون بمقاومتها كالشاعرين بمقاومة الهواء وهو قوة  
واحدة لا قوتان منفصلتان، وقلت إن شيطاني السياسة الأجنبية والجهالة  
الداخلية، يطمعان في حل رابطتهما القوية، وتحليل وحدتهما الدينية  
الاجتماعية، بمحلل العصبية الجنسية، وإننا نبين ذلك بشيء من التفصيل.

### سياسة أوروبا في الأجناس

وضعت في أوروبا قاعدة من قواعد السياسة من عهد نابليون وهي  
وجوب استقلال كل جنس بنفسه، فهذه القاعدة يعمل بها رجال السياسة  
الاستعمارية حيث توافق مصلحتهم فقط، ويوجد من رجال الاجتماع من  
يقول بوجوب أطرافها لمصلحة البشر وإن كان استقلال بعض الأجناس  
يُنافي مصلحة جنس آخر سائد عليه أو متعزّز به.

لهذه القاعدة فروع كثيرة تتعلق بالدولة العلية لا خير لها في شيء منها  
لأنها مؤلفة من أجناس كثيرة لا قوة للدولة إلاّ باتحادها كلها أو جلّها  
بالإخلاص فإن شدّ منها جنس صغير هو فيها كالكربون في الهواء لم يكن  
ذلك ضاراً لها ضرراً يضاعف كيائها فإن خلّو الهواء من الكربون لا يبطل  
كونه هواء وإن كان لا يخلو في الغالب منه. وإنني لا أبحث هنا في هذه  
الفروع وإنما أقول إنه لا يغبن أحد من الأجناس العثمانية في سياسة  
الجنسية كما يغبن الترك العثمانيون لأن من مقتضاها أن يحصر استقلالهم في  
بلاد الأناضول التي هم فيها أكثر عدداً ولا تسمح لهم أوروبا بالاتحاد بأهل  
تركستان ولا هم يقدرّون على ذلك بالقوة، فاتهم بعض العرب وغيرهم  
لساسة الترك بأنهم يريدون استخدام قوة الدولة لتمييز جنسهم على سائر

الأجناس العثمانية هو اتهام لهم بالجهل بمصلحة الدولة وبمنفعة جنسهم فوق الجهل بما يحظره عليهم دينهم من عصبية الجنسية .

### سياسة أوروبا الجنسية في البلاد العربية

قلت إن القائلين بهذه السياسة في أوروبا فريقان: رجال الاستعمار الذين يستخدمونها لمصلحتهم بقدر مصلحتهم، ورجال الاجتماع الذين يسعون لها سعيها على الإطلاق عملاً بما يعتقدون من خير البشر. فالأولون يثبون في البلاد العربية العثمانية فكرة الاستقلال العربي مخادعة للعرب ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية، وماذا تريد أوروبا بعد ذلك؟ تريد أن تضع هذه البلاد العربية تحت حمايتها أو تضمها إلى مستعمراتها وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال!! وإن لأوروبا من الدسائس والوساوس في أطماع البلاد العربية العثمانية بالاستقلال ما لا تسمح لنا الحالة السياسية في الآستانة الآن بشرحه وإنما أشرنا إليه لنذكر أهل الحل والعقد ورجال الصحافة في هذه العاصمة بأن سوء الإدارة في عصر الاستبداد كان هو المساعد لترويج تلك الدسائس، وإن حسن الإدارة وحده لا يكفي في هذا العصر لقطع عرق الدسائس وخيبة مساعي أصحابها بل يجب أن يقترن بالمساواة وتأييد الوحدة العثمانية بالعمل من الحكومة، وبأقوال الجرائد وفي مقدمتها جرائد العاصمة؛ فإن كلمة واحدة من جريدة تركية أو من كاتب تركي تُشعر بتفضيل الترك على غيرهم تُجَبِّط عمل ألف واحد من العرب في الدعوة إلى الاتفاق والاتحاد.

وقد اشتهر أمر المناظرة الطويلة التي دارت بين هذا العاجز وبين صاحب جريدة وطن التي تصدر في مدينة لاهور بالهند في الانقلاب العثماني الذي سمّيته ميموناً وسمّاه مناظري مشؤوماً، وقد كان مما قاله في ردّه الأخير عليّ إنني لم أعترف لعبد الحميد بحسنة واحدة وقد كانت جرائد الشرق والغرب طافحة بتعداد حسناته الكثيرة، فأجبت في ردي الأخير عليه

الذي نشرته في جزء المنار الذي صدر في آخر رمضان الماضي : إنني أعترف لعبد الحميد بحسنتين : سكة الحديد الحجازية ، وعدم التعصب للجنسية ، إذ لم يكن يقال في زمنه ترك وعرب . وأزيد الآن على ما قلته هناك إنه لو كانت تلك الإدارة السوءى مقرونة بالتعصب الجنسي للترك لانفصلت البلاد العربية من جسم الدولة البتة .

هذا ، وإن في أوروبا من أهل السياسة من يساعد على فصل بلاد العرب من جسم الدولة العلية لأجل إضعاف الدولة لا لطمع في شيء من تلك البلاد ، وإنني قد دُعيتُ منذ أعوام إلى الدخول في جمعية أو رياسة جمعية بأوروبا تدعو إلى استقلال البلاد العربية وقيل لي إن جمعية كذا . . . . . وجمعية كذا . . . . . من الجمعيات التي تريد إضعاف الترك في مقدونية وفي الأناضول وحلهم على تفريق القوة العسكرية ، تساعد هذه الجمعية العربية بالمال الكثير إذا دخل فيها بعض المشهورين من المسلمين ، ولما رفضتُ هذه الدعوة قيل لي إسمح لنا بكتابة شيء في ذلك بقلمك أو إسمح لنا أن نستخدم إسمك فلم أقبل بل كان ذلك مما قوّى عزيمتي على القيام مع بعض أصدقائي العثمانيين بمصر بجمعية الشورى العثمانية التي ألفتناها من جميع العناصر العثمانية للمطالبة بالدستور والإصلاح .

وأما رجال الاجتماع من الأوروبيين الذين يميلون إلى تكوين دولة عربية فكثيرون ، ومنهم المخلصون الذين لا يقصدون مساعدة الطامعين في البلاد العربية ولا اضعاف الشعب التركي ، وقد يستغرب كثير من القارئ لهذا المقال الجزم بوجود هذا الصنف من الناس في أوروبا ، ألا فليعلم المستغربون أننا نقول هذا عن علم لا عن ظن وأن الإنسان ما زال مصدر الغرائب . ومما وقفتُ عليه من ذلك أن بعض هؤلاء المخلصين في حب العرب قد عرف الأستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده رحمه الله ، ووثق باقتداره فرغب إليه أن يضع له نظاماً لاستقلال جزيرة العرب وتكوين دولة عربية فيها ليسعى في تنفيذ ذلك . وقال له إنه يوجد مال كثير يُبذل في



سبيل المشروع وإنه هو يُنفق من صندوقه مبلغ كذا من ألوف الجنيهات .  
فأقنعه الأستاذ الإمام بأن فصل العرب من الترك يُضيّع الفريقين ويضر  
الإسلام نفسه ، فقال له ذلك الأوروبي الفاضل إذا كان الأمر كذلك فأنا  
أعاهدك على ترك السعي له .

إن ما يُظهره العلماء المستشرقون من آثار العرب في العلم والمدنية  
والدين وما يطبعونه في كتبهم التي كانت نسجت عليها عناكب النسيان ،  
هو مما يقوي ميل أولئك الاجتماعيين إلى مساعدة الاستقلال العربي إذا  
سعت العرب إليه وطالبت به ، فأحب أن يعرف ذلك رجال السياسة  
والصحافة من الترك وأن يعلموا علم اليقين أنه لم يوجد إلى هذا اليوم  
سعي إلى هذه التفرقة الضارة ولا ميل من أهل البلاد العربية ؛ وإن  
العارفين منهم بهذه المنافذ يسعون في سدّها ، وإن الذين أظهروا الدعوة  
إليها في أوروبا إنما هم أفراد من أصحاب المطامع الذين كانوا يبتغون المال  
والمناصب من عبد الحميد والتهويز على الدستور ورجاله في أول العهد  
بإعلانه ، وإن عزت العابد لا يقدر الآن على شيء ، وإن كل ما يجب الآن  
محصور في إزالة سوء التفاهم بين العنصرين وهو ما سنبينه بعد .

### (٣)

إذا جنحت الترك للاعتصام والامتزاج بالعرب بما سأذكره من الوسائل  
فإن العرب تكون أجنح لذلك لأن الترك هم العنصر الأكبر في الدولة  
والسياسة ، والقاعدة الطبيعية في الجاذبية أن الأكبر يجذب الأصغر ، ولأنهم  
أشد استمساكاً بالجنسية فيُخشى أن يكونوا هم الذين يكوّنون عصبية  
العرب الجنسية .

فإن قيل إن العرب هم أكبر العنصرين بكثرة عددهم وسعة أرضهم  
وموارد ثروتهم فهم الذين يجب أن يجذبوا الترك إليهم ، فالجواب أن هذا  
كان يكون صحيحاً لو كان التنازع والتجاذب بين عامة العنصرين ،

ونحمد الله أنه لم يكن كذلك لأن هذه العصبية إذا سرت في نفوس العامة فتنبهوا لها، وتوجهوا إلى العمل بموجبها، فإنه يتعسر أو يتعذر نزعها من قلوبهم، واستخراجها من أدمغتهم، وإنما التنازع والتجاذب محصوران في طائفة من المتعلمين وهم رجال المناصب في الدولة وطلابها، والمشتغلون بالسياسة، كأصحاب الجرائد وكتّابها، ومجموع الفريقين في الترك أكثر منهم في العرب وهو معنى قولنا إن الترك أكبر العنصرين في الدولة والسياسة، وإن انحصار التجاذب بين أعقل المتعلمين في الفريقين هو الذي يُطمع طلاب الوفاق ومحبي الإصلاح في إزالة سوء التفاهم الذي يُغري كل فريق ببث سموم التفريق في عامة الناطقين بلغته.

وأما كون الترك أشد استمساكاً بعصبية الجنس من العرب فسيبه أن دولتهم قامت بهذه العصبية لا بالدين الذي يجمع بين الأجناس الكثيرة ويساوي بينهم كدولة العرب أو دولهم، ولا نطيل في بيان هذا لأنه لا يقوي ما نرمي إليه من التأليف والتوحيد بل ربما يعارضه، وحسبهم أن دولتهم سُميت باسم جنسهم «تركيا» وكان مما زادهم استمساكاً بعصبيتهم الجنسية كثرة الأجناس المزاحمة لهم في عاصمة الملك وما يتصل بها من البلاد.

نعم، إنهم على قيامهم بعصبية الجنس لم يكرهوا الأجناس التي استولوا على بلادها على التجنس بجنسيتهم ولا على الدخول في دينهم، أما الأول فلأن دولتهم لم تكن دولة علم وحكمة، وإنما كانت دولة بأس وقوة، وقد مرت عليها القرون ولم تجعل لغة التركية نحواً ولا صرفاً ولا معاجم ولا غير ذلك من كتب التعليم. وأما الثاني فلأن الإسلام نفسه هو الذي لم يسمح لهم بذلك وقد أراد بعض سلاطينهم واستفتى فيه مفتيه «شيخ الإسلام» فلم يفتّه فامتنع لأنه كان مسلماً ودولته إسلامية لا شبهة في ذلك

ما كنت لألم بهذا الاستطراد لولا ما خشيته من الاعتراض على بعض المقدمات الذي يترتب عليه عدم التسليم بالنتيجة. وإذا سلّمنا أن

الاستمساك بالجنسية فيهم أشد، وأنهم أقوى على جذب غيرهم إليهم وأقدر، فلا مندوحة لنا عن التسليم بأن الخوف من التفرُّق والرجاء في الاعتصام هما منهُم وفيهم أشد وأقوى أيضاً. وإني لأرجح الرجاء على الخوف لحسن ظني بكُبراء القوم وزعمائهم الذي لا ينقصه وقوع بعض الأغلاط منهم، التي تولَّد منها ما تولَّد من سوء الفهم، الذي يسهل تداركه مع حسن القصد، وقد رأيت بوادر الارتياح إلى التدارك من فخامة الصدر الأعظم فمن دونه من رجالهم الذين اتفق لي الحديث معهم، بل رأيت الكثيرين من فضلائهم قد أقبلوا بعد نشر النبذة الأولى من هذا المقال في جريدة اقدام للسلام عليّ والتعرّف بي والشكر لي والاعتراف بحسن ما دعوت إليه من وجوب الاتحاد والاعتصام. وكذلك فعل الكثيرون من وجهاء العرب المقيمين في هذه العاصمة. أفليس هذا دليلاً على صدق ما جزمنا به من كون المسألة التي نبحت فيها مسألة سوء فهم يسهل تداركها قبل اتساع دائرتها؟ بلى، ومتى وضحت الأسباب، زال الارتياح.

### تاريخ التغيرات بين العرب والترك

إن الطبيب لا يحسن معالجة المريض ويكون جديراً بالنجاح فيها إلا إذا كان عارفاً بتاريخه الصحي وبما طرأ عليه من الأمراض من قبل، بل يجب أن يكون مع ذلك على علم بالحال الصحية في آبائه وعشيرته ليعرف استعداد مزاجه وما عسى أن يكون قد سرى إليه بالوراثة، وكذلك يجب أن يعرف الطبيب الاجتماعي تاريخ الأمم والشعوب التي يتصدى لإرشادها ومعالجة أمراضها الاجتماعية، وأخلاقها وعاداتها الطارئة والموروثة، وهذا ما يدعونا إلى الإشارة إلى ما لا بد من التذكير به من تاريخ التغيرات بين هذين العنصرين اللذين يجب أن يتحدا دائماً كاتحاد عنصرَي الهواء أو الماء

كان للعرب مدنيتان قديمة قد امتدت من بلادهم إلى بلاد الكلدان والفرس من جهة الشرق وإلى مصر من جهة الغرب فتاريخ دولة الرعاة

العربية في مصر معروف، ويقول بعض المؤرخين إنه كان لهم في تلك البلاد دولة أقدم منها، وشريعة حمورابي - وهي أقدم الشرائع المعروفة من التاريخ - شريعة عربية، فحمورابي العربي كان يدعى ملك السلام كما في العهد العتيق والعهد الجديد من أسفار أهل الكتاب وكان معاصراً لإبراهيم الخليل، عليه وعلى آله الصلاة والسلام، إلا أن تلك المدينيات قد زالت كما زال غيرها من المدينيات القديمة. ولم يظهر شيء من آثارها إلا في هذا العصر الذي عني فيه الأوروبيون باستخراج الآثار القديمة من بطن الأرض، وسيُجاريهم العثمانيون في ذلك وهم أحق بمعرفة تاريخ البلاد التي ورثوها ويوجب عليهم الدستور في هذا العصر عمارتها كما أوجب الاستبداد على سلفهم إهمالها إن لم نقل تخريبها.

ثم أتى على العرب حينٌ من الدهر لم يكونوا فيه شيئاً مذكوراً في عالم المدنية حتى انبلج فيهم فجر الإسلام بمكة المكرمة وطلعت شمسُه بالمدينة المنورة ثم امتد نوره إلى سائر الآفاق، واتسعت فتوحاته في الشرق والغرب، وأحيا العلوم التي كانت قد ماتت، وجدد المدنية التي كانت قد عفت وطمست، ولكن كان من تعاليمه محور العصبية الجنسية، ولذلك كانت الدواوين التي دوّنها الخليفة الثاني للحكومة في بلاد الشام باللغة الرومية إلى عهد عبد الملك بن مروان، وكان وزراء أعظم الخلفاء العباسيين من الفرس، وحاشية آخرين منهم وحرسهم وجندهم الخاص الممتاز من الترك. ثم حدثت في بلاد الخليفة العباسي سلاطين الطوائف فكان منهم الفارسي والتركي والكردي، ولم يخطر في بال العرب أن هؤلاء غرباء عنهم، وأنه يجب تأليف عصبية عربية لنزع الملك منهم، ذلك بأن الإسلام نزع عصبية الجنس من قلوبهم بقول الله لهم في سورة الحجرات «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [سورة الحجرات رقم ٤٩، الآية ١٣] فعلمهم أن الشعوب التي تختلف باختلاف الجنسية والقبائل المتفرقة باختلاف النسب

يجب أن تتعارف فتألف، لا أن تتناكر فتختلف، وبذلك أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع وصرَّح بأنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى، ولذلك كانت العرب ولا تزال تفضل مثل ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي الكردي على أكثر ملوك بني أمية. ولذا سهَّل على ملوك آل عثمان الاستيلاء على البلاد العربية ولم يخطر على بال الأمة العربية أنه قد استولى عليها قوم ليسوا من جنسها، إذ ليس لها - ومعظمها على الإسلام - جنسية في غير دينها، ألم ترَّ إلى الشعب المصري العربي كيف يثُنُّ من نفوذ الإنكليز وهم ليسوا بالكلين، ويحُنُّ إلى الترك وإن كانوا إلى آخر عهد عبد الحميد من الظالمين، ومن الأمور التي لا ينكرها مصري ولا تركي أن الإنكليز قد أصلحوا من بعض الوجوه في مصر وأن الترك لم يصلحوا فيها شيئاً، ولا نزيد على ذلك لئلاً نخرج إلى ما ليس من غرضنا أو إلى ما يوشك أن يضعف صوتنا فيه.

يقول بعض المتفرنجين منّا إن عدم تعصب العرب لجنسهم كان ضاراً بهم لأنه أزال مُلكهم، وإن الترك لو عملوا بهذه السياسة الإسلامية لكان شأنهم في ذلك كشأنهم، ونقول إن هذا القول باطل وليس هذا المقام مما يتسع لبيان بطلانه بالحجة والبرهان، وإنما الغرض مما تقدم بيان أن العرب لا يكرهون سلطة الترك تعصباً لجنسهم وإنما ينكرون منهم بعض الأخلاق والأعمال كما ينكر بعض أفرادهم وبعض جماعاتهم على بعض. هذا ما عليه مجموع الأمة العربية لا جميع أفرادها فإنني لا أنكر أنه قد سرى إلى كثير من المتعلمين الميل إلى التعصب الجنسي والاستقلال العربي وهو المقصود من بحثي هذا.

إن الدولة التركية لم يكن لها في عصور قوتها نفوذ ولا سلطة ولا دواوين ولا محاكم في داخلية البلاد العربية ولا مدارس تركية فهي لم تمتزج بالعرب ولم تلتحم معهم بلحمة العدل والعلم واللغة فيكون الترك والعرب أمة واحدة، ولم تسسهم بالقوة والجبروت والظلم العام فتفسد بأسهم وتجعلهم

أمة ذليلة، بل كانت إلى ما قبل «التنظيمات الخيرية» التي وضعت في عهد السلطان عبد المجيد، رحمه الله تعالى، تكتفي بإرسال بعض عمّالها إلى بعض البلاد الكبيرة لأجل أخذ ما فُرض على كل جهة من المال للدولة، ولكن البلاد المصرية قد ذاقت من الظلم في عهد المماليك ما صارت تعد به عصر محمد علي باشا وعصر أحفاده عصر نور وأصلاح، على ما كان فيه من ظلم وجور، ومع هذا كله لم تتوجه نفوس المصريين إلى طلب الاستقلال التام عن الترك إلا في عهد الثورة العربية، ثم لما كانت عاقبة الثورة هي احتلال الأجانب للقطر المصري حدث للمصريين من التعلق بالدولة العلية ما هو معروف وقد أشرنا إليه سابقاً.

بعد «التنظيمات الخيرية» تغلغل عمال الحكومة من الترك في البلاد العربية فلم يكن الناس يستنكرون سلطتهم، أو يستثقلون وطأتهم، ولا كانوا يرون أنفسهم أذلاء لخضوعهم لحاكم أجنبي عنهم بل كان السواد الأعظم وهم المسلمون يعدون التركي منهم لأنه مسلم وهم قلما يفكرون في مسألة الجنسية، وأما غير المسلمين فلم يكن عندهم فرق بين التركي المسلم والعربي المسلم، فهم كالمسلمين كانوا لا يفكرون في غير الرابطة الدينية، ثم صار المتعلمون منهم على الطريقة الأوروبية يدعون إلى الرابطة الوطنية على أن أكثر أهل بلادنا لا يفهمون من معنى الوطن إلا موضع الإقامة حتى أن كل بلد عندهم وطن وهذا هو المتبادر من المعنى اللغوي. ثم إن النصارى سبقوا في كثير من البلاد العربية إلى التقرب إلى حكام الترك بتعلم التركية حتى صار كتاب الدواوين كلهم أو جلهم منهم في أوائل العهد بالتنظيمات ثم قلّ عددهم فيها بعد ذلك.

نعم، إن جهل أهالي البلاد للغة التركية وجهل الحكام من الترك للغة العربية كانا ولا يزالان من أسباب الجفاء وعدم الأنس، واشتهر الترك على رقة حاشيتهم وعلوّ أدبهم بالكبر والغلظة على أن كثيراً منهم كان يتكبر لظنه أن التكبر يكون أدعى إلى المهابة والإجلال ولكن لم يكن يشعر بهذا إلا

بعض أفراد الأمة وهم رجال الحكومة من أهل البلاد فلم يكن له تأثير في الأمة يوجب سريان الكراهة للجنس، وإنما كان يعرف بين الناس وصف الحاكم من حيث هو حاكم، فيقال هذا الوالي أو هذا المتصرف عادل لا يأكل «الرشوة»، وهذا الوالي أو المتصرف يأكل ويشرب... وكثيراً ما كان الناس قبل هذه الأيام يمدحون الترك كلهم لوجود حاكم عادل منهم وقلماً كانوا يذمونهم كلهم لظلم الحاكم منهم على أن الظالمين كانوا بطبيعة الاستبداد أكثر من العادلين.

وقد عُرف بين الناس في الولايات العربية شيء آخر لا بد من ذكره وإن كان مُراً لأننا نبحث في هذه المسألة بحث الطبيب الآسي، وفي المثل العربي: «من كتم داءه قتله»؛ ذلك الشيء هو أن الترك يبغضون العرب. ويتناقل الناس في كثير من البلاد العربية كلاماً سمعوه من بعض حكام الترك صريحاً في هذا، ولا أحب أن أطيل في بيانه، ولولا أنه مشهور لما ذكرته ليعرف إخواننا الترك من ولاية الأمور وأصحاب الصحف فيكونوا معنا على بصيرة فيما نطلبه من خير الأمة بالاعتصام والوحدة.

يمكن أن يقال إن ما سُمع من تصريح بعض الترك ببغض العرب هو من الجزئيات التي لا تبلغ أن تكون استقراءً ناقصاً، فالحكم بها على الجنس كله حكم باطل ولا سيما إذا عرف لها سبب يوجد في صنف من أفراد الجنس دون غيرهم. وقد علمت بعد البحث والتحري أن هذا الصنف الذي قد بدت البغضاء للعرب من أفواه كثير من أفرادهم هو صنف المتفرنجين والضعفاء في الدين من الذين يثقل عليهم مزاحمة العرب لهم في خدمة الحكومة وفي التوسُّل إليها بالتعلم في المدارس الرسمية، فإن بعض المتخرجين في هذه المدارس من أبناء العرب وبعض التلاميذ الذين لا يزالون فيها يذكرون من تعصب بعض المعلمين عليهم ما لا محل لشرحه هنا. ومن المشهور عن كثير من الترك الصالحين وغير المتزاحمين معهم على أعمال الحكومة أنهم يحبون العرب حباً دينياً حتى أن منهم من يتبرَّك بالعربي

لأنه عربي . فالحقيقة المحصنة هي أنه ليس بين الجنسين عداوة ولا بغضاء فنقول إن الاتحاد بينهما متعذر أو متعسر، وإنما هو التغاير والتنافس في طلب المناصب والوظائف وفي صفوف المدارس قد وصل مع الغلو إلى التحاسد كما أشرنا إلى ذلك في فاتحة النبذة الأولى؛ ومثل هذا التنافس والتحاسد يقع بين المتزاحمين من أبناء الجنس الواحد فتلافيه سهل، إن شاء الله .

والخلاصة، إن تاريخ العلاقة بين الترك والعرب لم يكن فيه شيء أكثر مما ذكرنا ولم يكن ذلك في الماضي مما يخطر على بال زعماء العرب السعي إلى انفصالهم من الترك واستقلالهم بأنفسهم، ولا ذكر هذا على لسان أحد إلا في عهد ولاية زعيم الحرية والإصلاح، مدحت باشا، على سورية، ففي عهده شاع أن في البلاد حزباً كبيراً مؤلفاً من وجهاء المسلمين والنصارى في بيروت والشام يسعى إلى جعل القطر السوري مستقلاً كالقطر المصري تحت سيادة الدولة العلية ويكون الخديو له مدحت باشا . وقيل إن بعض «الماسون» كانوا يسعون إلى جعل الأمير عبد القادر الجزائري هو الخديو لهذا القطر . وقد سمعت من والدي، رحمه الله تعالى، إن مدحت باشا على سعيه في إصلاح الدولة اعتقد أن إصلاح البلاد السورية وجعلها خيراً من البلاد المصرية لا يتأتى إلا باستقلالها الإداري، فكان يُمهّد السبيل لذلك فشعر بالأمر رستم باشا متصرف لبنان فكاشف به الدولة فكان ذلك هو السبب في عزل مدحت من ولاية سورية . ولكن أخبرني بعض العارفين بدخائل السياسة في ذلك الوقت أن السلطان عبد الحميد هو الذي أوجد تلك الإشاعة في سورية ليتوسّل بها إلى إخراج مدحت من سورية لأجل الانتقام منه . ويُقال أيضاً إن لبعض الأجانب يداً في توجّه نفوس الناس في سورية إلى هذه الفكرة . وقد حدّثني بعض أصحابي الذين كانوا من عمال الحكومة في عهد مدحت باشا، أنه سأله عما يُقال في هذه المسألة، فقال له زعيم الأحرار إن هذه دسائس من الأجانب يريدون بها فصل سورية من الدولة ليستولوا عليها .



مثل هذه الدسيسة لا يُستغَرَب من سياسة «يلدز» التي كانت مبنية على المكاييدة والمخادعة وإخفاء الحقائق بألوان التمويه والتلبيس، وهي التي لعبت بالثورة العُرابية ذلك اللعب المشؤوم ومكَّنت للإنكليز في أرض مصر، ثم أرادت أن تُرضي سائر الدول القوية بتمهيد السبيل لتمكُّنهم في سائر أرجاء الدولة في مقابلة مصر فأعطت الألمانين سكة حديد بغداد وقررت إعطاء الروسيين مثلها على شواطئ البحر الأسود، وقد راجت تلك الدسيسة الحميدية على أهالي سورية، فشاع بينهم أن مدحت باشا وهو المعروف بحب الإصلاح ما أراد إنشاء دولة عربية إلّا بعد يأسه من قدرة قومه على سياسة الملك وإقامة العدل وتشديد دعائم المدنية بما تقتضيه حال العصر، فكان هذا أول فكر في التنفير من السلطة التركية سرى في بلاد عربية، وقد نُظِّمَت فيه القصائد البليغة المؤثرة كالقصيدة السينية الشهيرة لليازجي [إبراهيم] ولكنه فكر لم يتلقه السواد الأعظم بالتسليم.

ثم سكنت هذه الأفكار بعد إخراج مدحت باشا من سورية عدة سنين حتى إذا ما اشتدت المظالم الحميدية في السنين الأخيرة وقويت فتنة اليمن وفتنة مكدونية عاد بعض الناس إلى الحديث فيها بمصر وأوروبا، فكان المشتغلون بالسياسة من أبناء العرب على ثلاثة آراء: بعضهم يرى السعي في أوروبا لاستقلال البلاد العربية كأصحاب جريدة النهضة العربية في باريس، ولم يكن لهم تأثير لعدم انضمام أحد من المسلمين إليهم ولاتهمهم بأنهم يريدون الاستفادة من السلطان عبد الحميد بالإيهام الذي كان يروج في سوق سياسته أو وسواسه.

وبعضهم رأى أنه يجب اتحاد المسلمين مع اليهود والنصارى على العمل ووضع له قانوناً جعل فيه من الامتياز لليهود ما كان ضامناً به أن يبذلوا للمشروع الملايين من أموالهم ليعطى بعضها لعبد الحميد ورجاله ثمناً للبلاد التي يُراد استقلالها، وكان يعتقد أن إرضاء «يلدز» بالمال ميسر أو مضمون. وقد أطلعني صاحب هذا المشروع أنا وبعض أصدقائي على

قانونه فلم نوافقه على السعي له مع علمنا بما لليهود من اليد العاملة في كل انقلاب كبير في التاريخ ويؤيده ما حصل أخيراً من الانقلابات.

والرأي الثالث هو ما عليه جمهور المشتغلين بالسياسة، وهو أنه يجب الاتحاد الدائم بين العرب والترك والمحافظة على كيان الدولة العلية بالسعي في إصلاحها وجعلها دولة دستورية، ولأجله أسسنا جمعية الشورى العثمانية من جميع العناصر كما أشرنا إلى ذلك من قبل. فهذا ملخص تاريخ هذه المسألة قبل الانقلاب الأخير فإذا جرى بعده؟

#### (٤)

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٣].

قد انشقَّ ليل الاستبداد عن صبح الدستور والعثمانيون الذين في بلادهم نيام يغطون: بعضهم يرى أحلاماً مخيفة، وبعضهم يرى أحلاماً سخيفة، والذين في بلاد الحرية قيام يرقبون: بعضهم يتعلل بالآمال القوية، وبعضهم يلهو بالأمانى الضعيفة، فاستيقظ بصوت مؤذنه النائمون، وحمد غب سُرَّاهم المجدُّون، وعادوا الرجاء نفوس اليائسين، وغادر العداء قلوب المتدابرين، وأقبل المسلم بوجهه على النصراني، والتركي على الأرمني، وعانق الشيوخ القسوس، وصافحت الشعوب الشعوب، وأذن مؤذن بينهم (عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام).

هكذا كان العثمانيون في نشوة من السرور العام، الذي كاد يكون من أضغاث الأحلام، أو من خوارق العادات، بعد انقضاء زمن المعجزات، لتأليف الدستور بين الشعوب الكثيرة المختلفة في الأديان والمذاهب والمشارب والعادات واللغات والبقاع والتربية والتعليم، وهي ضروب من

الاختلاف لم تعهد في أمة ولا مملكة، وبعضها كافٍ لاستمرار الاختلاف والافتراق، ومنع الاتحاد والاتفاق، وإنهم لكذلك وإذا نبأ من بعض الترك بمصر، ونبأت من كتابهم بالآستانة، قد أجفلت الوادعين الساكنين، وروعت الأمنين المستبشرين.

كتب أحد شبان الترك المقيمين في القطر المصري مقالات في جريدة الأهرام يفاخر فيها العرب بقومه وجنسه معبراً عنهم بالملّة المالكة، متبجحاً بزعمه أنهم هم وحدهم الذين أزالوا الحكومة الاستبدادية، وأدالوا منها الدستور والحرية، وأنهم هم وحدهم الذين لهم الحق بالتمتع بثمرات الدستور الكاملة، وليس للعرب ولا لغيرهم من الأجناس أن يطمعوا في مساواتهم في مناصب الدولة وأعمالها لأن ولاياتهم مستعمرات أو مستملكات للترك! فيجب أن يكون قصارى حظ العرب من الدستور أن يستريحوا من أعباء الظلم ويتذوقوا طعم العدل فيكونوا من الترك كأهل الجزائر من فرنسا أو أهل الهند من إنكلترا!

هذه المعاني العالية كانت تُصخّ مسامع العرب أحياناً في عصر الاستبداد، وقلما كانت تُكتب ولا سيما في مثل مصر التي هي أرقى من جميع الولايات التركية علماً وعملاً وثروة وحرية، وفيها الأقلام المرفهة، والألسنة الذلقة، والقلوب الجريئة، نعم كانت كُتبت منذ بضع سنين في جريدة ترك التي كانت تصدر في القاهرة محررة بأقلام نفرٍ من أذكىء الترك كعلي كمال بك وجلال الدين بك عارف. أسرفت تلك الجريدة في الفخر بجنس الترك معبرة عنهم بالملّة المالكة وحقّرت العرب في سياق الكلام عن مراکش، ونصبت الميزان للترجيح بين الترك والعرب والخلافة العربية، فجعلت العرب كلهم بمنزلة قبائل المغرب الأقصى وفاخرتهم بالترك في مدارسهم ودواوينهم وقصورهم وجيوشهم، وملأت مواضعها بالفخر والتبجح، ناسية ما يُكتب فيها وفي غيرها من الجرائد العثمانية في البلاد الحرة في وصف مظالم خليفاتهم عبد الحميد خان وإفساده للمملكة وتخريبه

للولايات التركية والعربية والكردية والألبانية والرومية، ومنعه للعلم وعيشه حتى في الجيش وفرار كتاب جريدة الترك وغيرهم من ظلمه إلى مصر العربية. ولا أقول إن كاتب تلك التبجحات الغثة الباردة نسيَ عدل الخلفاء الراشدين وعلوم العباسيين في الشرق والأمويين في الغرب، بل أقول إنه عميَ عن البلاد التي أوى إليها والمدينة التي يطبع جريدته فيها وهو يرى العرب فيها أرقى من قومه علماً وثروة ومدنية. ولكنني ذكّرتُ تلك الجريدة يومئذ بخطأها في تحريك العصبية الجنسية التي أماتها الإسلام، وبوجوب اتحاد العرب والترك وضرر تفرقهم باختلاف الجنس؛ وبأن العرب إذا فاخروا أي جنس بجنسهم فإنهم يفخرونه ويبدونه.

هُمُ الأولى إن قاخروا قال العُلا      بفِيّ امرىء فأخركم عَفْرُ الثرى  
هُمُ الأولى جوهرهم إذا اعتَرُوا      من جوهر منه النبي المصطفى

وإنما كتبتُ ذلك الردَّ في المنار على جريدة ترك، لئلا يُغريها السكوت عنها بالتمادي في ذلك التبجح الذي يولد الأضغان ويؤرث الأحقاد وينفر المصريين وغيرهم من الدولة العلية، ويفتح في المسلمين باب الشقاق باختلاف الجنسية، ولكن كُتِّبَ تلك الجريدة صاحوا بعد ردِّي صيحة أخرى ثم خفت صوتهم لأنني لم أشأ أن تستمر المناظرة في ذلك. ثم قام أحدهم جلال الدين بك عارف يوم احتفالنا بإعلان الدستور خطيباً فقال: «إننا اليوم قد تنازلنا عن كلمة ترك وهي محبوبة لنا فكلنا عثمانيون لا فرق عندنا بين الترك والعرب والروم والأرمن وغيرهم»، فصفقت الجماهير المختلفة لقوله هذا تصفيقاً وكذلك قال غيره من سائر الخطباء العثمانيين ونادى لسان الحال والمقال «الدستور يجبُ ما قبله» كما ورد في الحديث الشريف «الإسلام يجبُ ما قبله».

فلما انبرى ذلك الكاتب التركي بعد ذلك لكتابة ما ذكرنا تذكر الناس ما كان كتب من قبل وما كان يقال، وأقبل العثمانيون بعضهم على بعض يتساءلون: قال أكثر من واحد منهم إن القوم لا يتركون ما يألِفون وإنهم

سيستبدون مجتمعين كما استبدَّ آحادهم، كعبد الحميد، منفردين، وربما كان استبداد الجماعة أشدَّ وأبقى من استبداد الواحد. وقال الأكثرون: إن هذا إلّا شاب مغرور لا يزال جذعاً في السياسة، وإن القرّح والبزل من ساسة الترك المحنّكين لا يقولون بقوله، ولا يدينون برأيه، ولكن لم يلبثوا أن سمعوا تلك النباءات الأخرى من جرائد العاصمة (الآستانة) ورأوا أعمالاً من الحكومة الجديدة استدلوها بها على التحامل على العرب وهضم حق العربية، فنفرت القلوب وساءت الظنون.

قامت بعض جرائد الآستانة تضرب على نغمة التغاير بين الترك والعرب وتلغظ بتلك الكلمات المنفردة «ملة مالكة، مستملكات، استقلال العرب، الخلافة العربية، بغض العرب للترك، فضل الترك على العرب، عجز العرب عن تدوين لغتهم، ونشر الإسلام خارج جزيرتهم، - إلى غير ذلك من الكلم الدالّ على الجهل بالتاريخ أو تعمد العبث به فيما يضر ولا ينفع. وكان من أشهر هذه المباحث التي حركت التغاير، وأحدثت التنافر، ما نشر في جريدة اقدم من اقتراح تنقية اللغة التركية من الألفاظ العربية، وما أودعه بعض الكتاب في مقالات نشرت فيها عن السنوسية، ومنها طعن بعض الجرائد في المصريين وفي الدمشقيين خاصة، وأهل هذين المصرين هم أعظم العرب حضارة وأوسعهم مدنية وفيهما السراة والأباة والعلماء والكتّاب.

رُبَّ قول يصدر عن حسن نية ويكون جديراً بأن يُحترم وإن كان خطأ يحدث من الأثر السيئ ما لم يكن يُراد به، ويتفاقم ذلك بمقتضى الحال وطبيعة الزمان، وطريقة الأداء والتعبير، وكذلك كان حظ اقتراح صاحب اقدم بدعواه في تنقية التركية من الألفاظ العربية. يقول هو إن هذا بحث فني محض وإن الغرض منه الاستغناء عن الألفاظ العربية التي توجد في التركية ما يقوم مقامها، ولكن لماذا طلب هذا المصلح اللغوي تطهير لغته من العربية دون الفارسية والفرنسية؟ ونقول إن هذه فلسفة مبتسرة كان

يجب عدم الخوض فيها الآن وإن الكلام عندما يُنقل من لغة إلى أخرى ويتحدث به الخاص والعام يعرض له التحريف والتبديل ويُفسر بحسب الحال الغالبة، فقد شاع في بلاد سورية ومصر وغيرهما من البلاد أن بعض كتاب الترك يدعون قومهم إلى الابتعاد عن العرب حتى في ترك الألفاظ العربية المستعملة في لغتهم، وأنهم يُعبرون عن ذلك بلفظ التطهير كأنهم يرون اللغة العربية نجسة قد تدنست بها التركية!! وانتقل بعض الناس من الملزوم إلى اللازم فقالوا إن هذا الكلام يُعدُّ طعنًا في كتاب الله عز وجل وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن هذه الدعوى قد تكون مقدمة لدعوة أخرى تترتب عليها إذا أُجيب وعُمل بها، وهي الدعوة إلى الارتداد عن دين الإسلام لأن أصله وأساسه من الكتاب العزيز والسنة السنية، وإغماهما باللغة العربية، والرسول الذي جاء به عربي، صلى الله عليه وسلم.

إلى هذا الحد البعيد وصل سوء تأثير ذلك الاقتراح الفني لنشره في هذا الوقت النحيف (أو النازك كما تقول الترك) الذي يجرحه مرّ النسيم، ويُدميه لمس الحرير، وقد ردّت بعض الجرائد العربية على هذا الرأي فعرّفه الناس وعدوه ذنباً للترك، ولم يعلم السواد الأعظم منهم أن من كتاب الترك أنفسهم من ردّ على مقترحه بأوسع مما ردّ به كتاب العرب.

وقد سُمِع أيضاً من جريدة طنين كلام في غمض العرب لم يكن كطينين الذباب فيناسب اسم الجريدة، بل كان كدويّ المدافع وقصف الرعود لاشتهار هذه الجريدة بأنها لسان جمعية الاتحاد والترقي ومظهر سياستها، ومكان الجمعية من سياسة الدولة معروف ولا سيّما في أوائل العهد بالانقلاب. فهذا من الأسباب القولية في سوء التفاهم والتنافر بين الترك والعرب الذي نجم قرنه بعد الدستور فزلزل الآمال الجميلة وأساء تعبير الأحلام اللذيذة، وقد سُمِع شيء منها من بعض رجال الحكومة الدستورية كطعن سليمان بك نظيف والي البصرة في الحزب الوطني المصري وهو في

مصر أثناء مروره بها في سفره إلى البصرة، وقد اشتهر هذا لردّ جريدة اللواء عليه ولكنه قال قولاً آخر شراً منه وأسوأ تأويلاً: قال في سياق الكلام على الفتن التي تحدث في جزيرة العرب ما مآله: إن الدولة مستعدة لسحق أولئك العرب بالقوة القاهرة فإن عندها سبعة فيالق من الأبطال! فهل يصح أن يُقال مثل هذا القول بمصر أو بغير مصر؟ وهل تُدرّب الدولة الجند من أبناء الأمة لأجل سحقها وتدميرها؟ أم لأجل حمايتها وتعزيزها؟ أما كان ينبغي له أن يقول إن أولئك العربان وغيرهم كانوا مرهقين بالظلم وسوء الإدارة، وسنريهم العدل والنظام فنجعلهم بذلك يتفانون في حب الدولة واطاعة الحكومة؟

ومن أسباب سوء التفاهم أن كثيراً من أحرار العرب الذين جاهدوا في سبيل الدستور حق الجهاد، ومنهم من هو معروف الاسم أو الشخص عند أكثر أحرار الترك، وكثيراً من الفضلاء والكتّاب الذين أظهروا الاحتفال بالدستور بخطبهم ومقالاتهم جاؤوا الآستانة زائرين ومختبرين، وأكثرهم كانوا ممنوعين منها ومحرومين، فلم يعبأ بهم أحرار الترك ولا رأوا منهم عواطف الإخاء كما رأى الأرمن مثلاً!

وأما الأسباب المتعلقة بحكومة العاصمة فمنها إسرافها في عزل أبناء العرب من وظائفهم، حتى أنها عزلت في وقت قصير زهاء بضعة عشر متصرفاً منهم، ومنها بُخلها بالوظائف على طلابها منهم وجودها بها على غيرهم من العناصر الأخرى، ومنها تعجلها بأمور تُشعر بتعمّد إضعاف اللغة العربية، كجعل المرافعات في محاكم الولايات العربية باللغة التركية، مع علمها بأن الناس يجهلون في الغالب حتى وكلاء الدعاوي (المحاميين)، وكجعل الكشف (البياننامة) التي يقدمها التجار من أبناء العرب في بلادهم إلى إدارة المكس (الجمرك) باللغة التركية أو الفرنسية مع تعسر ذلك أو تعذره عليهم واقتضائه نفقات كانوا في غنى عن بذلها، وكعدم قبول عرائض الشكوى بالعربية حتى في مجلس الأمة مع أن المشتكين من

الأمة، وهي ذات لغات متعددة للعربية منها مكانة خاصة من حيث هي لغة الدين الرسمي الذي يكفله مقام الخلافة كما سنبين ذلك بعد.

ومنها ما يتعلق بنظارة المعارف، خاصة كإلغاء الدروس العربية من المكتب الملكي في العام الماضي، ولكنهم أعادوها في هذا العام، وكجعل العربية في المدارس الإعدادية اختيارية كاللغة الأرمنية واللغة الرومية وعدد دروسها كعدد دروسهما مع كون العربية أصلاً من أصول اللغة الرسمية يحتاج إليها في إتقانها أكثر مما يحتاج إلى اللغة اللاتينية لإتقان الفرنسية، وكونها ينطق بها أكثر العناصر العثمانية عدداً وأقلهم لها معرفة، وكونها لغة الدين الإسلامي الذي هو الدين الرسمي للدولة، وإرسال النظارة خمسة وسبعين تلميذاً من مكاتبها إلى أوروبا لتحصيل العلوم العالية ليس فيهم غير اثنين من أبناء العرب، وإرسالها معلمين من الترك إلى مدارس البلاد العربية لأجل تعليم العربية نفسها وهم يجهلون، وكتعصب بعض المعلمين في المكاتب العالية على أبناء العرب وإسماعهم ما يجرح عواطفهم حتى في الدروس.

ومنها ما يتعلق بنظارة الحربية كاستحضارها الضباط ولا سيما أركان الحرب منهم من الولايات العربية إلى سلاطنتها والآستانة ثم تفريقهم في البلاد التركية، وإخراجها بعض التلاميذ العرب من المكتب الحربي حتى بصورة إدارية كما أشيع في مصر وغيرها. ولعل الشبهة أو الشبه المتعلقة بنظارة الحربية أضعف من الشبهة المتعلقة بغيرها، ولا أرى شيطان التفريق بين العنصرين يقبل وسواسه فيها، فالحربية في دولتنا هي أرقى ما فيها، فنسأل الله تعالى لها ولسائر النظارات أكمل التوفيق وأتم النظام.

ومنها ما يتعلق بمجلس الأعيان فقد كان ينتظر أن يكون فيه أعضاء من العرب ولو بعدد ولايتهم إن لم نقل بحسب عدد نفوسهم ولكن ذلك لم يكن.



ومنها ما يتعلق بمجلس المبعوثين وهو المظهر الأكمل للمساواة والإخاء، ولكن أخباره في السنة الماضية لم تكن تدلُّ على ما نحب من توثيق الرابطة بين العرب والترك كسائر العناصر بل وجد العرب أموراً متقدمة، ووجوهاً متجهمه، وسمعوا من بعض إخوانهم كلاماً لا نحب أن يُكتب ويُطبع، ونرجو أن يكون هذا العام خيراً من سابقه وأن يكون مجلسنا وسائر أمورنا العامة في ارتقاء دائم بالإخاء الصحيح والمساواة مع الإخلاص بسعي الفضلاء محبي الوفاق من العنصرين وسائر العناصر.

تلك كليات من أسباب ما سَمَّيناه سوء التفاهم بين الترك والعرب؛ وفي ضمن تلك الكليات جزئيات كثيرة.

لا أقول إن كل ما رُوي من ذلك صحيح المتن والسند، ولا أقول إن ما صح منها كان بسوء النية وتعمُّد هضم حقوق العرب، ولكنني لا أستطيع أن أنكر قول من يقول إنها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدالُّ على أنه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم، وأنه تتوقف عليه حياة الدولة العثمانية وبقاؤها، وأن هذا الاتحاد تقتضيه طبيعة العنصرين الاجتماعية، وأن دار الخلافة والسلطنة هي الآلة التي يكون بها التركيب والتحليل، وأن الكيماويين الاجتماعيين الذين يحركون هذه الآلة هم رجال الحكومة ورجال الصحافة، وأنه يجب في هذا الدور، دور الانقلاب والتحول من الاستبداد إلى الدستور، أن يؤخذ على أيدي المحللين بسوء القصد أو بسوء الفهم حتى لا ينقل عن العاصمة إلّا ما يدل على إرادة المزج والتركيب والاعتصام والتأليف. ولكن وجود هؤلاء الجاهلين بهذه الحقائق والمسيئين إلى العرب بأقوالهم وأفعالهم لا يُنافي كون العنصر التركي أخصاً للعنصر العربي ومحباً له كما يحبه هو، ولذلك قلنا فيما سبق من بُذ مقالنا هذا إن التغيرات والتناظر محصور بين المتزاحمين على أعمال الدولة ومناصبها وبين رجال الصحافة وحملّة الأقلام، وسأبين طريقة

تداركه مع حفظ حرية الصحافة وتنفيذ قوانين الحكومة ولو بترجيح الترك  
في المناصب ترجيحاً مقروناً بالحكمة والدوق.

إن ما أشرت إليه من أسباب سوء التفاهم قد سرى في أكثر البلاد  
العربية ولا سيما أرقاها وهي المصرية والسورية بسرعة الكهرباء، وكثُر  
حديث الناس فيه وخاضت فيه الجرائد ولها العذر وتبارت فيه أقلام  
الكتّاب والشعراء، فيجب تداركه قبل أن يعم نشره فيصِلَ إلى سائر البلاد  
والبوادي، وقبل أن تضعف حجة أمثالنا من محبي الوفاق والساعين في  
الاتحاد الذين اجتهدوا ولا يزالون يجتهدون في الاعتذار عن الحكومة، وما  
كل عذر يُقبل ولا سبيل إلى إيصال الأعذار إلى الملايين.

إذا قلنا إن الحكومة عزلت الجَمَّ الغفير من عمالها العرب لأنها تظن أنهم  
من صنائع أبي الهدى [الصيادي] وعزت العابد، يقال لنا ولماذا لم تعزل  
جميع رجال الدور السابق وهم صنائع عبد الحميد وبقية رجاله من الترك،  
وقد ثبت بالعيان والبرهان إنهم خربوا المملكة لأن العمل كان في أيديهم؟  
وكم سألنا وسأل غيرنا من الناس: ماذا بُتَّ على أبي الهدى وعزت العابد  
من الخيانات والأعمال المخربة للدولة؟ أما أنا فلا أعرف لهما ذنباً خاصاً  
وراء ثقة عبد الحميد بهما وما نالا بها من مال وجاه، إلا أن الأول آذاني  
وآذى أهل بيتي بسعيه أو سعائته، والثاني إذا كان لم يوافق على ذلك فإنه لم  
يعارض فيه، فأنا على عدم حمدي لأحد منهما وعدم دفاعي عنهما لا أرى  
من العدل عزل كل من نال عملاً في الحكومة بجاههما، وأعلم أن كثيراً  
من عُزِلَ من العرب لم يكن له صلة بأحد منهما، وأن بعض المنتمين إليهما  
لا يزالون في أعمالهم. وإنما أعذر الحكومة بعض العذر بأن إكثارها من  
عزل العرب وغيرهم كان من بعض الاضطراب، الذي جاءت به طبيعة  
الانقلاب، وقد آن أن أُبين شيئاً من ضرر التنافر، وطريقة إزالة سوء  
التفاهم، وقطع عروق التقاطع والتدابير، وهو موضوع النبذتين التاليتين.

ما كاد ليل الاستبداد ينجلي بصبح الدستور، وتنقضي أيام الاحتفال بعيدة في فرح وسرور، إلّا وبادر كاتب هذا المقال إلى زيارة القطر السوري زائراً ومختبراً للبلاد التي نشأ فيها وحجبه الظلم الحميدي عنها إحدى عشرة سنة، فطفت المعاهد، وبلورت الأفكار والسرائر، فما رأيت فيما رأيت للنزعة الجنسية العربية حركة، ولا سمعت فيما سمعت لها دعوة، أللهم إلّا نثيماً لداعية الجمعية العربية العثمانية، منعكساً عن الآستانة العلية، لم يفهم منه معنى التفرقة، ولم تشد من الجمهور فيه الرغبة، وكنت مع هذا أنفّر الناس عن هذه الجمعية، وأتشاءم من تسميتها بالعربية، لثلاً يفهم منها إخواننا الترك معنى العصية الجنسية، بل أقول، طالباً السماح والعفو من مؤسسيها، أنني لم أكن أحسن الظن فيهم، ولا أبرئهم من الأغراض الشخصية - دون الجنسية - في عملهم.

وكنْتُ أقول في خطبي ودروسي في البلاد إنه يجب على كل بلد أو ولاية عثمانية أن تُعنى بترقية نفسها بالعلم والثروة، لتكون عضواً قوياً عاملاً في بنية الأمة، ومدداً عظيماً لتعزيز الدولة، لأجل انفراد أهلها بأنفسهم، أو اعتصامهم بأبناء جنسهم، أي الجنسية اللغوية لا السياسية، فإن الأمم المستقلة في أحكامها المختلفة في لغاتها ومذاهبها ومواقعها، يتحد بعضها ببعض ليقوى الجميع بالمخالفة، فكيف تضعف الشعوب العثمانية نفسها، وهي أمة واحدة، بالتفرق والمخالفة؟ نعم، إن على العرب أن يحبوا لغتهم، وأن يطالبوا الدولة بمساعدتهم، لأن لغتهم في الدرجة العليا من الارتقاء، ولها في العلوم والآداب أفضل تراث، وهي لغة الإسلام، التي يتدارسها المسلمون من جميع الشعوب والأقوام، فهي رابطة الإخاء والمودة المعنوية، بين الملايين المذعنين للديانة والخلافة الإسلامية، فترقية هذه اللغة خدمة للدولة العلية وترقية لها. فكنت أرى الجماهير يتقبلون كلامي

بقبول حسن، وما كنت أرى أحداً يعارضني بتوهم الفصل بين الترك والعرب.

هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي وكانت قد نجمت قرون الخلاف، ولكن لم يشعر بها الجمهور، فلما كثرت وكبرت كما بينا في النبذة الرابعة تنكر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية، حتى في أمريكا، وتبارت فيها قرائح الشعراء وتجاوبت فيها الأصوات، حتى عمّت البلاد والجهات، فاهتزّت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً، وصبغها بعضهم بصبغة الدين فكان تأثيرها عظيماً، ومن المعاني التي نظمها الشعراء وخطب بها الخطباء ونُشرت في الجرائد المصرية: إن الترك جاروا على لغة القرآن وعدّوها من النجاسات!! فانفطرت القلوب، وفاضت العيون، وضجّ البيت والحرم، وكاد الركن يتحطم، وشكا القبر المعظم، وغضب الربُّ عزَّ وجل، فهل تظن حكومتنا العليا، وأصحاب الجرائد التركية في عاصمتنا، أن هذه الغارة الشعواء هي أمرها، خفيف وزرها، مأمونة عواقبها، إذا أُلقيَ حبلها على غاربها؟ كلا، إن من عرف حقيقتها، وتفكّر في عواقبها، يعلم أن الأمر إدّ، والخطب جدّ، وإنه يجب أخذه برُبّانه، وتداركه في إبانته، قبل أن يستقر في نفوس العامة، وتقتنع به الحاضرة والبادية.

إن لهذا العاجز على ضعفه صوتاً مسموعاً في البلاد العربية، وفي غيرها من البلاد الإسلامية، وقد دافع بقدر طاقته، عن الدستور والقائمين به، حتى أزال كثيراً من شبهات المشتبهين، ومكّن الثقة في نفوس الجماهير من المتزلزلين، وهو على ذلك وعلى حرصه على الاتحاد والاعتصام بين جميع العناصر العثمانية لم يستطع أن يقف في مجرى التيار الذي حركته تلك الأقوال والأفعال التي أشرنا إليها في نفوس العرب، كما وقف في مجرى التيار الذي حركه خلع عبد الحميد في بلاد الهند وفي غيرها من البلاد، بل رأيت أن هذا التيار قد تدفق من «الدرديل» فلا بد من السعي إلى قطعه

من هناك؛ فكان أحد باعثين بَعَثاني على ترك عملي بمصر في مثل هذا الوقت، وتيممي عاصمة الملك كما سبق القول، (وأما الباعث الآخر فسأبيّنه في مقال آخر أنشره في بعض الصحف التركية إن شاء الله تعالى).

أحمد الله أن كانت هذه الحركة محصورة في دائرة الغيرة على اللغة العربية والمزاحمة في الوظائف والمناصب، وصفوف المدارس والمكاتب، وأنها لم تتعد إلى مقام الخلافة، ولا إلى أساس الحكم والسلطة، ولم يجر على لسان منتقد ولا خطيب ولا من قلم كاتب ولا شاعر دعوة إلى الانفصال من الترك، أو الاستقلال في الحكم، ولهذا كان التدارك سهلاً، وحسن التفاهم ميسوراً.

ما رأيت خطأ بعيداً عن السياسة المثلى خارجاً عن قواعد علم الاجتماع، مثل خطأ رجال السياسة في الأستانة الذين يغطون في الجرائد بذكر «استقلال العرب والدولة العربية والخلافة العربية» يتهمون العرب بطلب ذلك ويعدّونه جهلاً منهم، لأنه محال لتوقفه على المحال، وهو اتفاق زعماء جزيرة العرب وشرفائها من جهة، وعلى مساعدة أوروبا من جهة أخرى، وما كان خطأ الحكومة في الإصغاء إلى الواشي والتحقيق في مسألة الشام في هذا العام إلا كخطأ الجرائد أو أشد.

ذلك بأن هذه الأقوال والأعمال هي التي تشغل الأفكار بما كانت خالية منه، ويخشى أن توجه النفوس إلى ما كانت غافلة عنه، وتعدّها لما لم تكن مستعدة له، ألم تر أن علماء التربية يُجرّمون ذكر الألفاظ التي تدل على الرذائل وتثير كوامن الشهوات لئلا يدعوا التفكّر فيها إلى الإقدام عليها، حتى أن بعض الأوروبيين حذفوا من معاجم اللغة ولا سيما التي يراجع فيها التلاميذ مثل لفظ الخيانة والسرقة، كما أجمعوا على حذف ألفاظ الرّفث، وعلى هذه القاعدة جرى عبد الحميد في منع الجرائد من كثير من الألفاظ التي توجه النفوس إلى ما يراه مخالفاً لسياسته، ولا نُجيز للحكومة الدستورية أن تحذو حذوه ولكن يجب عليها أن لا تكون هي المثيرة لتلك

الأفكار الضارة، كما يجب مثل ذلك على الجرائد من غير أن يمنعها منه القانون. فهذا هو مدرك قولي في النبذة الأولى من هذا المقال، إنني لم أذكر مسألة اقتراح شيخ لحج على أمراء العرب في المنار ولا في غيره من الصحف «لاعتقادي أنه لا ضرر فيها وإنما الضرر في نشرها، وخوض العامة بذكرها، لما سألته بعد» وهذا بيانه :

إن عظمة الدولة العثمانية وعزتها وسائر ما يُرجى لها في مستقبلها الدستوري يتوقف على العنصر العربي ما لا يتوقف على عنصر آخر من العناصر التي نطلب اتحادها كلها حتى التركي منها، فإن البلاد العربية المحضة أوسع من البلاد التركية المحضة مساحة وأعز ثروة وأحسن موقعاً وأشرف بقعةً من حيث هي مهبط الوحي ومثابة الأمم الإسلامية والنصرانية تهوي إلى زيارتها من كل فج عميق. وأهلها أقدر على الزراعة والصناعة والتجارة فمن تجارهم في الصين والهند وجاوة وأستراليا وأمريكا من يملكون الملايين. وأما ذكاؤهم واستعدادهم للعلم فهو أشهر من أن يوصف. وأما القوة الحربية فيمكن للدولة أن تجند منهم مليوناً أو أكثر من أشجع خلق الله وأصبرهم على القتال، ناهيك بفرسان العرب وخيولهم إذا تدرّبوا على الفنون العسكرية الحديثة، وهل تكون الدولة بمأمن من مطامع أوروبا في العراق إذا أصلحت أرض الجزيرة (بين النهرين) إلّا بتجنيد أولئك الأسود الذين يهابهم الموت ولا يهابونه، ولا تحتاج الدولة إلى نفقة كبيرة في تجهيزهم عند الحاجة؟

إن قوام الدول وعظمتها في هذا العصر على مقدار ثروتها، وإنما ثروتها مستمدة من الأمة وإن أرجى عناصر الأمة العثمانية لثروتها هو العنصر العربي، وإن ما بين النهرين (دجلة والفرات) من بلاده هو أخصب البقاع تربة وأوفرها غلة حتى قال هيرودتس شيخ المؤرخين: «إنها كانت تؤتي غلاتها مضاعفة من مئة ضعف إلى مئتي ضعف». ثم كانت بعده هي ينبوع ثروة الدولة العباسية، ولا يكون اشتغالها وحفظها للدولة في هذا

العصر إلا بالعرب وإن شاركهم غيرهم في إصلاحها وثمرتها.

مركز الدولة في أوروبا محفوف بالمشاكل والقلاقل، مضطرب بالمطامع والفتن، ومركزها في الأناضول عرضة للفتن أيضاً فليس في ولاياتها أهدأ من الولايات العربية الحضرية كبيروت وفلسطين والشام وحلب، وأما ما كان يجري في الولايات التي تغلب عليها البداوة كاليمن، فسببه سوء الإدارة وفساد السياسة التي كانت عليها الدولة إلى آخر يوم من أيام الاستبداد. ولما تصلح الحكومة الدستورية من ذلك الفساد شيئاً بل لم تتق أسباب سوء التفاهم الذي نشر أسبابه في ظل الحرية بسرعة البرق، فعليها أن تدبر وتعلم علم اليقين أنه لم يجر إلى هذا اليوم شيء من السعي ولا من التدبير لانفصال العرب من الترك، ولم يملّ إلى ذلك أحد من المشتغلين بالسياسة العامة من العرب، وأنه لا يوجد سبب من الأسباب يوجههم إلى هذا إلا هضم إخوانهم في العاصمة لحقوقهم وأهمها التعالي عليهم بالجنسية التركية، والتقصير في حفظ لغتهم العربية.

\* \* \*

سوء التفاهم محصور الآن في هذين الأمرين: تعالي التركي على العربي بجنسه وإيثار نفسه عليه بأعمال الدولة ومكاتبها، والتقصير في نشر اللغة العربية. فأما الأول فإنني أعذر الترك فيه من جهة وأعذل المتعصبين منهم على غيرهم من جهة أخرى. اعذرهم من حيث أن المتعلمين منهم قد جروا على اتخاذ أعمال الحكومة معاشاً ومورداً للرزق، وهم قلما يُحسنون عملاً آخر كما جروا على حسابان ذلك حقاً خالصاً لهم من دون سائر العثمانيين الذين إذا نالوا منه شيئاً فإنما يكون من إيثار الترك لهم على أنفسهم درءاً لمفسدة أو جلباً لمصلحة، فإن كان الدستور قد ساوى بينهم وبين سائر العناصر في كل شيء فلا ننسى أن تطبيق الدستور على الأمة، يجب أن تراعى فيه الحكمة، ومنها أن يكون بالتدرج ولا سيما فيما يتعلق بتغيير العرف والمعاملات المتبعة والعادات المألوفة، ومن هذا الباب نلوم

الحكومة في بعض المعاملات المخالفة للعرف التي يمكن تطبيقها على القانون إذا أسرعت فيها قبل إعداد الأمة لها. فإذا نحن طالبنا الحكومة أن تجعل أعمال الحكومة مشتركة بين العناصر العثمانية على نسبة عدد كل عنصر منها نكون قد طلبنا الطفرة في التغيير وقطعنا على متعلمي الترك أوسع أبواب الرزق التي ألفوا الدخول فيها، وجعلناهم دون سائر الشعوب العثمانية بعد أن كانوا فوقها من هذه الجهة التي هي أشرف الجهات في نظرهم، فهل من الحكمة أن يكون أول حظهم من الدستور خسران أعظم شيء عندهم؟ كلا، إنني أرى جميع عقلاء العرب يفهمون هذا ويقدرونه قدره، وإنما ينكره ويتألم منه من هم مثل الترك في قصر همهم على خدمة الحكومة واتخاذ ذلك وسيلة للمعيشة، وهذه هي الجهة التي أعذل الحكومة على عدم مراعاتها، وأطالبها بأن تعدل في هؤلاء المنتظمين في سلوكها والمرشحين أنفسهم لذلك، وأن لا تُشعر أحداً منهم بأن جنسه علةٌ للتحامل عليه رفقاَ بهم وإقناعاً لهم ولغيرهم بأنها تنفذ الدستور بالعدل والمساواة بقدر الاستطاعة وتقادياً من سوء التفاهم في هذا الدور الخطر، دور التحول والانقلاب.

وليعلم الفريقان أن الحكومة الدستورية لا تكون مورداً واسعاً للرزق ولا ينبغي أن تطلب وظائفها لأجل المعيشة لأن المرتبات الكبيرة فيها قليلة جداً، وما عداها لا يكاد يصل إلى درجة الكفاف ولا سيما مع نفقات الأسفار في هذه المملكة البعيدة الأرجاء إذا بطلت الرشوة كما هو المنتظر من الإصلاح في عهد الدستور، وإنما كانت الحكومة باباً من أبواب الثروة أيام كان الحاكم مستبدّاً نهاباً مستبيحاً لجميع ما تصل إليه يده من أموال الأمة لا يخاف في ذلك دَرَكا ولا يخشى. وإنني لأشفقُ على إخواننا من الترك وأخشى أن يكونوا في عهد الدستور وراء الروم والأرمن المزاحمين لهم في عقر دارهم وفي عاصمة الملك إذا لم ينزعوا من أذهان نابتتهم فكرة الارتزاق من الحكومة. وقد كان المتعلمون من المصريين على رأي المتعلمين



من الترك في أيام الاستبداد المحض والظلم، وفي أوائل العهد بالحرية والعدل، ثم لما عمرت البلاد صرنا نرى بعض عمال الحكومة الذين يأخذون في كل شهر عدة ألوف من القروش راتباً معيناً لا يتخلف قبضه عن اليوم الأول من الشهر يستقيلون راغبين عن خدمة الحكومة إلى الأعمال الحرة التي هي أوفر كسباً وأوسع باباً لتحصيل الثروة، ونرى الذي يتقاضى من الحكومة في كل شهر ثمانية آلاف وعشرة آلاف قرش يُعدُّ فقيراً إذا لم يكن له مورد آخر من الزراعة مثلاً.

وأما التقصير في نشر اللغة العربية فلا أرى للحكومة فيه عذراً معقولاً فإن قيل إن اللغة التركية هي اللغة الرسمية فما عداها من اللغات تجب فيه المساواة. فإذا رجّحت الحكومة اللغة العربية على غيرها قام سائر العناصر يُطالبونها بمساواة لغتهم لها ويُعدّونها مقصرة معهم غير عادلة فيهم! فالجواب عنه يُعلم مما أشرنا إلى بعضه قبل من مزايا العربية وخصائصها التي يمكن للحكومة أن تحتجّ بها على أي عنصر يطلب مساواة لغته بها في المكاتب الرسمية ونزيده إيضاحاً بالتفصيل بخمسة أمور:

١ - إن العربية هي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهما أصل الدين الإسلامي الذي هو الدين الرسمي للمملكة الذي يجب على خليفة المسلمين أن ينشره ويحميه.

٢ - إن السواد الأعظم من أهل المملكة مسلمون يحتاجون إلى العربية في فهم دينهم وطاعة ربهم فيما حث عليه من تدبر القرآن وليس لهم جمعيات دينية تُنشئ لهم المدارس كالنصارى؛ فالحكومة الوارثة لهم هي المطالبة بتعليمهم.

٣ - إن الشريعة الإسلامية هي ينبوع الذي تستمد منه الأحكام التي يحكم بها في الأحوال الشخصية والمدنية وتطبق عليها القوانين ومعظم كتبها التي عليها الاعتماد في ذلك، والتي يرجع إليها عند المشكلات هي باللغة

العربية . فالدولة محتاجة في ذلك إلى تعليم هذه اللغة .

٤ - إن العنصر العثماني العربي هو أكبر العناصر وأبعدها عن معرفة اللغة الرسمية للدولة ولا يتيسر تعميم هذه اللغة فيهم إلا بعد اتساع مالية الدولة بعشرات من السنين . فإذا لم تعلّم الحكومة اللغة العربية لمن تعلّمهم في مكاتبها للوظائف كان نتيجة ذلك أن أكثر عمال الدولة في أوسع ولاياتها لا يعرفون لغة الأهالي فيتعذر عليهم إقامة العدل والنظام . ولا يقال إنهم يستعينون على ذلك بالترجمين لأنها لا تجد الذين يحسنون الترجمة في كل مكان وإن وجدتهم كانت في حاجة إلى نفقات كثيرة لهم لا تحتاج إلى أكثر منها لتعليم العربية . ولا مندوحة عن أحد هذين الأمرين إلا بإبقاء الحكومة كما كانت في شر أيام الاستبداد جمعيات نهب وسلب لا يهتمها إلا ملء الجيوب ، وأما الروم والأرمن وغيرهما من العناصر فاللغة الرسمية منتشرة بينهم لا تحتاج الحكومة إلى المترجمين إلا في القليل من بلادهم ؛ وما ذلك بالأمر الشاق ولا المتوقف على النفقات الكثيرة .

٥ - إن اللغة العربية أصل من أصول اللغة التركية الرسمية يقرب أن يكون ثلث مفرداتها أو نصفها مستمداً منها ولا سيما المفردات في علوم الطب والتشريح والنبات والحيوان ، فتعليم العربية في مكاتب الدولة يقوي تعليم اللغة الرسمية ويمدها . فالتركية أحوج إلى العربية من اللغة الفرنسية إلى اللغة اللاتينية وإننا نرى الإفرنج يُعلّمون اللغة اللاتينية التي لا يوجد عندهم شعب يتكلم بها لأنها من أصول لغاتهم . فإعراض الترك عن تعليم العربية على كونهم أحوج إليها من هذه الجهة وعلى ما لهم فيها من الفوائد الدينية والمدنية لا يظهر تعليله إلا بتعمد إضعاف العربية . وهذا شيء لا يرضى به جمهورهم وإن نزع إليه بعض المتفرنجين المتعصبين ، الذين ليس لهم رأي ولا دين .

## زبدة المقال وخاتمته

١ - إن الجواذب التي تجذب الترك إلى العرب والعرب إلى الترك وتمزج أحدهما بالآخر فيكونان عنصراً واحداً قوياً نافعاً كالماء والهواء في كونه علة للحياة والبقاء هي قوية جداً لأنها جامعة بين الأخوة الدينية والمصالح المدنية والسياسية التي لا قوام للدولة بدونها

٢ - إن الحوادث السابقة واللاحقة أعدت المشتغلين بالسياسة والبحث في الأمور العامة والمتزاحمين في المكاتب والمناصب إلى شيء من سوء الفهم والارتباب والظنة قواها في نفوس بعض الترك شبهات وأوهمتهم أن العرب يريدون الانفصال من الدولة العثمانية والاستقلال بأنفسهم، وقواها في نفوس بعض العرب أقوال منكرة قالها وكتبها بعض المشهورين من الترك وأعمال مستنكرة من الحكومة لا يصح أن تعدّ أصلاً راسخاً في الدولة لأنها حدثت في عهد الانقلاب والفتن التي اضطرت الدولة إلى الأحكام العرفية مع تبدل الوزارات وعدم انتظام الأحزاب في مجلس المبعوثين الذي يرجع إليه الأمر كله

٣ - إنه يمكن أن تنهض حجة قيّمة على التباغض بين الترك والعرب إذا وقع الشقاق بين المبعوثين في مسألة تعليم اللغة العربية أو مسألة المساواة بين العنصرين المحتممة في القانون الأساسي، ولكن هذا الشقاق ما وقع ولن يقع إن شاء الله تعالى. وقد حضرتُ مذاكرة بين فاضلين من المبعوثين أحدهما عربي والآخر تركي، فقال هذا إنني أحب العرب أكثر من الترك لأن الذي يحب إلى الترك هو النزعة الجنسية - الدنيوية وأما الذي يحب إلى العرب فهو ديني الذي عليه مدار سعادي الأبدية، أو ما هذا مؤداه.

٤ - إن الذين قد بدت البغضاء من أفواههم للعرب في معاهد السياسة

والحكومة ومكاتب التعليم على قلتهم ليسوا من العنصر التركي باليقين، وإنما أكثرهم أوشاب وأوزاع من عناصر شتى قد تتركوا وأسلموا من زمن بعيد أو قريب لأجل مناصب الدولة، فهم لا حظَّ لهم إلاَّ فيها فلا عجب إذا أبغضوا كل من يزاحمهم عليها.

٥ - يجب على العقلاء السعي في إزالة سوء التفاهم وسدَّ منافذه مهما كان سببه لئلا يتمكَّن في نفوس العامة فيتعدَّر نزعه وتسوء مغبَّته.

### ما به يكون التأليف بين العنصرين

يجب أن يتعاون على هذا التأليف الذي تتوقف عليه حياة الدولة كل من عقلاء الأمة وعقلاء الحكومة، ويجب أن تكون العاصمة هي البادئة بذلك صحافتها وحكومتها العليا.

فأما الصحافة فيجب عليها أن تترك الخوض في مسألة الجنسية النسبية واللغوية، إلى الجنسية السياسية المعبر عنها بالعثمانية، فتجعل هذه هجيرها بكرة وعشيا، وتجعل تلك نسياً منسياً، ولا تذكر لفظ الترك والغرب، ولا اسم غيرهما من العناصر الأخر، بكلمة تُشعر بالترجيح أو التفضيل، أو عصبية العنصر والقبيل، ولعمري إن أولئك الرجال الذين تبدلوا كلمة «العثمانية» بكلمة «تركية» فصاروا يقولون ويكتبون «لغة عثمانية ولايات عثمانية»، لهم أعلى في السياسة رأياً، وأصحُّ في علم الاجتماع حكماً، من هؤلاء الذين يقرعون الأسماع كل يوم بكلمة «تركلكر تركلكر»<sup>(١)</sup> متوهمين أنه يمكن تحويل العناصر العثمانية إلى التركية، أو أنهم يمكن أن يتحدوا بشعوب التتار الروسية وتركستان الصينية، ومن الذين يريدون إزالة الألفاظ العربية، من هذه اللغة الرسمية. قال كمال بك زعيم النهضة الحديثة: إننا اخترنا أحسن الكلم من أرقى اللغات الشرقية، وهي

---

(١) كتب بعضهم في هذه الأيام مقالة في جريدة صباح بهذا العنوان يحرك بها النعرة الجنسية.

العربية والفارسية والتركية، فألفنا منها لغتنا العثمانية، فهذه اللغة هي لغة العثمانيين المشتركة، ليس للترك حق الاختصاص بها والأثرة، كما أن العربية هي اللغة الإسلامية المشتركة بين العرب وبين الترك والفرس وأهل الهند والصين والملاو وغيرهم من المسلمين، فنحن العثمانيين لا نسمح لأحد أن يعيب بلغتنا العثمانية، ومن شاء أن يتعلم لغة تركستان فليتعلمها وهي غير لغتنا الرسمية، والأمة كلها تطالب مبعوثيها بصيانتها وحفظها لسهولة نشرها وكون أكثر كتبنا ودفاترنا بها.

ومما يجب التنبيه عليه في هذا المقام اتقاء عزو ذنب بعض الأفراد إلى الشعب أو العنصر على الإطلاق، فإذا رأينا بعض الترك أو العرب أو الأرمن، مثلاً، يُعيب عنصراً آخر أو يدعو إلى استقلال قومه فعلى الجرائد أن تنسب الذنب إليه لا إلى جميع قومه. وعلى هذه الطريقة جرينا في مقالنا هذا فقد برأنا العنصر التركي الإسلامي من بغض العرب والتحامل عليهم وحصرنا ذلك في فئة من الترك المشتركين في الغالب لا الخُلص.

كذلك يجب على الجرائد أن تتخوّل قراءها بالمقالات الداعية إلى اتحاد العناصر العثمانية مع بيان فوائدها للجميع. وإذا اهتدت جرائد الأستانة إلى هذا الصراط المستقيم تبعته الجرائد السورية والمصرية وكان تأثير ذلك عظيماً، وأحكم على العكس الطرد، وينبغي لأصحاب الجرائد التركية أن يُعنوا بالاطلاع على الجرائد العربية المنتشرة ويترجموا المهم من مقالاتها في سياسة الدولة العلية وإدارتها ويُعلّقون عليها ما يرون فيه المصلحة للتأليف، وكذلك المهم من أخبارها فمن العار على جرائد العاصمة أن لا يُذكر فيها شيء عن الولايات العربية، إلا ما يكون من صُبابة الشركات البرقية، أو الأخبار الرسمية، وكل من هذا وذاك رموز لا تعرف حقائق الأحوال، ولا تُبنى على مثلها الأحكام، ولو قامت هذه الجرائد بوظيفتها حق القيام لجعلت لها مراسلين في تلك الولايات فوق تتبع الجرائد العربية وترجمة أخبارها.

وأما ما يجب على الحكومة فأهونه وأقربه أن تنصف الواقفين على أبوابها من العرب طلاب الوظائف، وقليل ما هم، فتساوي بينهم وبين إخوانهم الكثيرين من الترك وترقي بعضهم من رتبة القائم مقام إلى رتبة المتصرف ومن هذه إلى رتبة الولاية، وأن تزيد أعضائهم في مجلس الأعيان. وأهمه وأعظمه ينحصر في أمور:

أحدها - قطع عروق العصبية الجنسية من مكاتب الحكومة واستئصال جذورها، فإنني أسمعُ كل يوم من أخبار هذه المكاتب ما يشعر بأن فيها كيمائيين معنويين يحللون عناصر الوحدة العثمانية ويُفَرِّقون بعضها من بعض، حتى بلغ ببعض المعلمين الجهل أو سوء القصد أن قال بعضهم في الدرس «إن العرب كانوا يجهلون علم الفلك وأن الترك هم الذين علّموهم ذلك وهم الذين بنوا لهم المراصد!» وقال بعضهم «إنهم كانوا يجهلون فن الإحصاء حتى علمهم الترك إياه في زمان المأمون!» وقال بعضهم «إنهم كانوا يجهلون الفلسفة وجُلُّ ما كُتِبَ بالعربية في الفلسفة فهو من الترك!!» فصار بعض الطلاب من العرب يترحمون على فيلسوفهم المعري [المتنبي] ويتناشدون لاميته المشهورة.

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل بل سمعت عن معلّمي بعض المكاتب ما هو شر من ذلك وأضر، وأدهى وأمرّ، فيجب على نظارة المعارف أن تختار لمكاتبها من المفتشين المنصفين المهذبين من يكشف لها الحقيقة في ذلك، وأن تُعنى أشد العناية بتطهير معاهد العلم من هذه الفلسفة التي لا أرى شيئاً أضر على الدولة منها.

إنه سهل تقرير كل حقيقة فيها فضيلة لفرد أو أفراد من عنصر من العناصر مع تحامي إهانة غيره لا سيما إذا كانت تلك العناصر قد وُحِّدت بينها جنسية أخرى أوسع من جنسية النسب واللغة، كما جمع الإسلام العرب والفرس والترك وغيرهم فجعلهم أمة واحدة. هل جهل أولئك

المعلمون المفرقون المحللون أنهم يجنون بتلك النزعات على دولتهم المؤلفة من عدة أجناس، أكبرها وأعظمها عنصرا العرب والترك، فإذا هما انحلا تنحل والعياذ بالله، ويجنون أيضاً على ملتهم الإسلامية، أم هم يرمون إلى ذلك؟ وكذلك يجب أن تنقِظ سائر النظارات لمثل ذلك فقلما يخلو شيء منها من أفراد متعصبين إلاّ باب المشيخة الإسلامية.

ثانيها - العناية بتعليم اللغة العربية في مكاتبها وفي المدارس الدينية في العاصمة وغيرها. فإن هذا يُرضي العرب عامة ويُسرُّ جميع المسلمين ولا يُضر الترك ولا يُضعف جنسيتهم، كما إنه لم يُضر الفرس ولم يُضعف جنسيتهم وهم أكثر عناية من الترك بهذه اللغة من حيث إنها لغة الدين وليسوا بمحتاجين إليها لأجل الإدارة والسياسة إذ ليس في مملكتهم ولايات عربية.

ألا إنّ من المحال في هذا العصر تحويل عنصر إلى عنصر أصغر منه أو أكبر فالحريرص على جنسيته النسبية أو اللغوية في هذه الأمة العثمانية يجب أن يكون أميناً مطمئناً عليها، والطامع من الترك في تحويل أضعف عنصر من العثمانيين إلى العنصر التركي وإدغامه فيه إنما هو طامع في المحال، والمتوسّل إلى مطعمه بتعظيم قومه وتحقير غيرهم، والتعصب لهم على سواهم، إنما يطلب الشيء من ضده أو من نقيضه، ولولا أن كلاً من أمتنا ودولتنا لا يقوى على مثل هذه التجارب الاجتماعية لما كنتُ شديد الخوف من هذه النزعة الجنسية فيها. فإن من يكون له ولد عزيز هو محل رجائه في إرث مجده وماله لا يسمح باختياره أن تجرب في جسمه الأدوية التي تجهل عاقبتها، بلّة الأدوية التي يترجح خطرها، وسوف يعلم المجربون أنهم هم الخاسرون، إذا ظلوا في طريقهم يهرعون، وأخشى أن لا يظهر خطأهم إلاّ حيث يعزّ تلافيه وتداركه.

ثالثها - العناية بنشر العلوم والمعارف وأسباب العمران في الولايات العربية، كغيرها من الولايات من غير أدنى فرق، يمكن أن يُفسّر بالتعصب

الجنسي، وأرى أن تُكثّر الدولة من المدارس الصناعية والزراعية وتكتفي من المدارس التي يتخرج فيها عمال الحكومة بقدر الحاجة.

رابعها - الإخلاص التام في تنفيذ القانون الأساسي. والقيام بهذا يجمع كل ما يُراد من إعطاء كل عنصر حقه. إن لم تفعل الحكومة هذا فإنها تُهيج عصبية جميع العناصر عليها حتى العرب الذين هم أشد ارتباطاً بالترك وإخلاصاً لهم ممن سواهم، وذلك هو البلاء المين.

قد استخف الدستور أهل البلاد العربية، فقاموا يُطرون الترك ويُحَثون الناس على تعظيم شأنهم والاتحاد بهم، وتهافتوا على جمعية الاتحاد والترقي في كل مكان، حتى أن أهل لبنان أخذوا يتحدثون بالسعي إلى إلغاء إمتيازهم بل كتب أدباؤهم كثيراً من المقالات في وجوب اتحادهم بسائر العثمانيين، ومشاركتهم في مجلس المبعوثين، على أن بعض الاتحاديين قد شوّهوا بعض تلك الاحتفالات بعيد الدستور، إذ نفثوا فيها بشيء من سموم التعصب كذلك الضابط الذي خطب في حلب خطبة حَقَر بها العرب تحقيراً، وشهّر بهم تشهيراً، ولكن أكثر الناس لم يفهمها حق الفهم، ولو ألقاها في بيروت أو الشام لكان ما لا خير فيه.

ظهرت أريحية العرب بسورية ومصر وغيرتهم في مقاطعة النمسا في تجارتها وفي الاحتفالات بالدستور، وقد أُلْفتنا بمصر لجنة لأجل جمع الإعانات الكبيرة للأسطول العثماني وضعت لذلك قانوناً ليكون جمع المال عاماً، ولكن تلك البناءات التعصبية التي سمعت من دار السلطنة أضعفت الهمم. فإذا طال العهد على هذا التنافر فإن خسارته المالية والمعنوية تكون أول بوادر شؤمه، ونعوذ بالله من أواخره.

ويسرني أن أبشّر العرب بأنني رأيت من كبراء العاصمة ارتياحاً إلى حسن التفاهم وإزالة أسباب التنافر ولا سيما من الصدر الأعظم حسين حلمي باشا والعلماء الأعلام، فأنصح لهم أن يكونوا عوناً لإخوانهم على



هذا الزمان، كما نصحت للآخرين «إن أُريد إلّا الإصلاح ما استطعت، وما توفّقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب».



٨٥

## العرب والترك

[حسن التفاهم بين عنصري قوام الدولة العثمانية]

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٢١٩ - ٢٢٥]

قد علم قراء المنار أن السعي في حسن التفاهم بين العرب والترك قد كان أحد القصدين الجليلين من رحلتنا إلى دار السلطنة في آخر الخريف، حيث يعود المصريون منها ومن سائر البلاد التي يصطافون فيها لقضاء فصل الشتاء بمصر التي لا يفضل شتاءها شتاء، وعلموا أيضاً أنه كان من السعي زيارتنا لصاحب جريدة إقدام ومعاتبته على ما كتب في شأن العرب، وعرض مقالات عليه في حسن التفاهم بين العنصرين اللذين هما قوام الدولة العثمانية، ووعده بنشرها، ولكن، أكثرهم لا يعلمون أن صاحب إقدام نشر ثلاثاً من تلك المقالات وامتنع عن نشر ثلاث: نشر المقدمات وامتنع عن نشر المقصد الذي فيه بيان أسباب سوء التفاهم وطرق تداركها وتلافيها، ومنها مسألة تنقيح اللغة التركية وحذف الألفاظ العربية منها، وما سمع عن جريدة إقدام من سوء التعبير فيها. قال في بيان سبب امتناعه عن نشر المقالة الرابعة: «إن هذه أمور مليّة تتعلق بنا «أي بالترك» فليس له حق في البحث فيها!

وقد استمر على نغماته الجنسية بقلمه وقلم أعوانه حتى نشر مقالة من مقالاته عن اليمن بإمضاء «خليل حامد» وهو إمضاء مستعار لأحد الضباط هنا، وقد جاء في هذه المقالة من الطعن في العرب أنهم، في زعم

الكاتب، بمقتضى طبيعتهم يبيعون بالمال كل شيء حتى أعراضهم! وقد قامت لهذه العبارة قيامة العرب الذين هنا، حتى أن بعض الشبان استفزتهم حمية الغيرة على العرض التي لا يُداني العرب فيها شعب من شعوب الأرض، فدفعتهم عند قراءة هذه العبارة والدم العربي يتبيغ في أجسامهم إلى إدارة جريدة إقدام وإهانة صاحبها وتحقيره على نشر هذه السفاهة، حتى قيل إنهم بصقوا في وجهه، ولا عجب، فصاحب الغيرة على العرض قد يقتل من يطعن في عرضه عندما يفاجئه ذلك والقوانين تعذر من تدفعه الحدة العارضة للدفاع عن عرضه إذا أطاعها من فوره، ولا يُعدُّ هذا الدفاع منكراً قبيحاً كسائر أنواع الإهانات إلا من لم يعرف للغيرة على العرض معنى.

نحن لا نقول إن الاعتداء أو الإفتئات على الحكومة في القصاص أمر حسن مشروع، وإنما نقول ويقول العقلاء كافة أن فرقاً عظيماً بين اعتداء مبتدأ لا يدفع له الطبع وبين مؤاخذه فورية لم توطن عليها النفس.

وكيف يستنكر من فتیان العرب مثل هذه الغيرة التي لا رأي لهم فيها ولا روية، وقد اضطربت لهذا الطعن أعصاب الكهول والشيوخ من المبعوثين كغيرهم. حتى أن بعضهم أصابه الصداق ولم يستطع في ذلك المساء تناول الطعام وذهب وفد منهم إلى الصدر الأعظم وكان في مجلس الوكلاء فأرسلوا إليه فخرج إليهم ووعدهم هو وناظر العدلية بتدارك الأمر وإحالة أحمد جودت بك مدير إقدام على ديوان الحرب العرفي لتعطيل جريدته ثم محاكمته في العدلية. وقد حكم الديوان بتعطيل جريدة إقدام إلى أجل غير مسمى ولكنه لم يلبث أن أصدرها وكتب فوق كلمة اسمها كلمة «يكي» أي جديدة أو الجديدة، وناهيك بهذا من عقوبة!! وحكم عليه أيضاً بمئة ليرة غرامة غرمها. وقد علم ديوان الحرب أن الناس صاروا يسخرون من تعطيل الجرائد لأن من عطلت جريدته صار يصدرها بإضافة لفظ «يكي» إليها، فقرر أنه لا يجوز لمن يحكم هو بإلغاء جريدته أن يصدر

جريدة ما إلّا بإذن منه ولكن هذا القرار لم يُنفذ على جريدة إقدام!  
وقد كتب أحمد بك جودت مدير إقدام عندما عُطّلت جريدته مقالة نشرها في جريدة طنين اعتذر فيها عن نفسه، ولكن كان عذراً أقبح من ذنب فإنه نفت فيها سموم التغاير والتدابّر بين العرب والترك بإيhamه القارئ لها أن العرب يتهمونه بأنه مندفع لعداوة العرب بجنسيته التركية ويرون أن الترك أعداء العرب، وانتقل من هذه الدسيسة إلى الامتنان على العرب بفضل الترك عليهم، وذكر من هذا الفضل ما يعلم هو أنه في غير محله، فالظاهر أنه يريد بذلك أن يقوم كتاب العرب للردّ عليه وإنكار ما قاله مخالفاً للتاريخ ليتسنى له ولأمثاله حينئذ أن يوسعوا الخرق، ويقولوا إن العرب يحتقرون الترك. ونحن لم نسمع أحداً من العرب يقول إن مدير إقدام يذمّ العرب بإغراء الترك أو رضاهم.

إدعى صاحب إقدام في مقالته هذه، أن جريدته هذه ليست جريدة عنصرية ولا ترجح الترك على غيرهم من العثمانيين، وأن جميع الأجناس يعترفون له بذلك. والمشهور خلاف ذلك، وأنه ما وجدت جريدة تركية أساءت إلى العرب أو أغضبتهم كما أغضبتهم جريدة إقدام، فهي أشهر الجرائد في التعصب الجنسي، ولأجل هذا التعصب لم تُنشر مقالاتنا التي طالبنا فيها بإنصاف العرب وحسن التفاهم بينهم وبين إخوانهم الترك؛ وإلّا فما هو عذره ولماذا أخلفنا وعده؟

قال بعد تلك المقدمة التي مدح بها نفسه وبرأها كما شاء «فالقول بأن التركية هي التي دفعت جريدة إقدام لكتابة تلك الفقرة هو اتهام للترك كلهم» فانظر إلى هذه النتيجة الخاطئة من تلك المقدمات الباطلة.

ثم قال «نعم، إن الترك فدوا في اليمن وغيرها مئات الألوف من أولادهم، فهذا الفداء ليس لأجل أن يفترقوا عن العرب بل بالعكس يقتضي محبة الاتحاد معهم! والتاريخ يشهد لنا بأن الذي خلّص جزيرة العرب من استعمار الأجانب لها في أيام الصليبيين، إنما هي دماء الترك

وذلك خدمة للإسلام، والعرب لا تنسى ذلك إلى يوم القيامة!

«ونقدر أن نقول بعبارة عامة أن الترك بذلوا أرواحهم في سبيل العرب! بناءً على ذلك، كيف يكون الترك خصماء للعرب وسالكن سبيل الحاكمية العنصرية؟ فهل هذه التهم هي مكافئة على الدماء التي أراقها الترك في سبيل العرب؟ وهل بعد هذا يكون القول بأن صاحب إقدام عدو للعرب موافقاً للمنطق؟» اهـ.

الترك أخوة العرب في الدين وفي تكوين هذه الدولة التي هي تراث الإسلام في الحكم والسلطان، فإذا قلنا إن صاحب إقدام جنى على التاريخ بزعمه أن الترك أنقذوا جزيرة العرب من الصليبيين لا نكون بإبطال الباطل ناكثين للقتل الذي جعلنا مع العرب أمة واحدة. وكل من يعرف التاريخ يعلم أن جزيرة العرب كانت طول الزمان في أمان من الإفرنج وأما ما أخذوه من سواحل سورية فقد أنقذه منهم المسلمون كافة لا الترك خاصة.

وإذا قلنا إن سوء سياسة الدولة في سفك دماء العرب في اليمن لا يُعدُّ مِنَّةً للترك على العرب لا نكون مُخْلِين بحقوق هذه الأخوة لا لأن الدماء التي سفكت هناك بأمر قواد الترك وحكامهم هي دماء العثمانيين من الترك والعرب والأرناؤوط والكرد بل لأن سفكها كان من جهل أولئك القواد بالسياسة وحسن الإدارة وقد خربت بلاد العرب ولم تعمر بلاد الترك على أن البلاد كلها مشتركة لأن الأمة واحدة.

كان من فضل الإسلام أن الترك بعد أن تشرفوا به لم يكونوا يعملون لأجل عنصرهم ولا لأجل عنصر العرب، وإنما يعملون لأجله كما أخذوا عن أساتذهم العرب، حتى قام أمثال صاحب إقدام من متفرنجي هذا العصر يصخون الأذان كل يوم بما يُثير العصبية الجنسية ويُضعف الرابطة الإسلامية وهم يجنون على دولتهم من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون، ويخشى أن يعلموا سائر العناصر العصبية الجنسية وقد ظهرت

بوادر ذلك وهو أكبر خطر على هذه الدولة، فنسأل الله تعالى أن ينقذها من شرور هؤلاء الأشرار بمنه وكرمه .

ثم إن صاحب إقدام أورد بعد بيان هذه المن التي في رقاب العرب للترك موازنة بين ما نشره عن ذهول، كما ادعى، من الطعن في أعراض العرب ماضيهم وحاضرهم وآتيهم وبين إهانة بعض طلاب العرب له في إدارة جريدته وزعمه أنهم أهانوا عند ذلك الأمة التركية كلها إهانة لم يسمع بأن ملة من الملل أهينت بمثلها ولم يقع من عنصر من العناصر العثمانية إهانة لعنصر آخر بمثل ذلك! وكبر هذه الدعوى وهول فيها ما شاء وأشار بالنقط هكذا. . . إلى أن ما طواه من ذلك وأغضى عنه هو فوق ما قاله تصريحاً وتلويحاً. ولو كان يجب الاتحاد والاتفاق بين العنصرين كما ادعى في هذه المقالة لما نشر خبر هذه الإهانة المزعومة بين الترك في جريدة هي أوسع من جريدته انتشاراً، لأن ذلك يوغر صدور من يصدقون هذه الدعوى من الترك فتفرج مسافة الخلف. فمقالته هذه شر من مقالة «خليل حامد» وأضر، وأدهى وأمر، ولا يظهر لنا علة لنشر هذه الدعوى والتهويل بها غير تعمد إلقاء الشقاق بين الأختين الشقيقتين: الترك والعرب. فإنه ادعى أنه يريد بذلك تربية المعتدين عليه يقال له كان يكفي في ذلك أن تذكر ما وقع للمحكمة العرفية أو العدلية من غير أن تنفث في جريدة طنين سموم التفرق والخلاف، وما أنت بالمقصر في الشكوى وتعقيب الدعوى.

ثم إنه بعد إثارة هذه الفتن، وإيقاد نار الشقاق والإحن، أخذ يسخر من العرب بطريقة أخرى غير الامتنان عليهم بمذابح اليمن وتخريبها في عصور الاستبداد التي نرجو أن يبدلنا الله تعالى بها عصر العمران والنور في ظل الدستور تلك الطريقة هي استدلاله على إخلاصه وحبه إرضاء العرب بدليلين هما من أغرب ضروب الاستدلال التي لم يبين مثلها في باب السفسطة من علم المنطق. أحدهما - إنه قال لناظر الداخلية عندما بلغه

خبر تعطيل جريدة «إقدام» إن عنده رخصة باسم «يكي إقدام» ولكنه لا يصدرها لأجل أن يرضى العرب وتطمئن نفوسهم لحسن نيته. قال: لأن تعطيل الجريدة لا يقصد به ورقة مخصوصة أو اسم مخصوص وإنما الغرض منه إبطال هذه الإدارة أو تخريبها وأنا أتحمل هذه الخسارة لأجل أن تطمئن قلوب العرب وترضى خواطرهم! وذكر أن ناظر الداخلية قد أعجب بهذه الأريحية وسرّ وشكر وأنه يظن أن سائر الوكلاء مثله في ذلك.

لو صدق في قوله لناظر الداخلية ولم يصدر جريدته باسم «يكي إقدام» لما شك أحد من العرب، في صدقه بما ذكر من السبب، وهو ابتغاء رضاهم واستمالتهم ولكنه قال هذا القول ولم يلبث أن خالفه وأصدر الجريدة فظهر أنه قال ذلك ليسخر من العرب وبنه الغافل منهم إلى أن حكم ديوان الحرب بإبطال جريدته لم يكن عقوبة ولا خسارة وإنما كان عبارة عن زيادة كلمة «يكي» في الجريدة!

وأما الدليل الثاني، فهو أنه كان عزم على إصدار جريدة عربية واستحضر أشهر شعراء العرب وأكبرهم من بغداد لأجل تحريرها وكلمه كلاماً حسناً ثم لم يصدرها. وهذا الدليل أغرب من الدليل الأول وإن كان يشابهه ويقابله في كون كل منهما عبارة عن وعدٍ وعَدَ به وأخلف وقول قاله ولم يصدق فيه. ويختلفان على تقدير الصدق في القولين والوفاء بالوعدين إذ لو وفى بالأول لكان دليلاً على حبه للترضية كما قال وإن لم يكن دليلاً على التأليف بين العنصرين. ولو وفى بالثاني لما كان مجرد الوفاء به دليلاً على حب العرب ولا على التأليف بينهم وبين إخوانهم الترك بل كان يجوز أن تكون جريدته العربية أشد تنفيراً للعرب من جريدته التركية فالعرب يعتقدون الآن بأن جريدته متعصبة هاضمة لحقوقهم مهينة لهم ويقل من يراها منهم أو يعلم بما ينشر فيها. فلو نشر جريدة عربية وقال فيها إنه يجب على الترك تطهير لسانهم من الألفاظ العربية، أو نشر فيها تلك المقالات عن السنوسية، أو مقالات «خليل حامد» أو غير ذلك مما ينشر أحياناً في

إقدام من العبارات التي ترمي إلى العصبية الجنسية، لما كانت إلاّ شرّ آلات التحليل لهذا الجسم الواحد الذي يحيا بروح واحد وإن كان مركباً من عنصرين يسمى أحدهما العرب والآخر الترك.

لما ظهرت في العام الماضي أسباب سوء التفاهم بين العرب والترك كان من أقواها ما ينشر في جريدة إقدام واشتهر ذلك في سورية ومصر. ولكنني على سماعي هذا من الكثيرين لم أكن أسوء الظن بصاحب «إقدام» ولذلك سعيت إليه وأحببت أن أنشر في جريدته ما أريد أن أكتبه من المقالات لإزالة سوء التفاهم وتأكيد الوفاق والاتحاد بين العنصرين، ولكنه أخلف فيما وعدني به من كل ما أكتبه كما تقدم فساء ظني فيه وأكد سوء الظن مقالته التي نشرها في طنين وما فيها من مواقف الفتنة التي أشرنا إليها.

كدنا ننجح في سعيانا ونزيل تلك الأسباب التي أحدثت سوء التفاهم بما كتبناه من المقالات هنا وفي المنار ومن المكتوبات الخاصة للأدباء والفضلاء في البلاد العربية فجاءت هذه الحادثة المشؤومة فأعادت المسألة جذعة وكان صاحب إقدام عذيقها المرجب وجذيلها المحكك ولم تنته شرورها إلى الآن. فديوان الحرب العرفي لا يزال يطلب الأفراد والثبات من طلاب العرب ورجالاتهم للتحقيق في مسألة إهانة صاحب إقدام لأنه ألبسها ثوب التعصب الجنسي.

إن المقالة الأخيرة المتضمنة للطعن في أعراض العرب قد طير البرق خبرها إلى المدن العربية الكبرى وخاضت فيها الجرائد وكان لها من سوء التأثير فوق ما يظن أولياء الأمور هنا، فإذا كانت نتيجتها هنا أن يعاقب كثير من الطلاب بالحبس أو غير الحبس أو يتوسل بها إلى إقفال «المنتدى الأدبي» الذي يجتمع فيه جمهور أولئك الطلاب للمدارسة والمذاكرة وتعلم اللغات القومية والأجنبية ليمنعوا من أسباب الترقى كما يظن المتطرون من الناس ويكتفى من معاقبة صاحب إقدام بإضافة لفظ «يكي» إلى جريدته

فلا يعلم إلا الله ماذا يكون لذلك من سوء التأثير عند الأمة العربية وعند كل المخلصين لهذه الدولة.

مع هذا كله أكرر في المنار وغير المنار وما قلته للعرب في هذه الديار أنه لا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نجعل ذنب الأفراد ذنباً للأمة، أو أن ننسى أن الشعب التركي الخالص المتدين يحب العرب حب عبادة، وأن العرب يحبونه حب الأخوة الخالصة. ويجب أن نتقي الانفعال من كلام بعض المتفرنجين الفاسقين أو الملحددين الذين يحركون العصبية الجنسية ليقعوا الشقاق بين العنصرين، فإن حدث ما يحرك الانفعال طبعاً فيجب أن نتقي فيما نقول وما نكتب كل ما يبعد أحد العنصرين عن الآخر ونجعل انتقادنا على أشخاص المفسدين المفرقين، فإن التفرق والتعادي بين الترك والعرب يجلب الخطر عليهما معاً وعلى الدولة، وإن جهل المتعصبون، وتجاهل المفسدون.

## اليمن ودماء العثمانيين المهدورة فيه



[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٢٢٥ - ٢٣٠]

إننا بعد أن كتبنا تلك العجالة في الرد على صاحب جريدة «إقدام» وتخطئته في التفرقة بين الترك والعرب وتوسله إلى ذلك بالافتراء على التاريخ في مسألة الحرب الصليبية والمخاتلة في مسألة اليمن، رأينا أن نرجع إلى التاريخ فنقتبس منه قسماً يضيء سبيل الحق فيما أشرنا إليه هناك من كون الدماء التي سفكت في اليمن لم تكن دماء الترك وحدهم ولم يكن فيها شيء لمصلحة العرب لأنها خربت بلادهم ولم تعمرها وبدئت بالغدر والظلم والتخريب واستمرت على ذلك إلى اليوم، ولا لمصلحة الترك لأنهم لم



يستفيدوا في مقابلة تلك الدماء التي سفكوها والأموال التي أنفقوها من خزانة الدولة فائدة مادية ولا معنوية، كما نوه بذلك مجلس المبعوثين في إحدى جلسات الشهر الماضي إذ قال عبد الحميد أفندي الزهراوي مبعوث حماه: لو عصرنا تراب اليمن لقطر دماً عثمانياً فماذا استفدنا من ذلك؟

ويظن بعض الناس أن معظم هذه الدماء سفكت في عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى به الاستبداد في هذه الدولة وأقله في زمن السلطان عبد العزيز قبله. وقد ذكرت هذه المسألة هنا فقال بعض الناس إنها بنت نصف قرن، قلت بل هي بنت أربعة قرون، ثم رجعت إلى التاريخ فجئت منه بالشهيد الآتي:

جاء في كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني أي فتح اليمن لقطب الدين الحنفي المكي الذي قال في مقدمته أنه خدم به سدة السلطان سليم ابن السلطان سليمان. (وفي مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا نسخة منه كتب في طرته بالذهب أنها أهديت إلى خزانة كتب الصدر الأعظم محمد باشا في عصره):

إن ابتداء التصدي لفتح اليمن كان في عهد السلطان سليمان القانوني فإنه لما بلغ السلطان استيلاء الإفرنج من البرتغال على بلاد الهند أمر بإعداد أسطول في مصر وتجهيز عسكر فيه لمحاربتهم وجعل قائد هذا العسكر بيكلاربكي مصر سليمان باشا الخادم وهو أحد مماليك السلطان سليم خان بن بايزيد خان الذي «لم يتعلم من أخلاق سيده غير الفتك، ولم يستقر في باله مما شاهده منه غير إراقة الدماء والسفك»، فاحتال قبل سفره بالأسطول على الأمير جانم الحمزاوي الذي كان من أعظم الناصحين في خدمة السلطنة وأمر بذبحه فقطعت رقبته بسيفه وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله! ثم قطع رقبة ولده يوسف أمير الحج وإغا قتلها بعد أن كتب إلى السلطان بأنه شتم من الأمير رائحة العصيان ويخشى أن يطيعه العسكر لإحسانه إليهم، فكتب إليه السلطان: «ادفع شرهما»

ونسي السلطان أن هذا الأمير هو الذي كان سبب إصلاح المملكة عند عصيان أحمد باشا وأنه لم يوافقه على العصيان. ثم أمر الباشا بسلخ الوالد والولد وحشوهما تبناً وتعليقهما على باب زويله<sup>(١)</sup>!

قال المؤلف: «ثم إن سليمان باشا بعد قتله لجانم الحمزاوي تملح أيضاً بصلب الأمير داود بن عمر أمير الصعيد من غير جرم أتاه، ولا ذنب سواه، غير كثرة أمواله، وبذل يده وسعة حاله، فطمع الباشا سليمان، فطلبه إلى الديوان، فلما جاء أخذ هداياه أولاً، ثم عاتبه لقصد قتله معللاً، فقال ترسل إلينا قمحاً غير نظيف؟ فقال أنا ما جئت إلا بقمح مثل الجواهر اللطيف، فأمر به إلى باب زويله وعلق في عنقه منديلاً فيه قليل قمح وصلبه هناك وأحاط بجميع أمواله وخزائنه، وظفر بكنوزه ودفائنه، وقتله وهو مظلوم، وعند الله تجتمع الخصوم، وكان أحسن أمراء الصعيد كثير البر والصدقات، محباً للخيرات والحسنات، يحسن كل عام إلى كل واحد من علماء جامع الأزهر، والمشايخ المسلكين في ذلك القطر الأزهر، بالخمس مئة من الذهب فما دونها» إلخ. ما ذكر من فضائله وفواضله.

ثم سافر سليمان باشا إلى جدة ومنها إلى عدن «وكان صاحبها يومئذ عامر بن داود بقية بني طاهر ملوك اليمن سابقاً... فلما بلغه وصول سليمان باشا للغزو في سبيل الله، وقطع جادة الإفرنج عن الإضرار بعباد الله، فتح له باب عدن، وأمر أن تزين، وجمع له من البلاد، ما أراد من الأزواد، وتوجه هو ووزيره للسلام عليه إلى الغراب (نوع من المراكب) الذي هو فيه فبمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن قد فتح أمر عسكره بدخول عدن وأخذها فلما وصل إليه عامر ألبسه ومن معه خلعاً ثم أمر بصلبهم على الصاري في الغراب الذي هو فيه ونهب العسكر داره ثم

---

(١) هو المعروف ببوابة المتولي بمصر.

شرعوا في نهب البلد» وعد البلد من فتوحاته وأقام فيها نائباً وكتب على بابها أنه فتحها سنة ٩٤٥ هـ/١٥٣٨ م.

ثم ذكر المؤلف وصول خبر غدر الباشا إلى أهل الهند فنفر منه الناس وكانوا استعدوا لنصره وجمع العسكر ثم كادوا له حتى رجع عنهم إلى اليمن قال «وكان سليمان باشا خوَّاراً خوفاً لم يعهد منه شجاعة ولا إقدام وإنما كان يفتك بمن وقع في يده مأسوراً مربوطاً، فركبه من ذلك (أي مما بلغوه إياه كيداً له وإيهاماً وليس هذا محل شرحه) خوف عظيم وتفرقت عساكره وصاروا يخدمون خوانين الهند طمعاً في كثرة العلوقة»

ثم ذكر خبر وصوله بمن بقي معه من العساكر إلى «نخا» وغدره بصاحب اليمن قال «وأرسل إلى الناخود أحمد بخلعة ومرسوم فيه الأمان وأن يكون نائباً عن السلطنة بمملكة اليمن كما كان وأن يصل بنفسه يدوس البساط، ويحصل له كمال الشرف والانبساط، فلما وصل إليه المرسوم استشار أخصاءه فكلهم أشار عليه بعدم المواجهة وقالوا له إنه لم يكن عنده شيء من الخيل ونحن عندنا سبع مئة حصان فإن قاتلنا قاتلناه، وإن رضي منا بالإطاعة أطعناه، فلم يستصوب هذا الرأي وركب إليه للملاقاة هو وخاصة عبيده وكانوا نحو الخمس مئة ووصل إليه طائعاً لابساً خلعتة هو وولده وولد اسكندر رموز وهما صبيان دون المراهقة وقدم إليه من هدايا اليمن ما قدر عليه. فلما دخل عليه أمر بقتله في الحال وذلك في ثامن شوال سنة خمس وأربعين وتسع مئة الهجرية (٢٧/٢/١٥٣٩ م). فتشتت عبيده فنادى فيهم مناد من أراد من العبيد السود العلوقة السلطانية عند الوزير فليأت! فاجتمعوا بأسرهم ودخل معهم من ليس منهم طمعاً في العلوقة وأدخلوا حوشاً كبيراً له باب واحد وصاروا يخرجونهم إثنين إثنين ويكتب إسمهما الكاتب بحضوره ويبرز بهما إلى خارج الباب فيرمي رقابهما ولم يشعر بهما أحد منهم ممن داخل الحوش ولم يعلموا ما يفعل بهما عند الباب إلى أن قتل الجميع!»

ثم ذكر عوده وحجه وما فعل في الحرم من الإلحاد والظلم والنهب والسلب من أهل عرفات الحجاج ومن أميري الحج الشامي والمصري ثم عودته إلى مصر وافتخاره أمام الوزير لطفي باشا زوج أخت السلطان سليمان بفتوحاته لعدن واليمن وانتصاره ولا ندري على أي الأعداء انتصر وما كان صاحباً عدن واليمن إلا فرحين به مستأمنين له من غير ضعف ولا خوف. ثم قال المؤلف رحمه الله ما نصه وهو الحكمة البالغة والعبرة المؤثرة:

«ولو نظروا في حقيقة الحال، وتدبروا ما سيؤول إليه في المآل، علموا أنهم كانوا في غنى عن هذا العناء، وتيقنوا أنه جرّ إليهم محناً وإحناً، ولقد سمعت المرحوم محمد حلبي المقتول دفتردار مصر يفافض المرحوم داود باشا في حدود سنة ثلاث وخمسين وتسع مئة فقال: ما رأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا كلما جهزنا اليه عسكرياً ذاب ذوبان الملح ولا يعود منهم إلا الفرد النادر ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمن إبراهيم باشا إلى الآن فرأينا قد جهز من مصر إلى اليمن في هذه المدة ثمانون ألفاً من العسكر لم يبق منهم في اليمن ما يكمل سبعة آلاف نفر» اهـ كلامه.

قال المؤلف: قلت وقد تجهز بعد ذلك إلى هذا الزمان أضعاف ما ذكره محمد بك رحمه الله تعالى وهلمّ جرّاً إلى آخر الزمان. وهذا سر إلهي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى. والذي يلوح للخاطر أن سبب نقصان بركتهم، وتقهر عددهم، ما يرتكبونه من ظلم العباد، وما يتصاعد من المظلومين من الأدعية التي تصدر عن قلوب منكسرة ليس لها ناصر إلا الله تعالى، والله سبحانه يلهم حكامنا وأمراءنا العدل والإنصاف، ويعدل بهم عن الجور والاعتساف، إنه مجيب الدعوات، ومقيل العثرات، اهـ.

المناظر: إن أعجب ما في هذه النبذة التي اقتبسناها من هذا التاريخ قوله «وهلمّ جرّاً إلى آخر الزمان» فلله درّ المؤرخين إن أشعة بصائرهم لتخترق حجب القرون، فتبصر ما وراءها وتخبر بمضمورات الغيوب، فقد صدقت

حوادث هذه القرون الأربعة قول الرجل وما أراه إلا كان يعتقد بعله خفية لهذا الخذلان في تلك البقعة لهذه الدولة التي كانت في تلك الأيام أقوى دول الأرض ولعلها هي ما أشار إليه في مقدمة الكتاب من الأحاديث الصحيحة الواردة في اليمن الناطقة بأن الإيمان يماني والحكمة يمانية وأن نفس الرحمن يأتي من جهة اليمن على أن الرجل كان متعصباً للدولة على الزيدية مفتخراً بما كان يحصل لها من الانتصار، متأثراً مما كان يحدث لها من الانكسار، ذاماً للزيدية مشنعاً عليهم بالبدعة، مادحاً للدولة وعسكرها بنصر السنة، ولم تكن عنده نكرة جنسية عربية فإن الإسلام نزع من قلوب العرب هذه العصبية الجاهلية فلم تعد إليهم حتى اليوم بل نرى المؤلف يذم عرب اليمن أحياناً مع التعبير عنهم بالعرب، ويمدح الترك معبراً عنهم بالترك، ويبتهج بنصرهم ويدعو لهم وهذا شأن العرب إلى اليوم في كل البلاد يفرحون بنصر الدولة على عرب اليمن وإن ظلمت هنالك العباد، وخربت البلاد، حتى أنهم كانوا يقولون في السلطان عبد الحميد:

لا أزال الإله دولته الغرّاً وإن كان قد طغى وتجبر

وقد قرأنا في جريدة الإصلاح التي تصدر في سنغافورة كتابة من عهد قريب لبعض عرب حضرموت يتمنون فيها أن تعجل الدولة باحتلال بلادهم والاستيلاء عليها. ولكن متعصبي فروق أمثال صاحب جريدة إقدام مجدود في التفريق فهم الذين يعيدون بأقوالهم وأفعالهم إلى العرب عصبية الجنس إلا إذا تدارك رجال السياسة هذا عاجلاً كما نصحناهم أمس حين جئنا العاصمة، ولما يستبينوا النصيح في ضحى الغد.

اتقوا الله يا ساسة الدولة وانزعوا هذا الوسواس من صدوركم، اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، اتقوا الله فإنكم تقولون إننا في حاجة إلى المساواة والاتحاد مع جميع العناصر العثمانية، وكيف يكون الاتحاد إذا لم يكن قبل كل شيء بين العرب والترك؟ اتقوا فنحن في أشد الحاجة إلى الاعتصام بالأخوة الإسلامية مع جميع المسلمين والأخوة العثمانية مع جميع

العثمانيين، فلا يهدمن السفهاء ما يبنيه الحكماء، فإن الهدم أسهل وأسرع من البناء، والسلام على من اتبع الهدى، ورجح العقل على الهوى.



## قوة الاجتماع والتعاون<sup>(١)</sup>

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٣٤٥ - ٣٤٨]

الاجتماع والتعاون قوة لا تغلب إلا بقوة مثلها، قوة بها ترتقي أمم وتعتز، وبها يسود قوم على قوم، وبها تنمي الثروة، وبها يتغير شكل الحكومة والدولة، وبها كان كل شيء ويكون كل شيء.

عشرة مجتمعون متعاونون، يغلبون المئتين والألوف من المتفرقين المتخاذلين، إذا ألفوا شركة مالية قطعت أسباب الكسب على أضعاف أضعافهم في العدد من التجار، وإذا كوّنوا عصبة للبغي والعدوان سلبوا راحة الألوف من الناس، وإذا قاموا بالأعمال الاجتماعية أحدثوا تغييراً عظيماً في العمران، وإذا نشروا العلوم والفنون أفادوا ما لا يفيدهم الكثيرون من العلماء الأعلام.

لماذا كانت الحكومة الاستبدادية القليل أفرادها أقوى من الأمة الكثير عددها؟ أليس لأن الحكومة جماعة متعاونة، والأمة أفراد متفرقة؟ ولماذا كانت الأمة الدستورية أقوى من حكومتها؟ أليس لاجتماعها على رأي واحد في شكل الحكومة وكيفية سيرها؟ فإلى متى يظل المنحطون من الأمم والشعوب غافلين عن هذه الحقيقة جاهلين طريق هذه القوة، قوة الاجتماع والتعاون، التي بها يرتفع شأنهم، ويعلو قدرهم، ويساوون تلك الأمم التي

(١) نشرنا هذه المقالة وما يليها بجريدة الحضارة التي تصدر بالأسبوعية.

ينظرون إليها كما ينظر أهل الأرض إلى الكواكب الالامعة في جو السماء، ويحسدونها على ما أوتيته من السناء والبهاء، وهذه أخبار التاريخ الماضية، وحوادث الأجيال الحاضرة، تعلمهم أن الاجتماع مع التعاون هو القوة التي تذهب بشقائهم، وتشفيهم من أدوائهم، وتحقق لهم أمانهم التي يتمنون، وتعتبر لهم الرؤى الصالحة التي يرون.

لو أردت أن أبين فوائد الاجتماع والتعاون بطرق الخطابة أو الشعر لاحتجت إلى إنشاء الدواوين، ولو أردت أن أجمع الشواهد والوقائع في فضلها لصنفت الأسفار الكثيرة في التواريخ، ولكنني لا أريد هذا ولا ذاك، إن أريد إلاّ تذكير القارئ بمسألة صارت من الضروريات، لا يحتاج فيها إلى نظم الأدلة وترتيب المقدمات، أريد أن أذكرهم ليعملوا، لا ليعلموا ما لم يكونوا يعلمون، ولا لأجل أن يتسلوا عند الفراغ بما يقرؤون، أريد أن أقول لهم يا قوم إنكم ضعفاء في العلم وأنتم أذكى الناس أو من أذكاهم، وإنكم فقراء وأنتم أقدر البشر على الكسب أو من أقدرهم، وإنكم مهضومون مستضعفون، لغير ذنب تجنون، إلاّ تفرقكم وتحاذلكم. إنه لا ينقصكم إلاّ الاجتماع والتعاون فاجتمعوا وتعاونوا، ولا يفرق بينكم اختلاف ديني ولا جنسي مع العلم بأن الحاجة أو الضرورة تقتضي باجتماعكم على ما به قوام مصلحتكم المشتركة.

لا أدعوكم إلى اجتماع مبهم أو خيالي، ولا إلى تعاون مطلق أو إجمالي، بل أدعوكم إلى الاجتماع لإزالة موانع الاجتماع، ثم للتعاون على ترقية شأن الاجتماع بالعلم والثروة، وإعلاء شأن الأمة والدولة، بأن تكونوا أصحاب القدح المعلى الذي يؤهلكم له ذكاؤكم الفطري وأخلاقكم الموروثة التي ينوّ بها التاريخ، إذ يفاخر بأجدادكم جميع الأمم والشعوب:

يا قوم ان لكم من مجد أولكم إرثاً قد اشفقت أن يفنى وينقطع  
يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها إني أخاف عليها الأزل الجذعا  
إن الدولة لا ترتقي ولا تعز إلاّ بالأمة وإن الأمة بأخلاقها وعلومها

و ثروتها، وإن الوراثة أكبر عون للمرء على التربية والعلم والعمل، فتعاونوا على نشر التعليم والتربية، تعاونوا على ترقية الزراعة والصناعة والتجارة، فقد آن لكم أن تخرجوا من مأزق الأعمال الفردية، إلى فضاء الأعمال الاجتماعية، فلو صار كل واحد منكم أغنى من قارون، وأعلم بالحكمة من لقمان، وأخطب في العلوم الإلهية والحكمة الأدبية من علي بن أبي طالب، وأعدل من عمر بن الخطاب، وأدهى في السياسة العصرية من بسمرك، وأنشط من غليوم، لما اعترف لكم أحد بحق، ولا مكّنكم أحد من الإصلاح في الأرض، إلّا بعد أن تجتمعوا وتتعاونوا.

يجب أن تؤلفوا الشركات المالية ولا تنسوا بها المعنى الاجتماعي الأدبي، لا تنسوا أنكم إذا خلطتم أموالكم بعضها ببعض تختلط أرواحكم بعضه ببعض فيزول سوء تأثير الاختلاف الطبيعي بينكم سواء كان اختلافاً في الدين والمذهب، أو الجنس والمشرّب.

يجب أن تؤلفوا الجمعيات العلمية والخيرية لتعميم التربية والتعليم بين جميع الطبقات ليكون أفراد الأمة كسلسلة إذا تحركت حلقة منها تحركت سائر الحلقات.

يجب أن تطالبوا الأغنياء ببذل الإعانات العظيمة لنشر العلم وإنشاء المدارس فمن بخل على الأمة بفضل ماله فعليكم أن تبيينوا للأمة أنه عدوها وأنه يجب عليها أن تمقته وتحقره، وأما من يجود عليها بما يرفع شأنها فعلموها كيف تعظم شأنه وترفع قدره، استعينوا على هذا بالكتاب والشعراء، فهم الذين يربون لكم الأغنياء.

يا أصحاب الأقلام: إن في أيديكم قوة تعمل ما لا تعمل السيوف والمدافع، إن من تعظمونه بالحق يكون قدوة وإماماً في الخير لأهل عصره، ولن يأتي من بعده، وإن من تحقرونه ولو بالباطل يكون محتقراً في زمانه ومحتقراً في التاريخ حتى تستحي ذريته أن تنتسب إليه فاعرفوا قيمة أنفسكم كما عرفها بشار إذ قال:



أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم      إني أخاف عليكم أن أغضبوا  
أبني حنيفة إني إن أهجكم      أدع اليامة لا تساوي أربنا

اعرفوا قيمة هذه السلطة المعنوية التي لا تظهر قوتها على كمالها إلا في  
الجرائد واستعملوها في إصلاح حال الأمة فبذلك يعلو قدركم، ويرتفع  
ذكركم، وتنالون من الناس أحسن الشكر، ومن الله تعالى أكبر الأجر.

وأنتم يا أصحاب الجرائد أولى أصحاب الأقلام بهذا العمل لأن  
صحفكم تجعل لكلامكم من التأثير ما ليس لكلام غيركم الذي لا تقبلون  
نشره فيها فحرضوا الكتاب والشعراء على هذا الإصلاح ونوهوا بفضل من  
يساعدكم عليه ولا تبالوا بمن عداه بل أدبوه كما تؤدبون بخلاء الأغنياء.

يا أصحاب الجرائد: لا تفتننكم سياسة الحكومة فتجعلوا عنايتكم  
محصورة في أعمالها وأقوالها، إجعلوا عنايتكم في إصلاح حال الأمة فلن  
تصلح دولة أمتها جاهلة متخاذلة، فبالإصلاح الأمة يتم لكم ما تريدون من  
إصلاح الحكومة فهي كل شيء ويجب أن يكون لأجلها كل شيء.

## كيف تنال الأمة حقوقها؟



[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٣٤٨ - ٣٥٣،

نشرت بجريدة الحضارة التي تصدر بالآستانة.

المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٣٤٥]

إن للأمم حقوقاً طبيعية وشرعية، وإن حقوقها كحقوق الأفراد تغصب  
منها وتغلب عليها، وإن الغاصب لها قد يكون واحداً منها أو واحداً من  
غيرها وقد يكون جماعة منها أو من غيرها، وأعني بالفرد الذي يغصب حق

الأمة الحاكم المستبد المطلق، الذي يرجع إليه الأمر كله في سياستها، إن شاء عدل، وإن شاء ظلم، وإن شاء أشرك غيره بالحكم، وإن شاء انفرد، وأعني بالجماعة الحكومة المقيدة كيفما كان شكلها ونوعها.

إذا ظلم الأفراد وغصبت حقوقهم يختصمون إلى الحكام، فإما أن ينصفوهم وإما أن لا ينصفوهم، وأما الأمم فليس لها محاكم تختصم إليها، لأن حكامها هم الذين يغصبون حقوقها، وماذا تفعل وخصمها هو الحكم، وكيف تنتصف منه إذا جار وظلم؟ ومتى تسترد حقوقها منه إذا اعترز وغلب؟

لا تنال حقوق الأمم بنظم الأقيسة وترتيب المقدمات، وإقامة الحجج وإيراد البيّنات، ولا بالرجاء والتعليل، ولا بالبكاء والعيول، لأن الغاصب لا يكون فاضلاً عادلاً فيقنعه البرهان، ولا رؤوفاً رحيماً فيؤثّق من ناحية الوجدان، وإنما يكون فظاً غليظ القلب، لا يخضع إلا للقوة والبأس، فيعطي بالقوة كما يأخذ بالقوة.

كيف نصير الأمة المغلوبة على أمرها ذات قوة تسترد بها حقها، إذا كان الحاكم واقفاً لها بالمرصاد، مانعاً إياها بقوته من إيجاد قوة لها؟ أنقول إن اليأس من قوة أمة هذه حالها أقوى من الرجاء فيها، أم نقول يجب أن تثور على حكومتها ثورة تشيب النواصي، وتزلزل الرواسي، وتجعل الرفيع وضيعاً، والذليل عزيزاً؟ أم هنالك حيلة أخرى يكتفى منها بالقوة المعنوية، عن القوة المادية؟

هذه المعاني قد انتقلت من أوروبا إلى الشرق، وكثر الحديث بها في هذا العصر، ولا سيما بعد الانقلاب العثماني والانقلاب الفارسي، وربما تكون قد جالت في أدمغة زعماء الأرمنووط الذين أوقدوا نار الفتنة في هذه الأيام، وكانوا عوناً على الدولة وعلى أنفسهم، لأولئك الأعداء الذين أجمعوا كيدهم على إسقاط هذه الدولة بل على محوها واقتسام تراثها بدون حرب

طحون تسفك فيها دماؤهم، وتغتال بها أموالهم، فهم إنما يحاربونها حرباً معنوية؛ يغرون عناصر أمتها بالعداوة والبغضاء، ويضربون بعض أعضائها ببعض حتى تقضي على نفسها قضاءً وشيكاً أو بطيئاً.

يقول لسان حال هؤلاء الساسة أو لسان مقالهم للترك إنكم أنتم الفاتحون وأصحاب السيادة القادرون، ولا حياة لكم ولا شرف، بل لا بقاء لكم ولا وجود إلا بتعصبكم لجنسكم، وجعل زمام الأمة في أيديكم، فإن هذه المزية إذا فاتتكم تكونون وراء سائر العناصر المنسوبة إلى دولتكم، لأنهم أقدر منكم على الكسب، ولا تقدر أن تسبقوهم بالعلم، فاعتمدوا على هذه الكتائب قبل الكتب، فهي التي تحفظ لكم السيادة على العجم والعرب.

ويقولون للعرب إنكم العنصر الأكبر في هذه الدولة، ولكم الحق الأول في السلطة والخلافة، وبلاذكم قلب الأرض، وموطن الدين ومهبط الوحي، ولغتك لغة القرآن الذي يدين به فيتعبد بها ثلاث مئة مليون من الناس، ولكم من السلف في المدنية والعلم، ما يدل على أن استعدادكم أعلى من استعداد الترك، بل ومن غير الترك من شعوب الأرض، وهم قد خربوا بلاذكم بعد عمرانها، وحالوا بينكم وبين الاستفادة من كفاءتكم ومزاياها، وقد آن أوان طلب الحقوق، والمؤاخذه على العقوق.

ويقولون للأرمنووط إنكم شعب مجيد، وإنكم أولو قوة وأولو بأس شديد، وإنكم أقوى من الترك استعداداً للمدنية، لأنكم من الشعوب الأوروبية، وبلاذكم قابلة لذلك إذا هي استقلت بالحكم، وألقت عن كاهلها أثقال سلطة الترك، فدونوا لغتكم بالحروف اللاتينية، ولتتحد البلاد الشمالية بالجنوبية، وستنالون كل أمانة، بمساعدة أوروبا عاشقة الإنسانية!

ويقولون للأرمن إنكم أذكى العثمانيين أذهاناً، وأطلقهم لساناً،

وأجرأهم جناناً، وأقدرهم على الكسب والأعمال، وأسبقهم إلى الاتحاد على طلب الاستقلال، وقد جمعتم لذلك ما جمعتم من المال، وركبتم في عصر نيرون الترك ما ركبتم من الأهوال، حتى اقتحمت العقاب، وذلت الصعاب، فلا تهنوا ولا تنوا في الأمر، ولا يصدنكم ما تنالون من الدولة عن طلب الملك، وأن أوروبا المسيحية، لزعيمة لكم بتحقيق هذه الأمنية، فخذوا الأهبة وانتظروا الفرصة، وأعدوا لها الشعب كله، بتعليم المدارس، ووعظ الكنائس، ووضع صور ملوككم، وصور يتامى وأرامل المقتولين منكم، في بيوت عامتكم وخاصتكم، مع تحريك الأشجان، وإثارة الأضغان، بالأناشيد والألحان.

ذلك ما يوسوس به شيطان السياسة الجنسية، في إغراء الشعوب العثمانية، وما هو إلا كيدٌ وخداع، جدير بالعصيان لا بالإتباع، وأما ملك الإلهام، الداعي إلى الوفاق والسلام، فإنه يصيح بهؤلاء الأقسام: لا تستحبوا العمى على الهدى، واستجيبوا لداعي العقل دون داعي الهوى، واعلموا أن تفرقكم وانقسامكم، وعداءكم وخصامكم، وإلجاء الدولة إلى تفريق قوتها في بلادكم، لمقاومة فتكم وثوراتكم، هو الذي يحول دون ارتقائها وارتقائكم، ويفضي والعياذ بالله إلى هلاكها وهلاككم، وإرث الدول الأوروبية لأرضكم ودياركم، ووالله إنكم لتكونن حينئذ أبعد عن الاستقلال، وأقرب إلى الخزي والنكال، إنكم تملكون اليوم في حجر هذه الدولة جميع أسباب الارتقاء، ولا تملكون غداً في حجور أوروبا إلا أسباب التدلي والاستخذاء:

لا مرحباً بغد ولا أهلاً به      إن كان تفريق [العناصر] في غد

لا أقول إن الدولة نفسها ترقىكم، بل أقول إنه لا يرجى أن ترقىكم، لا لأنها لا تريد، بل إنها إن أرادت لا تقدر، وإنما يجب عليكم أن ترقوا أنفسكم، وترقوها بترقيتكم، فقد صار أمرها في أيديكم، نعم، إن العنصر التركي هو الذي يدير اليوم أمر الحكومة، لأن له الكثرة في مجلس

الأمة، وإن منكم من يسيء الظن به، ويعدّه غاصباً لحق غيره ومانعاً له من الوصول إلى مطلبه، وإن هؤلاء ليكبرون الصغير، ويغفلون عن الأمر العظيم.

الخطب سهل والأمر طبيعي ولا ضرر في كون الغلبة في الحكومة لعنصر يرجح قومه على غيره في الأعمال، وإنما الضرر أن يكون أمر الحكومة في أيدي العاجزين عن الإصلاح، وإن القادرين عليه من جميع العثمانيين لقليلون، وإننا الآن في دور تجربة فندعهم يجربون، ولا يجوز لنا أن نتهادى في سوء الظن، ولا أن نؤاخذهم على كل ذنب، فنجعل ما يقترفه الشخص ذنباً للعنصر والشعب، بل يجب على العقلاء المحبين للإصلاح العناية بأمرين أحدهما يتعلق بإصلاح الحكومة والآخر يتعلق بإصلاح الأمة.

أما إصلاح الحكومة فله طريقان لا بد من الجمع بينهما، أحدهما حسن اختيار المبعوثين، وأعضاء المجالس العمومية، وثانيهما مراقبة العقلاء وأصحاب الجرائد للحكام والعمال في النظارات عامة، ونظارة المعارف خاصة، والانتقاد على الظالمين والمفسدين منهم، والسعي في زلزالهم ولا يتم شيء من ذلك إلا بالاجتماع والتعاون.

وأما إصلاح الأمة فله طريقان أيضاً لا بد من الجمع بينهما، أحدهما نشر التعليم الأهلي مع التربية الصالحة، وثانيهما الأعمال المالية التي تنمي ثروة البلاد، ولا يتم شيء منها إلا بالاجتماع والتعاون.

قد أشرت في مقالة «الاجتماع والتعاون»<sup>(١)</sup> إلى شيء مما يتعلق بالتربية والتعليم والاستعانة على ذلك بالأغنياء، وإنما قصدت بذلك تنبيه الأذهان، وتوجيه الهمم وتحريك الأقلام، دون التفصيل والاستقصاء،

---

(١) المارح ١٣ (١٩١٠)، ص ٣٤٥ - ٣٤٨.

وعسى أن أئين في مقال أو مقالات آخر كيفية الاجتماع والتعاون على كل من إصلاح الحكومة وإصلاح الأمة بشيء من التفصيل، وأحوج العثمانيين إلى ذلك العرب والترك والكرد والأرمن والروم والبلغار واليهود فلهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وطرق معبّدة هم فيها يهرعون، فلا يحتاجون إلى رأينا، ولا إلى معرفة طرق تعليمنا وسعيها، بل نحن المحتاجون إلى معرفة سعيهم، وطرق تربيتهم وتعليمهم.

إن الاجتماع والتعاون على ذينك الإصلاحين هو الأمر العظيم الذي اغفل عنه الذين يتحدثون ويكتبون في مسألة حقوق العناصر، هو القوة المعنوية التي تغني عن الثورة، وتنال الأمة به من حقوقها ما لا ينال بالسيف والمدفع، مع أمن الخطر على الدولة، التي يجب الاتفاق على حفظ كيائها، وتعزيزها ورفع شأنها، قبل كل سعي، ومع كل سعي، وبعد كل سعي.

يسمع في البلاد العربية قليل من الكلام، ويوجد في بلاد الأرمنوط كثير من السلاح، وكذلك في صحاري الجزيرة والعراق، ولا تصلح البلاد بهذا ولا ذاك، على أن السلاح هنا وهناك لم يقتن للاستعانة به على الإصلاح، وإنما اقتني ليكافح ويدافع به الناس بعضهم بعضاً وقد يسئلونه في وجه الحكومة إذا أحسوا بالظلم، وكانت الحكومة ولا تزال بشؤم الماضي عاجزة عن تأمين تلك البلاد وحماية الأعزل فيها من عدوان شاكلي السلاح، وأما البلاد التي يشكى فيها من الحكومة ويطالب بعض العناصر فيها بحقوقه فهي أشد البلاد إخلاصاً للدولة، وأبعدها عن الخروج والفتنة، أما العرب فقد خرج صوته من عاصمة الملك، ورددت صده سوربة ومصر، وهل يوجد أحد أعرف من العاصمة وسورية ومصر بقيمة الدولة وأغير عليها وأحرص على عزتها ورفع شأنها؟ كلا وإنما ذكرت هذه الجملة استدراكاً على كل ما تقدم، لأبين أن الباحثين في حقوق العرب أكثرهم في هذه البلاد، وإنهم أعرق العثمانيين في الغيرة والإخلاص، على ما كان من سوء التفاهم بينهم وبين القابضين على أزمة الأمور كما بينا ذلك بالتفصيل في

مقالاتنا «العرب والترك» بحسب ما أدانا إليه اجتهدنا إلى ذلك الوقت.

نحن نعتقد أن الإسلام قد حرّم العصبية الجنسية، وجعل المسلمين إخوة على اختلاف أجناسهم وعناصرهم، وكنا نعتقد أن أشد التعصبات الجنسية ضرراً على المسلمين في هذا العصر تعصب العرب والترك للعربية والتركية ولذلك سعينا هنا (في الأستانة) جهد طاقتنا بالقول والكتابة، لسد هذه الثغرة التي فتحتها السياسة.

وقد قلت ولا أزال أقول إن الإسلام قد أبعد العرب عن النعرة الجنسية حتى صاروا أبعد الأمم عنها، وإنه لا يقدر أحد على إعادتها إليهم أو إعادتهم إليها، اللهم إلا من يتحاملون عليهم من الترك فهم وحدهم القادرون على هذا الأمر، وقد عجز عنه الإفرنج إذ حاولوه من قبل.

إن سيرة ساسة الترك ومتولي أزمّة أمورهم وكتاب أشهر جرائدهم هي سيرة من يريد تحريك الجنسية العربية لا مفر من ذلك إلا بادعاء كونهم لا يعلمون ماذا يعملون، فإذا تحقق هذا فإن نهي مثلي عن نهوض العرب باسم العرب ما عاد له فائدة. فما عليّ إذاً إلا أن أذكرهم في جنسيتهم بأمرين لا مندوحة عنهما. ولا يمكن أن يحل محل العرب سواهم فيهما. أحدهما جعل أساس نهضتهم تعزيز الدولة العلية، وثانيهما أن يكونوا حلقة التعارف والاتصال بين جميع الشعوب الإسلامية، فالأمر الأول يجب على المسلم وغير المسلم منهم لأنهم العنصر الأكبر لهذه الدولة، والأمر الثاني يجب على مسلميهم خاصة لأنهم أولى بالإرشاد الإسلامي وأقدر عليه من غيرهم، وهم بهاتين الوظيفتين المقدستين لا يقاسون على أمة ولا على شعب ولا يقاس عليهم غيرهم، فحقوقهم أعظم، والواجبات عليهم أثقل، وإمامهم الصراط المستقيم، فليتبعوه إن كانوا فاعلين، واللّه الموفق والمعين.

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٣٥٣ - ٣٥٨]

مصر بلاد ممتازة في إدارتها الداخلية، تابعة للدولة العلية العثمانية، فكل مصري عثماني، وما كل عثماني مصرياً، فبينهما العموم والخصوص المطلق فالمهندس والمتعلم مثلاً، فكل مهندس متعلم، وما كل متعلم مهندساً.

مرَّ على العثمانيين والمصريين زهاء ثلث قرن وهما على طرفي نقيض، أو حرفي تباين، إذ هؤلاء يرسفون في قيود العبودية، وأولئك يرفلون في حلل الحرية، ثم تحول شكل الحكومة العثمانية فجأة فظفرت من هاوية الاستبداد المطلق، إلى قنة الحكم النيابي المقيد، فأحدث هذا الطفور شيئاً من رد الفعل فقامت الحكومة العرفية تحوط وتحمي حمى الحكومة الدستورية، فلولا الجند العثماني لما ذكر الدستور جهرًا في هذه البلاد، ولولا الجيش لما طمع أحد في استقرار الدستور فيها.

وأما مصر فكانت تنطق إذ كانت البلاد العثمانية صامتة واجمة، وكان العثماني الحر لا يستطيع أن يتكلم في بلده، فالمصريون قد طلبوا الدستور بصوت أندى من صوت العثمانيين وأصرح، هم طلبوه جهرًا إذ كنا نطلبه سرًا، ولكن لم يكن لهم جيش كجيشنا يلبي نداءهم ويحجب دعاءهم، ولم تكن بلادنا كبلادهم محتلة بجيش أجنبي، ولا حكومتنا كحكومتهم محاطة بنفوذ دولة أجنبية قوية، فوجب أن يكون طلبهم بالحجة، وتربية الإحساس وجمع الكلمة، فكل من الفريقين قد سعى إلى مطلبه في محيط الإمكان، ولم يطمع في تجاوزه إلى المحال.

قويت حجة المصريين بعد إعلان الحكومة الدستورية في بلاد الدولة العلية التي هي أهمهم وهم أقدر أولاد هذه الأم على رفع بلادهم، وترقيتها



بجدهم واجتهادهم وقد انتشر فيهم التعليم ونمي في نفوسهم شعور القومية، واتسعت دائرة التكافل والتعاون على المصالح العامة، فأنشأوا بأمولهم ألوفاً من الكتاتيب الابتدائية، وأنشأوا مدرسة الجامعة المصرية، وعندهم عدة جمعيات خيرية وعلمية، وكثر قراء الجرائد والمجلات فيهم، وببلادهم متصل بعضها ببعض بالسكك الحديدية فلا يحدث في زاوية من زواياها حادثة ذات بال إلاّ ويطوف خبرها جميع أرجائها في يوم أو يومين، فأنى للبلاد العثمانية أن تشاركها بهذه المزايا كلها؟ فمن أنكر على المصريين استحقاق الحكم النيابي الذي يتمتع به العثمانيون زاعماً أن استعدادهم دون استعداد إخوتهم له فهو إما جاهل ملهم، وإما ظالم مبین.

أنا أشهد أن مصر قد صارت أقوى استعداداً للحكم النيابي بفضل النابغين من أبنائها وأبناء أختها سورية الذين جذبتهم إليها جامعات اللغة والجوار والعادات وبما استفادته من مشاركة أبناء الشعوب الأوروبية، وبما ساقه إليها الاحتلال الانكليزي من ضروب العبر في سيطرته على حكومتها، وتصرفه في إدارتها ومالياتها، وبما نفخه استئثار السلطة الأجنبية في نفوس أهلها من حب الخلاص مع بقاء سيادة الدولة العلية عليها ودوام ارتباطها بها في السياسة الخارجية.

\* \* \*

مع هذا كله أقول إن مصر لا تزال مقصرة في أمر عظيم هو الركن الأعظم والبرهان القاطع لشبهات الاحتلال ولو اهتمت أحزابها وجرائدها به كالاهتمام بالسياسة لكانت أقرب إلى النجاح والفلاح. إلاّ أن هذا الأمر العظيم هو ما يدل عليه بالايجاز لفظ «الاقتصاد» وبيانُه بالتفصيل والإطناب، تدخل فصوله في كثير من الأبواب، وما من باب منها إلاّ وقد دخله كثير من المصريين، فالأفراد منهم يعرفون جميع الجزئيات، ولكن الأحزاب والجماعات لما تقم بما يجب من الكليات.

نريد من الاقتصاد أن تكون رقبة البلاد لأهلها خالصة لهم من دون

الأجانب وأن يكونوا أحراراً في تصرفهم بها، نريد أن يقف سريان امتلاك الأجانب للأرض عند الحد الذي وصل إليه، وأن نضع عن الوطنيين إصرهم وأغلال الديون التي غلّوا بها أيديهم إلى أعناقهم، وقيودها التي قيدوا بها أرجلهم، ثم نريد أن تكون ثروة البلاد قوة في أيدي أبنائها يواظون بها من شأؤوا من الأمم ويحادون بها من شأؤوا فيعملون بها ما لا يعمل السيف ولا القلم فتكون هي العون والنصير لهم في مقاصدهم السياسية والاجتماعية.

المال هو القطب الذي تدور حوله أفلاك السياسة في جو هذه المدنية فلولاها لما زحف أهل الشمال على أهل الجنوب في الشرق والغرب واستولوا على بلادهم باسم الفتح والاستعمار، أو النفوذ والاحتلال، وأن أصحاب الأموال في أوروبا لهم الذين يتصرفون في سياستها كما يشاؤون، ويبيدهم ميزان الحرب والسلم فهم الذين يزنون ويرجحون.

ما كان لأهل الشمال أن يكونوا أقوى من أهل الجنوب استعداداً للأعمال المالية، إن زعامة المال فيهم ليست إلا بأيدي رجال منا، إنها كما يعلم الخبيرون في أيدي اليهود وهم منا، نحن الشرقيين، نسباً وموطناً وإثماً ظهرت براعتهم في أوروبا باستقرار العدل والحرية فيها، وبلي اليهود في الاستعداد سائر اخوانهم السوريين والفلسطينيين، وإن سورية ومصر لأختان شقيقتان، وقد تمازج أبنائهما منذ القرن الماضي فكانا كمزاج الماء بالراح، فاستفاد كل من الآخر ولولا أن قام بعض الكتاب بما قام به من سياسة التحليل، وإضافة ذنوب الأفراد إلى الشعب والقبيل، لكان الاتحاد أقوى والاستفادة منه أتم.

كل سوري بل كل عربي يجيء مصر ويقيم فيها يحسبها وطنه ويرى أهلها قومه وإخوته، لسانهم لسانه، وعاداتهم عاداته، ومحاكمهم محاكمه، فإذا أثرى فيها كان هو التابع لثروته، ولم تكن ثروته هي التابعة له إلى بلاده، تجذبه مصر إليها فيكون عضواً من أعضائها، أو مادة من مواد

غذائها، ولا يجذب هو شيئاً من ثروتها إلى بلاده لتكون غذاءً لها، فالمالي من السوريين أو العرب يمد حياة مصر المادية بكده وكدحه، كما يمد العالم والأديب منهم حياتها المعنوية بلسانه وقلمه، فينبغي للمصريين أن يحكموا روابط الاتحاد بينهم وبين من يتصل بهم من إخوانهم المشاركين لهم في جميع مصالحهم ومنافعهم ويستعين بعضهم ببعض على ما تجب العناية به من النهضة الاقتصادية.

إن حوادث الزمان قد أعدت النفوس لإحكام هذا الاتحاد وتوثيق روابطه فاستعدت له وقد ترجم عن هذا الاستعداد مدير «الجريدة» في السنة الماضية بمقالة له اقترح فيها إخراجه من حيز القوة إلى حيز الفعل، وإن وراء ذلك لقوة أخرى لمصر هي غافلة عنها، وما رأيت أحداً نبه إليها، وهي زعامة ارتقاء الأمة العربية بأسرها، ولا سيما الولايات العثمانية منها، فقد دبت الحياة إلى هذه الولايات بفضل الدستور وتوجهت وجوه العقلاء إلى إحياء اللغة العربية بالقول والكتابة والعلوم والفنون، وإن عاصمة دار السلطنة هي التي تحفز همتهم إلى ذلك، وإن سورية لمبسوطة الذراعين لعناق مصر وناشزة الشفتين لتقبلها.

فالذي أقترحه على مصر الآن هو أن تبادر إلى تأليف جمعية أو لجنة اقتصادية أعضاؤها من جميع الأحزاب والعناصر الخاضعة للقوانين المصرية ومن أصحاب الجرائد لأجل القيام بما أشرنا إليه آنفاً، ويجب أن يكون أول عملها إحصاء ديون الأهالي والنظر في الطرق القريبة لوفائها وتحويل مدها إلى جزر لا تفيض بعده ثانية، ثم النظر في مسائل المضاربات والشركات وتلافي ضررها العظيم، ولا أحاول الإحاطة ببيان كل ما يجب أن تعمله لمنع اغتيال الأجانب لثروة البلاد ولتنمية هذه الثروة بيننا وبينكم كما قال لورد كرومر؟ يومئذ لا تنفع الحجج ولا تفيد المظاهرات ولا يغني الاعتصاب شيئاً إلا غناءً قد يكون إثمه أكبر من نفعه.

قد رأيتم العبرة في العسرة المالية التي صدمت البلاد في هذه السنين

الأخيرة، رأيت كيف أصبح أصحاب الأراضي الواسعة أخير من الضب، وأعجز من أسير الحرب، هذا ولم يكن أصحاب الأموال في أوروبا متحدين على تعمد حربكم حرباً اقتصادية، وهل يعجز دهاء السياسة الانكليزية أن يحملوهم على هذا الاتحاد في يوم من الأيام؟

لكل قطر طبيعة واستعداد والقوة الطبيعية أنفع من القوة المتكلفة، والأمة المصرية مستعدة لمغالبة كل أمة من أمم الأرض، بقوي الثروة والعلم، وليست مستعدة لمقاومة دولة كبيرة بالحرب، ولا سيما في هذا العصر، فليكن اعتيادها على ما هو قريب من استعدادها، وعناية الله كافلة لها نيل مرادها.



## يقاظ الفتن في البلاد العثمانية



[المفاز ج ١٣ (١٩١٠) ص ٣٨٤ - ٣٨٩]

### مناجاة ودعاء

ألهم الطف بهذه الأمة وبدولتها واحفظها من فتن المفسدين في الأرض، ألهم إقطع عنها ألسنتهم، وكف عنها كيد أقلامهم، ألهم إنك تعلم أن المخلصين قد بذلوا جهد طاقتهم في النصح وإصلاح ذات البين وسعوا إلى ذلك من كل طريق يروونه نافعا، ألهم إنا لا نملك بعد حسن القول والسعي إلا الاستغاثة بك ودعاءك فلا يغلبن مكرهم السيء ما نرجو من لطفك وعنايتك، ألهم إنه لا يخفى عليك كيد الذين يفسدون في الأرض وينبزون المصلحين بلقب الإفساد، ويلقون العداوة والبغضاء بين عبادك ويعيبون بعملهم السيء من يعملون الصالحات بالتأليف بين القلوب وجمع الكلمة على الخير، ألهم إنك تعلم أن من هؤلاء من يفوق سهام

كيدِه ومكره للأمة العربية التي شرفتها وفضلتها بخاتم أنبيائك ورسلك وخير كتبك المنزلَة لهداية خلقك وخاطبت سلفها الصالح بقولك الحق «كنتم خير أمة أخرجت للناس» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١١٠] ولكل من تبع ذلك السلف من الخيرية بقدر اتباعه لهم، اللهم إنهم حسدوها أن جعلت كتابها عربياً مبيناً فهم يريدون ترجمته ليكون عرضة لتحريف المحرفين، واختلاف المتفقيين، اللهم إنك أنزلته لتجمعهم عليه، وهم يحاولون ترجمته لكل شعب من المسلمين ليتفرقوا فيه، اللهم إنه حبلك المتين الذي أمرتنا أن نعتصم به ولا نتفرق عنه بقولك (٣: ١٠٣) «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٣]. وهو بيناتك التي قلت فيها (٣: ١٠٥) «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٥]. اللهم إنهم يزعمون أن رسالتك خاتم رسلك ما تمت إلى الآن، وأنها لا تتم إلا بترجمة القرآن، وأنت قلت وقولك الحق (٥: ٣) «اليوم أتممت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» [سورة المائدة رقم ٥، الآية ٣]. اللهم إنهم يزعمون أن دينك لم يقم بالحجة والبرهان، وأن نبيك (ص) كان يكره الناس عليه بالسيف والسنان، وأنت قلت وقولك الحق (٢: ٢٥٦) «لا إكراه في الدين» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ٢٥٦]. - (١٠: ٩٩) «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» [سورة يونس رقم ١٠، الآية ٩٩].

### المقصد

بينّا في أول مقال كتبناه عن الانقلاب العثماني واستبدال الحكم النيابي بالحكم الشخصي المطلق أنه يخشى في هذا الطور الجديد الذي دخل العثمانيون فيه من عاقبة اختلافهم في الأجناس واللغات والأديان وجددنا في التأليف بينهم سعياً جديداً غير ما كنا نسعى إليه سراً في جمعيتنا «الشورى العثمانية» المؤلفة من جميع العناصر العثمانية. ظهرنا بالتأليف الجهرى فخطبنا في كنيسة الأرمن في القاهرة خطبة جعلها الإخلاص مؤثرة

في نفوس حاضريها من العثمانيين المختلفين في الأديان والمذاهب حتى قال لنا فارس أفندي نمر محرر المقطم يومئذ إن هذه الخطبة وحدها تضاهي عملك في التأليف والوفاق مدة عشر سنين. ثم سحنا في البلاد السورية وخطبنا مرات عديدة في ذلك وتكلمنا وكتبنا كثيراً ورأينا لعملنا وعمل غيرنا تأثيراً حسناً أعان عليه في تلك البلاد ذكاء الأهالي وأخلاقهم الحسنة.

بينما نحن نرى الولايات السورية أهدأ الولايات العثمانية وأشدّها اغتباطاً بالحكومة الدستورية ونرى من البلاد العربية كاليمن والحجاز وقد هدأ ما كان يقع فيها من الكفاح والغارات فصارت أشد خضوعاً للدولة من ولاياتها الأوروبية التي هي مهد قوتها وعظمتها فالعاصمة نفسها مكشومة بديوان الحرب العرفي والدماء تخضب ولايات الأرمنووط، ومقدونية تتمخض بما تتمخض به، بينما نحن على ذلك وإذا بغراب ينعب من أول هذه السنة الهجرية بصوت عربي غربي غريب يخشى شره ولا يرجى خيره.

صاح الغرور يغر العرب ويغريهم بأخوتهم الترك: يقول إن العرب هم الحاكمون والترك هم الخادمون، ويطرىء الأمة العربية بالشعريات التي تحفز النفوس إلى طلب ما لا يطلب ونيل ما لا ينال، ولم يفهم أحد من العرب معنى كونهم هم الحاكمين والترك هم الخادمين إلا أن الكاتب يفهمهم أن الأمر يجب أن يكون كذلك وأنه عليهم أن يطلبوا هذا الواجب، لأن الأمر في الواقع ليس كذلك، ولكن هذا التغير لم يؤثر في إغراء العرب لا لأن قائله متهم عندهم ببغضه إياهم بل كان له دافع آخر من نفوسهم وهو اعتقادهم أن الترك أخوتهم في الدين وحكامهم الذين رجعوا بإعلان الدستور إلى هدي الإسلام بمشاركتهم إياهم في الحكم فلا خادم في العناصر ولا مخدوم، وما القول بذلك إلا من نزعات الشياطين ووساوس المفسدين.

تمافت قول هذا الناقض وتناقض فهو تارة يطرىء العرب ويغلو في مدحهم، وطوراً يعرض أو يصرح بالطعن في جميع الظاهرين منهم كأمر

مكة المكرمة والمبعوثين وطلاب المناصب والخدمة في الدولة والكتاب الخادمين للدولة من طريق خدمة العرب إذ يكتبون بالعربية، وتارة يدعي أنه خادم الإسلام وناسر دعوته ومبتغي ارتقائه بإرتقاء العرب ثم يدعو إلى ترجمة القرآن بلغة المسلمين ليستغنوا عن القرآن المنزل من عند الله تعالى، ويزعم أن الإسلام قام بالإكراه كما أشرنا إلى ذلك في المناجاة التمهيدية وهذا أشد مطعن يسده الأوروبيون إلى قلب الإسلام، ويذكر سيدنا عيسى، عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا وسائر النبيين، بلقب رجل يهودي وبعد هذا كله يخص بطعنه الصريح من قضى زهرة عمره في خدمة الإسلام والدفاع عنه.

هنالك ما هو شر من ذلك وهو السعي في مقاومة المشروع الأعظم لخدمة الإسلام وهو إنشاء مدرسة دار العلم والإرشاد التي يتربى فيها الوعاظ والمرشدون ليقوموا بما أوجبه الله تعالى من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العامة عقائد الإسلام وآدابه وأحكامه مع التنبيه إلى مصالح الدنيا كترقية الزراعة وكل ما ينمي ثروة الأمة ويعزز الدولة. فقد حدثني الثقة أن شيطان الفساد بعد أن مدح المشروع قبل أن يتقرر عاد إلى التفسير منه بعد أن علم بأنه تم أو كاد فهو ينفر كل من يظن أنه يساعده على هذه المقاومة بما يرى أنه يصيب موقع التأثير من وجدانه والاقناع من فكره: يقول للملاحدة إن تأسيس مدرسة إسلامية عربية في الأستانة يجعل للدين قوة معنوية «جزويتية» تقضي على حريتك وتذهب بجميع مقاصدكم! ويقول للمتعصبين مثله للجنسية إن هذه المدرسة تقوي اللغة العربية وتحييها فتزاحم التركية في عرشها الأعلى! ويقول للمتدينين الجامدين إن هذه المدرسة تحيي علوم التفسير والحديث والفلسفة فتفسد عليكم التعليم المقرر في مذهب الإمام الأعظم! وينفر بعضهم عنها بالطعن في شخص الداعي إلى تأسيسها وكأنه لا يدري أننا نطلب أن تؤسسها جمعية من الفضلاء والعلماء وأن يكون التعليم فيها بما يرضونه ويختارونه ويكون أيضاً بمراقبتهم الدائمة، فهل يضر المدرسة مع هذا أن يصدق

الكذوب ويكون الطعن في شخص الذي نبه إلى هذا العمل النافع صحيحاً؟

إذا كان خذلان مفسدي المسلمين لمصلحيهم قد وصل إلى هذه الغاية فهل يستبعد بعد ذلك شيء مما ذكرنا عن غراب التفريق والتنكيث؟ ما ذكر مشروع «العلم والإرشاد» لعالم ديني أو غير ديني ولا عاقل عربي أو أعجمي مسلم أو غير مسلم مستمسك بدينه أو متهاون فيه إلا وأعجب به واعترف بفائده ونفعه وبأنه لا يحل محله سواه في فائده ومنفعته حتى أن بعض الملحدین قال إننا نحب أن يتعلم الإسلام على وجهه فإن المسلمين يكونون بذلك أقرب إلى الترقى الذي يصددهم عنه المتعصبون باسم الدين، كما يكونون أبعد عن إيذاء المخالفين، وأما سائر الوسوس فظاهرة البطلان.

بلغني خبر هذه السعاية فكان أول شيء سبق إلى ذهني عند سماعه فاتحة كلام نشر في جريدة العروة الوثقى وهو على ما أتذكر:

«أسف يصهر الجسم وحسرة تذيب الأكباد على قبيل من أمة، أو شخص منها ذي همة، يستخير الله في عمل ينقذ أمته من ضعة، أو يعود عليها بمنفعة، ثم يعرض له في أثناء عمله من ينجم كقرن المعز ليفقأ عين العامل ويعرقل عليه عمله» إلخ.

وتلا هذه الذكرى في خاطري ما كنت سمعته من الأستاذ الإمام [محمد عبده] محرر تلك الجريدة (العروة الوثقى) في هذا المعنى رحمه الله تعالى: والله انني ما تشبث بخدمة للإسلام أو المسلمين وقاومني فيها أحد من غير المسلمين، ما قاومني في شيء من ذلك انكليزي ولا قبطي ولا سوري مسيحي وإنما لقيت مقاومة كثيرة من المسلمين أنفسهم في خدمة الإسلام والمسلمين!!

نعود من هذا الاستطراد إلى أصل الموضوع وهو إيقاف الفتن في البلاد العثمانية فنقول إن ناعق الفتنة لم يكتف بتغيير العرب وإغرائهم بأخوتهم



الترك بل عمد إلى إلقاء الشقاق بين المسلمين والنصارى منهم فنفسح روح العصبية الدينية في الفريقين فجرح كل واحد في دينه جرحاً دائماً، وأغرى كلا منهما بالآخر ومزق نسيج الوحدة الجنسية بينهما بإيهامه من يقرأ كلامه من النصارى أنه بتهكمه بدينهم يتكلم باسم الإسلام ويرضي المسلمين وبإنكاره أن يكون النصراني عربياً مع علمه أن النصرانية كانت في العرب قبل البعثة المحمدية كاليهودية. ويرى القارئ في فتاوى هذا الجزء سؤالاً عن حديث «إن الله سيمنع هذا الدين بنصارى من ربيعة»<sup>(١)</sup> أي يحفظه ويؤيده. وما رأيت ولا رأى الراؤون أسخف من اختراع هذه العلة للتفريق أي جعل العربية والنصرانية ضدّين لا يجتمعان، وناهيك بسخافة ينقضها العيان.

اطلعنا على ما كتبه في ذلك موقظ الفتن فبادرنا إلى مقابلة الضد بضده، ومقاومة الشر بالخير، والقذف بالحق على الباطل، فكتبنا مقالة في تذكير أهل سورية وبيروت بما فيه خيرهم وخير دولتهم من الوفاق والوئام، ونشرناها هنا في جريدة الحضارة وسيرها القراء في المنار السادس، ونرجو أن تكون دامغة لباطل موقظ الفتن، لأنها حجة داحضة لشبهته التي اخترعها خياله، وناهضة في بيان أن مسلمي العرب يتبرأون من كل وسوسة تفرق بينهم وبين أخوتهم في الوطن والجنس واللغة والمصلحة والتابعة العثمانية كما يتبرأ الخير من الشر، والنفع من الضر، وأن موقظ الفتنة لم يترجم عن ضمائرهم ولا قال ما قال بالنيابة عنهم وهو ليس منهم وإن كان يحزننا أن وجد منهم من يترجم عنه ويكتب له ما يريد باسمه واسم نفسه، وهو لم يقل ما قال أيضاً باسم الإسلام وقد علموا أنه جنى على الإسلام أكثر مما جنى على النصرانية، وينبغي أن يبرأوا الحكومة الدستورية من الإقرار والإعانة على هذا الفساد وإن شاع أنها تساعد هذا المفسد على عمله فإن صح ما يقال من مساعدتها إياه، فلا بد أن تكون

(١) المنار ١٣ (١٩١٠)، ص ٤٤١ - ٤٤٤.

المساعدة لزعمه أنه يعضد الإصلاح ودعواه، «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١١ - ١٢].

كل من اطلع على ما كتبه المفسدون يعرف من يقصد منهم بهذا الكلام إذ لا ينطبق على كثير من المفسدين ولو كان كل الفاتنين كمن ذكرنا لفسدت الأرض وهلك الناس، ومن لم يطلع عليه ولا وصلت إليه وسوسته فخير له أن لا يعرفه، على أنه إذا ظل سادراً في إفساده، سادلاً أذيال غروره وعناده، فسنتقل الكلام من حيز الإبهام ونأتي بالشواهد والنصوص من كلامه المؤيدة لما قلنا تحذيراً من كل ما يكتبه وما يقوله، ولعل ديوان الحرب العرفي يكفيننا ذلك بمنعه من أمثال هذه الفتن قبل أن يظهر أثرها الرديء فإن الرجل وإن كان متهماً بسوء النية عند جميع العرب يخشى أن يؤثر كلامه في بعضهم أو يكون سبباً لسوء ظنهم بحكومتهم الدستورية وفقها الله لكل إصلاح، وجعل أيامها الدائمة إن شاء الله تعالى أيام خير وفلاح.



## ذكرى [الوفاق الايجابي]<sup>(١)</sup>

٩١

للسوريين عامة. وأهل بيروت خاصة

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٤٤١ - ٤٤٤]

البلاد السورية من أرقى البلاد العثمانية استعداداً في العلم والعمران،  
وان بيروت أرقى هذه البلاد، بل هي من أئمن الدرر في تاج آل عثمان.

(\*) نشرناها في جريدة الحضارة التي تصدر بالأسبوعية.

قد زادت قيمة بيروت في نفوسنا بعد الدستور أضعافاً مضاعفة، وصرنا نباهي بها ونفاخر بعد أن كنا نشكو من تلك المعرة الفاضحة: معرة العصبية الجاهلية باسم الدين التي كانت حجاباً دون محاسنها الكثيرة، ومزاياها الجمّة، فقد كانت تتلفع بذلك الثوب المنكر وتتدجج بسلاح البغي والعدوان فكلما سمعت هيعة جردت سلاحها هذا، وقالت به هكذا وهكذا، تتوهم أنها تجاهد في سبيل الله، وتفتك بعدو لها ولله، وإنما كانت تجاهد في غير عدو، بل كانت تحارب نفسها وهي لا تدري، فيقطع بعض أبنائها صدور الأبناء الآخرين وهو لا يرى ولا يبصر، حتى إذا ما لاح صبح الدستور [١٩٠٨] ألقى الإخوة السلاح من أيديهم وطفق بعضهم يعانق الآخر ويقبله وهو يبكي على ما فرط في ذلك الليل البهيم، ويسم لما يرجو في هذا النهار المنير.

كان بعض عقلائنا يقولون إن علة تلك الأحقاد والإحن هي الحكومة الاستبدادية التي لا تجد حفاظاً لسلطتها إلاّ التفريق بين رعيتهما، ولا سيما أهل الذكاء والعلم منهم، وكان بعضهم يقول إن علة ذلك التدابر والتباغض هي دسائس أصحاب المطامع من الأوروبيين، وهناك فريق ثالث يجمع بين القولين، ويثبت كلتا علتين، ولا خير لبيروت ولا لما يجاورها من البلاد في فوز هاتين السياستين. وإنما خيرها في اتحاد أبنائها على ترقيتها وعمرانها ورفع شأنها وكل من السياستين عقبة كؤود في طريق سعادتها هذه.

فرحنا بعد اعلان الدستور من خلع بيروت ذلك الثوب الذي كانت تتلفع به أحياناً في تلك الظلمات ونبذ ذلك السلاح الخاطئ الذي كانت تحزّ به مفاصل أعضائها فتبين بعضها من بعض، وأشبعناها ثناءً وتقريظاً، وأرويناها حمداً وشكراً، راجين أن يكون الشكر مدعاة المزيد، وذلك أثر الشكر الطبيعي في نفوس أهل النجدة وعلو الهمة كأهل بيروت.

تلك المحمّدة التي عكس لنا البريد صوتها وأرانا البرق نورها ونجن في

مصر قد هاجت شوقنا لرؤية بلادنا ترفل في حللها الزاهية، في نور شمس الدستور الضاحية. بعد أن تركناها منذ سنين دخلت في جمع الكثرة وهي تتعثر في ذلك الثوب الخلق، في ذلك الطريق الذي في مثله يقول الراجز.

وقاتم الأعماق خاوي المخترق      مشتبه الأعلام لماع الخفق

تسير على غير الهدى، إلى حيث تقع في مهاوي الردى، في تلك الحنادس، بما يخفق من بروق الوسائس، التي تغريها بإعانة المستبد فيها على استمرار استعبادها، أو تمكين الطامع فيها من ازدهارها (لا سمح الله).

زرت بيروت وغيرها من البلاد التي أعدها كلها وطني الخاص فكنت على تفضيلي بيروت على سائر أخواتها من المدن بنات سورية أرى أن الوفاق السلبي وحده لا يثمر مانح من عمران البلاد وارتقائها - وأعني بالوفاق السلبي ترك ما كان من التنازع والتخاصم، والتشائم والتلاحم - وإنما تعمّر البلاد وتسعد بالوفاق الايجابي وهو إنما يكون بالاختلاط وكثرة التزاور والاشتراك في الأعمال المالية، والجمعيات العلمية والأدبية.

بذلت لهم نصحي وهم قومي الذين أفخر بهم إذا صلحوا وأصلحوا، وتصيبي معرتهم إذا أساؤوا وأفسدوا، راجياً أن يكون ذلك الوفاق الذي سميته سلبياً مقدمة وطليلة لما يكون بعده من الوفاق الايجابي بالتدريج وأنا لا أزال مع سائر العقلاء من إخوانهم البعيدين عنهم في مصر والأستانة وأمريكا وأوروبا ننتظر أن يكونوا هم السابقين إلى رفع قواعد بيت الاتحاد على أساس الدستور ليكونوا في مقدمة زعماء الارتقاء في تلك الديار في هذا الطور الجديد ولتكون مدينتهم ينبوع مدنية تلك الأوطان في ظل الدولة العلية أيدها الله تعالى.

بيننا نحن على ذلك الانتظار إذا بجرائد بيروت نفسها تعيد على أسماعنا في هذه الأيام شيئاً من حوادث ليالي الاستبداد الحالكة: بعضها صريح،

وبعضها جمجمة وتلويح ، وقد جاء العاصمة أناس منها فإذا هم يتشاءمون ويتطيرون ويرون أن بعض علل التفرق السابق أو كلها قد عادت جذعة أو كادت . . . فالله الله يا بيروت في نفسك ، وفي أبناء جنسك ، فإن أعداء قومك وأعداء دولتك يتربصون بك الدوائر ، ويكيدون لك المكائد .

إسمعي يا بيروت وعي فإذا سمعت سمعت سورية كلها وإذا وعيت وعت ، وإذا لم تلقي السمع ، ولم تفرقي بين الضر والنفع ، فعليك إثمك وإثم سورية كلها .

إنك ترين في بعض صحف المفسدين الذين يلبسون لك ثياب الناصحين كلاماً في التفرقة بين المسلمين والنصارى فيالك أن تغتري بهم ، أو تنخدعي لهم ، نعم ، إن الكريم ينخدع ولكن في الخير ، ولا عذر له في الانخداع لدعاة الشر ، إنهم يقولون لا حق للمسيحي من السوريين أن يتكلم في شؤون المسلمين ، ونحن مسلمي السوريين وعلماءهم وكتّابهم نقول إن لهم أن يتكلموا في شؤوننا كلما رأوا الفائدة للبلاد في كلامهم معنا فيها ولا نسيء الظن فيهم ، لأن المصلحة مشتركة بيننا وبينهم .

إنني لا أسيء الظن بكم أيها الإخوة الأذكى الفضلاء ، ولا ببلدكم ، وإن لم تخل كغيرها من الجهلاء ، وإنما المحب مولع بسوء الظن في كل أمر يتعلق بمحبوبه ، فهذا ما يدعوني إلى هذا التنبيه .

إن رجائي في عقلاء الطائفتين وفضلائهم لعظيم وأن مما زاد هذا الرجاء قوة ورسوخاً تأسيسهم لنقابة الصحافة في بيروت وعسى أن يشترك معهم جميع أصحاب الصحف اللبنانية والمتنظر من هؤلاء الكتّاب النبهاء وقد اجتمعت كلمتهم أن يجمعوا كلمة قومهم على الوفاق ويبحثوا شجرة الخلاف الخبيثة من أصولها ويردّوا بالإجماع على كل من ينز بلدهم بلقب التعصب الذميمة وإن كان من آبائهم أو إخوانهم المهاجرين أو المقيمين فإنني أرى بعض جرائدنا في أمريكا لا تزال تركب متن هذا الخطأ: خطأ

الالتهام بالتعصب الديني وهو هو الذي يثير كوامنه، ويحرك سواكنه، ويقوي ضعيفه، ويحيي ميتة، فما لهم لا يذكرون.

إذكروا أيها الأذكىاء ما يجمع الألباء وتناسوا ما يفرق، إلى أن تنسوه بركة التعاون والإخلاص، اذكروا أن لكم جامعة كبيرة وهي اللسان، وجامعة أخرى وهي الديار، وكل منهما جامعة شريفة لها ذكر مجيد في التاريخ، وجامعة أخرى وهي العثمانية التي تصل حبلكم بحبل كثير من إخوانكم الشرقيين وما أعز من أكثر إخوانه ويتعدد أعوانه! «وإنما العزة للكثير» ومن أكبر خطأ بعض الجرائد في المهاجر التنفير من هذه الحكومة التي يرجى لكم في ظلها ما لا يرجى لغيركم إن أنتم اتفقتم على تعزيزها بترقية بلادكم وجمع كلمتكم، ولا حجة لتلك الجرائد إلا سوء سيرة رجال الدولة في أدوار الاستبداد البائدة وقياس الآتي على الماضي وهل يقاس الضد على ضده؟ كلا، إن السوريين لم يذوقوا من بأس الاستبداد ما ذاق الأرمن ونرى هؤلاء يسارعون اليوم إلى اقتطاف ثمار الدستور ويشاركون في الواجبات ليشاركوا في الحقوق. نراهم يعلمون ولدانهم في المدارس النظام العسكرية كل يوم ترغيباً لهم في هذه الخدمة الجليلة وما نصارى السوريين دون الأرمن ذكاءً وعلماً بل هم في هذا العنصر العربي ركن عظيم، تباً لمنكريه بأقوالهم، ومحاولي تقويضه بإفسادهم، فتذكروا وتدبروا، ولا تنازعوا ولا تدابروا، واتحدوا وتعاونوا على ترقية البلاد بالعلم والثروة لتكونوا كما يؤهلكم استعدادكم الركن الأعز الأكرم في هذه الدولة، وما ذلك على الله بعزيز، وهو إذا شاء يهبكم اجتماع الكلمة وكفى.





[المنازح ١٣ (١٩١٠) ص ٥٣٨ - ٥٤٢]

نحن في زمن فاز فيه المتعاونون، وهلك فيه المتخاذلون، سعدت فيه أمم بأعمال الجماعات، وشقيت أمم بأسرة الأفراد، فالأمم فيه درجات بعضها فوق بعض فأعلاها ما كثرت فيه الجمعيات، المتعاونة على الخير بقدرة كثرة الخيرات، ويليها ما قلت فيه الجمعيات ففاتها من الخيرات والمنافع ما فضلها به ما فوقها، ويعبر عن هذه الأمم بالأمم الحية العزيزة، والحياة العزة فيها متفاوتة، أو مقولة بالتشكيك كما يقول المنطقيون، فلذلك يخاف ويرجو بعضها بعضاً، وأية أمة عاقلة تأمن سنة الله في تنازع البقاء، وطمع الأقوياء في الضعفاء؟

وأما الأمم الذليلة التي تقابل هذه الأمم فهي في دركات متفاوتة أيضاً أدناها منها في القسمة العقلية ما ليس فيها جماعات تتعاون على الخير ولا على الشر، ولا يخذل بعض أفرادها بعضاً في الأعمال النافعة، ويليها في السفل الأمة التي يتخاذل أفرادها في الخير فلا ينبري فيها أحد لعمل نافع لها إلا ويتصدى بعض الأفراد لمناهضته وخذله. وأما الأمة التي تعد في الدرك الأسفل فهي التي تتألف فيها الجماعات لتأييد الباطل وعمل المنكر، ولخذلان الحق ومقاومة المعروف.

لا يخذل فرد من الأفراد، ولا جماعة من الجماعات، عملاً من أعمال الخير لأمته مع الاعتراف بأنه خير، وإنما يخذلونه بادعاء أنه شر ما أو

(\*) نشرنا هذه المقالة بجريدة الحضارة التي تصدر في الأستانة.

يشتمل عل الشر أو يترتب عليه شيء من الشر، ومنهم من يعتقد صحة ما يدعي لجهله كنه العمل أو لأن بغضه أو حسده للعامل يقلب صورة العمل في مخيلته ويلونه بغير لونه فهو ينظر إلى ما في خياله ويحسب أنه عين ما في الخارج، ومنهم من يضل على علم ويتعمد الفرية والبهتان، إرضاءً لحسده أو حسد من يغريه بالمقاومة والخذلان، أو اعتذاراً عن الامتناع من المساعدة التي تنتظر من مثله، وهو يبخل بها ولا يعترف ببخله.

الحسود الذي يبغي بحسده، والشحيح الذي يطيع شحه، وصاحب الهوى الذي يتبع هواه بالباطل لا مطمع في اتقاء شرهم إلاّ بإصلاح نفوسهم أو مقابلتهم بقوة لا قبل لهم بها فإن كان الأول متعذراً على العامل فالثاني مما يتيسر له إلاّ إذا فقدت الأمة استعداد الخير وكانت في حكم سنن الله في عدد الهلكى. وأما من يخذل العمل النافع لاعتقاده أنه ضار فعلاجه سهل وطبه حاضر إذا كان مخلصاً تقياً سواء كان سبب اعتقاده الجهل المطلق، أو السخط الذي أراه العمل بغير صورته الحقيقية، ولكن قد يعسر التمييز بينه وبين سىء النية، أو تجهل الطريق لا يصلح العلاج إليه.

ليس بيني وبين معالجة المخلص الحسن النية إلاّ أن يصل صوتي إلى أذنه أو يلقي كتابي بين عينيه، فيقرأ أو يسمع الحجة التي أدلي بها إليه، وكأني به وقد زال عنه الغشاء، وانكشف له الغطاء، فاستبق باب المتاب، واستغفر ربه وأنا ب.

أقول له الخلاف بين البشر سنة غريزية فيهم لا مطمع في تبديلها فإذا جعلنا الخلاف في الرأي والفهم سبباً للتنازع والتخاذل، نكون سجلنا على أنفسنا الفشل الدائم والهلاك البطيء أو العاجل، ولا يختلف الناس في شيء كاختلافهم في الأمور الاجتماعية وما به تترقى الأمم أو تتدلى لأن كل واحد يدعي العلم بذلك وإن كان يقل في الناس ذو العلم الصحيح التفصيلي بمسائل الاجتماع البشري وإصلاح أحوال الأمم، يقل ذلك في



الشعوب التي استبحر فيها العمران وارتقت علومه، ويكون أندر من الكبريت الأحمر في سائر الشعوب، فإن وجد فيها كان مجهول القدر، غير متمكن من كل ما يقدر عليه من النفع، بل ربما كان علمه سبب بلائه ومحتته، واضطره إلى الهجرة من وطنه، وكأين من نبي كريم، وعليم حكيم، وصوفي كبير، وسياسي خبير، كافأه قومه على ما تصدى له من إصلاحهم بإهراق الدم، أو النفي من الأرض، أو الضرب أو السب، ثم ظهر في حياته أو بعد مماته أنه كان هو المصيب وكل من ناوأه من المخطئين الخاطئين.

إذا تذكر المخالف هذا ووعاه إنتقل به إلى البحث في ضعفنا، وحاجتنا إلى دفع الخطر عن أنفسنا، وكون ذلك لا يتم لنا إلا بالتعاون والتناصر، مع ترك التخاذل والتدابير، فإن لم نفعل ذلك كان ما بقي لنا من القوة الممسكة ممزقاً، وكنا نحن الممزقين.

فإذا هو فقه هذا وتدبره أقول له إننا أقوام نجتمع في أمور ونتفرق في أمور، فإذا نظر كل منا إلى ما يخالفه فيه غيره دون ما يوافقه فيه وجعل ما به الخلاف قاضياً على ما به الوفاق تمزقت قوانا وإذا نظر كل منا إلى ما به الوفاق فعززه وقواه تتحد قوانا ويستفيد كل منا ويفيد.

المختلفون منا في المذاهب متفقون في أصل الدين فلماذا يضع أهل كل مذهب مسائل الخلاف بينهم وبين أهل المذهب الآخر نصب أعينهم فيجعلونها سبباً لإضعاف كل منهم للآخر ولا يجعلون ما به الوفاق من أصل الدين سبباً لتقوية كل منهم للآخر وذلك لا يمنع كلا منهم أن يتفق مع من يوافقه في المذهب على أعمال أخرى تنفعهم ولا تضر غيرهم.

لماذا يختصم السني والشيعة في بخارى مثلاً ولا نفع لأحد منهما في اختصاصهما وإنما الخسار عليهما معاً والربح كله للروسية السالبة لاستقلالهما والمستعبدة لهما معاً؟

ولماذا يتقاتل الزيدي وغير الزيدي في اليمن وهو مما يضعف كلا منهما، ولماذا لا يتحدثون فيما هم متفقون فيه كأصل الدين والوطن فيقوى كل منهما بقوة الآخر ويبقى حراً في مذهبه لا يجادله أحد فيه إلا بالتي هي أحسن؟ فلا يعامل المسلم أخاه المسلم الذي يوافقه في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر بشر مما أمره الله تعالى أن يعامل به أهل الكتاب الذين يخالفونه في الإيمان بخاتم النبيين والمرسلين، وما أنزل عليه من الكتاب المبين، فإن استكبر مخالفته إياه في فهم بعض النصوص حتى فهم كلمة التوحيد فليعلم أن آفة المخطيء الجهل وإنما يعالج مرض الجهل بالعلم والحلم دون العدوان والبغي.

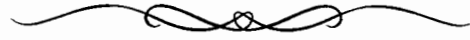
والمختلفون منا في الدين متفقون في أمور أخرى يقوى كل منهما بالارتباط مع الآخر بها كالوطن واللغة والجنسية السياسية فلا ينبغي أن يشتغل كل من المسلم والنصراني بمقاومة الآخر بما به الخلاف، بل على كل منهما أن يشتغل بالتعاون مع الآخر بما به الوفاق، فينهضان معاً بعمارة البلاد وتنمية الثروة وكل ما يتم به تعزيز الدولة، وهناء المعيشة.

والمختلفون منا في اللغات متفقون في واحدة أو أكثر من الجامعات العظيمة التي أشرنا إليها كالدين واللغة والوطن والجنسية فليعمل كل قوم في هذه الدولة مع كل من يشاركهم في جامعة ما لتقوية تلك الجامعة ناظرين دائماً إلى جهة الوفاق، متسامحين فيما لا عدوان فيه من جهة الخلاف، ومن يعيب منهم أخاه أو يخذله فيما يخالفه فيه من غير عدوان ولا بغي من ذلك المخالف فذلك إما غر مفتون، وإما أحد الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

إذا كان من المصلحة العامة أن يكون الأقوام والجماعات أحراراً فيما يخدمون به الجامعة الخاصة والجامعة العامة فمن المصلحة أيضاً أن يكون الأفراد أحراراً فيما يخدمون به اللغة والوطن والدين والدولة ومن يكيد لأحد منهم ليحبط عمله فهو من المفسدين كالذين يكيدون لمدرس لكيلا

يُنتفع بدرسه، أو مؤلف ليصرفوا الناس عن تأليفه، أو لصاحب صحيفة ينشرها أو خطبة يخطبها، أو مدرسة يؤسسها فينبذونهم بالألقاب، ويصدون عنهم الناس.

سيقول المحرفون إن في هذا القول منعاً لحرية الانتقاد، وإبطالاً لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كلاً. ثم كلا. ليس هذا من المنع لما ذكر وإنما هو عين الانتقاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا فليكن الانتقاد والأمر والنهي، بيان لبطلان الباطل ولحقيقة الحق من غير تهيج للعصبية، ولا إغراء بالإصرار على الخطية، ألا وليحاسب أنفسهم المغرورون الذين يدعون القيام بهذه الفريضة، ثم يخذلون العاملين بالسعاية والغيبة، ولا يوجهون إليهم الانتقاد فيما بينهم وبينهم، وبما عجباً لماذا يسكتون عن كثير من المنكرات المجمع عليها، ويُعنون بتحمل الإنكار في المسائل المجتهد فيها، إلا أن الحاسد المكابر لا علاج له، يبدأ به حسده فيقتله، ألا وإن فيما قلناه مقنعاً للمخلصين، وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.



## البهتان العظيم

٩٣

[الدعوة إلى الوفاق والاتحاد وجريدة «حضارة»]

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٥٤٩ - ٥٥٢]

كنت سامراً مع ناظر الداخلية بداره في أوائل المحرم فذكرنا سوء التفاهم بين العرب والترك فذكر أن عبيد الله أفندي مبعوث أيدين سينشئ جريدة عربية في العاصمة لأجل هذه المسألة وفهمت منه أن ذلك برأي الحكومة ومساعدتها فقلت يخشى أن تزيد هذه الجريدة في سوء

التفاهم فإن مديرها مشهور بالتعصب على العرب فلا يثقون بقوله ولا بنيتة فهلا اخترتم لهذا العمل غيره. قال الناظر إنه يظهر لنا أنه محب للعرب غال فيهم ولعلكم سمعتم ما ذكرتم عنه من بعض مناظريه من مبعوثي العرب، قلت لا وإنما أنا أعرفه بنفسه فإنه كان بمصر وكان يصرح في المحافل العامة بما يستنكره العرب وبأنه ينبغي للترك أن يستغنوا عن اللغة العربية حتى عن القرآن العربي بأن يترجموه بلغتهم وقد جرت بيني وبينه مناظرة في ذلك. قال الناظر أما الاستغناء عن القرآن العربي بترجمته فلا أوافق عليه ولكنني أعرفه محباً للعرب.

وفي ذلك الشهر نفسه أصدر عبيد الله أفندي جريدته وكان من أمرها ما عرف الخاص والعام فقد قامت عليها قيامة الجرائد العربية في مصر وولايات سورية كلها وفي أمريكا تفضح مقاصد صاحبها وفي إلقاء الشقاق والبغضاء والتعصب الذميمة الجنسي والديني بين العرب وشكوه إلى الحكومة وطعنوا في الحكومة ولا سيما نظارة الداخلية لما شاع وذاع من مساعدتها له وصار يضرب باسمه المثل في التفريق والإفساد بين جميع الناطقين بالضاد، ونحمد الله أن جاء ما سعى إليه في جريدته من إثارة الفتن بين المسلمين والنصارى في بيروت وسائر البلاد السورية بضد ما سعى إليه فقد تمكنت الألفة والوحدة الوطنية بين الفريقين واتفقت جرائدهما على ذلك.

من غرائب هذا الرجل أنه يجمع في جريدته بين الأضداد والنقائض فيمدح الشيء ويذمه مطلقاً ويثبت الشيء وينفيه كذلك، ويحث على الأمر وينفر عنه فإذا اعترض عليه في بعض ما يكتبه أمكنه أن يدعي لنفسه الطرف الآخر ويستدل عليه ببعض ما كتبه فهو في مشربه وحاله وعقله وأخلاقه ليس أهلاً لأن يناظر أو يجادل وإنما اهتمت الجرائد العربية بشأنه لا اعتقادها أن الحكومة هي التي دفعته إلى هذا العمل ولأجل أن تتخذ فتنته ذريعة لجمع الكلمة بين أبناء الوطن العربي لمقاومة من أتفقوا على أنه عدو لكل عربي.

ومن غريب أمره أنه لا يستحي من مكابرة الحس، واعطاء الضد حكم الضد، فهو يصرح بأن العرب كلهم مسلمون وأنه لا يعقل هو ولا أحد من الترك أنه يوجد في العرب نصراني. ومثل هذا في المكابرة ما بهتني به ويا له من بهتان عظيم قلما يوجد في المخلوقين بشكل الإنسان من يرضى لنفسه التصريح بمثله وهو بهت الإنسان جهراً في كتابة تطبع وتنتشر بضد ما هو مشهور به وتحريف كلامه المعروف عندهم والإصرار على ذلك بعد إنكار الجماهير عليه في الأقطار المتفرقة والبلاد الكثيرة.

أحمد الله تعالى أن عرف لي كل من يعرفني إخلاصي في الدعوة إلى الوفاق والاتحاد بين المتفرقين في الأديان والمذاهب والأجناس والمشارب، فكم دعوت المسلمين إلى الاتفاق مع من يعيش معهم في كل قطر ومملكة وكم دعوت العثمانيين خاصة إلى الاتحاد وكم سعت في هذه السبيل. ولما حدث ما حدث بعد الدستور من سوء التفاهم بين العرب والترك سعت إلى تلافي ذلك بالقول والكتابة والسعي عند أولي الأمر في العاصمة لكن لم يظهر لي أحد من أولي الأمر العناية بما سعت إليه إلا حسين حلمي باشا في وزارته ولكن سر به كثيرون من الفضلاء. وكنت نشرت عدة مقالات في ذلك بجرائد العاصمة التركية والعربية قبل ظهور جريدة الحضارة وعدة مقالات في هذه الجريدة.

حقوق عبيد الله نظره في هذه المقالات ودقق النظر ليجد فيها عبارة تقبل التحريف بمراد ظاهر ليجعله تكأة له في هجوي والتنفير عني وعن مشروع فلم يجد فعمد إلى البهتان المبين فنقل من إحدى مقالاتي في جريدة الحضارة جملاً محكية عن ساسة أوروبا الذين يريدون القضاء على هذه الدولة بتفريق عناصرها مع الرد على أولئك الساسة وتحذير العثمانيين من الإصغاء إليهم وحثهم بالبراهين على الاتحاد الذي فيه خيرهم أجمعين. فزعم أولاً أنني كتبت تلك العبارة عن لسان الأوروبيين لأجل تفريق العثمانيين وأنه لا يوجد في الأوروبيين من يغرينا بالتفرق وإنما هم يدعوننا

إلى الوفاق! ثم سكت مدة وصار ينقل تلك العبارة ويعزوها إليّ مباشرة وترجمها إلى التركية غير مرة لينفر إخواني الترك مني، ولم يخجل من ادعائه أنني أنا الذي أقول تلك الأقوال وأدعو العثمانيين إلى التفرق والانفصال، فمثله كمثل من يعمد إلى مثل قوله تعالى وقالوا «إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون» [سورة الفرقان رقم ٢٥، الآية ٤]. الآية وقوله «وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» [سورة الفرقان رقم ٢٥، الآية ٥]. فحذف من الآيتين لفظ «قالوا» وزعم أن القرآن يطعن في القرآن وفي النبي، صلى الله عليه وسلم، «سبحانك هذا بهتان عظيم» [سورة النور رقم ٢٤، الآية ١٦]. وقد روينا في الصحيحين والسنن أن النبي (ص) قال «إنما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

أنكر عليّ عبيد الله أولاً أن في الأوروبيين من يرى في ترويح سياسته تفريق العثمانيين بعضهم من بعض ولا سيما الترك والعرب، أنكر ذلك وهو يعرفه كما هي عادته وفي كلامه ما يشعر به بل صرح به في العدد الأخير من جريدته الذي أعلن فيه إيقاف إصدارها الآن ولكن الغافلين من قرائها الذين ينسون عند قراءة كل عدد ما كتب في غيره بل عند كل جملة ما يناقضها من الجمل قبلها قد يصدقونه فيما بهتني به ومن الأخلاق التي رسخت في هذه العاصمة وفي رجال هذه الحكومة خلق التسليم والتصديق بالشر والارتياح في الخير طبع هذا الخلق في نفوس الكثيرين منهم العهد الحميدي الذي لم يكن لهم فيه من شاغل إلا الوسوسة والتجسس والالتماس بالشر.

هذا وإننا نحن الذين عشنا في شر أيام العهد الحميدي في مصر بعيدين عن استبداده وعن وساوسه أعرف بسياسته من الذين عاشوا فيه وأعرف بسياسة أوروبا أيضاً وقد أشرت في مقالات «العرب والترك» إلى بعض سعي الإفرنج من استقلال العرب وعبيد الله يعرف شيئاً من هذا ولكنه يتعمد كتم الحق وإظهار الباطل لما له من الهوى في ذلك. ويمكنني أن أنقل كلمة وجيزة في هذا الباب من الكتاب المسمى الدول المعظمة أمام

الانقلاب العربي الذي ألفه اوجين جونغ الذي كان والياً لفرنسا في الهند الصينية وهي قوله في ص ٢٢٨ ما ترجمته :

«إن العناصر التي تتكون منها الدولة العثمانية وهي الألبان والمكدونيون في أوروبا والروم في جزائر الأرخييل والأرمن والأكراد والعرب في آسيا كلها أصبحت منذ زمن تتحرى طريق الانفصال من هذه الشجرة التي نخرها دود الفساد. فلو نظرنا إلى كل من هذه العناصر نجد العنصر التركي أدناها (دونها) إلا أن السبب الذي ساعده على استبقاء نيره على عاتق هذه العناصر إلى اليوم إنما هي معونة العنصر العربي له الذي هو في نفسه أكثر عدداً من جميع تلك العناصر وفي جملتها العنصر التركي وما وفق الترك إلى ضمان إخلاص العرب لهم وارتباطهم بهم على كونهم يظلمونهم كسائر العناصر إلا باستنجادهم الديني لشعورهم الديني وجعل المصلحة التركية عين المصلحة الإسلامية.

«فالعرب اليوم قد شعروا بوجودهم وصاروا يأنفون أن يخذعوا بعد ذلك وأن يحافظوا على سلاسل أسرهم وأغلال استعبادهم - فيكفي أن يمد العرب إمداداً قليلاً حتى تهدم الدولة العثمانية من نفسها كما يهدم القصر المبين من ورق اللعب» اهـ.

فهذه كلمة وجيزة من أحد الكتب الكثيرة التي ألفها الأوروبيون لإغراء أوروبا بفصل العرب من الترك وإسقاط هذه الدولة لا سمح الله وقد صدق في قوله إن العرب مخلصون لهذه الدولة ولإخوتهم الترك وأن سبب ذلك الإسلام وكذب إيهامه لقومه أننا تحولنا عن إخلاصنا. ولكن إذا بقيت جريدة عبيد الله تنفث سموم التفريق والإفساد حتى أنست العرب ما كتبته أقدام وغيرها من قبل ولم تتدارك هذه الحكومة ذلك وسائر ما نصحنها لها بتداركه فلا يعلم إلا الله مصير الأمور. ونحن قد نصحننا قومنا ونصحننا حكومتنا كما أمرنا نبينا (ص) بقوله «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم.

[أثر سياسة عبد الحميد في أخلاق الأمة]

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٥٩١ - ٥٩٧]

### الثقة والظنة

إظهار الثقة بالإنسان مجلبة لما تحصل به الثقة، وابتغاء الظنة فيه مدعاة لما تتحقق به الظنة، فالمعاملة بالثقة أصل الصلاح والإصلاح، والمعاملة بالظنة أصل الفساد والإفساد.

رب ولدك مراعيًا هذين الأصلين تحل بينه وبين الرذائل، بما تطبعه في نفسه من ملكات الفضائل، لا تذكر له الرذيلة ولا تنه عنها ولم يأتها لأنه لا ينهى عن الشيء إلا من جعل عرضة لإتيانه، لا تتهمه بفعل شيء ولا تجعله في موضع المراقبة ليتقي السوء، بل أشغله بالصالحات عن السيئات، وحل بينه وبين أسبابها وطرقها حتى لا تخطر بباله إن استطعت، فإن علمت أنه سمع بشيء منها أو رآه فاذكر له مضار ذلك الشيء ومهانة أهله وسوء أحوالهم وما ينتظر من العاقبة السوء لهم، أذكر له ذلك من باب بيان الواقع، وإظهار الحقائق، مؤيداً بالدلائل والشواهد، واجعل نفسك وإياه من طبقة شريفة عالية لا يليق بشرفها أن تعاشر أولئك المسيئين ولا أن تجعلهم موضوع أحاديثها إلا قليلاً تقصد به العبرة بأحوال البشر والشفقة عليهم من ظلم الظالمين منهم الذين يكونون بفساد تربيتهم قدوة سيئة لفاقدي العلم وفاسدي التربية.

(١) نشرنا هذه المقالة بجريدة الحضارة.



إذا علمت أن ولدك يعرف ولدًا أو رجلاً غير مؤدب وأنه عرضة لمحدثته ومعاشرته فلا تنه عن ذلك نهياً صريحاً يشعره بأنك تمنعه منه بسيطرتك عليه، بل أشعره بأنك تعلم أنه يحتقره في نفسه ولا يرضى لها أن تتخذه صاحباً ولا عشيراً وابن على هذا نصحه بأن لا يظهر له الإهانة والاحتقار في وجهه ويكتفي من ذلك بالإعراض عنه كما أمر الله تعالى بقوله «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ١٩٩]. وإذا تعرض ذلك الذي لا أدب به وبدأه بالحديث فليكن جوابه جواب مسألة وتخلص يفهم مخاطبه منه مع الأدب أنه لا يجب مجاراته والاسترسال في الحديث معه، كما وصف الله الكلمة من عباده بقوله «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» [سورة الفرقان رقم ٢٥، الآية ٦٣]. أي قالوا قولاً يسلمون به من الإثم، ولا يقارعون الجهل، ولا ينجي من شر الشرير مثل البعد عنه وترك الإساءة والإحسان إليه.

إن نفس الولد تشبه الصحيفة البيضاء النقية، وإن سمعه وبصره هما القلمان اللذان يكتبان فيها أنواع العلوم ويرسمان فيها صور الأخلاق والآداب، فينبغي أن لا يسمع إلا حسناً، ولا يرى إلا حسناً، يتحتم هذا في طور التقليد الذي يسلم فيه بكل ما يروى ويحاكي كل ما يرى، وكلما قويت فيه ملكة التمييز بنفسه بين الحق والباطل والحسن والقيح يذكر له بالتدريج كل ما هو معرض له من سيئات العالم وشروره بالأساليب التي تنفرد من الباطل والشر وترغبه في الحق والخير.

ألم تر إلى علماء التربية كيف يتحامون في كتب التعليم ذكر ألفاظ الجرائم والشرور والفحش والرفث لكيلا تشتغل نفوس النشء بها قبل أن تقوى بالحق والفضيلة وحب الخير.

دخل في الإسلام بيت من بيوت الأمريكيين: رجل وامرأته وأولادهما ومنهم ابنة معصر ذكية الفؤاد وكانوا في مصر فرغبوا إلى بعض معارفهم من المصريين أن يدلهم على عالم من علماء الإسلام يأخذون عنه ما يحتاجون

إليه من أحكام الإسلام، فدلهم صاحبهم على الأستاذ الإمام [محمد عبده] رحمه الله تعالى، لأنهم كانوا يعرفون اللغة الفرنسية ولا يعرفون من العربية إلا قليلاً والأستاذ كان يحسن هذه اللغة، ولأن الأستاذ هو الرجل العارف الكامل الذي يرجى أن يمثل الإسلام الأعلى لأمثال هؤلاء الإفرنج الذين تربوا تربية عالية وأخذوا حظاً عظيماً من العلوم، فكانوا يلقونه ويسألونه ويسرون بما يجيبهم ويتلقونه بالإذعان.

كانوا يتذكرون يوماً فجرى لفظ اليأس على لسان الأستاذ فقالت له تلك البنت الشابة منهم أتأذن لي يا سيدي أن أسألك عن أمر اشتبه عليّ في قولك؟ قال: نعم. قالت: كيف يذكر مثلك لفظ اليأس وأنت تعلم أن الألفاظ التي لها مدلولات ضارة إذا أُلقيت واستعملت فلا بد أن تؤثر في نفوس السامعين تأثيراً ما، أليس هذا صحيحاً؟ قال: بلى، وأني قلت مرة كلمة في تصوير تأثير الكلام، قلت انني إذا أُلقيت الكلمة وأنا وحيد ببيتي في حندس الظلام فلا بد أن تبقى تلك الكلمة معلقة في الهواء حتى تصادف نفساً مستعدة فتؤثر فيها. قالت الفتاة: أتأذن لي أن أفسر قولك هذا بما فهمته؟ قال: نعم.. قالت: إن الإنسان يكون علمه بالشيء قبل أن يتكلم به إجمالاً مبهماً فإذا تكلم به انتقل إلى حيز التفصيل والتجلي ويستدعي ذلك إعادته وسماع الناس له فيؤثر في نفوسهم، أو ما هذا معناه. قال: أحسنت، وغرضنا من ذكر هذه الواقعة أن أرباب التربية العالية يتحامون ذكر الألفاظ التي تذكر بالمعاني الضارة إلا عند الضرورة.

\* \* \*

ألا وأن حب الخير وإيثاره من مقتضى الفطرة وهو الغالب على الناس ولولا ذلك لفسدت الأرض وإنما يقع الشر في الغالب لعدم تربية فاعله على التمييز الصحيح بينه وبين الخير له في عاجله وآجله، فهو عرض يعرض من الجهل وسوء التربية.

من آيات هذا أنك ترى الطفل من ابتداء عهده بالتمييز يسر إذا وصفته

بالخير ويزداد رغبة فيه ويمتعض إذا وصفته بضده وربما بكى وانتحب وهذا أعون صفات الفطرة السليمة على التربية القومية .

إذا رأيت من وليدك أماره الكسل وأردت أن تنشطه على العمل فصفه بالنشاط وأظهر له أنك تثق به وترى أنه أهل للقيام بالعمل الذي توجهه إليه ، وإذا أقي شيئاً منه فاحمده عليه ، فبذلك يتجدد له من الهمة والنشاط ما لم يكن له من قبل ، صفه بالجرأة والشجاعة يكن جريئاً شجاعاً ، صفه بالصدق والأمانة يكن صادقاً أميناً ، إجعله محلاً لثقتك في حب العلم والعمل تجده أهلاً لها .

لا تتهمه برذيلة من الرذائل فإنك بذلك تسهل عليه ارتكابها فإن اللوم إغراء<sup>(١)</sup> ، ومن يهن يسهل عليه الهوان<sup>(٢)</sup> ، فالمرء يشق عليه بمقتضى الفطرة أن يعرف بالباطل ويوصف بالشر ولو بحق ولذلك يخفي عيبه واخفاؤه إياه يكون عوناً للمربي على تنفيره منه وحمله على تركه ، فإذا فضح أمره هان عليه التهتك والمجاهرة بالمنكر بل ربما يتهم المرء ببعض المنكرات اتهاماً باطلاً فيحمله ذلك على إتيانها ، وقد يعزى إليه ما لم يفعل من المعروف والخير فيحمل نفسه على تحقيق الظن به ، كما روي عن بعض السلف أنه سمع بعض الناس يقول إن هذا الرجل يقوم الليل كله ، فعز عليه أن يوصف بما ليس فيه ويكذب من أحسن الظن به فصار يقوم الليل كله وكان قبل ذلك لا يقوم إلاّ بعضه . ومن أمثال العامة في بلادنا «من ائتمنك لا تخنه وإن كنت خواناً» .

نعم ، إن هذه الطريقة لا تطرد في الكبار كما تطرد في الولدان ، ولكنها تفيد في سياسة الرجال ، كما تفيد في تربية الأطفال ، بل تفيد في سياسة الأمم والشعوب فإنك إذا أردت أن تحت قوماً على عمل من الأعمال النافعة

وداوني بالتي كانت هي الداء  
فما لجرح يميت ايلام

(١) دع عنك لومي فإن اللوم اغراء  
(٢) ومن يهن يسهل الهوان عليه

فلا ينبغي أن تصفهم بالبعد عنه والكراهة له والجهل بمنافعه وفوائده وضعف الهمة عن القيام به وشح النفوس وبخلها أن تجود بالمال في سبيله، إنك إن تصفهم بذلك تزدهم إعراضاً وضعفاً وخولاً، وإذا أنت وصفتهم بالمروءة والنجدة وعلو الهمة وسخاء النفس وبسط الكف ترى نصحك مسموعاً وإرشادك مقبولاً.

كانت السياسة الحميدية في دولتنا شر سياسة أخرجت للناس لأنها بنيت على أساس الظنة والريبة في الأمة ولا سيما في المتعلمين من أفرادها، وقد ورد في الحديث الشريف «إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم» (رواه أبو داود) وكذلك فعل عبد الحميد أفسد أمته عليه حتى صار أكثر المقربين منه والمتمتعين بالسلطة والثروة في ظله يتمنون زواله، فما بالك بمن كان يطاردهم ويضيق عليهم مسالك الحياة، ولا نذكر من نفاهم من الأرض، أو زجهم في غياهب السجن.

إنه اتهم جماهير المتعلمين بعدم الإخلاص له وبتمني زواله فصاروا كذلك، ولماذا يكون الناس غير مخلصين للملكهم وأميرهم ولحكومتهم ودولتهم؟ إن الإخلاص هو الأصل ولا يتحول الناس عن الأصل إلا لسبب موجب يعرض لهم، أفلم يكن من العقل والحكمة أن يبحث ذلك الجبار عن سبب ما كان يتهم به عقلاء الأمة والعارفين بمصالحها من كراحتهم إياه وعدم إخلاصهم له، ويستعين على ذلك ببطانته وخاصته، ثم يزيل ذلك السبب العارض، ويرجع بخيار أمته إلى الأصل الثابت؟ بلى ولكنه ما كان يثق بأحد ثقة تامة فيستعمله في ذلك، فكانت قاعدة سياسته السوءى أن يبحث دائماً عن عيوب الناس ومفاسدهم ويصدق كل ما يلقي إليه في ذلك أو يأخذه بالتسليم احتياطاً ويبني عليه ما يبينه على ما يصدقه ويوقن به، ولا يبحث عن محاسن الأخيار وفضائل الفضلاء ليستعين بهم على إصلاح الفاسد وتقويم المائل، بل لا يصدق ما يبلغه من ذلك، فكان

كل أحد عنده ظنيئاً مريباً، فكيف يستطيع مع ذلك أن يصلح عملاً، أو يتقي زللاً؟

استعمل في ذلك الألوف من عمال الحكومة في جميع أعمالها ومصالحها، والمئين من الجواسيس في عاصمتها وولاياتها، وكذا في مصر وعواصم أوروبا وأشهر مدنها، واشتهر أمر سياسته هذه حتى بلغ افسادها من الأمة أن صار أبناء الرجل وبناته العذارى يتقربون إلى السلطان بالوشاية والسعاية فيه فيصب عليه سوط العذاب، أو يسام النفي من البلاد، ويأخذ أولاده الجعل على ذلك وهم فرحون، - إلى هذا الحد وصل فساد سياسة عبد الحميد في هذه الأمة ولا سيما في العاصمة فهو ما أفسد الناس عليه فقط بالتهمة والريبة وإنما أفسدهم أيضاً في أنفسهم حتى قطع أقوى صلات الصلاح وأمتنها بينهم وهي صلة الأولاد بالوالدين.

كان الأستاذ [محمد عبده] رحمه الله تعالى يقول إن أخوف ما أخافه من استبداد عبد الحميد وظلمه هو إفساده لأخلاق العثمانيين لا لإدارتهم فإن اصلاح الإدارة من بعده يسهل إذا كانت الأخلاق صالحة ولا يحتاج إلى زمن طويل إذا كانت الأخلاق سليمة، ومتى فسدت الأخلاق فإن إصلاحها لا يسهل إلا بعشرات من السنين كما جربنا في أنفسنا، يعني المصريين، فإن إسماعيل باشا أفسد الإدارة وأفسد الأخلاق، فلما وجدنا ريح الحرية وأردنا أن نهض بالإصلاح كان فساد الأخلاق هو الذي عاقنا لإفساد الإدارة ولولا ذلك لكانت هذه المدة التي أبيع لنا فيها ما نشاء من التربية والتعليم والكتابة والخطابة والاجتماع كافية لأن نرتقي فيها ونكون أمة.

وقع ما كان يتوقع ذلك الإمام الحكيم فقد أفسدت السياسة الحميدية السوء أخلاقنا حتى صار الإصلاح عسراً علينا مع الحرية على مقربة مما كان في زمن الاستبداد فإن الذي كان يتصدى للإصلاح في عهد عبد الحميد كان يتهم بعدم الإخلاص له، والذي يتصدى له الآن قد يتهم

بعدم الإخلاص للدستور ولرجاله، أو العثمانية وعناصرها، ولا يزال كثير من الكبراء على ما تعودوا في العهد الحميدي يصدقون التهم وإن كانت سعاية إفك وبهتان، وبرتابون في طالب الإصلاح وإن قام على صدقه الدليل والبرهان، وكذلك شأن الأمم والشعوب في طور الضعف والجهل.

\* \* \*

أخطأ كثير من المصريين بإساءة الظن بإخوانهم المخالفين لهم في الرأي واتهامهم بخيانة الوطن ويقع كثير من العثمانيين في مثل هذا الخطأ وضرره عظيم، أنا لا أقدر أن أصدق بوجود أحد يريد بأتمته أو دولته سوء، ولكن يوجد في كل أمة أفراد قلائق تغلب عليهم الأثرة حتى أنهم لا يبالون في طلب حظوظهم بالمصلحة العامة، ويوجد أفراد قلائق يضادونهم فيغلب عليهم الإيثار حتى أنهم لا يبالون بمصلحتهم الخاصة إذا عارضت المصلحة العامة أو عاقتهم عنها، وأكثر الناس لا يرضون أن تمس المصلحة العامة بسوء بل يودون حفظها وإن كان أكثر سعيهم لأنفسهم لا لأمتهم، والذين يتصدون للقيام بالمصالح العامة بالعمل والتعليم أو الكتابة والخطابة يخطئون ويصيبون ويتفقون في الرأي ويختلفون، ولا يجوز إتهام أحد منهم بقصد السوء لأتمته، وإنما ينبغي أن يتناظروا بالحجة والبرهان، مع اعتراف كل منهم للآخر بأنه يريد الخير ويطلب الحق، إلا أن يظهر من بعض الناس ما يدل على اتباعه لهواه في الانتقام من غيره كالبهتان المبين، والتحريف الظاهر، فذلك الذي لا يناظر ولا يراجع بل يترك للزمان حتى يفضح بهتانه، ويتولى خذلانه، مع بيان الحق في نفسه، والتحذير من الباطل ورجسه.

لقد كان عجب الناس من خطاب إبراهيم حقي باشا الذي أعرب فيه عن قاعدة السياسة في وزارته أن يتبع فيها قوله تعالى «ان الله يأمر بالعدل والإحسان» [سورة النحل رقم ١٦ آية ٩٠] وشاع في العاصمة أنه سيكون من فروع هذه القاعدة طلبه العفو عن المتهمين بالجرائم السياسية من العثمانيين

واستعادة اللاجئين إلى أوروبا منهم، ولكن لم يعجب الجمهور طلبه اعطاء معاش التقاعد لرجال عبد الحميد المنفيين في رودس لأنه إسراف في الإحسان إلى شر المسيئين. وأعجب من ذلك الطلب تعليله إياه بأنه لم يثبت عليهم شيء رسمياً!

على أن سياسة دولتنا أصعب السياسة وأعقدها فلا ينطبق عليها كل ما ينطبق على غيرها من قواعد علم الأخلاق وعلم الاجتماع، فنسأل الله تعالى أن يوفق رجالها ويؤيدهم بروح منه، ليكونوا مصدر الحياة والخير والبركة لها وللشعوب المكونة لأمتها، آمين.



## الحق للقوة والقوة بالحق

[المباراة في العمران هي السائق القوي للارتقاء]

[المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٥٩٧ - ٦٠٠، نشرت بجريدة الحضارة التي تصدر بالآستانة. المنار ج ١٣ (١٩١٠) ص ٥٩١]

كن قوياً بالحق يعرف لك حقك كل أحد: العلم قوة، والعقل قوة، والفضيلة قوة، والاجتماع قوة، والثروة قوة، فاطلب هذه القوى بالحق تنل بها كل حق مفقود، وتحفظ كل حق موجود.

الوالدان يفضلان العالم من أولادهما على الجاهل، والغني على الفقير، والقوي على الضعيف، يكرمانه بذلك بالمكاملة والمعاملة فيكون بين إخوته الذين هم دونه كأنه من طبقة غير طبقتهم، فهل يلام غيرهما على مثل هذا التفضيل والتكريم.

الإخوة أنفسهم يعتزون بأخيهم القوي بالعلم أو المال أو العقل أو

الأخلاق أو العصبية ويفضلونه على أنفسهم وإن كان أصغر منهم سنّاً ولا يوجد أفراد من الناس بينهم من المساواة مثل ما يكون بين الإخوة ولا سيما إذا كانوا أشقاء، أفلا يكون غيرهم أجدر بتفضيل القوي وتكريمه؟

الجماعات كالأفراد في احترام القوة وحفظ حقوق أهلها وتكريمهم وتفضيلهم على أمثالهم سواء كان أهلها أفراداً أم جماعات، فالعشائر في القبيلة الكبيرة، والعناصر في الأمة العظيمة، تتفاضل فيخضع ضعيفها لقويها ويعترف له بحق التقدم عليه، وبغير ذلك من الحقوق ومكان كل منهما من الآخر كمكان الأخ من أخيه، فما قولك في القبائل والشعوب الأجنبية بعضها مع بعض وكل منها غريب عن الآخر يرى مصلحته غير مصلحته وربما كانت قوته آفة عليه لا منفعة له.

القوي بأي نوع من أنواع القوى أكثر حقوقاً من الضعيف لأنه أقدر على كسب الحقوق فإنما يكسب الناس ما يكسبون بصفاتهم ومواهبهم التي يكونون بها أقوى استعداداً ممن عداهم.

المباراة والتنازع بين الأقوياء والضعفاء من السنن الاجتماعية في البشر، وأعدل أحوال القوي مع الضعيف أن يرضى بحفظ حقه الذي يكسبه بقوته من الطرق المشروعة فلا يبغي على الضعيف بغير حق مشروع، وأفضلها أن يكون إماماً له ومرشداً، وحامياً له من اعتداء غيره وعضداً، وشرها أن يبغي عليه ويهضم حقوقه «وان كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم» [سورة ص رقم ٣٨ الآية ٢٤].

إنما كانت المباراة والمنافسة سنة من سنن الفطرة لأن الله أودع في نفس الإنسان حب الكمال والسبق والتفوق فهو بذلك يزكي نفسه ويطهرها من أدران النقائص التي تشينها عند المعاشرين والأقران، وبه يحملها على ما يعد في بيئته من معالي الأمور وكرائم الشيم، وبه يوسع دائرة وجوده بالنعرة والتعصب والترقية لكل ما ينسب إلى نفسه كالأهل والعشيرة والقوم



والأمة والدولة والوطن والمذهب الديني والعلمي والسياسي والصناعة،  
يباري في كل ذلك من يخالفه وينافسه، ويلح في ذلك ويبالغ بقدر ما يرى  
من المزاحمة والمعارضة من المخالفين، فإذا فترت المزاحمة من المخالف فترت  
الهمة وضعفت العزيمة وانحط شأن الأفراد والجماعات والأقوام فمن  
استطاع أن يجعل جماعة أو قوماً بمعزل عن المباراة والمنافسة مع غيرهم فقد  
استطاع أن يقضي عليهم بالضعف والخمول وإضاعة الحقوق الموجودة،  
واكتساب المزايا والفواضل المفقودة.

المباراة والمنافسة من الفضائل، ومعارج الارتقاء للشعوب والقبائل،  
لولا ما يعرض فيها من البغي، واعتداء حدود الحق والعدل، فلو أن  
الناس يتبارون في المسابقة إلى الخير والفضل متحرياً كل فريق منهم أن  
يكون أكمل من الآخر من غير بغي عليه ولا عدوان لكان ارتقاء البشر  
أسرع وأقرب، ولكن القوة تغري صاحبها بالطغيان، وتجمع به في البغي  
والعدوان، فالحق يكتسب بالقوة ويحفظ بالقوة وأنواع القوة كثيرة كما أشرنا  
إلى ذلك في صدر المقالة ولبعض القوى من الغناء والفائدة في بعض  
المواطن ما ليس للآخرى وأعلى القوى وأشرفها وأغناها قوى النفس:  
العقل والعلم والأخلاق، فإذا وجدت تبعها غيرها إلا الكثرة، وإذا فقدت  
لا يغني عنها غيرها حتى الكثرة، وإن القوي ليقوي لضعيف بمباراته  
ومعارضته ويقضي عليه بإهماله ومحاسنته، بأهون مما يقضي عليه بسحقه  
وإبادته.

الأمثلة لما ذكرنا من الأصول والقواعد الاجتماعية كثيرة تراها بين يديك  
في سائر الأقوام وتقرأها في تاريخهم: إنما نسخ الإسلام بعض الأديان  
وأضعف البعض الآخر في البلاد التي دخلها بعدم معارضتها وترك أهله  
لمنازعة أهلها. وقد حدث في الإسلام مذاهب كثيرة ما بقي منها إلا ما  
جرى بين أهلها التعارض والتنافس، ولولا بادرة العصبية التي بدرت من  
المؤمنين في مقاومة اللغة الفارسية لذابت وتلاشت في اللغة العربية بقوة

الإسلام كما زالت اللغة القبطية من مصر. واضطهدت اليهود في أوروبا  
قوى الكثرة والسلطة، فلجأ هؤلاء إلى قوة الرأي والحيلة، فقلبوا سلطة  
الملوك وصار لهم مكانة عالية في أعظم الممالك الأوروبية وأرقاها.

تزاومت الشعوب الأوروبية وتنافست فارتقت وعزت وصار بعضها قريباً  
من بعض في القوى الكسبية كالعلوم والفنون والصناعات والأخلاق  
والاجتماع والاتحاد وبقي التفاوت عظيماً في قوتي الكثرة والثروة، اتفقوا على  
تأمين الشعوب الضعيفة بالقلّة كسويسرة من بغي القوة بالكثرة، وتحالف  
المتقاربون في القوى الحربية ليأمن القوي من بغي الأقوى، فالقاعدة التي  
بني عليها هذا التحالف هي أن المزاحمة والمنافسة في السبق والتفوق في  
كُماليات الحياة تقضي بطبعها إلى المناصب والمقاومة وهذه تفضي إلى البغي  
والعدوان ولا حول دون البغي والعدوان إلاّ تكافؤ قوى الأقران.

علينا نحن معاصر العثمانيين أن نكون على بصيرة في حياتنا الجديدة التي  
نستقبلها للدستور، ولا بصيرة للجاهل بمثل ما أشرنا إليه من سنن  
الاجتماع ومن لا يعتبر بأحوال الأمم والشعوب في هذه السنن.

نحن أمة مؤلفة من شعوب شتى لا جامعة لها كلها إلاّ اعتقادها أن  
ارتباط بعضها ببعض يكون لها قوة عامة يعتز بها كل واحد منها وتكون  
مباراته ومنافسته للآخر من غير بغي ولا عدوان سبباً لقوة الوحدة العامة  
بقوة أفرادها.

يجب أن تتبارى عناصرنا في تقوية أنفسها بالعلم والثروة وأن يعلم كل  
عنصر منها أنه إذا بقي متخلفاً عن إخوته فإن أمه الدولة تفضل عليه إخوته  
من العناصر الأخرى في جميع أعمالها كما تفضل أم الأولاد ولدها العالم على  
الجاهل.

إن مباراة العناصر العثمانية بعضها لبعض مع الاتفاق على البر بوالدتهم  
الدولة العلية والاحسان بها ورفع شأنها هو الذي يسرع ترقّهم وترقي

الدولة، فعليها أن ترغبهم في المباراة والمنافسة وتمنعهم من البغي والاعتداء فيها فقط، وأن لا تحابي عنصراً منهم محابة لا يأذن بها شرعها ودستورها.

بل أقول إنه ينبغي للولايات وللألوية وللأقضية أن تتبارى وتتنافس في العمران، بل ينبغي للمدن والقرى وللشركات والأفراد في البلد الواحد أن تتبارى في ذلك فالمباراة هي السائق القوي للارتقاء السريع مع اتقاء البغي من بعضهم على بعض.

أعجبنى اهتمام أهل بيروت والشام بأمر السكة الحديدية التي يقال إنها ستكون بين طرابلس والعراق ومذاكراتهم في جعل طريقها من بلديهم وإن كنت أرى أنهم غالطون في رأيهم وحسبانهم أن تلك السكة لا تضر بتجارهم أو تنقصها وفي حسبانهم أن إثارة بيروت والشام على طرابلس أمر ميسور. والصواب عندي أن وجود هذه السكة يزيد جميع البلاد السورية والعراقية عمراناً فتتنامو الثروة فيها كلها ومنها بيروت والشام ولكن الزيادة النسبية في طرابلس تكون أكثر منها في بيروت وذلك لا يضر بيروت بل يفيدها ولا سيما إذا اتصلت بطرابلس بخط عريض وذلك من أيسر الأمور.

وجملة القول إن هذا العصر هو عصر المباراة والمنافسة من سبق فيه ساد وعلا ومن تخلف فيه خاب وخسر، وامتهن واحتقر، فعلى العقلاء من كل عنصر وفي كل ولاية وكل بلد أن يحثوا قومهم على ذلك وأن تكون وجهتهم فيه ترقية الأمة والدولة بترقية أنفسهم ليكونوا بعلومهم ومعارفهم وثروتهم واجتماعهم حصنها الحصين، وركنهما الركين.





[المنازع ١٣ (١٩١٠) ص ٦٨١ - ٦٨٤]

حدثنا غير واحد من الفضلاء الذين جاؤوا العاصمة من طرابلس الشام أن بعض سماسرة الفسق جاءها بثلة من النساء الروميات العاهرات اللواتي يتجرن بأعراضهن فأنشأن يرقصن كل ليلة في بعض الملاهي وهن في هيئة منكرة من التبذل والتبرج والتهتك تغري من رآها بالفسق ثم يعدن إلى منازلهن وقد جذبن إليهن جهراً من جذبن من الفساق يختلفون إليهن فيبذلون لهن أموالهم وصحتهم وشرفهم ودينهم ويخرجون حاملين منهن جراثيم داء الزهري (الحب الافرنجي) وسمه القتال المعدي فيلقونه في بيوتهم وبيوت من يؤاكلونهم ويشاربونهم حتى أن الدكتور ماريا أحد أطباء البلد المشهورين قال لبعض محدثينا إنه عرض عليه كثيرون من المصابين بهذا الداء بعد استقرار هؤلاء العاهرات في طرابلس وكان ذلك نادر الوقوع فيها فكم يكون عدد الذين عرضوا على غيره وعدد الذين لم يعرضوا على الأطباء لجهلهم وإهمالهم.

وأخبرنا أولئك المخبرون أن علماء طرابلس وأهل الدين والشرف فيها خرجت صدورهم واضطربت قلوبهم وضافت عليهم نفوسهم وشكوا الأمر إلى حكومتهم فلم تشكهم ولا أجابتهم إلى إزالة المنكر القبيح الذي لم تتعوده بلدتهم، وظن الجماهير من الناس أن المجاهرة بالفسق من لوازم الحكومة الدستورية فهو بلاء واقع ما له من دافع لأن رجال الدستور هم الذين يحمونه، وأطلعني أحد هؤلاء على كتاب جاءه من صديق له وكلاهما من مستخدمي الحكومة وأعضاء جمعية الاتحاد والترقي يقول فيه إن عدد

(١) نشرنا هذه المقالة والتي تليها بجريدة الحضارة.

الارتجاعيين يكاد ينمو ويزداد في طرابلس وقاها الله وسائر البلاد من شر الارتجاع وأهله، وسنين لهم بالبرهان خطأهم في سوء ظنهم هذا بالدستور ورجاله .

إن طرابلس الشام قد امتازت منذ القرون الماضية والأيام الخالية بمزايا قلما توجد بلدة في الدنيا تفوقها أو تضارعها فيها وهي المحافظة على شعائر الدين وآدابه الاجتماعية، والخلو من مواخير الفسق ولو سرية، وحنانات السكر العلنية، وبيوت القمار الخصوصية، ولا أذكر أنني رأيت في السنين التي عشتها فيها أحداً من السكارى إلا رجلين أحدهما زنجي كبير السن كان يجول في حارة النصارى فيجتمع عليه الصبيان يعبثون به ويسخرون منه، وقد اعتاد السكر من خدمته لبعض النصارى في أيام شبابه، والثاني شاب من أولاد الصنائع كان يشرب سراً وربما خرج مترنحاً ثملاً فكان لافتاً لأعناق الناظرين المتعجبين، ومحركاً لألسنة المحوقلين المسترجعين، وأذكر أن مدرعة فرنسية وقفت في ميناء طرابلس فخرج بعض ضباطها إلى البلد فجعل يجول فيها فطلب من الترجمان أن يذهب به إلى ماخور النساء أو يأتيه بامرأة يتمتع بها فلما سمع أهل السوق هذا هموا بالضابط فانذرهم بعض الأذكياء مغبة الأمر وأسرع بإعلام الحكومة فأرسلت إليه من رجال الشحنة والشرطة من حافظ عليه إلى أن عاد إلى البحر بعد ما أفهمه الترجمان أن هذه البلدة ليس فيها نساء للفسق .

إن بلدة هذا وصفها وقد كانت ولا تزال من أكثر البلاد اشتغلاً بالعلم الديني بالنسبة إلى عدد السكان جديرة بأن تضيق ذرعاً بالفسق العلني يفاجئها شر مفاجأة وقد كان لحكومتها سلطان من الدستور على منع هذا المنكر المخالف لأداب القوم العمومية ولكن متصرفها السابق كان جاهلاً خاملاً بليداً وأما المتصرف اللاحق فلم يبلغنا أنهم شكوا إليه ذلك ولعلمهم لم يئاسوا من الحكومة ولعل المتصرف الجديد لا يقصر في تلافي هذا الأمر الأمر، وإزالة هذا العمل النكر، وهو قد رأى بعينه، وسمع بأذنيه،

وعمل بيديه ورجليه، في منع ما هو دونه من المنكرات في العاصمة كمنع تبرج النساء واختلاطهن بالرجال في مثل يوم عيد الدستور ومنع الصبيان من الحمامات. كل ذلك عناية من الحكومة الدستورية العليا بالآداب الإسلامية، ولا يتوهم أن الأمر قد استقر فهو يدوم بحركة الاستمرار، وأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، فالأمر لا يزال في أوله ولا تزال أخطاره محصورة في دائرة ضيقة، فيجب أن يرقع قبل اتساعه، وتداوى العلة قبل إعضائها.

قد استفظع هذا المنكر أهل العلم والدين والغيرة على العرض، وهم السواد الأعظم في طرابلس الشام، وأكثرهم لا يعرف من شره إلا أنه عمل محرم في الشرع فماذا يقولون وماذا يعملون إذا علموا بما وراءه من الشر والرزايا في هتك الأعراض واغتيال الأموال وفشو الأمراض وفساد داخلية البيوت وهو ما سنشرحه في مقالة أخرى؟

يجب على أهل العلم والدين أن يعيدوا الكرة بمطالبة الحكومة المحلية بمنع هذا المنكر من بلدهم المخالف لأدابهم العمومية التي نص القانون على وجوب احترامها وذلك يكون في كل مكان بحسبه، وجمهور أهل العلم والدين والمروءة هم المحكمون في عرف بلدهم وآدابه، ولأنه هتك حرمة الدين الذي كفل القانون الأساسي حفظه واحترامه بل لم يقبل إلا لبناؤه على أساسه، واقتباسه من نبراسه، فإن لم تبادر الحكومة المحلية إلى إجابة طلبهم فليرفعوا الأمر إلى حكومة العاصمة ولو بلسان البرق.

لا تصدقوا وسوسة شيطان الارتجاع بتفضيل تلك الحكومة الاستبدادية البائدة على الحكومة الدستورية الدائمة، إن شاء الله تعالى، في حفظ الشرع وآداب الدين، فإننا قد رأينا من هذه الحكومة أكثر مما كنا نتوقع من اتقاء ما يחדش الشعور الديني، ولم يكن أحد يستطيع أن يحتج بالدين على شيء في العصر الحميدي المظلم فاعلموا الآن أنكم أقدر على حفظ دينكم وعرضكم إذا عرفتم كيف تحفظونه فحكومة الدستور هي حكومة الأمة

وحكومة الاستبداد هي حكومة رجل واحد لا قيمة فيها للأمة ولا لدينها ولا لعرضها ولا لشرفها.

ألم يبلغكم أن أهل البصرة أرادوا أن ينصبوا تمثلاً لأبي الدستور، مدحت باشا، فمنعتهم الحكومة العليا من ذلك لأنه مخالف للشرع الإسلامي، ألم تعلموا أن مجلس الوكلاء قرر منع انتشار كتاب تحرير المرأة [لصاحبه قاسم أمين] إذ طبع مترجماً بالتركية لئلا يكون سبباً لكثرة الخوض في مسألة رفع الحجاب عن النساء، حتى عد بعض الناس الحكومة مغالية في ذلك، أقفرون أن هذه الحكومة ترضى بأن يثلم أولئك الروميات الفواجر شرفكم ويهتك آدابكم الدينية والقومية ويسلبن أموالكم، في زمن يقاطع العثمانيون فيه تجارة اليونان المباحة، ويفسدن أمر الصحة العمومية، ويزدن في أسباب التعدي والجنايات؟ حاشا للحكومة أن ترضى بذلك إذا كنتم أنتم تكرهونه وتمقتونه، فاطلبوا المقاصد بأسبابها، واءتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون.

## أمير مكة المكرمة الشريف حسين

٩٧

سعيه المشكور في نجد

[المفاز ج ١٣ (١٩١٠) ص ٧٩٢ - ٧٩٥]

علمت منذ أشهر وأنا في الأستانة أن الأمير سافر من الطائف إلى نجد في عسكر لجب من العرب الخاضعين له وأن قصده من ذلك منع أمير نجد عبد العزيز بن سعود من أخذ الزكاة من قبائل عتيبة التابعة للشريف والاعتداء عليهم لأن أمير مكة هو الذي كان يأخذ زكاتهم، ثم عقد الصلح بين ابن سعود وابن الرشيد. وبلغنا أن والي الحجاز عرض يومئذ

على الشريف أن يأخذ معه ما شاء من العسكر فأبى، وكان ذلك حكمة منه تدل على بعد نظره وسعة علمه بأخلاق العرب وطباعهم، وقد ظهر أثر ذلك فإنه أدرك ما أراد ولم يسفك دمًا ولا زاد القبائل خلافاً وعدواناً فيما بينها وبعداً عن الدولة وتنكراً منها وسوء ظن بها كما كانت تفعل بعثات الدولة العسكرية بل أصلح إصلاحاً لم يسبق إلى مثله فدل عمله على فساد رأي الذين يريدون إلغاء إمارة مكة دفعة واحدة ورأي الذين يرون أن تلغى سلطة الشريف أولاً ثم تلغى وظيفته، ولا خير في هذا الرأي للدولة ولا في ذلك بالأولى، وأن محاولة سياسة عرب الجزيرة ولا سيما الحجاز وإدارتهم بالقوانين التي تنفذ في أوروبا العثمانية تعد ضرباً من الجنون والاعتماد في إخضاعهم لها بالقوة فن آخر من الجنون أشد مما قبله خطأ وخطراً.

قرأنا في الجرائد أن الشريف فاز وأفلح فيما أراد ونحن نعلم أن عبد العزيز بن سعود كان قد استعد للقتال لما سمع بزحف الشريف على نجد ظناً منه أنه زحف بعسكر نظامي للقتال وإخضاعه بالقوة القاهرة حتى أنه كتب في أواخر شعبان إلى سليمان بن جبري وجماعته أهل القوعية يأمرهم بالنفير العام قال في كتابه «ولا يتربصن منكم أحد وترى أعرفكم عرقكم رطب هل فزع لكن والله ما يذكر أحد متخلف تكون عقوبة الله عليه، الله الله في العجلة لغاية ما يكون» ولكنه لم يذكر السبب ولا اسم الشريف. ثم علم ابن سعود أن نية الشريف صالحة ومطلبه حق وأن القبائل الموالية له تحارب معه كل أحد إلا الشريف، وإنه قد انضم إلى عسكر الشريف ألفا خيال عربي من القبائل التي مر بها في طريقه إلى نجد فعلم أن الخير له في السمع والطاعة، ثم إن الشريف أسر أخاه «سعداً» فعظم عليه ذلك، ولولا ثقته بوفاء الشريف لتهور وأقدم على الحرب بمن معه فإنه ما نكر عرب الجزيرة من رجال الدولة وقواعد عسكرها إلا عدم الوفاء والوفاء هو الخلق الذي كانت تدين به في جاهليتها وزاده الإسلام تأكيداً عندها.



لو شاء الشريف لدخل نجداً وأسر أميرها عبد العزيز بن سعود آل فيصل أو قتله إن لم يفر هارباً ولكنه لحكمته وسياسته العالية لم يفعل وقد خضع ابن سعود له وأجابه إلى كل ما طلبه وأرسل إليه أخاه عبد العزيز عبد الله آل سعود بهديته النفيسة وهي «الصقلاوية والمحمداني وكحيلان» وهي أكرم الخيل العربية في نجد. وجاءنا من أخبار الحجاز ونجد أنه قد تم الاتفاق بينهما على الأمور الآتية كتب بها ابن سعود «تعهداً» أمضاه وختمه وأرسله إلى الشريف وهي:

(١) عدم التعرض لعنتية كافة بحال من الأحوال من تنزيل أو ترحيل أو كل ما يحسب ويعد من التعرض عليهم من زكاة أو خلافه.

(٢) عدم أخذ الباج (المكس) منهم بأي صورة كانت من أي قرية أمدوها وإذا وقع منهم ما يخالف يخبر عنه.

(٣) طاعة أمير مكة في كل ما يأمر به حسبما تقضيه حقوق ومنافع الدولة العلية.

(٤) القصيم وهو بريدة وتوابعها على خيرة أهله إن جاءت مضبطة منهم بأنهم يختارون إمارة الأمير عبد العزيز بن سعود صاحب هذا التعهد يبقون تحت يده ويدفعون ثلاثة آلاف مجيدي سنوياً باسم الخزينة العامة السلطانية بمكة المكرمة وإن لم يجيء منهم مضبطة يعين أميرهم برضاهم ويدفعون المبلغ المذكور على كل حال. وموعد المضبطة يمتد إلى آخر شوال.

هذا ما تقرر وتعهد بإنفاذه ابن سعود وكتب وأمضاه وختمه وأشهد على نفسه فيه كبار قومه وهم محمد بن عبد الرحمن السعود وسعد بن عبد الرحمن السعود وسعيد بن عبد الرحمن السعود. والشيخ عبد الله عبد اللطيف ومحمد بن سعود بن عيسى وعبد الله بن إبراهيم العسكر.

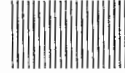
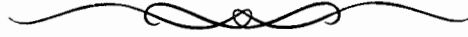
وإمضاء ابن سعود هكذا: خادم الدولة والملة والوطن أمير نجد ورئيس عشائرها عبد العزيز السعود.

وقد أطلق الشريف سراح أخيه سعد فعاد معززاً مكرماً يثني أطيب الثناء على عناية الأمير الشريف به. ووضع الشريف محمد بن هندي شيخ قبائل عتيبة وكيلاً له في نجد. وكذلك خضع ابن الرشيد وأرسل الهدايا إلى الشريف ودان لأمره في عدم التعرض لعتيبة وفي الكف عن محاربة ابن سعود، ويقال إن ابن السعود وابن الرشيد كليهما عزما على التشرف بزيارة الشريف وأنها ربما حضرا في الموسم.

أليس هذا الاتفاق والسلام خيراً مما كان في عهد الاستبداد المشؤوم من إغراء ابن الرشيد بابن سعود وإيقاع العداوة والبغضاء بين القبائل؟ أليس من العجب أن يوجد في الدولة الآن من يظن أن اتباع خطوات عبد الحميد في هذه السياسة والإدارة يجب أن تكون بالقهر والشدة والبأس والقوة لا بالعدل والحكمة؟ ألا يعتبر رجالنا بإدارة الإنكليز في السودان وكيف استمالوا إليهم العرب والزنوج؟ حتى أن فرنسة أرسلت وفداً إلى السودان ليتعلم كيفية الإدارة فيه لعل فرنسة تتبعها في أفريقية. ألا يعتبرون بسياسة إنكلترا فيما جاور عدن من بلاد اليمن؟ لو عرف هذا ذلك الضابط الذي خطب في «يكي جامع» بعد صلاة أول جمعة من رمضان خطبة استحسّن فيها إلغاء إمارة مكة لما فاه بكلمة في ذلك فعسى أن يترك هو وأمثاله السياسة فالأمة محتاجة إليهم فيما تعلموه من فن الحرب والدفاع وحسبها سياسة طلعت بك وإخوانه.

فعلى كل عثماني أن يشكر للشريف الحكيم أمير مكة المكرمة عمله السلمي وإدارته المثلّ وعسى أن تشكره له الحكومة الدستورية بإناطة إصلاح جميع عرب الجزيرة بحكمته وتفويضها إلى رأيه، فقد عمل لها بغير إهراق دم ولا إنفاق درهم ما عجزت عن مثله حكومة الاستبداد بسفك الدماء وخسارة الأموال، في السنين الطوال.

ومن أخبار الحجاز أن قبائل غامد وزهران (في حدود اليمن) الذين كانوا قد انحرفوا عن الشريف ووالوا الإدريسي قد ندموا على ما كان منهم وطردها وكيل الإدريسي الذي كان عندهم وتبرأوا منه وأرسلوا «مرايبتهم» إلى الشريف بالطاعة والانقياد. وأما قبائل حرب فهم في خوف ووجل وينتظر أن يلقوا إلى الأمير الشريف السلم لئلا ينكل بهم تنكيلاً، فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لما فيه حقن الدماء وسعادة البلاد المقدسة في ظل الدولة الدستورية، أيدها الله تعالى.



٩٨

الترك والعرب

### [العرب مخلصون للدولة العثمانية]

(دليل على ما سميناه سوء التفاهم  
وشهادة كاتب تركي للعرب)

[المفاز ج ١٣ (١٩١٠) ص ٨٧٤ - ٨٧٦]

كان يجب على جرائد الآستانة أن تحمد سعي الشريف أمير مكة المكرمة في نجد ولا سيما إخضاع أكبر أمرائها ورئيس عشائرها الأمير عبد العزيز آل سعود للدولة العلية وحمله على الثقة بها ولكنه لم يسلم من اللوم والمؤاخذة حتى قالت بعض تلك الجرائد إن سعيه كان حسناً ولكنه كان مخطئاً فيه لأنه ليس له صفة ولا سلطة تجيز له أن يحل ويعقد! وقد كانت جريدة «يكي تصوير أفكار» خاضت في مثل هذا الإنكار والتجاهل ثم اقترحت على سليمان بك نظيف الذي كان إلى عهد قريب والياً للبصرة أن يكتب إليها شيئاً مما وصل إليه اختباره عن عرب الجزيرة فكتب إليها مقالاً

ترجمته جريدة المفيد فنقلناه عنها لما فيه من الانصاف واستقلال الرأي<sup>(١)</sup>  
وهو: قال الكاتب.

«إن السلطة العثمانية في جنوب العراق وجزيرة العراق لا تتأيد ما لم  
تتأيد «العدالة وحسن الإدارة» ففي كل وقعة من الوقائع خطر يتطير  
شره.

«إن هذه البقاع المباركة بقاع بائسة وقعت عصوراً متطاوله في زوايا  
الإهمال من قبل الحكومة إلا في عهد مدحت باشا.

«ارتكز فيلقنا السادس ودق وتاده حيث كانت تجوس جيوش بابل  
وأشور بسلطوتها وهيبتها فرأيناه اليوم يندحر أمام بعض القبائل البدوية إما  
اندحار. كانت «الجزيرة» في الغابر بمثابة أكبر مستغل يستمد منه العالم  
بأسره مؤنته ونراه اليوم يموت أهله جوعاً، على حين أن الأرض لم تفقد قوة  
النمو ولا الخصب.

وبعد فليس ثمت من سبب لهذه المصائب إلا سوء إدارتنا التي اشترك  
بها هذا العاجز مدة أحد عشر شهراً.

«كنت أعتقد قبل قدومي البصرة اعتقاداً ولدته في نفسي الأقوال  
المتضاربة أن الأمة العربية عنصر ينقبض من الجامعة العثمانية ولكن إقامتي  
بينها ومحاولتي كشف النقاب عن الحقائق أثبتت لي أن هذا الاعتقاد وهم  
محض فسررت ما شئت حميتي العثمانية. إذا صرفنا النظر عن عائلة واحدة  
في البصرة مكروهة منفور منها لا يتجاوز أفرادها عدد الأربعة فإننا نشعر  
بحس واحد راسخ في نفوس عرب الولاية كافة من بدويهم إلى حضريهم  
إلا وهو حب الجامعة العثمانية.

«ولكن ينبغي لنا أن نعترف ونقر بأننا أسأنا المعاملة بجانب عرب البصرة

---

(١) بعد هذا رأينا في جريدة أخرى أن الكاتب ذكر أن نجداً هدية كان أهداها مدحت باشا  
للدولة وأن الشريف اعتدى على حقوق الدولة في اخضاعه ابن سعود لها!!!

في جميع الأحيان وقسمنا أراضيهم إلى مقاطعات تحت اسم أميرية وسنية ودعونا المتغلبين إلى أن يمدوا إليها أيديهم الجائرة الظالمة وعززناهم بقوة من الحكومة ووقارها حتى بلغنا إلى درجة التحكم بالقوت اليومي الذي كان يتناوله كل عربي بجده وسعيه .

«كل ذلك كان وكان هذا الشعب الصادق الجليل يتلقى من الحكومة تلكم الصدمات بصبر وثبات كأنما هي من الأقدار ولم يك ينس بينت شفة .

«حادثة «شطرة المنتفك» بسيطة جداً أي إنها فاجعة بسيطة سببها أن فريقاً عسكرياً مأموراً بالإصلاح ظن أن سلطته تخوله فسخ إخاله (أبطال عقد التزام أعشار) مقاطعة برمتها . فإن عشيرة «عبوده» التي هزمت الفريق يوسف باشا قائد أربعة عشر تابوراً وحاصرته والتي تركت قوة أمير اللواء محيي الدين باشا جامدة لا حراك فيها كانت حتى في أوقات ظفرها تبرز البرقيات إلى الولاية تعرض إطاعتها للحكومة وتبين أنها مضطرة لمحاربة الفريق المسوق بسائق المطامع الشخصية دفاعاً عن نفسها وذوداً عن شرفها . ولقد أثبت رجال هذه العشيرة صدق دعواهم بالفعل فإن القوة العسكرية البالغة واحداً وعشرين تابوراً تخلصت من ربة الحصار الشديد بأمر واحد تلقاه المحاصرون من الحكومة وليس ثمت دليل أكبر من هذا الدليل على صدق عثمانية هؤلاء وإطاعتهم للحكومة .

«أهداني قنصل روسيا في البصرة الموسيو «طوخولقا» كتاباً إفرنسياً عنوانه الثورة العربية والدول أثناء «سيري» إلى المنتفك فوجدت صاحبه يملأ الكتاب بحوادث المنتفك ويتحرى في جميع أبحاثه أن يعثر على إمارات الانفصال والاستقلال فعظم الوهم لديّ ولكن حينما شهدت عائلات المنتفك أيقنت اليقين التام أن ذلك الكتاب مجموعة نفاق وبهتان ، وأنا اليوم على ثقة تامة أنه ليس في البصرة أزمة سياسية ما . ليست تلك الأصوات التي تمتد أحياناً إلى العاصمة فتنبهها من غفلتها إلا صعقات متصاعدة من

أفئدة عضها الجوع بأنياه ولو كنا مكان هؤلاء العرب لأتينا أشد مما يأتونه .  
وإذا تدبرنا وعقلنا الأمر وانقلبت تلکم الصرخات إلى سكوت ينم إلى الأبد  
عن شكر» .

المنار - بينا في المقالات التي نشرناها في جرائد الآستانة ونحن فيها أن  
العرب كلهم مخلصون للدولة لا يخطر في بال أحد منهم أن بينهم وبين  
إخوانهم الترك أدنى فرق، وأن اتهام بعض رجال السياسة فيها إياهم وما  
تكتبه الجرائد التركية عنهم وفي العصبية الجنسية وما يسمعه أبناءهم في  
مكاتب الدولة يخشى أن يغير قلوبهم ووعظنا رجال حكومتنا بالحديث  
الشریف «إذا ابتغى الأمير الريبة بالناس أفسدهم» فلم يغن النصح شيئاً  
فعسى أن يقبلوا شهادة هذا الشاهد منهم ويزيلوا أسباب التفرق وسوء  
الظن ويعلموا أننا كنا لهم ولا نزال من أخلص الناصحين .

## الماسون في الدولة العثمانية

٩٩

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٨٠]

كان السلطان عبد الحميد عدواً للجمعية الماسونية لاعتقاده أنها جمعية  
سرية وهو يخاف من كل اجتماع وكل سر وأن غرضها إزالة الاستبداد وهو  
مستبد وإزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض كلها وهو يفخر بالخلافة  
الإسلامية ويحرص عليها، وقد تنفس الزمان للماسون بعد الانقلاب الذي  
كان لهم فيه أصابع معروفة فأسسوا شرقاً عثمانياً أستاذة الأعظم طلعت بك  
ناظر الداخلية وأركانها زعماء جمعية الاتحاد والترقي وأنصارها من اليهود  
وغيرهم، ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا برضاها في  
إدارته التي استغاثت منها المملكة بألسنة ولاياتها كلها إلا ولاية سلانيك

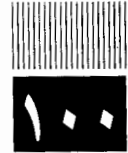
وكذا أدرنة فيما أظن وألسنة مبعوثيها حتى بعض الاتحاديين، وسلانيك هي الآن مركز السلطة الحقيقية في المملكة وإنما الأستانة مركز التنفيذ كأن حظ عبد الحميد أن تكون السلطة الحقيقية حيث يكون ما دام حياً وإن لم تكن في يده الخاطئة.

وإننا نتمنى أن لا يكون تصرف طلعت بك في الماسونية كتصرفه في نظارة الداخلية فإنني والله لم أسمع من أحد في الأستانة ولا في غيرها شهادة له بحسن التصرف ولا أحصي عدد الشهادات التي سمعتها عن سوء تصرفه الذي ظهر أثره في اضطراب أكثر ولايات المملكة فسوء تصرفه في مسألة الأرمن قد عرف الآن، وإن لم تظهر عواقبه السيئة كلها، وأما سوء تصرفه في مسألة اليمن فقد ظهرت بوادره ونعوذ بالله من أواخره.

نتمنى أن يكون تصرفه في الماسونية أحسن حتى لا يجني عليها ولا على الملة والدولة فإن الفرق بيننا وبين فرنسة والبرتغال بعيد جداً وإن كان يراه هو والدكتور ناظم بك وبعض الزعماء قريباً فليتدبروا ولا يغتروا بقوة الجمعية ولا بغيرها فطبيعة الاجتماع أقوى من تدبير الجمعيات وقد يكون مع المستعجل الزلل.



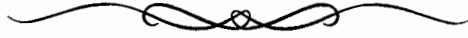
## اليهود في المملكة العثمانية



[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ١٥٩]

خبرنا الأستانة بإقامتنا فيها سنة كاملة فرأينا أن نفوذ اليهود في جمعية الاتحاد والترقي عظيم، وأن ناظر المالية [جاويد بك] إسرائيلي النسب، وأنه جعل كاتب سره وكثيراً من موظفي نظارته من اليهود، فعلمنا أن سيكون لليهود شأن أي شأن في هذه المملكة، وآمالهم في القدس وفلسطين معروفة، ومطامعهم المالية في المكان يعظم نفوذهم فيه غير

مجهولة، وقد أشرنا إلى ما يخشى من مغبة ذلك في أجزاء من السنة الماضية، ثم جاءت أنباء مجلس الأمة العثمانية في هذه الأيام مصدقة لما قلناه، ومثبتة ما توقعناه، قد خطب بعض النواب المستقلين والمعارضين للحكومة خطباً بينوا فيها خطر جمعية اليهود الصهيونية على المملكة العثمانية، وخطباً أنكروا فيها على ناظر المالية بيعه أحسن موقع عسكري في الأستانة لشركة أجنبية بثمان دون ثمن المثل بسمرة بعض اليهود، وهم يرون أنه يمكن بيع ذلك المكان بأضعاف ذلك الثمن، وقد دافع الصدر الأعظم في المسألة الأولى عن الحكومة وعن اليهود ودافع جاويد بك عن نفسه في الثانية ونحن لا نتعرض للمحاكمة والترجيح بين المجلس والحكومة وحزبها وإنما ننبه الناس للتأمل والاعتبار.



## الرابطان الإسلامية والوطنية

وجماعة الدعوة والإرشاد

[المفارج ١٤ (١٩١١) ص ١٩٧ - ٢٠٠]

أتى على المسلمين حين من الدهر وهم أعلى أهل الأرض حياة وأشدهم قوة ومنعة وأكثرهم خيراً ونائلاً، وأوسعهم كرمًا وفضلاً، ثم قضت سنن الكون أن يكون من بعد تلك القوة ضعف كاد يكون موتاً زوأمًا، وقد دبّت فيهم الآن حياة جديدة تتنازع رابطة الإسلام فيها روابط أخرى كالجنسية الوطنية واللغوية.

من آيات هذه الحياة الجديدة تبرع الشيخ قاسم إبراهيم بألفي جنيه لجماعة الدعوة والإرشاد. استكبر هذا السخاء كبراء المسلمين بمصر وغير مصر واستكثروه، استكبروا أن يعطي مسلم مالا كثيراً لخدمة دينه في بلد



غير بلده، ووطن غير وطنه، لا يرجوه رتبة ولا وساماً، ولا الزلفى من الملوك والأمراء، ولا الجاه والشهرة عند الدهماء، وقد طال عليهم العهد ولم يسمعوا بمثل هذا العطاء.

لو تأمل مسلمو هذه البلاد فيما بين أيديهم لرأوا من مدارس جمعيات الإفرنج الدينية ومستشفياتهم وجرائدهم ما ينفق عليه مئات الألوف من الجنيهات في كل عام من تبرع الأسخياء الغيورين على دينهم المجتهدين في نشره وتحويل الناس كلهم إليه وإدخالهم فيه، وهم يقرؤون في الصحف تبرعهم بالملايين، لإحياء العلم والدين، فكيف يستكبرون أن يكون في المسلمين من له غيرة على دينه كغيرتهم، وحرص على نشره كحرصهم، أو ما يقرب منه؟

ولو نظر المسلمون إلى ما وراءهم لرأوا من آثار سلفهم وأوقافهم في أيام حياتهم الأولى ما يستصغر دونه كل كبير، ويعد ما يستكثرونه اليوم غير كثير، فإن معظم بلاد المسلمين وأرضهم قد وقفت على الخير ولكن ضاعت وقفيات أكثرها فعادت ملكاً، وما حفظ منها ليس بقليلٍ ولكن ما سلم من تلك الأوقاف من اغتصاب الأهالي ضببته الحكومات. ولو أن مجلس الأمة العثمانية أحصى الأوقاف وأعاد إليها ما أكلته الحكومة منها وما تصرف به عبد الحميد وأعوانه وفصلها من الحكومة وجعلها بأيدي الأمة بنظام يكفل وضع ريعها في مواضعه وصرفه على المنافع العامة كالتعليم والتربية وإصلاح شؤون الأمة لأغنى مسلمي المملكة العثمانية عن تبرعات المعاصرين الذين غلب على أكثرهم البخل إلا على شهواتهم.

الشيخ قاسم إبراهيم رجل مسلم، أمته هي الأمة الإسلامية أينما وجدت وحيثما حلت، ولم يترب على بدعة الوطنية المفرقة التي يعد بها المسلم من أهل بلد دخیلاً بين المسلمين في بلد أخرى ليس له عليهم حق الإخاء ولا المساواة، لم يترب على هذه البدعة التي فتن بها بعض المسلمين في هذه البلاد، ولهذا جاد لجماعة الدعوة والإرشاد بما جاد به، ووعد بأن

يجمع لها أكثر من ذلك . فأين منه ذلك الرجل المفتون بنزعة الوطنية التي رجحت بها كفة القبط في مصر على كفة المسلمين إذ قال : كيف نبذل المال لجمعية تربي الدعاة والمرشدين لأجل إحياء الإسلام ونشره في غير مصر؟

إن سرى هذا الشعور الوطني إلى جمهور المسلمين فأنذرهم بطشة الله تعالى بالانحلال والزوال ، ونسأل الله تعالى أن يقي المسلمين شر هذا الشعور ، المتدفق على أمثال هذا المغرور ، وشر دعاة هذه الوطنية الخاطئة الكاذبة التي كانت من أكبر المصائب على المسلمين على أنها لم ترض غيرهم من الوطنيين .

إن سم هذه الوطنية لم يدخل بنية مسلمي جزيرة العرب ولا مسلمي الهند لذلك نرجو أن يتبرع كثير من أغنياء تلك البلاد ، لجمعية الدعوة والإرشاد ، كما يتبرع الإنكليز والأمريكان والفرنسيين لجمعياتهم الدينية في الشرق الأدنى والشرق الأقصى ، ولا يضر هذا العمل بخل المفتونين بالوطنية عليه ، ولا تنفيرهم عنه .

هذا وإننا نرجو من سخاء مسلمي مصر ما لا نرجو مثله من غيرهم ، فهذا العمل عملهم ولهم من شرفه وثوابه ما ليس لغيرهم ، وهم من أوسع المسلمين ثروة وأبسطهم يداً ، والرابطة الإسلامية عند السواد الأعظم منهم أقوى من الرابطة الوطنية ، ولا قيمة لأولئك الأفاذا الشذاذ الذين يرون الوطنية والدين ضدان ، ويرون أنه يجب أن تنسخ الوطنية آية الدين وتحل محله في ارتباط أفراد الأمة بعضهم ببعض حتى لا يبقى له تأثير إلا في المعابد .

هؤلاء الغلاة في الوطنية لا يزالون قليلي العدد عندنا وأكثرهم لا يتجرأ على إبداء رأيه كله بل يدهن للناس حتى يوهمهم أحياناً أنه يغار على الدين ويؤيده وأن وطنيته نافعة للمسلمين أو خاصة بهم ، وأنه لا يريد بها إلا خدمتهم ، وأنه يخادع الإفرنج وغيرهم بذلك حتى لا ينسبوه إلى التعصب الديني .

الإسلام والنفاق هما الضدان اللذان لا يجتمعان فنحن لا نخادع، ولا ندهن ولا نقول بهذه الوطنية الخاطئة الكاذبة التي تحل عرى الإسلام وتقطع أخوته العامة وتحل محلها أخوة وطنية بين المسلمين وغيرهم ولكنها أخوة نفاق وخداع يمقتها الدين، ويكون الغبن والخسار فيها على المسلمين، كما نشاهد في هذه البلاد من ارتباط المسلمين بالقبط وقد شرحنا القول فيه بمقالات خاصة.

حاربت القبط الحزب الوطني ما لم تحارب غيره من الأحزاب، واهتمته بالتعصب الديني بما لم تهتم بمثله سائر المسلمين، فعلم من ذلك أن دعوة الوطنية بمصر قد أضعفت الأخوة الإسلامية، ولم تستبدل بها أخوة وطنية حقيقية.

وقد جنت هذه الوطنية الخاطئة الكاذبة على الدين نفسه فلم تقف جنائتها عند حد رابطته الجنسية وأخوته العامة. ذلك بأن الفضيلة والكمال والمزايا التي يتفاضل بها أهلها ويكونون من الزعماء والرؤساء ليست من فضائل الدين ولا مما يعده الدين كمالاً. فيجوز في عرفها أن يكون الزعيم الذي يقود الأمة وتبذل له أموالها وتطلب منه حياتها فاسقاً عن أمر ربه يخاصر في حله وترحاله الأخدان من المومسات الإفرنجيات، ويألف في كل مكان ينزل فيه المواخير ويهجر المساجد.

حدثني بعض المصريين الذين التقوا ببعض زعماء الوطنية في الآستانة منذ سنتين أن هذا الزعيم المليم كان يقول إنه مل النساء الإفرنجيات وأنه يريد أن يتمتع بالتركيات ولا يدري كيف يصل إلى الفاسقات منهن. نعم ليس كل الذين يلهجون بالوطنية ويرفعون كلمتها مثل هذا الزعيم، ولكن الأمة التي يشرف فيها مثله تكون أخلاقها وآدابها وعقائدها على شفا جرف هار، فإذا إنهار بها وقعت في الخزي والعار، ولها في الآخرة عذاب النار.

غلاة الوطنية يمحنون الإصلاح الإسلامي وأهله لأنهم يرون أن المسلمين

إذا صلح شأنهم بدينهم لا يمكن أن يسود فيهم عباد الشهوات، ولذلك كانوا للأستاذ الإمام [محمد عبده] رحمه الله بالمرصاد، حتى أنهم حرصوا اليهود عليه عند تفسيره للآيات التي ويخهم الله تعالى بها في كتابه، فلا عجب إذا وجد فيهم من يقاوم مشروع الدعوة والإرشاد وينفر الناس عنه بضروب من الكذب والإفك والزور والبهتان والعصية والغيبة والنميمة والمحل والسعاية، وأن يجعلوه، وهو أجل ما يخدم به الإسلام، آفة على الإسلام، فإنهم يعبرون بالإسلام عن وطنيتهم وشهواتهم وحظوظهم وأهوائهم.

يا أهل الوطنية لا تغلو في وطنيتكم ولا تقولوا على دعاة الدين غير الحق، اتركوا لنا خدمة ديننا نترك لكم ما أنتم عليه، إن إسلامنا الصحيح يعطي غير المسلمين في بلاد الإسلام من الحقوق ما لا تعطيه وطنيتكم التي جنت على الإسلام وعلى الوطن. ألم تروا أن غير المسلمين لم يعارضوا المشروعات الإسلامية ولا أهلها ولكنكم كنتم أنتم المعارضين فإن أبيتم إلا الطعن والمعارضة فاعلموا أن وطنيتكم الباطلة لا بقاء لها إذا عارضها إسلامنا الحق، فإنما بقاء الباطل في نوم الحق عنه، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

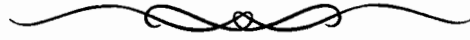
لا أقول هذا بلسان جماعة الدعوة والإرشاد ولا بالوكالة عنهم، وإنما أقول قولي هذا باسم الإسلام فكل من يقاوم الإسلام يقاومه أهل الاستمساك به والغيره عليه.

جماعة الدعوة والإرشاد بمعزل عن السياسة وأحزابها تطلب التعاون من كل حزب وتقبل المساعدة من كل أحد وأبوابها مفتوحة لكل مسلم وأبغض الأعمال إليها وشر السيئات في نظرها الخصام والتعادي والتخاذل والتخاصم، لأنها جماعة توحيد واعتصام، لا حزب تفريق وخصام، وقد وسعتها الحرية التي وسعت الجمعيات المسيحية والإسرائيلية ووسعت كثيراً

من الخيرات والشرور في هذه البلاد، فلماذا ثقلت على قلوب أولئك  
المرجفين، وطفقوا ينفرون عنها حتى باسم الدين؟

لماذا لا ينفر ذلك المرجف المسلمين عن الصحف الدينية التي تطعن في  
دينهم وتشككهم فيه وكثير منهم مشتركون فيها، ولماذا لا يرد عليها ولا  
يرجف بالجمعيات التي تنشرها؟

وجملة القول إن المسلمين يتنازعهم في البلاد التي دب إليها التفرنج  
عاملان من عوامل الارتقاء: عامل الإسلام الجامع لكل أسباب الارتقاء،  
وعامل الجنسيات الجديدة التي أحدثها التفرنج. ورأينا أن المسلمين لا  
يرتقون ولا يرتقي سائر أهل وطنهم إلا باتباعهم هم هدى الإسلام نفسه  
وكم أقمنا على ذلك من البراهين، ونحن مستعدون لإثبات ذلك في كل  
حين.



أمير الألاي صادق بك

١٠٢

وجمعية الاتحاد والترقي

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٢٦٥ - ٢٧٢]

يتساءل الناس في هذه الأيام من هو صادق بك وما هي مكانته وما  
شأنه في هذا الإصلاح الذي حصل في حزب الاتحاد والترقي في مجلس  
المبعوثين.

في هذه الأيام عرف في مصر وفي كثير من البلاد إسم صادق بك  
والناس واقفون في الحكم له أو عليه وأصحاب الجرائد قد أمسكوا عن  
التعريف به سواء منهم المشيع للاتحاديين والمتبع لعوراتهم والمعتدل في

كلامه عنهم. وقد ذكرت على مسمع غير واحد من محرريها شيئاً من فضل الرجل الذي يعرفه كل الخواص في الأستانة فكتب بعضهم جملة صالحة ولكني أرى الناس لا يزالون يتساءلون فأحببت أن أكتب في المنار كلمة أخرى في التعريف بهذا الرجل الذي يقل مثله في الرجال.

اشتهر أن الانقلاب العثماني كان بتدبير جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك ومناستر وعرف الخاص والعام أن الانقلاب كان من عمل الجيش، بهذا علا مقام كل ضابط عثماني ورفع اسم نيازي بك وأنور بك على كل اسم ولكن خفي اسم صادق بك وهو أجدر بالظهور، وصار كل من ينسب إلى جمعية الاتحاد والترقي يفخر ويسمو بأنه رب الدستور وحاميه فتزاحم على أبوابها طلاب الشهرة ورواد المنفعة وعباد القوة. وانفض من حولها الكثيرون من العاملين المخلصين، وانبرى لمعارضة حزبها في مجلس الأمة حزبان كان خيار رجالهما من الاتحاديين، ومن بقي في حزبها أزواج ثلاثة: ١ - بعض الزعماء (كالبكوات رحمي وطلعت وجاويد) ومن استعذب مشربهم واذعن للسري والجهري من أحكام جمعيتهم لأنه يرى فيها رأيهم، وهم الأقلون. و٢ - طلاب المنافع واتباع كل ناعق. و٣ - المستقلون المخلصون الذين يرون أن بقاءهم في الجمعية خير من خروجهم منها وأرجى لتقويم عوجها.

ورد في الحديث الشريف «ان لكل شيء شرة»<sup>(١)</sup> ولكل شرة فترة فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه، وان أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه» (رواه الترمذي بسند صحيح) وقد جرت سنة الله أن الشيء إذا كان في شرة إقباله يقبل الجمهور كل مدح فيه وإن كان ظاهره البطلان، ويرد كل انتقاد عليه وإن كان كالشمس في رابعة النهار، وكان يظن أن شرة إقبال الاتحاديين يطول زمنها فكذب الظن بسوء تصرف الزعماء وقلة كفاءتهم

---

(١) الشرة بكسر الشين وتشديد الراء الحدة والنشاط وهي ضد الفترة.

وبمجانة بعض مقاصدهم لمصلحة المملكة وتقاليدها ولما تقتضيه طبيعة العصر في سياسة الشعوب المختلفة في الملل واللغات، ولاستعجالهم في حب الظهور، والاستئثار بجميع الأمور، فما سدودا وما قاربوا، وقد أشير إليهم بالأصابع فلم يلبثوا أن سقطوا، وصدقت عليهم الحكمة النبوية في هذا الحديث الشريف.

رفعت الأمم اسم «الاتحاد والترقي» بعمل صادق بك الخفي وإخلاصه العظيم، فتدفق الثناء على الاتحاديين في أنهار صحف الشرق والغرب حتى صار بحراً زائحاً طفت فوقه أسماء كثيرة فرآها الناس سابحة في الثناء، منها ما له قيمة كالفلك ومنها ما هو كالغثاء، ورسب في قاعه اسم صادق بك كما يرسب الدر في أعماق البحار، فلم تهتف باسمه الجرائد، ولم ينوه به في تلك الخطب والأغاني والقصائد، كما نوه باسم نيازي وأنور اللذين كانا سيفين من سيوفه تحركهما يده العاملة وتصرفهما أوامره النافذة، إلا أن صادق بك هو «قومندان» الانقلاب العثماني وموجد الدستور واسأل عن ذلك كتاب خاطرات نيازي فهو يخبرك اليقين، «ولا ينبئك مثل خبير» فصادق بك أجدر رجال الدستور بالظهور وأحقهم بالثناء وكلهم يعرف له هذا الفضل ولكنه هو الذي أحب الخمول وترفع عن الثناء والمكافأة على عمله من الجمعية أو الحكومة، فهو الزعيم الذي لم يأخذ مالاً ولا وساماً حتى أن شوكت باشا رغب إليه أن يقبل يوم عيد الدستور من السنة الماضية وساماً مرصعاً تقرر إنعام السلطان به عليه فلم يقبل. زرت صاحباً لي من الاتحاديين قبل ذلك العيد بيوم واحد فقال لي لوجئت قبل ربع ساعة لوجدت صادقاً هنا وقد أخبرني بكذا وكذا وذكر مسألة الوسام ومسائل أخرى.

انني لما جئت الأستانة في عام ١٣٢٧ كان صادق بك لا يزال عميد الجمعية المسؤول (أي رئيسها ويسمونه المرخص العام لأن من نظامها أنه ليس لها رئيس ويشبه الخلاف أن يكون لفظياً) ولما عرضت مشروع الدعوة

والإرشاد (أو العلم والإرشاد كما سميناه هناك) على الصدر الأعظم قال لي هذا مشروع نافع لا بد منه ولا يتم هنا شيء إلا إذا رضيت به جمعية الاتحاد والترقي وسأكلّم صادق بك في المشروع ثم أخبرك هل يمكن تنفيذه أم لا، ودعا حاجبه وقال له إذهب غداً إلى صادق بك وقل له إنني أحب أن أراه. ثم أخبرني الصدر أن صادقاً اقترح تأليف لجنتين للبحث معي في المشروع إحداهما علمية دينية والأخرى سياسية إدارية، وبرأيه تألفت اللجنتان وبعد البحث الطويل أقرتا المشروع فقال لي الصدر الأعظم إن المشروع قد تم نهائياً فألف الجمعية وقال أخصص لك المال اللازم للتنفيذ. وقد علم قراء المنار من قبل أن وزارة هذا الصدر، وهو حسين حلمي باشا، قد استقالت قبل أن يتم لنا تأليف الجمعية وأزيدهم الآن ما هو المقصود هنا وهو أن صادق بك ترك العمل في الجمعية، ولماذا؟

كان من رأي صادق بك بعد أن استقر أمر الدستور وتألف مجلس الأمة أن تترك الجمعية للحكومة الحرية في عملها وتكتفي بالمراقبة عليها فلا تتعرض لشيء إلا إذا رأت الدستور مهدداً بالزوال وقد اتفق مع محمود شوكت باشا على منع الضباط من الاشتغال بالسياسة ولما كان لا مندوحة له عن الاستمرار في خدمة الجمعية عوّل على الاستقالة من الجيش، وبعد هذا الاتفاق خطب محمود شوكت باشا خطبتيه الشهيرتين في الفيلق الأول بالأستانة والفيلق الثاني بأدرنه، وصرح في الخطبة الثانية بقوله إن أخانا صادق بك لما كان يريد البقاء في جمعية الاتحاد والترقي فسيقدم لي استقالته.

كان الذين تواطؤوا على الاستقلال بزعامة الجمعية والسيطرة على الحكومة قد استمالوا إليهم قبل هذا الاتفاق كثيراً من الضباط بضروب من الاستمالة فصار لهم عصبية منهم ولما صار طلعت بك ناظر الداخلية كان أقدر من غيره على هذه الاستمالة فأدخل في الوظائف الإدارية كثيراً من الضباط وقد كنت مدعواً عنده في بعض الليالي فجاء اثنان منهم ونحن



سامرون معه في الليل فكان الواحد منهم يجلس في مكانه ويعبث بمكتبه ويبحث في أوراقه ورأينا أن حديثه معنا قد تلجلج وإن من حسن الذوق أن ننصرف ليخلو لهما وجهه، وندع الحديث إلى وقت آخر فاستأذنا وانصرفنا.

كان ارتباط زعماء الجمعية بالضباط واشتغال الضباط بالسياسة من أعظم الأخطار التي تهدد الدولة وقد انتقدته الجرائد الأوروبية بأشد مما انتقدت غيره من أعمال الجمعية بعد ظهور الخلل فيها، وانتقده الجم الغفير من الضباط كما سمعت بأذني من بعض أركان الحرب منهم وعنهم حتى كان يخشى أن يقع الشقاق في الجيش نفسه بالتنازع بين أنصارها والساخطين عليها من الضباط، وقد وافق صادق بك محمود شوكت باشا على تلافي هذا الأمر ولم يقدر على تنفيذه بالفعل.

كتب صادق بك استقالته من الجيش وكتب مذكرة للجمعية المركزية اشترط فيها لبقائه عاملاً في الجمعية باسم المرخص أو المدير المسؤول شروطاً منها أن يترك طلعت بك نظارة الداخلية وجاويد بك نظارة المالية وأحمد رضا بك رئاسة المجلس لأنه لا ينبغي على رأيه أن يكون زعماء الجمعية من رؤساء الحكومة لما لهم من القوة التي تمكنهم من الاستبداد، فكبر ذلك على هؤلاء الزعماء بعد أن مكنوا لأنفسهم في الأرض ورأوا أنهم صاروا في هذه الدولة هم الأئمة الوارثين، وكان قد ظهر من رئاستهم تنفير جميع العناصر العثمانية من إخوانهم الترك. وتقدم اليهود في نظارة المالية على غيرهم، واعلاء كلمة الماسونية، والاسراف في نشرها، وتقديم المقدمين فيها على غيرهم في جميع المناصب والأعمال، وجعل مقام الخلافة كالمجرد من كل سلطة ونفوذ.

كبرت شروط صادق بك على أولئك الزعماء فكانوا منها في أمر مريب لأن ترك السلطة والدولة بعد التمكن منهما لا تسمح به النفس، ومخالفة صادق بك ليست بالأمر السهل، فرأوا بعد الروية والتفكير أن يجتهد في

إقناعه بالتنازل عن بعض تلك الشروط وأهمها عندهم ترك السلطة وحرية الحكومة بعدم سيطرة الجمعية عليها، وقد بلغني يومئذ من أثق به من الاتحاديين أن طلعت بك قصد دار صادق بك غير مرة في الليل ولم يأذن له صادق بلقائه، ولما رأى أنه لا يسهل عليهم إجابته إلى ما طلب وأنهم خائفون منه أن يحاول تنفيذ مطالبه بالقوة وعلم، كما قيل لي يومئذ، أنهم يراجعون من استمالوه من الضباط لتأييدهم، أمنهم من اعتماده على السيف في ذلك لأن هذا هو الذي ينكره ويخشاه فكيف يكون هو البادئ به، وأذنهم بأنه يترك لهم جمعيتهم ويسترد استقالته من الجيش وكذلك فعل، وكان هذا من آيات إخلاصه الكثيرة.

ترك لهم هذا الصادق كلاً من الجمعية والحكومة فبعد أن قلبوا وزارة حسين حلمي باشا لأنه لم يستطع الصبر على أن يكون آلة معدنية في يدي طلعت وجاويد جاؤوا بحقي بك فجعلوه صدرأً والناس مختلفون فيه فظهر بعد الاختبار أنه أصبر الناس على ما لم يطق قبوله كامل باشا ولا الاستمرار عليه حسين حلمي باشا، وتفاقت الخطوب من سياسة طلعت وجاويد حتى ضج مجلس الأمة بالشكوى وبلغت أصوات المعارضين عنان السماء بعد أن أزعجت سكان الأرض حتى اضطر طلعت بك إلى الاستقالة من نظارة الداخلية فصوبت سهام المعارضة بعده إلى جاويد بك خاصة وإلى رجال الوزارة عامة، وإلى جاهد بك صاحب جريدة طنين الذي هو المحامي عن جمعية الاتحاد والترقي بقلمه المسموم الذي سماه بعض أدباء الأستانة من الترك «سفيه القوم».

إنني أقمت في الأستانة سنة كاملة، وقفت فيها على غوامض سياستها ومخبات صناديق أسرارها، ووردت في ذلك موارد قلما تتيسر كلها لأحد، فقد عاشرت كثيرين من العلماء والوجهاء والأدباء والضباط والمبعوثين والأعيان ورجال الحكومة وغيرهم ومنهم من لهم صلة بالأسرة السلطانية،

ومنهم الاتحادي وغير الاتحادي ، وقد استفدت من مجموعهم الجزم بعدة مسائل أذكر منها ما يفيد في هذا المقام :

١ - إن مولانا السلطان متبرم من القوم وغير راض من الحال العامة وينتظر أن تغيرها الحوادث إلى أحسن مما هي عليه ، ولا أزيد على هذا في هذه المسألة .

٢ - إن بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي يريدون أن تبقى الدولة في أيديهم يديرونها كما يقررون فيما بينهم بزمامي حزبهم في مجلس الأمة ورجالهم في وزارات الباب العالي وسائر المصالح ، ويؤيدهم في ذلك طائفة من ضباط الجيش .

٣ - يجب على كل وزير أو رئيس عمل منهم أن ينفذ كل ما تقررره اللجنة العليا للجمعية في الحكومة .

٤ - يديرون نظام حزبهم في المجلس بطريقة تجعله آلة في أيدي من فيه من زعماء الجمعية كطلعت بك ورحمي بك وجاويد بك وخليل بك ومن يليهم في النفوذ كجاهد بك واسماعيل حقي بك ، فإذا اتفق هؤلاء مع لجنة سلاتيك على أمر جمعوا حزبهم للمذاكرة فيه وهو متفق عليه بين الزعماء ومن يقنعون به قبل الاجتماع ممن يسهل إقناعهم ، ومن نظام حزبهم أنه إذا أقر الثلثان من حاضري الجلسة فيه أمراً وجب على الباقيين اتباعهم بغير مناقشة فكان إذا حضر الجلسة ستون وهم نصف أعضاء الحزب واتفق أربعون منهم على المسألة تبعهم الباقي هم ١٢٠ فينفذ في المجلس على أنه رأي أكثر أعضائه وإنما هو رأي الأقلين من حزب واحد من أحزابه .

٥ - إن هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون في نشرها وجعل رجال الحكومة من أعضائها كما ينشرونها في ضباط الجيش وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين وتجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية .

٦ - ان من لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول، وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد.

٧ - من أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوسل بقوة الدولة إلى إضعاف اللغة العربية وإماتها في المملكة وتترك العرب مع إبقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذبذبة اللسان، ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم وجعلها لغة علمية. وهذا من المقاصد السرية التي لا يعترفون بها على استعجالهم بتنفيذه بالعمل وبكتابة جريدة طين.

من آثار هذه السياسة هذه الحرب الطحون في اليمن والبلاد الألبانية وقد كان من أسهل الأمور تنفيذ الإصلاح المعقول في هذين القطرين في ظل السلام والأمان.

قد وقفنا في الأستانة على كل هذا ورأينا أهل الرأي والغيرة من سكان هذه العاصمة يتوقعون الفتن ويخافون العواقب من سياسة هذا الرهط من زعماء الاتحاديين ولم أحب أن أشرح تلك الأمور وأبين ما فيها من الخطر بل سعت إلى الإصلاح هنالك ما استطعت فلن يغن نصحي لهم شيئاً، ولما عدت إلى مصر أشرت بلطف إلى ما يخشى من خطر اليهود والماسونية في هذه الممكة الإسلامية، وتركت الشرح والتفصيل، والتشنيع والتقريع، لأنني لم أرَ ذلك من الحكمة.

كان صادق بك كل هذه المدة بالمرصاد يراقب الحوادث من بعد لا يحرك فيها قلماً ولا لساناً، ولا يجرد لها سيفاً ولا يشرع سناناً، حتى إذا ما رأى قوة المعارضين للاتحاديين ووزارتهم من أحزاب المجلس قد عظمت ورأى أن أهل الاستقلال والانصاف من حزب الاتحاد نفسه متبرمون من الحكومة

ومن تأييد أولئك الزعماء لها ومن سياستهم الماسونية ولوازمها، حتى إذا ما رأى ذلك خانه الصبر وعز عليه أن يدع الدستور الذي أخذه بقوة يمينه والجمعية التي شرفها بعمله وإخلاصه آلة في يد هؤلاء الرهط الذين لم يحسنوا التصرف ولم يقيموا الميزان، فمد يده إلى المستقلين المنصفين من حزب الاتحاد، وبذل لهم مظاهرتة فيما يقيمون به عوج أولئك الأفراد، ويحولون بينهم وبين الاستبداد، ويصلحون ما حدث في الأمة والدولة من الفساد، فاشتدت عزائمهم، وصاحوا في وجوه أولئك الزعماء تلك الصيحة المزعجة، واقترحوا عليهم تلك الاقتراحات المنصفة، فارتفعت أصوات التأييد والتفنيد، فكانت أصوات طلاب الإصلاح أجهر، وعددهم أكثر، فأظهر الزعماء الرضا واجمين، وذلت أعناقهم لها خاضعين، ثم ولوا إلى أنصارهم مدبرين، ورجعوا إلى ضباطهم مستنصرين، فإذا ليث الغاب، قد انكشف عنه الحجاب، ففزع حقي باشا إلى مولانا السلطان، وقال إنه لا يكون في العاصمة صدران، فإما قبول استقالتي، وإما دفع صادق بك بالتي، وإخراجه من المدينة، ريثما تعود إليها السكينة، فأوحى إلى محمود شوكت باشا أن يخرج صادقاً ففعل وما كاد، ونبأنا البرق أن صادقاً أبى أولاً ثم أجاب.

كان أول ما طرق مسامعنا في هذه الحادثة قول البرقيات العامة أن الأمير ألابي صادق بك، وذكرها بعضهم صديق، أبى أن يطيع الأمر بالخروج فاستكبرت الأمر، واستعظمت الخطب، ورأيت الناس حولي غير مباليين، فقلت إن هذا هو البلاء المبين، ولا بد أن ننتظر تفسيره إلى حين، فإن الدولة لم يظهر فيها بعد الانقلاب إلا رجلاً عسكرياً، أحدهما صادق بك موجد الدستور، وثانيهما حامي بيضته وهو محمود شوكت باشا فاتح استانبول، ولكل منهما مكانة في الجيش عظيمة فإذا تصادما وقع الخلل في الجيش وذهبت الثقة بالدولة، ولا يعلم العاقبة إلا الله تعالى، وإني لا أصدق أن صادقاً الضابط المخلص الكامل يعصى أمر رئيسه، وأحمد الله

أن صدق ظني، ولم تلبث أن شهدت بصحة قولي، ثم جاءت صحف  
الاستانة ورسائلها بالتفصيل، وعلى الله قصد السبيل.

### مطالب المصلحين في حزب الاتحاد

جاءت مطالب المصلحين مصدقة لجميع ما كنا علمناه في الاستانة من  
حقيقة ما عليه زعماء الاتحاد ومن تأثير سياستهم، وقد حدثنا به خواص  
أصحابنا، وأشرنا إلى المهم منه في المنار، وهالك مطالبهم العشرة التي  
قرروها وأعلنوها:

١ - أن لا يسعى المبعوثون إلى الامتيازات والمنافع لأنفسهم ولا  
لغيرهم.

٢ - أن لا يقبل المبعوثون وظائف الحكومة وأعمالها.

٣ - أن يكون قبول أحد المبعوثين نظارةً من النظارات بقرار الثلثين من  
فرقة الأكثرية ويكون إعطاء الرأي بالطريقة السرية.

٤ - أن يعتنى بتنفيذ القوانين وبالمراقبة على النظار.

٥ - أن يعتنى بمسألة اتحاد العناصر (كما كان) وأن يبذل الجهد في سبيل  
ترقي الزراعة والصناعة والتجارة والمعارف على نسبة الاحتياج.

٦ - أن يحافظ على الآداب والأخلاق العمومية الدينية مع الاقتباس من  
المدنية الأوروبية.

٧ - أن يحافظ على عادات السلف ضمن دائرة القانون الأساسي.

٨ - أن يعجل بقانون نصب وعزل عمال الحكومة الموظفين.

٩ - أن يعدل في القانون الأساسي بعض المواد المتعلقة بحقوق الخلافة  
والسلطنة.

١٠ - أن تقاوم مقاصد الجمعيات المؤسسة على السرّ.

كل مطلب من هذه المطالب حجة على الاتحاديين الذين كانوا يصفون جمعيتهم بالجمعية المقدسة وعلتهم سياسة أولئك الرهط من الزعماء، دع أخذ الامتيازات والسمررة لطلابها، ودع التوسل بالمبعوثية إلى المناصب وهو ما يعيرون به غيرهم بالتهمة، ودع عدم تنفيذهم القوانين والحكومة في أيديهم، وحمايتهم للنظار ونصرهم على كل حال، ودع عدم وضعهم قانوناً للعزل والنصب ليكون الأمر كله تابعاً لمشئة الأفراد، ودع تنفيرهم عناصر الدولة كلها من الحكومة ومن العنصر التركي الذي لا ذنب له سواهم، وتأمل مسألة المحافظة على الآداب والأخلاق الدينية وعادات السلف، فإن اقتراحها يدل على أنه يراد بها درء مفسد هي أشد خطراً على الأمة ولا سيما على العنصر التركي من جميع تلك المفسد السياسية والإدارية، فإنما الأمة بمقوماتها ومشخصاتها من العقائد والعشائر والآداب والأخلاق، وقد كانت كلها عرضة للفساد، بجعل الصلاة في مدارس الحكومة ولا سيما الحربية أمراً اختيارياً، ومن إباحة تهتك النساء، بل الأمر أعظم من ذلك فقد سمعت بأذني بعض الزعماء يجادل معمماً من رفاقه الاتحاديين فيما ترتقي به الأمة، فالمعمم يقول إننا نرتقي بالمحافظة على آدابنا وأخلاقنا وشعائرننا وسائر مقومات حضارتنا الإسلامية وياقتباس الفنون والصناعات من أوروبية، والزعيم يقول بل يجب أن نمشي وراء فرنسا في كل خطوة ونتبع سننها شبراً بشبر وذراعاً بذراع في الأمور المادية والمعنوية جميعاً وأن نعصر رجال الدين عصراً، إلخ .

ثم تأمل مسألة الخلافة الإسلامية والجمعيات السرية وتذكر مقاصد الماسون في الحكومات ومقاصد الصهيونيين في فلسطين، وقل رب إحكم بالحق «وأنت أحكم الحاكمين» [سورة هود الرقم ١١ الآية ٤٥] .



## مقدمة مقالات «المسلمون والقبط»

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٢٩٨ - ٣٠٢].

اقترح علينا أن نطبع مقالات «المسلمون والقبط»<sup>(١)</sup> في كتاب على حدتها ليسهل تعميم الذكرى بها ففعلنا وجعلنا لها هذه المقدمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» [سورة العنكبوت رقم ٢٩، الآية ٤٦].

الإسلام دين الرحمة والعدل، والعلم والعقل، فأما حكومته الإسلامية المحضة كحكومة الخلفاء الراشدين، ومن كان أقرب إلى سيرتهم كعمر بن عبد العزيز وصلاح الدين، فهي حكومة لم يرَ البشر لها مثلاً بأعينهم، ولا في تواريخ من قبلهم، في الجمع بين الرحمة والعدل وحرية الدين والعلم والعمل لمن فتح المسلمون بلادهم.

وأما حكومات من دون أولئك الكلمة من المسلمين التي نشكون نحن من بعض ملوكها ونصفهم بالظلم فقد كان ظلمهم وشرهم فيها دون ما عرف من ظلم غيرهم من فاتحي الملل الأخرى، ولهذا انقضت جميع الملل والأديان من البلاد التي غلب النصراني أهلها كأوروبا وبقيت الملل والمذاهب في الممالك التي فتحها المسلمون إلى هذا الزمن الذي تغيرت فيه طبيعة العمران وصار من المتعذر على الأقوياء إكراه أهل الدين على ترك

(١) المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ١٠٨ - ١١٤ : ص ٢٠١ - ٢٢٧ : ص ٢٧٣ - ٢٩٨.



دينهم بالقوة القاهرة أو إبادتهم كما عامل مسيحيو أوروبا الوثنيين في عامة البلاد والمسلمين في الأندلس وفرنسة .

كان المسلمون في كل أيام قوتهم وسلطانهم ينوطون الكثير من أعمال حكومتهم بغيرهم من أهل البلاد التي فتحوها مع السماح لهم بأن يتحاكموا إلى رؤسائهم في جميع القضايا لا يحبون أن يتحاكموا فيها إلى المسلمين فكان لهم حكومة خاصة بهم في البلاد الإسلامية وحكومة مشتركة بينهم وبين المسلمين . كل هذا من فضل الإسلام وتسامحه ولا يزال يعترف بذلك المخالفون لنا . بعضهم يعترف به عملاً باستقلال فكره واحترام اعتقاده<sup>(١)</sup> وبعضهم لإقامة الحجة علينا في بعض الأوقات كما وقع من بعض القبط في هذه الأيام .

وكان المسلمون يبذلون المعاملة الحسنى لمن يدخل بلادهم من المخالفين، ويعبرون عنهم بالمعاهدين والمستأمنين، ويعبرون عن الداخلين في حكمهم بأهل الذمة، أي الذين حفظت حقوقهم بذمة الإسلام، والوصايا النبوية بالجميع كثيرة مشهورة .

لولا الدين الإسلامي لما عرفت العرب الفاتحة تلك الرحمة والعدل والتسامح التي هي زينة التاريخ فللدين الإسلامي الفضل في ذلك، ولم تكن تلك القسوة من الأوروبيين، ولا سيما في إسبانية التي جعلها المسلمون جنة أوروبا، خالية من حجة دينية لرؤساء الدين فإنهم كانوا يرجعون إلى التوراة التي هي أصل المسيحية في مثل هذا الأحكام دون ظواهر بعض نصوص الإنجيل في الرحمة .

جاء في الفصل العشرين من سفر تثنية الاشتراع (١٠) حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ١١ فإن أجابتك إلى الصلح

---

(١) راجع كتاب الإسلام والنصرانية، وخطبة موسيو رينيه ميليه في مؤتمر إفريقيا الشمالية بباريس في (ص ٨١٨) من مجلد المنار الحادي عشر .

وفتحت لك فكل الشعب الذي فيها يكون للتسخير ويتسعد لك ١٢ وإذا لم تسالك بل عملت معك حرباً فحاصرها ١٣ وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ١٤ وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك ١٥ هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة عنك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبك فلا تستبق منها نسمة ما».

ههنا تأمرهم التوراة بإبادة جميع الأحياء المغلوبة حتى النساء والأطفال والبهائم، وفي الفصل ٣٣ من سفر العدد الأمر بطرد سكان الأرض التي يقدرّون عليها حتى لا يبقى منهم أحد. وكأن هؤلاء هم الذين يعجزون عن إبادتهم بالسيف.

كل ما سمح به المسلمون ومنحوه لغيرهم في أيام قوتهم فضلاً وإحساناً صار في أيام ضعفهم حقوقاً وامتيازات للأقوياء من الأجانب يميزون به أنفسهم على المسلمين في ديارهم ويؤيدونه بالقوة ولا يعدونه فضلاً للمسلمين ولا تسامحاً من الإسلام.

هذا شأنهم فيما بقي للمسلمين من البلاد وأما ما أخذوه من الإسلام فصار ملكاً لهم أو جعلوه تحت حمايتهم فلم يبقوا لهم شيئاً فيه من النفوذ ولا المشاركة في السلطة ولا الحرية. ولكنهم أبقوا في بعض البلاد أشباحاً حفظوا لها لقبها الأول وجعلوها رقية لنفوس العامة الجاهلة حتى لا يشعروا بأنهم فقدوا ملكهم كما تشعر الخاصة التي تسهل مراقبتها والسيطرة عليها، وليس لأمر منهم ولا سلطان ولا نواب أن يستقل بالأمر في شيء ما. ومنهم من لا يسمح له أن ينظر في ورقة ترسل إليه ولو من أقاربه إلا بعد أن يقرأها الرقيب الأجنبي السائد على بلاده أو الحامي لها، ولا أن يجتمع بأحد قريب ولا غريب، إلا بحضرة الرقيب، وناهيك بتصرفهم في الأموال، والأوقاف والمساجد في بعض تلك البلاد.

ليس هذا بعجيب ولا غريب فإن للقوة أن تتحكم في الضعف كما تشاء. ولكن العجيب الغريب هو ما جرى عليه قبط مصر في هذه السنين الأخيرة وما وصلوا إليه في هذا العام من استضعاف المسلمين أشد من استضعاف الدول الكبرى لهم.

أحسن المسلمون معاملة القبط من عهد الفتح إلى هذا اليوم إحساناً لم يروا هم ولا غيرهم مثله من فاتح قط حتى أنهم على شكواهم من المسلمين في هذه الأيام يقولون بالسنتهم ويكتبون بأيديهم أن عمال الخلفاء الراشدين ومن بعدهم قد جعلوا كل أعمال الحكومة في أيديهم، وأنهم كانوا كذلك في عهد محمد علي باشا ومن بعده، وأن أكثرها لا يزال في أيديهم، ثم إنهم الآن يدعون أنهم مهضومو الحقوق لأنهم محرومون من بعض الوظائف العالية التي هم أحق بها وأهلها، وأن المسلمين ممتازون عليهم بها وبأمور أخرى كتعليم الدين الإسلامي في المدارس وترك الحكومة العمل يوم الجمعة وإنفاقها على المحاكم الشرعية. فيطلبون أن لا يكون للمسلمين مزية ما في الحكومة الخديوية لأنها في رأيهم ليست حكومة إسلامية وإنما هي حكومة مصرية فهم أحق بها لأنهم أعرق في الجنسية المصرية من سائر المصريين فما هو في أيديهم منها يجب أن يبقى لهم لأنهم أخذوه بحق وما بقي في أيدي المسلمين يجب أن يشاركوهم فيه لأنهم احتكروه بغير حق. وهذا الذي بقي في أيدي المسلمين من الوظائف هو منصب المديرية ومأمورية المركز.

سمحت لهم الحكومة بتعليم دينهم في مدارسها وهو ما لم تعمله حكومة في أوروبة ولا غيرها فإذا جعلت يوم عيدهم الأسبوعي الديني «الأحد» شعاراً لها في ترك العمل وجعلت منهم مديريين ومأموري مراكز عملاً بهذه الحجة التي يدلون بها وهي أنها ليست إسلامية فإنه يخشى أن يترتب على ذلك ما تخشى مغبته وتسوء عاقبته من تعرض السلطان للدخول في ذلك باسم الخلافة ومن مطالبة المسلمين للحكومة برفع سيطرتها عن محاكمهم

الشرعية، وأوقافهم ومعاهدهم الدينية. ومن تهيج مسلمي الهند على الحكومة الإنكليزية إذا اعتقدوا أنها هي التي أزالَت الصبغة الدينية من حكومة مصر التي هي سياج البلاد المقدسة ومدخلها، ولذلك استنكر رجال الاحتلال مطالب القبط مع عطفهم الديني عليهم كما استنكرتها الحكومة.

أما مسلمو مصر وهم السواد الأعظم من أهلها فكانوا غافلين عن سعي القبط وتعصبهم غير مباليين به لأنهم مغرورون بكثرتهم وإن كانت كثرة تشبه القلة أو تضعف عنها لتخاذلهم وانحلال الرابطة التي توحد بينهم. وهذا هو الذي أطمع القبط فظنوا أنهم ينالون كل ما يطلبون من جعل السيادة في هذه الحكومة خالصة لهم من دون المسلمين. ولا أضرب لهم المثل الذي ضربه لهم بعض الناس «لا تطعم العبد الكراع، فيقطع في الذراع» بل أقول هذا شأن الأقوياء بالاتحاد، مع الضعفاء بالتفريق والانقسام.

رأت القبط أن تهاجم المسلمين من أضعف جانب فيهم وهو رميهم بالتعصب الديني وبغض القبط وسائر المسيحيين وظلمهم وهضم حقوقهم واتباع خلفهم في ذلك إثر سلفهم.

جردوا هذا السلاح في وجوه المسلمين فذعروا وصبروا على ما لم يتعودوا من إهانة القبط لهم جهراً بما ينشر في الجرائد فقالت القبط إنهم قد ماتوا فلا خوف من مدافعتهم فلنظهر وحدتنا في مطالبنا، وقد فعلوا.

ألف المؤتمر القبطي فحضره ١١٥٠ مندوباً عن القبط يحملون ١٠٥٠٠ توكيل عن إخوانهم في القطر المصري كله وافتتح المؤتمر مطران أسيوط التي سماها بعضهم عاصمة القبط، فأحدث هذا المؤتمر دويماً في مصر أيقظ المسلمين ودعاهم إلى تأليف مؤتمر مصري حقيقي للنظر في الحال الاجتماعية العامة، وتمحيص مطالب القبط وتحسين أمور المسلمين أو المصريين.

ما كان يخطر في بال القبط أن المسلمين يتجرأون على عقد مؤتمر لهم، ولا أن الحكومة تسمح لهم به إذا شاؤوه، فصرخوا بأن الحكومة هي التي أوجت إليهم بعقده، وأرادوا أن يخيفوا الحكومة بمثل ما أخافوا به الأمة، فأنشأوا يطعنون في الوزارة ويرمون بها بالتعصب الديني وتحريض المسلمين عليهم، ويرجفون بأن «المسيحية تتعذب» ليحضروا كل من في مصر من النصارى على المسلمين، وحاولوا أن يحملوا نصارى السوريين على عقد مؤتمر لهم فخابوا لأن القبط يعجزون عن العبث بالسوريين واستخدامهم لأهوائهم، وأما دسائسهم في إنكلترا فقد ظهرت لكل أحد ولكن لم تغن عنهم شيئاً لأنها مبنية على التهم الباطلة، التي كذبتها سيرة المسلمين الهادئة الساكنة.

لقد سرتني هذه الحركة القبطية لأنها وسيلة لاختبار حياة المسلمين وسيكون المؤتمر المصري هو الذي يظهر هذه الحياة ودرجتها فإذا نجح المؤتمر وانجلى عن حياة في المسلمين فلا يسؤني أن تنال القبط ما يقول بعض المعتدلين أنه هو الحق الوحيد من مطالبها وهو جواز أن يكونوا رؤساء إدارة كما صاروا رؤساء للمحاكم ولغيرها من المصالح. وإذا خاب الأمل، لا سمح الله، في هذا المؤتمر فلا أسف على شيء آخر يفوت.

كتب الناس في المسألة لأنها أهم ما يكتب فيه بمصر الآن فألقيت دلوي بين الدلاء وكتبت مقالاً طويلاً في فصول متعددة نشرتها في المؤيد والمنار. قصدت بها مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن كما أمر الله عز وجل ولا أحسن من بيان سنة الاجتماع في هذه المسائل والتمييز بين حقها وباطلها ليزداد الباحثون بصيرة في بحثهم، وتنبيه المسلمين إلى الاجتماع والتعاون على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ولا يضر سواهم، ولأجل أن تكون مقدمة لبيان رأيي فيما يجب أن يقوم به المؤتمر من الخدمة العامة لهذه البلاد.

بلغ هذا المقال من التأثير في نفوس المسلمين فوق ما كنت أظن،

واقترح عليّ كثير من الكبراء والدهماء أن أطبعه في رسالة على حدته  
فأحببت، وها هو ذا.

محمد رشيد رضا



## العالم الإسلامي والاستعمار الأوروبي ١٠٤

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٣٤٧ - ٣٥٢: وص ٤٣٢ - ٤٤٠]

(١)

الدول الأوروبية التي ورثت ملك المسلمين الواسع في المشرق والمغرب  
أربع: إنكلترا وهولندا وروسية وفرنسة. كل دولة منهن سائدة على أكثر مما  
تسود عليه الدولة العثمانية من المسلمين. فمسلمو الهند من رعية الإنكليز  
قد بلغوا في الإحصاء الأخير تسعين مليوناً وهم زهاء ثلث أهل الهند وكان  
لهم السيادة على جماهير الوثنيين، وهؤلاء الإنكليز يسودون الملايين الكثيرة  
من المسلمين وغيرهم بأسماء مختلفة فلهم مستعمرة الكاب وبلاد الترنسفال  
وفيهما كثير من المسلمين وقد جعلوا هذه مجلساً نيابياً، ومثلها استرالية  
وزيلاندة فسيادتهم عليها ليست كسيادتهم على مملكة زنجبار الإسلامية،  
وناهيك بحكمهم للسودان بعنوان الشركة مع الحكومة المصرية، وتصرفهم  
في مصر نفسها بسيطرة الاحتلال، وتصريحهم بأن القول الفصل في كل  
شيء فيها إنما هو لحكومة ملك الإنكليز، وقد تتجلى الحقيقة الواحدة في  
مظاهر مختلفة، وتشكل في صور متعددة، يكون لكل مظهر في صورة  
أحكام خاصة به عند الحكماء، وإن اشتركت كلها في مقومات الحقيقة  
الجنسية أو النوعية دون مشخصاتها، فالإنكليز أقدر أمم الأرض على

الاستعمار وأبرعهم في السيادة على الأمم، لأنهم يراعون الحقائق في أجناسها وفصولها المقومة، وفي شخصياتها المختلفة، ويسايرون الطبيعة في سننها، ويحكمون العقل أكثر مما يحكمون القوة فيها، ولذلك سادوا على أمم وشعوب وقبائل كثيرة تعد بمئات الملايين، واستفادوا من ثروتها وخيراتها ما لم يستفده غيرهم من المستعمرين، ولم يمنعوا بالقوة أحداً مما سادوا عليهم أن يرتقوا في العلوم والأعمال، ولا هم يتعمدون ترقيتهم فيها إلا بمقدار ما يفيدهم هم من توسيع دائرة الثروة، وقد يحولون بينهم وبين ما فوق ذلك من الترقى من حيث لا يشعرون.

يلهم في هذه البراعة الهولانديون فدولتهم على صغرها تتصرف في أكثر من ثلاثين مليوناً من المسلمين تسخرهم لمنافعها وتستعملهم في تلك الجزائر الخصبة، جزائر جاوه، كما تستعمل الأنعام، وهم أجهل من رعايا الإنكليز وأضعف عقولاً ونفوساً وليس لهم من الاستعداد الموروث ولا من سابقة العلم والمدنية والسلطان مثل ما للهنود والمصريين، ولذلك لا تحس منهم بحركة ولا تسمع لهم ركزاً، ومن عجائب خمولهم وضعف استعدادهم أن الذين يرحلون منهم لطلب العلم يقيمون السنين الطوال بمكة أو مصر ثم يعود من يعود منهم إلى بلاده وهو لا يعرف من أمر العالم الإسلامي ولا من أحوال هذا العصر شيئاً قط، لأنهم يحسبون أنفسهم على أفراد من متفقهة الشافعية يتعبدون ببعض كتب متأخري الشافعية كابن حجر الهيتمي والرملي، فإن تجاوزها فإلى كتب الشيخ زكريا الأنصاري والنووي.

لو جردت من هذه الكتب ما يعمل به الذين يتعلمون أحكام المذهب من الجاويين وغيرهم من مسائل العبادات وما يقرب منها من الأحكام الشخصية لأمكنك جمعه في مئة ورقة يمكن تعلمها في شهر أو شهرين أو ثلاثة، ولتكن مئتي ورقة، وليكن تعلمها في سنة، فما بالهم يقضون السنين الطوال في مدارس أحكام المعاملات كالبيع والشركات وأحكام الجنائيات

والجهاد والرقيق وغير ذلك مما لا يعمل ولا يحكم به أحد في بلادهم ويمر العمر ولا يحتاجون إلى معرفة شيء منه؟ ولا يعرفون شيئاً في هذا الزمن من علم القرآن وسنن الله تعالى في الأمم كأسباب قوتها وضعفها وعزها وذها وسيادتها على غيرها وسيادة غيرها عليها؟ «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» [سورة يوسف رقم ١٢، الآية ١٠٩؛ وسورة غافر رقم ٤٠، الآية ٢١: سورة محمد رقم ٤٧، الآية ١٠]. بلى، قد ساروا ولكن لم ينظروا ولم يتفكروا ولم يعتبروا كما يملأهم فهم لا يعلمون من أمر عاقبة الذين من قبلهم شيئاً، لا يستقرون ولا يختبرون شيئاً من أحوال الأمم بأنفسهم، ولا يقرأون التاريخ وعلم تقويم البلدان، الجغرافية، ولا علم الاجتماع وحقوق الدول، والأمم، بل تراهم يقيمون السنين في مصر ولا يقرأون جرائدها، ولا يعرفون طرق الإدارة وشؤون العمران فيها، والقرآن يحثهم على السير في الأرض لينظروا ويتفكروا ويعتبروا ولا ليتدارسوا كتب ابن حجر والرملي فقط (٤٦: ٢٢) «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٤٦].

كانت هولندية قانعة وهي دولة صغيرة في أقاصي الشمال باستعمار هؤلاء الملايين في الجزائر الاستوائية من الجنوب وتسخيرهم في استغلال أرضهم لها وتركهم في شؤونهم الروحية والاجتماعية، لا توقظهم من نومهم ولا تدع أحداً يوقظهم، ثم إنها تصدت في هذه السنين الأخيرة إلى تسخير أرواحهم وقلوبهم لها، لتأمين في المستقبل استيقاظهم على يد غيرها، فوجهت عنايتها إلى تنصيرهم وتعليمهم لغتها، أي إلى استبدال مقوماتهم الملية بغيرها.

كان يروعها ما تجده من شدة تمسكهم في دينهم وتعريضهم أنفسهم للهلاك في سبيل الحج إلى بيت الله الحرام فظنت كما يظن بعض المغرورين من المسلمين أن تنصير المقلدين عسير لأن المقلد لا يصغي للبرهان ولكن



الهولنديين يعلمون ما يجمله هؤلاء المغرورون من طباع البشر وأخلاقهم ومنها أن الميل إلى الاستدلال طبيعي فيهم فإذا منعوا باسم الدين من البحث في البرهان والدليل على أصول دينهم وفروعه فإنهم لا يمتنعون من التفكير فيما يلقي إليهم من الدلائل على بطلان هذا الدين الذي لا يعرفون حقيقته، وأن هذه الدلائل تروج عند الجاهلين وإن كانت مقدماتها تؤلف تارة من الجدل والسفسطة، وتارة من المقدمات اليقينية على بطلان بعض التقاليد التي يسمونها إسلاماً وما هي من الإسلام في شيء.

سلك الهولنديون لتنصير المسلمين طريقاً لم يسبقهم إليه أحد فيما نعلم وقد نجحت التجربة التي جربوها في «ديفو» وهي بلدة بين بتاوي وبوكر نفوسها زهاء أربعة آلاف، بثوا فيها الدعاة «المبشرين» ومنعوا مسلمي العرب وغيرهم من المستنيرين أن يدخلوها ألبتة. وقد جمع أولئك المبشرون جميع ما يعرفون من سيئات مسلمي تلك البلاد وخرافاتهم وضلالاتهم التي راجت بينهم باسم الدين، وسعي شيوخ الطريق الدجالين، وبيّنوا لأهلها فسادها وكون الدين الذي جاء بها لا بد أن يكون باطلاً مثلها، ومسخوا لهم بعض أحكام الإسلام ومسائله بتأويلها وصرفها عن حقيقتها، وأيدوا ذلك كله بسوء حال المسلمين وكونهم أحط من النصارى علماً وعملاً وآداباً وثروة وسيادة وأهموهم أنه لا علة لذلك غير الدين. فتنصر جميع أهل تلك البلدة وبغض إليهم المبشرون المسلمين حتى أن المسلم إذا دخلها لا يجد له فيها مأوى ولا يسقيه أحد فنجان قهوة ولا جرعة ماء بل لا يجد من يقابله ولا من يكلمه، فهل بعث المسيح ليوقع العداوة والبغضاء بين الناس إلى هذا الحد، أم دين السياسة الأوروبية عليها الملام شيء ودين المسيح عليه السلام شيء آخر؟

سر هولندا نجاح هذه التجربة فبثت دعاة النصرانية في تلك الجزائر، يدعون الأعرق منها في الجهل فالأعرق، والأبعد عن حقيقة الإسلام فالأبعد، وإذا دامت الحال على هذا المنوال، فستكون جاوه كما قال ذلك

السائح العاقل أندلساً ثانية، ولا عجب فمسلمو جاوه أجهل المسلمين بالإسلام وأشدّهم خمولاً وقد استيقظ أناس من المسلمين في كل قطر إسلامي كبير وأنشأوا يوقظون غيرهم ولا يزال مسلمو جاوه نائمين يغطون، وقد ابتلوا بأناس من العرب يدعون العلم وما هم من أهله ييغضون إليهم العلم الصحيح الذي يعرفهم أنفسهم ومكانتهم من حكومتهم ومن سائر الناس، ويحرمون عليهم إنشاء المدارس العلمية على الطرق العصرية المعروفة في مصر، وأن يتعلموا غير تلاوة ألفاظ القرآن للتبرك وبعض أحكام الفقه، وما يتعلم ذلك إلا قليل منهم.

إذا حرم هؤلاء الدجالون على المسلمين أن يعلموا أنفسهم ما يقوم به أمر دنياهم ويحفظ به أمر دينهم في مدارس نظامية، فهل يحرمون على حكومة هولندة أن تنشئ لهم مدارس تعلمهم فيها لغتها وما ترى فيه مصلحتها من علوم الدنيا، وعلى دعاة النصرانية أن ينشئوا لهم مدارس أخرى ينصرونهم فيها، كلا، إن قد شرعت الحكومة الهولندية في ضبط ما كان لرؤساء تلك الجزائر الذين يلقبون بالسلاطين (!!) من الأرض والغابات والمرافق لتتولى هي استغلال ما كانوا يستغلونه، وجباية ما كانوا يجبونه، وتجعل رزقهم محصوراً فيما تجود به عليهم من خزينتها كل شهر أو سنة وتقول إنها ستنفق ريع ذلك على المدارس التي تنشئها لتعليم الأهالي، وقد وضعت قانوناً جديداً لهذه المعاملة وهي تحمل أولئك السلطين المساكين على إقراره وإمضائه فمن لم يرض منهم بترك ما كان له من امتياز وسلطة صورية، وأن يكون كعمال الحكومات الذين يعطون عند عجزهم راتب التقاعد، المعاش، عزلوه من سلطنته ونصبوا مكانه شبحاً آدمياً آخر وسموه سلطاناً، وهي خير للرعية من أولئك السلطين الذين لا يمنعهم عن الظلم إلا العجز.

روسية - مسلمو روسية أكثرهم من مسلمي البلاد العثمانية ويناهزون عدد مسلمي جاوه وأكثرهم من التتار والترك والجركس والقرغيز والفرس،

وبعضهم يعد في القانون روسياً محضاً والبعض الآخر من المستعمرات، ومنهم الجاهلون الغافلون الذين لا يعرفون من أمر العالم شيئاً قط بل يعيشون كالأوابد والسوائم إلا أنهم أشدّاء شجعان لا ضعفاء كالجاويين، ومنهم المغرورون بما عندهم من بقايا العلوم الإسلامية كالفقه الذي يرون أنهم أغنياء به عن كل ما في العالم من العلوم الدينية والدنيوية، ومنهم الذين دبت فيهم روح الحياة المليّة وتوجّهت نفوسهم إلى الارتقاء الاجتماعي وأكثر هؤلاء من التتار، وحكومتهم واقفة لهم بالمرصاد، فلا يرضيها أن يرتقوا بدينهم ولغتهم، ولا هي تستطيع أن تنصرهم ولا أن تبدل لغتهم، بل عجز دعاة النصرانية في روسية عن تنصير أعرق مسلمي بلادها في الجهل، وأبعدهم عن العلم، لأن حظ عامة مسلمي تلك البلاد من عقائد الإسلام وأخلاقه وآدابه أكبر من حظ أكثر المسلمين في أكثر الأقطار. فهم أرقى من الروسيين روحاً وأزكى نفساً وأعلى أدباً وأكثر في الجملة كسباً، وجذب الأعلى إلى الأدنى عسير.

إذا دبت في الأمة روح الحياة فلا يزيدها الضغط والاضطهاد إلا حياةً وقوة لأنه يلم شعثها ويجمع متفرقها ويزيل ما بينها من الأضغان والأحقاد، والتنازع والخلاف، ويجعلها إلماً واحداً على من ينازعها أسباب ترقّيها ومادة حياتها، فالمصلحة الروسية أن تدعهم يعملون لأنفسهم ما شاؤوا وأن تظهر لهم الرغبة في ترقّيهم بشرط اجتناب السياسة والتحيز إلى دولة أخرى، ومن مصلحتهم موالاتها على ذلك واتقاء فتن السياسة ظاهراً وباطناً وحصر سعيهم في دائرة العلوم النافعة من دينية ودنيوية والأعمال التي ترقّي الثروة مع التربية الإسلامية (راجع مقالة ألمانية والعالم الإسلامي في هذا الجزء).

فرنسة - سكان المستعمرات الفرنسية أربعون مليوناً أو يزيدون أكثرهم من المسلمين، وقد أخطأت فرنسة في طريقة إدارتها وسياستها في الجزائر وظهر لها أنها قد أخطأت ولما يظهر لها الصواب، وقد كتب ساستها وعلمائها مما لا نحصي له عدداً من المصنفات والمقالات في الإسلام

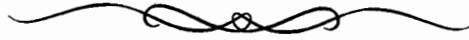
والمسلمين، والجزائر والجزائريين، وذكروا آراء كثيرة فيما يراه كل كاتب أمثل الطرق لحكم المسلمين وما أفاد ذلك شيئاً.

بذل الفرنسيون جهدهم في تنصير الجزائريين فلم يفلحوا، وحاولوا أن يبدلوهم بلغة العرب لغة فرنسية فلم ينجحوا، أخذت الحكومة أوقافهم ومكنت اليهود من أملاكهم فصبروا، جربت أخذهم بالسيئات لتفسد بأسهم وتأمين عاقبة استعبادهم، ولم تجرب أخذهم بالحسنات ليلغوا رشدهم، وتربح شكرهم وودهم، ولعلها لولا طمع يهود الجزائر في مسلميها، ومساعدة يهود باريس لهم وناهيك بنفوذهم فيها، لوجد هناك من الأحرار من ألجأ حكومتها إلى جعل الجزائر زينة بلاد المغرب في العمران، ومثابتها في العلم والعرفان، وإذاً لكان ما تبغيه الآن، من استعمار ما بقي في أيدي المسلمين في تلك الأوطان، أقرب منالاً، وأحسن حالاً.

كان أكبر خطأها الاستعماري في الجزائر إزالة صورة الحكم الإسلامي منها بإزالة معناه وجعل الحكومة فرنسية محضة مع العلم بأن صفة الحاكمية هي أشد الصفات تمكناً في نفوس المسلمين فنزعها منهم يحدث في نفوسهم جرحاً لا يندمل، ثم اقتدت بإنكلترا بعض الاقتداء في استعمار تونس فسمت نفسها حامية لها لا حاكمة فيها، وأبقت لها أميرها «الباي» ولكنها لم تجعل له ولا لرجال حكومته من الأمر شيئاً قط لا صورة ولا حقيقة، وكان إبقاؤه أحد الأسباب التي جعلت نصيبها من النجاح في تونس أوفر، وميزان السكون إلى حكمها أرجح، حتى زعم بعض رجالها أنهم قطعوا رابطتها الإسلامية التي تربطها بمكة، على أن تونس ما زالت كما كانت أوسع من الجزائر علماً بالإسلام، فالعلوم الإسلامية ليست هي التي تبعد المسلمين عن الأوروبيين ولكن الأوروبيين هم الذين يبعدون المسلمين عن أنفسهم، وليس الاتفاق بينهم بالمحال وإنما هو من الممكنات التي يعرف طريقها أهل الرأي والبصيرة من المسلمين.

وتريد فرنسا أن تتبع خطوات إنكلترا في استعمار مملكة مراكش فقد كادت لها كيدها، وعبثت كما تشاء بقبائلها وسلطانها، ففاض طوفان الفتن واندفع السيل الآتيّ يقذف جلمودا بجلمود، حتى حاصرت القبائل مدينة فاس والسلطان عبد الحفيظ فيها، وتسنى لفرنسا أن تسوق جيشها إليها لإنقاذ الأوروبيين، وحماية السلطان من الثائرين، كما فعلت إنكلترا بمصر، فدخلت عاصمة المملكة الحسنية، ولم تمنعها كرامات مولاي ادريس من دخولها كما كان يقول المغاربة، كما أن كرامات شاه نقشبند لم تمنع روسية من دخول بخارى كما كان يقول أهلها، ووكل السلطان الفقيه النحوي الأصولي المحدث إلى القائد الفرنسي حمايته وحماية عرشه من أهل بلاده الثائرين كما فعل قبله الخديو توفيق باشا، وقضى الله أمراً كان مفعولاً.

حذرنا مملكة المغرب الأقصى من هذه العاقبة في السنة الأولى من سني المنار وجزمنا بأنها إذا دامت على تلك الحال من الجهل والفساد فإنها لا بد أن تقع في يد أوروبا، وبيننا لها طريق النجاة التي تحفظ استقلالها، وأعدنا الذكرى، وكررنا بعد ذلك، وكان المنار يرسل إلى السلطان وكبار رجاله ولكنهم قوم لا يعقلون، وقد أبسل السلطان الذي يسمونه جاهلاً، ولم يعتبر السلطان الذي يسمونه عالماً، بل أبسل المملكة بأسرها، وتلك عاقبة الجهل والغرور، ولله عاقبة الأمور.



## العالم الإسلامي والاستعمار الأوروبي

[المفاز ج ١٤ (١٩١١) ص ٤٣٢ - ٤٤٠]

(٢)

إن دول الاستعمار دول تجارة وكسب فهم يفتحون الممالك لتمتيع شعوبهم بخيراتها، وتمكينهم من ثروتها، ولا ينشرون من علومهم وفنونهم في الممالك التي يفتحونها إلا المقدار الذي يسخرون به أهلها ويستخدمونهم في استخراج تلك الثروة لهم ويقطعون به روابطهم الاجتماعية التي تربط بعضهم ببعض ويزيلون مقوماتهم ومشخصاتهم المالية التي يكونون بإحكامها أمة واحدة متحدة في الشعور بمصلحتها العامة.

أهالي المستعمرات الأوروبية يجعلون فريقين فريق الفلاحين والفعلة الذين يقومون بالأعمال الشاقة في استخراج الأقوات والنبات والمعادن من الأرض، وفريق المالكين المترفين الذين ينفقون ما يفضل لهم عن سادتهم المستعمرين في ثمن ما يجلب من أوروبا من اللباس والأثاث والرياش وسائر أنواع الماعون والزينة والخمور، وما بقي من ذلك يبدلونه لبغايا تلك البلاد أو بيوت القمار الأوروبية.

هؤلاء المترفون الذين يجرفون معظم ثروة البلاد إلى أوروبا هم الذين يتعلمون لغات هذه الدول المستعمرة ويأخذون من قشور علومهم وفنون عاداتهم ما يشوه في أعينهم ويقبح في أنفسهم كل ما يربطهم بأمتهم من عقيدة وشعار وخلق وعادة مهما كانت حسنة ونافعة ويزين لهم ما يرون عليه سادتهم المستعمرين وإن كان من الفواحش والمنكرات التي يشكو منها حكماءهم وعقلاؤهم، ويكون أكثر الأغنياء الذين لم يتعلموا هذه الأساليب المدنية الخادعة مقلدين لمن تعلموها يحذونهم حذو النعل للنعل فيها.

للسياسة الاستعمارية لغة خادعة كلغة التجار لأن الغرض منها هو عين الغرض من التجارة «الكسب بالحق وبالباطل» يزين التاجر سلعته بزخرف القول المموه ويوهم كل من يعرضها عليه أنه يختصه بالرعاية والإكرام ويؤثر مصلحته على مصلحة نفسه ولا يريد أن يربح منه شيئاً أو إلّا شيئاً تافهاً لا يوازي بعض تبعه في جلب السلعة ونفقته على نقلها وحفظها، ومنهم الذين يزعمون أن الأثمان محدودة، وأنهم يطرحون منها عشرين أو ثلاثين في المئة في أيام معدودة.

وأهل الاستعمار، يقولون في بعض الأطوار، إننا لا نبغي فتحاً، ولا نحاول ملكاً، وإنما شغفتنا الإنسانية حباً، فحملتنا على بذل أموالنا، وإرهاق رجالنا، لأجل تعليمكم وتمدينكم لتكونوا مثلنا، هكذا كانوا يقولون لمثل السلطان عبد العزيز صاحب مراکش من قبل.

ويقولون في طور آخر إننا بما أوتينا من الرحمة والرفقة بالبشر، وحب تعميم العدل بين الأمم، نريد أن نزيل استبداد هذا الحاكم، ونطهر الأرض من ظلم هذا السلطان الغاشم، ليتفياً الناس ظل العدل، ونبدلهم من بعد خوفهم نعيم الأمن، كذا قالوا في السلطان عبد الحفيظ قبل أن يظهر لهم المواتاة التي كان عليها أخوه عبد العزيز.

ويقولون في طور آخر إن الرعية قد ثارت على حاكمها وتألبت على ملكها، ونحن الكافلون لاستقلاله، المسؤولون عن حفظ عرشه، فلا مندوحة لنا عن نصره، والمحافظة على ملكه، حتى إذا زال الخوف، واستقر الأمن، وانتظمت الحكومة المحلية، وصارت قادرة على منع الفتن الداخلية، رجعنا أدرagna، لا نريد من صاحب العرش الذي حفظناه أن يثل، والشوكة التي منعناها أن تخضد، جزاءً على عملنا، ولا شكراً على خدمتنا، لأننا إنما نفعل ذلك لوجه الإنسانية، وحباً في تعميم المدنية، واستبدال الحرية بالعبودية، هذا ما قاله الإنكليز في احتلال مصر بالأمس، وهذا ما يقوله الفرنسيين في احتلال فاس اليوم.

صدق حكيمنا ابن خلدون في قوله «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتراء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده» نقول ولكنه قلما يقتدي به في معالي الأمور وأسباب القوة التي بها كان غالباً، لأن المغلوبين يستحوذ عليهم الخمول والكسل ويصيرون عالة على الغالب في عامة شؤونهم.

وقد يخدع الغرور بعض المتفرنجين المقلدين فيتوهمون أنهم بتقليدهم للإفرنج في أسلوب التعليم ودعوة الوطنية وشكل الحكومة قد ساروا على طريقهم إلى الاستقلال الذاتي والكمال المدني، وهيئات هيئات، لا نجد أكثرهم إلا مخدوعين، وطريق المستقلين غير طريق المقلدين.

قال بعض كبراء الإفرنج في بيان درجات الفتح الاستعماري إن أولها فتح دعاة النصرانية «المبشرين» لبعض المدارس، ثم لبعض المستشفيات والملاجيء، ثم وقوع الشك والزلال في نفوس بعض المتعلمين فيما كانت عليه الأمة من العقائد والمقومات الاجتماعية، ثم حدوث فكرة الرابطة الوطنية التي تنقسم بها الأمة إلى شطرين شطر المتفرنجين الذين يهدمون أركان مقوماتها القديمة تقليداً لأوروبية وشرط المحافظين على القديم، ثم رواج تجارتنا برواج التقاليد والعادات الأوروبية التي يسهل التقليد فيها، ثم حدوث أو إحداث الاحتكاك الذي يتبعه الاعتداء على بعض المبشرين أو غيرهم من الأوروبيين أو النصاري الشرقيين، ثم المداخلة السياسية والعسكرية لحماية مصالحنا وأموالنا أو قومنا وأهل ديننا، ومهما كان الاسم الذي نسمي به سيطرتنا على البلاد بعد الاحتلال العسكري فالمعنى واحد وهو أننا نكون السادة فنفعل ما نشاء ونحكم ما نريد.

ذلك قولهم بأفواههم، يضاهي لاحقهم به سابقهم، ولهم أقوال أخرى في الإسلام والمسلمين، والصليب والهلل، بلغة أصرح من لغة الاستعمار التجارية، وهم يفهمون هذه اللغة لأنهم هم الواضعون لها، وقد صار فينا من يفهمها، وهم الذين شعروا بأنهم يبيتون منها بليلة السليم، ومفازة من



ضل عن الطريق القويم، ولكن أكثر الناس لا يفهمون الكنايات والمعميات الاستعمارية، والخطابات السياسية الرسمية، إلا إذا فسرتها تلك الكلمات الصريحة الماثورة عن زعماء أوروبا، كقول ذلك الإنكليزي في الصليب والهلل، والفرنسي في كون الرأفة التي يجب أن يعامل بها المسلمون هي السيف والنار، والألماني في كيفية إزالة سلطة الترك من البلقان، من غير حرب ولا قتال، على أن أكثر المسلمين لم يسمعو تلك الأقوال، ومنهم أهل المغرب الأقصى الذين هم أقرب المسلمين إلى أوروبا بأرضهم، وأبعدهم عنها لجهلهم.

إن الفتح الاستعماري الأوروبي تجاري كما قلنا ولكن السياسة ممزوجة فيه بالدين، خلافاً لتمويهات المخادعين، ومن الأصول المتفق عليها بين الدول الكبرى في أوروبا إزالة السلطة الإسلامية من الأرض، ولذلك اقتسموا جميع الممالك الإسلامية في أفريقية، ولم يتعرضوا لمملكة الحبشة النصرانية، ويفتاتون على الدولة العثمانية إذا أخذت بالقوة ثورة المكdonيين والألبانيين المسيحيين، ويقرونها على تنكيلها باليهانيين المسلمين، ولا أريد بما أكتب من هذا المقال الدفاع عن الحكومات الإسلامية، فإنني أعلم أن أوروبا لا تستولي على دولة إسلامية بمجرد قوتها عليها، وإنما تلك الحكومات هي التي تمكّنهم من مقاتلتها، وتوطئ لهم المسالك للاستيلاء عليها، فهم يخربون بيوتهم بأيديهم، فلا يجدي الدفاع عنهم، وإنما أريد أن أطالب هؤلاء المستعمرين، بأن يراعوا حقوق الإنسانية في هؤلاء المساكين الجاهلين، وأرى أن هذا من الممكنات، وأنه خير للفريقين فيما هو آت.

يوشك أن لا يوجد في المليون من أهل مملكة مراکش رجل واحد يفهم معنى احتلال فرنسا لها، أو لغة الاستعمار التي ينطق بها رجال السياسة عندما يتكلمون في شأن هذا الاحتلال مع السلطان ورجاله، ولكن ما لا يفهم ولا يعقل في مراکش قد يعد من البديهيّات في مصر ولا سيما عند

أرباب الصحف وقرائها، فطالما كتب هؤلاء وقرأوا في الكتب والجرائد الأوروبية وترجموا عنها أقوال زعماء السياسة في بيان مقاصدهم من البلاد التي يستعمرونها وبيان أعمالهم فيها، وهم يعرفون حقائق كثيرة تدل على ذلك من مكاتيبهم في تلك المستعمرات ومن يلاقونه من أهلها في مصر ذاهباً إلى الحجاز أو إلى أوروبا أو عائداً من سفره. ومع هذا كله نسمع لسان الاستعمار الأوروبي يمنّ علينا كل يوم بأنه لا غرض لأوروبا من بلادنا إلا ترقيتنا وتمديننا وتربيتنا وتعليمنا حتى نصير مثلهم أهلاً لأن نحكم في بلادنا ونستقل بأمورها، حباً بالإنسانية، وجرياً على ما تعودوه من الفضيلة والعدل والحرية.

أنحت الجرائد الفرنسية التي تصدر بمصر على الجرائد الوطنية ووبختها وهددتها إن استنكرت احتلال فرنسا في المغرب الأقصى، وقالت إن هذا اللوم لفرنسة يعود بالضرر على القطر المصري! وما قالته جريدة النوفل في هذا الشهر في هذا السياق «إن فرنسا أبدت في مستعمراتها الإسلامية من التسامح وحسن الذوق ما لا يجوز معه أن يوجه إليها هذا اللوم على أنه ليس مبنياً على أساس صحيح، وهو أمر يعرفه المصريون كما يعرفون أن فرنسا صديقة لهم صادقة لا تتخلى عنهم عند الشدائد!»

أما المصريون فيردون أفتئات هذه الجريدة عليهم ويقولون إننا لا نعرف شيئاً من هذا التسامح كما تدعين بل نعرف ضده وإننا كنا مخدوعين بصدقة فرنسا لنا إلى يوم حادثة «فاشودة» ولم يبق أحد بعدها يعتقد هذه الصداقة.

وقالت جريدة لاريفورم بعد استنكار اهتمام الجرائد المصرية بمسألة المغرب الأقصى وبيان الاختلاف بينها وبين مصر في الأحوال الاجتماعية ما معناه إنه يجب على أصحاب هذه الجرائد أن لا يندبوا حظ المغرب ويرثوا له بل يجب أن يعدوا تداخل الأجانب في شؤونهم نعمة وسعادة له لا نقمة ولا شقاء لأنه يعدّ له مستقبلاً زاهراً «إن فجر الاستقلال أخذ يبدو

للمصريين فعليهم أن يواصلوا السعي لإدراكه وهم يحطون من قدر أنفسهم إذا أنزلوها منزلة المغاربة الذين لم يعملوا حتى الآن، إلا ما يجلب لهم الذل والهوان، وليدعوا فرنسة وشأنها فإنها ليست بحاجة إلى من يعلمها معنى العدل والحرية!

نحن نعلم علم اليقين أنه ليس في تونس والجزائر من الحرية والتسامح عشر معشار ما في الهند، إن صح أن يقال فيها حرية وتسامحاً، ونحن على ما نعرف من فضل الإنكليز على جميع المستعمرين نسمع آناً بعد آناً ما نسمع من تخوف ساستهم من يقظة أهل الهند ومطالبتهم بحقوقهم الاقتصادية، وآخره ما كتبه جريدة التيمس في هذا الشهر عن علاقة أوروبية بالشرق فقد ذكرت إن هناك ثلاث مسائل عظيمة تتسع وتكبر بالتدرج وهي المسألة الهندية والمسألة الصينية ومسألة الشرق الأدنى. ومما قالته في الأولى هذه الجملة الجديرة بالاعتبار:

«إن بريطانيا العظمى لم تقرر خطتها السياسية في الهند وستضطر إلى ذلك عاجلاً، فلا زيارة الملك ولا غيرها من المجاملات يكفي لتحويل الحركة الحاضرة في الهند عن محورها الحقيقي والمسألة التي يتوقف عليها رضا الهند بالحكم البريطاني تدرج في طلب رسمي قدمه بعض كبراء الهند بشأن إطلاق حرية الهند الاقتصادية والمالية، ولا يخفى أن إجابة هذا الطلب بأية صفة كانت تخفض سلطة إنكلترة ولا سيما من الجهة المالية» فتأمل.

وأما مسألة الصين فهي تراها خطراً على صناعة أوروبية وتجارها في المستقبل. لأن هذه الأمة صناعية وقد أنشأت تتقدم ببطء وما كان كذلك يكون راسخاً ثابتاً ولا يمكن لأوروبية أن تخضعها وإن اقتطعت بعض أطرافها وقتلت ألوفاً من أهلها. وأما مسألة الشرق الأدنى فالخوف منها محصور في ضعف الدولة العثمانية الذي يغري الدول بها ويخشى أن يفضي

إلى سفك الدماء، وذكرت تحبط فارس في دستورها وعجز أفغانستان عن حفظ مركزها.

وقرأنا لها في العام الماضي مقالاً تنبه فيه أوروبا إلى التأمل في يقظة الشرق وطلبه للترقي وتحثها على قطع الطريق عليه من أوله قبل أن يصل إلى الغاية أو يقاربها، فيخرج من ذلة العبودية لأوروبا فيكون مساوياً أو مساوياً لها، فإذا كان هذا رأي مستعمري الإنكليز وهم أمثل طريقة، وأقرب إلى مراعاة سنن الطبيعة، فماذا عسى أن يكون رأي غيرهم.

ألا قليعلم أولئك المستعمرون أن أهل الرأي والبصيرة من المسلمين يعتقدون أن أوروبا تريد من استعمار بلادهم أن تتخذ مالها دولاً، وتتخذ أهلها عبيداً وخولاً، لكنها لا تسميهم عبيداً بل أحراراً، وأن لا تبقي لهم في الأرض سلطاناً يحكم، ولا شرعاً ينفذ، ولا ثروة يستقلون بالتصرف فيها، ولا تربية ملية يحيون بها، وإن أرفقهم في ذلك الإنكليز، وأشدهم وأقساهم الفرنسيين والروس، وربما كان الاستبداد اللين، أدوم من الاستبداد القاسي الخشن، فإذا قدر مسلمو الهند اليوم على إخراج الإنكليز من بلادهم لا يفعلون، وإذا قدر غيرهم على ذلك لا يتلبثون به ساعة ولا يستأخرون.

ألا وليعلموا أننا لا نجهل أن أكبر قوتهم علينا، أننا عون لهم بظلمنا وجهلنا على أنفسنا، وأنه لولا ذلك لم يكن لهم حجة على استعبادنا عند محبي العدل والحرية من قومهم، وأن من عرف حقوقه قلما تضيع حقوقه، وأن القوة الآلية المستبدة قليل عملها، لا يدوم لها السلطان على الشعوب الكثيرة إذا اتفق أفرادها، وأن المسلمين قد قاربوا سن الرشدا الاجتماعي، وأن الخير للإنسانية أن يرشدوا متعارفين مع إخوانهم فيها لا متناكرين، ومتقابلين لا متدابرين، ومتحابين لا متشاقين، ومتفقين لا متشاكسين، والوسيلة إلى ذلك معروفة ميسورة لمن سبقونا في هذا الرشدا وهي أن يخلصوا النية في مساعدتنا على الارتقاء الحقيقي مع محافظتنا على ديننا

ولغتنا، ونحن نفصل لهم القول في ذلك إن كانوا فاعلين.

لو أراد المستعمرون ذلك من قبل لارتقى الشرق ارتقاءً عظيماً ولكانت الهند غير الهند الآن، وجاوه غير جاوه الآن، وكذلك تونس والجزائر، أعني أنها كانت أرقى عمراناً، وأوسع علماً وعرفاناً، وإذاً لكنت منافع أوروبا منها أعظم، وكان قضاؤها بذلك على سائر الحكومات الفاسدة التي تنسب إلى الإسلام أسرع، وفوق هذا وذاك أنه كان يكون ارتقاء الإنسانية في جملتها أوسع. ألم تروا إلى مصر كيف كان يعد السلطان عبد الحميد رؤيتها ذنباً سياسياً يمنع منه العثمانيين ما استطاع، ويعاقب عليه من اقترفه إذا كان من أهل العلم وأرباب الأقلام، وهل كان سبب ذلك إلا أن من يرى ما في مصر من الحرية وحركة العمران يزداد سخطاً على حكومته الاستبدادية المخربة؟

لم تكن هذه الحرية في مصر لمحض رغبة الإنكليز في ترقية المصريين وإنما كان لها أسباب. منها: ما سبق لمصر من الأخذ بأسباب العلوم والمدنية الأوروبية حتى صاروا يدركون من حقوقهم ما لا يدركه أهل زنجبار الذين لم تعاملهم الإنكليز كما تعامل المصريين على عدم المعارض لها فيما تفعله في بلادهم. ومنها: ما كان عندهم من الحرية قبل الاحتلال ومثل إنكلترا لا ترضى غيرها أن تجعل البلاد التي يكون لها نفوذ فيها دون ما كانت عليه في الحرية. ومنها: إن الإنكليز كانوا يستفيدون من تلك الحرية ما لم يكونوا ليستفيدوه من ضدها. ومنها: أخلاق عميدهم السابق لورد كرومر. ومنها: كثرة الأوروبيين في هذه البلاد وما لهم فيها من الامتيازات، ومعارضة بعض دولهم القوية للاحتلال الإنكليزي إلى سنة ١٩٠٤ م وعدم موافقتهم له إلى اليوم في التضييق على المطبوعات الذي حمل عليه الحكومة المصرية أخيراً. ومنها: وهولي امتيازات الأوروبيين الصفة التي احتلوا بها البلاد والحجج التي يحتجون بها على إطالة الاحتلال، وما يعترفون به من شكلها الرسمي.

على هذا كله حصر الإنكليز التعليم بمصر في المضيق الذي يتعذر أن يتخرج فيه الرجال المستقلون الأكفاء كما جعلوا السيطرة على الحكومة مانعة أن يترقى فيها المستعد للاستقلال، فيبلغ فيه مستوى الكمال، حتى أنه لا يكاد يوجد في مصر من يتقن اللغة الإنكليزية كتابة وخطابة كما يوجد من يتقنون الفرنسية، منذ كانت هذه اللغة عمدة المصريين في المعارف الأوروبية.

لو شاء الإنكليز أن يرقوا التعليم والتربية لفعلوا، ولكن لورد كرومر قال في أحد تقاريره إن الغرض من مدارس الحكومة بمصر فرنجة المصريين أي إزالة مقوماتهم المالية التي كانوا عليها وجعلهم مقلدين للإفرنج كتقليد الغراب للحجل في المشي أنساه مشيته ولم يتعلم مشية الحجل، ومن أراد شاهداً على هذا فليقرأ ما كتبه اللورد في كتابه مصر الحديثة عن هؤلاء المصريين المتفرنجين وما ذمهم به، وحينئذ يجزم بأن مراده بفرنجة المصريين ما قلناه آنفاً.

أما الشواهد الوجودية على هذا فهي أصدق شهادة وأقوى برهاناً، تريك كيف يهدم هؤلاء المتفرنجون مقومات أمتهم ومشخصاتها بالتقاليد الأوروبية، وباسم الوطنية والمدنية، وكيف يجرفون ثروة بلادهم إلى أوروبية حتى أن بعض النساء في أعلى البيوت المصرية لا يشتري ثيابهن وزينتهن وسائر حاجهن إلا من أوروبية مباشرة، وأن الواحدة منهن تشتري في كل سنة بالألوف الكثيرة من الجنيهاً ولو ابتاعت بعض ذلك من مصر لجاز أن يكون لبعض التجار الوطنيين نصيب في ربحه

الحر من الإنكليز يعلم ويعترف بأن الإنكليز لم يرقوا المصريين أنفسهم وقد قال بعض من كان يجلس إلى لورد كرومر من المصريين إنك أيها اللورد قد خدمت الحكومة المصرية وأصلحت مالياتها ورقيتها ولكنك لم تعمل للمسلمين شيئاً في ترقيتهم وهم جاهلون لا يعرفون كيف يرقون أنفسهم. فقال اللورد إن الذي لا يرقى نفسه لا يرقى غيره، وكان

حسبهم أن لا نعارضهم في ترقية أنفسهم ومع هذا أقول ليعملوا وليطلبوا مني المساعدة أساعدهم . فقال المصري إنه لا يوجد عندنا رجال هم أهل لمثل هذا العمل، فقال اللورد بل عندكم رجالان هما الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدهما بالمال والحال يعملان لكم ما تشاؤون .

لا لوم على الإنكليز في هذه الخطة ولا تثريب وكيف يجوز أن نلوم الأجنبي أنه لا يرقينا ولا يجتهد في رفعنا إلى مساواته ونحن لا نرقى أنفسنا، فإننا حتى هذا اليوم لم نشرع في العمل العظيم الذي ترتقي به الأمم وهو التربية الملية الاستقلالية التي يتخرج بها عظماء الرجال الذين ينهضون بالأمم، من الظلم بل من الجنون أن نقصر في تربية أنفسنا ونجعل تبعة هذا التقصير على الأجنبي الذي نصيح كل يوم إنه خصم لنا أو عدو مبین، ولو كان جميع الأوروبيين في مستعمراتهم كالإنكليز لا أقول في مصر فيقال ليست مستعمرة رسمية لها بل في السودان لما كان لنا عليهم حجة في هذا المقام وإن كانوا يستطيعون أن يعملوا لنا ما لا نعمله لأنفسنا، ولكن غيرهم يمنعون العلم ويقيدون الحرية ويراقبون كل من دخل مستعمراتهم ويتبعونه الجواسيس ولا سيما إذا كان من العثمانيين .

تلك إشارة إلى سياسة الأوروبيين وتفاوتهم فيها وأما تعصبهم الديني ومحاولتهم تحويل المسلمين عن دينهم فهم فيه سواء كلهم مصداق لقوله تعالى (٢: ١٠٨) «ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٠٩]. وقوله (٢: ١١٩) «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٢٠]. وليس الإنكليز بأمثل من غيرهم في هذا الباب فقد اجتهد دعائهم في تنصير مسلمي الهند وغيرهم فلم ينالوا إلا الخيبة، ولا يستقر نفوذهم في مكان إلا ويكون وراءهم دعاة الدين، بل نرى بعض جرائدهم السياسية تنفث في مصر سموم التعصب الذميمة بعبارات تدل على الحقد والسخيمة والجهل الفاضح .

لهم في مصر جريدة اسمها اجبسيان غازيت تطعن في القرآن حتى في أسلوبه وبلاغته وقد قالت في هذه الأيام أنه على لهجته السقيمة غير المنطقية قد أثر في العرب أكثر من تأثير تورا واكلف في «الأنكلو ساكسون» و«لوثر» في الألمانين و«دانتى» في الايطاليين، وكل بصير يراقب المسلمين لا يسعه إلا أن يندهش من تأثير هذا الكتاب في رجوع الإنسانية القهقرى!

هذا ما يقوله من لا يفهم جملة من العربية على وجهها ولكننا لا نظن أنه يجهل التاريخ كما يجهل العربية، وإذا هو يعلم أنه لم يوجد كتاب في الأرض دفع الإنسانية إلى الأمام ورفعها إلى الأوج كالقرآن وأن المسلمين بلغوا به ما بلغوا من السيادة، ولما تركوه إلى مصنفات الجاهلين «المقلدين» رجعوا القهقرى، وهو وأمثاله يخافون أن يعودوا إلى هديه، فلذلك ينفرهم عنه، وينسب تقهقرهم إليه.

أما مبلغ علم صاحب هذه الجريدة بالعربية فإنك تجد مثلاً مضحكاً في تفسيره لقول الشاعر:

لقد أسمعت لونا ديت حياً      ولكن لا حياة لمن تنادي  
فإنه سخر من اللغة العربية واستشهد بهذا البيت وحمل الحياة فيه على الحياة الحسية الحيوانية، ولو فهم معناه لعلم أن القبطي الذي فسر له قد غشه، ولقبع في كسر بيته خجلاً إن كان حياً يتأثر من الخطأ الفاضح، لأنه يعلم حينئذ أنه لو وجد لشكسبير مثل هذا البيت لانتفخت أنوف الإنكليز عجباً به وفخراً أضعاف انتفاخها الآن.

وبما سخرت به هذه الجريدة الغالية في التعصب من الإسلام والمسلمين تمنى لو سمي شارع كلوت بك «جنة المسلمين» وقالت إن هذه التسمية تحدث عند المسلمين حماساً دينياً في الأحياء المجاورة له!

هذا الشارع لا تغيب فيه الحانات الملاءى بالخمور الأوروبية عن سالكه



طرفة عين، وهو وما يقاربه مثنى البغايا التي بلتنا بها المدنية الأوروبية. وقد صار هذا التعصب يعد هذا الخزي الأوروبي التي تعتمد به أوروبة إفساد آدابنا وديننا وسلب ثروتنا من سيئات الإسلام. فإذا كان هذا هو الأدب والتسامح الإنكليزي في الجرائد السياسية فما بالك بجرائدهم الدينية كجريدة المسيحي وغيرها! وهل يعتبر بذلك المسلمون؟

قد زين لأمثال هذا المتعصب عقله الإنكليزي الذي يتيه به على جميع البشر أن هذا السخف الذي يسخم به جريدته مما ينفر المسلمين عن القرآن ويحول بينهم وبين الاهتداء به فتدوم لقومه السيادة عليهم، ونحن نرى بعقلنا الشرقي المذموم عنده أن تأثيره يكون بضد ما أراد وما زين له عقله، نرى أن إيقاظ المسلمين بمثل هذه الأصوات المنكرة أقرب إلى بعثهم من مرقدهم، وتنبههم إلى ما يراد بهم، وإرجاعهم إلى روح القرآن التي تحييهم كما أحييت من قبل سلفهم، ويا ليت كل ما يكتب في ذلك يترجم بالعربية، ومزاج الحي يدفع عن نفسه الأذى، ويقتضي المزاخمة والتنازع على الغذاء، وتنازع الأعداء المتزاحمين، غير تنازع الإخوة المتراحمين.

وحاصل ما نريده مما تقدم كله أن يطلبه عقلاء قومنا اليوم من مستعمري أوروبة أن يعاملونا معاملة الاخوة، فيتركوا لنا ديننا وآدابنا ولغتنا وحرية العلم والتربية وجميع شؤون الاجتماع، ويساعدونا على الارتقاء في الاقتصاد وجميع شؤون الكسب والعمران ويشاركونا في الربح مشاركة الأخ لأخيه.

إذا أجابت هذه الدعوة كل دولة من الدول القوية المستعمرة أمنت كل واحدة على مستعمراتها، وزادت في خيراتها وبركاتها، وإن فعلته واحدة منهن كان لها العاقبة وحدها حيث تكون من آسية أو أفريقية، وإن لم تفعله ولا واحدة منهن احتقاراً للمسلمين بضعفهم، فيوشك أن يظهر من غيب الله ما ليس في الحسبان، فهذه ألمانية تحسد دول الاستعمار إذ تراهن متمتعاً بما تقدر بقوتها وعلمها أن تتمتع بمثله وتربص بهن الدوائر،

وهذه دولة اليابان تمد عينيها باحثة عن المسالك التي تسير فيها نفوذها السياسي وراء مصنوعات وسلعها التجارية، فما يدرينا لعله يظهر في المسلمين زعماء تثق بهم هاتان الدولتان أو إحداهما، ويكون من وراء هذه الثقة تغيير ألوان هذه المستعمرات، بما هو أقرب إلى الأخوة الإنسانية وارتقاء العمران، «والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» [سورة الأعراف رقم ٧، الآية ١٢٨].



## احتلال فرنسا لمملكة المغرب الأقصى

١٠٥

[المخارج ١٤ (١٩١١) ص ٣٩٨ - ٣٩٩]

بينما غير مرة ما ارتقى إليه فتح الأقوياء بالعلم والنظام والآلات الحربية لبلاد الضعفاء بالجهل والخلل وفقد الآلات الحديثة، ذلك الفتح المبني على قواعد الاقتصاد في المال والرجال، ومبادلة المنافع مع حفظ الموازنة بين الدول الكبرى. فقد صارت الدول تقسم الممالك فيما بينها بالاتفاق القوي فتمكن كل منها الأخرى من اتخاذ الوسائل للاستيلاء على حصتها بما يسمونه الاحتلال أو الحماية أو حفظ النفوذ وما أشبه ذلك من الأسماء اللطيفة التي يخف وقعها على القلوب، ويلوح من وراءها خيال الأمل للمغلوب، فلا توجه قواه كلها للدفاع.

ما أبقى على كثير من الممالك الجاهلة المختلة إلا تنازع الأقوياء عليها وهو عرض لا يدوم وها نحن نراها قد اتفقت بعد خلافها، وكان من أثر هذا الاتفاق أن ظهرت الثورة في بلاد فارس فاحتلت الجنود الروسية في منطقة نفوذها منها وهي الجنوبية وبدأت انكلترا في التمهيد لاحتلال حصتها وهي المنطقة الشمالية.

وظهرت الثورة في المملكة المراكشية فاحتلتها الجنود الفرنسية في هذا الشهر كما أشرنا إلى ذلك في مقالة «العالم الإسلامي والاستقلال الأوروبي» وهذا هو أثر الاتفاق بين فرنسا وإنكلترا على اقتسام ما بقي من القسم الشمالي من أفريقية سنة ١٩٠٤ م وقد دخل في منطقة النفوذ الفرنسي في هذا الاتفاق ما بين حدود طرابلس ومصر إلى السنغال وبحيرة شاد ومنه مملكة برنو ومملكة ودّاي وأكثر من نصف الصحراء الكبرى بما فيها من الواحات وقد شرعت في احتلال تلك البلاد كلها. وأما مراكش فقد جعلوا لها معاهدة خاصة جعلوا لإسبانيا نصيباً من النفوذ فيما يقرب من حدودها فيها، ونرى فرنسا قد احتلتها بجنودها

تسقط الممالك الإسلامية مملكة بعد مملكة فلا يروع ذلك أهل الممالك الأخرى من المسلمين لأن السواد الأعظم من المسلمين جاهل بالسياسة وأساليبها والنافع والضار منها، وأما الذين يشتغلون بالسياسة منهم فأكثرتهم قد انحلت رابطتهم الإسلامية بتأثير التعليم الأوروبي واستبدلوا بها رابطة الجنس أو الوطن ومع هذا كله يتهمهم المتهمون بالجامعة الإسلامية إما للتحرّض عليهم وإما لزيادة التنفير عن هذه الجامعة حتى لا يبقى مسلم تحدّثه نفسه بإمكانها أو استحسانها.

كنا نعرف أخبار الثورة في البلاد المغربية من المقطم والإهرام وقلما نرى حديثاً عنها في جريدة من جرائد المسلمين وأما جرائد الآستانة والجرائد الفارسية فلا قيمة لمراكش عندهن، وإن سقطت ثمرة من شجرة أهون عليهم من سقوطها، وإذا ثبت أن ما يسمونه الجامعة الإسلامية لا مسمى له فليترك الله هؤلاء الفاتحون في هؤلاء الجاهلين المساكين الذين يستولون على بلادهم وليراعوا فيهم حقوق الإنسانية.

قد سمعنا من فرنسا صوتاً جديداً، سمعناها تعترف بخطأها في سياستها الإسلامية، وتقرّح إنشاء قلم مخبرات للوقوف على حقيقة أحوال المسلمين الذين دخلوا والذين يراد إدخالهم في محيط سلطانتها، لأجل أن

تتمكن من رفع الظلم عنهم، وإقامة العدل والمدنية فيهم، فإن صح الخبر  
وسلكت مسلك إنكلترا في السودان المصري فلإنها تجد كثيراً من عقلاء  
المسلمين عوناً لها، ويخف على نفوسهم احتلالها لمراكش.

وسنبين مرادنا بهذا في المقالة الثانية التي تشفع بها مقالة «العالم  
الإسلامي» التي في هذا الجزء.



## أرباب الأقلام في بلاد الشام



«ومشروع الأصفر»

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٧١٣ - ٧١٦]

أشرنا في المقالة الأولى التي كتبناها عند إعلان الدستور إلى ما أمامنا من  
العقبات والمشكلات السياسية والأدبية والاقتصادية في طريق هذا الطور  
الجديد من الحكم، وقد وقع جميع ما كنا نتوقع، وما أشرنا إليه في تلك  
المقالة بالإجمال، وعدنا إلى بيانه بعد ذلك بالتفصيل قولنا «إن الحرية ما  
حلّت في بلاد كبلادنا، خصبة التربة، جيدة الإنبات، غنية بالمعادن  
والغابات، قابلة لرواج التجارة والصناعات، إلا وتدفت عليها أموال  
أوروبا لأجل استثمارها فيها، وهناك من أبواب الرجاء للبلاد والخوف  
عليها ما لا يفتن له الآن في الأمة، إلا الأفراد من الناس. فمن المطالب  
بتنبية الأمة إلى طرق الثروة الطبيعية مع حفظ رقبة بلادها، والحذر من  
قضاء الديون الأجنبية عليها؟» إلخ.

ثم كان المنار هو السابق لجميع الصحف - على ما نعتقد - إلى التنبيه  
على نفوذ اليهود الصهيونيين في جمعية الاتحاد والترقي وما في ذلك من  
الخطر على الدولة حتى أنكر علينا ذلك بعض أصدقائنا المخلصين من

المسلمين وغير المسلمين بمصر، وردّ علينا بعض اليهود في جريدة المقطم، ولم تلبث الحقيقة أن ظهرت بعد ذلك في مجلس الأمة العثمانية أولاً، ثم على لسان الصدر الأعظم حقي باشا، الذي صرح في خطاب له بأن اليهود هم أصحاب المستقبل في هذه الدولة حتى في أمورها الإدارية والعسكرية - فهذه مقدمة أولى للكلمة التي نريد أن نقولها الآن.

مقدمة ثانية: إننا كنا كتبنا مقالاً نشر في المنار وفي بعض جرائد بيروت نبهنا فيه اخواننا العثمانيين إلى المشابهة بين ما يستقبلون في هذا الطور الجديد من الحياة الذي دخلوا فيه وبين ما سبقهم إليهم إخوانهم المصريون من مثله، وهو طور حرية الأقلام والأعمال، وذكرناهم بأن يعتبروا بحال مصر ويتقوا ما استبان لهم ضرره، ويأخذوا ما استبان لهم نفعه، وبيننا لهم ما اختبرناه بنفسنا من ضرر ومفسدة ما جرى عليه بعض إخواننا الكتّاب المصريين من رمي بعضهم بعضاً بخيانة الوطن وإيثار مصلحة الأجانب فيه على مصلحة أهله. فُتن بهذه البدعة بعض المغرورين الطائشين وغلوا فيه غلواً كثيراً حتى لم ينجل بعضهم من التصريح بأن مشروع الدعوة إلى الإسلام وإرشاد المسلمين إلى حقيقة دينهم وما فيه من الخير لهم في دنياهم يراد به خدمة الأجانب من غير المسلمين!! فكان مثل هذا الكاتب كمثّل بعض أهل الشام الذي اعتاد أن ينبذ من يخالف رأيه بلقب وهابي، حتى إذا كان يحدث بعض أدباء النصارى فلما خالفه قال له: أنت وهابي!! فقال له ذلك الأديب: بل أنا مسيحي، ما رغبت عن ديني! قال: كلا، إنما أنت وهابي!!

مقدمة ثالثة: الخلاف في الرأي طبيعي في البشر لا بد منه، ونافع لا شك في نفعه، ولو لم يكن لوجب أن يوجد بالتكلف إن لم يوجد بالطبع، وهو ضار إذا أدى إلى الشقاق والتفرق، وإن أهل العلم والفضل يتناظرون في المسائل العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، فيكون أحدهم موجباً والآخر سالباً بالمواضعة والاتفاق، وإن لم يسبق لهم فيها خلاف،

وإنما غايتهم بيان الحقيقة بالبحث عن كل ما يمكن أن يصل إليه الفكر فيها. كذلك تؤلف الأحزاب في المجالس النيابية ليؤيد بعضهم الحكومة في سياستها وإدارتها، وينتقدها البعض الآخر فيهما، وغرض الفريقين واحد وهو بيان المصلحة الحقيقية للبلاد. فلا يصح أن يُرمى الحزب الموافق للحكومة بأنه سىء النية يريد أن يساعدها على الاستبداد بالأمة، ولا أن يُرمى الحزب المخالف بأنه عدو للدولة.

بعد هذه المقدمات أقول إنه قد ساءني ما كان من خلاف جرائدنا السورية في (مشروع الأصفر) ونبز بعضهم بعضاً بالألقاب، ونزولهم إلى ما لا ينبغي من الطعن والسباب، حتى جعل بعضهم أشهر الجرائد بالإخلاص موضع الارتباب.

مشروع الأصفر من المسائل الاقتصادية الجديرة بأن يختلف فيها الباحثون ولو لم يختلفوا بالفعل لحسن منهم أن يتواطأوا على الخلاف فيتكلف بعضهم استنباط كل ما يمكن أن يستنبط له من المضار، وبعضهم استنباط كل ما يمكن استنباطه من المنافع، ثم يحكموا بعض أهل الروية والعلم في الترجيح أو يدعوه إلى الحكومة والرأي العام، ومناظر الإنسان نظيره، فمن رمى مناظره بالخيانة وسؤ النية كان طاعناً في نفسه، وموقفاً لها موقف التهمة، والتزاحم على المنفعة.

إنني لم أعن بدرس «مشروع الأصفر» الأول لأنني رأيت أنه يتقلب بين ألسنة المبعوثين، وأقلام الصحافيين، فتركته لهم، ولكنني كنت أميل إلى رفضه، ورأيتهم كذلك يميلون، ولا عنيت به بعد تنقيحه أيضاً، ولا تتبع ما يجيئني من الجرائد التي تبحث فيه، فأنا لا أحكم فيه نفسه، وإنما أقول كلمات يصح أن تكون لمن وعائها من أسباب الحكم الصحيح فيه، وهي:

(١) إن عمران بلادنا يتوقف على استعمال الأموال الأوروبية فيها وزمام هذه الأموال في أيدي اليهود، وأضرب لذلك مثلاً وقع بمصر، وهو أن

بعض الناس قال لتاجر يهودي وقد ساومه في «ساعة» إنني لا أريد أن أشتري شيئاً يربح منه اليهود، فقال اليهودي إذاً لا تشتري شيئاً قط. ولأجل هذا يصانع الاتحاديون اليهود الصهيونيين وغير الصهيونيين، فإذا كان إخواننا السوريون لا يقبلون مشروعاً فيه أموال لليهود فليعلموا أن معنى هذا أنهم لا يقبلون مشروعاً عمرانياً كبيراً في بلادهم مطلقاً، وبعبارة أخرى لا يقبلون أن تعمر بلادهم.

(٢) إن أهل بلادنا السورية بل العثمانية كلها عاجزون عن القيام بالمشروعات الكبيرة من زراعية وصناعية وتجارية لا لقلة مالهم فقط، بل لذلك ولجهلهم بما تتوقف عليه تلك المشروعات من العلوم والفنون والأعمال الهندسية والآلية، فهم في أشد الحاجة إلى الاستعانة على تلك المشروعات بأموال الأوروبيين ورجالهم، وإلى الاحتكاك بهم والاشتغال معهم لأجل التعلم منهم

(٣) إن الخطر من الصهيونيين ينحصر عندي في شيء واحد وهو امتلاكهم للأرض المقدسة، فينبغي لكل من يقدر على حمل الحكومة العثمانية على منعهم من ذلك أن لا يألوفه جهداً ولا يدخر سعيّاً.

(٤) إن الخطر من استعمال أموال الأجانب اليهود وغيرهم ينحصر عندي أيضاً في أمرين؛ أحدهما، غرق الأهالي أو الحكومة في الديون؛ وثانيهما، تمليكهم لرقبة البلاد، بأن يكون أكثر الأرض أو الكثير منها لهم.

(٥) إذا عَدَوْنَا هذين الخطرين فلا يضرنا أن نستخدم أموال اليهود العثمانيين وأموال الأجانب من اليهود وغيرهم في المشروعات التي تعمّر بها بلادنا بالزراعة واستخراج المعادن وغير ذلك، بل ذلك نافع لنا بل لا بد لنا منه إلا إذا اخترنا الخراب على العمران والفقر على الغنى، وماذا نخاف بعد هذا؟

إننا رأينا العبرة في مصر بأعيننا: زادت ثروة هذا القطر بأموال

الأوروبيين وأعمالهم أضعافاً مضاعفة، وكثر فيها الأغنياء، ولولا جرأة الفلاح المصري على الاستدانة بالربا الفاحش وغير الفاحش بغير حساب يوازن فيه بين دخله وبين ربا الدين الذي يأخذه بغير حاجة شديدة إليه في الغالب - ولولا الإسراف والقمار والمضاربات لما كان على المصريين دين يذكر بالنسبة إلى ثروتهم العامة، ولكانوا أغنى شعوب الأرض. على أنهم إذا ثابوا إلى رشدهم، وعنى المتعلمون منهم بالثروة والاقتصاد بعض ما يعنون بالسياسة، فإنه يمكن لهم أن يفوقوا ديونهم في زمن قريب، وعند ذلك يكون لهم شأن صحيح في السياسة، أساسه القوة الحقيقية، لا القوة الكلامية.

فاضت أنهار الذهب الأوروبي على مصر في زمن لم يكن لمصر فيه مثال سابق تقيس حالها عليه لشبهها به، ولا منار تهدي به في حياتها الاقتصادية، ولكنها أنشأت تتعلم بالتجارب ونفقات علم التجارب كثيرة، وقد ظهرت بواكر ثمرة علمها بالتوجه إلى إنشاء النقابات الزراعية لوقاية الفلاحين من غوائل الربا الفاحش وحفظ ثروتهم، وإنشاء الشركات التجارية والصناعية، أنشأوا يعملون بما تعلموا من الأوروبيين، فكانوا في أول عملهم كالطفل الذي بدأ يتعلم المشي يمشي خطوة ويسقط، وقد كنا كتبنا في المنار مقالات ونبدأ في ذلك عنوانها (طفولية الأمة).

أما العثمانيون، وأخص منهم السوريين، فأمامهم المثال الظاهر والمنار المضيء وهو مصر، فليعتبروا بحالها، ولا يقبلوا في أمثال هذه الأمور كل رأي، ولا يتبعوا فيها كل ناعق، وليحذروا ممن يستميلون العامة إليهم بما يروج عادة في سوقهم، وهو الإنذار والتخويف وإذاعة السوء، فإن الجمهور يرجح دائماً خبر الشر على خبر الخير.

ليس أمر مشروع الأصفر بيد الجرائد التي تراه نافعا ولا التي تراه ضاراً، وإنما أمرها إلى مجلس الأمة وحكومتها العليا، فلتقل كل جريدة ما تشاء في بيان نفعه وضره، من غير طعن ولا لعن، فإذا نفذ بعد ذلك كان



أهل البلاد على بصيرة من الانتفاع به والتوقي من ضرره، وإذا ردتته نثلت الكنائس، وفاءت السكائن، وكفى الله المؤمنين القتال.



## مسألة اليمن واتفاق الحكومة مع الإمام

[المنارج ١٤ (١٩١١) ص ٧١٧ - ٧١٩]

كنا اقترحنا على الدولة قولاً وكتابة أن تتفق مع الإمام فتعترف له بزعامته وتقرّه على إمامته في قومه حسب اعتقادهم، وترضى منه بما يقبله في مقابلة ذلك من الاعتراف بسيادة الدولة على اليمن وكونه هو تابعاً لها. وبعد الاتفاق على هذين الركنين يسهل الاتفاق على كل شيء، بل نبهنا الدولة على ما هو أعم من ذلك لتمكين سلطتها في جزيرة العرب كلها بمثل هذا الاتفاق مع أمرائها.

كان من سعيي في مسألة اليمن أن اقترحت على رؤوف باشا المعتمد العثماني بمصر، والفتنة في ريعانها والعسكر يساق إلى اليمن تباعاً، أن يخاطب حكومة الأستانة في أمر الاتفاق مع الإمام بلسان البرق، وقلت له إنني موقن بأن الإمام يرضى بالاتفاق ويكره أن يحارب الدولة باختياره، وإنني أتجرأ أن أضمن ذلك بشرط أن تعترف الدولة بإمامة الإمام وزعامته في قومه وعدم نزع السلاح منهم، والإمام يعاهدها على عدم الخروج عليها وعلى تأمين البلاد، وما زالت العرب تدين بالوفاء في الجاهلية والإسلام إلخ ما ذكرته له. فقال إن الخطابات البرقية وغير البرقية لا تكفي للإقناع في مثل هذه المسألة ولعلنا نتكلم فيها عندما نذهب إلى الأستانة في فصل الصيف.

أما الأصول التي قررتها اللجنة التي ألفت في الباب العالي لأجل وضع النظام لإصلاح اليمن فهي على ما نشر في الجرائد عشرة: ١ - تقسيم اليمن وعسير إلى ثلاث ولايات. ٢ - أن يُعين مشايخ القبائل حكاماً إداريين، أي متصرفين، في الألوية وقائمقامين في الأقضية ومديرين في النواحي. ٣ - أن يُصرف النظر عن أصول المحاكمات التي عليها العمل في الدولة هنالك ويستبدل بها محاكم شرعية تحكم في الدعاوى. ٤ - أن تُنشأ الطرق والمعابر الكافية وتؤسس المدارس وأخصها الابتدائية. ٥ - أن يُمنح الإمام يحيى رئاسة اليمن الروحية. ٦ - أن يُبتاع نَسَافات تحافظ على السواحل وتكون سداً دون تهريب السلاح والذخائر الحربية، وأن تُنشأ المعازل العسكرية اللازمة. ٧ - أن يُعفى اليمانيون كافة من الخدمة العسكرية ويوفد من سورية وطرابلس أناس يقومون بها هناك أو يؤخذ لها أناس من العربان بالأجرة. ٨ - أن يُسمح للعربان بحمل السلاح مؤقتاً. ٩ - أن تُلغى الضرائب ويحصر التبغ (الدخان) لأنه يسهل تهريب السلاح. ١٠ - أن يُعين الولاة من أصحاب الفطنة والحنكة والدراية ويمنحوا السلطة الواسعة.

هذه الأصول ليست فيما نرى إصلاحاً كافياً لليمن، ولكنها ترضي اليمانيين وتسكن نائرتهم، إلى أن تتمكن الدولة من ضبط السواحل ومنع السلاح ومن امتلاك أعنة الرؤساء والمشايخ بالوظائف والرواتب، وإعداد القوة العسكرية من غير أهل البلاد لتنفيذ كل ما تريده الحكومة بالقوة. وبعد هذا يجمع السلاح من الأهالي ويحملون على كل ما تريده الحكومة منهم ومساواتهم بسائر العثمانيين. ولو كان لنا أن نقترح لاقتراحنا ولكننا نتمنى أن توفق الدولة إلى اختيار الولاة من الرجال الموصوفين بما ذكر في الأصل العاشر وبالديانة والإخلاص في العمل، فعلى هذا جل المعول، وما حرك الفتن هنالك في كل زمن إلا أولئك الولاة الطغاة العتاة الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

وسوف نرى ما هي المدارس التي تُنشأ هناك وماذا يعلم فيها؟ وما هي الطرق والمعايير التي تنشأ للعسكر وللزراعة والتجارة؟ وكيف تكون المحاكم؟ ونبدي رأينا في ذلك، فإنه هو كل حظ اليمانيين من الإصلاح العملي. وكان من مصلحتهم ومصلحة الدولة أن يدخلوا في الخدمة العسكرية ويتعلموا في بلادهم، ويقوموا فيها بكل ما تحتاجه الحكومة من الجند في الداخل، وينفروا إذا استنفروا لمحاربة كل عدو مهاجم، وإذا جرى الإصلاح في طريقه المستقيم وزالت مخاوف القوم وريبتهم التي غرستها في نفوسهم المظالم السابقة فإنهم يطلبون ذلك من تلقاء أنفسهم.

أما مسألة عسير فكادت تكون أعسر من مسألة اليمن وأعقد، وأعصى على من يحلها وأبعد. فقد عظم فيها نفوذ السيد الإدريسي الروحي وارتابت فيه الدولة فحاربت، واستعانت عليه بأمر مكة الشريف حسين المشهور بالروية والحزم والإخلاص للدولة، فسار إلى عسير بنفسه وبعض أنجاله يقود جيشاً مؤلفاً من عسكره الخاص وعسكر الدولة النظامي فحارب الإدريسي بقوته العسكرية والمعنوية حتى فك الحصار عن أبها عاصمة بلاد عسير وأجلى الإدريسي إلى عصم الجبال فامتنع فيها. والأمير أعزه الله كان أجدر من قواد الحروب بإيثار الصلح والسلام، وحفظ الدماء بالنفوذ الروحي وقوة الخطابة والبرهان. ويقال إنه كان يريد هذا وأن الإدريسي أبى عليه فتح باب الكلام، وقد داوى الأمير ما جرح بالإحسان إلى أهل البلاد التي دخلها في عسير، وإنشاء المساجد والمدارس لأهلها، ثم عاد إلى الحجاز مؤيداً منصوراً، ولكن الدولة ترى أن عقدة عسير العسكرية لما تنحل.

[المنار ١٤ (١٩١١) ص ٧٥٠ - ٧٥٥؛ وص ٨٣٣ - ٨٥٣؛  
و٩٢٣ - ٩٣٤. وج ١٥ (١٩١٢) ص ٣٣ - ٥٧]

وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة، فوجفت القلوب،  
وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار، وعميت الأنباء على الناس فهم  
يتساءلون: كيف أقدمت إيطاليا على مفاجأة الدولة العثمانية بالعدوان  
واغتصاب مملكة كبيرة، وهي ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي،  
وإيذانها بالحرب من غير عدا سابق ولا خلاف على شيء بني عليه هذا  
العدوان؟

كيف رضيت الدول العظمى بهذا العدوان المشوّ الذي هدمت به  
حقوق الدول ونقضت به معاهداتها، وبطلت الثقة بكل ما عدا القوة  
فيها. فهي كالوحوش المفترسة، والذئاب الضارية، لا يصدها على الولوغ  
في الدماء، وتمزيق الأشلاء، إلا العجز فقط؟

كيف سكنت الشعوب الأوروبية لدولها على هذه السياسة الوحشية،  
التي لا شائبة فيها لشيء من شرف الإنسانية؟

هل الحقوق والعهود والقوانين والعدل والرحمة والإنسانية ألفاظ تلوكمها  
الأسنة، وترسمها الأقلام، لأجل مخادعة الغافلين، والتغريب بالجاهلين،  
أم هي خاصة بمن يدعون الانتساب إلى المسيح وإن كانوا أبعد الخلق عن

(\*) تنشر في جريدة المؤيد مقالات متسلسلة تحت هذا العنوان اكتفينا منها هنا بالأولى.

آدابه وتعاليمه في القناعة، والزهد والرحمة ومحبة الأعداء، والصفح عن المعتدين؟

هل تقصد أوروبا بالسماح لإحدى دولها الكبرى بهذا العدوان المشوه، المخالف لما اعتاده سائر دولها من العدوان المموه، لجعله مقدمة لإسقاط هذه الدولة الإسلامية واقتسام بلادها بعد أن أسقطن دولة المغرب الأقصى واتفقن على اقتسام دولة إيران وسمحن لروسيا بإنشأ برائنها في القسم الشمالي منها، وترك القسم الجنوبي لدولة إنكلترا؟

أتريد هذه الدول الأوروبية المسيحية العادلة الرحيمة، البريئة من الظلم والتعصب بزعمها، هدم الدول الإسلامية الثلاث في سنة واحدة؟ هذا ما يتساءل به الناس.

قد انتهك الستر، وانكشف القناع، وأظهرت أوروبا ما كانت تخفيه بالتمويه من قصد إزالة سلطان المسلمين من الأرض والقضاء عليهم بالذل والعبودية، وأن يكونوا خدماً وعبداً لأوروبا بعد أن تفتسم ما بقي من ممالكهم، وتقطع عليهم جميع طرق العزة والقوة، وتحرمهم إلى الأبد من إنشاء حكومة ذاتية.

كانت أوروبا تتوسل إلى مقصدها هذا بالبحث عن ذنوب للحكومات الإسلامية وإن لم تخل من مثلها حكومة، أو انتحال ذنوب لا حقيقة لها، وإنما أوجدتها الدسائس الأوروبية ليبني عليها ما يراد منها.

ابتلي المسلمون بملوك وأمراء وأعوان لهم من العلماء والزعماء حالوا بينهم وبين كل علم وعمل تعز به أمتهم، وتقوى به دولتهم، فمكّنوا بذلك أوروبا من مقاتلتهم، وفتحوا لها الثغور لاحتلال بلادهم وإزالة استقلالهم، فزال أكثرها وبقي أقلها مستقلاً في الظاهر، ولكنه تحت نفوذ أوروبا في الواقع.

هذه الدولة العثمانية قد اضطرها مركزها في أوروبا واحتكاكها بدولها،

وكونها في الأصل دولة حربية، إلى اتخاذ جيش منظم كالجيوش الأوروبية التي صار أساس قوتها العلم والصناعة والنظام، لا الكثرة والشجاعة والقوة البدنية فقط. فكانت الدولة بهذا الجيش وبقليل من النظام أشد الحكومات الإسلامية بأساً، وأقواهن استقلالاً، ولكن أوروبا تعبت باستقلالها الداخلي، فلا تدعها تتصرف في بلادها كما تتصرف الدول الأوروبية القوية منها والضعيفة في بلادها، بل لا يسمح لها من التصرف بمثل ما يسمح به للولايات التي فصلتها منها وجعلتها دولاً مستقلة كالليونان والبلغار والجلب الأسود. فهي تريد، مثلاً، أن تزيد في المكوس (الجمارك) على ما يرد إلى بلادها ولا تقدر على ذلك أو ترضى جميع الدول الكبرى به.

قد علم القاصي والداني أن دول أوروبا تطمع في تقسيم ولايات هذه الدولة بينهم، وأنهم يتربش بذلك لتنازعهم في القسمة وخشيتهم أن تؤدي إلى حرب طحون يتمزق بها شمل أوروبا ويسحق بعضها بعضاً، وكان بعضهم يحسب لسخط المسلمين الخاضعين لها ولهرجهم حساباً. فهذا هو السبب في عدم اتحاد دول أوروبا الكبرى باسم الصليب على اقتسام بلاد الدولة العثمانية.

ويلي هذه الدولة في دول الإسلام دولة إيران فدولة المغرب الأقصى. كانت أوروبا تتربص بهما الدوائر وتنتظر الفرص وترى أن سلاطين هذه الدول أو أعوانهم يستعجلون الطامعين فيها بالاستيلاء عليها. لأنهم يظلمون الناس ويبغون في الأرض ويسوقون الناس إلى اليأس من حكمهم وتوقع زواله وتوطين النفس عليه، ومتى وصلت البلاد إلى هذا الحد سهل وجود أو إيجاد الفتن والحوادث فيها والتوصل بها إلى احتلالها أو حمايتها أو امتلاكها، أو ما شئت من الأسماء اللغوية أو العرفية الدالة في هذا العصر على الفتح السلمي أو الحربي.

كان جل التنازع في السياسة العثمانية والإيرانية بين الدولتين الروسية

والبريطانية حتى نجم قرن ألمانيا في أوائل هذا القرن الهجري وظهرت شرة عاهلها المستوي على عرشها لهذا العهد في منازعة إنكلترا فاستمال إليه السلطان عبد الحميد، فحنق الإنكليز على الدولة العلية وقلبوا لها ظهر المجن واتفقوا مع روسيا عليها، ومهدوا السبل لتقسيمها.

كانت روسيا هي السابقة إلى السعي في إزالة دولة العثمانيين ومحو اسمها من لوح الوجود، وإرث موقعها البحري الذي لا نظير له في الأرض، لتجمع بين القوتين البرية والبحرية، وتكون لها السيادة العليا في البرية، وكانت قاعدة السياسة الإنكليزية أنه يجب أن تبقى الدولة العثمانية سدّاً في وجه روسية وحائلاً بينها وبين البحر المتوسط الذي هو قلب البحار وسيدها، بشرط أن لا تقوى، ولا تكون دولة بحرية تحشى، وإن شئت قلت «بشرط أن لا تموت ولا تحيا». فلما استقرت قدمها في مصر والسودان، ودمر الأسطول الروسي في محاربة اليابان، وظهر الأسطول الألماني في منتهى القوة، وصار في سنين قليلة بعد الأسطول الإنكليزي في الدرجة، تغيرت السياسة الإنكليزية، وتبع ذلك تغير سياسة أوروبا كلها في المسألة الشرقية، لأن إنكلترا لا تزال صاحبة النفوذ الأول في عالم السياسة.

كان من سوء حظ العالم الإسلامي في مشرقه ومغربيه أن انخدع في هذا الطور السياسي الجديد بعاهل الألمان، فاغترت الأستانة ثم طهران ثم فاس بإظهار ميله وودّه للعالم الإسلامي ورغبته في بقاء دوله مستقلة عزيزة قوية، فكان غرورها وانخداعها، هو الذي حمل إنكلترا على التعجيل بالقضاء عليها، ولم يغن عنها وداد عظيم الألمان الوهمي شيئاً، بل كان صوته في تحية الثلاث مئة من الملايين المسلمين نذير الشؤم وفاتحة الشقاء.

ألمانيا دولة بنيت سياستها على الأثرة والشح، فهي تريد أن تريح بشرط أن لا يريح منها أحد، بل تريد كسباً بغير رأس مال، فلا تسمح بدرهم ولا دينار ولا بجندي ولا بكرة مدفع ولا رصاصة بندقية لأجل المسلمين

الذين مناهم أمبراطورها بصدافته لأجل الربح منهم ، فكان إذا كان لا بد لهم أو للدولة العثمانية كبيرة دولهم من الاعتماد على صداقة أوروبية فلا يشك عارف خبير بأن صداقة إنكلترا ، خير لهم ولدولتهم من صداقة ألمانيا ، فإن إنكلترا إذا أرادت أن تضر لا تقدر دولة أخرى على مثل ضررها ، وإذا أرادت أن تمنع الدولة من اعتداء غيرها عليها فلا تقدر دولة أخرى على مثل منعها وحمايتها ، وأما النفع فلا ينبغي أن نعتد فيه على دولة أجنبية ، فمن لم ينفع نفسه لا ينفعه غيره .

هذا هو رأيي في الدولتين وقد صرحت به منذ سنين للبارون أوبنهايم الذي كان مندوب الامبراطور غليوم الثاني غير الرسمي بمصر ، إذ كان يريد أن يقنعني بضد هذا الرأي ، ولكن ظهرت حجتي على حجته ولم يستطع إقناعي ولا خداعي بمثل ما خدع به بعض الناس . وهذا هو رأي جميع من أعرف من إخواننا العثمانيين المعتدلين في آرائهم السياسية .

وأذكر أن أحمد مختار باشا سألني عن رأيي في انكسار إنكلترا في حرب الترانسفال وكانت الحرب في ريعانها : هل من مصلحتنا نحن العثمانيين أن يستمر انكسار الإنكليز ويسقط نفوذهم ؟ فقلت : أرى أن المصلحة في أن يقف الإنكسار والغلب عند هذا الحد ، وأن تنتصر بعده إنكلترا ويبقى نفوذها في أوروبا محفوظاً ، فإن سقوطها خطر على دولتنا ، لأن من مصلحتها أن تبقى دولتنا . ومصلحة روسيا في زوالنا . ولا يقف في وجهها سواها . فأهوى بيده ورأسه وقال : هذا هو الرأي .

كانت سياسة عبد الحميد السوءى تهدم ما كان لإنكلترا من المصلحة في بقاء الدولة وتقرب بينها وبين روسيا وتزليل ما بينهما من الأضغان والأحقاد . فلما زال سلطانه وجاء الدستور كانت إنكلترا أول دولة رحبت بحكومتنا الجديدة وأظهرت لها الميل وأنحت على النمسا بأشد اللائمة عندما أعلنت ضم البوسنة والهرسك إلى أملاكها . وكادت وزارة كامل باشا تعيد لها سياستها الأولى معنا بأكمل مما كانت عليه ، ولكن قام في وجهه أغيلمة



غلطة وسلانيك وأسقطوا وزارته بإرشاد اليهود الصهيونيين الألمانين. وما زال الغرور بأولئك الزعماء الذين نزوا على الدولة بقوة جمعية الاتحاد والترقي وضباطها حتى أياسوا إنكلترا منا، في وقت يرون فيه فرنسا وروسيا وإيطاليا تابعات لها في السياسة، ويرون النمسا مغتصبة البوسنة، والهرسك تطمع في سلانيك مركز عظمتهم، وفيما جاوروها من مكدونيا، ويرون فيه المانيا تتفق مع روسيا سرّاً على بلاد إيران شقيقة دولتنا وجارتها، وذلك من أكبر الأخطار علينا. ولم يفيقوا من غرورهم حتى سمعوا صيحة إيطاليا في يوم انعقاد مؤتمر جمعيتهم السنوي تقول قد آذنتكم بالحرب، وأخذت منكم طرابلس بالقوة والقهر، ورأوا الدولة العلية تراجع الدول العظمى وتذكرهن بالحقوق الدولية، والمعاهدات والإنسانية، فيتصاعن عن ندائها، ويدعن إيطاليا تغتصب هذه المملكة الإسلامية الواسعة من الدولة الإسلامية التي لم يبق في يدها في أفريقيا الإسلامية سواها، وقد كان معظم سواحلها الشمالية والشرقية لها.

إن سكوت أوروبا على هذا العدوان المشبوه الذي تتبرأ منه الأعذار، وتنكث به العهود وتنسخ القوانين، برهان واضح على أنه عدوان متفق عليه، وإذا لم يقف هذا العدوان عند طرابلس ولا سيما إذا ظهر لأوروبا أن التجربة الأولى ناجحة بعجز الدولة العثمانية عن كل عمل، وعدم تأييد الأمة العثمانية بجميع شعوبها التي يعتد بها لها، وعدم تهيج شعور العالم الإسلامي كله لأجلها.

يظهر أن دول الاستعمار ولا سيما إنكلترا وفرنسا يعتقدن أن العالم الإسلامي قد مات شعوره وتقطعت روابطه بما نفثت فيه أوروبا من سموم الجنسية الوطنية واللغوية والقومية. ومن التعاليم الفاسدة المزعزعة لأركان الإيمان، المغرية بالنعيم والشهوات، وقوى اعتقادها هذا عدم ظهور الغيرة والحماية الإسلامية عند العبث باستقلال دولة المغرب الأقصى، ودولة إيران، فتجرأن على العبث باستقلال الدولة العثمانية، ولم يحفلن باعتقاد

المسلمين أنها دولة الخلافة، وأن بذهابها زوال الحكم الإسلامي من الأرض، وهو الذي يجب على كل مسلم أن يبذل ماله ونفسه في سبيله.

ألا فليعلم المسلمون في جميع أقطار الأرض، والعثمانيون أينما كانوا، وحيثما وجدوا، أن ذهاب طرابلس الغرب غنيمة باردة يتبعه اغتصاب النمسا لسلانيك وما جاورها فاققسام بقية ولاية مقدونية، فوضع الولايات السورية تحت حماية الدول الكبرى، فتجزئة بقية ولايات الدولة.

لا يغرنكم انتقاد بعض جرائد أوروبا لغدر إيطاليا وعدوانها، سواء كان صادراً عن مخادعة وخلافة، أو عن استقلال في الانتصار للمعاهدات والقوانين، أو لأجل أن لا يناقش إقرارهن لإيطاليا ما كان من إنكارهن على النمسا عندما اغتالت البوسنة والهرسك.

الجرائد في أوروبا مرآة أممها وحكوماتها، فإذا كانت تلك الأمم والحكومات غير راضية من عدوان إيطاليا فما حل عقدها على أوروبا بعسير.

أمامنا شيء واحد فيما أرى، وهو تأليف وزارة تثق بها أوروبا واجتماع مجلس الأمة في الحال وتأييده لها وإزالة سيطرة أولئك الأحداث على الدولة بقوة جمعيتهم، فهم مصدر هذا البلاء كله، فإذا تم هذا وأمكن لهذه الوزارة أن تقنع دول الاتفاق المثلث بوجوب كف عدوان إيطاليا والمحافظة على جميع أملاك الدولة فذاك وإلا فالخطر واقع ما له من دافع.

إن عجزنا عن تأليف هذه الوزارة وليس لها مثل كامل باشا، وعن تأييد المجلس لها بمعارضة أولئك الأحداث فذنب هلاكنا علينا ولا عتب لنا على أوروبا. وإن قدرنا على تأليفها وتأييدها وعجزت هي عن إقناع الدول بما ذكرنا علمنا أن البلاء من أوروبا كلها، وأنها متفقة على محو سلطتنا من الأرض كلها لا من طرابلس فقط، والحكم حينئذ للطبع لا للرأي. فإذا

كان قد زال منا كل شعور بالشرف وقيمة الحياة الإنسانية نخلد إلى الذل والعبودية، وإلا نفعل كل ما يفعله الإنسان الذي يشعر ويحس إذا يئس من الحياة الاستقلالية الشريفة، وقضي عليه بالذل والعبودية، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

## المسألة الشرقية

(تابع المقالات التي نشرناها في المؤيد)

بمناسبة حرب إيطاليا لطرابلس الغرب)

[المنازع ١٤ (١٩١١) ص ٨٣٣ - ٨٣٨]

(٢)

«ما يجب على المسلمين والعثمانيين من مساعدة الدولة»

(صفة العناصر العثمانية ومكانة السلطة الإسلامية من أهلها)

عدوان إيطاليا على الدولة العثمانية هو فتح لباب المسألة الشرقية، دفعت إليه أوروبا أشد دولها حماقة وغروراً وأقلها بصراً بالعواقب، وأن فرنسا وإنكلترا لا يطيب لهما مجاورة إيطاليا لتونس ومصر لولا الضرورة، وهما تعلمان أن طرابلس الغرب لا تكون لقمة سائغة لها كما ساغت حماية تونس للأولى واحتلال مصر للثانية، فسمحتا لها بأعسر اللقم ازدراداً وهضمًا. وأقبحها أحداثاً وذكرًا، وأشنعها سبة وعارًا.

إذا لم يكن مراد أوروبا بهذا العدوان فتح باب المسألة الشرقية بهذا العمل لا يكون أقل من طرق لهذا الباب، وانتظار لما يسمع من الجواب، فبماذا يجيب العثمانيون والمسلمون؟

العثمانيون مؤلفون من عناصر وملل شتى وقد رضيت دولتهم التركية

العنصر، الإسلامية الدين، بأن يكونوا كلهم شركاء لعنصرها فيها، وما قام بمحاولة أولئك الأحداث الأغرار من هضم حقوق عناصرهم، واضطهاد لغاتهم، عرض يزول بزوالهم، أو زوال سلطتهم المؤقتة، فلا ينبغي أن تؤاخذ الدولة بذنب تلك الزعنفة التي قذفتنا بها سلايك وأزمير وأدرنه، بل يجب أن يعلم كل عنصر وأهل كل ملة أنه لا توجد دولة أوروبية تعاملهم بمثل ما تعاملهم به الدولة العثمانية، وتعطيهم من الحقوق مثل ما تعطيهم هي، فإن الأوروبيين قد تألهاوا بالعظمة والكبرياء، فهم يرون أنفسهم آلهة للشرقيين، وإن شاركوهم في الدين. فعلى من لم يعم التعصب الديني قلبه، ولم تفسد الوسواس الأجنبية لبه، أن يفكر بخطر العبودية، والحرمان من المساواة وحقوق الحاكمية، اللذين يتهددانه بسقوط الدولة العلية لا سمح الله تعالى.

ثم لا يثقل على غير المسلمين من إخواننا العثمانيين أن يكون المسلمون من غير العثمانيين مشاركين لهم في الغيرة على هذه الدولة والانتصار لها باسم الإسلام، فإنما ذلك مزيد قوة واحترام لدولتهم التي يعتزون بعزتها، ويدلون بذلتها، حماها الله تعالى.

الدين الإسلامي دين سلطة وحاكمية، وهذه الصفة من صفاته، تكاد تكون أرسخ من عقيدة التوحيد في نفوس أهله، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يعتقدون أن الدولة العثمانية هي التي تقوم بها هذه الصفة، وهي سياج عقائد الإسلام وعباداته. وأن ما عرض لها من التقصير في خدمة الإسلام باستبداد بعض السلاطين، وفساد دين بعض الباشوات، أو بضغط أوروبا، هو من الأعراض التي لا تلبث أن تزول بزوال أسبابها ما دامت الدولة باقية مستقلة، آخذة على نفسها القيام بمنصب الخلافة.

هذا الاعتقاد سار في جميع الشعوب الإسلامية سريان الدين في مداركهم وشعورهم. ولبعض همج أفريقية وجزائر المحيط الجنوبي من

الغلو في هذه الدولة وفي سلطانها ما يدخل في باب الخرافات، حتى ان في «البرابرة» المقيمين في القاهرة من يعتقدون أن السلطان هو الحافظ لهم في بلادهم، وهو الذي منع العرابيين وغير العرابيين من الاعتداء عليهم.

هذا الاعتقاد الذي تجهل الدولة كنهه فلم تعرف كيف تستفيد منه قد أفاد دول الاستعمار، ومهد لها سبيل الاستيلاء على الممالك الإسلامية الكثيرة والتمكن فيها، بضعف المسلمين في مقاومتهم لها. إذ كان من أسباب هذا الضعف في كل قطر اعتقاد أهله أنهم ليسوا هم الذين يقيمون حكم الله وإنما تقيمه دولة الخلافة فهو في أمان واطمئنان، يمكن الالتجاء إليه في كل آن، فإذا وقعت الواقعة، وبدأت أوروبا بتقسيم البلاد العثمانية بالعدوان المحض، وشعر المسلمون في كل مكان، بأن أوروبا جعلتهم كاليهود لا دولة لهم ولا سلطان، فهناك يدخل العالم في طور جديد لا يعلم عاقبته إلا الله تعالى.

ليس هذا القول بالتهديد ولا بالوعيد، وليس الذي يقوله جاهلاً بقوة أوروبا العلمية والصناعية والاجتماعية، بل هو يعرفها ويعلم أنها جعلت بها أكثر المسلمين مسخرين لخدمتها كالسوائم، وأن الجاهلين منهم، وهم السواد الأعظم، لا يعلمون ماذا يعملون، وأن المتعلمين قد أفسدت التعاليم الأوروبية نفوس الكثيرين منهم. وحلت الرابطة الإسلامية التي تربط كل قطر من بلادهم منهم بالآخر وهم لا يشعرون، وأحدثت لهم روابط أخرى بدلاً منها تُسمى في مصر الوطنية المصرية، وفي الآستانة الحاكمة التركية، وفي طهران الجنسية الفارسية، وأن من المصريين من صار يفاخر بفرعون ويعد المسلم السوري والحجازي دخيلاً في أمته، وأن جميع الطبقات تأثرت بهذا، وأنه وجد في الآستانة أناس يقولون إن أسباب ضعفنا وتأخرنا جاءتنا في الإسلام. وفي طهران من ينشر تاريخ المجوس وعظمة ملوكهم، وينفر من الإسلام الذي دفع العرب إلى سلب ذلك الملك منهم، وأن منهم من استحوذ عليه شيطان الجبن، لشدة ما قاسى من

الاضطهاد والظلم، كل هذا أعرفه كما يعرفه الأوروبيون الذين زرعوا بذوره وتعهدوا غرسه بالسقي حتى بدت لهم ثمراته دانية القطوف. ولكنني أعلم مع هذا كله، أن هذه الجنسيات الجديدة لم تتمكن من نفوس جميع الذين ابتدعوها، وأن أكثر الذين تدنسوا بها لم يعرفوا أنها مخالفة لأصول الإسلام وفروعه الذي جعل المسلمين أمة واحدة، بل أعضاء لجسد واحد، وأن الشعور بالخطر على الحكومة الإسلامية كافٍ لمحو كل هذه الوسائس الأوروبية من نفوسهم، وزلزال الجبن الذي ألم بقلوبهم، وعودة الرابطة الإسلامية القلبية إلى أشد ما كانت قوة ومتانة، وهذا هو الذي عينته بقولي «يدخل العالم في طور جديد لا يعلم عاقبته إلا الله تعالى».

إن أوروبا قد علمت كنه حرص المسلمين على الحكومة الإسلامية، وشدة نفورهم من الحاكم الأجنبي عنهم، فهي لذلك تخادعهم بنصب أشباح منهم تجعلهم آلات للحكم عليهم والتصرف بهم، حتى إن إيطاليا التي هي أشد دولها غرارة وغروراً، وأقلهن علماً وتجربة، تبحث عن أمير مسلم تجعله تمثالاً تحكم طرابلس الغرب باسمه. ولولا أن أوروبا تعلم كنه شعور المسلمين بالحرص على السلطة الإسلامية لما أطلقت على ذلك لفظ التعصب الديني وجعلت هذا اللقب مشار البغي، والعدوان، والخطر على نوع الإنسان، تنفر المسلمين منه، وتهدهم بالعقاب عليه، ولكن هل يخشى أن يكون من سوء تأثير التعصب الإسلامي المخيف أكثر مما كان من تساهل أوروبا وعدلها ورحمتها في دفعها إيطاليا إلى اغتصاب مملكة إسلامية كاملة والسماح لأسطولها بتدمير ما يستطيع تدميره منها ومن أسطول الدولة العلية؟ كلا، إنه لا يوجد عدوان في الأرض أقبح ولا أوضح ولا أفظع من هذا العدوان.

إنه مهما بالغ كُتّابنا وكتّاب أوروبا في إقناع المسلمين بأن أوروبا تريد إزالة ملكهم من الأرض لا لأجل دينهم بل لنفعها المجرد، فلن يستطيعوا أن يقنعوا بذلك رجلاً واحداً من كل مليون رجل، نعم إن ضعفنا هو

الذي يجزئهم علينا، ولكن حكومات البلقان المسيحية أضعف منا، فلماذا يعطونها من أملاكنا، ولا يقتسمون بلادها كما يقتسمون بلادنا؟ يقولون إن إيطاليا حاربت الحبش وأزالت سلطة البابا، ونقول نعم وطالما حارب المسلمون بعضهم بعضاً، ولو استولت إيطاليا على الحبش لما كان ذلك في نظر أوروبا إلاّ استبدال دولة مسيحية بدولة مسيحية، وأما إزالتها لسلطة البابا فقد مكنتها أوروبا منه لاعتقادها أن الدين المسيحي لا يعطي البابوات تلك السلطة الدنيوية التي انتحلوها لأنفسهم، وإن كان فيهم ملحدون ففينا ملحدون، ومنهم من يريد إزالة سلطة الخلافة ويجعل السلطة دنيوية محضة تقليداً لهم، فلماذا يبرأون من التعصب ونرمى به؟

إنني شرحت اعتقاد المسلمين كما هو فما جئتهم بشيء جديد إلاّ التذكير بما يجب من إظهار شعورهم وآلامهم من اعتداء أوروبا وبغيها على دولهم الثلاث ومساعدتهم للدولة العلية بكل ما تمكن فيه المساعدة من المال والحال.

لا أقول إنه يجوز لهم أن يعتدوا على أحد الأوروبيين أو المسيحيين لأن إيطاليا أوروبية مسيحية، فإنّ الله تعالى يقول «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٩٠]. وللقّاتال طرق قانونية لا ينبغي إلّاّ بها، وهي قتال الجيش المنظم ومن يتطوع معه فقط. وقد أنبأنا البرق بأن كثيراً من فضلاء الإنكليز عرضوا على سفارة دولتنا في لندره أن يتطوعوا لقتال إيطاليا معنا، فالمسلمون أولى بإظهار هذه العاطفة في كل قطر من الأقطار، سواء احتاجت إليهم الدولة أم لا، فأدعو المسلمين إلى التطوع.

ثم أدعوهم إلى إظهار شعورهم بالقول والكتابة والمظاهرة والاحتجاج. وقد رأينا الجرائد الأوروبية عندنا ولا سيما الفرنسية منها قد أظهرت التحيز إلى إيطاليا بمدح عدوانها، وإظهار العداوة والبغضاء للدولة العلية، وكذلك بعض الجرائد المسيحية العربية المتعصبة للدين، وحاشا الجرائد العثمانية

الراقية كالمقطم والأهرام، فإنهما قامتا للوطنية العثمانية بحقها، فلم لا يُظهر المسلمون تحيزهم إلى دولتهم وبغضهم ومقتهم للمعتدين عليها.

ثم أدعوهم إلى مقاطعة التجارة الإيطالية وترك معاملة الطليان بكل نوع من أنواع المعاملة، وأرى أن كل مسلم في أي بلد يعامل طليانياً معاملة مالية أو زراعية فهو مستحق للعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ثم أدعوهم إلى مساعدة الدولة العلية بالمال وجمعه بالاكتتاب المنظم، وليتذكروا أن الله تعالى قدم ذكر الجهاد بالأموال على ذكر الجهاد بالأنفس حيث يمكن الأمران. وأما من عجز عن الجهاد بنفسه فليس له حظ إلا في الجهاد بماله. فإن تركه فلا عذر له عند الله ولا عند رسوله ولا عند المؤمنين، ولا يوجد دليل على صدق الإيمان أقوى من بذل المال في سبيل الله ولا دليل على ضعف الإيمان أو النفاق فيه أقوى من البخل والإمساك عن البذل في سبيل الله، ومن أهمه أو أهمه حماية الملة وحفظ كيان الأمة والدولة.

إن مسلمي مصر والهند أجدر المسلمين بأن يكونوا أرفع المسلمين صوتاً وأنداهم كفاً في الانتصار للدولة العلية لأنهم يمتازون على سائر المسلمين بثلاث: العلم، والمال والحرية، وفي هذا المقام نعتف لدولة إنكلترا بالفضل على جميع دول أوروبا التي تضطهد المسلمين وتضيّق عليهم مسالك الحرية الشخصية، وإن كنا في مقام نشكو فيه من إقرارها لإيطاليا على عدوانها الوحشي.

للدولة على المصريين حق الأخوة الإسلامية، وحق السيادة السياسية، ولولاية طرابلس عليهم حق ثالث وهو حق الجوار، فيجب أن يكونوا هم السابقين إلى كل أنواع المساعدات الممكنة، وهم أهل لذلك، فلا يألون جهداً، ولا يدخرون وسعاً، وقد رأينا الاضطراب ظاهراً على عوامهم وخواصهم، والغيرة شاملة لجميع طبقاتهم، ويليهم مسلمو تونس



فالواجب عليهم أن يرفعوا أصواتهم، ويمدوا سواعدهم، ويكذبوا هانوتو في زعمه أن فرنسا قد فصلت ولاية تونس من مكة، أي بترت هذا العضو من جسم الملة الإسلامية. هذه فرصة يجب أن يغتنموها هم وأهل الجزائر ليظهروا للعالم الإسلامي كنه صدق فرنسا في قولها إنها بدأت تغير سياستها في معاملة المسلمين، تغيير تساهل وتحسين، وليعلموا أن الجبن والإحجام في هذا الوقت لا يزيدهم عند فرنسا إلا مهانة واحتقاراً، وذلة وصغاراً، ولا أحتاج إلى تذكيرهم بقيمتهم في نظر العالم الإسلامي، بل العالم الإنساني.

هذا ما أذكر به إخواني المسلمين في الشرق والغرب وأدعوهم مع سائر الكتاب إليه، ولي معهم قول آخر فيما يجب عليهم من العبرة في هذه الحادثة وما يجب أن يعتقدوه في أوروبا كلها ويعاملوها به إذا هي بقيت مصرّة على غيّها في إقرار إيطاليا على عدوانها.

وأما أنتم أيها العثمانيون الخلّص، فإنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا مثني وفرادى وجماعات ثم تتفكروا فتجزموا بأنكم مهددون بالزوال، وأن هذا الوقت ليس وقت مطالبة بإصلاح، ولا مؤاخذه على إفساد، وإنما هو وقت لا يتسع إلاّ لشيء واحد وهو تأييد الدولة ببذل الأموال والأرواح.

واعلموا أيها الأخوة الألبانيون أن حكومتنا صائرة بطبعها إلى اللامركزية، فلا تعجلوا، ولا تغوينكم دسيّة أوروبا باضطرارها الدولة إلى إعطاء تلك المطالب للماليسوريين، واصفحوا عن جهل إخوانكم المغرورين، الذين رجحوا قتالكم وقتال اخوتكم الآخرين، فهذا وقت العفو والسّاح، هذا وقت الاعتصام والاتحاد، فإن الخطر محقق بالجميع، فيجب أن يتحد الجميع على دفعه.

هذا، وإنني أرجو من إخواننا السوريين الكرام في خارج المملكة أن يظهروا صدق وطنيتهم، ويعرفوا دولتهم بقيمة إخلاصهم، وبأنهم ما كانوا

يشكون إلّا من سوء المعاملة، وأنهم حريصون على سلامة الدولة، ولا يكرهون منها صبغتها الإسلامية، لأن هذه الصبغة لم تمنعها من مشاركتهم فيما يسمونه الحاكمة، ولا من مساواتهم بغيرهم في الحقوق العمومية، وما كان من التقصير في ذلك فهو من ذنب بعض الأفراد. والإصلاح لا يجيء إلّا بالتراخي والتدريج.

مصر في يوم الجمعة ١٣ شوال سنة ١٣٢٩ هـ / ١٠ / ٧ / ١٩١١ م.

### ما يجب من العبرة،

### والاستفادة من هذه الشدّة

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٨٢٨ - ٨٤٣]

(٣)

لسان الحال أفصح من لسان المقال وأصدق، والحوادث أشد تأثيراً في نفوس الناس من الأحاديث والأقوال التي تلقى إليهم، وحوادث الشدائد في البأساء والضراء، أبلغ في التأثير والعبرة من حوادث النعمة والرخاء، فيجب على الخطباء والمرشدين أن يغتنموا فرصة نزول البلاء والشدّة، لتنبيه شعور الأمة، باستخراج فنون الموعظة والعبرة.

كان الأستاذ الإمام [محمد عبده] يقول إن علة هذه اليقظة والحركة الفكرية في المسلمين هي الحرب الروسية العثمانية الأخيرة، وكانوا قبلها في غفلة لا يتألم قطر من أقطارهم لما يصيب قطراً آخر، بل لا يكاد يشعر بمصابه، فقد دخل الإنكليز قبلها بلاد الأفغان محاربين فاتحين ولم تبال بذلك الآستانة ولا مصر، بل ولا الهند ولا إيران جارتا تلك الإمارة، فتلك الحرب هي التي أيقظت المسلمين هذه اليقظة على ضعفها بانتصار روسيا عليها، وبلوغ الجيش الروسي ضواحي عاصمتها.

وأعرف كثيرين من أحرار العثمانيين يعتقدون أن انتصار الدولة على اليونان في حربها الأخيرة كان شراً من الانكسار الذي كانوا يتمنونه للقضاء به على استبداد عبد الحميد، فهم يقولون إن ذلك الانتصار هو الذي كان سبب رسوخ استبداد ذلك المخرب لبناء الدولة، ولولاه لفاز طلاب الإصلاح بإعلان الدستور قبل الوقت الذي أعلن فيه بسنين كثيرة.

هذا القول معقول وقد بينّ لنا كتاب الله تعالى ما كان في انكسار المؤمنين مع الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوم أحد من الفوائد، وما كان من تمحيصه لهم وإرشاده إياهم إلى تدارك ما فرطوا فيه بغرور بعضهم في الانتصار.

إن دول أوروبا تعلم من فوائد الشدائد ما لا نعلم. فهي تحاول أن تحول بيننا وبين الانتفاع بما تنزله بنا منها، فلا تقطع منا عضواً إلا بعد تخدير أعصابنا، وإبطال شعورنا، بنحو ما يسميه الجراحون «عملية التبنيج» فيسمون البغي والعدوان والفتح والتمليك بغير أسمائها، هُزءاً بنا، وضحكاً وسخرية منا، حتى إن إيطاليا تريد بعد هذا البغي والعدوان المشوه أن تسخر من الدولة والأمة العثمانية بتسمية امتلاكها لطرابلس «احتلالاً تحت سيادة تركيا»، وأن تدفع للدولة دريهمات تسميها ثمناً أو أجرة أو خراجاً لتلك المملكة الإسلامية العثمانية ليسخط العثمانيون والمسلمون على الدولة ويأسوا منها.

إن أخذ إيطاليا لطرابلس بالقوة القاهرة لبعدها عن مركز قوتنا أشرف للدولة وأنفع للأمة من أخذها بثمن بخس. وكل ما تباع به الأوطان فهو بخس، وفيه من الخسة والضرر لإيطاليا بقدر ما فيه من الشرف والفائدة لنا.

لا عار على من يشتري ملك غيره، ولكن العار الكبير على من يختلسه اختلاساً عند غيبة من كان يحميه. ولا يغني الأمة مال قليل أو كثير تأخذه

مع الإذلال والإهانة وإضعاف رجائها في الحياة، وإيثاسها من العزة والشرف، ولكن الأمة تغنى وتتسع ثروتها بالمنبهات القوية التي تعرفها بكيد أعدائها وغدرهم، وتقوى شعور الشرف والإباء فيها، وتحفز همتها إلى اتخاذ جميع الوسائل لحفظ الموجود، ورد المفقود، على أن العثمانيين الصادقين، وغيرهم من المسلمين الغيورين، سيبدلون للدولة من الإعانة لحفظ شرفها أكثر مما تبذله عدوتها لإضاعته.

علمت من الثقة في عاصمة دولتنا أعزها الله تعالى أن بعض المتفرنجين المارقين الذين نفثوا سموم العصبية الجنسية الجاهلية فيها، يميلون إلى بيع أوروبا بعض الولايات العربية التي في أطراف المملكة كطرابلس وجنوب بلاد العرب لأجل أن يرقوا بثمنها ولايات الروملي والأناضول، وما يتصل بها من البلاد الخصبة، ويجعلوها مركز قوة الدولة، فتكون لهم دولة صغيرة قوية كدول أوروبا في كل شيء! لكن بشرط أن يكون ذلك في غمرة من الحوادث يظهر للامة فيها أن الدولة فعلت ذلك مضطرة لا مختارة، وأنها افتدت رأس الدولة وقلبها ببعض أصابع من يديها أو رجليها، أو بما هو دون ذلك عندهم.

قد اضطررت إلى بيان هذه المسألة الآن اضطراراً لتفطن لها الأمة فتقطع الطريق على وساوس شياطينها، ولا شك أن السواد الأعظم من الأمة العثمانية يسفه أولئك الزعانف من الأفراد المتفرنجين المارقين، الذين يقال إن من آثارهم ترك تحصين طرابلس الغرب، فيرجى أن لا تلدغ الأمة من جحرهم مرة أخرى.

المسلمون أشجع الناس وأثبتهم في القتال، وقد بشرهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأنهم لا يغلبون من قلة، وما خذلت دولتنا وغلبت في حرب روسيا إلا بخيانة من بعض القواد والرؤساء، بعد أن نفث التفرنج فيهم سم الإلحاد، وجعل همهم من حياتهم التمتع باللذات والشهوات، ولعل إيطاليا ما جمحت إلى هذا العدوان إلا اتكالا على أفراد من هذا

الصنف الممقوت الذي يهون عليه إضاعة هذه المملكة، طرابلس وبرقة،  
لذلك الغرض الوهمي .

مولانا السلطان الأعظم وأعضاء أسرته الكريمة كلهم ينبذون رأي  
أولئك الزعانف المارقين إن ظهر. وسروات العنصر التركي المبارك وجهور  
الطبقة المتعلمة وجميع العامة من هذا العنصر العريق في الإسلام كلهم  
يخالفون أولئك الأوشاب الذين لا تعرف لهم الأمة أصلاً ثابتاً ولا أثراً  
صالحاً.

يظنون أن مثل هذا الرأي الأفين يروج عند بعض طلبة المدارس  
الرسمية المغالية في التفرنج، ونرجو أن يكون هذا الدرس الذي ألقته علينا  
إيطاليا قد أبطل ظنهم، ونبه نابتة تلك المدارس على بطلان ظن آخر وهو  
أن تقليد بعض الأوروبيين في العادات ونبد الدين ظاهرياً يجعلنا مثلهم في  
قوتهم وعظمتهم، وكانوا يجاهرون بهذا الظن حتى تجرأوا على كتابته في  
الجرائد، وكتب بعض ساسة الآستانة: إن قومنا الترك والمجر من أصل  
واحد فلماذا ارتقوا في المدنية والحضارة ونحن منحطون واستعداد الجميع  
واحد؟ يجب أن نسلك مسلكهم حتى نكون مثلهم باحترام أوروبا لنا  
ومساعدتها إيانا ورضاها بأن يكون عنصرنا عنصراً أوروبياً.

كان هؤلاء المساكين ومقلدتهم من طلبة المدارس الرسمية يتوهمون أن  
أوروبا يمكن أن ترقّيهم وتجعل لهم دولة قوية كدولها، وأنه لا وسيلة إلى  
ذلك إلاّ بإرضائها بالتفرنج ونبد الإسلام! نعم، إنه يرضيها منهم التفرنج  
لأنه هو الذي يجرف ثروتهم إليها، ويرضيها منهم ترك الإسلام لأنه هو  
الذي يحل رابطتهم ويفصلهم من مئات الملايين يغارون عليهم ويؤدّون  
أن يروهم سالكين سبيل الرشاد ليمدّوهم بأموالهم ونفوذهم المعنوي وكذا  
بأرواحهم إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً. ولا يرضيها ذلك منهم لأجل أن  
يرتقوا ويعتزوا، بل يناديهم لسان حالها كل يوم ولسان مقالها في بعض  
الأوقات بهذا المثل «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب» وهل يمكن أن يوجد

نداء أفصح لهجة وأصرح صيحة من بتر طرابلس الغرب من جسم الدولة.

هؤلاء الذين أفسدت تعاليم أوروبا علينا قلوبهم وأفكارهم، وجعلتهم عوناً لها على إزالة استقلالهم، من حيث لا يشعر بذلك أكثرهم، يوجد أشباه لهم وأمثال في الهند ومصر وتونس والجزائر. يظن أكثرهم أن بلاده تكون مستقلة بمساعدة أوروبا إذا تركت جنسيتها ومقوماتها ومشخصاتها الأولى واستبدلت بها ما تأخذه عن أوروبا من الجنسية الوطنية واللغوية، وقد وطنت نفوس بعضهم على الرضى بالسلطة الأوروبية ظاهراً وباطناً لإحياء شعور الدين والجنس منها وعفاء أثره.

كتبت هذه النبذة لتذكير هؤلاء المتفرنجين بما يجب عليهم من العبرة في الكارثة النازلة بنا، وتذكير سائر الأمة بالاعتبار بهم، لعلها تقدر على إبعاد من بقي منهم على غيه من مناصب الدولة، ومن النيابة عنها في مجلس الأمة، ولتذكير الجميع بما يجب أن نأخذه عن أوروبا وما يجب أن ندعه ونتقيه كما تتقى العقارب والثعابين وجراثيم الأمراض «وميكروبات» الأوبئة أشد اتقاء.

كارثة طرابلس الغرب حجة قطعية محسوسة يشترك في إدراكها السمع والبصر، فلا يمكن أن يوجد في الحجج أقوى من دلالتها على حكم أوروبا علينا بالإعدام، واتفاقها على قسمة تركتنا قبل الإجهاز علينا، فيجب أن يعرف هذا كل فرد من أفراد رجالنا ونسائنا وأولادنا.

وهذه الحجة تدل على بطلان عقيدة نظرية كان يعتقدونها بعض ساستنا والمفكرين منا، وهي أن أوروبا لا تعتدي على بلد من بلادنا إلا إذا أحدثت فيها فتنة اعتدي فيها على بعض الأوروبيين من أية أمة منهم، أو على النصارى منا، فإذا قدرنا على منع أسباب الفتن والتعدي وتلافي ما تحدثه الدسائس فيها فإننا نتقي بذلك تعدي أوروبا علينا ونجعل لأنفسنا

فرصة بذلك نرقي بها أنفسنا. أبطلت كارثة طرابلس الغرب هذه الشبهة وقامت بها الحجة على أن أوروبا تغتصب بلادنا بمحض العدوان وكونها محتاجة إليها وأحق بها منا. فأرضاءها عنا متعذر ما دمنا أحياء. وإننا نراها قد استعجلت علينا بعد أن أظهر لها بعض المتفرنجين منا فسقهم وإلحادهم، كما صرحت به بعض الجرائد الفرنسية في المقارنة بين تركيا الفتاة ومصر الفتاة.

إن أوروبا تجربنا بهذا البدع الجديد من العدوان، هل نرضى أن تقطع جسمنا قطعة بعد قطعة كلما هضمت واحدة منها قطعت أخرى والتهمتها من غير مقاومة منا ولا معارضة أم لا. فإن رضينا بهذا الخسف فهو القصد والغرض والأمنية العليا لأن المملكة تكون كلها غنيمة باردة لها، لا تخسر عليها نقطة من الدماء الأوروبية المقدسة التي تفضل كل نقطة منها على جميع أهل آسيا وأفريقيا.

وإن أبينا الذل والخسف وقاومنا جهد استطاعتنا وأثبتنا لها أننا بشر نحس ونشعر، وأن بيننا اتصالاً وتضامناً في الجملة، فهي تكون حينئذ بين أمرين، إما أن تحل المسألة الشرقية عاجلاً خشية أن يقوى هذا الشعور والتضامن فتصعب إبادة أهله، وإما أن يكون الاتفاق لم يصل بين دولها إلى هذه الدرجة فتركنا نحن وإيطاليا إلى أن يتم لهذه الاستيلاء على طرابلس بقوتها وحدها أو لا يتم، ويتربصون بباقي بلادنا فرصة أخرى.

والذي أراه أنه لا يمكن أن نموت ميتة شراً من أن نقطع قطعاً قطعاً كالشلو ونؤكل بالتدريج، فيكون موتنا إماتة لشعور جميع المسلمين وإيثاراً لهم من الحياة، فيجب إذاً أن تبذل الدولة والأمة كل طاقتها في صد إيطاليا عن طرابلس، وإن عرضت كل ما فيها للخراب وكل من فيها للقتل. ولئن تأخذها إيطاليا أطلالاً دارسة ليس فيها أنيس، لا من بشر ولا من اليعافير والعيس، خير من أن تأخذها بقلاعها وحصونها ودورها وأهلها.

وإذا أرادت أوروبا بسبب مقاومتنا لإيطاليا أن تقتسم بقية بلادنا، فخير لنا أن نعرض جميع جيشنا وجميع أفراد أمتنا للقتل كما قلنا في إخواننا أهل طرابلس وأن نعرض جميع بلادنا للخراب، ولا ندعها غنيمة باردة لأوروبا الباغية الطاغية، كما نعرض طرابلس لذلك.

وإذا لم يكن من الموت بدٌ فمن العجز أن تموت جبانا

إن تفعل ذلك أوروبا، وهو ما لا ترضاه لها شعوبها التي يوجد فيها الجماهير من المهذبين الذين يكرهون العدوان وسفك الدماء حقيقة لا رياء ونفاقاً كما يدعي ساستها، يكن ذلك درساً للشرقيين عامة والمسلمين خاصة، يقرب أن يعلمهم كيف يعاملون هذه الوحوش المفترسة بمثل ما عاملتنا به. وإنه ليغلب على اعتقادي أن سلب الدولة الإسلامية الكبرى ملكها، حماء الله، بمثل هذه الصورة بعد ذلك العدوان على مملكتي إيران والمغرب الأقصى يكون سبباً قريباً لحياة المسلمين والصينيين حياة قريبة، وأن القوة الآلية القليل عمالها لا يدوم لها القهر للكثرة العديدة تتفق آحاديها.

أيتها القسطنطينية العظمى! إعلمي أنه يجب أن نحيا، وأنت أنت التي تحكمين اليوم بوجوب حياتنا إذا أبيت أن تبيعي طرابلس ولو بملء الأرض ذهباً، وجعلت الدم مع العزة والشرف، أرخص من الذهب مع الذل والهوان، يجب أن تختاري العز على الذل، وجميع قلوب المسلمين معك اليوم، وسيتبع ذلك أموالهم وأنفسهم.

هذا إذا أقدمت أوروبا على الخطر الأخير، وإن هي أحجمت عنه فلا تأسفي على طرابلس إذا ذهبت وبقي الشرف، ونغي الشعور بالحياة الاستقلالية، فإنها لا تلبث أن تعود هي وغيرها. والواجب على الأمة العثمانية في حالة الاحجام، وحفظ كيان الدولة أن تبعد عن كراسي الوزارة والرئاسة والقيادة والنيابة في مجلس الأمة جميع المارقين المفتونين بالتفرنج، وأن لا تقتبس من أوروبا إلا الصناعات والفنون التي تمدّها بالقوة والثروة،



دون الآداب والعادات والأزياء وسائر الأمور المعنوية، يجب حينئذ أن تؤسسي جامعة عثمانية حقيقية، وأن تحفظي رابطتك الإسلامية أشد الحفظ، وسنبين هذه الواجبات بالتفصيل، إن شاء الله تعالى.

## الاعتبار بالمقارنة بينها وبين الجامعة الإسلامية

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٨٤٣ - ٨٤٩]

(٤)

المسألة الشرقية عبارة عن إزالة ملك المسلمين كالوثنيين واقتسام أوروبا لجميع ممالكهم، وهي من الحقائق الثابتة المقررة لا ينكرها أحد، ومسألة الجامعة الإسلامية عبارة عن اتفاق المسلمين وتعاونهم على حفظ سيادتهم والدفاع عن أنفسهم، وهي من الخيالات التي تصورتها أذهان الأوروبيين ورسمتها في لوح الإمكان والاحتمال لأجل الصد عنها، واتقاء وقوعها، عملاً بقاعدة «اتقاء وقوع المرض خير من معالجته بعد وقوعه»

ترى أوروبا أنه لا إثم في حل المسألة الشرقية ولا حرج، ولا يعد من الطمع ولا من التعدي على حقوق الأمم، بل هي فضيلة وكمال إنساني، وإنما يخشى الإثم والحرج في اختلاف الدول الكبرى في القسمة اختلافاً يضر نيران الحرب بينهم.

وأما الجامعة الإسلامية فهي في نظر أوروبا أكبر الآثام، وأظهر أمثلة البغي والعدوان، وأشنع صور التعصب الوحشي، لأن المسلمين ميالون إلى الحرب والاستيلاء على الممالك وهذه تجارة خاصة بأوروبا يجب عليها احتكارها.

صوروا الجامعة الإسلامية بتلك الصور الشنيعة المشوهة، وتفننوا ما شاءت بلاغتهم في هجوها وذمها، ووصف مضارها ومفاسدها، حتى نفروا قومهم منها، ومن المسلمين الذين يهتمونهم بها، بل نفروا المسلمين أنفسهم منها بضربين من ضروب التنفير. أحدهما - تهديدهم بأن أوروبا تسومهم سوء العذاب إذا هي أنست منهم عملاً ما لهذه الجامعة. وثانيهما - إنها أحدثت لهم جنسيات جديدة، وأحدثت لهم أمانى واعتقادات بأنه يمكن لكل جنس منهم أن يستقل بنفسه، ويكون له دولة عزيزة ممدنة، إذا هو انسلخ من الجنسية الإسلامية، ونهض بجنسية النسب أو اللغة معاً أو أحدهما فقط، فيكون الترك دولة تركية فقط، والفرس دولة فارسية فقط، والمصريون دولة مصرية فقط، والسودانيون دولة سودانية فقط، بشرط أن تكون هذه الجنسية بمعزل عن الدين لاشية فيها، وحينئذ يجد أهلها من مساعدة أوروبا عاشقة الإنسانية وعدوة التعصب الديني ما يبلغهم أمنيته من هذا الاستقلال.

من عجائب تصرف العلم في الجهل أن وساوس أوروبا تروج في سوق المستمسكين بكل ما يعتقدون أو يظنون أو يتوهمون أنه من الدين، المبغضين الماقتين لكل ما عليه الأوروبيون، كما تروج في سوق المتفرنجين الذين زلزلت التعاليم الأوروبية الناقصة عقائدهم وجميع مقوماتهم ومشخصاتهم المالية، بل هي في سوق أولئك المتعصبين لعقائدهم وتقاليدهم أشد رواجاً وأقبح تأثيراً.

تعبث أوروبا بجميع الشرقيين وتلعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، فهم ألعبوبة بين يديها، حتى في حال مقاومتهم لها، لأن من المقاومة ما لا بد منه فهي تمد لهم سبيله، كمقاومة أهل المغرب الأقصى لفرنسا في تلك المدة القصيرة. هي التي حركتهم للثورة، وهي التي دفعتهم إلى المقاومة، لأن الطريقة التي رسمتها للاستيلاء على بلادهم وأعناقهم لا تتم إلاً بذلك، وكم لها من أمثال هذه الوسائل ولكن من تستعملهم فيها لا

يدرون كنه عملهم ، ولا غايته ولا يعرفون من هم الدافعون لهم إليها ، ولا أنهم يبخعون أنفسهم بها (ينتحرون) .

إن المسألة الشرقية حقيقية لا ريب فيها ، ومن عجائب غفلة المسلمين أنهم لا يزالون كالأطفال يدركون الجزئيات عندما تتصل بإحدى حواسهم ولا يفطنون للكليات التي تدرج هي تحتها ليدركوا كل ما هو محيط بهم من المصائب والأخطار ، حتى إن أوروبا تتجادل في قسمة ممالكهم وهم يسمعون تحاورها في جدالها ، ويكتبون بعض أخبارها في جرائدهم ، وتلوونها ألسنتهم في مجالسهم ، ولا ينتقلون من كل جزئية منها إلى الأمر الكلي الحامل عليها وهو إزالة ما بقي من ملكهم ، والاتفاق على قسمة سائر تراث أجدادهم ، وهو ما يسمى بالمسألة الشرقية ، فهم يعدون مسألة طرابلس الغرب مسألة جزئية سببها طمع إيطاليا وغرورها ، وإقدامها على نكث قتل المعاهدات ونسخ أصول حقوق الدول ، وليس الذنب ذنب إيطاليا وحدها ، وإنما هو عمل أوروبا كلها بدليل إقرارها إياها عليه ، وعدم إجابة الدول نداء الدولة العلية إذ استصرختهن لحماية القوانين والعهود والمواثيق .

لو أن مثل هذا العدوان وقع من الدولة العلية على بعض حكومات البلقان لقامت قيامة أوروبا كلها وجهزت أساطيلها وصاحت جرائدها على اختلاف لغاتها يجب على دول المدنية أن تطهر الأرض من هذه الدولة الإسلامية الباغية العادية المتعصبة المتوحشة ، حفظاً للعهود والقوانين التي يرعاها البشر ولا يتعدى حدودها إلا الهمج والمتوحشون .

قلت إن الجامعة الإسلامية مسألة خيالية ، وها نحن أولاء نرى الذين يتهمون المسلمين بها ، لأجل تنفيرهم عن التوجه إليها ، لا يعدون لهم عملاً ما في سبيلها ، وإنما يؤاخذوننا كلنا إذا كتب كاتب منا مقالة ذكر فيها حكومة إسلامية أو بلاداً إسلامية بما يدل على أنه يكره لها الشر ، ويجب لها الخير ، كما كانت الجرائد الأوروبية هنا تنكر على بعض الجرائد الإسلامية

إلى عهد قريب استنكار نكت فرنسا لمعاهدة الجزيرة بالاعتداء على مملكة المغرب الأقصى وإرسال جنودها لاحتلال مدينة «فاس» ثم استنكار عمل ألمانيا في حملها فرنسا على امتلاك تلك البلاد امتلاكاً تاماً بشرط أن تعطىها بدلاً عما تستحقه فيها بمقتضى قاعدة المسألة الشرقية، وهي أن الدول العظمى هي الوارثة لجميع الممالك الشرقية التي تسقطها.

لا يزال يرن في آذاننا صوت تلك الجرائد التي قامت اليوم تتعصب لإيطاليا الباغية على الدولة العثمانية التي بغى عليها. كانت تقول إنه لا حق لمسلم في إظهار الشفقة على مملكة مراکش لأنها ليست وطنه، فشفتته إذاً من التعصب الإسلامي المذموم ومن دلائل الميل إلى الجامعة الإسلامية الممقوتة. وأما تعصب الجرائد الفرنسية والإنكليزية التي تصدر في بلادنا، لإيطاليا الباغية علينا، فهو محمود مشكور وإن لم تكن وطنها لأن التعصب فرض عليها ومحرم علينا.

أعجب من هذا أن هذه الجرائد المتعصبة لا تستحي الآن من ذم المصريين ورميهم بالتعصب لاستنكارهم بغى إيطاليا على دولتهم التي يخفق علمها فوق رؤوسهم، ويخطب باسم سلطانها على منابرهم، وعطفهم على إخوتهم في الدين والعثمانية واللغة، وجيرانهم المتصلين بهم في الوطن من أهل طرابلس. فمن المنكر العظيم في مدنية أوروبا التي تلقي دروسها علينا هذه الجرائد أن تتألم لتدمير إيطاليا لبلادنا، وسفكها لدماء إخواننا، وأن نستنكر همجيتها ووحشيتها ونهتّم لتخفيف المصائب عن أولئك الجيران الذين لم يقتربوا ذنباً تحكم به أوروبا عليهم بهدم وطنهم على رؤوسهم! أما أن لنا أن نفهم ونعقل ونتدبر هذه الدروس؟

قال حكيمنا [جمال الدين الأفغاني] «الناس من خوف الذل في الذل» وقد ذللنا حتى إنه يساء إلينا ونؤمر بالشكر. فيلى متى يقذفون في قلوبنا الرعب والخوف من لفظ «التعصب» الذي نجد معناه عندهم ولا نجده عندنا، وإغما يخافون أن نستفيد منه الاتحاد والتكافل كما استفادوا؟

إلى متى يقذف في قلوبنا الرعب والخوف من لفظ «الجامعة الإسلامية» التي نرى مثلها عندهم شاهداً محسوساً بالاتفاق على حل المسألة الشرقية، ولا نرى لذلك المعنى أثراً في شعب من شعوبنا، ولا في قطر من أقطارنا، أنخاف من سطوتهم أن تفتك بنا بأكثر من البغي باغتصاب بلادنا عنوة واقتداراً ليضربوا علينا الذلة والمسكنة إلى الأبد؟ يذبحوننا ويأكلوننا، ويمنون علينا بعد ذلك بأنهم يُمدُّوننا!! لا كانت هذه المدنية ولا كان الراغبون فيها والناشرون لها.

أراد رجل من المغرب الأقصى أن يرسل ولده إلى بيروت ليتعلم فيها، قبل نزول البلاء عليها باحتلال فرنسا لها، فأنذره الفرنسيون سوء عاقبة تعليمه في بيروت، وقالوا له إننا سنملك هذه البلاد فيحرم ولدك من كل شيء فيها إذا لم تعلمه في مدارسنا. فقال إن مدارسكم لا تعلمه لغته ولا دينه وهما أهم ما أريد أن أعلمه إياه. إنه لا يوجد أحد من أهل المغرب الأقصى يأمن على ما يرسل إليه من خارجه في البريد الفرنسي لأنه يعلم أنه لا يصل إليه إلا بعد أن يطلع عليه المفتشون ويرون أنه ليس فيه ما لا يحبون أن يقف عليه، وسيكون أهل تلك المملكة عن قريب محرومين من كل ما لا تريده فرنسا لهم، وهذا أهون ما في هذه المدنية.

أنا لا أدعو بهذا إلا إلى شيء واحد، وهو أن نعرف أنفسنا، ونعرف ما حولنا، وما يحقق بنا، لنكون على بصيرة من أمر هذا البلاء الذي أنذرنا به بغي إيطاليا علينا، باتفاق أوروبا وإقرارها، ونفهم كنه المسألة الشرقية قبل أن يتم حل عقدها، وتنفيذ المقصد منها، ونفهم سر تهديدنا بلفظ التعصب ولفظ الجامعة الإسلامية اللذين هما من الألفاظ المهمة التي لا معنى لها عندنا.

إن مسلمي المغرب الأقصى كانوا عوناً لفرنسا على فتح الجزائر، وهي الآن قد احتلت مملكة المغرب بقوة مسلمي الجزائر، فهل كان هذا من التعصب الإسلامي وفروع الجامعة الإسلامية؟

احتلت فرنسا تونس واستولت عليها وهي محاطة بالمسلمين من كل جانب، فهل عارضها أحد من المسلمين أو قاتلها عليها؟ فأين التعصب الإسلامي والجامعة الإسلامية؟

أراد إسماعيل باشا أن يجعل بلاد مصر مملكة أوروبية فاعتمد على أوروبا وتدهور في الحفرة التي حفرتها، ولم يمنع ذلك خلفه من الثقة بأوروبا ودعوتها إلى حفظ أريكته، من ثائري رعيته، فهل هذا من التعصب الإسلامي والعمل بالجامعة الإسلامية؟

فصلت إنكلترا مملكة السودان من أختها مملكة مصر ثم فتحتها بجنود المصريين وأموالهم وهم وادعون ساكنون، لا يكادون يعترضون إلا على الاستمرار على أخذ أموال مصر للسودان، مع الاجتهاد بقطع كل علاقة للسودانيين بمصر وللمصريين بالسودان. ولا يزال الإنكليز يفتحون بالجيش المصري كل ما أرادوا من السودان، وحفظ كل ما أرادوا حفظه من بلاد السودان، وكل مصري يعرف أنه لا حظ لبلاده من ذلك. وها نحن أولاء نرى وفودهم تغشى دار الوكالة الإنكليزية كل يوم لتهنئة فاتح السودان بتولي إدارة الأعمال في مصر، يأتون هذا في الوقت الذي أحسوا فيه بالخطر على دولتهم صاحبة السيادة الرسمية والشرعية عليهم، مع علمهم بأن إنكلترا قطب الرحى في هذا الخطر ولو شاءت لأزالته. فهل يتوسلون بهذا إلى نيل مساعدتها للدولة، أم هذا من التعصب الإسلامي والعمل للجامعة الإسلامية؟

ما هي القوة التي تمد فرنسا بها سلطتها في أحشاء أفريقيا وتحفظ بها ما تستولي عليه وتحفظ به تجارتها؟ أليست من أهالي البلاد المسلمين ليس معهم إلا عدد قليل من الضباط البيض؟ ما هي قوة إيطاليا المستولية بها على مصوع والتي تطمع بها أن تضم إلى مستعمراتها الأفريقية بلاد اليمن كلها أو بعضها؟ أليس معظمها من المسلمين، يسوسهم ويسيرهم عدد قليل من الإيطاليين؟ لو كان هناك تعصب إسلامي أو عمل للجامعة

الإسلامية في الآستانة أو مصر أو الهند أو ما دون هذه البلاد الراقية من بلاد المسلمين، أما كان يكون منه إرسال المحرضين على هؤلاء الأفراد من الأوروبيين الذين يستعبدون الملايين من المسلمين؟ ما كان شيء من ذلك ولا نعلم أحداً فكر في تكوينه، ولم يستطع الأوروبيون أن يجدوا شبهة على ذلك يلصقونها بمسلم، فأين التعصب الإسلامي والجامعة الإسلامية؟

ولو شئت لرجعت إلى تاريخ الشرق وذكرت اتفاق العثمانيين مع أعدائهم الروس على اقتسام البلاد الإيرانية عندما تغلب الأفغانيون على أصفهان في عهد «شاه سلطان حسين» ومحاربتهم للإيرانيين من طريق بايزيد عندما كان «عباس ميرزا» يدافع الروسية عن بلاده، ثم مكافأة إيران للعثمانيين بمساعدة الروسية عليهم في حربها لهم، فهل هذا من التعصب الإسلامي والجامعة الإسلامية؟

كان سلطان ميسور «تبيو سلطان» أرسل سفيراً إلى الدولة العثمانية يعرض عليها احتلال بلاده لصدد إنكلترا عنها فردته خائباً ولو أجابته لكان عليها أن تملك بلاد الهند بلا مشقة ولا عناء.

وإن شاه إيران «فتح علي» أنذر الأفغانيين بالحرب مساعدة للإنكليز عندما أراد الأفغانيون الزحف على الهند، وإن أمير الأفغان «دوست محمد خان» نكث عهد «رنجت سنك» صاحب بنجاب ومحالفته على صدّ الإنكليز، ولولا ذلك لما ظفر الإنكليز بجيش «رنجت» وأخذوا تلك المملكة بتلك السهولة. كذلك أمراء البنغالة والكرثانك ولكنهم قد مهدوا للإنكليز السبيل إلى الاستيلاء على السلطنة التيمورية في الهند، فهل كان كل ذلك من التعصب الإسلامي، ومبادئ العمل للجامعة الإسلامية؟

وإذا تحولنا عن الهند إلى الممالك الإسلامية التي استولت عليها الروسية نراها كلها كانت متخاذلة يشمت بعضها ببعض، فقد سر أهل بخارى باستيلاء تلك الدولة على بلاد التركمان وخوقند وقابلها هؤلاء بالمثل عندما

استولت عليها هي أيضاً، ولم نر أحداً من هؤلاء المسلمين ساعد الآخر على صد الأجنبي عن بلاده، فأين تجدون لنا في التاريخ الإسلامي جرثومة من جراثيم التعصب النافع لنا أو الضار بكم؟ وأين تجدون الدليل على ما سميتموه الجامعة الإسلامية؟ هل اتحد ملوك المسلمين في الماضي على محاربة النصارى كما اتحد ملوك أوروبا على المسلمين في الحروب الصليبية؟ أو كما اتحدت دولها الآن في المسألة الشرقية؟ إلى متى هذا الغش والتغريير، والسخرية من هؤلاء المسلمين المتخاذلين المتقاطعين؟

هذا نذير من النذر الأولى، وهذا نذير من النذر الآخرة، وإن أماننا خطراً كبيراً فيجب أن ندرك كنهه، وأن نبحث عن مستقبلنا مع الباغين المعتدين، وإلاّ ضاع كل شيء وصرنا أذل البشر، وصعب علينا مع هذا الاتحاد العام. علينا أن نرتقي عن طبقة العبيد الأذلاء، وأول درس عملي يجب أن نقوم به هو بذل المال لمساعدة طرابلس الغرب على نكبتها وأن نستفيد بذلك كيف يكون التكافل والتعاون بيننا.

وإذا كنا لم نهتد لكل ما أصابنا فيما مضى إلى العمل للجامعة الإسلامية التي نصون بها أنفسنا ونكون أمة عزيزة، فعسى أن تكون الكارثة الحاضرة مبدأ هذه الهداية، وتكون إيطاليا المغرورة هي الملجئة إلى وضع الحجر الأول في هذا البناء الشريف الذي يوقف بغى أوروبا عند حده ويعيد إلى الشرق أفضل ما سلب من مجده. وقد قال حكماؤنا في أمثالهم «الشيء إذا جاوز حده، جاوز ضده» وإلى الله المصير.

٣ شوال سنة ١٣٢٩ هـ / ٢٧/٢/ ١٩١١ م



## ما يجب على العثمانيين، المختلفين في اللغة والدين

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٨٤٩ - ٨٥٣]

(٥)

إن وثوب إيطاليا على طرابلس كما يشب الذئب الجائع على الشاة، وتأييد كل من حليفتيها ومن دول الاتفاق الثلاثي لها على عدوانها على ما بين الفريقين من الخلاف والنزاع برهان قاطع على أنهم يريدون بذلك حل المسألة الشرقية حلاً حاسماً، إن أمكن، وأنه ليس عند أحد من تلك الدول عاطفة رحمة أو إنسانية أو نزعة عدل أو حق تحملها على كف عادية الظلم، وإطفاء نار البغي، فهن في أرقى وأعلى مدنيتهن التي يسمونها مسيحية أشد قسوة وأشوه وحشية من أهل البوادي والقفار، وأين هم من العرب في جاهليتهم وأدنى أحوالهم الذين عقدوا حلف الفضول على أن لا يدعوا ظالماً إلا كفوه عن ظلمه، ولا مظلوماً إلا أعانوه على حقه. وهن على هذا البغي والوحشية والهمجية لا ينجلن من حمل قسوس بلادهم وكتابها وأساتذتها على مفاخرة الإسلام بدينهم ومدنيتهم وآدابهم وفضائلهم، أعاذ الله الشرق منهم ومن شر قوتهم التي يدعون بها كل تلك الدعاوى الكاذبة الخادعة، وأكذبها دعوى الانتساب إلى دين المسيح، عليه الصلاة والسلام.

إن هؤلاء الوحوش الضواري ليس لهم دين إلا الدينار والنار والبارود والديناميت التي هي وسائل اللذات والشهوات والكبر والفخر والخيلاء، ألا ترى إلى ملك إيطاليا كيف ملأ ماضغيه فخراً ببغي دولته وعدوانها الوحشي، وقال إنه يريد أن يري أوروبا عظمتها وقوتها في حرب طرابلس،

لتقر عينها ويسر قلبها ببغي كثرتها على قلة العثمانيين هنالك؟ ولا يخفى على أحد قرأ الإنجيل وعرف سيرة المسيحيين الأولين قبل أن تشوه أوروبا الديانة المسيحية وتقلب أوضاعها بأن المسيح ما أمر بالبغي والعدوان وسفك دماء الأبرياء، وهو ما تفاخر به أوروبا، وإنما أمر بالرحمة والرأفة ومحبة الأعداء المبغضين، ومباركة السّابّين اللّاعنين، وأنه يجب على المسيحي أن يدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن.

إذا كان أولئك السياسيون السّفاكون للدماء، الشديّدو الضراوة بتمزيق الأشلاء، أعداء للإسلام باعتدائهم على أهله، فهم أشدّ عداوة للمسيحية الحقيقية بقلبهم لوضعها، وتغييرهم لطبعها، ونفثهم لسموم التعصب الذمّيم فيها، فهم الذين أبادوا من أوروبا جميع الوثنيين، باسم المسيح الرؤوف الرحيم، وهم الذين أكرهوا بالسيف مسلمي الأندلس على النصرانية أو الجلاء من البلاد باسم المسيح أيضاً، وهم الذين أنشأوا محكمة التفتيش لتعذيب العلماء والعقلاء الذين يصرحون بما تصل إليه عقولهم من حقائق العلوم باسم المسيح أيضاً، وهم الذين أجروا الدماء أنهاراً لاختلاف المذهب في الدين الواحد كما أجروها أنهاراً من قبل باختلاف الدين، ولا يزالون يضطهدون اليهود والمسلمين في بعض البلاد، ويمنعون الكاثوليك من احتفالاتهم الدينية في إنكلترا. ثم لما صارت الغلبة للماديين منهم لم يتركوا تلويث المسيحية بقسوتهم التي ورثوها عن أجدادهم الرومانيين، فكانوا إلى هذا العصر يغشون المتدينين من شعوبهم بأنهم يريدون باعتدائهم على الدولة العثمانية إنقاذ رعاياها المسيحيين من ظلم المسلمين، والإدالة للصليب من الهلال، حتى إن الإيطاليين سالبى سلطة البابا عميد الدين الأكبر، ولا يقاس بهذا تعدّيهم على الأحباش المخالفين لهم في المذهب، قد أخذوا من أحد رؤساء الدين، مطران كريمةونا، منشوراً يدعو فيه الإيطاليين إلى حرب المسلمين في طرابلس الغرب، ويثبت لهم مشروعيتها باسم المسيح، وقد جعلت إحدى الجرائد المسيحية

بمصر عنوان هذا الخبر كلمة يعزونها إلى المسيح وهي «ما جئت لألقي سلاماً على الأرض» وتتمتها كما في إنجيل متى (١٠: ٣٤) ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً<sup>(١)</sup>.

وجملة القول إن دول أوروبا دول مادية وحشية غلب عليها الكبر والعتو والغطرسة، وما الدين المسيحي عندهم إلا آلة سياسية يغشون بها المتدينين من شعوبهم، ويتوصلون بها إلى العدوان على غيرهم، فإذا هم غلبوا على بلاد جعلوا أهلها كالعبيد والخدم لهم، ولا يرضون أن يساويهم أحد من أهل الأرض في الحقوق ولا في غير الحقوق، بل يترفع الإنكليزي من أدنى الطبقات عن الركوب في السكة الحديدية مع أشرف الهنود محتداً، وأعلامهم أدباً، وأوسعهم ثروة. على أن الإنكليز أقرب من سائر الأوروبيين إلى حب الحرية والعدل. وهذا الكبر والعتو لم يعهدا في شعب من شعوب الشرق حتى في طور البداوة والجهل.

يصف ملطبرون وغيره من مؤرخي أوروبا الترك بالكبر والقسوة، وقد مضى على الترك عدة قرون وهم أقوى دول الأرض بأساً، ولم يفعلوا في زمن جهلهم ما فعلته أوروبا من التعصب الفاحش بإكراه الناس على ترك أديانهم أو مذاهبهم لاتباع دينها ومذهبها، بل ترى هذه الدولة العثمانية ما زالت أوسع حرية منهم وأشد تساهلاً حتى في هذا العصر الذي بلغوا فيه أوج الحرية والمدنية، والدليل على ذلك وجود الملل الكثيرة والنحل المتعددة في بلادها إلى اليوم. وهي الآن قد جعلت حكومتها مشتركة بين المسلمين وغيرهم من أهل تلك الملل الكثيرة، ولم تكلفهم ما تكلف فرنسا أهل الجزائر وغيرهم من شروط الجنسية الفرنسية، وهي أن يخالفوا اعتقادهم الديني ويخونوا ضمائرهم بترك أحكام الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من الأحكام.

---

(١) إنجيل متى، الاصحاح ١٠: ٣٤.

إن كثيراً من جهلة المسيحيين الشرقيين مغرورون بمسيحية أوروبا. فهم يظنون أن الدول الأوروبية إذا استولت على البلاد العثمانية، تكون خيراً لهم من الدولة العلية، فتساوهم بالأوروبيين في الحقوق ورتب الشرف بحيث لا يكون بين الفريقين فرق، والدولة العثمانية لما تصل في المساواة بين المسلم وغير المسلم إلى هذا الحد. ويخالف أولئك الأغرار في ظنهم هذا جميع أهل العلم من نصارى الشرق الذين عاشروا الأوروبيين واختبروهم، والذين عملوا معهم حتى في مصر والسودان، وهما القطران اللذان قضت حالتها السياسية والاجتماعية الممتازة وموقعهما الجغرافي في أن يكون الإنكليز فيهما خيراً منهم أنفسهم في زنجبار، بل وفي الهند يشهد هؤلاء أن الإنكليزي المرؤوس يرى نفسه فوق رئيسه المصري أو السوري، الذي ما كان رئيساً له إلا لأنه أرقى منه علماً وخبراً في العمل المشترك بينهما، وإن كان هذا الرئيس على دينه ومذهبه، فهو يرى نفسه فوق كل شرقي لأنه إنكليزي، وهكذا شأن جميع الأوروبيين مع جميع الشرقيين، والإنكليز أحسن أخلاقاً ومعاملة من سائر الأوروبيين.

ألا فليعلم كل نصراني عثماني أنه إذا وقعت بلاده تحت سلطة دولة أوروبية فقد حرم من حقيقة السلطة وشرف الرئاسة وعزة الحكم التي يرجى أن يكون له منها النصيب الوافر ببقاء الدولة العثمانية دستورية، ولا يذهب بهذا الرجاء من قلوب غير الترك من العثمانيين ما عرفوا من تعصب زعماء جمعية الاتحاد والترقي لجنسهم، ومحاولتهم تمييزه على جميع الأجناس، فإن هذا من الغرور الذي يزول بزوال أولئك الزعماء أو بزوال نفوذهم العارض أو برجوعهم عنه، وقد زعم صاحب جريدة طنين وهو لسان حالهم أنهم قد رجعوا عن سياسة تترك العناصر. فإن كان مخادعاً فسيذهب الزمان بخداعه، وستؤول حكومة هذه الدولة إلى ما يسمونه اللامركزية حتماً إذ لا بقاء لها بغير ذلك إذا هي سلمت منبغي أوروبا وعدوانها.

فعلينا أيها الإخوان في الوطن والعثمانية أن نمحو من أذهاننا وساوس أوروبا التي بثتها في بلادنا وفرقت بها كلمتنا، وأن نكون إلباً واحداً على من يعاديها، وبدلاً واحدة في القيام بكل ما يحفظ كيائها ويرقيها، وأن نستفيد من تعلق قلوب المسلمين غير العثمانيين بها، ونشكر لهم إخلاصهم لها، علينا أن نظهر لها في هذه الشدة كل ما نستطيعه من المساعدة بأموالنا وأقوالنا وأفعالنا وشعورنا، وأن لا نؤاخذها بما ظهر من سوء سياسة بعض رجالها، فإننا إذا جمعنا كلمتنا على مساعدتها في هذه الأزمة نكون أقوىاء بعدها على إحباط كل سعي لأولئك المسيئين أو لغيرهم بقوة وحدتنا وظهور إخلاصنا الذي يقطع ألسنتهم فلا يستطيعون أن يتجحوا باحتكار الوطنية العثمانية، ورمي غيرهم بالتعصب للدين أو الجنسية.

هذا ما أذكر به أبناء الدولة العلية المخالفين لها في الدين، وأما أبناءها المخالفون لأسرة السلطنة في اللغة فقط فلا أراهم يحتاجون إلى التذكير بوجوب الاتحاد والتعاون على نصرها وتأييدها، وموالاة من والاهها، ومعاودة من عاداهها.

أين سروات الألبان ورؤساء عشائر الأكراد، وأمراء العرب الأنجاد، هذا وقت النجدة، هذا وقت الوحدة، «انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» [سورة التوبة رقم ٩، الآية ٤١].

«يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثأقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير» [سورة التوبة رقم ٩، الآية ٣٨ - ٣٩].

اعلموا أن أوروبا لا تبقي على أحد منكم، وإذا ساغت لها لقمة طرابلس الغرب فستكون ألبانيا لقمة للنمسا، وبلاد الأكراد لقمة

لروسية، واليمن كالخليج الفارسي لقمة لإنكلترا، أو مشتركة بينها وبين إيطاليا. وأما سوريا فيقال إن إنكلترا لا ترضى إلا بجعلها فاصلة بين مصر وبين الأناضول الذي هو حصة المانيا حبشية الترك، وذلك بأن تكون مستقلة تحت حماية الدول الكبرى كلها ويكون حاكمها العام أوروبياً.

هكذا قد اقتسموا البلاد ولا يقيها من تنفيذ القسمة إلا نجدتكم واتحادكم، واستعدادكم بالفعل للذود عن بلادكم، فوالله لئن ظفروا بغيرهم ليجردن بلادكم كلها من السلاح، وليتحدن على أن لا يبيعوكم بعد ذلك سلاحاً، ولا يدعوكم تعملون ولا تتعلمون كيف تعملون، وليسومنكم سوء العذاب، وليحرمنكم من السلطة والثروة، وليسلطن عليكم قسوسهم ومقامريهم وخمايرهم وبغاياهم ليفسدوا عليكم دينكم ودنياكم وصحتكم وآدابكم.

أين أنت يا أمير مكة وسيد الشرفاء، أين أنت يا إمام اليمن يا ذا النجدة والإباء، أين أنتم يا أمراء نجد الأنجاد، أين أنت يا صاحب الكويت، أين أنت يا ابن سعود، أين أنت يا ابن الرشيد، ألا يدعوا بعضكم بعضاً إلى الاجتماع والتعاون على نصره الدولة، ألا يجب أن ترحفوا على مصوع والأرتيرة، ألا تبذلون المال والنفس في هذه الشدة؟

وأنتم يا علماء النجف وكربلاء وإيران، هذا أوان ما يجب عليكم من خدمة الإسلام، هذا أوان شد أواخي أخوة الإيمان، والتعاون على حفظ ما بقي له من الاستقلال، عليكم بما لكم من النفوذ الروحي أن تستلوا من نفوس المتفرنجين نزعة الجنسية الجاهلية، وأن تجذبوا الأمة الفارسية إلى الأمة العثمانية، كلا، إن الأمة واحدة ولكن فرقها الأهواء، وهذا أوان جمع المتفرق ولم الشتات.

وأنت أيتها الأستانة أما آن لك أن تعلمي أن حمل هؤلاء كلهم للسلاح خير لك من جمعه منهم، وأن تعليمهم النظام العسكري خير لك من

جهلهم به؟ أصلحي ما أفسده المتفرنجون الملحدون، فبالإسلام تجعلين ملايين من أولئك الليوث فداءً لاستقلالك، كما نصحنك لك إذ كنا في جوارك، وقبل ذلك وبعد ذلك.

في ٢١ شوال سنة ١٣٢٩ هـ / ١٥ / ٣ / ١٩١١ م

## المسألة الشرقية

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٩٢٣ - ٩٢٧]

(٦)

«بعض ما يجب من العبرة في الحالة الحاضرة».

قد أتى علينا حين من الدهر ونحن في غمة من أمرنا، وأوروبا تتصرف فينا كما يتصرف الأوصياء الخونة في كفالة المعتوهين والقاصرين عن درجة الرشد، لا همّ لهم إلا بقاء الحَجَر عليهم، ليتمتعوا بأموالهم وما ورثوا من آبائهم وأجدادهم.

فتنت أوروبا ملوكنا وأمراءنا بجميع فتن السياسة، وزينت لهم تقليدها في زخرف مدنيّتها، وأوهمتهم أنها تهديهم إلى سبيل الرشاد التي يصلون بسلوكها إلى ما وصلت هي إليه من المدنية الجميلة التي تدهش الأبصار وتفتن الألباب، حتى سلبت ممالكهم، وثلت عروشهم، فمنهم من ذهب من سلطانه العين والأثر، ومنهم من بقي له الإسم والرسم، دون التصرف والحكم، ولم يعتبر اللاحق منهم بما حلّ بالسابق، وأنى لهم العبرة وهم بين قاصر العقل، وفاقد الرشد، وقد عمهم كلهم الجهل، وحيل بينهم وبين ما يجب عليهم من العلم.

فتنت أوروبا ملوكنا وأمراءنا، ولم تقصر في فتنة شعوبنا، فقد هاجتنا

بجنود من القسوس والمعلمين، والتجار والسماسرة والمرابين والبغايا «المومسات» والقوادين والقوادات، وأصحاب الملاهي والحانات، فحاربنا في عقائدنا الدينية، وفي مقوماتنا ومشخصاتنا المالية، وفي آدابنا وعاداتنا القومية، وفي رزقنا وثروتنا العمومية، تريد بهذا كله الفتح والاستعمار باسم المدنية.

راجت في سوقنا كل هذه الفتن، فحلت روابطنا، وأضعفت جامعتنا، ومزقت نسيج وحدتنا، واغتالت معظم ثروتنا، ونحن نتوهم أننا نرقي في بذلك أنفسنا، ويظن الذين تفرنجوا منا أنهم صاروا أرقى من سائرنا عقولاً، وأعلى آداباً، وأصلح أعمالاً، حتى إن بعض أحداث المدارس منهم يرون أنفسهم بتأثير فتنة التفرنج أنهم أرقى من سلفنا الصالح الذين فتحوا الممالك ومصرّوا الأمصار، ودوّنوا العلوم، وبنوا لنا ذلك المجد الذي ساعدنا أعداءنا على هدمه منذ قرون ولما يهدم كله، ألا اننا قوم جاهلون مخدوعون، نخرب بيوتنا بأيدينا، وأيدي أولئك الفاتحين المخادعين لنا، ولا ندري ماذا نفعل.

كان سفراء أوروبا ووكلاؤها، وقسوسها وعلمائها، وتجارها ومومساتها، هم القواد الفاتحين، والملوك السائدين، الذين ما دخلوا قرية من ممالكنا إلا أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، ومن عجائب جهلنا وغفلتنا، أن أمرنا معهم لا يزال غمة علينا، ولا نزال نرجو الخير منهم، والترقي بتعلم لغاتهم، واتباع عاداتهم.

ما صخت العبر آذاننا، وخطفت أبصارنا، وقرعت أذهاننا، كما فعلت في هذا العام الذي تواطأت فيه أوروبا على مرأى منا ومسمع متفقه على ابتلاع الممالك الثلاث التي كانت فيه لنا، وهي الدولة المغربية والدولة الإيرانية والدولة العثمانية.

بدأت أوروبا بالجناحين «إيران ومراكش» فلم تر في المجموع الإسلامي



شعور ألم يُذكر، ولا حركة دفاع تحشى، فتجرات على القلب. وإذا جاز أن يعيش من قطعت أطرافه كما فعلت أوروبا بجسم ملكنا، فهل يجوز أن يعيش الجسم بغير قلب؟ فمتى نفيق؟ ومتى نشعر؟

وصل البغي والعدوان علينا إلى هذه الدرجة ولم تزل الغشاوة كلها عن أبصارنا، ولا الرين عن قلوبنا، ولا يزال في آذاننا وقر، وبيننا وبين الحقيقة حجاب، ولا تزال أوروبا تنظر إلينا نظر الوصي القوي المنة الشديد الطمع إلى الغلام السفیه، وهي ترجو أن لا تحمل في الإجهاز علينا كبر عناء ببركة اتحادها وتحاذلنا، وحزمها وتواكلنا، ثم خلاصة من ربت لنا من تلاميذها الذين يزينون لنا أن مدينتنا لا تتحقق إلا بتقطيع أوصال جامعتنا المالية الأولى، وصيرورة كل عضو منا جسداً كاملاً باستقلال كل قطر من أقطارنا بجنسية جديدة، وبراءته من سائر الأقطار، إرضاءً لأوروبا التي أرشدتنا إلى هذه الحياة الجديدة وحببتها إلى تلاميذها منا، وبغضت إليهم رابطتنا المالية الأولى لأنها من التعصب المذموم في عرف مدينتها الشريفة المبنية بزعمها على حب الإنسانية وإرادة الخير لجميع البشر؟

أفيقوا أفيقوا أيها المساكين المخدوعون، وانظروا إلى ما تفعل أوروبا بكم، إنها ما قطعتكم أفلاذاً لتمدن كل واحدة منكم على حدتها حباً في الإنسانية، وإنما قطعتكم كما تقطع الحمل المشوي لتأكله لقمة بعد لقمة. لستم بأعلم بحب هؤلاء القوم للإنسانية من فيلسوفهم الأكبر، الحكيم هربرت سبنسر، الذي نصح لليابانيين بأن لا يتحدوا بقومه الإنكليز، ولا يجعلوا لهم موطناً في بلادهم لئلا يفسدوا عليهم أمرهم، ويلتهموا ثروتهم، ويزيلوا ملكهم من الأرض، أو يجعلوه أثراً بعد عين، ليس لهم منه إلا الاسم.

اعلموا أن أمر أوروبا كله في أيدي رجال السياسة ورجال المال، وهؤلاء كلهم من أصحاب الأثرة والبغي، لا يعرفون الحق إلا للقوة

القاهرة، وكل ما يتشدقون به، من ألفاظ الإنسانية والمدنية والحق والعدل والقانون وما يشاكل هذه الكلمات فهو من خدعة الحرب وغش التجارة. ومن يوجد في أوروبا من أهل الفضيلة ومحبي الحق والعدل مخدوعون مثلكم بأكاذيب السياسيين والماليين، ودعاة الدين، الذين ينفرونهم من الشرق والشرقيين، والإسلام والمسلمين، فرجاؤنا في استقلالهم أن ينفعنا قليل، ليس عليه تعويل.

لماذا تقوم قيامة الشعوب الأوروبية كلها إذا حارب العثمانيون حكومة من حكومات البلقان المسيحية، أو حاولوا إخماده ثورة كتلك الثورة الأرمنية؟ لماذا تستنفر تلك الشعوب حكوماتها على دولتنا، وتساعدنا بالمال والتطوع لمحاربتنا؟ ولماذا نراها وادعة ساكنة وقد بغت إيطاليا واعتدت علينا، وتنظر بعين الرضا والارتياح إلى أسطولها وهو يطر على ولاية من ولاياتنا قذائفه الجهنمية؟ وهذا مع إجماعها على بغى إيطاليا واحتقارها للقوانين ونكثها للعهود الدولية «هذا وما كيف لو» - هذا وما جاءت إيطاليا بشبهة من الشبه التي اعتادت أوروبا أن تدلي بها إلى شعوبها، ليوافقوها على الاعتداء علينا، كإنقاذ المسيحيين من تعصب المسلمين، أو منع الثورات، وتأييد عروش الحكومات، فكيف كان يكون تأييدهم لها لو جاءت بمثل ذلك.

إلا أن الخطب كبير، والبلاء العظيم، وكل ما ظهر من تأثيره فينا، فهو قليل بالنسبة إلى ما يراد به منا، ماذا عملنا، جمعنا شيئاً من الإعانة بمصر لإنقاذ جيراننا وإخواننا أهل طرابلس من براثن الموت مصابة أو صبراً. ولكن لما يبلغ ما دفعه العشرات والمئين من أمرائنا وسروائنا ومثرينا نصف ما دفعه غني واحد من أغنيائنا الذين أفسدهم التفرنج في هذه السنة وحدها لمقامري أوروبا ومومساتها؟ إن الجرائد الأوروبية التي تصدر عندنا تنفرننا من إعانة دولتنا والعطف عليها، وتظهر أنها قد استكبرت منا ما تصدنا له، وهي إنما تسخر منا وتستصغر ما تظهر أنها تستكبره، وتعرف

حقيقة ما تظهر أنها تستنكره، وترى كدوها أننا نعمل عمل الصغار، فهي كدوها تعبث بنا كما يعبث الرجال بالأطفال، «فاعتبروا يا أولي الأبصار».

إن الأمة التي تعرف قيمة الحياة هي التي تحتقر الحياة والمال، في سبيل الشرف والاستقلال، فيجب أن تعرف أوروبا منا في مثل هذه الحال أننا أمة واحدة، وأنها لا نحمل الضغط إلا إلى درجة معينة، وأنها إذا تجاوزت بنا تلك الدرجة فما ثم إلا الانفجار، الذي لا يعلم عاقبته إلا الله الواحد القهار، فلتربع على ظلها، ولتقف عند هذا الحد في طمعها. وإذا لم تكف عنابغي دولة الفوضويين واللصوص فليتركنا وشأننا معها، ولا تعارضنا فيما نفعله في بلادنا من إرسال المدد والذخيرة من مصر وعن طريق مصر إلى طرابلس الغرب. ومن معاملة الطليان في بلادنا، بما يجوز لكل أمة وحكومة منهم أن تفعله في بلادها، أما إذا كانت ألمانيا تمنعنا من مقاطعتهم أو إخراجهم من ديارنا، وإنكلترا تمنعنا من إرسال الرجال والذخائر من مصر، فلا تكون إيطاليا وحدها هي المحاربة لنا، وإنما تحاربنا أوروبا بأسرها، وهل لنا ذنب يقتضي كل هذا إلا ديننا؟ فأين التعصب ومن هم المتعصبون؟ ألا تعتبرون أيها الغافلون؟

أظهرت إيطاليا من الجبن شجاعة، ومن العجز قوة، وبغت وتكبرت في إنذارها لدولتنا، وإنما جرها على ذلك علمها بأن دول أوروبا الكبرى كلها معها، واعتقادها أنها تنصرها أولاً وآخرأ عملاً بقاعدة «ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود إلى الهلال، وما أخذه الهلال من الصليب، يجب أن يعود إلى الصليب».

ولأجل هذه القاعدة قالت إنها لا تقبل مناقشة ولا مذاكرة في مسألة طرابلس إلا بعد احتلال عسكريها فيها؟ ونتيجة القياس المنطقي الذي يتألف من هذه القاعدة ومن استحلال أوروبا وإقدامها على مثل هذا التعدي أنه يجب أن لا يبقى للهلال ملك في الأرض.

إن إيطاليا لم تحتقرنا بجمع قوتها البحرية والبرية وهجومها بها على طرابلس الغزلاء الخالية من الحامية والاستعداد، بل احتقرت نفسها والدول المساعدة لها، وأقامت الحجة على أنه لا قيمة للحق ولا للفضيلة ولا للإنسانية عندها، وإنما تحتقرنا هي وحليفتها ألمانيا بمساومتنا في بيع شرفنا وديننا بثمن بخس تعرضه على دولتنا، لتقر إيطاليا الباغية على بغيها، وتجعل طرابلس ملكاً شرعياً لها. ولعل عاهل ألمانيا صديق السلطان والدولة والمسلمين (؟) لا يجهل أن نصيحته هذه تكون أشأم على الدولة من زيارته لطنجة وإظهاره الميل والمساعدة لسلطان مراكش، لعله يعلم أن العمل بنصيحته يسخط العالم الإسلامي كله على «صديقه» الدولة ويثير عليها رعيته، وإذا ترتب على ذلك، لا سمح الله، أن يكون هلاكها تكتفي أوروبا أمرها، وتسلم من تبعتها أمام العالم الإسلامي.

ألا فيعلم الأمبراطور العظيم، وحليفه الملك المتعظم، أن الدولة العثمانية ليست الآن في يد عبد الحميد فينالا منه ما أراد، ولا بيد تلك الزعنفه التي خدعتهم ألمانيا بمكر يهودها الصهيونيين، وإنما أمرها إلى مجلس كبير لا يبيع دينه وشرفه بمال اليهود ولا ينخدع بمكرهم، وقد انكشف له الستار عن كنه صداقة ألمانيا لنا التي جرت علينا كل هذا البلاء. فإن استطاع مجلسنا أن يؤلف وزارة تقدر أن تقنع إنكلترا وصديقتها بذلك ويكفّ بغي دول التحالف الثلاثي عنا فذاك ما نحب من السلم والحق، وإلا فالرأي ما بينا من قبل. ورأينا كل من نعرف من المسلمين متفقين معنا عليه، وهو أن نحب الموت في سبيل حفظ ما هو لنا، أكثر مما يحبه غيرنا في سلب ما ليس له، وحينئذ إما نبقي أصحاب دولة وشرف، وإما أن نموت كما يموت الكرام، بعد أن نميت أضعافنا من أعدائنا البغاة.

أيها المبعوثون المخلصون، إنكم تعلمون أن بيع طرابلس بيع للدولة كلها وقضاء عليها، فإذا عجزتم عن إنقاذها ولم تجدوا من أوروبا مساعداً فاعلموا أنه ليس بعد اليوم كوفة، فادفعونا إلى عمل اليائس من الحياة

ووزعوا كل ما عند الدولة من السلاح علينا، واطردوا جميع أعدائنا من بلادنا، وتعرضوا لجهر أوروبا كلها بمحاربتنا، فذلك أشرف لنا من إسرارها لذلك، وربما كان خيراً وأبقى.

## أماني إيطاليا وظنونها في

### مسألة طرابلس الغرب

[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٩٢٧ - ٩٣٤]

(٧)

صرح علماء الحرب الذين عرفوا طرابلس الغرب من المانيين وغيرهم أنه ليس في استطاعة إيطاليا أن تتجاوز سواحلها وتتوغل في داخليتها بالقوة العسكرية لأسباب متعددة: منها، شجاعة عرب هذه الولاية الخارقة للعادة وتصديهم للحرب والكفاح من سن البلوغ إلى سن الشيخوخة مع وفرة السلاح عندهم وتمرنهم على استعماله وبراعتهم فيه، وكراحتهم لسلطة الأجنبي المخالف لهم في الدين والجنس والعادات واللغة.

ومنها، أن العسكر الأوروبي إذا تجاوز الساحل دخل في صحارى رملية وعثاء يعوزها فيها الماء، وما ثم إلا آبار قليلة ماؤها خمجير (ثقيل)، لا يعرف مواقعها إلا الوطني الخريت. وقد يطمونها ويطمسون معالمها فلا يهتدي إليها غيرهم، على أن ماءها يؤذي الأوروبي ولا يؤذيهم.

ومنها، قلة الزاد فليس هناك أسواق ولا أهراء يأخذ منها الجند الأوروبي ما اعتاد التغذية به من الخبز والبطاطس والحبوب والخضر واللحم والخمر. وأما العربي الوطني فهو يكتفي من الزاد في يومه بكسرة من الخبز، أو قبضة من الشعير أو التمر. ومحارب على ذلك طول العمر.

ومنها، إن عرب البلاد يستمدون من وراءهم من البلاد السودانية

وكلها إسلامية تقدمهم وتساعدهم على جهاد عدوهم الذي فرض الله عليهم قتاله بعد تعديه عليهم، ولا سيما إذا استنجدهم السنوسيون وعرفوهم أن الجهاد يكون فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذا دخل الكفار بلاد المسلمين محاربين فاتحين.

ولا يعقل أن تجهل إيطاليا من حالة هذه البلاد ما عرفه الألمان والإنكليز فإنها منذ عشرات السنين تمهد السبيل لامتلاكها، وفيها كثير من تجارها وعلمائها، وكم أرسلت إليها من الضباط للوقوف على شؤونها الحربية، فلماذا أقدمت الآن على فعلتها الشنعاء، بهذه الصورة الشوهاء؟ أفلم تحسب لتلك الأسباب حساباً، أم ترضى من الغنيمة باحتلال السواحل وجعل الأسطول أمامها يحميها إلى ما شاء الله، أم لها في ذلك رأي آخر رازة ساستها، واعتمد عليه قادتها؟

أقوال حكومة إيطاليا وجرائدها تدل على أنها تعتقد أن أهالي طرابلس لا يحاربونها حرباً ذات بال يخشى أن يطول أمرها، ويتفاقم شرها، وقد استنبطنا من هذه الأقوال ومما نعرف من سعيها ودسائسها في طرابلس أنها تبني اعتقادها هذا على عدة دعائم.

١ - ما بذلته من المال والدسائس لاستمالة شيوخ العرب وزعمائهم إليها وتنفيرهم من الترك، ولاستمالة الشيخ السيد السنوسي وإقناعه بأن إيطاليا محبة له وللإسلام والمسلمين! وقد أتعبتها الوسائل حتى استطاعت إرسال هدية إلى الشيخ السنوسي وأقنعتة بقبولها بسعي أحد التجار المسلمين بمصر بعدما أخفق سعي جاسوس وكالتها السياسية هنا في ذلك.

ونحن نرى أن هذه الدعامة متداعية لا تمسك هذا البناء، فهدية ملك إيطاليا إلى الشيخ السنوسي لم تفد ذلك الملك أدنى ميل من السنوسي إليه ولا إلى دولته، وكل ما بذل لمشايخ العربان يمكن أن يهدم بكلمة واحدة تلقى إليهم وتذاع بينهم، وهي أن هؤلاء الإيطاليين يريدون إزالة حكم

القرآن من هذه البلاد وإخضاع المسلمين لأحكامهم وإزالة سلطانهم، والتمهيد بذلك لإذلال دولة الخلافة ومحوها من الأرض.

٢- مخادعة العرب وغشهم بإيهامهم أنها تريد أن تجعل حكمهم لشيخوخهم وزعمائهم تحت حمايتها، وأنها تحترم شعائر دينهم وتمكنهم من إقامته والعمل به كما يشاؤون، وقد أوصت الحكومة الإيطالية جيشها الذي أرسلته لاحتلال هذه البلاد بأن يحترم المساجد وكل ما هو ديني وأن يبلغوا مشايخ العرب وسائر الأهالي نحو ما شرحناه من الخداع، ويقيس الإيطاليون مسلمي طرابلس على غيرها من المسلمين الذين خدعوا من قبل بمثل هذه الوعود، حتى إذا تمكّن نفوذ الأجنبي فيهم هدم أكثر مساجدهم، واغتصب جميع أوقافهم، ومنعهم من تعلم أحكام دينهم، وإنما يأذن بعضها دون بعض، وضيق عليهم الخناق لأجل أن يتركوا أحكامهم في النكاح والطلاق والميراث، وبث فيهم دعاة دينه يفترون على الإسلام وينفرون عنه. هذا ولا يجعل لأحد منهم أدنى سلطة في حكومة بلاده، وشبهته أن هذه حكومة مدنية، وأن المسلمين جاھلون متوحشون لا يصلحون لإدارة الأحكام وإقامة العدل بها ما داموا كذلك.

وهذه الدعاية أوهى من تلك، فإن في طرابلس على غلبة الجهل عليها كثيراً من العلماء ومشايخ السنوسيين يعرفون حقيقة ما عليه كثير من إخوانهم المسلمين الذين سقطوا تحت سلطة الدول الأوروبية التي هي أقرب إلى الحرية والعلم والمدنية والشرف من إيطاليا الماكرة الغادرة المجاهرة بالبغي عليهم وعلى دولتهم، وما هم عليه من الذل والفقر والجهل والحرمان من الحرية والمدنية. ويعلمون أن تلك الدول لم تف لهم عهداً، ولم تصدقهم وعداً، وأنها لا ترقّهم، ولا تمكنهم من ترقية أنفسهم، وقد يوجد الآن من يبلغهم أن البلاء المبين الذي تدخره إيطاليا لهم، هو أضعاف ما يشكو منه غيرهم من المسلمين الذين يعرفون أخبارهم، وغيرهم ممن لا يكادون يعرفون عنهم شيئاً، وأبن المدنية التي

أقامت أركانها إيطاليا في الإرتيره؟ وكيف وأكثر بلادها الجنوية نفسها في قارة أوروبا «المقدسة» محرومة من المدنية والعمران، يفر أهلها منها إلى أميركا وغيرها من البلاد كما يفر الموسوس من الأرض الموبوءة.

٣ - بثها في هذه الولاية وسوسة الجنسية العربية والتنفير من الترك بأنهم أهل ظلم وجور، يبغضون العرب ولا يعرفون لهم حقهم ولا ما يوجبهم الإسلام لهم. وقد كادت تقوى هذه الفتنة في طرابلس الغرب وفي غيرها من البلاد بسوء ذكرى الحكام المستبدين في العصر الماضي وبما ذاع من أمر السياسة الجنسية السوءى التي بها عرف زعماء جمعية الاتحاد والترقي في الثلاث السنين الماضية، وحذرناهم من سوء عاقبتها، وأنذرناهم خطر مغبتها، فتماروا بالنذر، وأقدموا على ما أقدموا عليه من الأقوال والأعمال السياسية والحربية، وهذه التفرقة الجنسية بين المسلمين وتقطعهم أئماً مختلفة في الوطن أو اللغة هي أقل آلات الفتك التي حاربتهم بها أوروبا بإعانة تلاميذها المتفرنجين الذين لا يزالون يبالغون ما لا يبالغ الإفرنج في التنفير من الرابطة الإسلامية والجامعة الدينية.

كنت أخشى أن تكون هذه الدعاية أقوى الدعائم التي تمهد لأوروبا تقطيع أوصال الدولة العلية، وجعل كل إقليم من مملكتها يغلب فيه جنس من الأجناس مملكة مستقلة بالاسم تحت حماية دولة أوروبية قوية لا يتمتع تحت حمايتها من سلطة بلاده إلا بالاسم فقط. كنت أخشى هذا وهو الذي كان يمكن لإيطاليا فيه أن تزيل سلطة الدولة العلية من طرابلس بمعونة أهل طرابلس أنفسهم. ولكنني أحمد الله أن استعجلت أوروبا باستيفاء جميع غلة هذه الشجرة الخبيثة الملعونة في القرآن - شجرة عصبية الجنسية - فكانت إيطاليا هي السبب في اجتثاثها من طرابلس قبل رسوخ جذورها فيها.

نزعة الجنسية الشيطانية لم تنتشر كثيراً في طرابلس لأنه قلما يوجد فيها من قرأ جريدة عبيد الله التي سماها العرب وجريدة طنين وأمثالها، فلا



تزال الرابطة الإسلامية هي الحاكمة على قلوبهم . وما وصل إليهم من جواسيس إيطاليا ضعيف . ويوجد فيهم من يرشدهم إلى أن الترك إخوتهم في الإسلام ، وأن كل الظلم الذي عرفوه منهم سببه الجهل بأحكام الدين وبالمصلحة العامة ، وأنهم كانوا يظلمون في بلادهم كما يظلمون في البلاد العربية ونحوها ، وأن الدولة دخلت الآن في طور جديد يرجى أن يصلح به حال الجميع ، ولكن أعداءها وأعداء الإسلام يريدون أن يقضوا عليها قبل اصلاح شأنها لأنهم يكرهون صلاح الشرقيين عامة والمسلمين خاصة ، ويريدون أن يظلوا ضعفاء فقراء ليكونوا خدماً بل عبيداً لأوروبا .

إن إيطاليا لم تحت شجرة عصبية الجنسية من طرابلس الغرب فقط ، بل هي قد زعزعت هذه الشجرة الخبيثة في سائر البلاد العربية بهذا البغي والطغيان ، وتبع ذلك رسوخ شجرة الرابطة الإسلامية الطيبة وتشعب أفنانها في مصر وتونس والجزائر واليمن وسوريا والأناضول والأرنؤوط وبلاد التتار وإيران والهند . كان يقول القائل ويكتب الكاتب في الجنسية المصرية وانفصالها من الجنسية التركية أو العثمانية واستقلال أهلها دون إخوانهم العثمانيين وغيرهم وتفضيل القبط عليهم فلا يلقي إلا التحييد والتصفيق ، فنبه هذا العدوان الذي أصفقت عليه أوروبا مسلمي مصر إلى أنهم مسلمون قبل كل شيء ، فمن عرض الآن بصرف المصري عن الاتحاد بالعثماني ومساعدته بماله ونفسه ، وعن اعتقاد كون مصلحته عين مصلحته ، وحياته مرتبطة بحياته ، لا يلقي إلا اللعن والتحقيق ، من الكبير والصغير ، إلا أفراد من غلاة التفرنج أو من المنافقين .

تبين بهذا فساد ما كانت تظنه إيطاليا - من أن عرب طرابلس لا يقاتلون قتالاً شديداً يطول أمره - بضعف الدعائم التي بنته عليها ، وكانت ترى أن الأمر ينحصر في مقاومة الجند النظامي ، وقد مهّدت السبيل إلى جعل هذه المقاومة لا تأثير لها باستعمال حقي باشا وغيره من أنصاره كما تستعمل الآلات التي تمهد بها الطرق التي تمشي عليها ، أولئك الأنصار

الذين يبخلون بالمال أن ينفق على مثل طرابلس لحمايتها أو لترقيتها، ولكنهم لا يبخلون به أن ينفق على محاربة الدولة لأبنائها وإخوتها كما فعلوا في اليمن وغيرها لغير سبب موجب وغير نتيجة صالحة.

أهمل تحصين طرابلس وفرنق شمل الأليات الحميدية الأهلية التي كانت مرابطة فيها، ولم يوضع فيها من الجند إلا ما قد يحتاج إليه لأجل تحصيل العشور والضرائب وحفظ هيبة الحكومة في نفوس الأهالي، وما كان هذا وحده هو الذي أطمع إيطاليا وجرأها على مهاجمة البلاد وإنزال عساكرها فيها، وإنذار الدولة صاحبة البلاد بأنها تريد ضمها إلى أملاكها، وطلب إقرارها إياها على ذلك بالتهديد والوعيد.

نعم، ما كان المجرىء لإيطاليا على فعلتها هو خلو البلاد من الحصون المنيعه والحامية الكافية، ولا الظن بأن مدافعة العرب لا تكون شديدة طويلة، ولا مشايعة أوروبا لها في الباطن، فإن أوروبا وإن سكنت لها على عملها ولم تعارضها فيه، لا يمكن أن تعترف لها به رسمياً، وتعدّها به صاحبة البلاد الشرعية، إذ لا يعقل أن تغط جميع الدول الكبرى أمام شعوبها الحق بصفة رسمية إلى هذه الدركة السافلة، وفرنق عظيم بين السكوت للمبطل على باطله، وبين الإجماع على تسمية باطله حقاً بالتصريح الرسمي. وإذا لم تعترف الدول لها بامتلاكها لتلك البلاد بمثل هذا البغي والعدوان يكون للدولة صاحبة البلاد الرسمية أن تطالب بحقوقها بالقوة الحربية أو بغيرها في كل وقت، وتكون الباغية في مركز حرج في جميع تصرفاتها.

إيطاليا تعلم هذا، وتعلم أنه إذا تيسر لها احتلال ما وراء الثغور البحرية من البلاد في زمن قريب أو بعيد بعد خسارة كبيرة أو صغيرة، فإنه لا يتيسر لها أن تسوسها وتدبر شؤونها وتكون آمنة مطمئنة فيها، تأتيها المكاسب رغداً من كل مكان - وهي ليس لها صفة رسمية فيها - تلك الأمانة لا ينالها الغاصب لأرض يعلم هو وأهله وجيرانه والعاملون في

الأرض وجميع من يريد معاملتهم فيها أنه غاصب ناهب، وأن تصرفاته غير شرعية، ويخشى في كل وقت أن تعصف رياح الحق فتزلزله أو تزيله منها، فماذا أعدت إيطاليا لذلك؟ وما هي الوسيلة التي تتوسل بها لحمل الدولة العلية على إقرارها على عملها وجعل مقامها في طرابلس جائزاً في قانون حقوق الدول؟ ولا تكون اللقمة سائغة هنيئة بل لا يسهل ازديادها بدون ذلك؟

يمكننا أن نستنبط جواب هذا السؤال العويص من فحوى الأقوال، ومن قرائن الأحوال، ومن الوقوف على بعض مخبات السياسة، ومذاهب الزعماء وأهل الرئاسة، وهو أن إيطاليا ترى أنها إذا احتلت طرابلس بالفعل فإن حمل الدولة العثمانية على إقرارها على الاحتلال أمر يسير غير عسير لأربعة أسباب: أحدها - علمها بأنه لا يمكنها إخراجها بالقوة لضعف أسطولها ومنع إنكلترا لها من إرسال جندها بطريق مصر. ثانيها - علمها بأن أوروبا لا تكره إيطاليا على الخروج عملاً بقاعدة «ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود إلى الهلال». ثالثها: إن بعض أصحاب النفوذ من المتفرنجين العثمانيين يرون مثل هذا الولاية من الأطراف البعيدة عن كرسي السلطنة لا تستحق أن ينفق عليها شيء من المال لأجل حمايتها أو ترقيتها، وأنه إذا أمكن الاستعاضة عنها بمال ينفق في العاصمة وما يليها يكون أولى، وإن بيع طرابلس الغرب أسهل وأولى من بيع البوسنة والهرسك. رابعها - مساعدة الحزب الألماني في الدولة على ذلك. ونفوذ هذا الحزب في جمعية الاتحاد والترقي وفي ضباط الجيش العثماني عظيم ومن رجاله المؤثرين دهاقين اليهودية في سلانيك والأستانة وأبناء عمهم من الصابئين. هذه هي آراء إيطاليا أو أمانيتها.

أما الصورة التي رسمتها بإرشاد حليفتها ألمانيا لتنفيذ ذلك فهي - على ما ظهر لنا - أن إيطاليا تدعي بعد احتلال طرابلس أنها تريد جعلها ملكاً خالصاً لها، وتندر الدولة العثمانية بطشتها الكبرى إذ لم تقرها على ذلك،

بأن تأذن لأسطولها بضرب ما شاء من موانئها وجزرها واحتلال ما شاء منها، فعند ذلك تنبري ألمانيا للصلح باسم الصداقة والمحبة الخالصة لهذه الدولة ولجميع العثمانيين والمسلمين لأجلها كما قيل «لأجل عين ألف عين تكرم» وتخدمها كما خدمتها في مسألة بيع البوسنة لحليفها الأخرى «النمسا» فتأخذ لها مبلغاً من المال وتحمل إيطاليا على الاعتراف بسيادة السلطان الاسمية على طرابلس.

نعم، تذيع إيطاليا أنها لا ترضى بأن يبقى للسيادة العثمانية هنالك اسم ولا رسم وهذا تمويه تمهد به السبيل لإرضاء العثمانيين باسم السيادة ليقال إن إيطاليا تنازلت عن بعض مطالبها في الصلح إكراماً لحليفها «ألمانيا» وحباً في السلام! لأنهم مع كل هذا العدوان والطغيان لا يستحون من ادعاء حب السلام وكراهة الحرب.

ربما يكون قد بدا لإيطاليا ما لم تكن تحتسب في هذه الأسباب الأربعة، كما بدا لها ما لم تكن تحتسب في تلك الدعائم الثلاث، فخاب من ظنها في الترك مثل ما خاب ظنها في العرب، وربما كان اعتمادها الظاهر على نفوذ ألمانيا في الدولة هو الذي يزلزل هذا النفوذ منها أو ينسفه في اليم نسفاً، ولم يبق في هذه المقالة مجال للإطالة في هذه المسألة، ولكن لا بد من ختمها ببيان كون إيطاليا لا تريد أن تزيل اسم السيادة العثمانية كما تزيل جميع رسومها، ولا سيما إذا كان بغير إقرار الدولة العثمانية ورضاها.

تعلمت أوروبا من إنكلترا داهية الاستعمار وفيلسوفته أن حكم الشعوب، ولا سيما الإسلامية منها، باسم الحماية أو الاحتلال المؤقت أو غير المؤقت وإدارة بلادها بواسطة رجال من أفرادها، هو أسلس قياداً، وأسهل طريقاً، وأسلم عاقبة وأخف تبعة، وأفعّل في تخدير الشعوب، واطمئنان القلوب، وصرف العقل عن استنباط الحيل للمقاومة والخروج، ولهذا تريد أن تسوس فرنسا المغرب الأقصى كما تسوس دابة تونس السلسلة المذللة، لا كما تسوس دابة الجزائر الجموح الصعبة.

لم تدخل أوروبا بلاداً شرقية أوسع علماً ومدنية من مصر، ومع هذا ترى إيطاليا أن أحزاب مصر السياسية لا يشكون من الإنكليز المتصرفين في كل شيء عشر معشار ما يشكون من الحكام الوطنيين في جميع الأعمال، فالإنكليز يعملون والتبعة واللائمة على غيرهم فيما يتقصد، والعالم كله ينسب إليهم كل ما يستحسن، ولم يضر مصالحهم اعترافهم بسيادة الدولة العثمانية على البلاد بل هو نافع لهم، ومضعف للنفور منهم

بعد كتابة ما تقدّم بشرّتنا أنباء الآستانة بأن الوزارة قد أبرمت العزم على مقاومة إيطاليا وعدم الجنوح لسلم يضيع به شيء من البلاد، وصلاح يذهب به شرف الأمة والدولة، وأن مجلس المبعوثين أيد الوزارة بناءً على عزمها هذا. فحمدنا الله تعالى أن حقق رجاءنا في دولتنا وحكومتنا، وخيّب ظنون الدولة الباغية علينا، وسوف على الباغي تدور الدوائر.

وهنا نصرح لحكومتنا العلية بما وصل إليه علمنا واختبارنا، وهو أن بيع طرابلس لإيطاليا المهينة لها، التي عجزت عن حرب الحبشة من قبلنا، يعد بمثابة انتحار الدولة، حماها الله تعالى، سواء كان استيلاء هذه الباغية على طرابلس باسم الاحتلال أو باسم آخر، نعم إنه انتحار لأنه يسقط قيمة الدولة ونفوذها وقيمتها الدينية والسياسية من نفوس رعيّتها ومن نفوس جميع المسلمين، بل يخشى أن تكون عاقبته شراً من ذلك، أعز الله الدولة ووقفها لما فيه قوتها وشرفها دائمين ما دامت السموات والأرض.

في آخر شوال سنة ١٣٢٩ [هـ/ ٢٣/ ١٠/ ١٩١١ م]

## المسألة الشرقية

[المنار ج ١٥ (١٩١٢) ص ٣٣ - ٤٠]

(٨)<sup>(١)</sup>

### الجهاد في الإسلام

يقع الخلاف والنزاع والعداء بين البشر بسوء الفهم أكثر مما يقع بسوء القصد، وأعم أسباب سوء الفهم والتفاهم اختلاف المواضعة والاصطلاح: يطلق زيد القول بمعنى فيفهمه عمرو بمعنى آخر فيؤخذ زيداً عليه، ويرى زيد أن قوله لا يقتضي المؤاخذة وهو مصيب في هذا الرأي، وأن عمراً ما أخذه عليه إلا لسوء أراحه به، ونية رديئة أضمرها له، وإلا لم يؤاخذه على الصواب، وهو مخطيء في هذا الرأي لأن عمراً إنما أخذه لأنه فهم من قوله ما لم يرد هو به.

واختلاف المواضعة والاصطلاح الذي قلنا إنه أعم وأكثر أسباب سوء الفهم له مناشيء متعددة، فإن اللفظ الواحد يكون له معنى أو عدة معان في أصل اللغة، ومعنى آخر في اصطلاح الشرع، ومعنى آخر أو أكثر في اصطلاح بعض العلوم والفنون، ومعنى آخر في العرف العام، ومعنى آخر في العرف الخاص، ببلد من البلاد أو طائفة من الطوائف كالكتاب أو الفقهاء مثلاً. وقد قال علماؤنا «لا مشاحة في الاصطلاح» وهذه الكلمة تجري دائماً على ألسنتنا وأقلامنا ولكن لا يكاد يعامل بها أحد منا غيره. فنحن في مشاحات وملاحاة لا تنقضي. وقد يكون المرء منا معذوراً بجهله باصطلاح الآخر وقد يكون غير معذور ولكن البيان هو الذي يقطع التعلات والأعذار.

---

(١) بالأصل «٧».

من الألفاظ التي من هذا القبيل لفظ «الجهاد» في الإسلام والظاهر لنا أن بعض النصارى يفهمون أن المراد به اتفاق المسلمين كافة على قتال أو قتل كل من ليس بمسلم سواء كان محارباً لهم أم لا . وهذا المعنى ليس مدلولاً له في اللغة العربية ولا في عرف القرآن والسنة ولا في اصطلاح الفقهاء ، وربما سرى فهمهم هذا إلى بعض المسلمين الذين يجهلون اللغة والشرع ويأخذون المسائل الدينية من المعاشرين لهم وإن لم يكونوا من أهل دينهم وكذا من جرائدهم .

ومنهم من يفهم من الجهاد القتال باسم الدين أو لأجل الدين ويقسمون الحرب إلى دينية ومدنية ويفرقون بينها بالتسمية وإطلاق لفظ الجهاد على الحرب الدينية فقط ويخصونها بالذم والتشنيع والتنفير . كأن الحرب التي يسمونها مدنية من طرق الكسب والتجارة المحموده ، ويرون أنه لا حرج على من يحارب قوماً يستضعفهم ليزيل استقلالهم ويجعلهم كالعبيد المسخرين لإبناء جلدته .

نشر أحمد لطفي بك السيد مدير الجريدة مقالاً فيها ذكر فيه أن الحركة الحاضرة بمصر الموجهة لإعانة الدولة العثمانية على حرب إيطاليا قد ظهرت بشكل الجهاد الديني أو الدعوة إلى الجهاد الديني وأن هذا خطأ ضار بمصر . فسأ قوله هذا جميع من ذكره أمامي من المسلمين ، وسر جميع من ذكره من النصارى . وما رأيت الكتاب والباحثين في السياسة من هؤلاء حمدوا لمدير هذه الجريدة غير هذا المقال . وقد اجتمعت في بعض السمار بطائفة منهم وخضنا في هذه المسألة ، وكان مما ذكرته أن الجهاد ليس بالمعنى الذي يفهمونه ولا أدري أي معنى قصد به مدير الجريدة ولكنني أجزم بأن اتهام المصريين بالتأليب على النصارى كافة والدعوة إلى قتالهم باطل ، ويمكنني أن أحلف على أنني لا أعرف أحداً من المسلمين على هذا الرأي ولا سمعت الدعوة إليه ولا استحسانه ، بل ولا ذكره من أحد منهم . ثم ذكرت معنى الجهاد في اللغة والقرآن ، وورود ذكره في كتب النصارى ، فاقترح عليّ

بعضهم أن أكتبه وأنشره في المؤيد فقبلت الاقتراح ولم أتم ما بدأت بشرحه في السامر.

الجهاد والمجاهدة مصدر جاهد وهو بناء مشاركة من مادة الجهد أي التعب والمشقة «ومن هذه المادة الاجتهاد أيضاً» وصيغة المشاركة تشعر بأن الجهاد عبارة عن احتمال الجهد والمشقة في مقاومة الخصم أو عدو، فلا يدخل في معناه حرب من لا يحارب وقتل من لا يقاتل إذ لا مشاركة في ذلك.

قال الراغب في مفرداته التي شرح بها غريب القرآن أدق الشرح ما نصه:

«الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو (تأمل قوله مدافعة) والجهاد ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر ومجاهدة الشيطان ومجاهدة النفس، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: «٢٢: ٧٨» «وجاهدوا في الله حق جهاده» [سورة الحج رقم ٢٢، الآية ٧٨] - ٩: ٤٠ «وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله» [سورة التوبة رقم ٩، الآية ٤٠] - ٨: ٧٢ «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله» [سورة الأنفال رقم ٨، الآية ٧٢]. وقال صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» المجاهدة تكون باليد واللسان قال ص «جاهدوا الكفار بأيديكم وألستكم» اهـ كلام الراغب. ولا أذكر من أخرج هذين الحديثين ولكن روى الامام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن أنس أن النبي (ص) قال: «وجاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم». وقد ذكر لفظ الجهاد في القرآن بمعنى المعالجة والمكابدة في مواضع لا تحتمل معنى الحرب كقوله تعالى: «وان جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا» [سورة لقمان رقم ٣١، الآية ١٥]. يعني الوالدين. وأكثر أحكام الحرب ذكرت في القرآن بلفظ القتال لأن لفظ الجهاد ليس نصاً في معنى الحرب والقتال، ولم تذكر مادة الحرب فيه إلا قليلاً ولم تسند



الى المسلمين . وكل ما ورد في أحكام القتال في القرآن كان المراد به مدافعة الأعداء الذين يحاربون المسلمين لأجل دينهم منها ما هو صريح في ذلك كقوله تعالى في سورة الحج وهو أول ما نزل في القتال (٢٢ : ٣٩) «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ٤٠ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله» [سورة الحج رقم ٢٢ ، الآيتان ٣٩ - ٤٠]. وقوله في سورة التوبة وهي آخر ما نزل في أحكام القتال (٩ : ١٤) «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة» [سورة التوبة رقم ٩ ، الآية ١٤]. قوله أيمانهم بفتح الهمزة ومعناه عهودهم ، وذلك كما فعلت إيطاليا الآن فهي من الدول المعاهدة وقد نكثت العهد وبدأت بالقتال . ونزل فيما بين هاتين الآيتين آية البقرة (٢ : ١٨٩) «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» [سورة البقرة رقم ٢ ، الآية ١٨٩].

وما ليس بصريح مثل هذه الآية يمكن أن يحمل عليه بقريضة الحال . فإن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان مع من حوله في حرب هم المعتدون فيها وكان يعاهد كل من يقبل معاهدته على ترك الحرب مهما ثقل احتمال الشروط ، وما عاهده أحد من المشركين أو اليهود إلا من علم منهم بأنهم أضعف من المسلمين ، ثم هم الذين كانوا ينكثون عندما يشعرون بقدرة ، ويصادفون غرة ، كما فعلت اليهود غير مرة ، وكما فعلت قريش بعد صلح الحديبية .

ويحمل على ذلك أيضاً ما ورد من النهي عن اتخاذ الكفار أولياء والإلقاء إليهم بالمودة سواء ورد ذلك في المشركين وأهل الكتاب أو عاماً كما صرح بذلك في سورة الممتحنة ، فقد قال تعالى في أولها ٦٠ : ١ (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم» [سورة الممتحنة رقم ٦٠ ، الآية ١]. أي يخرجونكم من وطنكم مكة ويطردونكم منها

بسبب أنكم آمنتم بالله ربكم، فهذه علة أولى للنهي عن ولايتهم أي نصرتهم وعن مودتهم، والعلة الثانية بينها في الآية الثانية فقال: (٦٠: ٢) «ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألستهم بالسوء وودوا لو تكفروا» [سورة الممتحنة رقم ٦٠، الآية ٢].

ثم قال بعد آيات: ٦٠: ٨ «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين، ٩ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» [سورة الممتحنة رقم ٦٠، الآية ٨ - ٩]. فلم يكتف بنفي النهي عن موالاة ومودة غير المقاتلين لنا لأجل ديننا بل أكد لنا حصر النهي في أولئك المقاتلين المعتدين، وحصر الوعيد فيمن يتولاهم، فإن كلمة «إنما» للحصر وجملة «فأولئك هم الظالمون» تفيد الحصر أيضاً.

هذه جملة أحكام القتال في القرآن المتعلقة بمن يقاتلون وهي في منتهى العدل والحكمة، وبيّنا أن لفظ الجهاد فيه ليس مرادفاً للحرب والقتال ولكن الفقهاء اصطالحوا على تسمية القتال جهاداً وهذا اللفظ اللطيف وأخف من لفظ القتال ولفظ الحرب لأن معناه يتحقق ببذل الجهد في مقاومة لا يقتل فيها أحدٌ أحداً، والقتال ليس كذلك إذ لا يتحقق معناه إلا بسفك الدم.

كل هذا واضح وضوح الشمس في رابعة النهار وقد زال من دونها كل سحاب، فمن أين صار لفظ الجهاد الإسلامي هو المخيف الدال على الظلم والبغي والوحشية وذبح الأبرياء من أهل السلم والولاء؟ أليس هذا من تعصب غير المسلمين على المسلمين بتشويه محاسن دينهم وتحريف آياته عن مواضعها، وقلب معانيها وتغيير أوضاعها، أو من الجهل بها على الأقل.

هذا، وإن لغير المسلمين مع المسلمين أربع حالات ينقسمون بها إلى أربعة أقسام: ١ - أهل الذمة وهؤلاء يساويهم الإسلام بأهله في الحقوق ويوجب حمايتهم والدفاع عنهم إذا اعتدي عليهم وسد ضروراتهم، فإذا وجد فيهم من لا يقدر على قوته كفه أمره وكذا غير القوات من الضروريات. ٢ - أهل عهد وميثاق كجميع الدول الآن بعضها مع بعض ما عدا إيطاليا مع دولتنا، فهؤلاء تجب مسالمتهم والوفاء لهم بعهدهم كما هو، حتى إنه إذا حاربهم بعض المسلمين غير الداخلين في جماعتنا العامة التي عاهدتهم واستنصرونا لا ننصرهم كما في الصورة التي بينها الله تعالى في أواخر سورة الأنفال بقوله: (٧٢: ٨) «والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير» [سورة الأنفال رقم ٨، الآية ٧٢].

٣ - أهل أمان وهم الذين يكونون أو يدخلون في بلادنا من المحاربين لنا بالأمان على أنهم لا يعتدون على أحد ولا يعتدي عليهم أحد ويسمّون المستأمنين ويجب الوفاء لهم بالأمان.

٤ - أهل الحرب أو محاربون وأحكامهم طويلة وكل ما ثبت منها في الكتاب والسنة فهو مبني على قواعد العدل والرحمة. ومنه أن لا يقال إلا من يباشر القتال فيمتنع قتال الشيوخ والولدان والنساء ورجال الدين المنقطعين للعبادة.

ومما ورد في ذلك الآية التي أساء في تفسيرها لورد كرومر وكأنه تبع في ذلك بعض القسوس أو السياسيين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه عمداً، تعصباً منهم وبغياً، وهي قوله تعالى: (٤٧: ٤) «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وأما فداء حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن

ليبلو بعضكم ببعض» [سورة محمد رقم ٤٧، الآية ٤] فهذه الآية من آيات الرفق والرحمة في الحرب، والمسلمون متفقون على أن المراد بقوله تعالى: «لقيتم الذين كفروا» لقيتموهم في المحاربة وحاصل معنى الآية أنكم تقتلون من تقدرُونَ على قتله إلى أن تظهرُوا عليهم بالإِثْخان فيهم فعند ذلك اتركوا القتل، واكتفوا بالأسر، وأنتم مخيرون بعد ذلك بين أن تمنوا على الأسرى بإطلاقهم فضلاً وإحساناً، وبين أن تأخذوا منهم فداءً. هكذا يكون شأنكم حتى تضع الحرب أوزارها أي ألقاها أو آثامها. قال «ولو يشاء الله لانتصر منهم» فأمركم بعد الظهور عليهم وإثْخانهم بقتلهم واستئصالهم ولكنه لم يأمركم بذلك بل أمركم بجعل القتل على قدر الضرورة وهو أن تأمنوا شرهم بالظهور عليهم «ليبلو بعضكم ببعض» أي ليختبر بعضكم ويحربه بمعاملة الآخر بما يخالف هواه ويوافق المصلحة، ويتفق مع العدل والرحمة، بجعل الحرب ضرورة تقدر بقدرها. هذا هو معنى الآية التي يشوهون بها جهاد الإسلام، وهي شرف يفتخر به بين منصفى الأنام.

إذا محاسني اللاتي أدل بها      كانت ذنوبي فقل لي كيف أعذر  
طال المقال فزاد عليّ ما قدرت له ويمكنني أن أوّلف في هذه المسألة كتاباً  
حافلاً يفتخر به كل مسلم، ويخذل به كل متعصب سيء النية والقصد،  
وحسبك من القلادة ما زين النحر.

فإذا كان هذا هو الجهاد والقتال في الإسلام وكان كل ما خالفه من حروب ملوك المسلمين خروجاً عن هدي الدين في حروب كلها مدنية لم تقصد بها حماية دعوة الإسلام إذ تركوا الدعوة بعد عصر السلف فلماذا تقوم القيامة على المسلمين كلهم إذا ذكر واحد منهم لفظ الجهاد أو حرفاً مما اشتق منه، ويعد هذا خطراً على النصارى أصحاب الدول الحربية القوية التي تحميهم وتتصر لهم أينما كانوا ولو بالباطل؟ ولماذا يحرض غير المسلمين بعضهم بعضاً على سلب مُلك المسلمين والتنكيل بهم، وينفذون ذلك

بالفعل، ولا يعدونه إثماً ولا حرجاً، وإنما ينحصر الإثم والحرج في الشكوى منه، حتى صار المسلمون أنفسهم يحجر بعضهم على بعض أمثال هذه الألفاظ، التي لا ضرر فيها ولا ضرار، ولا تدل على جواز ذرة من الظلم والعدوان؟

لو كان في كتابنا الإلهي من القسوة في أحكام الحرب مثل ما في التوراة التي في أيدي أهل الكتاب لما كتمناه ولما تبرأنا منه كقوله في سفر تثية الاشتراع (٢٠: ١٦) «وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إهلك نصيباً فلا تستبق منهم نسمة ما» بل يوجد في أناجيلهم من النصوص القاسية ما لا يوجد في القرآن مثله كرواية لوقا عن المسيح عليه السلام في الفصل التاسع عشر ونصها (٢) أما أعدائي الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي» ولفظ الجهاد الممقوت عند القوم ومقلدتهم لأنهم يعدونه إسلامياً يوجد أيضاً في كتبهم كقول مقدسهم بولس (٢ تيم ٢: ٥) لا ينال أحد الأكاليل إلا ويجاهد جهاداً شرعياً) وقوله (١ تيم ٦: ١٢) جاهد جهاد الإيمان الحسن وأمسك بالحياة الأبدية التي إليها دعيت) يقولون إن المراد بهذا جهاد النفس والشیطان، ونحن قد قال علمائنا مثل هذا في جهاد القرآن كما تقدم، وكان سلفنا يسمون جهاد النفس الجهاد الأكبر، وجهاد العدو الجهاد الأصغر، وروي هذا عن الصحابة رضي الله عنهم.

إني أختتم مقالي هذا بذكر شيء مما يقال فينا، وما يحرض به علينا، وأعيد المسلمين منذ وجدوا إلى اليوم وإلى آخر الزمان من مثل ذلك.

جاء في العدد ٨٤٣ من جريدة وقت الروسية التي صدرت في ١٨ سبتمبر (أيلول) بالحساب الشرقي ما ترجمته:

جاء في برقية من بودابست أن فمبيري المستشرق المشهور كتب مقالة في جريدة بودابست هيرلاب قال فيها: إن حماية الإسلام بعد الآن خطأ لا

يفيد فائدة ما، وهو سيفنى البتة ولا يستحق غير الإفناء، المدنية توجب أن تنقرض من ممالك الإسلام عدوة المدنية. المسلمون قوم لا طبيعة لهم ولا يعرفون كلمة الطبيعة، هم يعبدون ولكن لا يعملون، ولا شيء فيهم من الحياة غير شعورهم الديني، وليس لهم مسلك (مبدأ) ولا مقصد. ولا ينبغي أن تهتم جد الاهتمام بدستور تركيا، فإن حالها الآن شر مما كانت عليه، واحتمال حياة ثلاثمائة مليون مسلم خيال باطل لا شائبة للحقيقة فيه. اهـ.

وقد تعجبت جريدة وقت من قول فمبري هذا لأنه مشهور بحبة الترك والمسلمين. وقالت إنه يجب التأمل فيه، ونحن نقول إذا كان هذا قول من يحبنا منهم فهل يقول أحد من المتهمين منا بالتعصب وبعض الأغيار مثله أو قريباً منه.

يقولون يجب إعدام هؤلاء الملايين من المسلمين باسم المدنية، وفي روسية ملايين من النصارى هم أبعد عن المدنية من مسلميها ومسلمي العثمانيين، فلماذا يجب لهم البقاء؟ إذا كان مثال المدنية ما فعلته إيطاليا فالصلاة والسلام على التوحش والهمجية.

بل قال بعض أساطين السياسة مثل كلام هذا المستشرق أو أشد، منهم الأستاذ مكسيليان هاردن صاحب جريدة زنكفت النمسية. قال في خطبة له أرسل ملخصها مكاتب التيمس في فينا إلى جريدته فنشرت فيها «إنه لا توجد دولة تقدر أن تساعد الحركة الحاضرة التي تسوق الإسلام إلى الوراء، ثم قال إن الإسلام دين خطر وبقاؤه خطر وإني على رأي أن كل ولاية أخذت من الإسلام فهي غنيمة للدول الأوروبية».

هكذا يقولون جهراً في خطبهم وجرائدهم ولا نزال نغش أنفسنا بقول الذين يسخرون منا من الإفرنج والمتفرنجين بزعمهم أن هذه الحرب لا علاقة لها بالدين ولا يقصد بها المسلمون لأجل دينهم.

يقولون المنكر ويفعلونه، ويمدحون أنفسهم عليه، ونقول الحق فنلعن عليه ونهدد. ولا ندري ماذا بقي عندهم من التهديد فنخافه، أولئك عبيد القوة القاهرة ولو أننا أقوياء لما سموا حقناً باطلاً، بل كانوا يسمون ما ربما تدفعنا إليه القوة من الباطل عين الحق ولباب الفضيلة، والإسلام نفسه هو المظلوم المهضوم بيننا وبينهم. نحن تركنا هدايته وجنينا عليه، وهم جعلونا حجة عليه، حتى أقنعوا أبناءنا الذين تولوا تربيتهم المادية الشهوانية وتعليمهم الفاسد في مدارسنا ومدارسهم بأن يلصقوا ذنوبهم بالإسلام ويصدون عنه على علم أو جهل.

إذا عوقب جناة النصارى أو تعقبت عصاباتهم الثورية في مكدونيا قامت أوروبا لهم وقعدت، وأرغت وأزبدت، وإذا أظهرنا التألم من تدمير مدافعهم لبلادنا، وحصدها لإخواننا، نلن على تعصبنا، فإلى متى يبغى الأقوياء، وينخدع الأغبياء، ربنا افصل بيننا بالحق وأنت خير الفاصلين،

في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٢٩ هـ [١٩١١/١٠/٢٥ م]

## ما يجب من إعانة الدولة العلية بإنجاد طرابلس الغرب

[المنار ج ١٥ (١٩١٢) ص ٤٠ - ٤٨]

(٩)

سیرت دولة إيطاليا أساطيلها كلها وجيشاً عرمرماً من جنودها المنظمة إلى طرابلس الغرب، لمحاربتها في البر والبحر، والاستيلاء عليها بالبغي والقهر، وإلباسها لباس الخوف والجوع، وأهانت الدولة العلية صاحبة ذلك القطر بمساومتها في بيعها وحملها بالتهديد والوعيد في الإذعان لاحتلال الجيش الإيطالي فيها.

طمعت دولة إيطاليا المغرورة في تلك البلاد لإهمال دولتها أمرها،  
وتقصيرها في إقامة المعادل والحصون في برها، ووضع الحامية القوية فيها،  
وفي بث الألغام وأنابيب التدمير في بحرها، فانقضت عليها بأساطيلها  
وجنودها، وصبت عليها جحيم قهرها، وقطعت عنها موارد الرزق، في  
عام وباء ومجاعة وقحط، فأصبح أهل تلك البلاد يحاربون دولة عاتية،  
باغية قاسية، لا ترحم امرأة ضعيفة ولا شيخاً كبيراً، ولا طفلاً صغيراً،  
ويصارعون جوعاً ديقوعاً دهقوعاً، ويصابرون وباءً مريعاً، فهم أحق  
خلق الله بعطف الكرماء، ورحمة الرحماء، وإعانة الواجدين، وإغاثة  
القادرين.

نعم، إن الدولة العثمانية هي صاحبة هذه البلاد المرزوة بقسوة  
الطامعين، وهي التي يجب عليها إغايتها وإمدادها قبل كل أحد، ولكن  
حيل بينها وبين إنجادها إن أرادته، فلا أسطول قوي تنجدها به بحراً، ولا  
أوروبا تمكنها من إنجادها برأ، وإذ كانت الدولة عاجزة عن القيام بهذا  
الواجب انتقل الوجوب إلى من قدر عليه، وأقدر الناس عليه أهل مصر  
فصار متحتماً عليهم بحق الجوامع الست التي تتعاطف الجمعيات البشرية  
لا بجامعة واحدة منها، وإننا نبين هذه الجوامع الست ونبدأ بالأعم منها  
فنقول:

### الجامعة الأولى: الإنسانية

خلق الناس ليعيشوا بالتعاون فهو معيار ارتقائهم، وميزان مدنيّتهم،  
فكلما عمّ كانت المدنية أعم، والارتقاء أشمل، و«خير الناس أنفعهم  
للناس» كما ورد، وللتعاون أسباب أعمها التعارف، وقد قال تعالى: «يا  
أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»  
[سورة الحجرات رقم ٤٩، الآية ١٣]. وإن سهولة طرق المواصلات وتعدد وسائلها  
زاد في تعارف الناس وتعاونهم، فلا تقع الآن نكبة كبيرة في قطر من



الأقطار إلا ويسارع أهل الأقطار الأخرى إلى إعانة أهله وتخفيف مصيبتهم، ومن الشواهد القرية العهد على ذلك عطف المصريين على الإيطاليين الذين نكبوا بالزلازل والبراكين في صقلية وميسيني<sup>(١)</sup> فقد نظمت في ذلك القصائد العربية المؤثرة، وجمعت الإعانات المالية، وأرسلت إلى الحكومة الإيطالية.

لو حكمنا العقل المجرد من الهوى في أحق الناس أن تبذل لهم المعونة، وتمد إليهم سواعد المساعدة، :الذين نكبوا بالجوائح الطبيعية، أم الذين نكبوا بظلم إخوانهم البشر لهم، وقهرهم إياهم، واعتدائهم على حريتهم واستقلالهم؟ لحكم حكماً عادلاً بأن هؤلاء المظلومين أحق بالمعونة، وأجدر بالمساعدة، ولرأينا من أسباب هذا الحكم «حيثياته» إن مساعدة المظلوم وإعانتته على ظالمه أكبر خدمة للإنسانية وأعظم نفعاً للبشر، لأن فائدتها مزدوجة، ونفعها يتعدى من المظلوم إلى الظالم بكفه عن ظلمه ومؤاخذته عليه، وبذلك يقل الظلم والعدوان بين الناس حتى يكونوا إخوة في الإنسانية، وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وسلم «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً إن يك ظالماً فاردده عن ظلمه، وإن يك مظلوماً فانصره» رواه بهذا اللفظ الدارمي وابن عساكر عن جابر، وفي رواية أحمد والبخاري والترمذي عن أنس أنه قال «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فستل قبل إتمام الحديث كيف أنصره ظالماً؟ قال «تجزه عن الظلم فإن ذلك نصره».

فبحق هذه الجامعة يجب على كل إنسان يؤثر حب الإنسانية على العصبية المفرقة والهوى والطمع المفسدين للأخلاق أن يساعد أهل طرابلس ودولتهم، على كف ظلم إيطاليا وبغيها عنهم، أو على تخفيف مصيبتهم على الأقل، ولولا المطامع، والمبادلة والمعاوضة في المنافع، لما

---

(١) هكذا ضبطها العرب أيام استعمارهم لها ومن ذلك قول شاعرهم فيها \* من ذا يمسيني على مسيني \* ويقولون الآن مسينا تبعاً للإفرنج.

أقرت أوروبا هذه الدولة على بغيها وظلمها، مع اعتراف المنصفين من جميع شعوبها ببغيها وطغيانها، وإنه ليجد في كل شعب أوروبي كثيرون من أهل الأنصاف وحب الإنسانية، ولولا أن حكوماتها وجرائدهم تحادعهم لما كانوا يسكتون عن الانتصار لأمثال هؤلاء المظلومين، على أنه وجد في إنكلترا كثيرون قد عرضوا أنفسهم على السفارة العثمانية للتطوع في جيشها الذي يحارب إيطاليا، ومع هذا نرى فينا من ينكر مثل ذلك منا نحن المشاركين لأهل طرابلس في الجوامع الست كلها.

### الجامعة الثانية : الشرقية

الناس كلهم إخوة في الإنسانية والأخوة قد يختلفون على المنافع، ويغلب طمع القوي منهم على ما تطالبه به الفطرة وعاطفة الأخوة من التسامح والإيثار، بل من العدل والإنصاف، فيتفرقون ويختصمون، ويستعين بعضهم على بعض، ويقع الخصام والعدوان بين الجماعات كما يقع بين الأفراد، وهذا هو السبب في تكوين عصبية الجامعات المختلفة. فقد كانت وما زالت الشعوب والقبائل والأمم والدول تتخالف وتحالف، وتتنازع وتتصارع. والأصل في هذه العصبية، الاشتراك في الصفات والمقومات التي تقتضي التآلف ومقاومة المخالف فيها كالنسب والوطن واللغة والحكومة والدين والعادات والآداب، وكلما كان ما به الاشتراك أكثر، كان التآلف والتعاطف أعم وأشمل. فالمشتركون في النسب قد يخاصمون الغريب عن نسبهم من أبناء لغتهم ووطنهم ودينهم، وكذلك أهل الوطن واللغة مع الغريب عنها المشارك في غيرهما مثلاً، وعلى هذا المنهج تصغر العصبية وتكبر.

كثر ما به الاشتراك بين أهل أوروبا فهم مشتركون في الدين والعادات العامة، والأحوال الأهلية والاجتماعية، وطرق الكسب، وفنون الحرب، ونظام الحكومة. وأكثر خواصهم يعرفون من لغاتهم الكبرى ما يتخاطبون

بها مع الآخرين ويقرأون جرائدهم وكتبهم، وينقل بعضهم عن بعض في كل يوم كل أمر ذي بال، وينشرونه للجمهور في جرائدهم، فيشعر كل شعب منهم بما يشعر به الشعب الآخر من مؤلم أو ملأثم، فهم بهذه الأمور كلها عصبية واحدة على من يخالفهم فيها، وقد اتحدوا بها على المخالفين فصار العالم كله، أو ما يعبر عنه بالعالم القديم إذا استثنينا أميركا، عصبيتين يعبر عن إحداها بالغرب ويراد به أوروبا الطامعة، وعن الأخرى بالشرق ويراد به آسيا وأفريقيا المطموح فيهما. وكان الأولى أن يقال الجنوب والشمال مكان الشرق والغرب، ولكن لا مشاحة في الاصطلاح كما يقال.

يرى كثير من الكتّاب والمؤرخين أن المراد بالشرق الإسلام وبالعرب النصرانية ولكن المختبرين من علماء نصارى الشرق الذين عرفوا كنه سياسة أوروبا ورأوا سيرتها في مستعمراتها يعلمون أن أوروبا تحتقر جميع الشرقيين ولا تعد النصارى منهم أهلاً لمساواة الأوروبيين في شيء، وأن أية دولة من دولها تستولي على بلاد شرقية تحتقر جميع أهلها، وتستعلي عليهم بعظمتها الجنسية، لأنها ترى أن الأوروبي يجب أن يكون سائداً لأنه أوروبي، وأن الشرقي يجب أن يكون مسوداً لأنه شرقي.

لا يزال الشرق ضعيف التماسك جاهلاً أنه مُضطهد من الغرب كله وأنه يجب عليه التناصر لدفع سيل الغرب الأتّي وعدوانه المخشي، وقد رأينا الخبيرين بكنه هاتين الجامعتين من شبان النصارى الأحرار في مصر وسوريا يميلون كالمسلمين إلى انتصار اليابان الوثنية، على روسية النصرانية، يوم وقعت الحرب بينهما، فإذا مال هؤلاء الأذكياء إلى ظفر طرابلس الغرب الشرقية المظلومة، وانتصارها على إيطاليا الغربية الظالمة، فذلك أولى، بل لا يكفي أن يميلوا ويعطفوا، دون أن يساعدوا وينصروا، فالأقربون أولى بالمعروف.

### الجامعة الثالثة : الجامعة العثمانية

أهل الولايات العثمانية البحتة والممتازة والمستقلة في إدارتها مختلفون في الأجناس والأديان، واللغات والعادات، وليس في استطاعة أهل ولاية منها أن يكونوا دولة قوية تحمي نفسها من أوروبا إذا صالت عليها بجيشها وأساطيلها، ومصر في ذلك كغيرها. فإن كانت أغنى وأعلم، فهي أضعف في الحرب وأعجز، فمن مصلحة الجميع تأييد الجامعة العثمانية، وإصلاح حال الدولة العلية، وهذا الإصلاح يتوقف على شكل الحكومة الذي يعبرون عنه باللامركزية، وهو ما ستصير الدولة إليه، ولا بقاء لها بدونه، إذ هي سلمت من كيد أوروبا لها، وحالت سياسة التنازع دون التعجيل عليها، سلمها الله تعالى وكفها كيد الكائدين، وحينئذ تكون الولايات العثمانية كالولايات الجرمانية أو الولايات المتحدة كل منها داخل في إدارتها الداخلية، ومشتركة مع سائر الولايات في السياسة العامة وقوة الجيش والأسطول، إلخ.

فعلى العثمانيين في جميع الولايات من جميع العناصر والملل أن يستمسكوا بعروة العثمانية ويبذلوا النفس والنفيس في حفظ كيائها، وتأييد سلطانها، والفرصة الآن سانحة فينبغي اغتنامها، وما ذاك إلا بمساعدة أهل طرابلس العثمانيين على حفظ أنفسهم وبلادهم وبقائهم عثمانيين مثلنا، متصلين في ظل هذه الجامعة بنا، وأخص غير المسلمين من العثمانيين بتأييد هذه الجامعة، واغتنام هذه الفرصة السانحة، فإنهم بذلك يوثقون عرى الاتحاد بينهم وبين إخوانهم في الوطن والعثمانية توثيقاً لا تجهل فائدته.

أين العقلاء الأذكياء من نصارى السوريين والقبط ومن اليهود؟ أين الذين يقولون منهم إننا نود أن نجعل الرابطة الوطنية أو السياسية أقوى في أمور الدنيا من الرابطة الدينية، ألا يعلمون أن إيجاد هذه الرابطة أو توثيقها وتقويتها من نتائج الأعمال، لا من نتائج الأقوال، إن كُتاب المقطم والأهرام في مصر وبعض كتّاب اليهود في جريدتهم جون ترك قد أظهروا

ميلهم إلى الدولة وضلعمهم على إيطاليا، فشكرنا لهم ذلك، ولكن لماذا نطق بعض أرباب الأقلام، وسكت أرباب الأموال، فلم يسمع لهم صوت بكلمة التبرع لإعانة الحرب يذكر، ولا لمساعدة جمعية الهلال الأحمر.

قال بعض غلاة التعصب الديني من السوريين إن النصارى لا يدفعون إعانة في حرب سماها بعض كتاب المصريين جهاداً دينياً مع دولة مسيحية، ولست أرى هذا عذراً صحيحاً لمن لم يصل إلى درجة الشيخ يوسف الخازن صاحب جريدة الأخبار في بغض المسلمين والتعصب عليهم، وإغراء الإفرنج بهم، فإن دفاع أهل طرابلس الغرب عن أنفسهم يسمى في اللغة العربية وفي اصطلاح الشرع جهاداً يوجبه الدين. فإذا كنتم لا تساعدون أهل طرابلس في مصابهم إلا إذا غيّرنا وضع اللغة وعرف الشرع فما أنتم بمساعدين، لأن هذا التغيير ليس في استطاعة أحد من العالمين، على أن إعانة جمعية الهلال الأحمر ليست إعانة لمسلمي طرابلس على مدافعة نصارى إيطاليا بل هي إنقاذ كل من يمكن إنقاذه من الجرحى والمصابين بنكبات هذه الحرب ولو كان إيطالياً باغياً، ولكنهم باسم العثمانية وتحت هلال علمها، فما بالكم تقبضون أيديكم عنها.

إن نصارى السوريين المقيمين بمصر وأمريكا هم أرقى السوريين علماً وأدباً، وأكثرهم فضة وذهباً، وأوسعهم مروءة وكرماً، وأشدّهم نجدة وشملاً، وإني لأنتظر منهم البرهان الناصع على تأييد الجامعة العثمانية، وتوثيق الرابطة الوطنية، بل سمعت هنا حسيس همساتهم، وخفي مناجاتهم، يأتّمرون بينهم، ويتحفزون للمكرمة اللائقة بهم، وكأني بها وقد ظهرت في مصر، وإن ظهورها في أمريكا لأدل على الفضل والنبيل.

#### الجامعة الرابعة: جامعة اللغة العربية

الإنسان حيوان ناطق، فالنطق أظهر مقوماته التي بها امتاز على سائر أنواع الحيوان، وارتقى في مدارج العلم والعرفان، وإن صحبتك لمن لا

تعرف لغته لا تبعد عن صحبة الحيوان الأعجم، فأنس الإنسانية والاستفادة من مزاياها بالتعاون لا يتم إلا بالكلام فلهذا كانت اللغة أقوى الروابط بين البشر في المصالح والمنافع والترقي الصوري والمعنوي.

رابطة اللغة تشبه نعمة الهواء والماء والصحة في كونها لا يشعر المرء بقيمتها ومنفعتها في حال التمتع بها، ولا أقول لك تصور فضلها، بتخيل فقدها، بل أقول لك تخيل أنك هبطت بلداً لا تعرف لغة أهله، وأحاطت بك الحيرة من كل جانب في كل معاملة تعاملهم بها، ثم ظفرت فيه بمن يعرف لغتك، ماذا يكون قدر سرورك واغترباطك به وحنينك إليه، واستفادتك منه، ولا سيما إذا كان من أهلها غير دعيّ فيها؟

إن أهل طرابلس الغرب، لهم على أهل البلاد التي تحيط بهم من الشرق والغرب، حق جامعة اللغة التي يبذل الأوروبيون الملايين لنشرها في جميع بقاع الأرض، وما هي هذه اللغة التي يشاركون فيها أهل طرابلس؟ ومن هم أهلها؟ وما أشهر صفاتهم؟ تلك اللغة هي العربية الشريفة، وأهلها هم العرب الكرام الذين اشتهروا في العالم كله بالسخاء والكرم، حتى صار السخاء العربي والكرم العربي مما يضرب به المثل. وقد كان من سخاء بعض أجدادنا أن أعطى سيفه لخصمه في الحرب إذ طلبه منه، واختار تعريض نفسه للقتل، على الإمساك والبخل، ومنا من قيل فيه بحق:

فلو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله

فهل يليق بأمة هذا شأنها في الجود والسخاء، أن يرى أغنياؤها المدافع تحصد إخوانهم، وتهدم بنيانهم، والجوع يقتال أطفالهم ونسوانهم، ولا يواسونهم ببعض ما أنعم الله عليهم من الرزق الواسع، والمال الكثير؟

الجامعة الخامسة: جامعة الجوار

للجوار حقوق كحقوق القرابة قضت بها الفطرة البشرية، وأيدها

الشريعة الإلهية، فمن شأن الجار أن يشعر بكل ما يشعر به جاره ويشاركه فيما يسر منه وما يسوء، فإذا فرح أطربه صوت غنائه، وإذا حزن أحزنه نشيج بكائه، وإن وقع الحريق في داره، أصابه شواظ من ناره، وقد أوصى الله بالجار في كتابه، وفي حديث الصحيحين والسنن «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

ألا وإن جوار الشعوب والبلاد، كجوار البيوت والأفراد، وإننا نرى الدول الطامعة قد تواطأت على إعطاء الجار القوي حق سلب جاره الضعيف، فكانت إنكلترا والروسيا، هما السالبتين لاستقلال الدولة الإيرانية، وفرنسا وإسبانيا هما السالبتين لاستقلال الحكومة المراكشية.

ألا وإن لطرابلس الغرب حق الجوار على مصر وتونس، ومصر أقدر على إعادتها من تونس، لأنها أوسع ثروة وحرية، ومن مصلحتها السياسية أن لا تستقر قدم إيطاليا الغادرة في أرض جارتها وأختها طرابلس لأن الإيطاليين جيران سوء، وأصحاب بغي وغدر، فإذا قدر لمصر أن تخرج من سيطرة الإنكليز لا تأمن على نفسها والإيطاليون في طرابلس من اعتدائهم عليها بمحض البغي والعدوان، ودعوى أنها أحق بها لمصلحة الجوار.

#### الجامعة السادسة : الجامعة الدينية

الدين هو صاحب السلطان الأعلى على الأرواح، والحاكم المتصرف في العزائم والإرادات، ورابطته أقوى الروابط وجامعته أعم الجامعات، فالمسلم الهندي الذي لا تجمععه بالمسلم العثماني جامعة نسب، ولا لغة ولا وطن، ولا منفعة مادية أو سياسية، يغار عليه ويألم لألمه ويحزن لمصابه، ما لا يغار ويألم المشارك له فيها عدا الدين من الجامعات، فلا عتب إذاً على المسلم إذا فضل أخاه البعيد في الإسلام على أخيه القريب في الوطن أو اللغة أو الجنسية السياسية، وهو يراه أشد حباً له وحباً وعظماً وحناناً عليه

من هذا الأخ القريب، ولكن تفضيل ذاك لا يقتضي التقصير في حق هذا.

روى أحمد ومسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وفي حديث الصحيحين عن أبي موسى الأشعري «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وهذان الحديثان وأمثالهما تفسير لقوله تعالى: «إنما المؤمنون اخوة» [سورة الحجرات رقم ٤٩، الآية ١٠]. وقوله تعالى: «رحماء بينهم» [سورة الفتح رقم ٤٨، الآية ٢٩].

غلب على المسلمين الجهل بدينهم وترك جماهيرهم هدايته، ومزق نسيج اتحادهم ما كان من اختلافهم في المذاهب: هذا شيعي يعادي سنياً، وهذا أشعري يعيب حنبلياً، وهذا جهمي يكفر وهابياً، واحكم على العكس بحكم الطرد ثم مزقته أهواء السياسة ونزغات التفرنج، بما أحدثت بينهم في هذه الأزمان، من التفرق في الأجناس والأوطان، ومع هذا كله نرى بصيصاً من ذلك النور الإلهي لا يزال يلوح بين أفئدتهم مشرقاً من أفق الكتاب العزيز والسنة النبوية، عندما تصب عليهم المصائب، وتنتابهم النوائب، فبنوره يبصرون، وبحرارته يتعاطفون، فبينا نرى التركي يحتقر العربي ويحاربه، والآخر تارة يعاتبه وأخرى يواثبه، إذا بهما بعد هنيئة متحداً يفدي أحدهما شرف الآخر وحقه بدمه وماله. بالأمس كانت الدماء تتفجر من سيوف الترك والعرب في اليمن، واليوم نسمع عرب اليمن ونجد ينادي زبديهم وشافعيهم ووهابيهم الآستانة: إننا مستعدون لبذل أنفسنا في سبيل حفظ سيادتكم على إخواننا عرب طرابلس الغرب.

إن جميع الأمم والملل لتعجب من قوة هذه الرابطة الإسلامية على ما وصل إليه المسلمون من التقاطع والجهل، وإن أعداء الإسلام دائبون في اتخاذ الوسائل لنكت فتلها، ونقض غزلها، ولهم من ملاحدة المسلمين



أعوان على ذلك ربوهم على كراهة هذه الرابطة الشريفة، وأقنعوهم  
بوجوب استبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بها، فهم يعملون لأعدائهم  
ولا يشعرون.

بهذه الرابطة المقدسة نرى المسلمين يسيطون أيديهم لمساعدة إخوانهم في  
طرابلس على الدفاع عن أنفسهم، لا يمتنع منهم عن المساعدة إلاّ العاجز  
عنها لفقره أو جهله بطريقها، أو منع حكومته له منها، وبهذه الرابطة نعلم  
الجاهل، وننبه الغافل، بل لا ينبهنا إلاّ المصائب، ولا يعلمنا إلاّ النوائب،  
فهى التي ستعيد إلى الجامعة الدينية قوتها، حتى تصدر عنها آثارها اللاتئة  
بها، وما هي إلاّ العدل والفضل، والمدنية المطهرة من أدران البغي  
والغدر، واستباحة الفجور والفسق.

\* \* \*

كل جامعة من تلك الجامعات الست كافية لبسط اليد في إعانة أولئك  
المنكوبين المظلومين، فكيف إذا اجتمعت كلها وتحققت في مثل مسلمي  
مصر؟ أفلا يكون الذي يبخل منهم جانباً على تلك الجامعات كلها:  
الإنسانية والشرقية والعثمانية والحوارية واللغوية والإسلامية؟ بلى. فيا أيها  
المسلمون - وأخص مسلمي مصر بالذكر - أنتم أهل النجدة، وأجدر  
الناس بتفريج هذه الشدة، إعلموا أن لله عليكم فيما أوجبه من زكاة  
أموالكم سهماً للمجاهدين في سبيل الله وهي سبيل الحق والعدل. وأفضل  
الجهاد الدفاع عن النفس والوطن، ومقاومة البغي والعدوان، وهو ما  
وجب على إخوانكم وجيرانكم من أهل طرابلس. فأعينوهم يعنكم الله  
ويغفر لكم ذنوبكم.

أيها المسلمون، إن دينكم يوجب عليكم إغاثة المضطر ولو كان كافراً  
غير محارب لكم، بل يوجب عليكم إغاثة الحيوانات المضطرة إلى القوت  
وكل ما يقيها الهلاك، وقال نبيكم صلى الله عليه وسلم «في كل ذات كبد

حرى أجر» (رواه أحمد وابن ماجة بسند صحيح) فما بالكم إذا كان المضطر من إخوانكم وجيرانكم كأهالي طرابلس الغرب، الذي قطعت إيطاليا عنهم جميع موارد الرزق، «لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً» [سورة الطلاق رقم ٦٥، الآية ٧]. «فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» [سورة التباين رقم ٦٤، الآية ١٦].

## خاتمة المقالات، شجون ومحاورات

[المنار ١٥ (١٩١٢) ص ٤٨ - ٥٥]

(١٠)

لكل شيء مآدح وقادح، ولكل كلام مقرظ ومنتقد، ولقد رأيت أن أختتم هذا المقال بشكر الراضين عن مقالات المسألة الشرقية، والاعتذار عما اقترحوا، وتفصيل القول في نقد الناقدين والعفو عما اجترحوا.

رأيت أكثر من عرفت راضين عن هذه المقالات ناقلين أحاديث الرضاء بل الإطراء عن غيرهم، معتقدين أنها مثلت الحقيقة، وبيّنت الطريقة، واقترح بعضهم ترجمتها ونشرها ببعض اللغات الأوروبية، وبعضهم طبعها على حدّتها باللغة العربية، شافهنّا بذلك كثيرون، وكاتبنا به قليلون، فنشكر لهم ذلك ونعتذر عن طبعها على حدّتها، ولكننا ننشرها في مجلّتنا المنار. وعن ترجمتها: ولكننا نأذن بالترجمة وطبعها بغير العربية لمن شاء ذلك.

أما الساخضون فهم أعداء الدولة والملة، وأنصار إيطاليا الباغية، وأما المنتقدون فمنهم المخلص في انتقاده، المستقل في رأيه مع احترام رأي غيره، ومنهم غير ذلك، وقد كانت تظهر أمارات وعبارات السخض من بعض الجرائد الإفرنجية وجريدة الأخبار العربية، وكتب إلينا رئيس جمعية

قبطية (بأبي حنظل ومصر والاسكندرية) كتاباً قال فيه : «خط يراعك كلمة شلت يد كاتبها الذي يصف قوماً أعزاء كرماء وصفوا بالصلاح والتقوى والإنسانية (لا التوحش كما تقول) وحب الخير (يعني الإيطاليين) بأنهم متوحشون وإنك تعلم أيها الفيلسوف الكبير أنه لا يقدر على الحكم على قوم إلا من كان منهم (؟) وإن تكن إساءة الدخيل الذي أوجدناه من العدم (؟) وفتحنا له صدورنا ورفعنا له اسماً ومناراً لا تحتل<sup>(١)</sup>!! ثم قال الكاتب إنه يعفو عن ذنبي هذا الذي أسأت به إلى المصريين (بزعمه) وأنا دخيل فيهم . هذا ملخص ما كتبه والعقلاء المنصفون يعرفون أننا أحق بالعفو عن إساءته إلى الآخر، وقد ظهر بعد أن أشرنا إلى وحشية الإيطاليين بزمان غير بعيد أن الجرائد في جميع الممالك الأوروبية والأمريكية وافقتنا على قولنا وأيدته بروايات مراسليها في طرابلس الغرب، وبتصويرها لعدوانهم الوحشي على النساء والأطفال والشيوخ وتقتيلهم والتمثيل بهم . وإنني قد عفوت عن ذلك الساخط الساخر الساب الشاتم، بعد أن ظهر أنني على الحق وهو على الباطل .

وبعد هذا وذاك أذكر جميع ما بلغني من الانتقاد في محاورة مع منتقد، وهو من عدة مصادر، وأجيب عنه : قال لي صديق لا أرتاب في إخلاصه إنك قد اشتهرت في الاعتدال فيما تكتب وأراك قد بالغت في هذه المقالات - أو قال تطرفت - حتى شايعت العلم والمؤيد في ذكر الجهاد والحرب الدينية وأنحيت باللائمة على أوروبا كلها، وهذه السياسة ضارة بنا .

فقلت له إن صورة البغي المنكرة التي فاجأتنا بها إيطاليا قد كانت صاخّة أصمّت المسامع، وقارعة صدعت القلوب، وإن ما تضمنته من مخالفة حقوق الدول وإبطال العهود الضامنة لسلامة دولتنا، وما أجابت به الدول الكبرى حكومتنا حين راجعتها في ذلك من أنها على الحياد، لا

---

(١) النار: لم يشترك القبط في النار ولم يساعد أحد منهم صاحبه في شيء ولم يسمع من أحد منهم كلمة خير فيه إلا شتم جرائدهم له وهو لم يذكر أحداً منهم بسوء، فكيف لا ينجل قائلهم من مثل ما قال وهو ما لا يقوله صادق من المسلمين؟

تعارض إيطاليا في نسخ القانون الدولي وإبطال المعاهدات، كل من هذا الجواب وذلك العدوان الصريح قد دلّنا وأشعرنا بأننا مهددون بزوال دولتنا، وذهاب ما بقي من ملكتنا، وبأن القوم قد اتفقوا على حل المسألة الشرقية حلاً سريعاً حالاً إذا لم يروا فينا من الحياة ولوازمها ما يقتضي التلبث في ذلك والرجوع عنه، فقل لي بحقك ماذا يخاف الذي أنذر بزواله من الوجود إذا هو دافع عن نفسه بكل ما يستطيع؟ أليس كل ما دون الزوال أسهل منه؟ ألم يصدق علينا في هذه الحال، قول شاعرنا الذي سار مسير الأمثال «أنا الغريق فما خوفي من البلل»؟ بلى، إنني بتأثير هذه القارعة التي ظهر أن أوروبا متفقة عليها أردت أن أبين لأوروبا نفسها ولجميع العثمانيين والمسلمين أننا نعتقد أن أوروبا كلها تكون خصماً لنا إذا ساعدت إيطاليا علينا، ومكّنتها من كل ما تريده من البغي والعدوان على بلادنا.

كتبت هذا معتقداً أن تذكير المسلمين في جميع بقاع الأرض بما أوجبه الإسلام في مثل هذه الحال، وظهوره أثر هذا التذكير فيهم - هو أرجى ما نرجو من أسباب حذر أوروبا من مساعدة إيطاليا على كل ما تريد من بغيها، واستمالة الدول الذي يهملها إرضاء المسلمين وحسن اعتقادهم فيها، وأولاهن بذلك إنكلترا ثم فرنسا وروسيا المتفتحتين معها في السياسة والمصلحة، وكل واحدة من هذه الدول الثلاث مستولية على عشرات الملايين من المسلمين. وقد صرحت بمقصدي هذا في المقالات الأولى ولم أقطع الأمل من مساعدة كل الدول.

قال صديقي المنتقد إن المسلمين الراضين تحت سيطرة هذه الدول كلهم ضعفاء بالجهل والتفرق، فالدول إذا أرادت إنقاذ هذا الأمر (حل المسألة الشرقية) لا تبالي رضاهم ولا سخطهم، إذ لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً، قلت إني لا أرى هذا الرأي، بل إنها تبالي وتهتم أشد الإهتمام برضاهم، وتحسب ألف حساب لسخطهم، إذا كان سببه اعتقادهم أنها تريد إزالة دولة الخلافة وإبطال حكم الإسلام من الأرض.

إن رأيك هذا يشبه رأي لطفي بك السيد مدير الجريدة إذ قال إن إظهار مسلمي مصر لعواطف الميل إلى الدولة العلية وإعانة أهل طرابلس على حرب عدوهم ينافي مصلحة مصر، فهو من ترجيح سياسة العواطف على سياسة المنافع، التي تتبعها كل العقلاء من أمم المدنية ودولها، وأنا أرى أن العواطف والمنافع متفقة في هذه الحال. فإذا جرى جميع المسلمين على ما طالب لطفي بك به المصريين، وعلمت دول أوروبا أن تقسيم بلاد الدولة العثمانية بينهن لا يهيج لمسلم عاطفة، بل يرى كل شعب منهم أن رضاه بزوال هذه الدولة عين المنفعة له والمصلحة، فإنها لا تتلبث بقسمة هذه البلاد إلا ريثما تتفق على توزيع الحصص، وليت شعري ما هي المنفعة التي تنالها مصر من هذا التقسيم، وما وجه الرجاء في بقاء غرفة واحدة من غرف دار قلعت من أساسها، وخرت سقوفها على أهلها، وأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وعن أيماهم وشيئهم.

قال المنتقد: أما ينبغي أن نخاف أن تشدد أوروبا وطأتها على المسلمين، إذا هم أظهروا العطف على الدولة يباعث الدين؟ قلت إنني لا أرى هذا الخوف في محله، ولو فعلت أوروبا ذلك لكان أنفع للمسلمين، فإنه لا شيء يربي الأمم ويجمع كلمتها مثل الضغط عليها في وقت تهيج شعورها، ومصادرتها فيما يتعلق باعتقادها، على أن كل بلاء يمكن أن يحل بالمسلمين في مثل هذه الحال يجب أن يحتل في سبيل الدفاع عن كيان الدولة كما فهمت من جوابي السابق. - الخوف من الذل مجلبة للذل، وإنما السلامة في الشجاعة لا في الجبن، ولكن:

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم وأقول الآن إن ما جرينا عليه، ووجهنا النفوس إليه، من كون عدوان إيطاليا يعد طرقاً لباب المسألة الشرقية، قد ذكر بعد ذلك في كثير من الصحف الشرقية والغربية. وإن ما ارتأيناه من تحريك شعور المسلمين لاتقاء الخطر به قد وافقنا فيه العارفون بالسياسة من المسلمين المقيمين الآن

في عواصم أوروبا ومسلمي الهند وتونس وغيرهم، وأشهر هؤلاء القاضي أمير علي الشهير. وكان من مسلمي الهند ورأس الرجاء الصالح أن عقدوا الاجتماعات الكثيرة لإظهار استيائهم وتآلمهم لحكومتهم ومطالبتها بالسعي إلى منع هذه الحرب الجائرة ومساعدة الدولة العلية.

وكان من تأثير ذلك أن إنكلترا لم تضغط على مسلمي مصر، وفرنسا لم تضغط على مسلمي تونس والجزائر، ولم تمنعهم هذه ولا تلك من جمع الإعانات لإخوانهم مسلمي طرابلس حتى إن جرائد إيطاليا قد رفعت عقيرتها بالشكوى من هاتين الدولتين وطالبتها بالتشدد في منع إنجاد طرابلس وبنغازي من تونس ومصر<sup>(١)</sup>.

بل كان من تأثير ذلك ما هو أعظم مما ذكرنا وهو ظهور مبادئ الاتفاق بين دولتنا وإنكلترا بإرسال سلطاننا أكبر أنجاله ضياء الدين أفندي لتحية ملك ومملكة الإنكليز في سفيتتهما التي تحملهما إلى الهند عند وصولهما إلى ثغر بورسعيد ذاهبين إلى الهند بقصد الاحتفال في عاصمتها القديمة دهلي بنصب الملك أمبراطوراً على الهند. وكان لقاء وفد نجل سلطاننا للملك الإنكليز مع أميرنا خديو مصر بالغاً منتهى الوداد اللائق بالزائر والمزور، وجواب الملك عن كتاب السلطان، وخطبته في مقابلة نجله، وإهداؤه الوسام الخاص بأسرة الملك إلى هذا النجل السعيد بعد الزيارة، كل ذلك قد بشرنا بقرب تحقق ما أشرنا به من استمالة دول الاتفاق الثلاثي إلينا وفي مقدمتهم إنكلترا<sup>(٢)</sup> وهذا ما صرحنا به في أوائل هذه المقالات منذ شهرين كاملين.

وجملة القول إننا رأينا العدوان من إيطاليا إحدى دعائم التحالف

---

(١) بعد كتابة هذه المقالة شددت الحكومة المصرية بإيعاز الإنكليز في المحافظة على حدود مصر من الشرق والغرب، لئلا يتسرب شيء إلى بنغازي مما يسمونه مهربات الحرب، حتى ضاقت التجار والمسافرين، ثم إنها عادت إلى اللين.

(٢) لما يتحقق ذلك ولن يتحقق ما دامت جمعية الاتحاد تتصرف بالدولة.

الثلاثي ، ورأينا دول التواد الثلاثي قد سكتن لها، ولم يجبن نداءنا وطلبنا المحافظة على القوانين والمعاهدات الدولية، فصحنا من شدة الألم أن أوروبا كلها متفقة علينا، واستصرخنا الشعور الإسلامي وذكرناه بالخطر على ما بقي للإسلام من السلطة، لنستعين بذلك على استمالة إنكلترا ووديديتها إلى مساعدتنا، ودفع الخطر الأكبر عنا، ولما قيل لنا إن الدول حصرت الحرب في طرابلس الغرب ورأينا مبادئ الرجاء في إنكلترا وغيرها تومض أماننا، سكتنا عن الشكوى من أوروبا كلها، ولم نشرح ما كنا عزمنا على شرحه .

قال المنتقد إنك قد صبغت المسألة الشرقية بصبغة الدين فجعلتها كالحروب الصليبية كما تقول جريدة العلم المتطرفة المغالية وهي مسألة سياسية كان ينبغي أن نستصرخ فيها العثمانيين خاصة . فاتفق المعتدلين بتلك مع المتطرفين على صبغ هذه الحرب بصبغة الدين قد أخاف نصارى بلادنا أن يتضمّن ذلك التحريض عليهم والإيقاع بهم ، فيجب الإقلاع عن تسمية هذه الحرب بالجهاد وجعلها دينية فإنها ليست إلّا سياسية .

قلت إنني قلما أقرأ جريدة العلم وقلما أراها فأنا لا أدري ما هو حكمها في هذه المسألة ، وأرى أننا إذا جعلنا حربنا لإيطاليا دينية فذلك خير لإيطاليا ولجميع البشر لا لنصارى بلادنا فقط ، ولت إيطاليا نفسها تتبع أحكام الإسلام في الجهاد، فإن القاعدة الأساسية عندنا في ذلك هي قوله تعالى «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» [سورة البقرة رقم ٢، الآية ١٩٠] . فلا يجوز لنا أن نقاتل غير المعتدي علينا . والمعتدي هو المحارب أهل جنسه ، فلا يجوز لنا أن نقاتل من الإيطاليين أنفسهم من لا يقاتلون كالرهبان والنساء والشيخ والولدان . وإيطاليا لا تبقي على أحد من هؤلاء ولا تذر إلّا من تعجز عن الوصول إليه، وأما الحرب الدينية والجهاد الذي معناه أن يقاتل إنسان كل من يخالفه في الدين ، وإن كان ذمياً أو معاهداً أو مستأمناً فهذا معنى بثته أوروبا

في الشرق بحروبها الصليبية، ولم يقل أحد من المسلمين به، ولو تجردنا من أحكام الدين لاستبحنا في هذه الحرب كل ما نقدر عليه من إيذاء خصمنا، والإسلام لا يبيح لنا كل ذلك.

قال المنتقد إن النصارى لا يفهمون الجهاد الديني في الإسلام بمعناه الشرعي الذي تعنيه بل يفهمون منه ما هو مشهور عندهم، وكثير من عوام المسلمين يفهمون منه مثل فهمهم، فيجب أن لا يذكر الدين والإسلام في الكلام عن هذه الحرب لأجل ذلك. قلت إنني قد بينت حكم الإسلام وأنه لا يميز لنا أن نقاتل في هذه الحرب غير العسكر الإيطالي، وسأزيد ذلك بياناً في مقالة خاصة (وكان هذا قبل كتابة مقالة «الجهاد في الإسلام» في الشهر الماضي. ومهما قال المسلم منا فهو لا يمكن أن يرضي بعض المتعصبين منهم، الذين يحسبون كل صيحة عليهم، أو يدعون ذلك لتحريض أوروبا علينا، كصاحب جريدة الأخبار، ولو شئت لنقلت من كلام نصارى الشرق والغرب ما صرحوا به من كون المسألة الشرقية مسألة دينية كقول أمين شميل (شقيق صديقنا الدكتور شميل) في كتابه الوافي إن هذه المسألة ولدت بولادة نبي الإسلام، وترعرعت من ابتداء ترعرع مُلك خلفائه إلى الآن. وعندي نقول كثيرة عن الأوروبيين في ذلك لا أحب الآن أن أنشرها، ونسأل الله أن يكفينا شرّها.

لا يسع أحداً أن ينكر أن المراد من هذه المسألة أن لا يبقى للمسلمين ملك على وجه الأرض، فإذا فرضنا أن هذا لا يضر الإسلام في عباداته، فهل يقول عاقل مسلم أو غير مسلم أنه لا يبطل سلطته وأحكامه القضائية والسياسية؟ كلا، إن هذا هو الذي نعنيه بكون المسألة الشرقية عداوة للإسلام وأهله، فحسب أوروبا ما سلبت من ملكه، ونقصت من أرضه، ولترك لنا هذه البقية القليلة، فإن أبت إلا الاعتداء عليها، وجب أن نبين لها أننا عارفون مستيقظون، وأن لا تلومنا هي على ما نفعل للمحافظة على



هذا الذماء، فهل يصح أن نلوم نحن أنفسنا، ونتخاذل في المحافظة على  
رمقنا؟

ولا يميننا السعي لذلك أن نستصرخ سائر الشعوب الشرقية ونتعاون  
معها سرّاً أو جهراً على هذا الدفاع الشريف. فكلما اعتدي على قطر  
إسلامي تحرك شعور المسلمين باسم الإسلام، وتحرك شعور غيرهم من  
الشرقيين باسم الشرق. ونحب أن تكفينا أوروبا مؤنة ذلك بمنع بعضها  
بعضاً عن الإجهاز على الدولة العثمانية والدولة الإيرانية، وإطلاق حرية  
الدين والعلم والاجتماع في البلاد الإسلامية التي أدخلتها في حمايتها،  
كمراكش وتونس وزنجبار، وفي البلاد التي ضمتها إلى مستعمراتها كالجزائر  
وجاوه.

إننا الآن بين الخوف من أوروبا والرجاء فيها، والرجاء في إنكلترا أقوى  
كما بينت ذلك في المقالات السابقة، ومن أسباب قوة الرجاء فيها ما ظهر  
من التواد بين المسلمين والوثنيين في الهند منذ ظهر عدوان إيطاليا بعد  
اشتداد العداوة بينهم في السنين الأخيرة لمخالفة المسلمين الهندوس فيما  
يقاومون به الحكومة الإنكليزية. وإنني أورد في هذا المقام جملة من كتاب  
خاص كتبه إليّ سائح من حيدر أباد الدكن بعدما ساح في كثير من تلك  
الممالك. قال:

«أفيدكم أن الهند كلها بقضها وقضيضها، مسلميها على اختلاف  
نحلهم، وكفارها على تشعب مللهم، لا أستثي غير الأوروبيين وميّي  
الشعور من همج الهمج وأشباههم، قد تغيظوا وتحمسوا أشد الغيط  
والتحمس لما صار من إيطاليا في الترك، وقد عقدت المؤتمرات العديدة  
وأرسلت الاحتجاجات، ولا حديث للقوم إلّا في هذه المسألة، وهم لا  
يفهمون منها إلّا أنها عدا من أوروبا لآسيا، وظلم من القوي للضعيف،  
ودرس في التعصب يجب على الشرقي حفظه في سويداء قلبه، لا خلاف في

ذلك بين مسلم وبين برهمي أو مجوسي أو وثني، حتى لقد أنسى القوم ما بينهم من الإحن والحزازات.

«وتتجلى هذه المظاهر بأتم وضوح في البلاد التي تحكمها الإنكليز مباشرة، وهي أقل ظهوراً فيما تحكمه مهراجات الهندوس، وهي أقل في الممالك المحكومة بأمراء (نواب) مسلمين، ولعل السبب في هذا هو خوف هؤلاء من غول التعصب الذي يقذفهم به الأجانب عند كل صغيرة وكبيرة».

«ولو كان المنار صحيفة أخبارية لأطلت النفس وشرحت له الأخبار. ثم إن ما صار وظهر في جميع أقطار الهند من هذه الحركة المباركة لما أفزع رجال الإنكليز وحسبوا له ألف حساب، وإذا لم ترضهم الإنكليز بأفعالها - لأن دور الإرضاء بالأقوال قد ذهب - لتندمن حيث لا ينفع الندم، وستكون بعملها إذ ذاك جامعة لكفار الهند ومسلميها، وفي ذلك من الضرر عليها ما تعرفه هي أكثر من غيرها ولا يرضاه لها محبوها ومحبو الإنسانية، سيما مع قرب موعد الدربار (الاحتفال باللباس الملك تاج امبراطورية الهند، وفي العبارة ما يدل على ميل الكاتب إلى إنكلترا).

نعم إن رجال ساستها يزعمون أن اتفاق المسلمين مع الهندوس مضر بالمسلمين لأنهم الآن نحو مائة مليون نفس فقط (أي بحسب إحصاء هذا العام الذي لما يعلن رسمياً) مع أن الهندوس أكثر من ضعفهم، ولكن هل درى ساداتنا الساسة أن المسلمين قد حكموا الهندوس في وقت لم يكونوا فيه إلا نحو خمسة في المائة؟ ثم زاد الآن عدد المسلمين مع مغلوبيتهم كما تضاعف عددهم بالصين كذلك، فلماذا لا يعلّق المسلمون كبير أهمية على نحو هذا، وإنهم لكانوا شجاعة وشدة، وأكثر مما كانوا علماً وحباً للإسلام واستماتة في نصره «وما راء كمن سمع».

«إن أهل الهند لم يروا من آثار الترك سوى الطرايش المجلوبة من النمسا ولو كان للترك في الهند مدارس عالية كما لأكثر الدول في سائر

القارات لكان نفوذ الدولة هناك مما ترجف له أعصاب أعدائها، وإني أنصح للدولة بأن لا تبقي جهداً في فتح مدارس دينية علمية في جميع الأقطار التي خضعت لنير الأجنبي وبها مسلمون وإن ضعفت مآلاتها وكلفها هذا الاقتراح ما كلفها، فلا بد دون الشهد من إبر النحل» اهـ.

هذا ما كتبه إلينا السائح الذكي الذي نعلم من سياسته الميل إلى اتفاق مسلمي الهند مع حكومتهم دون الاتفاق مع أهل وطنهم عليها، ولكنه مسلم قبل كل شيء ولو كره المتفرنجون المفتونون بالجنسية، أما اقتراحه على الدولة فما هو بالذي يسمع ولا الدولة بقادرة عليه لا لقلة المال، بل لعدم الرجال، وأقرب منه أن تنشئ الدولة هذه المدارس العالية في الحرمين الشريفين أو تسمح للقادرين على إنشائها من المسلمين بذلك من أموالهم، ويكون لها الغنم، وعليهم الجهد والغرم.

النتيجة العامة، إن مقالاتنا في المسألة الشرقية لم نقصد بها إلا ما ذكرنا من دفع الخطر عن دولتنا وأمتنا، وقد دعونا فيها غير المسلمين من أهل مملكتنا لمشاركتنا في هذا الدفاع عن الدولة من حيث الجامعة العثمانية، كما دعونا فيها المسلمين إل مشاركتنا من حيث الجامعة الإسلامية، والشرقيين إلى مساعدتنا من حيث الجامعة الشرقية، وإن غير المسلمين من العثمانيين لم يكونوا أشد غيرة وحباً علينا من وثني الهند، ومع هذا كله لا ندعو إلا إلى تقوية الرابطة بهم، وحفظ الحقوق الوطنية بيننا وبينهم، ونحن مع من يساعدنا من الأوروبيين، ولا ينكر علينا أحد أننا نشكر للمحسن إحسانه، ونعرف لصاحب الجميل جميله ولا ننكره، بدليل توددنا إلى إنكلترا مع جفوتها لنا زمناً طويلاً، ونجعل ذنب هذه الجفوة على سلطاننا السابق بتودده إلى خصيمتها ألمانيا. فهذه هي سياستنا فمن أنكر علينا منها شيئاً فليدعه لنُجيب عنه بالإنصاف وقواعد العقل، والسلام على من اتبع الهدى، ورجع العقل على الهوى.

٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٩ هـ [١١/١١/١٩١١ م]

المنار . بعد أن نشرنا هذه المقالة في المؤيد تذكرنا أن جريدة معروفة بالتعصب على المسلمين حتى لإيطاليا في عدوانها وبغيها قد أنكرت علينا كلمتين من تلك المقالات، ولما كنا نتحرى الأدب والحق في كلامنا وأن لا يوجد فيه ما ينكره الخصم وان نظر إليه بعين السخط كتبنا الاستدراك الآتي:

### استدراك في الانتقاد على مقالات المسألة الشرقية

[المنار ج ١٥ (١٩١٢) ص ٥٦ - ٥٧]

إنني أتحمى بطبعي وسجيتي كل ما تأباه مصلحة الارتباط بيننا وبين أهل الملل التي تشاركنا في وطننا، وكل ما لا يرضاه الذوق والأدب في التعبير عن الحقائق التي أعتقدوها، وإن من القوم من ينظر في كلام كل كاتب مسلم بعين السخط من وراء نظارة مكبرة، ولم يصل إليّ من الانتقاد على هذه المقالات الطويلة إلا إنكار بعض هؤلاء الذين يجعلون الحجة قبة عبارتين اثنتين أذكرهما وأجيب عنهما:

إحدهما نقلي لقول الفقهاء الذي أتوقع أن يبلغه شيوخ السنوسية للناس حيث الحرب تشتعل نيرانها، وهو أن الكفار إذا دخلوا دار الإسلام فاتحين وجب على كل مسلم فيها مدافعتهم . قال الساخط إنني عبرت عن الإيطاليين بالكفار وهم أهل الكتاب، وعد هذا إهانة لجميع المشاركين لهم في دينهم .

وإنني أجيب عن هذا بأنني نشرت في الأعداد الأولى من السنة الأولى للمنار نبذاً متسلسلة في بيان اصطلاحات كتاب العصر، بيّنت في الأولى منها، وهي في العدد الأول، أن لفظ الكفر قد أطلق في الشرع على ما يقابل الإيمان والإسلام ولم يرد بهذا الإطلاق الإهانة ولا السب والشتم،

لأن اللفظ لا يدل في اللغة على شيء قبيح ولا معيب، فإن معناه العام هو الستر والتغطية، ولذلك سمي الليل كافراً والبحر كافراً، وأطلق القرآن الكريم لفظ الكفار على الزراع لأنهم يكفرون الحب بالتراب أي يسترونه، وذلك قوله تعالى: «كمثل غيث أعجب الكفار نباته» [سورة الحديد رقم ٥٧، الآية ٢٠]. ثم بينت بعد ذلك أن هذا اللفظ صار في عرف أهل هذا العصر مرادفاً للإلحاد والتعطيل، وصار يعد من ألفاظ السب والإهانة، وأفتيت بحرمة إطلاقه في التخاطب على من حرم الإسلام إيذاءهم كالذميين والمعاهدين، ونقلت مثل هذا الإفتاء عن بعض الفقهاء. ولكن هذا لا يمنعنا من ذكر الاصطلاحات الشرعية في كتبها وعند البحث فيها كما هي، ومن هذا الباب العبارة الفقهية التي انتقدها الساخط هنا، على أن الحريين كالإيطاليين لا يجب علينا مجاملتهم في الخطاب والتعبير عنهم، ولا تجنب إيذائهم كما يجب مثل هذا في خطاب الذميين والمعاهدين.

يشبه هذا الانتقاد إن كان عن جهل بالاصطلاح ما رأيته في بعض جرائد السوريين في أمريكا من إنكار ذكر الجرائد التركية لفظ الملة والأمور المالية ظناً من المنتقد أنهم يعنون بالملة الدين وإنما يعنون به الأمة، وما رأيته في بعضها من استنكار عزل شيخ الإسلام لبعض النواب ظناً من الكاتب أن المراد بهم المبعوثون.

والعبارة الثانية هي ذكر البغايا مع الخمارين والمقامرين والتجار والقسوس ووكلاء الدول في سياق ما أصابنا من ضرر هذه الأصناف في أموالنا وآدابنا وسياستنا وديننا. وإنني ترويت في كتابة تلك العبارة خشية أن يكون فيها سوء أدب، وبعد التروي رأيت مثل هذا في أبلغ الكلام وأنزهه، رأيت ذكر اسم الجلالة الكريم، في الآيات التي فيها ذكر الشيطان اللعين، وذكر الطيبين والطيبات مع الخبيثين والخبيثات، معطوفاً بعضهم على بعض، وقال الشاعر:

ثلاثة تشقى بها الدار العرس والمأتم والزار

فذكر أوليك الأصناف من قبيل الأشياء المذكورة في البيت، أي أن كل صنف منها أذاً نوعاً من الإيذاء، وإن كان لكل منها مقاماً في نفسه ليس للآخر، كما أن العرس ضد المأتم، وإنما ذكرنا معاً لأن في كل منهما ضرراً مالياً لما اعتيد فيهما من الإسراف، وفي الزار أيضاً ضرر مالي وهو مع ذلك معيب مذموم عند أهل الدين والعقل. فهل يقول أحد إن الشاعر جعل هذه الثلاثة في مرتبة واحدة من كل وجه؟

كلا، إن الذي انتقد تلك العبارة وعابها هو معروف بسوء القصد وتبع العثرات واستقراء الزلات في أقول المسلمين المشهورين وأفعالهم، وهو معهم من الذين قال فيهم الشاعر:

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن سمعوا شراً أذاعوا وإن لم يسمعوا كذبوا

فهو لما لم يجد في مقالات المسألة الشرقية كلمة يستدل بها على ما يرمي به كل كاتب مسلم يغار على ملته من التعصب وتحقير النصارى والإغراء بهم، زعم أنني أهنتهم بإهانة إيطاليا لأنني قلت إن السنوسية سيقولون للناس إن دفاع الكفار وصدّهم عن المسلمين إذا دخلوا بلادهم مقاتلين فرض عين، ولأنني ذكرت وكلاء الدول والقسوس في سياق ما ذكرت فيه أصحاب الخانات والقمار!! ولو لم ينخدع بكلامه بعض القوم ويشير إليه بعض دعاة النصرانية في مقالة له رمانى فيها بالخروج عن الأدب معهم في بعض العبارات، لما كتبت هذه الكلمات في بيان أن تلك العبارة ليس فيها شيء من سوء الأدب لأن مثلها معهود في أفصح الكلام العربي وأنزهه. وهب أن فيها شيئاً من ذلك فأنا بريء من القصد إليه وتعمده لأنني أكرم نفسي وأربأ بها أن تأتي ذلك.



[المنار ج ١٤ (١٩١١) ص ٩٥٠ - ٩٥١]

طرابلس الغرب مملكة عظيمة مساحتها أضعاف مساحة إيطاليا الطامعة في استعمارها، وإغناء فقراء أمتها بخيراتها، وكانت في يد الدولة العثمانية من عهد بعيد ولم تقدر على الاستفادة منها ولا على مساعدتها على الترقى والعمران، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. ثم إنها لم تحصن فيها الثغور ولا أقامت فيها معدات الدفاع لحفظها من الأجنبي الطامع، بل كان من سياسة الاتحاديين الذين حلّوا محل السلطان عبد الحميد أن أخرجوا منها معظم ما كان فيها من العسكر والسلاح، فبادرت إيطاليا إلى احتلال ثغورها، ولولا قيام أهلها بالدفاع عنها لاحتلوا سائر أرجائها. كل هذا معروف ولكن ماذا كان بعده؟

انبرت إيطاليا بعد فعلتها بطرابلس إلى سواحل جزيرة العرب المقدسة فأنشأت تضرب ثغورها بمدافع أسطولها، تقتل من تقتل وتدمر ما تدمر، والدولة تسمع وتبصر ولا تستطيع أن تعمل شيئاً، بل نراها تهدد إيطاليا بطرد رعاياها من المملكة العثمانية إذا هي اعتدت على بعض جزائر الأرخبيل أو سواحل الروملي أو الأناضول، ولكنما لا تهددها ولا تفعل شيئاً ولا تقول كلمة في ضرب إيطاليا لثغور اليمن وحصرها هي وثغور الحجاز (ما عدا جدة التي تعارض الدول الآن في حصرها، وما يدبرنا عاقبة أمرها). ومن أسباب ذلك أن الدولة جعلت من تقاليدها أن مركز عظمتها وشرفها ومجدها هو الروملي ثم الأناضول، فهي تهتم بأدى قرية أو جزيرة من الروملي وإن كان جميع سكانها من الروم أو البلغار، ما لا تهتم

لمملكة عربية، وإن كان سكانها أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقومه. وهذا من أكبر أسباب ضعف الدولة.

لولا معارضة فرنسا لضربت إيطاليا ثغور سوريا واحتلتها كلها أو بعضها، ولو كانت ترى لها ربحاً أو نفعاً من احتلال بعض ثغور اليمن والحجاز لاحتلتها، ولكنها قد تخشى من الضرر أكبر مما ترجو من النفع، وهي على كل حال لم تعتد إلا على البلاد العربية إذ هي البلاد التي لا تدافع عنها أوروبا لأنه ليس فيها نصارى أو إفرنج، ولا الدولة ذات السيادة عليها لأنها عندها من أطراف نعم السلطنة، لا من الأعضاء الرئيسة في الدولة، ولذلك لم تحصن ثغورها، ولم ترسل إليها عسكرياً إلا لقهر أهلها على كل ما تطلبه من المال، أو إكراههم على التجرد من السلاح، فقد علم المصريون مما نشر في الأهرام نقلاً عن مدير معارف اليمن ما كان يعلمه أهل الآستانة قبل، من أن حملة اليمن الأخيرة كانت مبنية على طلب الوالي من الإمام إعطاء ما عند قومه من السلاح للدولة وامتناع الإمام من ذلك.

لم تكن محاربة اليمن وحدها هي التي قصد بها جمع السلاح من أهالي البلاد بل كانت حملة حوران والكرك لأجل جمع السلاح من أرجاء سوريا، وكانت الحكومة الاتحادية تريد جمع السلاح من عرب طرابلس الغرب أيضاً ولكنها لقيت من معارضة المبعوثين ما حال دون تقرير ذلك وتنفيذه. وقد سمعت في الآستانة من مصادر مختلفة أن من أصول سياسة جمعية الاتحاد والترقي جمع السلاح من العرب في كل ولاياتهم ومن الألبانيين والأكراد، ثم ظهر صدق ذلك.

نحن لا نبحث الآن عن مقاصد الاتحاديين ونيتهم، ولا عن ضرر سياستهم التي جروا عليها أو عدم ضررها، ولا في إثبات ما يقوله خصومهم من عزمهم على بيع بعض الأطراف للأجانب بتجريده من أسباب الدفاع، والسماح لهم بالنفوذ فيه ووسائل الانتفاع، الذي هو



الطريق المعبد للفتح السلمي والاستعمار، وإنما ننبه أهل الغيرة والروية في الأستانة وسائر المملكة ثم المسلمين عامة على ما ظهر بالحس والعيان فهدم جميع النظريات المخالفة له، وهو أن البلاد العربية لا يمكن حفظها من اعتداء الأجانب عليها، ودوام ارتباطها بسائر المملكة العثمانية، إلا بقوتها الذاتية وتعميم السلاح والتعليم العسكري فيها.

فالواجب المحتم الذي لا تخير فيه هو أن تبادر الدولة العلية إلى إرسال السلاح الكامل حتى المدافع بأنواعها إلى بلاد الشام والعراق والحجاز ونجد وكذا اليمن من غير سواحل البحر الأحمر، وأن ترسل الضباط البارعين لأجل تعميم التعليم العسكري، والأهالي كلهم يقبلون ذلك ولا يكلفون الدولة مالاً ولا نفقة تذكر. ويجب على جميع الأهالي مطالبتها بذلك. ملحين ملحفين. وإلا فليتنظروا الساعة تأتيهم بغتة، كما أتت أهل طرابلس وبرقة، «فقد جاء أشراتها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم» [سورة محمد رقم ٤٧، الآية ١٨].

## الجامعتان الإسلامية والعثمانية<sup>(١)</sup>



[المنار ج ١٥ (١٩١٢) ص ٧٣٢ - ٧٤١: وص ٨٣٣ - ٨٤٠]

(١)

المسلمون أمة واحدة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة مختلفة في المذاهب والأجناس واللغات، والأقطار والحكومات، لا تجمعها إلا وحدة العقيدة وأخوة الإيمان، والعثمانيون أمة واحدة مؤلفة من شعوب وقبائل كثيرة مختلفة في كل شيء حتى في الأديان والمذاهب، لا تجمعها إلا الوحدة العثمانية

(١) نشرت هذه المقالة في مجلة سبل الرشاد التي تصدر في بغداد.

السياسية والوطنية، إذ الممالك العثمانية كلها وطن عام لكل عثماني له في كل ولاية منها من الحقوق ما لأهلها، إن شاء أن يقيم فيها ويجوز أن ينتخب مبعوثاً عنها وإن لم يكن مقيماً فيها<sup>(١)</sup>.

للإسلام مزية في المملكة العثمانية ليست لغيره من الأديان. فقد صرح القانون الأساسي بأن دين الحكومة العثمانية الرسمي هو الإسلام وأن سلطان العثمانيين هو خليفة المسلمين، وبهذا يكون للمسلم الأجنبي الذي يدخل المملكة العثمانية سائحاً أو مهاجراً حقوق لا يشاركه الأجنبي غير المسلم فيها، لأن سلطان العثمانيين خليفته يجب عليه مراعاة أمره. وللعثماني غير المسلم من الحقوق في المملكة ما لا يشاركه فيه المسلم الأجنبي، لأن جميع أحكامها تنفذ عليه دون المسلم الأجنبي الذي يلجأ إلى وكلاء دولته في البلاد العثمانية.

ويجب على الخليفة أن يساعد المسلمين على إقامة أمورهم الدينية ولا سيما الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه إذا قامت به طائفة أو طوائف منهم، ولا يجوز له أن يساعد غير المسلمين على مثل ذلك وإن كانوا عثمانيين، وإنما عليه أن يحمي حريتهم الدينية ويمنع غيرهم أن يعتدي عليهم فيها حسب ما قرره الشريعة الإسلامية العادلة.

إن من آثار عدل هذه الشريعة وحرّيتها أن غير المسلمين قد كانوا حتى في عصر الاستبداد الحميدي متمتعين بحرّيتهم الدينية والتعليمية على حين تصدر الكتب الدينية الإسلامية ويمنع طبعها ونشرها، ولا يصادر ولا يمنع من كتبهم شيء، ولا توجد دولة أوروبية تمنح المسلمين من حرية الدين والتعليم في بلادهم التي استولت عليها مثلما منحت الدولة العثمانية لليهود والنصارى في بلادها قديماً وحديثاً، فهي في هذا أوسع حرية من إنكلترا التي تعد واسعة الحرية في ذلك بالنسبة إلى فرنسا وروسيا، فهي لا تسمح

---

(١) المراد بعدم الإقامة بالفعل ولا بد من الإقامة الرسمية بأن يكون مقيماً في سجلات النفوس.

لمسلمي الهند أن يعلموا أولادهم ويربّوهم في المدارس والمكاتب كيفما شاءوا بلا مراقبة ولا سيطرة، كما تسمح الدولة العثمانية لليهود والنصارى في مدارسهم ومكاتبهم. ولو أنصفت دول أوروبا لاعترفت لخليفة المسلمين بحق سؤالهن عن حرية المسلمين الدينية في ممالكهن وتحت حمايتهن، كما يسألن حكومته عن معاملة النصارى من رعيته في أمر دينهم ودنياهم، إنه ليس للملك من ملوك أوروبا صفة دينية في ملته مثل صفة المسلمين، ولكنهم قوم لا ينصفون.

إن الدول الأوروبية المستولية على الملايين من المسلمين يوجسن خيفة من ذكر المسلمين لدولة الخلافة، ومن دخول أي مسلم عثماني في البلاد التي يقيم فيها أولئك المسلمون، لئلا يوجد بين أحد منهم صلة أو رابطة بالدولة وهم يعلمون أنها (أي دولة الخلافة) لا تسعى إلى ذلك، ولكنهم يسعين دائماً إلى بث نفوذهم في بلادها بكل واسطة، ثم إن جرائدهم تشكو من الجامعة الإسلامية وتشنع عليها وتدعو إلى الحذر منها، ونحن لا نشكو من دسائسهم وجدهم في بث نفوذهم في مكدونيا وألبانيا والأناضول والعراق وسوريا وفلسطين - فهذه هي حقيقة الجامعة الإسلامية، من حيث علاقتها بالدول الأوروبية.

أما الدول والإمارات الإسلامية فوجودها منافٍ للجامعة الإسلامية، لأن الإسلام يوجب أن يكون للمسلمين كلهم حكومة واحدة يرأسها إمام واحد، يديرها بالشورى بين أهل الحل والعقد، لا بالاستبداد، ولكن بني أمية حولوا الحكومة الإسلامية في القرن الأول عن أساس القرآن مُلكاً، وصار ملوك المسلمين يحارب بعضهم بعضاً لأجل توسيع دائرة الملك كما يحاربون الكفار بلا فرق، ثم تآرثت بينهم الأحقاد والأضغان، ورسخت العداوة والبغضاء، حتى صار بعضهم يعين الأجانب الطامعين في ملكهم كلهم على بعض، وما استولت كل من إنكلترا وروسيا وفرنسا على عشرات الملايين من المسلمين إلا بمساعدة المسلمين، فليعتبر العقلاء بهذه

الجامعة الإسلامية التي تتهمنا بها أوروبا ونحن على نقيضها في تفرقة إسلامية سياسية، تدعمها تفرقة إسلامية مذهبية.

مرت القرون الطوال على هذه الفرقة والعداوة ولم يظهر في المسلمين ملك عاقل، ولا وزير محنك، ولا زعيم مصلح يضع للحكومات الإسلامية المتفرقة نظاماً يربط بعضها ببعض في الأمور الدينية والحربية، مع حفظ استقلال كل منها في الأمور الداخلية، لم يهتدوا إلى هذا بنور بصيرتهم، ولا وفقوا إلى اقتباسه عن غيرهم وقد رأوا مثاله الصالح في الوحدة الجرمانية وكذا في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد قام في أواخر القرن الماضي المصلح الحكيم السيد جمال الدين الأفغاني بحضهم عليه، وبين لهم وجه الحاجة، بل الضرورة إليه، فكان جزاؤه من ملوكهم وأمرائهم الاضطهاد، والنفي والإبعاد، ثم الإحاطة به في القسطنطينية، إلى أن وافته المنية (رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه).

لو وفق رجال المسلمين لهذا لكان لهم مملكة «أو إمبراطورية كما يقال في عرف هذا العصر»، جناحها الأيمن حكومة مراکش على شاطئ القاموس الغربي (الأتلانتيك)، وجناحها الأيسر حكومتا أفغان وإيران، وقلبها الحكومة العثمانية التي كانت تكون منها - كبروسيا في الوحدة الجرمانية - مركز السلطة العليا والقيادة العامة. بل لو وفقوا لهذا قبل هذا العهد الأخير وأنفذه مثل السلطان سليم ياوز الذي شعر بالحاجة إليه ولم يعرف طريقه لدخل في هذه الإمبراطورية جميع ممالك الهند وتركستان والقوقاس وبخارى ونصف أفريقيا الشمالي برمته، ولكان أخذ بقية أفريقيا وفتح كثير من الممالك الشرقية بعد ذلك أمراً ميسوراً. فكّر السلطان سليم في وجوب جعل الممالك الإسلامية كلها مملكة واحدة، ولكنه كان مخلوقاً من طينة الحرب وشديد الضراوة بسفك الدم، فرأى أن ينفذ ذلك بحد الحسام، ولم يخطر في باله ما أشرنا إليه من النظام، وماذا كانت عاقبة ذلك التفرق والانقسام؟ استولت الدول الأوروبية على أكثر الممالك الإسلامية، حتى

إنهم في هذين العامين اقتسموا مملكة إيران بالفتح السلمي، ووضعوا به مملكة مراکش تحت الحماية الفرنسية برضاء سلطانها الجهول الغبي، وتجروا على الدولة العلية ففتحوا عليها باب الفتح الحربي. فهذه هي حقيقة الجامعة الإسلامية من حيث علاقتها بحكومة المسلمين، وإن في ذلك لعة للمعتبرين.

وأما خبر الجامعة الإسلامية فيما بين المسلمين أنفسهم، فإننا لا نزال نرى السواد الأعظم منهم في كل قطر من أقطار الأرض يشعرون بالأخوة الإسلامية العامة، فيسرّ بعضهم لما يصيب بعضاً من حسنة، ويتألم لما يصيبه من سيئة، وإذا حل الشرقي منهم في أرض الغربي أو الغربي في أرض الشرقي يلقي من إخوانه المسلمين أهلاً بأهل، وجيراناً بجيران، وكثيراً ما يفضلون أخاهم الغريب على مثله الوطني. فإن كان عالماً بالغوا في تعظيمه والتلقي عنه، وإن كان تاجراً تسابقوا إلى ترويج تجارته، وإن كان سائحاً تباروا في إكرامه وضيافته، وإن كان فقيراً لم يقصروا في بره ومعونته، كان ما يكون هذا بين الأفراد، فسرى في هذا العصر إلى الشعوب والأمم، فصار كل أهل قطر يهتمون بأمور إخوانهم العامة في سائر الأقطار على قدر حظهم من معرفة السياسة والشؤون العامة، وهذا ما تراقبه دول الاستعمار وينظرون إليه بالمناظير المكبرة للصغير والمقربة للبعيد، وهو لم يتجاوز الشعور الروحي، إلا إلى قليل من الإعانة المالية، توجه إلى الدولة العلية، باسم دولة الخلافة الإسلامية.

على أن هذه الأخوة الإسلامية لم تسلم من الآفات المفسدة، والعلل المفرقة، التي تحمل المرء على أن يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وعشيرته التي تؤويه، وأولى هذه الآفات اختلاف المذاهب والتفرق في الدين المنافي لأصل الإسلام، وكان أشد ضرراً اختلاف أهل السنة والشيعة، وهذا الاختلاف والتفرق ينافي أصل الإسلام المبني على الوحدة والأخوة، وقد قال الله تعالى «الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء» [سورة

الأنعام رقم ٦، الآية ١٥٩]. وقال للمؤمنين «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٣] - إلى أن قال - «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات أولئك لهم عذابٌ عظيم» [سورة آل عمران رقم ٣، الآية ١٠٥].

الإسلام دين التوحيد والإلفة، والأخوة والمحبة، لا مجال فيه للشحناء، ولا موضع فيه للعداوة والبغضاء، وإنما هي السياسة لبست لباس الدين، ففرقت كلمة المسلمين، كانت الشيعة في العصر الأول حزباً سياسياً، لا مذهباً دينياً، وقد كان الإسلام قائماً على رأي هذا الحزب: إن علياً المرتضى هو أحق بالخلافة من غيره، ووجد من الأنصار الكرام من قال نحن أحق بهذا الأمر من المهاجرين، ومن قالوا: منا أمير ومنكم أمير، ومن كان يرى أنا أبا بكر الصديق أحق بالأمر، وقد غلب رأي هؤلاء وحزبهم، ولما كان الإسلام يومئذ قائماً على صراطه لم يحدث هذا الخلاف تفرقاً في الكلمة ولا شقاً للعصا، لأن جمهور أهل الحل والعقد من أهل الصدر الأول، وهم علماء الصحابة والسابقون الأولون منهم رضي الله عنهم، كانوا يعلمون أنه ليس بعد الكفر ذنب أضر ولا أقبح من التفرق والاختلاف، وأن من يرى أنه أحق بالأمر إذا تركه لمن هو حقيق به يكون أولى من مطالبته به، مطالبة تفضي إلى التفرق والاختلاف. لهذا كان علي أشد نصير وظهير لأبي بكر ومن بعده، فيما يرى حزبه أنه هو أولى به، فهلاً سار المتأخرون من شيعته على هديه والتأسي بعمله؟ إنهم لم يفعلوا، ولماذا لم يفعلوا؟ إنما سبب ذلك السياسة ودسائس المجوس وجمعياتهم السرية التي كانت تعمل على محو الإسلام لإزالة سلطان العرب الذين أزالوا ملكهم.

كان بين الفرس والعرب قبل الإسلام عداوات وحروب ومفاخرات يحقر بها كل منهما الآخر ويفضل جنسه على جنسه، ولذلك مزق كسرى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم دون سائر الملوك الذين دعاهم (ص) إلى

الإسلام، فدعا عليه بأن يمزق الله ملكه. وكان أبوبكر هو الذي جهز الجيش لقتال الفرس، وتم فتح بلادهم في خلافة عمر في أقرب وقت إجابة لدعوة النبي (ص)، فعظم ذلك على القوم، ورأوا أن الإسلام قد أعطى العرب قوة من الوحدة والعقيدة لا تقاوم بقوة مثلها، فلجأوا إلى الحيل والدسائس لإفساد أمر الإسلام وتفريق كلمة العرب، فألفوا الجمعيات السرية لذلك، وأظهر كثير منهم الإسلام لأجل تنفيذ مقاصدهم، فأول شيء فعلوه هو قتل الخليفة عمر فاتح بلادهم وجامع كلمة المسلمين بسياسته الحكيمة وعدله الشامل، ووجدوا لتفريق الكلمة مجالاً واسعاً وهو الخلاف في أمر السلطة والحكم. واتسع لهم الميدان عندما صار الأمر في يد بني أمية ولا سيما المجاهرين منهم بالفسق، والمسرفين في سياسة الظلم، كيزيد وكثير من بعده، فكان أكثر المسلمين في باطنهم من شيعة آل علي وهم آل رسول الله (ص) لما كانوا عليه من الصلاح والتقوى، فصارت جمعيات المجوس تبت في نفوس الناس الغلو في تعظيم علي وآله وحبهم، وفي تحقير أعدائهم وبغضهم، ونظموا الخلفاء الثلاثة وكبار المهاجرين الأولين مع فساق بني أمية وظلمتهم في سلك إعدائهم، وانتهوا في ذلك إلى تكفيرهم، والتقرب إلى الله تعالى بسبهم ولعنهم، ومن غلا في تعظيم شيء أو شخص غلا في تحقير ضده وخصمه، وذهب في ذلك إلى غير غاية.

وكان للمجوس في ذلك عدة مقاصد يتوسلون بها إلى غايتهم من إفساد دين الإسلام وإزالة ملك العرب. أحدها - تشكيكهم في أصل الدين بزعمهم أن جمهور الصحابة (رض) قد ارتدوا عن الإسلام وحرفوا القرآن وحذفوا كثيراً منه، وقد راجت دسيستهم هذه في سوق جهلة الشيعة وغفلوا عن كونها تتضمن الطعن في أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، فإنه لا يشك أحد منهم ولا من سائر المسلمين أنه كان يحفظ القرآن كله، فلماذا لم يظهره ولو في مدة خلافته، ولم يقاتل عليه كما قاتل معاوية على ما هو

دونه، وهو هو الذي لا يخاف في الحق أحداً ولا يخشى في الله لومة لائم.

ثانيها - نقض عرى الإسلام عروة عروة، وهدم أركانه ركناً ركناً، بزعمهم أن له ظاهراً وباطناً، وأن معرفة باطنه الذي هو مراد الله من عباده لا يمكن أن يؤخذ إلا عن أئمة أهل البيت المعصومين، ووضعوا لذلك أصول مذهب الباطنية أو دين الباطنية الذي يتدرجون به من القول بعصمة الأئمة إلى القول بألوهيتهم إلى الإلحاد وإنكار النبوة البتة. وقد راجت هذه الأضاليل عند بعض غلاة الشيعة، فظهر منهم الإسماعيلية والقرامطة والنصيرية وآخر فرقهم البابية البهائية وغير البهائية وكلهم يعبدون البشر من دون الله.

ثالثها - تأسيس ملك باسم بعض أئمة آل البيت، قوته وعصبيته من الفرس ومن يستجيب لدعوتهم من سائر المسلمين، والتوسل بذلك إلى إزالة الملك من العرب ثم تحويله إلى الفرس.

ومن آثار عناية الله تعالى بالإسلام أنه لم يكن لأولئك الجموع من الكائدين جهة وحدة تجعل عملهم يد بعضه بعضاً، فاهتدى طلاب الملك من العباسيين إلى مقاصد السياسيين منهم فسخروهم لخدمتهم وحولوهم عن العلويين حتى إذا ما ظفروا بالأمر فتكوا بالزعيم الفارسي العظيم أبي مسلم الخراساني، ثم فتك الرشيد بالبرامكة الذين سلكوا في الكيد طريقاً آخر. وكان الإسلام ينتشر في الفرس بقوة نوره من جهة، وقوة استعدادهم له من جهة أخرى، فصار أكثر الفرس من المؤمنين الصادقين فتآخوا مع العرب بالإخاء الصحيح لغلبة الدين على السياسة، وانتشرت دعوة الباطنية الكفرية في غير بلاد الفرس، وقام بها أمم راجت في بلادهم. فتأسست دولتهم في المغرب، وظهرت في مصر شيعية في الظاهر، كفرية في البطان، ثم قضت عليها الدولة الأيوبية، ولم يبق منها إلا مثل ما كان في الشرق من الدعوة الخفية. وصارت الشيعة الظاهرية مذهباً دينياً، بعد أن كانت حزباً سياسياً، فأكثرهم وهم الأمامية الاثني عشرية لا



يتوسلون بمذهبهم إلى إقامة إمام علوي، لأن الإمام الثاني عشر من أئمتهم قد اختفى وهم ينتظرون ظهوره بالخوارق والتأييد الإلهي قرناً بعد قرن، فلا يستعدون لذلك بشيء، ويرى بعض السياسيين، أن هذا كان بدسياسة من العباسيين. وأقل فرقتي الشيعة الظاهرية الكبريين عدداً وهم الزيدية ما زالوا يقيمون لهم إماماً علوياً زيدياً بالانتخاب، وقد قاتلتهم الدولة العلية على ذلك، فكانت الحرب بينهما سجالات منذ أربعة قرون إلى أن وفقهم الله في العام الماضي للصالح والاتفاق.

ومجمل القول في مسألة شيعة علي وآله عليهم الرضوان والسلام أنها كانت حزباً سياسياً كان عدده قليلاً مدة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم كثر حتى صار السواد الأعظم من المسلمين على حب آل وتفضيلهم منذ صار الملك في بني أمية، ولكن الملك لم يعد منوطاً بالحب والاعتقاد بل بالبراعة في تكوين العصبية، وبذلك انتقل من الأمويين إلى العباسيين والفاطميين وملوك الطوائف، ولو كان المجوس الذين بثوا دسائسهم في الشيعة مجمعين على جعل السلطة في آل البيت لقدروا، ولكنهم كانوا مذبذبين لأن لهم غرضاً آخر.

ولما صارت الشيعة مذهباً دينياً فشا فيهم اعتقاد أن كل من ليس على مذهبهم فهو خصم لآل البيت وعون على إضاعة حقهم في الخلافة، وبهذا صار التفرق بين هاتين الطائفتين من المسلمين، مدعوماً بشبهات من الدين، وصارت السياسة تذكي نارها كما وقع بين العثمانيين والإيرانيين، ولم يقم من علماء المسلمين أحد يبحث عن الحقيقة بالاستقلال والإنصاف، ويبين للفريقين بالحجج الناهضة حقيقة الأمر، وأنه لا موجب ولا مسوغ للعداوة، وأن هذا التفرق مفسدة للدين، ومضعف لجميع المسلمين، ولا فائدة فيه إلا لذة بعض الملوك والأمراء الجائرين.

وقد آن لنا الآن أن ندرك ذلك ونغض النظر عن الماضي كيفما كان، ويعذر بعضنا بعضاً في رأيه واعتقاده، ونجعل الخلاف فيه كالخلاف في

مسائل الفنون اللغوية، والعلوم الرياضية والكونية، لا يوجب تفرقاً ولا عداوة، كما كان سلفنا الصالح حتى في فهم المسائل الدينية، ثم نتحد على رفع عدوان العادين على ديننا وسلطتنا، والساعين إلى استعبادنا واستذلالنا، الذين بثوا الدعاة لتنصير كل مسلم من سني وشيعي، وعقدوا المحالقات لإزالة الملك الإيراني والعثماني، وهم مختلفون في المذاهب كاختلافنا، بل أشد من اختلافنا، ولكنهم متحدون في المصالح المشتركة بينهم والضارة بنا، فعلام تتفق الأمم والدول علينا ونحن لا نزال مختلفين، وكتابنا ينطق علينا بالحق، مبيناً لنا أن الاختلاف والتفرق من صفات الأشرقياء المخذولين، والوفاق والاتحاد من صفات الموفقين المرحومين؟ «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك» [سورة هود رقم ١١، الآية ١١٨ - ١١٩].

الآفة الثانية من آفات الجامعة الإسلامية، عصبية الجنسية الجاهلية. ألف الإسلام بين جميع المهتدين به من العرب والعجم، بل وضع أساس الوفاق بين جميع الشعوب والأمم، وقد كانوا يتعادون بعصبية النسب القريب، وإن جمعتهم اللغة والوطن والنسب البعيد، فلم تكن العداوة بين العرب والفرس، إلا دون العداوة بين الأوس والخزرج، فأنزل الله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» [سورة الحجرات رقم ٤٩، الآية ١٣]. ومما بينه النبي، صلى الله عليه وسلم، للناس في حجة الوداع وأمر أن يبلغه الشاهد للغائب، أن لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى. ولهذا كان المؤمنون في الصدر الأول إخواناً وظلت هذه الأخوة بينهم سبباً لنمو الإسلام وانتشاره عدة قرون على ما كان يدس في بلادهم من دسائس الزنادقة والمنافقين. فلم يكن العرب يغمطون حق المبرز في العلم من العجم، ولا يستنكفون أن يأخذوا عنه ويفضّلونه على من دونه، ولا يبالون أن يرفعوه إلى مقام الرئاسة والإمامة لعلو مقامه، فنذكر مقام أبي حنيفة في الفقهاء والبخاري في المحدثين، وسيبويه في النحاة، والزخشي

في البلغاء والمفسرين، ثم نذكر مقام الوزراء من العجم عند الخلفاء من العرب، ثم مقام الملوك الأعاجم من السلاجقة والأكراد والترك العثمانيين ومن قبل العثمانيين، وناهيك بنور الدين وصلاح الدين، اللذين نعدّهما في الدرجة التي تلي درجة الخلفاء الراشدين.

ثم لما زاد ضعف الإسلام وجهل أهله به، وانحرف فهم عن صراط هدايته، حدثت فيه بدعة العصبية الجنسية واللغوية، وكان أشدها قبحاً وأخشاه عاقبة ما كاد يتفاقم من التباين بين الترك والعرب العثمانيين، وهما ركنا الدولة وقوامها، لولا أن تداركه بعض العقلاء، وبين خطر مغبته النصحاء، ثم فطنت الحكومة لوجوب تلافيه، وعدم الاستهانة به.

وإنني أرى أن ما سرى إلينا من الآراء والأفكار الأوروبية في السياسة ونظام الاجتماع التي لا تصلح لنا، ولا نشبه فيها غيرنا، هو الذي زين لمقلدة الإفرنج بغير هدى ولا بصيرة أن يتعصبوا لقومهم الذين تجمعهم اللغة، تعصباً يحل رابطة الأخوة بينهم وبين إخوانهم في الجامعة الدينية أو الجامعة الإسلامية أو يضعفها، وأرى أن ساسة الإفرنج الطامعين فينا هم الذين يزينون لتلاميذهم منا أن يعملوا لهذه العصبية عملها، وأن يجعلوا نهضتهم الاجتماعية نهضة قومية، جنسيتها وجامعتها لغوية، لا دينية ولا سياسية. ولولا هذا لما قام مسلمو الألبانيين بتدوين لغتهم بالحروف اللاتينية. وطالما بينت في مجلتي المنار مخالفة العصبية الجنسية لهدى الإسلام وحذرت منها. وقد رأيت في سياحتي في الهند أن مسلمي الهند أبعد الناس عنها ومن أقواهم شعوراً بالجامعة الإسلامية المضادة لها. إذا كانت هذه البدعة الأوروبية قد رسخت في بعض الشعوب الإسلامية حتى صاروا يرون أنه لا بد لهم منها فعليهم أن يتقوا ضررها، فلا يتعدّوا فيها السعي والاجتهاد في ترقية قومهم، إلى التقصير في أحكام الروابط التي تربطهم بغيرهم: فلا ينسى الألباني «مثلاً» ما يجب عليه من الحقوق الدينية لآخوته المسلمين، وهو ما أشرنا إليه في هذا المقال ونوّهنا به، ولا ما يجب عليه من

الحقوق السياسية والاجتماعية لإخوانه العثمانيين، وهو ما سنشير إليه في القسم الثاني من هذا المقال ونحث عليه. بل يجب عليه، قبل كل شيء، أن لا ينسى حقوق الدولة العلية التي لا حياة له إلا بحياتها ولا عزة له إلا بعزتها ولا شرف له إلا بشرفها. بل أقول منذ الآن، أنه يجب على كل شعب عثماني يجد ويجتهد في ترقية نفسه أن يقصد بذلك ترقية دولته، وأن يشعر نفسه دائماً أنه عضو منها، وأنه لا حياة له إلا بإمدادها والاستمداد منها.

الآفة الثالثة من آفات الجامعة الإسلامية، نزعة الوطنية الشيطانية. وأعني بهذه الوطنية ما بثته بعض جرائد الحزب الوطني بمصر، وهي وطنية مذبذبة تنافي أخوة الإسلام، لأنهم يعدون بها المسلم الذي يقيم بمصر دخيلاً لا يشرفونه بلقب المصري ولا يساوونه بالمصريين، ولا يرضاها القبط الذين هم من سكنة مصر الأولين، ولا غيرهم من المهاجرين العثمانيين، وقد أثرت وساوس تلك الجرائد في نفوس بعض قرائها الذين يحسنون الظن بكل ما يكتب فيها فصاروا ينفرون من الغريب، وإن كان مسلماً قرشياً محباً لمصر وأهلها، ولحبها وحبهم اختارها على بلاده وجعلها وطناً له. ونحمد الله أن وقى من نفثاتهم السامة السواد الأعظم من المصريين، فلا يزال الشعور بالجامعة الإسلامية يقوى وينمو فيه، فتراهم على مشرب الأنصار الكرام يحبون من هاجر إليهم ويهتمون بأمر إخوانهم المسلمين البعداء عنهم. (شطر المقال الثاني ينشر في العدد التالي). كتب في بغداد باقتراح واليها جمال بك.

## الجامعتان الإسلامية والعثمانية

[المنار ج ١٥ (١٩١٢) ص ٨٣٣ - ٨٤٠]

(٢)

### الجامعة العثمانية

بينما في صدر هذا المقال معنى الجامعتين بالإجمال، وفصلنا في القسم الأول منه القول في الجامعة الأولى بعض التفصيل، وها نحن أولاء نفصل القول هنا في الجامعة الثانية كذلك.

أكبر سيئات البشر الاجتماعية أنهم جعلوا انقسامهم إلى شعوب وقبائل، وأمم ودول، وملل ونحل، سبباً للعداوة والبغضاء، وسفك الدماء، وإفساد الأرض، وإهلاك الحرث والنسل. وربما انقسمت الأمة الواحدة، وأهل الملة التي من شأنها الوحدة، إلى أحزاب ومذاهب، وآراء ومشارب، فعادى بعضهم بعضاً لأجل ذلك. وقد تسري عدوى هذا الفساد من الجماعات الكبيرة، إلى الجماعات الصغيرة، فترى الأسرة التي تنتهي إلى جد بعيد أو قريب تنقسم إلى بيوت يعادي بعضها بعضاً. فأولاد العم يتحاسدون ويتباغضون، بل الأخوة يتغايبون ويتدابرون، يكثر هذا في الأمة ويقل ويزيد وينقص، على مقدار نقص العلم والتهذيب فيها وكماهما بالفعل، لا مقدار ما كان لها من ذلك في التاريخ، فلا شرف النسب ولا صحة أصل الدين مما يفيد في ذلك إذا كان الفروع قد تركوا سنة أصولهم التي شرفوا بها، وكان أهل الدين الصحيح لا حظ لهم من الاهتداء به.

لا سلامة للبشر من تلك السيئة التي تلد ما لا يحصى من السيئات، ولا كمال لهم ولا سعادة في هذه الحياة، إلا بالعمل بهذه القاعدة: وهي أن

يتعضدوا ويتعاونوا على ما يشتركون فيه ويتفقون عليه، ويعذر بعضهم بعضاً فيما يفترون فيه، ويحكموا الشرع والميزان فيما يتنازعون عليه، وعلى هذه القاعدة التي وضعتها من قبل جريت في دعوة العثمانيين من طريق السياسة والاجتماع، والمسلمين من طريق الدين والاعتقاد، إلى ما تتوقف عليه حياتهما من التعاون والاتفاق، فأنا أدعو إلى كلتا الجامعتين، ولا أرى شيئاً من التنافي بين المصلحتين.

إن المسلمين واليهود والنصارى والصابئين، وغيرهم من أهل الملل والنحل الذين تضمهم العثمانية على اختلاف المذاهب في الملة الواحدة منهم، كلهم عثمانيون لا يكونون سعداء في معيشتهم، أعزاء في وطنهم، إلا ب عمران المملكة، وعزة الدولة وشرفها، فيجب أن يتحدوا ويتعاونوا على عمران هذه البلاد بالأعمال الزراعية والصناعية والتجارية المشتركة بينهم. ومتى مزج المال بالمال، وأنشئت الشركات المختلطة للأعمال، واجتمع المتفرقون في العقائد والمذاهب والعناصر، في المعامل والمزارع والمخازن، وكل منهم يرى مصلحته عين مصلحة الآخر، ويرى سعيه لنفسه عين سعيه له، وكثر التقاء الوجوه بالوجوه، ونظر العيون إلى العيون، والمحاورة بالكلام، والاجتماع على الطعام، تزول وحشة الخلاف، ويحل محلها انس الائتلاف، فإننا نرى المصالح المادية، أدعى إلى الوفاق من الأمور المعنوية، وإذا أمكن أن يرى جيل جديد في مدارس عثمانية وطنية، يكون تلاميذها من جميع العناصر، تتوثق الجامعة وتكون أكمل. فإذا لم يوفق العثمانيون إلى ذلك بترغيب عقلائهم فيه، ودعوة رجال الإصلاح والوفاق إليه، فإن الوحدة العثمانية لا تتكوّن تكوناً صحيحاً تاماً.

قد يسهل البدار إلى العمل بهذه القاعدة في مثل البلاد السورية لاتحاد لغة أهلها وتكافهم في الكسب، وارتقاء معارفهم، ولأن التفرق فيها بين المسلمين والنصارى لا يتعدى المنافسة والمباراة إلا قليلاً. وليس لفريق

منهم ضلع مع دولة أجنبية يرمي عن قوسها إلى إلقاء فتن تمهد لها السبيل للاستيلاء على البلاد، أو لما يشبه ذلك من فساد وخيانة كما يعهد في الولايات المكدونية التي أعضل داؤها، واستعصى على المعالج شفاؤها، فأنى يطمع في وحدتها العثمانية، بنظمها في سلك قاعدتنا الذهبية.

أما التفرق بين الترك والروم في الأناضول فهو أهون من مثله في مكدونيا، وإن كان كل منهما في القطرين ملة واحدة. ودونه التفرق بين الكرد والأرمن على ما بين هؤلاء من وقائع العدوان التي لم يقع مثلها لأولئك، وإنما ينأى بالطمع في التأليف بينهم ذلك البون الشاسع بينهم في التريبة والمعارف والكسب. وحسب العثمانية منهم الآن أن يتركوا البغي والعدوان، وكلامنا لا يصل إليهم، فلا نطيل الكلام في شأنهم، وكل ما نرجوه من إصلاح ذات بينهم، نفوضه إلى حكمة الحكومة وعدلها فيهم.

وأما أهل العراق فهم أقرب إلى إخوانهم السوريين في الاستعداد للاتفاق في إقامة قاعدة الوحدة العثمانية، لولا أثر اليهود في الأعمال المالية، وإيثارهم للجامعة الدينية المليية، وهم كثيرون في العراق وفي أيديهم ناصية تجارتها، وتصريف رباح ثروتها، وما أظن إلا أنهم يأبون مشاركة المسلمين في أعمالهم، بل يطمعون في تجريدهم من معظم أموالهم، وإلجاء أكثرهم إلى بيع أرضهم وعقارهم، لأن هؤلاء الأكثرين يسرفون في النفقة ويقصرون في الكسب، كما هو شأن المسلمين في أكثر بقاع الأرض، إعراضاً عن هداية دينهم، وهجراً لما أنزل عليهم من ربهم، في النهي عن التبذير والإسراف، والترغيب في الاعتدال والاقتصاد، وإن المسرف المهمل ليغري القنوع بالطمع، فكيف لا يكون مزيداً في طمع الطامعين؟ وإن المقتصد النشيط في الكسب ليجذب أمثاله إلى مشاركته في عمله، فما أجدره بجذب الكسالى والمتواكلين. وإني لأعذر يهود العراق وكذا النصارى فيه إذا رغبوا عن عقد الشركات مع مسلميه إذا ظل هؤلاء مصرّين على كسلهم وخمولهم، وإني أعيذهم من هذا الإصرار، بالله

الواحد القهار، الذي جعل إرث الأرض لمن يصلح العمل والاستعمار «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» [سورة هود رقم ١١، الآية ٦١].

تلك هي المرتبة العليا للجامعة العثمانية بينها لترغيب المستعدين لها فيها، وتنبيه محبي الإصلاح للدعوة إليها، فإذا تعذر العروج إليها في هذا العصر والتمكّن من قسميها السلبي والايجابي معاً (السلبي هو ترك التعادي والتباغض والتدابير، والايجابي هو الائتلاف والاشتراك في المرافق والمنافع الدنيوية والتربية الفنية والعلمية)، فإننا نكتفي منها بالقسم السلبي لأنه ترك، والترك ميسور في كل وقت، ثم لا مندوحة لنا عن القيام بالمرتبة الثانية.

\* \* \*

المرتبة الثانية من مراتب الجامعة العثمانية هي أن تتبارى الأقوام التي يجمع كلاً منها اللغة أو الدين في أسباب العمران والفنون والأعمال مع الإخلاص للدولة، وقصد إعلاء شأنها وشأن مجموعة الأمة، ومراعاة ما سميناه القسم السلبي من قسمي المرتبة الأولى، وهو أن لا يتعادوا فيما يختلفون فيه. بل يجب أن يتحرّوا مع ذلك حسن المعاشرة، وآداب المجاملة، وأن يكون مثلهم في هذا كمثل الدول الأوروبية المتعاهدة على السلم: تتبارى في الكسب، وتتسابق إلى توسيع دائرة النفوذ والسلطة، ويعامل بعضها بعضاً بالمشاحة، فلا يرضى أن يسبقه غيره إلى دينارٍ ودرهمٍ، ولا إلى بث نفوذه أو تجارته في قطر أو بلد، وهم في أثناء ذلك كلّهم يكرم بعضهم بعضاً ويعامله بالاحترام والآداب. فإذا اتفق لبعضهم أن تعدى حدود الحق أو الآداب مع الآخر تراضوا فيما بينهم، أو تحاكموا إلى محكمة الصلح العام، وهم في هذا قد أعلوا شأن أوروبا كلها وصاروا في مجموعهم سادة العالم.





لا تخدعنك كثرة جاهلة      فرما كان حصاها كالخصي<sup>(١)</sup>  
 كم فئة قليلة قد غلبت      كثيرة بالاتحاد والنهي<sup>(٢)</sup>  
 وإنما العزة للكائر ان      توحد الكثير قصداً واتقى<sup>(٣)</sup>  
 وإنما التقوى اجتناب كل ما      يردي وأخذ ما استطعت من قوى  
 والمال عدة لكل قوة      تنقض إنكاثاً بفقده القوى

إن من سنن الله تعالى في الاجتماع البشري أن التعاون بين الجماعات والأقوام والأمم والدول لا يكون إلا بالمبادلة، ولا يوزن إلا بميزان المنفعة والمصلحة، فهو إذاً لا يكون إلا بين الأكفاء، وتلك سنته أيضاً في الأفراد، فالأخوة المتفاوتون في العلم والثروة لا يكونون سواء في شيء، فإذا وجد أفراد من الناس يبذلون أموالهم وأوقاتهم لمنفعة غيرهم ابتغاء مرضاة الله تعالى، أو حباً في الجاه وحسن الصيت، أو تلذذاً بفضيلة التفضل على الناس، فلا يطلبون ممن يبذلون له مالهم أو جاههم أو وقتهم جزاءً ولا شكوراً، بل يطلبون ذلك من الله تعالى أو من الناس الذين يطلعون على عملهم، أو يكتفون بتلذذهم بفضلهم، - وإذا صح أن هذا من الشذوذ في تلك السنة التي تطرد في الأقوام دون الأفراد، فمثل هؤلاء الأفراد لا يوجد في الدول والأقوام، ألا ترى أن الدول لا تحالف إلا أندادها وأكفاءها، التي لا تنفعها إلا لتتفع منها، وسنة الله في الشعوب والأمم كسنته في الدول، فالطريقة المثل للتأليف بين العثمانيين لتكوين الجامعة العثمانية هي الاجتهاد في جعلهم أكفاء للاشتراك في المصالح والمنافع، وإنما يكون ذلك بسعي المصلحين، والله ولي المحسنين.

(١) الخصي: جمع حصاة، وهي صغار الحجارة، والعدد، والبقل، أي فرما كان عددها الكثير كصغار الحجارة لا قوة فيه فلا تبنى بها الدور ولا الحصون، وإذا أجزت استعمال المشترك في معنيين وجدت في البيت طعناً في عقول أفراد أمة هذا شأنها.

(٢) فيه إشارة إلى الآية الكريمة «كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة» مع بيان سنة الله في أسباب التغلب.

(٣) فيه تقييد لقول الشاعر العربي:

(وليسست بالأكثر منهم حصي وإنما العزة للكائر)

(كتب هذا في المحجر الصحي بالحمدانية بين حلب وحماة في غرة شعبان).

## ذيل للمقالة في العناصر العثمانية

[المنازج ١٥ (١٩١٢) ص ٨٣٧ - ٨٤٠]

بيّنا أن للجامعة العثمانية مرتبتين: مرتبة عليا، ومرتبة دنيا. وأنه إذا تعذر العروج إلى الأولى وجب الاعتصام بالأخرى، وهو أن يعنى أهل كل عنصر من العناصر أو ملة من الملل ذات الجنسية العثمانية في ترقية أنفسهم بالتربية والتعليم والاقتصاد، وجميع شؤون الاجتماع وال عمران، مع موادّتهم لغيرهم من إخوانهم العثمانيين وتعزيز الدولة.

وقد تتداخل مصالح العناصر والملل بعضها في بعض، فيتعاون كل من تجمعهم بآخر مصلحة على ما يشتركان فيه، فيتعدّد من يعاونهم ويعاونونه. فالمسلم العربي والتركي والألباني والكردي يتعاونون في المشروعات التي ترفع شأن الإسلام، وتبث دعوته بين الأنعام، وكل منهم يعاون أهل لغته فقط على ترقيتها وتوسيع دائرة معارفها وإن اختلف دينهم (على أن اللغة العربية لغة كتاب الله وسنة رسوله، فهي مشتركة بين جميع المسلمين لا خاصة بمن هم عرب في النسب والكلام، فيجب على كل مسلم أن يقوم بحققها) لا يعارض أحد في ذلك أحداً. كما يتعاون كل على الأعمال المالية والعلمية بلا معارضة ولا امتعاض.

يظهر أن طبيعة الاجتماع في هذا العصر لا تقبل إلا هذا النوع من تكوين الجامعة العثمانية. وقد جهل هذا وذاك زعماء (جمعية الاتحاد والترقي) وزين لهم الغرور تكوين جامعة تركية، تدين لها وتخضع جميع العناصر العثمانية، فتوسّلوا إلى ذلك بأقوى الوسائل، ونصبوا له جميع الحبال، وناهيك بقوة السيف والنار، والدرهم والدينار، فإنهم عمدوا إلى

مكان القوة من الشعبين الكبيرين الحريصين على لغتيهما (وهما العرب والألبان). فأثاروا في بلادهما الفتن، وجردوا عليهما الجيوش المنظمة. فحاربوا اليمن وحواران والكرك وبلاد الأرمنوط، وبعد انفاق الملايين من الأموال، وسفك دماء الألوف المؤلفة من الرجال، لم يستطيعوا أن يمهدوا السبيل لتتريك هذين الجيولين الجليلين، ولم يظفروا بمن حاربوا منهما، ليستذلوا سائر شعبيهما، ويحملونهما على استبدال التركية بلغتيهما، بل نفروهما من العناية بتعلم اللغة التركية، مضافة إلى اللغة الأصلية. وتفاقت الفتنة بعد ذلك في بلاد الأرمنوط ومكدونيا واستطار شررها، ونفرت الدول كلها من العثمانية وبطلت ثقتها بها، إلا ألمانيا التي تستغل هذه الجمعية - بل الدولة بنفوذ الجمعية - استغلالاً أربح من استغلالها لعبد الحميد، إذ أخذت منها مملكة البوسنة والهرسك لحليفها النمسا، ومملكة طرابلس الغرب وبرقة لحليفها الأخرى إيطاليا، وأخذت منها العهود والمواثيق على تسهيل السبيل ليهود ألمانيا الصهيونيين، في استعمار الأرض المقدسة من فلسطين، وأرجأت لقمتهما الكبرى إلى حين.

استطارت الفتن وخيف على الدولة السقوط السريع، بسياسة أولئك المغرورين، فقام أهل الغيرة على أهل الغرور، وأسقطوا وزارتهم وسلطتهم كما أسقطوا قبلهم سلطة السلطان المخلوع، وأسّسوا وزارة مخنكة، من أهل التجارب والثقة، (وزارة أحمد مختار باشا الغازي) بعد أن أسّسوا حزب الحرية والائتلاف، الذي يرجى أن يرسو بسفينة الدولة في مرفأ النجاة، بإعطاء كل عنصر من العناصر حقه، مع التآليف بينه وبين غيره.

ليس هذا مقام بيان سيئات جمعية الاتحاد والترقي، وما يرجى منه نفع حزب الحرية والائتلاف. وإنما نريد أن نبين أن الجمعية بذلت كل ما في الدولة من القوى، معززة له بكل ما في طاقتها من الحيل والمكر والدهاء، واستعمال الدجالين والمنافقين، من المغاربة والسوريين والمصريين، لتخدع العرب والمسلمين، وغيرهم من العثمانيين، وتنفذ مقاصدها في إدغام

عناصر الدولة في العنصر التركي ، فلم تستطع إلى ذلك سبيلاً ، بل كان سعيها له سعيًا لضده ، حتى كادت تجعل الجميع أعداء للترك بذنب أفراد منهم ومن الدوغة واليهود والأوشاب الذين لا يعرف لهم في العنصر التركي الكريم أصل ثابت ، ولا عرق راسخ ، ولا تشهد لهم بالانتساب إليه معارف وجوههم ، ولا لون سحتهم ، ولا تقطيع أعضائهم ، لولا أن منَّ الله تعالى على الأمة العثمانية ، إزالة سلطتهم الاستبدادية ، بسعي كرام الترك وغير الترك من العثمانيين (كما ذكرنا آنفاً) - ثم نبين بعد هذا أن لا سبيل إلى الوحدة العثمانية إلاّ بالبعد عن طريقة الاتحاديين إلى طريقة الائتلافيين أو مثلها .

لهذا يدعي الاتحاديون الآن أنهم رجعوا عن رأيهم في تترك العناصر والضغط على غير الترك ، وجعل السيادة والحكم للترك وحدهم ، وعن إبقاء جمعيتهم جمعية ثورة وسفك دماء ، إلى جعلها حزباً سياسياً كغيره من الأحزاب . وحسبنا هذا اعترافاً منهم بسوء ما كانوا عليه وقبحه وضرره ، وإن لم يعترف به أجراؤهم والمتملقون لهم من العرب . ونحن لا نصدق لهم دعوى ، وإنما نحكم عليهم بأفعالهم لا بأقوالهم ، ومنها أننا نرى المتمكنين في مذهبهم لا يزالون يلحون في عداوة العرب واضطهاد أرباب الأقلام والرأي منهم ، والداعين إلى ترقيتهم ، لتترقى العثمانية بهم ، كما يفعل إخوانهم الترك وغيرهم . ولو لم يكن بين أيدينا من الشواهد إلاّ ضغط ديوان الحرب العرفي الذي بقي من آثارهم السوءى في بيروت لصاحبي المفيد وأعوانها ومحاسبتهم في كل يوم على مفردات الألفاظ والتراكيب الإضافية والوصفية - بله الجمل ذات المعاني - لكفى . وما ذنب هؤلاء إلاّ ذكر العرب ودعوة العرب إلى العلم والارتقاء دون الجمعية .

أضف إلى هذا إحياء هذه الجمعية ، ما كنا نظن أنه مات بسقوط السلطة الحميدية ، من تهمة السعي إلى تأسيس خلافة عربية ، كأنهم يأبوا أن يتركوا لعبد الحميد سيئة إلاّ ويأتونها بأقبح مما كان في عصره ، فهذه

التهمة مما كان يتقرب إليه بها مصطفى كامل وقد قام يتقرب إليهم بها خلفاؤه كما سنبينه في مقال آخر.

فبعد هذه التجارب التي دخلت فيها دولتنا العلية أدام الله تأييدها، وبعد هذه العبر التي رأيناها بأعيننا، وجب علينا أن نصرح بأن بقاء الدولة يتوقف على المساواة في الحقوق والعدل بين جميع عناصرها، وحريتها في أديانها ولغاتها، وسائر مقوماتها ومشخصاتها، مع التأليف بينها وربط بعضها ببعض، على الوجه الذي بيناه من قبل. ولا يتم هذا مع استئثار العاصمة بالسلطة على ما كانت عليه في الزمن الماضي، بل لا بد من إدارة جديدة من قبيل ما يسمونه بعدم المركزية، تراعى فيها أحوال الولايات العثمانية المتباينة في العقائد والعادات واللغات، حتى أنه ليعد من محاولة المحال سياستها وإدارتها بقانون واحد تجعل فيها ولايات الحجاز واليمن كولايات مكдонيا.

كان الاتحاديون يريدون أن يجعلوا بعض الولايات مستعمرات للمملكة ليس لها حقوق في الانتخاب لمجلس الأمة، ولا غير ذلك من حقوق الدولة، وإنما ينشأ لها قانون خاص. وكان الطلاب الذين يرسلونهم إلى أوروبا لدراسة الحقوق والقوانين فيها يعهدون إلى بعضهم بدرس قوانين المستعمرات الأوروبية بالتفصيل، وهذا من نظرياتهم التي لا تؤدي إلا إلى شر مما أدت إليه سياسة التتريك من قبل.

إن بعض أجراء الاتحاديين من مسلمي العرب يرغبون جميع المسلمين في السياسة والإدارة المركزية وينفرونهم من ضدها، ومن دعوة قومهم إلى إحياء لغتهم، وترقية ثروتهم، وجمع كلمتهم، مع المحافظة على عثمانيتهم، ويحتجون على ترغيبهم وتنفيرهم بأن هذا إذا كان مفيداً فإن نصارى الروملي وغيرهم يشاركونهم فيه، أي فيجب أن نؤيد جمعية الاتحاد والترقي في إضعاف جميع العناصر والضغط عليها بالحكومة المركزية القاسية لتتمكن بذلك من رقاب تلك العناصر!!

نظر قصير وحجة داحضة، إن جمعية الاتحاد والترقي لا تطمع قط في تحويل نصارى الروملي عن لغاتهم ولا عن دينهم، وهي تعلم أن حكومات البلقان ودول أوروبا وراءهم ظهير لهم. وإنما الجمعية كعبد الحميد لا توجه ضغطها إلا على المسلمين، بدليل قتلها لأهل اليمن والكرك وحوران والأرناؤوط، ومنحها الامتياز للملئسورين النصارى من هؤلاء دون المسلمين، ويوشك أن تكون مراعاتها لأولئك النصارى سبباً لمراعاتنا دون الضد.

بمثل هذه الأوهام تستعمل بعض مسلمي العرب لغش المسلمين كما أوهمت بعضهم أن كل سعيها واجتهادها موجه إلى الجامعة الإسلامية! وكما استعملت بعض نصارى العرب لغش النصارى منهم وإيهامهم بأنها هي تعمل لهم كيت وكيت وترجحهم على مسلمي قومهم لأنها تثق بهم ما لا تثق بالمسلمين الذين يريدون إنشاء خلافة عربية يجعلون بها الحكومة دينية محضة! أي والجمعية تشهد لها ماسونيتها بأنها تريد إزالة الصبغة الدينية من الدولة. وقد راج هذا الغش في سوقهم فكان أروج من مثله في سوقنا، فساعدتها جرائدهم السورية والمصرية ثلاث سنين ثم ظهر لأكثرهم أنهم كانوا مخدوعين.

وجملة القول إن غش الجمعية قد انكشف لجميع العقلاء من جميع العناصر. وإن كل عنصر قد تنبه بعمل الجمعية إلى ما يجب عليه من تقويم نفسه. وأشدّهم إخلاصاً للترك العرب والأرناؤوط والأكراد، وسيظهر هذا لجميع الناس، على أنها ما دامت ذات قوة ومال، تجد من المنافقين من يخدمها في كل حال، ولكن العاقبة للمتقين.

تعلق مسلمي الهند وغيرهم وآمالهم فيها. ونظرة في حالها ومستقبلها

[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ١٠٧ - ١١٢]

لا يظهر الاهتمام بأمر الدولة العثمانية في قطر من الأقطار الإسلامية كما يظهر في الهند ومصر لما امتازوا به من الحرية وانتشار العلم. وإننا نرى في هذه الأيام في مطبوعات الهند ما لا نراه في المطبوعات العربية ولا التركية من اللهج بالخلافة، والخوف على دولة الخلافة، والتألم من الحرب البلقانية، وتمنيّ العود إليها بعد الهدنة رجاء النصر للدولة العثمانية.

ومن موجبات الأسف أن هؤلاء المسلمين لا يعرفون حقيقة حال الدولة ولا حقيقة مصلحتها ومصلحة المسلمين المرتبطة بها، ويترتب على هذا أنهم لا يعرفون كيف ينفعونها ولا كيف يدفعون الضرر عنها، بل كانوا ولا يزالون يظنون أن الانتصار والتحزب لكل من يتولى أمر هذه الدولة في الآستانة هو الذي يقوّيها ويحفظ استقلالها، ويحفظ بحفظه الإسلام ويقام شرعه ويحمى الحرمان الشريفان.

على هذه القاعدة كانوا يتشيعون للسلطان عبد الحميد المخرب لبنیان الدولة من الداخل، ثم صاروا ينتصرون لمن خلفوه من المخربين من الداخل والخارج، وكانت جرائمهم مظهر هذا الانتصار، وكان من تأثيرها إضعاف سعي طلاب الإصلاح من العثمانيين في مصر مدة زمن السلطان عبد الحميد، وقد استطاع الاتحاديون أعداء عبد الحميد أن يستخدموا كثيراً ممن كان يستخدمهم كالحزب الوطني في مصر، ولكن كان من شؤمهم أن سقط هذا الحزب ولم يبق له من أثر إلاّ سفاهة بعض الشبان



الحمقى تظهر في بعض الجرائد التي لا يأبه لها أحد يؤبه له في مصر. ولم يستطع المصريون والهنديون أن ينفعوا الآستانة بشيء إلا ما جمعوه من المال للإعانة على الحرب وبعثات الهلال الأحمر، ولم يكن للحزب الوطني تأثير في جمع مئآت الألوف من الدنانير التي جمعت من مصر، ولكن كان للمؤيد ولؤسس المؤيد يد بيضاء وتأثير عظيم في ذلك وهما اللذان يتهمهما الحزب الوطني بعبادة الدولة العثمانية.

ثم إن مسلمي الهند ومصر صاروا يبحثون في سياسة الدولة الداخلية والحربية. وإنني أعتقد أن جميع الهنديين وأكثر المصريين مخلصون في ذلك، تدفعهم الغيرة الدينية إلى هذا البحث، ولا يشذ إلا أفراد من الملتزمين إلى الحزب الوطني هنا، فإنهم مستأجرون، ولا تنفع الكتابة في هذا الموضوع وإن كانت عن إخلاص، إلا إذا كانت عن معرفة صحيحة بحقيقة الحال، ورأي صحيح فيما تقتضيه.

#### نشرة صحيفة بريس من حيدر آباد

جاءتنا نسخ من هذه النشرة التي طبعت باللغة العربية لإيقاف العرب في مصر والشام والآستانة «على رغائب إخوانهم المسلمين في الهند في الأزمة الحاضرة» وعهد إليهم الكاتب أن ينقلوها إلى جرائدهم العربية ويترجموها بالتركية. وقد وزعنا النسخ التي وصلت إلينا ورأينا من حق الكاتب الغيور أن نشير إلى ما كتبه في المنار أيضاً، وإن كنا لا نوافقه على كل ما ارتآه. في النشرة مسائل مهمة نلخصها فيما يأتي:

١ - وصف الكاتب شدة تعلق مسلمي الهند بالدولة العثمانية وأن «الدولة البريطانية تعرف هذا جيداً فاستفادت بالخلافة الإسلامية ما استفادت» وذكر من ذلك أن السلطان تيبواك بطل الإسلام في الهند كان في القرن الثامن عشر أرسل سفارة سياسية إلى سدة الخلافة ولكن رجال الدولة العلية أصدروا الفرمان الشاهاني بوجوب مودته للدولة البريطانية. وإن السلطان عبد المجيد أصدر فرماناً في عهد الثورة الهندية الكبرى سنة

١٨٥٧ بوجوب طاعة مسلمي الهند للدولة البريطانية كما طلب منه الإنكليز. وهكذا أصدر الفرمان للأمير شير علي خان أمير الأفغان بوجوب الاعتصام بحبل مودة الإنكليز.

ونحن نقول للكاتب صدقت ونزيده أن الدولة لجهلها بقيمة منصب الخلافة لم تعمل عملاً ما تستفيد به منه، ولكن الإنكليز هم الذين أحيوا اسم الخلافة واستخدموه حتى في عهد سلطة الاتحاد والترقي. فقد حملت الوزارة الاتحادية السلطان محمد رشاد في العام الماضي على إرسال أحد أنجاله بكتاب خاص من خط يده إلى توديع ملك الإنكليز في مياه ثغر بور سعيد عند سفره إلى الهند لأجل الاحتفال بإلباسه تاج الأمبراطورية الهندية، وإعلان مودته له ولدولته.

ولكن ما يدرينا الآن أن إظهار المسلمين لشدة تعلقهم بالدولة العثمانية صار يخيف الإنكليز من عاقبته فحملهم هذا على الرضى بإزالة سلطتها، وهل ينفع الدولة حينئذ شدة حزن الهنود على ما أصابها، وترك طلبة العلم هنالك أكل اللحم لتوفير المال لها؟

٢ - أشار الكاتب إلى أقوال ظن أن أهل هذه البلاد أطلعوا عليها كيان جريدة كامريد الدهلوية لحال المسلمين الآن، وقول الخواجة مظهر الحق «بيرسترات لا» في محاضرة ضجت بها أرجاء الهند «إن هذه الحرب أريد بها إخراج الترك أو المسلمين من أوروبا - أو حرب بين الإسلام والنصرانية» وما قاله «السير جيمس مستن لفتنت غورنر» في خطابه لطلبة كلية عليكره. ونحن نخبره أن أهل البلاد العربية لم يطلعوا على ما ذكره ولكني أظن أنه لم يقل عندهم شيئاً إلا وقيل عندنا مثله أو أشده.

٣ - قال «بل الخطر ظهر جلياً لآسيا الصغرى والشام والعراق بل العرب نفسها مركز قلوب المسلمين، فإن نفوذ أوروبا في هذه البلاد أتمم أعلم به منا، ولا شك أنكم تعرفون كيف يزداد نفوذ ألمانيا كل يوم في

العراق والأناضول» وذكر طمع هذه الدولة هناك وطمع فرنسا في سورية (ونسي أو تناسى أن طمع إنكلترا في بلاد العرب أشد وأوسع) وأن دول أوروبا أنشأت تبحث في تقسيم أملاك الدولة في آسية بعد أن فرغت منها في أوروبا. ثم أشار إلى ما ذهب من أملاك الدولة في القرنين الأخيرين بتدخل أوروبا وأنه لا فائدة في إبقاء سيادة الخلافة اسماً بلا مُسمّى .

ونقول إن خواصنا أعلم من خواصهم بكل ما قال، كما قال: «ويرون أن الذنب على الدولة لا على دول أوروبا، فإن أوروبا قد وصلت إلى درجة عالية في فتح الممالك وهي ما تسميه الفتح السلمي ومن المحال أن تبقى الدولة العثمانية بجانبها وهي على جهلها وخللها وكسلها وعدم اهتمام رجالها بشيء غير سلب مال الأمة لأجل التمتع به. ولو جارت الدولة تلك الدول في العلم والعمل والعدل في أمتها والنظام والقوة لتنافس في التقرب إليها وتسابقن إلى مخالفتها، للانتفاع من قوتها، أو تركتها وشأنها خوفاً من شدة بأسها، فهي قد تركت كل عمل نافع واتكلت على تنازع الدول عليها، توهماً أنهنّ لن يتفقن عليها، فخاب ظنهنّ وبطل وهما» .

٤ - نتيجة ما تقدم والمقصد من النشرة أن إخواننا مسلمي الهند يرون أنه يجب أن لا ترضى الدولة باستقلال ألبانيا (بلاد الأرناؤوط) ولا بالتنازل عن شيء من مكدونية لأن ذلك يسقط مقام الخلافة وهيبتها ويُغري الدول بالجري على هذه الخطة في ولايات آسية. فيجب أن لا تقبل الدولة الصلح بحال من الأحوال، وأن لا تُبالي بسيلان أضعاف ما سال من أنهار الدماء، فالخطر على الدولة مترتب على اصلح، وإذاً يصير الحرمان الشريفان على خطر. وقد بالغ الكاتب في التحريض على مداومة القتال، وأتى بما أتى به من العبر والأمثال. فعلم أنه هو وجمهور إخواننا المسلمين هناك يعتقدون أن بالعودة إلى الحرب تُحفظ عظمة الخلافة ويُصان الحرمان وتعلو كلمة التوحيد.



وتقاليدها، وبرجالها الذين ربّتهم أوروبا لها، لأنها تربية مذبذبة لا هي إسلامية ولا أوروبية، وإنما تعيش في تلك العاصمة كما تريد أوروبا. فلا هي قادرة أن تحفظ عاصمتها من أوروبا ولا الحرمين الشريفين ولا غيرها من البلاد. ولا يمنع أوروبا أن تتصرف فيها - وهذه حالها - كما تريد إلاّ تنازع الدول الكبرى واختلافهن فمتى اتفقن على شيء أردنه كان أمراً مفعولاً.

إلاّ إنني قد فطنت لهذا الأمر من قبل وقتلته بحثاً وتفكيراً، ثم اقترحت على الدولة من بضع عشرة سنة أن تجعل الأستانة مركزاً حربياً وتجعل عاصمتها دمشق الشام فإن لم يقبل متعصبو الترك فقونية، وأن تترك هذا التفرنج كله وتؤسس لها قوة آسيوية حربية أهلية من العرب والترك فتجعل جميع أفراد الأمة مستعدين للحرب والكفاح للدفاع عن بلادهم وقت الحاجة. ولكن افتتاحها بعظمة اسم القسطنطينية وموقع القسطنطينية، وتسمية نفسها دولة أوروبية، وما يتبع ذلك من لذات هذه المدينة، قد حال دون التفكير في هذا الاقتراح وتنفيذه. وقد علمت في هذه الأيام أن بعض كبراء رجال الدولة اقترح على السلطان عبد الحميد نقل العاصمة إلى الأناضول قبل الانقلاب الأخير بعدة سنين، وأن أحد كبار ضباط ألمانيا الذين تولوا تعليم الجيش العثماني وتنظيمه قد اقترح مثل هذا الاقتراح في الزمن الأخير، وأخشى أن يصدق عليه المثل «بعد خراب البصرة» وجميع من أعرف من أهل الرأي العثمانية سيما الترك يرون أن استمرار الحرب خطر، وليس له فائدة تنتظر، وسيظهر الصواب لجميع البشر.

### حال الدولة ومستقبلها

فاجأنا في هذه الأيام نبأ مفزع وهو أن أنور بك الضابط الاتحادي هجم على الباب العالي مع فتية من رجال جمعيته الفدائيين في حال انعقاد جلسة الوزراء، وقتلوا ناظم باشا ناظر الحربية والقائد العام وبعض الحاشية

وأكرهوا كامل باشا على الاستقالة فذهب بها أنور إلى قصر السلطان وعاد يحمل فرمان تعيين محمود شوكت باشا<sup>(١)</sup> صدرأ أعظم وناظراً للحربية. فكيف حال دولة هكذا تسقط وزارتها وهكذا تنصب.

سنشرح في آخر هذا الجزء أخبار هذا الانقلاب ونقول هنا إن الخطر على الدولة قد اشتد، وسواء عادت الحرب أو لم تعد، فإن الأمر بيد الدول ولن تستطيع الدولة أن تعمل بقوتها شيئاً، ولكن تبذل دماء ألوف كثيرة وملايين من النقد بغير عوض ولا فائدة فتزداد ضعفاً على ضعف، ويُحشى أن تستتبع فتنة أنور فتنة داخلية أكبر منها، واللعنة مسجلة من الله ورسوله على موقظها، ثم ماذا؟

تتمتع الأستانة في هذه الفرصة ما يمكن امتصاصه من وشل ثروة الأمة العثمانية المسكينة، وما يمكن من أموال المسلمين المتمتعين بالثروة والحرية وهم أهل مصر والهند، فلا يكون ذلك كله إلا كنقطة أو نقط قليلة من الماء تقع على خزفة أو آجرة سخنة. ثم لا مندوحة للدولة عن الركوع بين يدي أوروبا والتماس مساعدتها بالمال والحال لإدارة حركة الدولة الداخلية، ويُحشى أن تتوسل الدول بذلك إلى جعل مالية الدولة وإدارتها تحت مراقبتها، وذلك منتهى ما تبغيه أوروبا من إزالة هذه الدولة بالفتح السلمي.

إن ظني وظن من أعرفهم من العثمانيين المخلصين في زعماء جمعية الاتحاد والترقي سيء جداً. فنحن لا نستبعد أن يعطوا الدول فوق ما تطلب من ذلك كبيع الأراضي الأميرية والامتيازات وتقوية النفوذ وهو بيع البلاد الذي يسمونه الفتح السلمي. فإذا واتاهم محمود شوكت باشا الذي

---

(١) محمود شوكت باشا شركسي الأصل، بغدادى المنشأ، وليس فاروقياً ولا عربي النسب، كما شاع عقب الانقلاب، ووقعنا يومئذ في الخطأ الذي وقع فيه غيرنا. وقد أخبرني أخوه الفاضل مراد بك بأصلهم وسبب وجودهم في العراق. وكان رفيقاً لي في سفري من بغداد إلى حلب.

نال الوزارة بمسندساتهم وخناجرهم فهي القاضية، ويجب على جميع الولايات العثمانية بالفعل أو الاسم أن لا تقبل بيع شيء من بلادها بأي إسم كان، فمن يبلغهم بيع شيء من بلادهم للأجانب فليعلنوا استقلالهم وعدم اعترافهم بهذا البيع كيفما كانت صورته، ولا بالبائع مهما كانت صفته. وليستعد كل قطر ليكون مثل طرابلس الغرب.

لا أريد تشييط العثمانيين وسائر المسلمين عن مساعدة الدولة بالمال فأنا قد ساعدت بحسب استطاعتي، وإنما أقول إن هذه الحرب إن عادت لا تطول، وينبغي أن يعلم المساعدون أين يضعون أموالهم، فيحبسها أهل الأقطار العثمانية على صلاح بلادهم، ويخصها سائر المسلمين بحرم ربهم وحرمة نبيهم، فإن ما يتسرب إلى الآستانة لا يفيد الحرمين ولا غيرها شيئاً، وأن لا يأمنوا جمعية الاتحاد والترقي على شيء من المال، وإلا ندموا بعد أيام أو شهور حيث لا ينفع الندم. بذلت هذه النصيحة وأنا موطن نفسي على احتمال إيذاء أشد مما آذنتي به الحكومة الحميدية، وعلى احتمال تخطئة وذم ولعن من الجاهلين والمنافقين، كما احتملت مثل ذلك قبل من أنصار عبد الحميد، ولكن إذا كان حقنا في مقاومة عبد الحميد لم يظهر إلا بعد جهاد عدة سنين، فإن حقنا في الأزمة الحاضرة سيظهر بعد أسابيع أو شهور، وقد كنا نبيئ سيئات الجمعية ونسكت عن الحكومة، فإذا رأينا هذه الوزارة آلة بيد الجمعية كوزارة حقي باشا فإننا لا مندوحة لنا عن الوقوف لها بالمرصاد، وقد انتهينا إلى وقت لا يمكن السكوت معه والانتظار.

إن الدولة على خطر لا يمكن لعاصمة البزنطيين الخروج منه ولا يرجى للإسلام خير منها، فإذا كان محمود شوكت باشا رجلاً فليكسر جميع تلك القيود والمقاطر، ويقطع جميع هاتيك الأغلال والسلاسل، وليخرج الدولة من ذلك السجن الذي يتحكم بها فيه الأوروبيون واليهود الصهيونيون كما شاؤوا وهو عنوان الإسلام والخلافة. ولينشئ في قلب آسيا عاصمة جديدة لا إسراف فيها ولا تبذير، ولا فخفخة فيها ولا غرور، ولا مكر يهودي،

ولا كيد اتحادي، ولا ضغط أوروبي، وليقم الحكومة الجديدة على أساس اللامركزية، ويجعلها شق الأبلمة بين الأمتين العربية والتركية، بحيث يكونان أمة واحدة قوية، وينفذ ذلك مهمة تجمع بين العدل والاستبداد، بعد أن يُنظف الجيش مما طرأ عليه من الفساد، ويقتل القتلة الأوغاد. ولا يُضيّع الفرصة التي أضاع مثلها من قبل، وبذلك ينقذ نفسه والدولة من الخطر، وإلاّ ندم حيث لا ينفعه الندم، ونسأل الله أن يهيء لهذه الأمة فرجاً ومخرجاً، وإننا لا ندخر في خدمة من يعمل لإنقاذها وسعاً.

## المسألة العربية عند الاتحاديين



١١٢

[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٣١٥ - ٣١٨]

من لم تفده عبراً أيامه كان العمى أولى به من الهدى  
كنا نقول: إن مصيبتنا بهؤلاء الاتحاديين الذين ورثوا ملك عبد الحميد  
أنهم أصحاب نظريات في السياسة والإدارة يجربونها في هذه الدولة التي  
يجب الجري فيها على قواعد ثابتة لأنها لم تعد تحتل التجارب، وكنا نظن  
أنها إذا لم تفاجئها الدواهي الخارجية في أثناء هذه التجارب فربما ظهر  
لهؤلاء العاملين خطأهم فرجعوا عنه، وقد رأينا القوم خابوا وفشلوا في كل  
شيء واعترف بعضهم ببعض خطأهم وأدعوا أنهم رجعوا عن بعضه وأنهم  
سيرجعون عن بعض آخر، ولكنهم لم يفوا بوعدهم، ولا رجعوا عن سوء  
قصد، ولا اعتبروا بالحوادث، ولا تأدبوا بالكوارث، بل ازدادوا كذباً  
وخداعاً، وهذا من الغرور، الذي قلما يوجد في البشر له نظير، والأمثلة  
على هذا كثيرة جداً، بل أعمالهم اليوم هي عنوان أعمالهم بالأمس، لا فرق  
بين ما كنت تراه منها في أول عهد وزارتهم «الحقية»، إذ كانوا يدلون



بأسهم وقوتهم وجيوشهم، وبين ما تراه على عهد وزارتهم «الشوكية» بعد أن أضاعوا ثلثي المملكة بإضاعة طرابلس الغرب وبرقة وجميع الولايات الأوروبية ومعظم الجزر البحرية، وبعد إفساد الجيش والتفريق بين العناصر وإضاعة الأموال - فهم بعد هذا كله لم يتحولوا عن سياستهم السوءى في المسألة العربية الذي أحدثوها في هذه المملكة وقطبها عندهم الضغط والإرهاب بالقوة من جهة، والغش والمخادعة من جهة أخرى، وغرضنا من هذا أن نقول كلمة في هذه المخادعة:

زرت الآستانة في أواخر سنة ١٣٢٧ [أواخر سنة ١٩٠٩ م] وبقيت فيها إلى آخر ما بعدها وكان مما اجتهدت في تلافيه سدّ ثغرة التنافر بين الترك والعرب: ولما حدثت طلعت بك الزعيم الاتحادي في ذلك وكان ناظراً للداخلية وقابضاً على زمام الإدارة والسياسة في الدولة أظهر لي قبول رأبي وكان مما قاله إنهم عازمون على إنشاء جريدة عربية في الآستانة لأجل استمالة العرب ومودتهم، فسألته عن يقوم بإدارة هذه الجريدة وتحريرها فقال: عبيد الله أفندي مبعوث آيدين، قلت: إن الرجل معروف بيبغض العرب والعربية فلا أراه يزيد مسافة الخلاف إلّا انفراجاً واتساعاً، إلخ. ما دار بيننا في ذلك. ثم ظهرت الجريدة باسم العرب وكان ما كان من أمر قيامة الجرائد العربية عليها في سورية والعراق ومصر وأمريكة وغيرها من البلاد، واشتهر عند الخاص والعام في هذه الأقطار أن هذه الجريدة أسست للتفريق بين العرب وغشهم ومخادعتهم وتحقير مصالحهم، وإيقاع الشقاق بين مسلمي سورية ونصاراهم منهم، وبهذا بطل الغرض من إنشائها فاضطروا إلى إبطالها.

شاوئش خلف عبيد الله

ثم بدا لهم أن يُنيطوا هذه المفسدة برجل يُعدّه بعض العرب منهم فلم يروا أحداً أهلاً لذلك إلّا الشيخ عبد العزيز شاوئش لأنه كان قد مهّد السبيل إلى ثقتهم به بما كان ينصر جمعيتهم ويطري زعماءهم في جريدة

العلم، وبمقاومته لمشروع الدعوة والإرشاد ثم بطعنه في مسلمي العرب وزعمه أنهم أضـر على الدولة من نصارى البلغار والروم وغيرهم!

بمثل هذا تقرب شاويش إلى جمعية الاتحاد والترقي عدوة العرب والإسلام ونال الخطوة عندها فأسست له جريدة في الآستانة كانت تنشرها في البلاد العربية بقوة الحكومة وهي الهلال العثماني، ولكن نفوذ الحكومة قد عجز عن جعل الناس يتلقونها بالقبول، ثم سقطت هذه الجريدة المناقفة بسقوط وزارتهم السعيدية، فلما عادت لهم الكرّة بفتنة أنور بك وألّفوا الوزارة الشوكية أنشأوا لشاويش جريدة أخرى باسم الحق يعلو وسمى أحد شبان المصريين المتصلين به مديراً لها ليكون مدح شاويش وإطراؤه فيها لنفسه سائغاً مقبولاً، ولئلا يكون إذا حالت الأحوال مسؤولاً.

لم أقرأ من هذه الجريدة إلا عدداً واحداً وجدت فيه دسيـسة من شر دسائسهم في التفريق بين العرب وإغراء العداوة والبغضاء بينهم الذي يراه الاتحاديون الوسيلة إلى إضعافهم وأخذ منافذ الترقى والإصلاح عليهم في سورية، وهو أنه زعم أن أهل الذمة الذين بيننا يتربّصون بنا الدوائر فإذا أمكنتهم الفرصة منّا فعلوا بنا أقبح مما فعل البلقانيون بمسلمي بلادهم من القتل والسلب والنهب والفضائح... فما الذي حمل الاتحاديين على دفع الشيخ عبد العزيز شاويش على كتابة مثل هذا الكلام في مثل هذا الوقت؟ أليس المعقول أن مصلحة الدولة الآن تقتضي الإلفة أو السكون في الولايات الآسيوية، وهي مرتبكة في الحرب البلقانية، لئلا تفتح على نفسها أبواباً جديدة من المشاكل؟ ألم يكن الواجب على الشيخ عبد العزيز شاويش أن يكتـم علمه بما قاله إن كان في ذلك على علم - وما هو علم ولا ظن بل هي فتنة - لئلا يكون سبباً لثورة في سورية تفضي إلى خروجها من ملك الدولة كما خرج غيرها؟ بلى! ولكن الاتحاديين علموا أن أواخي الوفاق قد شُدت بين المسلمين والنصارى في بيروت وأجمعوا على أن يكونوا

يدأ واحدة في طلب الإصلاح لبلادهم، وهذا ما لا يطيقه الاتحاديون، والظاهر أن تعريض البلاد العربية لاستيلاء أوروبا عليها أخف على قلوبهم وأدنى إلى سياستهم من اتفاق أهلها وإصلاح حالهم، فلهذا أوعزوا إلى محضاء مفاسدهم بهذا من غير أن يحسبوا لعاقبته حساباً، وربما كان هذا الغلو في الإفساد إلى هذه الدرجة من سوء اجتهد الشيوخ شاويش وجرياً منه على ما تعود بمصر من إطلاق العنان لقلمه في مثل هذا حتى زجه في السجن غير مرة ثم أخرجه من القطر المصري كله، وإذا كان شأنه في التفريق بين المسلمين والقبط ما علمه الناس وفيها حكومة منظمة ومحكم تقيم القانون فكيف لا يكون شأنه في ذلك ما رأينا وأشد مما رأينا منه في الأستانة وهو يرمي عن قوس جمعية الاتحاد والترقي صاحبة السلطة في المملكة العثمانية وينضح بسهامها ويكافأ على ذلك بمال العثمانيين المنكوبين بجميع أنواع المصائب بشؤم هذه الجمعية.

الشيخ عبد العزيز شاويش مفتون بحب الشهرة والزعامة وهو يحاول أن ينال بجاه الاتحاديين ما أعياء نيله بغلوه في الحزب الوطني المصري، والاتحاديون يرون من مصلحتهم إيجاد زعيم عربي يخذعون به العرب، وليس الشيخ شاويش بأهل لهذه الزعامة ولا الاتحاديون قادرين على ما يبغيون منه، حتى أنهم لو قربوا منهم بعض الأفراد الذين نالوا الثقة بحق بين العرب لكان قربه منهم وثقتهم به مما يسرع بالتهمة إليه ويفيده الظنة، فإذا بدرت منه بادرة تنافي مصلحة قومه عُدَّت دليلاً قاطعاً على نفاقه وبيع ذمته للاتحاديين، فكيف إذا استطاعوا جعل الشيخ شاويش زعيماً عربياً ويرجون أن يؤثر كلامه في السوريين وهو قد اشتهر بالنفاق للترك والخط على العرب وفاق زعماء الحزب الوطني وكتابه في بغض السوريين منهم خاصة! وهل ينسى السوريون من هؤلاء مطاعن جريدتهم اللواء فيهم وقولها في طائفة من جنودهم ما قاله مالك في الخمر إذ كانت باخرة تحمل بعض العسكر العثماني إلى اليمن ففر بعضهم من بور سعيد أو السويس

وقيل إنهم من السوريين فافترضت ذلك جريدة اللواء لسان حال الحزب الوطني وعدوة السوريين كافة وشنعت على السوريين وعُللت هروبهم «بخسة منبتهم» ثم تبين أنهم غير سوريين.

سيعلم الاتحاديون أنهم مخطئون في نظريتهم هذه كما ظهر لهم مثل ذلك في استخدام عبيد الله بمثل ما يستخدمون له شاويشاً وفي غير ذلك من أعمالهم المبنية على نظرياتهم الباطلة، بل سيعلمون أن خداعهم هذا سيعود عليهم بضد ما يرون كما وقع لهم غير مرة ولم يعتبروا.

ألا فليعلموا أن جميع من يفهم ويعقل من العرب يعتقد أن جمعية الاتحاد والترقي لا تريد بالعرب، إلّا شراً، ولا تستخدم لشيء يتعلق بمصالحهم إلّا من يكون عوناً لها عليهم، والسوريون منهم خاصة يعرفون أن كتاب الحزب الوطني كفريد وشاويش كانوا يبغضون جميع السوريين قبل أن يستخدمهم الاتحاديون في أهوائهم، وأن شاويشاً قد غلا في ذلك وأفرط فلا قيمة لكلامه عند أحد منهم إلّا قيمة العدو المستأجر لإيذاء عدوه. فإذا كانوا يريدون إرضاء العرب فلا طريقة لذلك إلّا ترك الجمعية لمقصدها الأول وهو العصبية التركية وجعل العرب والترك كالأخوين الشقيقين لا ترجيح لأحدهما على الآخر في شيء وإلّا خسروا العرب أو خسروا أنفسهم، وأنه ليستحيل في اعتقادي الجمع بين بقاء الدولة وبقاء سلطة الجمعية فيها وهي على طريقتهما الأولى.

لولا إن هذه الجريدة منشأة بأموالنا لإفساد ذات بيننا بإغواء المفتاتين على حكومتنا لما كتبت في شأنها كلمة واحدة إذ ليس الشيخ عبد العزيز شاويش أحق بأن يلتفت إلى قوله من صبية الحزب الوطني الذي يخلقون كل يوم من الكذب والبهتان ويخترعون من الغش والتمويه ما نعرض عنه ونغرّ به كراماً كما أرشدنا الله تعالى في كتابه، فنحن نحذر قومنا من دسائس جمعية الاتحاد والترقي لا من شاويش.

فالذي ينبغي لكل محب لقومه محترم لنفسه من العرب أن لا يُعنى بقراءة هذه الجريدة المستأجرة بمال السحت ولا يبالي بما يسمعه عنها. وعلى أصحاب الجرائد العربية الصادقة المحترمة أن لا تردد صوتها، ولا تنقل عنها ولا ترد عليها، ولكن يجب عليهم أن يحيطوا بكل ما فيها، فإن رأوا فيها مفسدة لا بد من درئها وتفنيد باطلها فليكن ردهم على المستأجرين دون الأجير، وعلى الكلام دون المتكلم ولا يعترضوا بما عساه يُكتب فيها من مدح العرب أو دعوى السعي لخيرهم، فقد رأوا مثل ذلك في جريدة العرب وعلموا أنه خداع وتغريب، و«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وهل رأوا شراً من أفاعي جحر الاتحاديين؟ فجريدة «الباطل يسفل» التي سُميت بضد معناها شر خلف للجريدة التي سُميت العرب.

### الوفاق بين المسلمين والنصارى

وعلى عقلاء البلاد السورية أن يعتبروا بهذا الإفساد فيزدادوا استمساكاً بحبل الوفاق والتآلف الذي وفّقهم الله له، وأن يُعنى كتاب المسلمين منهم خاصة برّد كل كلام يُكتب لإفساد ذات بينهم باسم الإسلام ويتحرك نغمة العصبية الدينية فإن هذا الإفساد مخالف لهدي الإسلام، ولا تغرنهم سفسطة بعض أجراء الاتحاديين وزعمهم أنه يجب احترام شاوِش بكونه من علماء الدين لا لأن شاوِشاً ليس من صنف علماء الدين ولا زيّه زيم ولا سمته سمتهم إذ هو يخلق لحيته ويعفي شاربه خلافاً للسنة بل لأن كلامه باطل يُراد به ما هو شر منه والعبرة عندنا بالحقائق والمقاصد، لا بالرسوم والظواهر، وحسب العامي الذي يشتبه عليه الكلام، أن يعلم أنه صادر عن جاهلوا بعداوة العرب بالقول والعمل، فهذه آية لا تُخفى على أحد.

## محاورة بين عالم سياسي وتاجر ذكي (في المركزية واللامركزية)

[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٣٤٤ - ٣٥٢]

التقى أحد التجار الأذكياء بصديق له من أهل العلم والوقوف على السياسة وأحوال الزمان وكلاهما من العثمانيين - ودار بينهما الحديث الآتي :

التاجر - نرى الجرائد قد شغلت الناس بكلمتين ما كنا نسمعهما قبل هذا العهد، وهما كلمة المركزية وكلمة اللامركزية، ونرى الناس قد اختلفوا فيهما اختلافاً كبيراً فمنهم من يقول سعادة الأمة وحياة الدولة لا يسلمان إلا بالمركزية، ومنهم من يقول بالعكس . ولما كنت واثقاً بمعرفتك وصدقك أيها الأستاذ وبإخلاصك للدولة عوّلت عليك في كشف الحقيقة فأسألك أولاً ما هي المركزية واللامركزية؟

الأستاذ - المركزية عبارة عن كون رجال الحكومة العليا في عاصمة المملكة يتولّون بأنفسهم أمر سياستها الخارجية وإدارتها الداخلية، فيكون بيدهم الحل والعقد، والدخل والخرج، والنصب والعزل، وعدم المركزية عبارة عن جعل الإدارة الداخلية لكل ولاية أو قطر من المملكة الواحدة في أيدي أهل تلك الولاية، وتكون رابطتهم بمركز الحكومة العام في الأمور العامة كلها كالسياسة الخارجية والحربية ومصلحتي البريد والبرق.

التاجر - هل الممالك الأوروبية والأمريكية من نوع المركزية أم من نوع اللامركزية؟

الأستاذ - بعضها من هذا النوع وبعضها من النوع الآخر فجمهورية فرنسا مركزية وجمهورية سويسرا والولايات المتحدة لامركزية وكذلك إمبراطوريتا ألمانيا والنمسا.

التاجر - ما هو سبب الاختلاف في نوع إدارة هذه الممالك مع كونها كلها مرتقية في العلم والقوة والسياسة؟

الأستاذ - أما فرنسا فترى أن الإدارة المركزية تناسبها لأن مملكتها كدار واحدة تسكنها أسرة واحدة. فهي ضيقة المساحة ومتصلة الأرجاء كلها بالسكك الحديدية وأهلها من جنس واحد ودين واحد وينطقون بلغة واحدة. وبقيّة الممالك المرتقية ليس لها كل هذه الصفات فكان الأصلح لها والأدعى إلى عمرانها ورضاء أهلها واتحادهم وارتباط بعضهم ببعض أن تكون حكومتها من نوع اللامركزية.

التاجر - ما هو الأصلح لدولتنا العلية؟ المركزية أم اللامركزية؟

الأستاذ - إن اللامركزية أصلح لها، بل لا صلاح لها بغيرها، لأسباب كثيرة إذا أمكن الجدال والمراء في بعضها، فلا يمكن في سائرهما، إلا لمن أراد أن يُسمي الضلالة هداية والباطل حقاً.

التاجر - تكرم عليّ ببيان هذه الأسباب أو المهم منها.

الأستاذ - إن هذه الأسباب قسمان: قسم منها لبيان كون اللامركزية أسهل طرق العمران وأقوى وسائل الترقى، والقسم الآخر لبيان كونها ضرورية للدولة لا يمكن عمرانها ولا حفظها بدونه. وبحثنا الآن في الأول يعد من ترك الضروري للاشتغال بالكهالي. فيجب أن نبحت أولاً عما بقي بلادنا من الخراب والدمار المشرفة عليهما لا إننا في عمران نبحت عما هو أكمل منه، فالولايات المتحدة الأمريكية كانت باللامركزية في مقدمة ممالك الأرض عمراناً، ولو اختارت لنفسها الحكومة المركزية لأمكنها بها أيضاً أن تكون عامرة لأنها على سعتها متصلة الأرجاء بالسكك الحديدية ولها لغة واحدة وتربى أهلها تربية واحدة أو متشابهة، فأين نحن منها ومن التشبه بها؟

أما الأسباب التي تجعل اللامركزية ضرورية للمملكة العثمانية، فأمهما ما يأتي:

١ - إن هذه المملكة واسعة المساحة بعيدة الأرجاء، نائية الأنحاء، حتى أن مساحة آسيا الصغرى والبلاد العربية تضاهي بسعتها ممالك الهند التي يعيش فيها أكثر من ثلاث مئة مليون، وهي على سعتها ليس فيها سكك حديدية تربط ولاياتها بالعاصمة التي صارت في الطرف منها ولا بعضها ببعض، فتوقف أمورها الإدارية والقضائية وغيرها على أمر المركز ونفيه مفسد لها لبطئه ولأسباب أخرى تعلم مما يأتي، فقد تحدث الحادثة المهمة كالثورة الأهلية أو الخروج على الحكومة في بعض البلاد فلا يستطيع المركز العام أن يبدأ بتدارك ذلك إلا بعد عدة أشهر ولا أن ينتهي منه إلا بعد سنين، فأى فساد أشد من جعل أمور الأمن والعدل والتعليم والعمران مقيدة بهذا المركز السحيق.

٢ - إن أهل هذه المملكة مختلفو اللغات، وأكثرهم لا يعرف لغة أهل المركز العام ولا أهله يعرفون لغاتهم، وكذا سائر الشعب التركي الحريص على الاستئثار بجميع أنواع السلطة والحكم وإدارة جميع المصالح في جميع هذه البلاد، فإقامة العدل الذي هو الشرط الأول للعمران متعذر من حكام لا يعرفون لغة الذين يحكمون بينهم، وكذلك سائر المصالح لأنها تتوقف على فهم كل فريق من الآخر، ودع عصبية الأجناس التي أثارها الاتحاديون فيهم.

٣ - إن أهل هذه المملكة مختلفون في الأديان والمذاهب والعادات والأخلاق اختلافاً كبيراً، بحيث أن أكثر مسلمي العرب كأهل الحجاز واليمن ونجد لا يقبلون أن يحكم بينهم بالقوانين التي يرضى بها مسلمو الترك، بل يعدون الحكم بها كفرًا يجب قتال الحكومة التي تقرره عند القدرة على ذلك، فإذا لا يستقيم الأمر إلا بجعل الإدارة والقضاء والتعليم في كل بلاد موافقاً لحالها، وهذا هو أساس اللامركزية.

٤ - إن المتخرجين من مدارس عاصمة دولتنا الرسمية الذين هم أصحاب التقدم في وظائفها الشرعية والإدارية والقضائية (العدلية) لا يكاد



يوجد فيهم أحد يعرف تاريخ جميع شعوب الدولة وأحوالهم الروحية والاجتماعية؛ فتوسيد الأمر إليهم مدعاة الخلل في الإدارة والظلم في القضاء. زد على هذا أن أكثرهم لا يعرف من لغات هذه الشعوب إلا لغة شعب واحد وهي التركية كما قلنا في بيان السبب الثاني.

٥ - إن أكثر المتخرجين من هذه المدارس الرسمية متفرنجون حتى أنه يقل فيمن ينتسبون إلى الإسلام منهم من يؤدي الفرائض ويحْتَنِبُ كبائر المعاصي. وأمثال هؤلاء لا يصلحون لتولي الأحكام بين من يُمَقِّتُونَ التفرنج والفسق وإن كان من المعاصي الشخصية كشرب الخمر، فكيف إذا اقترن كما هو الغالب بالمعاصي التي يتعدى ضررها كالرشوة.

٦ - إن مركز دولتنا شر من مركز كل حكومة مركزية في الدنيا فإن رجالها لا همَّ لهم إلا جباية المال بالحق وبالباطل والتمتع به وعدم وضعه في مواضعه، فأموال الأوقاف والطرق ومخصصات المعارف للولايات لا تُصَرَفُ في مصارفها بل يُجَرَفُ أكثرها إلى المركز العام «الآستانة» وهناك يذوب ويضمحل والبلاد كلها خراب حتى الآستانة، فلو كانت المركزية تصلح هذه المملكة لكان ما علمنا من حال القائمين بها كافياً وحده لتركها وجعل اللامركزية بدلها.

وإنني أعلم علم اليقين، أن الناس ما صبروا على أمثال هؤلاء الحكام في مثل بلادنا إلا كارهين مكرهين، وها نحن أولاء نرى أهل بلادنا السورية وهم أحسن البلاد العثمانية عمراناً بنشاطهم قد يشسوا منها فهم يهاجرون منها أفواجا، فإذا استمرت هذه الهجرة بضع سنين تصبح البلاد خراباً يباباً، وأنت تعلم أن البلاد التي يهاجرون إليها ليست أشد قابلية للعمران من بلادهم، ولكن العمران محال في ظل حكومة مركزية بينها وبين أهل البلاد من الفروق ما أشرنا إليه.

فهذه أهم الأسباب التي تعرف بها أن هذه المملكة لا يصلح أمرها إلا

باللامركزية الإدارية الواسعة أو الاستقلال الإداري التام، وإلا فهي سائرة إلى الحراب أو صائرة إلى الزوال، أعني استيلاء الأجانب عليها بالفتح السلمي أو الحربي.

التاجر - يا لله العجب، إنني سمعت بعض المعترضين على طلاب اللامركزية يقولون إن حسناتها من جهة العمران لا ينكر إلا إنها تكون وسيلة إلى استيلاء الأجانب على كل ولاية تُدار باللامركزية لأنها تنفصل من مركز السلطنة فتكون ضعيفة لا تقدر على حفظ نفسها كما وقع في تونس ومصر.

الأستاذ - يمكنني أن أكتفي من معارضة هذا القول بالسؤال عن ولاية طرابلس الغرب وولايات الدولة الأوروبية التي انقذت منها أولاً، فتألفت منها عدة ممالك، والولايات التي انفصلت منها في هذا العام أو هذه الأيام بقوة تلك الولايات التي صارت ممالك قوية بعد استقلالها، هل كانت هذه الولايات الزائلة وأمثالها مما أخذته روسية والنمسا تدار على قطب اللامركزية، أم كانت - ما عدا طرابلس - أشد الولايات اتصالاً بالمركز ومعهداً ومقرراً لكل ما فيه من القوة؟ فإذا كانت الحكومة المركزية الشديدة لم تمنع أقرب الولايات إلى المركز العام وأشدّها اتصالاً به من استيلاء أضعف الأجانب عليها، فكيف تقدر أن تمنع الولايات البعيدة عن المركز كالعراق وسوريا أن تستولي عليها الدول الكبرى كإنكلترا وفرنسا؟

كان يمكنني أن أكتفي بهذا ولكنني أفرض أن الدولة، أعزّها الله وأصلحها يمكنها أن تحمي سوريا من فرنسا والعراق من إنكلترا بأساطيلها وجيوشها البرية التي تتدفق من المركز العام في طرف المملكة الأقصى - إفرض هذا فأقول ما الذي يمنعها من هذه الحماية إذا كانت إدارة البلاد بأيدي أهلها وهم عثمانيون تابعون لها على كل حال، وما يطلبونه من اللامركزية الإدارية لا يخرج قوة البلاد العسكرية من سلطة المركز العام، ولا يبيح للولايات أن تعقد مع الأجانب معاهدات سياسية، ولا أن

تعطيهم شيئاً من الامتيازات التي تنافي مصلحة المركز السياسية أو الحربية؟ كما كانت عليه تونس ومصر بالفعل قبل حماية فرنسا للأولى واحتلال إنكلترا للثانية، على أن حكومة الأستانة المركزية لو كانت ذات قوة حربية وسياسية لما حلّ بهذين القطرين ما حلّ بهما، فهذه إنكلترا لم تحتل مصر إلاّ بعد أن طالبت حكومة الباب العالي بإرسال جيش عثماني لقمع الثورة العرابية فلم تفعل بل أذنت لها بأن ترسل الجيش الإنكليزي للقيام بذلك وأصدرت إرادة سلطانية بناءً على طلب إنكلترا بعصيان عرابي ومن معه للخليفة أو لدولة الخلافة بقيامهم على الخديو وقتلهم لإنكلترا!

فلو أن طلاب اللامركزية طلبوا الاستقلال الإداري والسياسي والعسكري لكان اعتراض أولئك المعارضين موضع النظر والبحث، ولكنهم لم يطلبوا ذلك كله وإنما طلبوا القسم الإداري منه المتعلق بالمصالح الداخلية المحضة كالإدارة والقضاء والتعليم والزراعة والصناعة، ولا يقصد من هذا إلاّ عمران الولايات وترقي أهلها بحيث تكون كل ولاية عضواً قوياً في بنية الدولة.

التاجر - إن للمعارضين اعتراضاً أقوى من الاعتراض الأول، وهو أن أهل الولايات يغلب عليهم الجهل وفساد الأخلاق والعجز عن القيام بأعمال الحكومة لأنهم لم يتمرنوا عليها وإنما المتمرن على ذلك والمستعد له هم إخواننا الترك. وقد سمعت قولك في ضعف الترك وجهلهم، فما قولك في غيرهم من العثمانيين ونسبتهم إليهم؟

الأستاذ - إنني لا أجهل ما عليه أهل بلادنا العربية من الجهل وضعف الأخلاق ولا أنكر ذلك وأنا أعلمه وأعلم أن سببه الأكبر ما كان من سوء إدارة حكومتهم المركزية واستبداد رجالها وظلمهم، ولكنني أقول إن إخوانهم الترك ليسوا خيراً منهم في شيء قط، لأنهم ليسوا أذكى فطرة ولا أذكى قريحة ولا أفضل وراثه لسلف صالح، ولا كان الاستبداد الذي يفسد البشر أخفّ وطأة عليهم، بل ربما كان أشد، لأن نفوذ الحكومة

الاستبدادية كان عاماً فيهم شاملاً لهم، ولم يعمّ البلاد العربية كلها، فلا يزال فيها ملايين عجز الظلم عن التسلق إليهم، وتضائل الاستبداد أن ينال منهم، ومن دونهم ملايين آخرون (أهل اليمن) وقفوا في وجوه جيشه وقفة القرن للقرن، وكانت الحرب بينهما سجلاً مدة أربعة قرون، ثم إن تاريخ سريانه فيها قريب، وهو في التركية أصيل وقديم.

نعم، إن العاصمة البيزنطية التي كانت تكتفي في الأجيال الخالية بأن يكون لها في كل قطر رجل أو رجلان لتمثيل قوتها وعظمتها، وجباية المال لها، قد وسّعت نفوذها في عهد السلطان عبدالمجيد بعض التوسّع ولم تستطع أن تبث رجالها في كل مدينة من مدن البلاد إلّا في عهد نيرونها عبد الحميد خان، الذي يلعنه أهلها وغيرهم بكل شقة ولسان، فإذا كان عبد الحميد ورجاله وخلفهم من الاتحاديين - وهم شر منهم - هم الذين يفضلهم الجاهلون والمنافقون على سائر أهل المملكة من جميع الشعوب بدعوى أنهم تمرّنوا على الإدارة والأحكام، فحسبنا في الرد عليهم أن السماء والأرض قد استغاثتا من ظلمهم وسوء إدارتهم، وحسبك من الشواهد العيانية ما جرته إدارتهم وسياستهم على المملكة من إضاعة ثلثها الأفريقي وثلثها الأوروبي، وبعض الثلث الثالث الآسيوي، وجعل الباقي على خطر، وإنه لم يوجد أحد منهم له في المملكة أثر من آثار العمران، إلّا أن يكون مدحت باشا على ضعف فيه، فإننا لا ننسى له مثل تأسيس شعبة المعارف في سوريا وخط الترام بين طرابلس ومينائها، وأمثال ذلك من الأعمال الصغيرة فيها نفسها، التي نسكتبرها لأنه لم يخرج من الآستانة أحد له عمل عمراني مثلها، فالبيزنطيون قوم متمرّنون على التخريب، كما ثبت بالمشاهدة والتجريب، فهل نجعل هذا دليلاً على استعدادهم للتعمير؟

إذا أردنا أن ننصف التاريخ في وصف الشعوب العثمانية فلا مندوحة لنا عن القول بأن الشعب الأرمني هو الآن أكثرها تعلماً وتربية مدنية ونشاطاً في الكسب والعمل، ويليه الشعب السوري، وإنما ينقص عنه في نسبة

التعليم والتفرق، فإن تساهلنا وتنازلنا قلنا كلنا في الهوى سوى، فلماذا تجعل الأحكام والمصالح كلها في أيدي البيزنطيين دون غيرهم؟ فإن فرضنا أنهم يمتازون بشيء من قشور العلوم والفنون الأوروبية التي تقرأ في مدارسهم، فأى حاجة لنا بهذه القشور في بلادنا التي لا تعرف لغتهم لتستفيد شيئاً منها، إن كانت محتاجة إليها، على أن كثيراً من أبنائنا المتعلمين في تلك العاصمة والمتعلمين في بلادهم وفي مصر وأوروبا هم خير منهم، فنستغني بهم عنهم.

إننا قد جربنا حكمهم وعرفنا ثمرته فلنجرب استعدادنا أيضاً عسى أن تكون غيرة أهل كل قطر على بلادهم، أشد من غيرة البيزنطيين على ما كان من سلب أموالهم، فتقع المباراة في وسائل العمران بين الشعوب العثمانية كلها، ويعتمد كل منهم على ما آتاه الله من المواهب فتعمر البلاد ويكون بعضها لبعض عوناً وظهيراً.

التاجر - أليس طلب العرب للإدارة اللامركزية مشعراً بكرهية إخوانهم الترك ومشاققتهم؟

الأستاذ - إن الأعمال العامة من سياسية وإدارية تبنى على المصلحة لا على عاطفة الحب أو عاطفة البغض، وإن ما جرى عليه حكم عاصمة هذه الدولة باسم الحاكمية التركية كان وما زال ضاراً بالترك والعرب وسائر الشعوب التي تغلبت عليها تلك العاصمة الظالمة، وإنما يتلذذ الجاهلون من إخواننا الترك بنسبة الدولة إليهم، وتكلم رجال الحكومة البيزنطية بلغتهم، بل بلغة تسمى التركية وإن كان حظها من التركية الأصلية لا يزيد على حظها من غيرها كثيراً. ولا شك إن نسبة هؤلاء البيزنطيين إلى الترك أضعف من نسبة لغتهم إلى التركية، فإنهم أوشاب من شعوب شتى أكثرهم من الروم الذين انتموا إلى الإسلام. وكيفما كانوا وكانت أنسابهم فإنهم قد أضاعوا ثلثي ملك بني عثمان وخربوا الثلث الآخر، ولم يبق في الإمكان أن يطول حكم هذه العاصمة المركزي ولا سيما بأمثال هؤلاء الرجال، فطلب

تغييره يعد خدمة لإخواننا الترك قبل غيرهم من الشعوب العثمانية، وإلا صار الجميع أكلة للأجانب. ولا يعده كراهة للترك، إلا من يود أن تبقى هذه المملكة عرضة للاستبداد والنهب، والحق أن اللامركزية هي التي تشد أواخي إخاء العرب والترك، وعدمها هو الذي يُخشى أن يؤدي في أقرب وقت إلى شقاقٍ عظيم وفتن خطيرة، وأي عاقل يقول إن تمييز أحد الأخوين على الآخر وجعله سيداً له، وحاكماً قاهراً فوقه، هو الذي تقوم به حقوق الأخوة وتحفظ به رابطتها؟ لأجل هذا نرى العقلاء المخلصين من الترك موافقين لأمثالهم من العرب على اللامركزية ومنهم صادق بك رئيس الائتلافيين وموجد الدستور وأركان حزبه.

التاجر - هذا هو الحق المعقول وإن كان بعض وجهاء بلادنا الذين تربوا على النفاق وبعض طلاب المال والجاه من فضلات الاتحاديين يسفهون أنفسهم ويحقرون شعبهم بتفضيل أولئك المخربين عليهم، ثم إنهم يقولون إن كل ما يطلب من الإصلاح باسم اللامركزية يمكن أن يحصل بطريقة أخرى يسمونها «توسيع المأذونية» فما رأي الأستاذ في ذلك؟

الأستاذ - إن ما يسمونه «توسيع المأذونية» ليس إلا توسيعاً لنطاق الاستبداد، فهو شر من عدمه، لأنه عبارة عن إذن المركز العام للولاة وغيرهم من الحكام الإداريين بأن يتصرفوا في بعض الأمور بدون إذن من نظارة الداخلية، فهو يستلزم قلة المسؤولية والتجربة على الاستبداد، ونحن في طور يجب أن تكون المسؤولية فيه شديدة على الحكام لأنهم تربوا على الاستبداد، والكبر الذي هو غمط الحق واحتقار الناس، وذلك منافٍ لروح الحكومة النيابية التي هي شكل حكومتنا الرسمي الآن، وعشاق الاستبداد يزهقون هذه الروح بمثل توسيع المأذونية، لأنه توسيع للسلطة الشخصية، وكيف يتفق توسيع سلطة الولاة والمتصرفين فمن دونهم في حكومة ضيق قانونها الأساسي سلطة السلطان الذي أثبت له منصب الخلافة والقيادة العامة؟ وسترى ما يترتب على ذلك من الفساد.

التاجر - بقي عندي سؤال واحد وهو أنني سمعتُ بعض الناس يقول  
إن اللامركزية ضرورية لا بد منها، ولكن هذا الوقت ليس وقتاً لطلبها  
لاشتغال الدولة بالحرب، فما رأيك في ذلك؟

الأستاذ - سمعت مثل هذا الكلام ورأيت أن بعضهم يقوله تزلزلاً  
للحكومة الاتحادية ونفاقاً لأنه لا يجد كلاماً يشنّع به على طلاب اللامركزية  
أو الإصلاح على قاعدتها غيره، إما مطلقاً وإما كلاماً مرجو القبول عند  
العقلاء، ومنهم من يقوله لاشتباه الأمر عليه وميله إلى قبول كل رأي أو  
قول في تخطيطه من يشغل الدولة عن الحرب، وشبهة جميع من يقولون هذا  
القول هي أن الدولة مشغولة بالحرب وهي أهم الأمور فلا يجوز أن تشغل  
بغيرها! والواجب أن يؤجل هذا الطلب إلى أن يجتمع مجلس الأمة.

وجواب هذه الشبهة سهل جداً نذكره مختصراً لبيان جهلهم وإن كانت  
الشبهة زالت بانقضاء الحرب، وهو من وجوه: ١ - إنه لا يقول عاقل إن  
الحكومات والدول لا تشتغل في أثناء الحرب إلاّ بها وبشؤونها فتعطل  
لأجلها سائر مصالحها الإدارية والسياسية والعلمية والعمرانية، بل يجب أن  
تشتغل كل نظارة منها بعملها الخاص وتدع أمور الحرب لنظارة الحربية وما  
يتعلق منها بالسياسة لمجلس الوكلاء، ونحن نرى الحرب لم تمنع نظارة  
الداخلية من الاشتغال بقانون الولايات ومحاولة تنفيذه قبل جمع مجلس  
الأمة وتصديقه عليه، فكان يمكنها أيضاً أن تضع قانوناً للإدارة اللامركزية  
وإن لم تنفذه مؤقتاً كقانون الولايات.

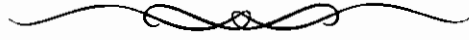
٢ - إن طلاب اللامركزية الذين جعلوا لجتتهم العليا بمصر قد ألفوا لها  
حزباً سياسياً طلب من حكومة الأستاذة التصديق عليه، وغرضه السعي  
إلى انتخاب أعضاء مجلس الأمة (المبعوثين) من الموافقين لرأيه ليقرره في  
المجلس، فأبي شاغل للدولة في هذا عن الحرب؟ وأي مانع فيه يمنع نظارة  
الحربية من القيام بما يجب عليها في قتال أعدائها؟ وهل كان تقصيرها فيما  
يجب عليها ناشئاً عن اشتغالها بهذا الحزب؟ لا لا. وأما طلاب الإصلاح





باشا طرابلس الغرب لإيطاليا فاستخفها الغرور قبل التنفيذ وبعد مقدماته بإخلاء البلاد من العسكر والسلاح إلى محاولة أخذها بالفتح الحربي، وهذا السمسار يطوف العواصم الآن لأجل البيع، ولو نجح طلاب اللامركزية لامتنع عليه هذا البيع لأن برنامجهم لا يميز إعطاء امتياز فيها، ولا بيع شيء منها؛ ولا إنشاء الأعمال العمرانية إلا بقرار مجالس الولايات العمومية فالآن يسهل على مندوب من جمعية الاتحاد، أن يُسمر ويُقرر بيع البلاد، فأبي الأمرين يخشى أن تضع به المملكة ويأخذها الأجانب؟ أليست هي المركزية التي نحن فيها؟ بلى فهل ترى بعد هذا البيان أن طلاب اللامركزية ملومون، وأن المعارضين عليهم مصيبون؟

التاجر - لا، لا، وإني أشكر لكم أيها الأستاذ بيانكم والسلام عليكم.  
(وانصرف).



المؤتمر العربي بباريس  
وحزب اللامركزية بمصر



[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٣٩٢ - ٣٩٥]

يبحث الأوروبيون أنا بعد آن في خطرين وهميين يمكن عقلاً وفرضاً أن ينازعا دولهم في سيادة الأرض، وهما خطر الجامعة الإسلامية والخطر الأصفر. فرضوا احتمال رجوع المسلمين إلى الاعتصام بحبل الإسلام واسترجاع سيادته وقوته ولو في بعض الممالك الإسلامية، واحتمال ارتقاء الأمة الصينية وقوتها في بلادها، فحملهم هذان الفرضان على أخذ الأهبة والتعاون فيما بينهم على إزالة ما بقى من ملك هاتين الأمتين واقتسام بلادهم ولو بالفتح السلمي الذي هو أرقى ما وصل إليه البشر في الفتح والسيادة، هو الفتح بالعلم والعقل والحزم والمال، تؤيدها قوة الأساطيل والجنود عند الحاجة لأجل حمايتها وهيبتها.

أما الشرقيون فتصخّ نذر الأخطار آذانهم، وتفقأ أشباحها المنزعجة

أعينهم، وهم يتسارون بالنذر، ويتجادلون في مواضع العبر، وقد كانت الحرب البلقانية العثمانية آخر صدمة صدمت الشرق فأتت على هدم آخر ركن للاستقبال في آخر مملكة مستقلة فيه أو كادت، وأهل هذه المملكة يتسارون فيما بينهم ويتجادلون، ولا يعتبرون بما حل بهم ولا يزدجرون.

من يحاول من الشرقيين عملاً ما لأمته فإنما يحاوله في آخر الوقت الذي يمكن فيه العمل أو بعد ذهاب الوقت، وقد كان يجب على الأمة العربية أن تهب من رقبتها، وتعمل لنفسها ولدولتها، وثبتت لنفسها وجوداً تحترم به حقوقها وتعمّر بلادها، إن لم أقل إن هذا كان يجب عليها منذ تغلغت السلطة الحميدية التدميرية في ولاياتها، وأنشأت تجهز الحملات العسكرية على معاهد القوة منها كاليمن، والحملات الإفسادية على الولايات الضعيفة كسورية. وإذا لم يفعلوا فليكن ذلك العهد عهد الايقاظ والتنبيه، وعهد الاتحاديين الذي هو شر منه وأضر عهد الوحدة والعمل.

رأى العرب من الاتحاديين ما رأوا من سفك دماء إخوانهم وتدمير بلادهم في اليمن والكرك وحوران، وإفساد ذات بينهم ومقاومة لغتهم في سورية والعراق، ورأوا أن هؤلاء قد أنشأوا يهدمون ما أبقي عليه عبد الحميد من ملك بني عثمان، ومع ذلك لم يزدادوا إلا أَمْلاً ورجاءً في عاصمتهم البنزطية عاصمة الجهل والغرور، والخيلاء والاسراف والظلم والخيانة والتدمير، ولم نر العبر والكوارث المحدقة بهم، والمنذرة لدولتهم، قد أثرت فيهم تأثيراً جمع كلمة أهل الرأي والبصيرة إلى العمل الواجب، حتى إذا بلغت التراقي وقيل من راق، والتفت الساق بالساق، وظفرت جيوش البلقانيين بإخوانهم وأبناء دولتهم، وصارت مدافع البلغاريين تزلزل بدويها تلك العاصمة، وتقلق بأصواتها سلطانها في مضجعه بقصر «ضوله بغجه»، وصارت الأمم الأوروبية، تتحدث بتصفية حساب المسألة الشرقية، وسمع من باريس صوت مزعج يدعي لفرنسة حقوقاً في سورية، ورؤيت المدرعات الفرنسية، تنهّدي في الموانئ السورية وغير السورية،

بعد هذا كله تحرك أهل الغيرة والإخلاص من العرب وحاولوا أن يعملوا عملاً يحفظ بلادهم من استيلاء الأجانب عليها، وأن يصلح حالهم فيها، فكانت حركتهم هذه في آخر الوقت، إن لم نقل إنها كانت أو كادت تكون بعد ذهاب الوقت.

ماذا عملوا؟ ألف أهل الاخلاص والغيرة من السوريين المقيمين بمصر حزب اللامركزية الإدارية العثماني، فلم يجعلوه حزباً سورياً ولا عربياً بل عثمانيّاً عاماً، وقام أهل ولايات سورية، بيروت والشام، والعراق يطلبون الإصلاح لولاياتهم على أساس وقواعد اللامركزية، وفي باريس مثون من العرب السوريين أهل العلم العصري والأدب والتجارة وطلاب العلوم العالية أزعجهم صوت «موسيو بوانكارة، رئيس وزارة فرنسة بالأمس ورئيس جمهوريتها اليوم» إذ قال في مجلس النواب إن لدولته حقوقاً موروثة في سورية. وهم أول من سمع هذا الصوت في مركز قوته وعظمته، فأحسوا بالخطر على وطنهم الخاص وعلى قومهم ودولتهم، فأجمعوا أمرهم على أن يسمعوا فرنسة وسائر عالم المدنية صوتهم المعبر عن احساسهم ورأيهم في أمتهم ودولتهم، وكراهة افتئاتها عليهم ومقامة احتلالها لبلادهم، وأن يدعوا لمشاركتهم من شاء واستطاع السفر إليهم من أمتهم العربية، وهم يعلمون كما يعلم كل عاقل خبير أنه قلما يرحل هذه الرحلة إلا من يشتغلون بالمصلحة العامة من حملة الأقلام الأحرار، وأصحاب الأفكار، فتكون وظيفة المؤتمر الطبيعية أن يطلع العالم الأوروبي على رأي جمهور كبير من العرب يمثل بطبعه نهضتهم، فيعرفوا حقيقة المسألة العربية التي أحدثتها جمعية الاتحاد والترقي في عالم السياسة، ولم تكن شيئاً مذكوراً إلا على السنة جواسيس عبد الحميد وأقلام مستغلي أوهامه، ولا شيئاً موجوداً إلا في خياله وخیال مبغضي العرب من ساسة دولته، وأن هذه المسألة لو وجدت في كتاب تاريخ السياسة قبل الآن، لنجت الدولة بقوة العرب مما وقعت فيه من الخذلان والهوان.

وقد رأى الداعون إلى هذا المؤتمر أنه يجب أن يكون لهم حزب يؤيدهم ويؤيدونه فانتسبوا إلى «حزب اللامركزية الإدارية العثماني» الذي أسس في مصر وجعلوا مؤتمرهم تابعاً له، وطلبوا منه أن يرسل إليهم وفداً يكون أحد أعضائه رئيساً للمؤتمر، فتلقى الحزب ذلك بالقبول واختار السيد عبد الحميد الزهراوي واسكندر بك عمون لذلك وسيكون أولهما رئيس المؤتمر. وقد تقرر أن تدور مباحث المؤتمر على المسائل الآتية:

١ - مقاومة الاحتلال الأجنبي للوطن.

٢ - حقوق العرب في المملكة العثمانية.

٣ - وجوب تغيير شكل الإدارة العثمانية الحاضر وجعله من نوع اللامركزية الإدارية إذ لا يرجى صلاح المملكة بدون ذلك، ولا بقاء لها إلاً بصلاحتها كما تقتضيه سنة الله تعالى في الخلق، المعبر عنها في لسان العلم بالانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل.

٤ - المهاجرة من سورية وإليها.

هذه المسائل هي أهم المسائل الاجتماعية الحيوية في المملكة العثمانية، وأكثرها قد صار حديث ساسة الدول وجرائد الأمم، ولولم يوجد من العرب حزب ولا مؤتمر يبحث فيها لجاز لجميع الأمم والدول أن تعتقد أنه لا يوجد في المملكة العثمانية أمة تسمى الأمة العربية، وأن تصدق مغروري جمعية الاتحاد والترقي في زعمهم أن العرب ليسوا أمة ولا شعباً فيحسب لهم حساب في إدارة المملكة العثمانية ومصالحها وإنما هم قسمان: عرجلة أو عراجل من الوحوش في اليمن وبوادي الشام والعراق والحجاز ونجد ينكل بهم الجيش العثماني «المظفر» وقطعان من الغنم في سورية ومدن العراق تتصرف بهم الحكومة المركزية بما تشاء من رعي ومنع، وذبح وبيع.

سيكون لحزب اللامركزية ولمؤتمره في باريس وطلاب الإصلاح المبني



الاستمالة، ولولا أنها وجدت فيهم بعض المنافقين يهونون عليها أمر طلاب الإصلاح لما تلبثت في قبوله إلا قليلاً. فإذا كان هذا السعي مفيداً مع كونه أمر الدولة في أيدي الاتحاديين أعداء العرب والإسلام، فكيف يكون نفعه إذا عجل الله انتقامه منهم، ودالت الدولة للائتلافيين<sup>(\*)</sup> والصباحيين دونهم. يومئذ يكون العرب شركاء الترك لا عبيدهم في هذه الدولة، فلا يكون أحدهما مظلوماً مع الآخر فيمقتته ويخذله، ويقوم بناء إدارة المملكة على قواعد اللامركزية الثابتة، يومئذ يعرض المنافقون على أيديهم يقولون يا ليتنا اتخذنا مع حزب المصلحين سبيلاً، وخفضنا من إسرافنا في التملق للاتحاديين المفسدين ولو قليلاً.

وجملة القول إنه قد ثبت قطعاً أن الدولة لا تستطيع حماية بلادها من الدول الكبرى إذا أردن اقتسامها، وأن أمر اقتسامها منوط باتفاق الدول بينهم لا بطلب الأمة للإصلاح وعدمه وأنه إذا لم يصلح الأمة ويظهر استقلالها بشؤونها الإدارية والاقتصادية فإن بلادها ستكون غنيمة باردة للأوروبيين سواء احتلوها بالجند أم لا، وإنها لن تصلح ما دام أمرها كله بأيدي من يتغلب على السلطة في عاصمتها ولو بالثورة وسفك الدماء. فنسأل الله أن يأخذ بأيدي المصلحين، ويكفيهم شر المستبدين والطامعين، آمين.



---

(\*) يظن كثير من الناس أن وزارتي مختار باشا وكامل باشا كانتا ائتلافيتين وهذا خطأ وقد سمعنا من صادق بك رئيس الائتلافيين أنهم لما أسقطوا وزارة سعيد باشا رأوا أن يشبوا للأمة أنهم يعملون لها لا لأنفسهم فسلموا الوزارة لأشهر رجال الدولة وكان يجب أن يشاركوهم فيها.

تفريط الاتحاديين بحقوق الدولة  
في خليج فارس والعراق والطرف  
الشرقي من جزيرة العرب  
والتزلف بذلك إلى إنكلترة

[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٤٧١ - ٤٧٣]

إن خليج فارس وشط العرب وبلاد العراق وما يتصل بها من البلاد العربية خير للدولة العثمانية من الآستانة وما يتصل بها من البلاد الأوروبية، ولكن رجال الدولة وجمهور المتعلمين منهم في مدارس الآستانة مفتونون بعظمة القسطنطينية ومقامها التاريخي وموقعها الجغرافي ويعدون دولتهم ما دامت هنالك دولة أوروبية وإن لم يجنوا من هذا الموقع وهذه النسبة إلا النكال والوبال، والسلاسل والأغلال، بل فقد الاستقلال، وهم مع كل ما أصابهم من الشقاء والخسار في فتح هذه البلاد الأوروبية ثم في ترك معظمها لا يزالون يعدون بقاءهم في قطعة أرض منها على شفا من طرف مملكتهم علواً وعظمة وإن كان على حد المثل العامي «علو ولو على الخازوق» ولو عمرت الدولة تلك البلاد لكان لها منها ثروة تغنيها عن أوربة وتجعلها دولة أسيوية قوية عزيزة كاليابان بل أهم من اليابان لأنها القلب الذي يصل الشرق بالغرب.

من المعلوم بالضرورة من السياسة الأوروبية الحاضرة أن الدول الكبرى انفرقت إلى فريقين عظيمين بتنازع إنكلترة وألمانية الأولوية في سيادة العالم. وما أظهر هذا التنافس والتنازع بينها إلا سكة حديد بغداد التي منحتها الدولة العثمانية للألمانيين فأقامت بذلك قيامة إنكلترة عليهما وحملتها على موالاة الروسية ومواتاتها على ما تريد من العثمانية ومن إيران، على



معارضتها في اىصال الألمانين سكتهم إلى شط العرب أو خليج فارس، فهذا الموقع العثماني العظيم الذي غير سياسة العالم القديم، وجر على العثمانية والإيرانية الرجز الأليم، لا قيمة له في نفس ساسة الآستانة، حتى كان من هوانه عليهم ما عهدت به جمعية الاتحاد والترقي إلى مندوبها حقي باشا الذي أعطته إضاعة طرابلس الغرب مهارة عملية، في إضاعة الممالك العربية، وذلك أنها أرسلته إلى أوروبا ليستميل إليها الدول بما يبذله لمن من المصالح والحقوق في البلاد العربية العثمانية، تحقيقاً لقول من قال منهم لبعض أبناء العرب في الآستانة: اننا نبيعكم ونرقي أنفسنا بثمانكم.

بدأ حقي باشا الماهر بأن بذل لإنكلترة منتهى ما تسعى إليه إنكلترة من زمن طويل في شرقي البلاد العربية، بذل لها حقوق الدولة في شط العرب وخليج فارس وشرقي جزيرة العرب، وهي تعمل عملها وتمد نفوذها في غربيها وجنوبيها لتحيط بها من جميع أطرافها، ووالله إنه لو بذل لها الآستانة وما بقي للدولة في أوروبا كله واستبقى ما بذل لما كان إلاً باذلاً الذي هو أدنى ومستبقياً الذي هو خير. وإننا قبل بيان ذلك نشر نبذة لجريدة التيمس من مكاتبها في الآستانة عن مصالح إنكلترة في البلاد العربية وهي:

### كلام التيمس في حقوق إنكلترة في بلاد العرب

«إن اهتمام إنكلترة بما يحدث في البلاد العربية هو أعظم أهمية مما يتصوره الناس فقد استولينا على عدن ولنا حق الحماية على كثير من الزعماء والقبائل في الداخلية فضلاً عن سلطتنا على أمير عظيم الشأن وهو سلطان لحج ولنا فوق ذلك نفوذ الحماية على ساحل البلاد العربية الجنوبي إلى عمان. ومصالحنا أعظم من مصالح سوانا وهي مؤيدة بالمعاهدات. ثم إن زعماء العربان في ساحل القرصان على الخليج العجمي هم تحت حمايتنا وتوجد علاقات خاصة بيننا وبين شيخ الكويت وهو عامل عظيم في سياسة

الأعراب وبذلك نجد أن نصف السواحل العربية كائن فعلاً ومباشرة تحت نفوذ إنكلترة ولذلك قد تكون الأحوال هناك أحياناً ذات أهمية خاصة لإنكلترة.

أما عدن بالذات فإنها الآن في شغل داخلي شاغل فقد أدخل فيها مشروع جديد للضرائب والغاية منه سد نفقات تحسين المياه ومنع ذوي السوابق من الدخول إليها.

هذا المشروع قد أحدث شيئاً من الانقسام والخلاف وهناك مشروع آخر تحت النظر لإنشاء ترام بخاري من تواهي الى الشيخ عثمان. أما تجارة عدن فلا تتقدم والمناظرة شديدة بينها وبين جيبوتي والحديدة ولا يتيسر لعدن الحصول على نصيبها من تجارة الداخلية إلا إذا وجدت المواصلات بينها وبين داخلية اليمن والأحوال هناك ليست على ما يرام فالقبائل في نزاع دائم إحداها مع الأخرى وجميعها مع الأتراك. والقبائل الموجودة تحت حمايتنا تحارب القبائل الكائنة في آسية تحت حماية الدولة العثمانية، والجيش العثماني يحارب أتباع إمام صنعاء وحقيقة الأمر أن الأتراك لم يستولوا فعلاً على اليمن ولم يحسنوا الولاية على القسم الذي يملكونه.

أما في الساحل الغربي الجنوبي فإن سلطان مكللاً الكائن تحت حماية إنكلترة قد حارب أخيراً في بلاد حضرموت وهو يزحف على خصومه على أنه لا يملك إلا ألف مقاتل فلا أهمية لغزواته والناس لا يعلمون شيئاً عما يحدث في داخلية البلاد العربية يومياً من الغزو والحروب والخلاف الدائم مع أن البلاد العربية أنجبت فيما مضى رجلاً حمل أتباعه السيف والدين فدخلوا القارات الثلاث ومع أنه لا ينتظر أن تنجب مثل هذا الرجل فيما بعد فلا يبعد أن تكون عاملاً خطيراً في سياسة العالم.

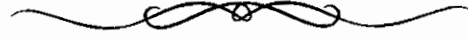
وتكلم المكاتب عن الخلاف القائم بين ابن سعود وابن الرشيد وختم مقالته بقوله: لئن كان هؤلاء المتحاربون في ظاهر الأمر لا يهتمون بإنكلترة

فربما استطاعوا يوماً ما بطرق مختلفة أن يؤثروا في مركزنا في خليج العجم المتصل اتصالاً تاماً بسلطتنا على الهند».

هذا ما كتبه جريدة التيمس لسان حال حكومتها في إثر ما كتبه عن حقوق دولتها أو مصالحها في مصر، فهل تجهل حكومتنا العثمانية هذا أم تعرفه وتريد أن تحقق آمال إنكلترة وتنبئها مآربها في البلاد العربية في مدة أقصر مما قدره ساستها لذلك؟ وما هو حظ الدولة من ذلك؟

نحن نعلم كما يعلم كل واقف على السياسة وسير الأمم والدول فيها أن الإنكليز قد مدوا أعينهم فأصابعهم إلى خليج عمان وخليج فارس وشط العراق منذ ثلاثة قرون، ولكنهم كانوا ينظرون إلى تلك المعاهد خلصة، ويحركون أصابعهم فيها خفية، وما زاد اهتمامهم في الأمر إلا توجه نابليون بونابرت الكبير الهمة الواسع الفكر والطمع إلى سلوك طريق الإسكندر المكدوني ووصل الشرق بالغرب، وإنما هو طريق العراق وذلك الخليج، ومنذ قضى دهاة الأرض وأقطاب سياستها على نابليون ومطامعه جميعاً طفقوا ينفذون مقاصده لأنفسهم بالتوادة واغتنام الفرص كعادتهم فاحتلوا مصر بعد إخراجها منها بنحو ثلاثة أرباع القرن، ويظهر أن دولتنا سهلت لهم أن يتمموا الأمر كله في مثل هذه المدة، كان من حسن حظهم أن سياسة عبد الحميد الخرقاء مكنت لهم في أرض مصر ثم أرادت أن توجد لهم حصصاً قوياً في العراق ومنفذه البحري إلى الهند فأعطت امتياز سكة بغداد للألمان وأضرمت نار العداء والتنافس بينهم وبين الإنكليز لمعارضة هؤلاء في مدها ومشايعة الفرنسيين لهم وبيد الفريقين معظم ثروة أوروبا. وكانت الدولة العثمانية ولا تزال ترى أن حياتها متعلقة بتنازع دول أوروبا الكبرى على المصالح والمنافع فيها، بل كانت محصورة في تنازع إنكلترة وروسية، فأزال هذا التنازع عبد الحميد بسوء سياسته ولكنه استبدل به التنازع بين إنكلترة وألمانية، فجاء بعده الاتحاديون فكانوا شراً منه ومن قبله وبعده سياسة لأنهم بما عقدوه من الاتفاق في هذه الأيام بين مندوبهم

حقي باشا والحكومة الإنكليزية قد أزالوا هذا التنازع أيضاً فأزالوا به كل عقبة تحول بين الدول وبين اقتسام بلادهم، ويظن أعداء العرب منهم أنهم بذلوا أهم مواقع البلاد العربية وسلمت لهم الأناضول التركية! ولكن هيهات، هيهات! ان عبد الحميد حفر اللغم تحت بلاد الأناضول والاتحاديون وضعوا فيه البارود وأضرموا فيه النار.



### نظرة في الحرمين الشريفين

«ومشروع جماعة خدام الكعبة»<sup>(١)</sup>

[المفارج ١٦ (١٩١٣) ص ٥٤٥ - ٥٤٩]

إن السبب الذي دعا مؤسسي مشروع جماعة خدام الكعبة الى تأسيسه هو اعتقادهم أن الحكومة العثمانية لم تعد قادرة على حماية الحرمين الشريفين. وقد دعي الشيخ الجليل النواب وقار الملك الشهير إلى الانتظام في سلك جماعة خدام الكعبة فقبل ذلك مع الفخر والشكر ولكنه اعتذر عن حضور جلسات لجنة الجماعة لضعفه وكتب مقالة في بعض الصحف قال في أوائلها ما ترجمته:

«الأصل أن كل دين إذا لم تكن له قوة شديدة تحافظ عليه فبقاؤه وثباته وحفظ آثاره في منتهى العسر والصعوبة، وقد يخرج أحياناً عن الإمكان، وأن ما فعله نصارى البلقان المغيرون من إكراه مئات الألوف من المسلمين على التنصّر بقوة السيف لا وجه له إلا أن الترك ما كانوا يقدرّون على

(١) «دستور العمل لجماعة خدام الكعبة». المفارج ج ١٦ (١٩١٣) ص ٤٥٩ - ٤٦٤

كفهم ومنعهم لتلك الأسباب التي نعلمها كلنا، والثاني عدم وجود قوة شديدة في هذا الوقت تحفظ بها حرية المسلمين»

ثم قال النواب الجليل: إن الاتكال على مشروع خدام الكعبة يخالف الفتوة والعزم وإن من رأيه «أنه يجب على المسلمين أن يوقفوا مع التمسك القوي بهذا المشروع أن الترك هم العنصر الإسلامي الوحيد في الدنيا الذين إذا تطهروا من النقائص الداخلية والخارجية يمكنهم أن يقوموا على أحسن وجه في المستقبل إن شاء الله بما كانوا قائمين به إلى الآن من المحافظة على تلك الأماكن والقيام بخدمة الكعبة المعظمة»، ثم أورد آراء ونظريات وتمنيات في حال الترك وما يترتب على ميلهم إلى التجارة والحرفة والصناعة إذا هم مالوا، وبنى على تلك الآراء والنظريات أنهم يمكنهم حماية إخوانهم وجيرانهم الإيرانيين فوق حماية البلاد المقدسة وغيرها. وكانت نتيجة آرائه دعوة مسلمي الهند إلى مساعدة الدولة العثمانية بالمال، لتحقيق هذه الآمال، وذلك بشراء قراطيس الدين الذي أصدرته نظارة المالية العثمانية.

نتيجة حسنة لا نناقشه في مقدماتها من هذه الجهة بل نشكر له هذه الدعوة فإن أقل فائدتنا من إمداد إخواننا مسلمي الهند لدولتنا بالمال أنه ربما تستغني بذلك عن بيع أراضي بلادنا للأجانب وقد عرضتها للبيع رسمياً وهذا أكبر المصائب علينا وعلى حرماننا. ولكنه قال في سياق كلامه كلمة عن العرب لا بد لي من ذكر ترجمتها هنا وبناء البحث في خدمة الكعبة المعظمة بل الحرمين الشريفين عليها وعلى الكلمة الأولى التي قالها إخواننا الترك وذكرناها في فاتحة كلامنا هنا، وهي:

«إن شجعاناً أقوياء مثل العرب عشاق الإسلام إذا مزجوا دمهم بعرقهم في المحافظة على الكعبة وروضة النبي (ص) وبقيّة الأماكن المقدسة مع الأتراك فلا يمكن لأي قوم في الدنيا مقابلتهم في جبالهم ورمالهم. ومتى ما عرف العرب ومهروا في العلوم والفنون الجديدة التي بدأ الترك بسلسلتها

من انشاء الجامعات في بلاد العربية فاعلموا أن هؤلاء العرب هم أولاد أولئك العرب الذين نشروا إلى مدة من الزمن أنوار العلوم في جميع الدنيا» اهـ.

أقول: يا ليت صديقنا النواب الجليل الصادق النية كان واقفاً على حقيقة حال العرب والترك ليؤلف بعقله المنطقي الكبير أقيسة مقدماتها صحيحة فتأتي بالنتائج الصحيحة التي نحتاج إليها من مثله، وإنني مضطر بسائق المصلحة الإسلامية إلى أن أقول له:

- ١ - إن إخواننا الترك ليسوا هم الحماة للحرمين الشريفين إلى الآن.
- ٢ - وإنهم ليسوا أرقى من إخوانهم العرب في العلوم والفنون وال عمران.
- ٣ - وإنهم دونهم في التجارة والزراعة والكسب.
- ٤ - وأنه لا يوجد أحد في الدنيا يقدر على حماية الحرمين من العدو الأجنبي إلاّ عرب الجزيرة من الحجازيين واليمانيين والنجديين والعراقيين والشاميين.
- ٥ - وإن دولة الترك هضمت حقوق العرب وتعمدت إضعافهم وجعل الحرمين وما حولها أبعد بلاد الدنيا عن العلوم والفنون وال عمران.
- ٦ - وإننا قمنا بعد الدستور نطالبها بحقوق العرب كافة على قاعدة اللامركزية لتقوى وتعمر كل بقعة بحسب حالها المناسب لها في طبيعة الاجتماع البشري.

٧ - وإنها كانت تقابل مطالبنا بالاحتقار والسخرية والسعي في تفريق الكلمة حتى علمت أن عاقبة هذا خسر وخطر فجئنا للوفاق وسيتم إن شاء الله تعالى على الوجه النافع المرضي، فإن نازعني في مقدمة من هذه المقدمات فأنا مستعد لبيانها له بالتفصيل.

بقيت المسألة الحربية والشجاعة. إن العرب قسماً: بدو وحضر، فالحضر من القطرين الشامي والعراقي مشاركون لإخوانهم الترك في علم الفنون العسكرية الأوروبية وفيهم مثات من الضباط أركان الحرب وغير أركان الحرب متخرجون في أوروبة وفي الأستانة، والعسكر يؤخذ من عرب ولايات القطرين وما بينهما كالموصل وديار بكر بالنظام الذي يؤخذ به من الولايات التركية، وكل منها آية في الشجاعة ولكن ضباط الترك أكثر. وقد ظهر لنا بالعيان أن الحرب النظامية التي يدير حركتها هؤلاء الضباط هي التي أذلتنا وأسقطت قيمة شجاعة جنودنا في الحرب البلقانية الأخيرة وفي الحرب الروسية التي كانت قبلها وكانت مقدمة لاستقلال هؤلاء البلقانيين بعد أن كان أكثرهم تابعاً لدولتنا. ونسب فيهما لقواد الترك من الخيانة ما لم يتلوث بمثله العرب، ولا يشك أحد في أن سلانيك عاصمة أحرار الترك والمركز العام لجمعية الاتحاد والترقي قد أخذها اليونان غنيمة باردة بخيانة حسني باشا ورجاله. ونحن لا نحب المفاضلة بين العرب والترك في أمر مشترك بينهم كالجنودية وإنما ذمنا هنا خاص ببعض القواد والرؤساء الذين كانوا سبب كل بلاء حل بدولتنا لا للعنصر التركي. على أنه قد كان للعرب في هذه الحرب البلقانية حملات خصهم العالم بالثناء عليها. لا أفضل شعباً على شعب في الشجاعة والحرب ولكنني أقول: إن المدرسة الحربية وغيرها من مدارس الأستانة لم تفسد من دين العرب وأخلاقهم كما أفسدت من غيرهم.

وأما البدو من العرب ومن على شاكلتهم من سكان المدن والقرى في عقر الجزيرة فهم أشجع قلباً وأشد بأساً من حضر العرب والترك الموصوفين بالمدنية حتى أن عرب اليمن ونجد يصفون الجندي العثماني بالجبين والضعف، ولو كان هؤلاء القوم يعرفون من النظام العسكري ما يعرفه الجند العثماني ويحملون من السلاح ما يحمله لكان التابور منهم يغلب عشرة توابع من غيرهم.

قد أصبح من البديهيّات التي لا يختلف فيها اثنان أن الجيش العثماني لا يقدر على صدّ أية دولة من الدول الكبرى إذا أرادت الاستيلاء على الحجاز وإنما يقدر ذلك عرب الحجاز واليمن ونجد والشّام والعراق، لا يحتاجون فيه إلّا إلى القوت الضروري والسلاح والذخيرة واتفاق الكلمة، فإن كان هؤلاء مستعدين بما ذكرنا للدفاع عن حرمهم وبلادهم لا يمكن أن تتجرأ دولة أوروبية على الاضطلاء بنارهم لأسباب متعددة. منها: شجاعتهم وصبرهم وعدم مبالاتهم بالموت. ومنها: إنهم لا يقفون في وجه عدوهم ويحاربونه حرباً نظامية يقضى بها على معسكرهم إذا غلب، بل يتألفون عصابات تهاجم مكان الضعف منه عند إصابة الغرة فإن لقيت ما لا قبل لها به فرت من وجهه في صحاريها واعتصمت بجبالها حتى تصيب غرة أخرى. ومنها: طبيعة البلاد وتعذر معيشة الأوروبي فيها. ومنها: إن الخسارة الكبيرة فيها ليس وراءها ربح مادي يكون عوضاً عنها. وقد انقرض التاريخ الذي كان الأوروبيون يسفكون فيه أنهار الدماء لأجل الانتقام الديني أو عظمة الملوك وقهر أعدائهم.

كل ما يمكن أن تفعله دولة أوروبية بحرية في هذه السبيل هو أن تستولي على سواحل جزيرة العرب فتبدأ منها بما عدا الحجاز كاليمن وحضرموت والعراق وسورية ثم تجعل سواحل الحجاز تحت مراقبتها البحرية فتمنع عنها السلاح، وتلقي العداوة والبغضاء بين أمراء الجزيرة، فتغري بعضهم ببعض وتساعد من يستجيب لها على خصمه بالمال حتى إذا ما فل الحديد الحديد، وبأس القوم بينهم شديد، وضبطت موارد الرزق ومنع السلاح تعقد الدولة التي تفعل ذلك مع كل أمير وزعيم في جهة من جهات الجزيرة اتفاقاً على حرية التجارة وتأمين التجار وغيرهم، ويدخل وراء ذلك الخمر وتجاره والبغاء وفجّاره، والمبشرون وكتبهم، كما وقع في مسقط والكويت وجميع بلاد الدولة، فيقع العداء الشديد بين الشعب ورؤسائه ويتم لأعدائهم ما يريدون منهم. وكم أظهر دعاة النصرانية من



الإفرنج الشغف والميل والرجاء والأمل بأن ينشروا دعوتهم في جوار الكعبة وعرفات ومسجد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، وكم أظهر متعصبو السياسة ما يتمنونه من نقل الكعبة والقبر الشريف ووضعهما في «اللوfer» أو غير اللوفر من دور التحف والعاديات في أوروبا لتكون أثراً تاريخياً يفتخرون به «قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون» [سورة آل عمران رقم ٣ الآية ١١٨].

فالواجب على الدولة العثمانية أولاً وبالذات أن تعترف بالاستقلال الإداري والدفاعي لجميع إمارات البلاد العربية ومنها الحجاز وعسير واليمن بشرط أن لا تنفرد إمارة منها بعقد اتفاق ولا معاهدة مع الأجانب لا سياسية ولا اقتصادية، وأن تساعد على تنظيم إدارتها وقوى الدفاع فيها وعمرانها بالوسائل المقنعة المرضية عند أهلها، وجمع كلمة أمرائها، وأن يكون الجند الذي ينظم فيها عوناً للدولة على أية دولة أجنبية تحاربها بقدر الاستطاعة. وبهذا تربح الدولة قوة كبيرة لا تنفق عليها شيئاً من المال، وتستفيد إخلاص العرب في هذه الإمارات وفي ولاياتها السورية والعراقية، ولا تخسر في مقابلة هذا الربح شيئاً. فإنها منذ أعلنت امتلاكها لتلك الإمارات في جزيرة العرب إلى هذا اليوم لم تربح خزينتها منها شيئاً بل خسرت الملايين من الأموال ومئات الألوف من الرجال وتخريب البلاد وإفساد العمران. فبهذا يحفظ الحرمان الشريفان من عدوان الأجانب، فإن الشيء لا يحفظ إلا بحفظ سياجه.

فإن قيل: إن الدولة ما تعمدت إضعاف العرب وحرمت بلادهم حتى الحرمين الشريفين من العلم إلا خوفاً أن يعتزوا ويقووا فيستقلوا دونها ويستعيدوا الخلافة الإسلامية فكيف تسعى هي إلى تقويتهم؟ فالجواب: إن هذا اللقب قد جنى على الإسلام والمسلمين أكبر الخطوب والمصائب وكان أشد أسباب ضعفهم من حيث لم ينفعهم شيئاً وأنا أضمن أن أولئك

الأمراء يرضون بأن يعترفوا لسلطان الدولة بالخلافة إذا هي رضيت بما ذكرنا.

والواجب على المسلمين في جميع بقاع الأرض أن يساعدوا أهل تلك البلاد المقدسة على كل ما به حفظها وحياتها الدينية والمدنية سواء وفقت الدولة للقيام بما يجب عليها لها أم لم تقم بذلك، وإنما تطلب المساعدة منهم بالمال ثم بالرجال الذين يصرفون ذلك المال في إنشاء المدارس والملاجيء وأسباب القوة والعمران، وتحسين معيشة العريان، وإذا نجحت «جمعية خدام الكعبة» وأصلحت قانونها فإنها تستطيع أن تؤدي خدمة جليلة يشكرها لها الله تعالى من فوق عرشه ويشيها عليها ويشكرها لها جميع المسلمين. ومتى رأوا باكورة ثمرتها يدخلون فيها أفواجاً والله الموفق والمستعان.



## قتل محمود شوكت باشا



[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٥٥٦ - ٥٥٨]

أهم حوادث هذا الشهر قتل محمود شوكت باشا الصدر الأعظم وناظر الحربية. كان خارجاً بسيارته الكهربائية من نظارة الحربية فدنت منها سيارة أخرى عند وقوفها في الطريق بسبب مرور جنازة وأطلق عليه الرصاص ثلاثة نفر منها. فخر صريعاً في الحال وطارت سيارة الجنازة فلم يدرك لها أثر. وقد عرا جماعة الاتحاديين الوجل والذعر لهذه الفاجعة وهم زعماءهم بالفرار من الأستانة أو الاستخفاء فيها فكان أثبتهم جاشا جمال بك محافظ العاصمة فثبتهم وبادر إلى إلقاء القبض على كل من وجد من خصوم

الاتحاديين السياسيين الذين كان يصرف جل أوقاته في مراقبتهم وأسلمهم إلى ديوان الحرب العرفي وكل رجاله من الاتحاديين فعذبهم وأساء معاملتهم، فألقى الرعب في قلوب أهل العاصمة وتمكنت الحكومة والجمعية من الاحتفال بجنائز قتيلاها فكان عظيمًا، وجعل ناظر الخارجية البرنس سعيد باشا حليم صدرًا أعظم.

ثم لم يلبث ديوان الحرب أن سجن مئين ونفى مثلهم وحكم بالإعدام على عشرة من كبار الزعماء الذين جعلهم جمال بك في موضع التهمة بالاشتراك بالقتل أو التدبير له. وبادرت الحكومة بأخذ توقيع السلطان «الإرادة السنية» بقتل من قبضت عليه منهم وفي مقدمتهم صالح باشا بن خير الدين باشا التونسي الشهير وهو من أصحاب السلطان. وروت الجرائد أن أخت السلطان شفعت عنده في زوجها وبكت وأبكت ولم يمكن العفو عنه لإصرار الاتحاديين على قتله لأنه من أكبر خصومهم. وحكموا أيضاً على صباح الدين أفندي ابن أخت السلطان فاستخفى بمساعدة بعض الأجانب وفر كثير من خصومهم السياسيين لاعتقادهم أن الجمعية ستغتني هذه الفرصة للفتك بجميع من تظفربه من المخالفين لها في سياستها. ومن جملة الذين فروا إسماعيل بك وكيل حزب الحرية والائتلاف، وكان الاتحاديون قبل الحادثة قد عرضوا عليه تأليف الوزارة من الحزبين «الاتحادي والائتلافي» فأبى وقال إن حزبه قد أعلن رسمياً ترك العمل مدة الحرب لعدم التهويش على الحكومة بالسياسة فليس له صفة للاتفاق معهم الآن. وكذلك كانوا كلموا صباح الدين أفندي في الاتفاق معهم فأبى. ذلك بأنهم كانوا يشعرون بضعفهم ونفور الأمة منهم وكيد الأحزاب لهم فكان قتل زعيمهم قوة لهم لأنه كان من قبل الأفراد لا الأحزاب كما علمنا فجعلوه حجة لتككيل الحكومة بالرجال الذين يخالفونهم.

اختلف العثمانيون والإفرنج في الثناء الحسن والقبيح على محمود شوكت باشا كما هو شأن الناس في كل من ينال شهرة، والحق الذي ظهر لي من

كلام المختلفين واختباري الشخصي بلقائه مراراً متعددة في الأستانة وسماعي كلامه وآراءه وكلام العارفين فيه أنه رجل عسكري غير سياسي، وأن معارفه العسكرية أكبر من شجاعته، وأنه كان يخاف جمعية الاتحاد والترقي فجارها على إشغال الجيش بالسياسة وكان يتربص الفرص لإزالة سلطتها من الدولة إلى أن اتهمه مجلس المبعوثين بالتواطؤ مع حقي باشا الصدر الأعظم على إضاعة طرابلس الغرب وطلب محاكمته معه فلم يجد أمامه ملجأ يحميه من المجلس إلا الجمعية التي أضاعت نفوذها من المجلس فكاد يسقط وزارتها بتهمة الخيانة، عند ذلك ساعدها محمود شوكت باشا بنفوذه وتأثيره في القصر السلطاني فأصدر لها إرادة من السلطان بحل المجلس وصار معها بقلبه وقلبه، ووثقت هي به، فولته منصب الصدارة ونظارة الحرية بعد إسقاطها وزارة كامل باشا الأخيرة بقتل ناظم باشا ناظر الحربية.

لما جئت الأستانة في أول شوال سنة ١٣٢٧ [هـ ١٦/١٠/١٩٠٩] للسعي في تأسيس جمعية الدعوة والإرشاد فيها كتبت إلى هادي باشا قائد الجحفل الثالث في سلانيك أستشيريه في بدء السعي في ذلك فكتب إليّ أن أبدأ بعرض المشروع على محمود شوكت باشا وأعمل برأيه وكتب كتاباً يعرفه بي، فلما قابلته بين لي رأيه في المشروع وإن الإسلام والدولة في أشد الحاجة إليه وما يخشى من المقاومة له، وعهد إليّ أن أذهب من قبله إلى الصدر الأعظم «حسين حلمي باشا» أولاً ثم إلى ناظر الداخلية «طلعت بك» وأن أرجع إليه فأخبره بما يقولون، ثم كانت سيرته معي أو سيري معي هكذا: كلما تجدد شيء في السعي أخبره به ويذكر لي رأيه فيه، وقد كنت أجلس عنده الساعة والساعتين وأكتب من كلامه ما أراه جديراً بأن يكتب في دفتر المذكرات المؤرخ، ومنه كلمة فلتت بالمناسبة في رأيه في زعماء الاتحاديين أشرت إليها في مقال سابق من غير عزو إليه، وهي قوله بمناسبة وعد طلعت بك وحقي باشا بتنفيذ المشروع «هل صدقت؟ إن هؤلاء ظاهريهم غير باطنهم».

لو أن محمود شوكت باشا شجاع لأسقط الجمعية أو أصلحها، ولو أنه أمر بمحاكمة قاتلي سلفه ناظم باشا لما اشتد السخط عليه وأقدم من أقدم على قتله.

ذهب معي مرة لزيارته صديقي السيد عبد الحميد الزهراوي وكان مبعوثاً فائثينا على خطبته التي خطبها في نظارة الحربية بوجوب امتناع الضباط من الاشتغال بالسياسة وقلنا له إننا لا نزال نراهم على حالهم لم يمتنعوا، وذكرنا له حادثة كانت وقعت في نابلس من أقبح حوادثهم وأفظعها في العدوان، فقال أما هنا فقد امتنع اشتغالهم بالسياسة وأما في الأماكن البعيدة كبلادكم فيحتاج منهم البتة إلى زمن، ولكن ظهر بعد ذلك رسمياً مما كتبه في عريضة استقالته من نظارة الحربية أن قوله هذا غير صحيح. وذكرنا له مسألة التناظر والتغاير بين الترك والعرب وأعمال رجال الدولة والجمعية التي أحدثت الخلاف وما يجب من تلافيه. فقال إنني أسمع كلاماً في هذا لا يعجبني وأرى مستقبل الدولة لنا نحن العرب لأننا أكثر عدداً وأزكى فهماً وأنشط في العمل ولكن يجب أن ندخل أولادنا مدارس الدولة ونرتقي بها، ولكنه مع هذا لم يساعد العرب ولا كف عنهم شيئاً من العدوان بل هو الذي سیر الحملات العسكرية إلى اليمن والكرك وحواران إطاعة للجمعية. على أن هذه الشدة هي التي كونت المسألة العربية الحاضرة.

وقد بلغنا من الأخبار الخاصة أنه كان في العهد الأخير عازماً على إجابة العرب إلى مطالبهم الإصلاحية وإن كان هو الذي أمر بتشديد حازم بك على طلاب الإصلاح في بيروت. وقد أشار طلعت بك في كلام له نشرته الجرائد إلى ميل شوكت باشا إلى إجابة العرب إلى ما يطلبون من الإصلاح المعقول. وبالجمله فإن للرجل - عفا الله عنه ورحمه - حسنات وسيئات وأموراً متناقضة والله أعلم بالسرائر.

## الإصلاح والاتفاق بين الاتحاديين والعرب



[المنار ج ١٦ (١٩١٣) ص ٦٣٤ - ٦٤٠]

قد عرف قراء المنار كافة أنه كان من مقاصد زعماء جمعية الاتحاد والترقي جعل الدولة العثمانية دولة تركية محضة تقلد فرنسا في سياستها وإدارتها، وكان من وسائل هذا المقصد العظيم عندهم إضعاف ما عدا الترك من الشعوب القوية التي تتألف منها هذه الدولة كالعرب والأرمن، وكان من مسارعتهن في هذا أن جيّشوا الجيوش اللّجبة على بلاد هذين الشعبين المخلصين لدولتهم، الراضين معها بسوء حالهم، وفعلوا الأفاعيل الشنعاء في اليمن والكرك وحواران وبلاط الأرمن. وعرف قراء المنار أيضاً أننا جاهدنا حق الجهاد بالقول والسعي لمقاومة هذه الأعمال الضارة، وصرحنا بأن تترك العناصر بالسلطة والقوة أو بغير ذلك لم يعد مما يدخل في حدود الإمكان، وإنه لو كان ممكناً لعذرنا الاتحاديين على محاولته سياسة لا ديناً، لأن الإسلام وهو دين الدولة الرسمي ودين جميع الترك فيها هو دين عربي كما قال الله عز وجل (١٣ : ٣٩) «وكذلك أنزلناه حكماً عربياً» [سورة الرعد رقم ١٣ الآية ٣٧. وليس الآية ٣٩ كما ذكر] وإن إضاعة العربية إضاعة له.

وقد عرف القراء أيضاً أن الدولة قد خسرت الملايين والدنانير والألوف الكثيرة من الجند في تلك السبيل وما كانت العاقبة إلا إضاعة الشعب الأرمني الباسل بإخراجه من حضن الدولة الإسلامية، وتنبية الشعب العربي الكريم إلى الخطر الذي ينذر وينذر الدولة سرعة الانحلال والزوال، من عالم السلطة والاستقلال، وزاد في يقظته حادث طرابلس الغرب،

فمثل للعالم كله شدة ارتباطه بهذه الدولة على إضاعة رجالها هذه المملكة العربية العظيمة بإخراج ما فيها من العسكر والسلاح وإرساله إلى القتال إخوانهم في اليمن ثم اشتدت اليقظة وعظم الخوف من الخطر بما كان من انكسار دولتهم في حرب البلقان، فعلم عقلاؤهم وأهل البصيرة منهم، أن استمرار السكوت والسكون يفضي إلى إضاعة بلادهم المباركة وبلادهم المقدسة، كما ضاعت طرابلس الغرب وألبانية ومكدونية، فهبوا لمطالبة الدولة بالإصلاح الذي تقوى به الأمة بقوة كل عنصر من عناصرها وشعب من شعوبها، على قاعدة اللامركزية الإدارية التي لا يرجى ذلك بدونها، وقد قرأوا البراهين الكثيرة في المنار على ذلك.

قد اتفق ما عدا الاتحاديين من أهل الرأي والبصيرة من العثمانيين على أن دولتهم لا يرجى صلاحها ولا بقاؤها إلا بالإدارة اللامركزية، وقد ظهرت الدعوة إلى ذلك من الترك قبل العرب، قد قويت هذه الدعوة وانتشرت في المملكة على عهد وزارة مختار باشا ووزارة كامل باشا الأخيرة، ولم يكد الاتحاديون يسقطون وزارة كامل باشا ويعودون إلى مقاعد الباب العالي حتى عادوا إلى شنشتهم الأولى في مقاومة كل حركة إصلاحية بالقوة القاهرة، وكان قد تأسس حزب اللامركزية في مصر وانتشرت دعوته في الولايات العربية، وتأسست جمعية بيروت الإصلاحية وتعارفت مع هذا الحزب، وقام على أثر ذلك نبهاء العرب الذين يشتغلون في فرنسا بطلب العلوم والفنون والتجارة يطلبون عقد مؤتمر عربي في باريس لبيان حقوق العرب في الدولة وطلب اللامركزية، وفوضوا أمر هذا المؤتمر إلى حزب اللامركزية بمصر، وظهرت حركة الإصلاح في العراق بصورة مخيفة، واتحد أهلها بحزب اللامركزية أيضاً. وامتد الشعور بهذه النهضة المباركة إلى ضباط العرب في الجيش المحارب وغير المحارب وخافت الحكومة أن يؤيدوها.

بدأت وزارة شوكت باشا، رحمه الله وعفا عنه، بالضغط على جمعية

بيروت الإصلاحية فأقفلت ناديا وحبست بعض أعضائها وهددتها بالحكم العرفي... فظهر لها والجمعية الاتحاد أن هذه الشدة ما زادت أهل بيروت وهم تحت ضغط الحكومة العرفية الا اتحاداً وإصراراً على ما قرروا طلبه من الإصلاح، وكذلك فعل الاتحاديون في البصرة، فأعقبتهم الشدة والتهديد كل حسرة، فماذا يمكن أن يقاوم به من هم في البلاد، الحرة كمصر وأوروبا وأمريكا؟ حاولت حكومة الباب العالي أن تمنع عقد المؤتمر في باريس بالرغبة إلى الحكومة الجمهورية في ذلك فلم تجب فرنسة طلبها هذا، فأوعزت الى أنصار السلطة في سورية من رجال المال والألقاب وبعض الكتاب أن يطعنوا برجال المؤتمر وطلاب الإصلاح، فلم يغن ذلك من شيء، على أنه قد قام به كثيرون من أغنياء سورية كعبد الرحمن بك اليوسف وفوزي باشا العظم، ومن كتابها كالأمير شكيب أرسلان والشيخ محمي الدين الخياط، ومن أصحاب الجرائد كطه أفندي المدور صاحب جريدة الرأي العام وعبد القادر أفندي المغربي صاحب جريدة البرهان. وكذا جريدة الشعب المصرية التي يحررها أحداث الحزب الوطني، وقد غلا هؤلاء كلهم في التشنيع على المصلحين، والقدح في اللامركزيين، وصوروا للناس أن ضياع المملكة واستيلاء الأجانب عليها إنما يكون بهذا الإصلاح الذي يطلبه المصلحون على قواعد اللامركزية الإدارية، وأن بقاء الدولة وغيرها إنما يكون بتسليم إدارتها إلى فئة الاتحاديين في الآستانة وما يعقده مندوبوهم من الاتفاق مع الدول على بيع أراضيها وامتيازاتها ومنافعها وسائر ما يقوي نفوذ الأجانب فيها!

بعد هذا كله ثابت الجمعية إلى رشدتها ورأت أن الخير لها وللدولة في إجابة المصلحين إلى إرضاء العرب - والعامل من استفاد من الحوادث واعتبر - وكان أعقل شرفاء مكة الشريف علي حيدر مراقباً لسير الحوادث وله عند الاتحاديين المكانة العالية، فلما رأى فرصة إصلاح البين سانحة سعى لها سعيها، وجمع بين طلعت بك الزعيم الأكبر للجمعية في الحكومة



وعبد الكريم أفندي قاسم الخليل رئيس المنتدى الأدبي لأجل ذلك، إذ لا يوجد عربي في الآستانة يعرف من حركة النهضة العربية الإصلاحية ما يعرفه عبد الكريم هذا، لأنه سافر في هذه السنة عدة مرات بين الآستانة ومصر وسورية وكان مندوب حزب اللامركزية إلى جمعية بيروت الإصلاحية وغيرها من أفراد وجماعات طلاب الإصلاح، وله بالجميع صلة لم تنقطع. فأوقف طلعت بك على مقاصد اللامركزيين وطلاب الإصلاح كافة. وعلى هذا الأساس وضعوا للإصلاح إحدى عشرة قاعدة عهد إلى عبد الكريم أفندي السعي لموافقة جميع طلاب الإصلاح عليها.

كتبت القواعد ووقع عليها طلعت بك بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي، وعبد الكريم أفندي عن جمعية الشبان العربية - وهي جمعية اجتماعية إصلاحية معظم أفرادها من المتعلمين في مدارس الحكومة - وكان هذا التوقيع تمهيداً لإقناع حزب اللامركزية وجمعية الإصلاح البيروتية بالاتفاق - وهما ممثلان في المؤتمر العربي بباريس - رجاء أن يقنع به سائر العرب بعد ذلك.

حل صورة الاتفاق عبد الكريم أفندي إلى باريس وأطلع عليه رئيس المؤتمر السيد عبد الحميد أفندي الزهراوي وغيره من الزعماء وبعد تنقيح وزيادة فيها صرحوا بأنهم يرضون أن ترسل جمعية الاتحاد والترقي إليهم وفداً من ثقات رجالها للمذاكرة للاتفاق عليه، فعاد إلى الآستانة وبلغ، فندبت الجمعية مدحت بك شكري والحاج عادل بك من ثقات رجالها ليكونوا وفداً إلى المؤتمر العربي بباريس، فلما أزمع الرحيل اعتلت صحة عادل بك فسافر مدحت شكري بك ومعه عبد الكريم أفندي رسول الوفاق والسلام، وبعد المذاكرة والمناقشة تم الاتفاق على القواعد الإثنى عشرة الآتية - على إبهامها - رجاء الاتفاق على التفصيل بعد، واقترح زيادة ١٣ قاعدة عليها لإرضاء وفد بيروت موضوعاً أن يكون نصف أعضاء المجلس العمومي في بيروت من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم، لأن

هذا أكبر ما أَرْضَى به مسلمو بيروت نصاراها وبنوا عليه أساس اتفاقهم المحمود، فوعد مدحت شكري بك بالسعي لإقناع جمعيته بها، وعلى مسائل أخرى سرية تتعلق بالأشخاص. وعاد إلى الآستانة على أن ينتظر مندوبو حزب اللامركزية وجمعية بيروت الإصلاحية في باريس تصديق الحكومة رسمياً على القسم الجهري من الاتفاق وطلبهم إلى الآستانة لأجل مباشرة التنفيذ. وفي أثناء ذلك كانت الرسائل البرقية والبريدية متصلة بين الحزب في مصر ومؤتمر باريس. وأرسل المؤتمر إلى الحزب صورة الاتفاق.

أبطأت الحكومة في التصديق على الاتفاق فساءت الظنون، ولما كانت أمثال هذه الأمور لا تخفى في جملتها وإن خفي بعض تفاصيلها، أذاعت شركة روتر برقية قالت فيها إن الحكومة وافقت العرب على ما يطلبون من الإصلاح رسمياً وسيعين الزهراوي «رئيس المؤتمر» شيخاً للإسلام، والشريف علي حيدر رئيساً لشورى الدولة، ففرحت القلوب وسارع رفيق بك الأعظم رئيس حزب اللامركزية إلى نشر مواد الاتفاق ظناً منه أنه لم يبق مانع من نشرها وقد قررتها حكومة الباب العالي رسمياً. وأرسل برقية شكر إلى الصدر الأعظم وعد فيها بأن سيرسل الحزب وفداً إلى الآستانة لأداء الشكر للحكومة فيها - ولكن تبين بعد ذلك أن كل هذا كان قبل أوانه، وأن برقية روتر كاذبة.

ساء الاتحاديين نشر صورة الاتفاق وحق لهم ذلك، وهاج عليهم أنصارهم الذين طعنوا في رجال المؤتمر وجميع طلاب الإصلاح لأجلهم، فلهذا السبب ولأسباب أخرى كذبت جريدة طنين ما نشر في الآستانة وغيرها من خبر الاتفاق، ونشرت جمعية الاتحاد بياناً من مركزها العام فيها عازمت عليه الحكومة من الإصلاح في الولايات العربية وغيرها وزعمت أنها عازمت على ذلك من تلقاء نفسها، أي لا إجابة لطلب أحد، وفي البلاغ تعريض بدم أناس مبهمين وصفوا بالفساد. فكان هذا وذاك سبباً

لإساءة الظن بالحكومة تبعاً لإساءة الظن بالجمعية، وسرى سوء الظن إلى عبد الكريم أفندي .

وقد كنا عازمين على أن لا نكتب في هذا الموضوع شيئاً إلا بعد القرار الرسمي من الحكومة والتعارف التام بين الطالبين والمطالبين، ولكننا اضطررنا إلى هذا عسى أن يكون بيان الحقائق، من أسباب التعارف الصحيح والاتفاق الثابت، فلنا أن نقول الآن ما نعلم وما نرى فيه المصلحة، لأننا لا نزال معارضين ونرى أن مطالبنا لم تقبل، ولولا ذلك لجعلنا مقدمة الكلام على الاتفاق مرضية ولم نشر فيها إلى الخطأ السابق، وللجمعية أن تقول ما تراه موافقاً لسياستها، وأن تكذب الاتفاق وتعرض بعدم المبالاة بطلاب الإصلاح. لا عبرة بالأقوال وإنما العبرة بالعمل والإخلاص، فمتى رأينا العمل الصالح من الحكومة، وشممنا منه رائحة الإخلاص، نتناسى الماضي لأن السياسة لا أضغان فيها، وطلاب الإصلاح لا يهتمهم إلا الإصلاح، وسنكف عن حملات المعارضة وإن كانت بحق، إلى أن ينجلي لنا الأمر، وهذا نص الاتفاق الأول باللغة التركية :

اتحاد وترقي مركز عموميسيله

الشبيبة العربية هيئتى

آره سنده منعقد

اتفاقنامه نك صورتيدر

ماده ١ - بتون بلاد عربية ده تحصيل ابتدائي واعدادي لسان عربيله وتدريس أولنه جفى كي تحصيل عالي ده كثريتك لسانيله أوله جقدر. وآنجق اعدادى مكتبلر نده لسان عثمانى تحصيلى مجبورى أوله جقدر.

ماده ٢ - بالجملة رؤساي مأمورين لغت عربية يه واقف أولملري شرط أولوب مأمورين سائره ولا يتجه تعيين أولنه جقدر، آنجق اراده سنيه ايله تعيين أولنه جق حكام ومأمورين عدليه مركزجه تعيين أولنه جقدر. ولاية مستثنا.

ماده ۳ - محلی جهات خیریه سنه صرفی مشروط اولان عقارات  
ومؤسسات وقفیه شرطلری وجهله جماعات محلیه مجالسنه ترك اولنه جقدر.

ماده ۴ - امور نافع اداره محلیه یه ترك اولنه جقدر.

ماده ۵ - افراد عسکریه زمان صلح وآسایشده خدمت عسکریه لرینی  
بلاد عربیه داخلنده ملاصق قول آوردو منطقه لری دائره وسنده ایفا ایده  
جکدر. وأنجق عسیر، حجاز، ین قطعه لرینه شمیدیلک سوقی ضروری  
اولان جنود همان بالعموم ممالک عثمانیه دن برنسبت داخلنده کوندریله  
جکدر.

ماده ۶ - ولایات مجالس عمومی سنک صلاحیت قانونیه لری داخلنده  
ویره جکلری مقررات هر حالده نافذ اوله جقدر.

ماده ۷ - قابینیه ده لا اقل اوج عرب بولنمس اساس اعتباریله قبول  
ایدیله جکی کی دوائر مرکزیه ده مستشار وبامعان صفتیلر عینی عدد ده  
عرب ذوات بولندیر یله جق ومأمورین انجمنلرینه شواری دولت دائره  
مشیخت وسائر دوائر مرکزیه مجالسنده ایکیشر اوچر اعضا بولندیر لمسی  
وهر نظارتده مختلف درجه لرده لا اقل دررت بش مأمورینک بولندیر لمسی  
اساس قبول اولنه جقدر.

ماده ۸ - حال حاضر ده لا اقل بش عرب والی واون متصرف بولندریله  
جق ودیکر رفقاسنه نسبتله وجه قانونیسی اوزره ترقی ایتدیر لماش  
مأمورین ملکیه وعدلیه وعلمیه مغدوریتلری رفع وازاله اولنه جقدر. وفیما  
بعد مأمورینک نصب وترفیع وتادیب وعزللری برقانون مخصوصله تعیین  
اولنه جقدر.

ماده ۹ - هرولایتدن لا اقل یکی عرب ذات اعیان اعضالغته تعیین  
اوله حق (ولایت قیدی قالقه جقدر.)

ماده ١٠ - هر ولايت شعبات اداره دن لزومي اولانلرينه اجنبي متخصص مفتشلىر تعيين اولنه جق واومفتشلىرك وظيفه وصلاحيلىرى كندىلرندن مطلوب ومنتظر اولان فوائده انضباطيه واصلاحيه بي متكفل برنظام مخصوصله تعيين اولنه جقدر

ماده ١١ - اداره سى ولايته ترك اولنان دوائرك بودجه سى حال حاضره اولان آجىقلىرىن قاپايه جق مقدار وارداتك ولايت بورجه سنه ضم وعلاوه سيله ومسقفات ويركوسنك بوزده اليسى امور معارفه صرف اولنمق او زره ترك وتخصيص اوله جقدر.

عبد الكريم الخليل طلعت

وهذه ترجمة ما صدق عليه المؤتمر وهي التي نشرها رفيق بك العظم رئيس الحزب في الجرائد:

### صورة الاتفاق<sup>(١)</sup>

١ - التعليم في جميع البلاد العربية يكون باللسان العربي في القسم الابتدائي والإعدادي ويكون بلسان الأكثرية في القسم العالي (في الأصل التركي: ولكن تحصيل اللسان العثماني في المكاتب الإعدادية إجباري).

٢ - يشترط أن يكون جميع رؤساء المأمورين ما عدا الولاة عارفين باللغة العربية أما من عداهم من المأمورين فيعينون في الولاية وإنما يعين في العاصمة القضاة ورؤساء العدلية (الحقانية) الذين ينصبون بإرادة سنية.

٣ - الأوقاف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية تترك إدارتها لمجالس الجماعات المحلية.

---

(١) المؤتمر العربي الأول، ص د-هـ.

٤ - تترك الأمور النافعة (الأشغال) للإدارة المحلية.

٥ - العسكر يخدمون في البلاد القريبة منهم (في الأصل التركي : في مناطق المعسكرات القريبة منهم) ولكن العسكر الذي يلزم إرساله إلى اليمن والحجاز أو عسير يرسل ضمن نسبة عادلة من جميع المملكة العثمانية .

٦ - مقررات المجالس العمومية تكون نافذة على كل حال (في الأصل التركي زيادة : فيما هو من صلاحيتها القانونية) .

٧ - يقبل مبدئياً أن يكون في هيئة الوزارة ثلاثة على الأقل من أولاد العرب ومثل ذلك يؤخذ منهم عدد بصفة مستشار أو معاون في النظارات ويؤخذ اثنان أو ثلاثة في كل مجلس من مجالس شورى الدولة ومحكمة التمييز ودائرة المشيخة وجميع الدوائر ويؤخذ أربعة أو خمسة على الأقل في مراكز أخرى مختلفة في كل نظارة .

٨ - يعين خمسة ولاية على الأقل من أبناء العرب وعشرة متصرفين وتزال مغدورية الذين لم يترقوا أسوة بأمثالهم من مأموري الملكية والعدلية والعلمية .

٩ - يعين في مجلس الأعيان عدد من أولاد العرب بنسبة اثنين من كل ولاية .

١٠ - يستخدم مفتشون اختصاصيون من الأجانب في الدوائر المقتضية في كل ولاية وتعين وظائفهم وصلاحيتهم بنظام مخصوص .

١١ - يعطى مقدار لسد عجز «ميزانية» الدوائر التي تترك إدارتها للولايات فيضاف هذا المقدار إلى ميزانية الولاية ويعطى غير ذلك نصف رسوم العقارات على ان يصرف للمعارف .

١٢ - يقبل مبدئياً أن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللسان العربي وينظر في أمر تنفيذه بالتدريج .

١٣ - توسع سلطة المجالس العمومية ويكون نصف المجلس العمومي في بيروت من المسلمين ونصفه من غير المسلمين .



الشيخ علي يوسف

١١٩

[المخارج ١٧ (١٩١٤) ص ٦٨ - ٧٤]

- ٣ -

فصل في بقية الكلام على سياسته المصرية

بيناً ان سياسة الشيخ في المؤيد كانت تدور في أول العهد على ثلاثة أقطاب :

١ - تأييد سلطة الأمير ونفوذه .

٢ - مقاومة نفوذ الاحتلال الإنكليزي .

٣ - الاعتماد في هذه المقاومة على نفوذ الدولة العثمانية وحقوقها الرسمية في مصر . وكذا على نفوذ فرنسة ومصالحها السياسية فيها ، وإنها بعد طول الاختبار وتغير الحوادث طرأ عليها بعض التغيير . ونزيد ذلك بياناً فنقول وان كررنا بعض المعاني :

انه بعد حادثة فشودة علم المترجم أن الاتكال أو الاعتماد على وعود أو عهود دولة أوروبية لا يكون الا دون الاتكال على المواعيد العرقية ، وانه بعد اختبار السياسة العثمانية بالغوص في أعماق الحوادث التي بينها وبين

أوربة، وبلقاء كبار رجالها في الآستانة ومصر وأوربة، علم انه لا يتكل عليها في شيء، وان الذي يبني عمله على الرجاء فيها فإنما يبني على شفا جرف، اذ لا يؤمن خذلانها له في كل عمل، فاكتفى من خدمة الدولة فيما يسمونه المسألة المصرية بالمحافظة على حقوقها الرسمية في مصر، وجعل فرماناتها الرسمية لأمرأ مصر ركن استقلالها الركين، الذي يصده به بعض ما يخشى من هجمات الاحتلال عليه. وأما فرنسة وسائر دول أوربة فقد علم كما يعلم كل خبير بصير انها دول تجارية تتجر بالأمم والشعوب والدول، وأنها لا تراعي في تجارتها حقاً ولا عدلاً، ولا رحمة ولا فضلاً، وانما رأس مالها القوة والحيلة والاثرة، فلا يقدر أن يستفيد منها، الا من جعل منفعته وسيلة الى منفعتها، وهيئات أن يتسنى للأدنى، أن يستخدم لمنافعه من هو أعلى منه قوة وعلماً. وما كل من تنفعه تقدر أن تستخدمه، وناهيك بدول أوربة ومعارضة بعضها لبعض في سياستها أو مطامعها في بلادنا، فاذا أراد بعضها أن ينفعنا قليلاً لينتفع منا كثيراً، عارضة في ذلك من يكره لنا هذه المنفعة ويراه عتبة في طريق مطامعه فينا

وكان الفقيد يعلم أيضاً ان شعوب أوربة خير من حكوماتها، وان فيهم كثيراً من الأحرار ومحبي الحق والخير لكل البشر، وان رأي الشعب العام له السلطان الأعلى على الحكومات، فلهذا كان يرى أخيراً أنه ينبغي أن يكون للمصريين صلة ببعض أهل الفضيلة من أحرار الانكليز لعلهم يستعينون بهم على مقاصدهم، وإيصال ما يشكون منه بحق من إنكليز مصر الى انكليز لندرة. حتى لا تكون الشؤون المصرية محجوبة عن محبي الإنصاف، لا يعرفون منها الا ما يكتبه عميد انكلترة في مصر الى ناظر الخارجية في لندرة وبعض مراسلي الجرائد. والعمل بهذا الرأي إما أن ينفع وإما أن لا يضر. ولكن عارضه فيه أحداث الوطنية في جريدة اللواء وما أحدثوه بعد مصطفى كامل من الجرائد كدأهم وعادتهم، وقد بينا وجه ذلك عندهم في هذه الترجمة.



ونقول ههنا إن السياسة في مصر لا مظهر لها الا الجرائد، وقد تألفت الأحزاب لأجل الجرائد ومديري سياسة الجرائد، ولم يستطع حزب من الأحزاب أن يجعل جريدة أكثر رواجاً وقبولاً من جريدة أخرى عند الرأي العام بمصر. وقد سبق القول بأن الجرائد العربية المؤثرة في الجمهور المصري كانت ثلاثة: الأهرام والمقطم والمؤيد، وأن التنازع إنما كان أولاً بين الأهرام والمقطم. ثم كانت الأهرام تشايح المؤيد بعد ظهوره لاتفاقه معها في الميل الى السياسة الفرنسية التي تعد الأهرام هي الركن الأول لها، ولأن مشايحته على المقطم كانت تعد من آيات صدق الخدمة الوطنية لمصر. ولما انقطع أمل المصريين من فرنسة صارت جريدة الأهرام في المرتبة الثانية بين الجرائد اليومية، بل كادت تموت من شدة ضعفها، لولا أن تذاكرها همة بشارة باشا تقلا القوة ومن ساعده على تحريرها من أذكاء الكتاب، وأعانه على ذلك ثقة جمهور التجار والزراع بأخبارها التجارية. بذلك انتعشت بعد أن سقطت، وارتفعت بعد أن انخفضت، وحفظت مكانتها بين الجرائد اليومية الكبرى، فان لم تعد رأساً في سياسة خاصة، فهي رأس في الثروة والمباحث العامة. ولا يضاهاها في هذين الأمرين إلا المقطم. فهما الآن في مقدمة الجرائد المصرية في الثروة، وسعة الأخبار العامة، والقدرة على التصرف في الكلام عن الشؤون المصرية. على أنهما لم تتألف لهما أحزاب، وإنما تلك كفاءة أصحابها ومحرريهما، والجمع بين حسن الإدارة، والبراعة في الكتابة.

وقد تألفت في مصر ثلاثة أحزاب سياسية حول ثلاث جرائد يومية، هن أكبر جرائد مسلمي هذا القطر وأوسعها انتشاراً - المؤيد واللواء والجريدة - ولم يكن لواحدة منه دخل يوازي دخل المقطم والأهرام إلا المؤيد، فقد كان أوسع منها انتشاراً وعلى مقربة منها في المال، ولو اتيح للمؤيد مدير مالي يسير بإدارته سيرة أصحاب تينك الجريدتين لكان أوسع

الجرائد ثروة، على أن الشيخ رحمه الله عاش به في سعة ورخاء، كما يعيش الأمراء والكبراء، حتى تورط في شراء الدور وأراضي البناء، في إبان إسراف الناس في التغالي بها، فركبته الديون وجاءت سنو العسرة المالية فأتت على جميع ما في يده، وكادت تذهب بالمؤيد نفسه، لولا أن تداركه بتأسيس شركة مساهمة له، فحالت دون موته، لا دون مرضه، فقد مرض المؤيد أمراضاً أشرفت به على الموت عدة مرار، وصارت حركة ظهوره كحركة المذبوح أو حركة الاستمرار، وهو لا يزال محتاجاً الى تجديد الحياة، وإنما يكون ذلك بحسن الإدارة والنظام، وجعل التحرير على الوجه الذي بيناه من قبل، وهو ما به يظل المؤيد صاحب التأثير الأول في كل ما يتعلق بمصالح المسلمين في مصر، - وكذا في غيرها - ثم بالمصالح المصرية والعثمانية. فإذا قصر المؤيد في هذا الامر الذي لم يكن لولاه أمراً ذا بال، يحكم عليه الرأي العام الإسلامي بالعدم والزوال، ويطلب بلسانه حاله جريدة تحل محله حتى ينهض بها من يؤهله الاستعداد، من الشركات أو الأفراد.

وجملة ما نريد الاعتبار به أن المؤيد قد جعله مشربه الإسلامي والمصري فوق جرائد القطر كلها، بل جعله حاجة طبيعية، من حاج البلاد المصرية للإسلامية، ولقي من المساعدة والاقبال ما لم يلق غيره، ومع هذا كله لم يستطع أن يكون في ثبات الأهرام والمقطم وفي مثل ثروتهما، ولا في المحافظة على إشعار الجماهير بحاجاتهم اليه، وبأنه لا بد لهم في الحوادث الطارئة من رأيه، وقد ألف صاحبه له حزباً سياسياً سماه (حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية) فلم يفده قوة تذكر، ولا رد عنه غارة تشن، وإنما كانت قوته المعنوية في هجومه ودفاعه سنان قلم الشيخ علي، وحسن استعماله لأسنة الأقلام التي كانت تساعد، ومنها ما كان أنفذ من سنانه في بعض الشؤون وأقتل. فلما مرض الشيخ مرض المؤيد، ولما مات خشي الناس أن يموت كما مات حزبه، ولكن الشركة المالية تداركت حياته

المادية، وعسى أن توفق لتدارك حياته المعنوية، فإن لم يتم هذا يفقد مسلمو مصر الانتفاع بقوتهم المعنوية، ولا يبقى لهم قائد منهم في حياتهم السياسية والادبية، ولا مدافع يؤثر صوته في مصالحهم الدينية، فالشعب جريدة أحداث جهال، والجريدة ليست إسلامية المشرب، والأهالي كذلك، على أنها ولدت سقطاً كما قال أحد الأدباء. فالجريدة الإسلامية المصرية هي المؤيد، فإذا مات يعسر وجود خلف له. وانني بهذه الحرية في النصيحة، ربما أثير على نفسي حقداً قديماً وعداوة جديدة، ولا أبالي ذلك في سبيل مصلحة المسلمين على أنني لست على ثقة من قبولها والله الموفق.

وأما اللواء فقد بينا أن منشئه تربى في مدرسة المؤيد السياسية، فكان تلميذاً له، الا أنه عقه وكفره، وكان يحسب أنه يبذه أو يكون ناسخاً له، لأنه يبالغ ويغلو في كل المقاصد التي صار المؤيد يسلك سبل الاعتدال فيها، كمدح السياسة الحميدية، وذم الحكومة المصرية، ومقاومة الاحتلال، بالذم والاحتجاج، وذلك ان الناس كانوا قد ألفوا بعض المبالغة من المؤيد، فإذا أرجعته عنها الحكمة والخبرة، يعد عوامهم وشبانهم ذلك من تغيير الخطأ، ومن دأب الأحداث والعوام، حب الإغراق والغلو في الكلام، وناهيك بما يتعلق منه بالسياسة والحكام. وقد بدّ اللواء المؤيد في المبالغة بهذه المقاصد، وانفرد دونه بدعوة مسلمي مصر الى تكوين رابطة جنسية وطنية، لكنها رابطة تنافي إزاء الإسلام ولا ترضي القبط وسائر طوائف النصرانية.

صادف اللواء من مساعدة الأستانة ومساعدة بعض أمراء مصر وأغنيائها ما لم تصادفه جريدة أخرى. حتى كان يبذل له الذهب بالألوف، وهو على هذا كله لم يتسع انتشاره إلا بعد سنين من إنشائه، ثم إنه غلب المؤيد على استمالة أكثر تلاميذ المدارس وكثير من العوام، وصار المؤيد باعتداله - على رضاء أكثر العوام عنه - جريدة الخواص.

لم يستطع اللواء ان يصل بكل ذلك الى أن يكون كجريدة الأهرام أو

المقظم في ثباتها وثروتها، وقد ألف صاحبه له الحزب الوطني الحديث<sup>(١)</sup> وألف شركة رأس مالها عشرون ألف جنيه لأجل إصدار لواء أو لوائين آخرين باللغتين الفرنسية والانكليزية. وإنما كانت هذه الشركة صورية لا غرض منها الا بذل ذلك المال لمصطفى كامل يتصرف فيه كما يشاء - كما يفهم من قانونها - وقد فعل. أضاع هذا المال كما أضاع ما سبقه من الاعانات مع كل غلة اللواء ومطبعته في السرف والمخيلة والمضاربات، وطفق ينشد في اللواء شركاء يشترون سهاماً أخرى من الشركة فلم يستجب لرقيته أحد، ولم يلبث مصطفى باشا كامل أن مرض وضاعف ثقل المرض عليه هم الدين والعوز، وفي أثناء مرضه ألف الحزب الوطني الحديث وكل ذلك لم يغن شيئاً. ومات (كما مات صاحب المؤيد بعده) مثقلاً بالديون، فقد تبين ان عليه عشرات الألوف من الجنيهات. وقد حجز الدائنون مطبعة اللواء، وبيع أثاث زعيم الوطنية في محل رجل رومي يبيع الأثاث بالمزاد، ثم مات اللواء بعد ان اضطر أصحابه الى استخدام بعض الكتاب من نصارى السوريين لتحريره وقد كان أعدى أعدائهم، وبعد ان انشق الحزب وأنشأ بسعي محمد بك فريد رئيسه جريدة لتكون لسان حاله سماها العلم (بالتحريك) ناط رياسة تحريرها بالشيخ عبد العزيز شاويش، فكانت دون اللواء وأحط منه في كل شيء الا الغلو والإسراف، في الكذب والإرجاف، والظعن في الشعوب والافراد. لذلك اضطرت الحكومة الى إلغائها بعد أن حوكم رئيس تحريرها (شاويش) غير مرة، وحكم عليه بالسجن وسجن.

في أثناء هذه الحوادث كان المتحمسون من رجال الحزب الوطني وآخرون ممن يودون استمالة محبي الرجل من التلاميذ يجمعون المال لنصب تمثال له، يخلدون به ذكره، ولوراعوا الآداب الإسلامية لحافظوا بهذا المال

(١) أول من ألف حزباً سياسياً بمصر باسم الحزب الوطني حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني، والحزب الذي كان يذكره مصطفى كامل في حال صحته لم يكن حزباً مكوناً بالفعل.

على جريدة اللواء، وانتقوا لها محررين من العقلاء الأدباء، فإن هذا هو الذي يحفظ ذكره كما حفظ الأهرام اسمي سليم تقلا وبشارة تقلا. فما من يوم الا ويقرأ الأهرام ألوف من الناس يرون هذين الاسمين ويتذكرون مؤسسي هذه الجريدة المرتقية. وفي مصر عدة تماثيل لا يخطر أصحابها لأحد على بال حتى عند رؤيتها ماثلة بالشوارع.

وأما (الجريدة) فالعبرة بها أعظم فقد أنشأها جماعة من سروات البلاد أصحاب الثروة والمكانة الاجتماعية، وحصلوا لها رأس مال عظيم، ووضعوا لها قبل إنشائها قانوناً من أدق القوانين، وأسسوا لها مطبعة من أرقى المطابع، وجعلوا ادارتها ومطبعتها في قصر من أحسن القصور، واختاروا لها مديراً من أذكى الكتاب وأعلمهم بالسياسة والقوانين واختار هو من المحررين من سبق لهم التمرن على الكتابة حتى في إدارة الأهرام وإدارة المقتطف والمقطم. وألف اولئك السروات المؤسسون لها حزباً سياسياً يكفلها سمّوه (حزب الأمة) فهي قد ولدت بالغة راشدة فلم تكن كالمؤيد واللواء طفلاً ينمو في إدارته رويداً رويداً - ولكنها على هذه المزايا لم تستطع ان تجد لها مقعداً ولا موقفاً من المكان الفسيح الذي وجده قبلها المؤيد أو اللواء من قلب الرأي العام المصري، ولم تستطع ان تنال من جيبه بعض ما ينال المقطم أو الأهرام، بل كانت تحتاج كل سنة الى إمداد اولئك السروات لها بمالهم، على أنها ليست في الحقيقة لسان حالهم، وسبب ذلك كله ان الروح الذي نفخ في هذه الجريدة لتحيا به ليس إسلامياً، وانما هو فلسفة خاصة لا تكاد تتجاوز دماغ مدير الجريدة وأدمغة بعض أصدقائه من المحامين وغيرهم (الذين هم حزب الجريدة المعنوي لا المالي) الا بتدرج بطيء جداً، ثم انه لا يرجي أن يعم، وليس من الحكمة ولا مما يبيح الاقتصاد ان يكون له جريدة توقف عليه في مثل هذه البلاد التي لم تستعد لأن تعيش فيها جريدة أو مجلة خاصة بشيء واحد مما تعمم الحاجة اليه كالاقتصاد والزراعة أو الأدب، دع الفلسفة بجملتها، دون مذاهب الأفراد فيها فقط.

وجملة القول ان الجريدة لا ترمي عن قوس عقيدة مسلمي مصر، ولا تصلح للتأثير بالرأي العام المصري ولا فيه، فهي لا تستطيع أن تخدمه كما يجب، ولا أن تستخدمه كما تحب، لأن روحها غير اسلامي، فلا هي لسان حال المسلمين، ولا لسان الذين أسست بأموالهم منهم، وهم لم يستمروا على الإنفاق عليها الا لما يشعرون به من الغضاضة عليهم اذا ألغوها وأبطلوها، ولا يرجى لها بهذا المشرب أن تبلغ شأو المقطم أو الأهرام من نفوس الناس ولا من الرواج والريح.

فظهر بما شرحناه ان الأحزاب في مصر لا عمل لها ولا تأثير الا بالجرائد، وان الجرائد بالرجال الذين يتولون سياستها وادارتها، وانه لم توجد بمصر جريدة للمسلمين حسنة الإدارة والنظام - اللهم الا الجريدة في الجملة أو في ضبط الأعمال المالية - وان جريدة المؤيد هي الجريدة الإسلامية السياسية التي أوجدتها الحوادث وكفاءة الشيخ على يوسف في مكانة من الرأي العام الاسلامي يعرفها له أهل الساسية في أوربة، ويعدون لها لسان حال مسلمي مصر وغير مصر أيضاً. وحذت جريدة اللواء حذوها، ولم تبلغ شأوها، لأن صاحب المؤيد كان في السياسة الإسلامية مستقلاً، وصاحب جريدة اللواء كان فيها مقلداً، وانما كان حظه منها بقدر ما اقتبس من سياسة المؤيد. وكل ما خالف فيه المؤيد كان خطأ في جملة، ان لم يكن خطأ في كل فروعه وجزئياته، ولكن الغيرة لا تكون الا بالمخالفة في بعض الشؤون، فصاحب المؤيد واللواء هما أوجدا المؤيد واللواء، وقد كان لسوء تصرفهما المالي دخل عظيم في اضعاف جريدتهما، حتى ماتت احدهما بعد موت صاحبهما بعد ما اشرفت على الموت المالي في عهده، ونحشى أن تموت الأخرى مثلها، ان لم يعن بها أهل الغيرة والبصيرة عناية يراعى فيها ما بيناه في هذا الترجمة مراراً.

فيجب على مسلمي مصر أن يتدبروا هذا النقص العظيم، وأن يتذكروا ان شعبهم المستعد للعلم والأدب والتربية السياسية والاقتصادية، هو الذي

جعل الأهرام والمقطم أغنى الجرائد في بلاده، لأن أصحابها عرفوا كيف يخاطبونه بحسب استعدادهم، وهو قد ساعد المؤيد واللواء ما لم يساعدهما، فيجب على من يخدمه أن يخاطبه بلسان استعداده. وأن يتذكروا ان (مصر) والوطن) الجريدتين القبطيتين، تليان في الثروة والثبات الأهرام والمقطم السوريتين. ولولا عصبيتهم القبطية لما كانتا دونهما تأثيراً في نفوس المسلمين. فمن النقص بل من العار على المسلمين أن لا يكون لهم جريدة أو جرائد مثل هذه أو أرقى منها في النظام والثروة، بله التأثير والحظوة.

ان لي أن أفاخر بكفاءة أصحاب المقطم والأهرام ومحريهما وبراعتهم، لأنهم من أبناء وطني الأول الذي هو وطن المولد والمنشأ وأود - والله - أن أفاخر بمثل عملهم من أبناء ديني ووطني الثاني الذي هو وطن العمل. ولا يسرني من مثل المقطم والأهرام في مصر الا ما ينفع المصريين، لأن أبناء وطني السوريين ليس لهم مصالح في مصر تنافي مصالح المصريين، فهم غير محتاجين الى جرائد خالصة لهم من دون المصريين، لأجل هذا يهمني أمر المؤيد، ويسرني أن يكون أرقى الجرائد المصرية تحريراً ونظاماً وإفادة واستفادة، لأن المسلم أجدر بمعرفة حاجة الجمهور المسلم وبياناتها والدفاع عنها، من مثله في علمه وبيانه من غير المسلمين، وأقدر على التأثير فيه بحمله على الخير أو صرفه عن الشر، وعلى التأثير به بجعله مجناً يدفع به عنه ما يراه ضاراً به. وقد رأيت غير واحد من المشتغلين بالعلم والسياسة من النصارى يتمنون لو ولدوا مسلمين، لأجل أن يكونوا أقدر على خدمة وطنهم أو الشرق الإسلامي كله.

وما أطلت الكلام على الجرائد في ترجمة الشيخ علي يوسف الا لأذكر إخواني مسلمي مصر بما أراهم غافلين عنه، وهو أنه لم توجد لهم جريدة تصح ان تكون لسان حالهم بحق الا المؤيد، وان الروح الذي كان به المؤيد هو المؤيد يجب ان يبقى له، ويجب ان يكفل، وان يكون لهيئة التحرير فيه مع الرئيس الكفو، مراقب موثوق به، مثل سعد باشا زغلول

الذي كان ركناً من أركان تأسيس المؤيد. وإلا خسر مسلمو مصر خسارة يصعب عليهم الاستعاضة عنها في سنة أو سنين قليلة، وربما حرموها لأجيال طويلة، وقد ذكرناهم بما يوجب العبرة من تاريخ أعظم جرائدهم.

هذا وإن أية جريدة من جرائد المسلمين في مصر يتولى رئاسة تحريرها كاتب خبير بمصالح المسلمين غيور عليها، قادر على الدفاع عنها، يمكن أن تحل محل المؤيد الأول وأن تكون أكمل من فيه وأثبت، ولكن لا يكون ذلك إلا بعد ثقة الجمهور المسلم بها، وهذه الثقة إذا استعادها المؤيد في سنة واحدة، لا تنالها جريدة جديدة إلا بعد سنين كثيرة أو قليلة، ومن ذا الذي ينفق على جريدة جديدة عدة سنين، منتظراً طروء الحوادث التي تقنع الرأي العام بأنها هي حاجته التي يطلبها لسان حاله واستعداده؟



## الإصلاح اللامركزي وطلابه



١٢٠

### في البلاد العربية

[المنار ج ١٧ (١٩١٤) ص ٢٣٤ - ٢٣٩]

تألف حزب اللامركزية بمصر لمطالبة الدولة بتغيير شكل إدارتها في المملكة كلها - وإن كان جميع مؤسسيه من العرب السوريين - لأنهم يريدون الحياة للدولة كلها لا لبلادهم فقط، ولو طلبوا الإدارة اللامركزية لبلادهم وحدها لما كان ذلك أنفع لهم ولا أرجى لقبول طلبهم، إذ رضاء الدولة بجعل إدارة بعض ولاياتها مركزية وبعضها غير مركزية بعيد عن العقل والتصور. وتألفت في أثناء ذلك الجمعية الإصلاحية ببيروت لطلب إصلاح معين لولاية بيروت خاصة. وتلتها جمعية في البصرة لطلب الإصلاح لولاية



البصرة خاصة. وما حفز العرب في هذه المواضع وأهاب بهم إلى طلب الإصلاح والدولة تثن من أثقال الحرب البلقانية التي غلبت فيها على أمرها، إلا لخوفهم أن يكون بقاء الخلل السابق سبباً لانحلال الدولة وتقسيم الدول لها بالفتح السلمي الاقتصادي أو الاحتلال العسكري.

ولما رفعت هذه الجماعات أصواتها بطلب الإصلاح رددت صدها جماعات المهاجرين السوريين في أمريكة الشمالية والجنوبية وفي أوربة، واقترح بعض من في باريس منهم تأليف مؤتمر عربي بباريس لإعلان مقاومة كل احتلال أجنبي في البلاد وللبحث في حقوق العرب في الدولة العثمانية والمطالبة بها. وعهدوا إلى حزب اللامركزية إدارة هذا المؤتمر، فاختار الحزب للقيام بذلك كلا من السيد عبد الحميد الزهراوي واسكندر بك عمون ورشح الأول لرئاسة المؤتمر على أن يكون بانتخاب أعضاء المؤتمر، وكذلك كان. وكان من أمر انعقاد المؤتمر ونجاحه واهتمام حكومة الآستانة به ما هو مشهور.

شعر أركان الحكومة الاتحادية بوجود العرب وعنوا بمبادلة الاحتفالات بينهم وبين من في الآستانة من العرب وأكثرهم طلبة المدارس الأميرية. وسعوا لاستقدام الوفود من سورية، واحتفلوا واحتفوا بمن ذهب منهم إلى الآستانة، وأدبوا لهم المآدب، وأحبوا التأليف بين طلاب الإصلاح ومن عارضهم وشنع عليهم تزلفاً للحكومة، ولكن لم يتم لهم هذا. وكانت هذه المظاهرات التي اهتم بها أهل الآستانة تذكر بالسخرية في غيرها، ويعدها العرب في مصر وسورية والعراق وفي البلاد الأجنبية خداعاً وتحديراً.

وأما الأمر الذي كان محل النظر، وموضع الأمل عند بعض العرب، فهو الاتفاق الذي عقده جمعية الاتحاد والترقي مع رئيس المؤتمر العربي، وأعطته العهد والميثاق لتنفيذه كله. وهو مؤلف من اثنتي عشرة مادة. ولهذا مكث رئيس المؤتمر بضعة أشهر في باريس ينتظر تنفيذه، وكانت الآستانة تجذبه إليها وحزب اللامركزية يجذبه عنها، حتى اختار الحزب أخيراً أن

يعود إلى مصر، وأن يمر بالآستانة مختبراً إذا شاء. فشاء وجاء الآستانة، وراجع رجال الحكومة في أمر تنفيذ الإصلاح الموعود به، فقالوا إننا على عهدنا، وقد بدأنا من التنفيذ بإنشاء مدرستين سلطانيتين باللغة العربية إحداهما في دمشق والأخرى في بيروت، وبتقرير جعل عسكر كل ولاية في منطقتها العسكرية، وبجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم ودواوين الولايات العربية، وباختيار الموظفين لهذه الولايات من العارفين باللغة العربية. وأما ما يتعلق بالنافعة والأوقاف والمعارف فهو يتوقف على وضع القوانين له ونحن شارعون في ذلك بتنقيح قانون الولايات ووضع قوانين أخرى، ثم إن تنفيذ بعض ذلك يتوقف على وجود المال ولا مال الآن. وأما المناصب والوظائف في مجلس الأعيان ومصالح الحكومة العليا فهلم ساعدنا على اختيار الأكفاء لها لنعينهم بالتدريج.

هذا ملخص ما نتذكره من معنى أجوبة الحكومة للسيد الزهراوي بعد مراجعات متعددة، ووعود مبهمة، كان فيها بين اليأس والرجاء مدة طويلة، حتى عزم على مغادرة الآستانة. ثم شرعت الحكومة في تنفيذ ما لا يتوقف على القوانين ولا المال من المطالب بالمشاورة معه، ومنها تعيين ستة أعضاء من العرب في مجلس الأعيان أحدهم السيد الزهراوي نفسه، إذ اقتضت الحال أن يكون في الآستانة مراقباً لتنفيذ سائر ما وعدت به الحكومة من الإصلاح، ومنها تعيين الشيخ إسماعيل الحافظ من علماء طرابلس الشام عضواً في مجلس المعارف الأعلى، وهو في الذروة العليا من نابغي العرب علماً وعملاً وأخلاقاً ورأياً واستقامة. ومنها تعيين عبد الوهاب أفندي الإنكليزي (لقباً لا نسباً) وشكري أفندي العسلي مفتشين في بعض الولايات، ومنها تعيين اناس آخرين في «الدوائر» العالية في العاصمة.

وكان رجال الآستانة قبل هذا قد أرضوا بعض رجال جمعية بيروت الإصلاحية بالوعود الجميلة فسكنت حركتها بالتدريج، واستمالوا السيد

طالب بك النقيب زعيم البصرة، فأعلن في الجرائد الرضاء عن الحكومة والاتفاق معها وتبرع للأسطول العثماني وجمع له مائلاً كثيراً.

ثم إن حزب اللامركزية رأى من الصواب أن يحفظ صلته بالسيد الزهراوي كما حفظ هو صلته بالحزب بعد قيامه بما عهد إليه خير قيام. حتى أنه لم يحلّ ولم يرحل، ولم يحلّ ولم يعقد، إلا باستشارة الحزب، ولأن زعماء الحزب يثقون كل الثقة بصدقه في القول وبإخلاصه في العمل لمصلحة الأمة، فهو بهذا خير من يوقفهم على أعمال حكومة العاصمة فيكونون على بصيرة منها، فلا يبنون عملهم وسعيهم على الظنون والأوهام، فقرر الحزب باتفاق الآراء إقرار السيد الزهراوي على قبول منصب الأعيان والثقة به، أي في التوسط لدى الحكومة بمطالب الإصلاح. فعل الحزب هذا وهو غير موقن ولا مرجح لإنجاز الحكومة ما وعدت به السيد الزهراوي، كما إنه غير موقن بأنها لا تنجزها، فكانت الحكمة في عدم قطع الصلة بالحكومة، ومطالبتها بالبرهان والحجة، على كون الحزب لا يألو جهداً في السعي إلى الإصلاح من طريق الأمة، فهو يسلك الطريقين إلى مقصده، فإذا لم يصل من أحدهما وصل من الآخر.

اتفق أن الحزب لم ينشر شيئاً جديداً بعد بيانه العام الذي نشره يوم المظاهرة البرقية السلمية، بطلب البلاد كلها للإدارة اللامركزية، لأنه لم يتجدد شيء جديد يدعو إلى النشر، فظن البعداء عن مركز الحزب والذين ليس لهم صلة مكاتبة به، أن الحزب قد سكن وسكت أو انحلّ كجمعية بيروت وجمعية البصرة. وأنه رضي من الحكومة بما قالت وما فعلت، وطفقت الجرائد العربية في أمريكة تطعن في الحزب وفي طلاب الإصلاح كافة، وزعماء بيروت منهم خاصة.

\*\*\*

يدخل الكلام بهذا الموضوع في أربع مسائل: الجماعات الإصلاحية،



ومرادده أن تستولى الدول الأوروبية عليها ولا يرضيه ما دون هذا ومنهم من لا يسهل معرفة قصده ولا حقيقة مراده . فأما المخلصون في طلب الإصلاح فلا يلبثون أن يرجعوا عن إنكارهم ، وغير المخلصين لا علاج لهم .

وأغرب ما رأى الحزب من المعارضة والمقاومة وأبعده عن المعقول ما كان من أحد كتاب نصارى السوريين الذين انضموا للحزب . فقد حضر كثيراً من جلسات اللجنة العليا بطريق الاستثناء ، كان يلقي فيها دلوه بين الدلاء ، فينفرد بالمعارضة ، ويلح بطلب هذا الرأي وضرر هذه القسمة ، وكونها تكون مثار النزاع والتخاصم والعداوة والبغضاء ، ويجزم أهل العلم والرأي من النصاري بأن ضرر هذه القسمة عليهم أشد ، وأن السكوت عن كل ما يتعلق بالدين والمذاهب خير لهم وأنفع . ولكن هذا الكاتب الذي كان ينكر ذكر الدين في أمور السياسة وشؤون الدنيا بث فكره هذا بما نشره في بعض جرائد مصر وأمريكة ، ونفر نصارى المهاجرين في أمريكة من الحزب ، ونهاهم عن مساعدته باسم المسيحية وحقوق المسيحيين وهضم المسلمين لها ، حتى إنه كتب في جريدة الهدى الأمريكية التي تعنى بنشر ما يكتبه ان صاحب المنار أنكر على مسلمي بيروت اتفاقهم مع نصاراها على جعل نصف أعضاء المجالس المحلية من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم . وهي دعوى غير صحيحة ، فإن المنار أنكر من لائحة جمعية بيروت الإصلاحية أكثر ما أعطته للمفتشين والمراقبين من الأجانب ولم ينكر مسألة المناصفة في المجالس بل عدها دليلاً على إخلاص المسلمين وصدقهم الاتفاق مع النصارى لأنهم تنازلوا لهم عن بعض حقوقهم .

وأما الانتقاد والطعن الذي صوب إليهم فهو أن الترك أرضوهم ببعض المناصب والوظائف ، فظهر أن طلب الإصلاح كان شبكة لصيد المنافع ، ويحتجون على هذا بأن المؤتمر العربي قد قرر أن لا يقبل أحد من المتتمين إلى لجان الإصلاح العربية أي منصب في الحكومة العثمانية إذا لم تنفذ

القرارات التي صادق عليها - إلا بموافقة خاصة من الجمعيات المتمين إليها. وخص بأشد الانتقاد السيد الزهراوي وعميدي المسلمين والنصارى في جمعية بيروت الإصلاحية - محمد أفندي بيهم ونخله بك سرسق إذ قبلوا أن يكونوا أعضاء في مجلس الأعيان، قبل تنفيذ الإصلاح في البلاد العربية.

ولهؤلاء الثلاثة أجوبة يردون بها تلك المطاعن:

أحدها - إن الحكومة قد شرعت في تنفيذ الإصلاح ولا يعقل أن لا يقبل العرب طلاب الإصلاح منصباً ولا عملاً فيها إلا بعد تنفيذ الإصلاح كله بأيدي الترك ومقاومي الإصلاح من العرب، كأننا نقول: إننا بعد أن يصلح لنا هؤلاء بلادنا نقبل المناصب والوظائف فيها!

الثاني - إن عضوية الأعيان لا تعد وظيفة أو منصباً في الحكومة، لأن عمل الأعيان كعمل المبعوثين (النواب): وضع القوانين ومراقبة الحكومة في تنفيذها، فهو سيطرة على الحكومة لا خدمة لها.

الثالث - إن اللجان الإصلاحية التي ننتمي إليها قد وافقت على أن نكون في مجلس الأعيان. وأما الذين قبلوا المناصب في غير مجلس الأعيان فيمكن لمن كان منتبهاً إلى بعض لجان الإصلاح أن يجيب بالجواب الأول. وهو جواب ضعيف إذا لم يعززه الثالث.

سواء على حزب اللامركزية اقتنع المنتقدون والطاعنون بهذه الأجوبة أم لم يقتنعوا، فإن لجنة الحزب العليا لم تدخل في باب المناصب والوظائف، وقد دعي رئيسه، رفيق بك العظم، إلى الأستانة مراراً قبل ذهاب الزهراوي إليها وبعده - وكان ولا يزال مرشحاً لمنصب الوزارة - فلم يجب الدعوة، والسيد الزهراوي - وإن حضر تأسيس الحزب - لم يجب أن يدخل في لجنته الإدارية ولا في الانتخاب لها، لأنه جاء مصر زائراً لا مقيماً. ولكن مكانته العليا من نفوس لجنة الحزب العليا ومن سائر طلاب الإصلاح في

سورية وغيرها هي التي حملت اللجنة على اختياره للمؤتمر، ثم إن حسن سلوكه في المؤتمر، وثباته بعد إتمام عمله فيه على السعي إلى الإصلاح مع الارتباط بالحزب وتقيده بقراراته، وانقطاعه عن كل عمل لأجله، على كونه ينفق من مال نفسه - وناهيك بسعة النفقات في أوربة - كل ذلك كان من الأسباب الجديدة لرضاء الحزب بقبوله لمنصب عضوية الأعيان والتوسط لدى الحكومة في الإصلاح، وأما السبب الأول فهو كفاءته الشخصية في صدقه وإخلاصه وتاريخه الحميد النقي، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

\*\*\*

بقيت المسألة الرابعة، وهي بيان حالة الحزب الحاضرة. والقول الوجيز فيها أن الحزب - وإن لم يسمع له صوت عال من عدة أشهر - قد أصبح أقوى مما كان، منذ أسس إلى الآن، فقد كثرت فروعه في الولايات وانتظمت، وقويت الثقة به وثبتت، وانحصرت آمال طلاب الإصلاح فيه أو كربت، ويصح أن يقال إن طوره الأول كان طور تمهيد للعمل بإعداد الأفكار، ثم بتأليف اللجان، وقد انتهى الآن بطور القيام بالأعمال، وأن قيامه بالعمل، واضطلاعه بالسعي، هو خير خدمة للدولة قبل الأمة، لما أثبتته الماضي لرجاله من الروية وحسن النية، فكانت المصلحة في أن يدير هو الحركة، لئلا تفضي إلى الفوضى، أو يتغلب عليها الغلاة المتطرفون، الذين ظهرت في مدة سكوته أصواتهم بنغمة الثورة، وتوزيع منشورات أقلقوا الحكومة وعقلاء الأمة. ويقال إنه يريد أن يبدأ عمله بجمع مؤتمره السنوي وتجديد انتخاب أعضاء اللجنة العليا، وعرض المشروعات الجديدة للعمل عليها، ومنها تحويله إلى جمعية، إذ لم تصدق عليه الحكومة. فقد اقترح هذا كثيرون. وعسى أن تكفيه الحكومة هذا الأمر، فتبادر إلى الإصلاح من تلقاء نفسها والله الموفق.

[المنار ج ١٧ (٢٩٢٤) ص ٣٠٦]  
من كتاب «تاريخ الحرب البلقانية للبستاني»

### رأي العالم الاسلامي الكبير

السيد رشيد رضا  
منشئ مجلة المنار

الدولة كائن حي، يُحفظ وجودها بالسنة التي تحفظ بها حياة سائر الأحياء، وهي سلامة مزاجها في نفسها ووقايتها مما يعدو عليه من الخارج. فأما سلامة مزاج دولتنا العثمانية في نفسه فإنما يكون بإقامة الشرع العادل في القضية، والمساواة في الحقوق بين الرعية، وبناء إدارة المملكة على أساس اللامركزية، وجعل السلطة العليا شق الأبلمة بين العنصرين الكبيرين فيها - العرب والترك - بحيث يكونان منها كالعنصرين اللذين يتكون منهما الماء أو الهواء. وأما وقايتها مما يعدو عليها من الخارج فهو الآن منوط بدول أوربة الكبرى فهن أصحاب المطامع فيها ومطامعهن متعارضة. وما دامت كذلك كانت الدولة آمنة على نفسها من اقتسامهن إياها بالقوة، فيجب أن تتقي استيلاءهن على البلاد بقوة المال والسياسة، أي بالفتح السلمي، وأن تقوي مزاج الأمة بالمال والعلم واعدادها للدفاع عن نفسها. فإذا هي فرطت في مرافقها وأملاكها فباعتها للأوربيين، وبقيت على تبذيرها، وتوهمها انها تستطيع ان تحمي نفسها منهن بقوتي الدولة البرية والبحرية الرسميتين، ولم تجعل كل اعتمادها على الأمة، فالخطر عليها من الفتح السلمي، أقرب وأقوى من خطر الفتح الحربي.



[المنار ج ١٧ (١٩١٤) ص ٣١٩ - ٣٢٠]

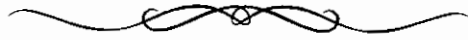
ما تبددت ثروة شريف باشا الكبير في مصر إلا وكان بددها مكوناً لثروات جديدة لم تكن، ومدداً لثروات أخرى ومزیداً فيها. ذهبت تلك الثروة الكبيرة ممن عجزوا عن حفظها بله تنميتها، إلى أيدي القادرين على ذلك. وكذلك تتبدد الدول فتتألف من الكبيرة منها دول متعددة، وتنمي وتتسع دول أخرى - سنة الله في تغذي الأحياء بفرائسها، من أفراد الجنة «الميكروبات» والهوام، إلى جماعات البشر أرقى أنواع الحيوان.

ومن عجائب العبر، في تفاوت همم البشر، أن ترى كاتباً صغيراً في خدمة غني كبير يطمع أن يرث ثروته أو ينشئ لنفسه مثلها، وذلك الغني يائس من حفظ ثروته واستبقائها. وإن تعجب من تكون ممالك البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود والألبان من أملاك الدولة العثمانية في أوربة، وتغذي الدول الكبرى بأملاكها في أفريقية وفتح أفواههن لابتلاع أملاكها في آسية. فأعجب من ذلك كله تصدي جمعية من يهود أوربة لتكوين دولة جديدة في البلاد المقدسة من هذه المملكة تتألف من مهاجرة فقراء اليهود الممزقين في جميع أطراف الأرض بمساعدة هذه الجمعية؟ فكيف تسمو هممة جمعية أسسها رجل من اليهود إلى تكوين دولة من أوزاع المهاجرين الفقراء في بلاد تتنازع على شبر الأرض فيها أقوى الأمم والدول، وتسفل هممة أصحاب هذه البلاد عن حفظها لأنفسهم، دع سمو الهممة إلى تأسيس ملك جديد، في قطر قريب أو بعيد. وهكذا تموت الناس وتحيا، وهكذا تردى وترقى، وأسباب ذلك ظاهرة لا محل هنا لشرحها،

وكلها تدور حول العلم أو الجهل ، وعلو الهمة أو وطوؤها ، وكبر المقاصد وصغرها . «والعلم ما يعرفك من أنت ممن معك» .

علم الصهيونيون أن الدول الكبرى لا يسمحن لواحدة منهن بامتلاك مهبط الوحي ومصدر الدين الموسوي والعيسوي وأنه إذا زال ملك الترك من بلاد فلسطين فلا بد أن تكون مستقلة تحت حماية جميع الدول . «وهذا رأي بعضهم في الحجاز أيضاً» . فطمعوا في إرضاء الدول بأن تحل اشكال التنازع بين الدول والمذاهب المسيحية بأن يكون اليهود هم أصحاب الملك في هذه المملكة ، بل طمعوا أيضاً في إرضاء جمعية الاتحاد والترقي بذلك ، بل يقال أنهم اقنعوها به فهي تساعدهم على التمهيد له لتقطع الطريق على العرب وتكثر خصومهم في بلادهم ، ولا محل هنا للبحث في اثبات هذا القول أو نفيه ، وإنما جئنا بهذه المقدمة كلها لأجل تذكير الذين أكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتّاب العرب بأنهم ما فتئوا يدورون حولها ولما يدخلوا فيها .

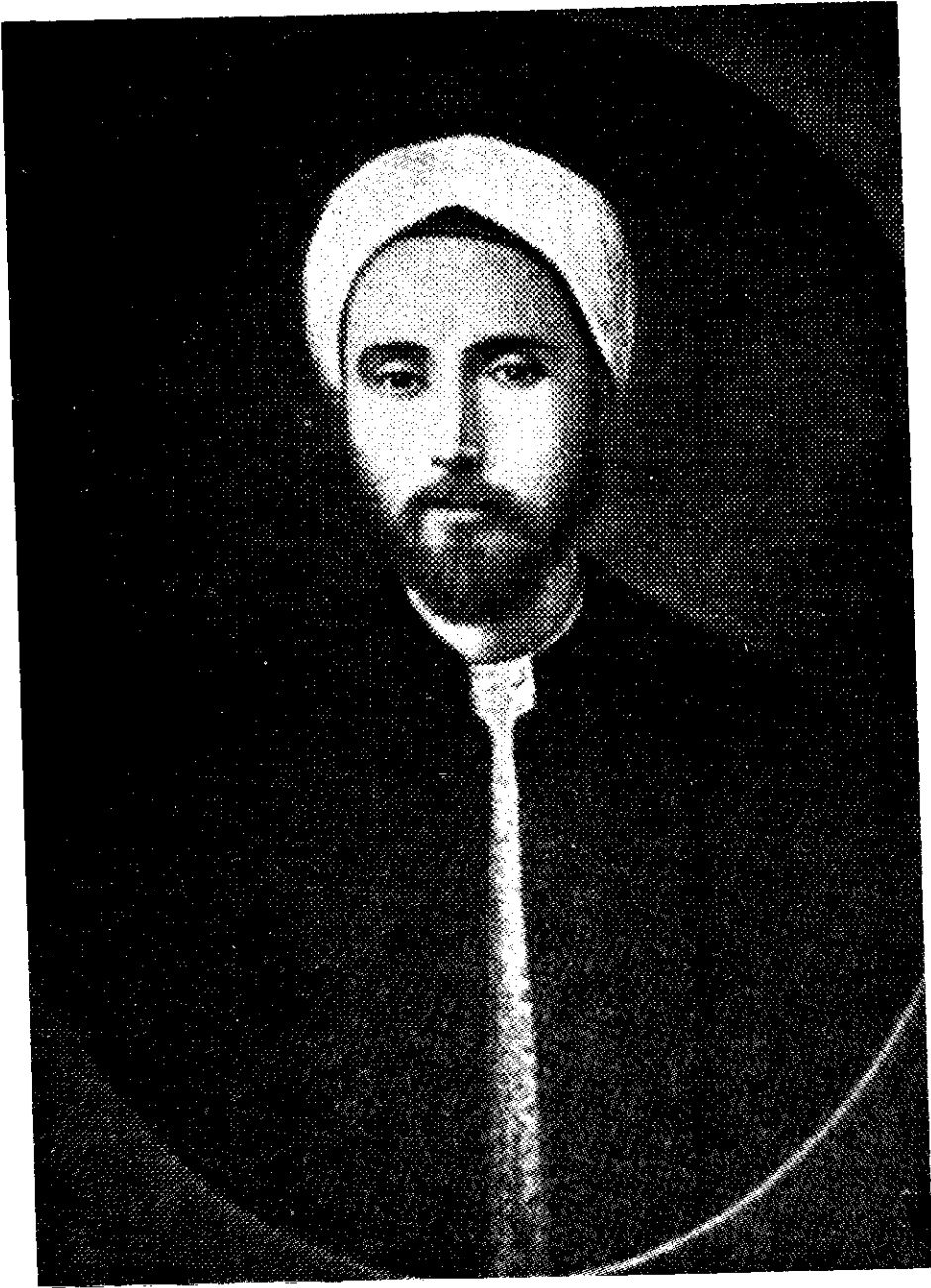
يجب على زعماء العرب أهل البلاد أحد أمرين : إما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد إن أمكن - وهو ممكن قريب إذا دخلوا عليه من بابه ، وطلبوه بأسبابه - وإما جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة ، وأولها تأليف الجمعيات والشركات ، وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة - وهو ما تحدث به بعضهم على ان يكون أول ما يعمل ، وإنما هو الكي - والكي آخر العلاج كما يقال .







أركان الحرية



الحاج حسين بيهم



الشيخ إبراهيم الأحذب

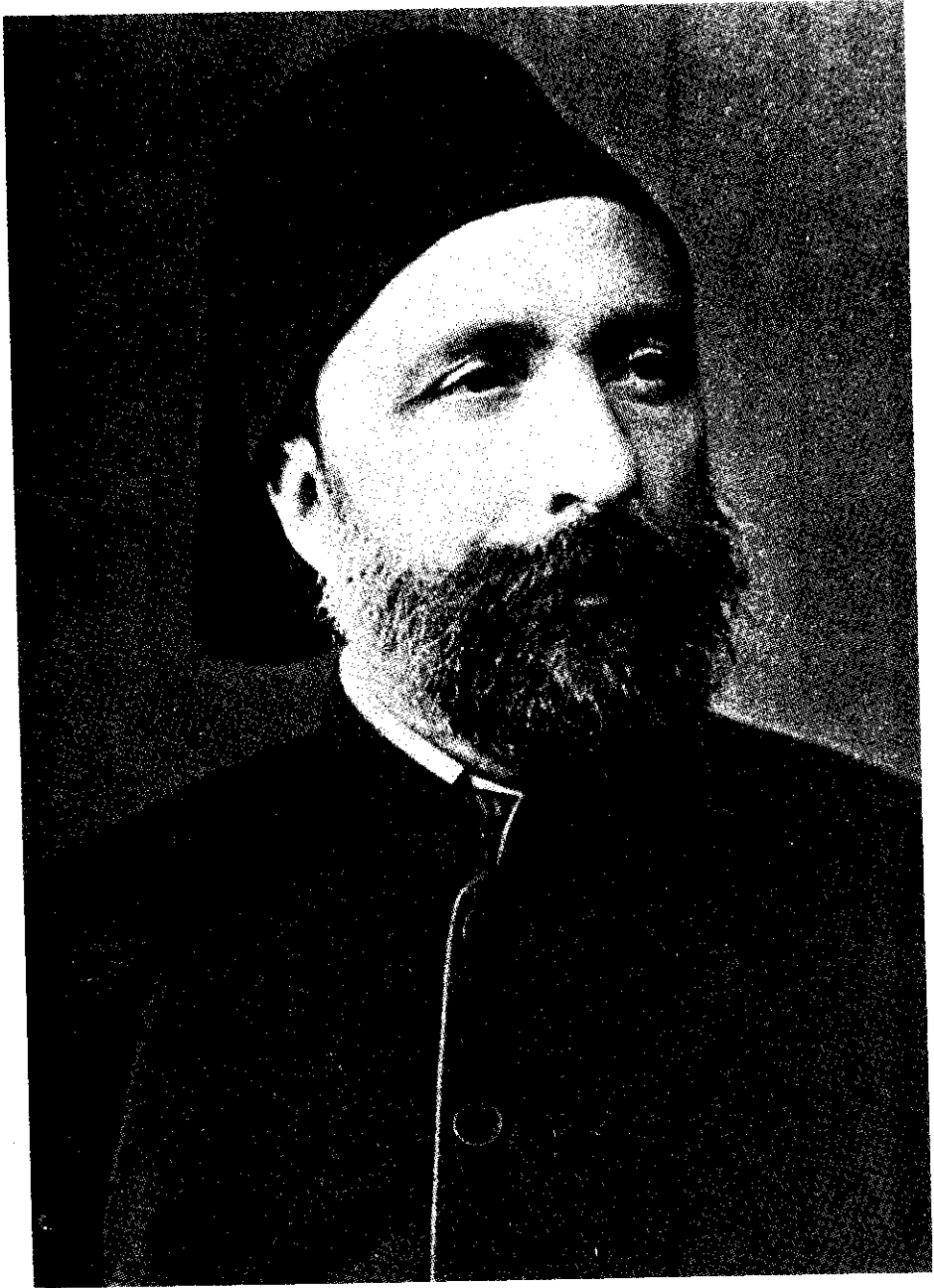


الشيخ احمد عباس الأزهري



الشيخ علي يوسف





مدحت باشا



أحمد عرابي باشا



الشيخ عبد الحميد الزهراوي



ولي الدين يكن



الحاج أمين الحسيني



الأمير شكيب أرسلان



سلطان باشا الأطرش



حقي العظم





أحمد رضا



عزت باشا العابد



